

أعمال الندوة الدولية

ظاهرة الإسلاموفوبيا وسبُل التعامُل معها

جمع وتنسيق

الدكتور حسن عزوزي

(رئيس مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام / فاس)

منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . إيسيسكو . 1436هـ/2015 م

رقم الإيداع القانوني: 2014.MO 2057

ردمك: 978-9981-26-599-8

التصفيف والتوضيب والسحب في الإيسيسكو
ـ الرباط ـ المملكة المغربية

الطبعة الأولى 2015

الأفكار الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الإيسيسكو


بسم الله الرحمن الرحيم

تم اعتماد روايتي ورش عن نافع، وحفص عن عاصم في ثبت الآيات القرآنية

تقديم

لقد تم الإعلان في الأوساط الغربية المتعصبة بعد انهيار الشيوعية أن العدو القادم للغرب هو الإسلام وتم الإعداد المعنوي والمادي لهذا الغرض، ووضعت الاستراتيجيات ليكون الرد في شكل نظريات ثقافية، وحروب عسكرية، ومعارك إعلامية تشترك فيها وسائل الاتصال والإشهار أو التشهير والسينما والفن بصفة عامة، بل وصل الأمر إلى التأثير في الأطفال والكبارعن طريق الرسوم المتحركة والرسوم الساخرة.

ولقد استهدف الإسلام على الأخص في قضايا المرأة، والحرية الشخصية، والإرهاب، وتمَّ التركيز على الإرهاب في الآونة الأخيرة لتنشأ عنه ظاهرة الخوف من الإسلام المعروفة بالإسلاموفوبيا، وليكون المسلم شبحاً مرعباً تتقيه الدول فتبعده لأيِّ مخالفة، وتشهِّر بأخطائه بخلاف سائر أصحاب الملل والديانات، بالرغم من أن ظاهرة العداء للإثنيات العرقية والدينية في الغرب نشأت عامة أواخر القرن الماضي، لكنها بعد الحادي عشر من سبتمبر تركَّزت في العداء الديني ضد المسلمين ضمن الاستراتيجية العامة التي قد تكون وراء الكثير من الأعمال المتطرفة المنسوبة للمسلمين.

لقد تحول هذا التخويف الممنهج من الإسلام إلى خوف مرضي لم يسلم منه حتى رجل الشارع البعيد عن السياسة، وبلغ الحد إلى منع بعض المسلمين من إيجار منازل لسكناهم في بعض البلاد الغربية بسبب دينهم، وانعكست الإساءة إلى الإسلام في تصريحات السياسيين الذين تقتضي الديبلوماسية منهم الترفع عن المساس بالشعوب الأخرى، فصار المساس بالمسلمين جزءاً من برنامجهم الانتخابي، وبدا ذلك في تصريحاتٍ لاذعة من رجال سياسة ورجال دين، وإن عدَّها بعضهم زلة لسان، وهي في الواقع كامنة في النفوس ومعبرة عن أثر تغلغل ظاهرة الإسلاموفوبيا في المجتمعات الغربية.

أمام هذه الظاهرة الخطيرة التي يراد منها تحجيم حركة المسلمين في العالم حتى لا يكون لهم تأثير في المجتمعات التي يعيشون فيها، ولتشويه دينهم حتى يقف المدُّ القياسي للإسلام في العالم مقارنة بغيره من الأديان، كان لابدَّ للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ من أن تدرس هذه الظاهرة في أنشطتها الثقافية المتخصصة للوقوف على أسبابها وطرق علاجها، وعلى الأخص من خلال أنشطة الحوار

بين الثقافات والتحالف بين الحضارات، وتقديم الصورة الحقيقية للإسلام في الغرب بما يدحض الصورة النمطية عنه، ويصحح المعلومات الخاطئة عن هذا الدين الحنيف.

كما عملت الإيسيسكو على تفعيل دور المسلمين في الغرب وجمعياتهم ومراكزهم الثقافية خارج العالم الاسلامي في مواجهة الإسلاموفوبيا وتغيير الصور النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين، مع التركيز على إشراك الكفاءات المسلمة في الغرب في هذه الجهود في إطار تنفيذ استراتيجية الاستفادة من الكفاءات المسلمة خارج العالم الإسلامي التي أعدتها المنظمة الاسلامية، واعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي العاشر المنعقد في بوتراجايا في ماليزيا عام 2003 وتم تكليف الإيسيسكو بمهام تنفيذها.

وفي هذا الإطار عملت المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة على تنفيذ مقررات هذه الاستراتيجية وتفعيل مضامينها في سياق تفعيل استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي خارج العالم الإسلامي التي وضعتها الإيسيسكو وأقرها مؤتمر القمة الإسلامي التاسع المنعقد في الدوحة في نوفمبر 2000. ويأتي دعم الإيسيسكو لندوة "**ظاهرة الإسلاموفوبيا وسبل التعامل معها**" التي نظمها مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام بفاس بتاريخ 10 ـ 12 مارس 2010 والتي تنشر أعمالها في هذا الكتاب في إطار تصحيح الصور النمطية المسيئة للإسلام والمسلمين، إدراكا منها لقدرة العمل الثقافي على مواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا، واستناداً إلى الإطار العام لبرنامج العمل الخاص بالرد على حملات التشويه الإعلامي للإسلام والحضارة الاسلامية الذي صادق عليه المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة المنعقد في الجزائر في ديسمبر 2004، وقد عهد إلى الايسيسكو بالإشراف على تنفيذه، وبوضع آليات تفعيله، وهو الإطار الذي اعتُمد وثيقة مرجعية لخطة العمل حول تصحيح صورة العرب والمسلمين التي تقف على إعدادها المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ومنظمة التعاون الاسلامي، وجامعة الدول العربية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والبنك الاسلامي للتنمية.

ونوجه خالص الشكر للجهات المشاركة في التحضير لهذه الندوة والمشاركين الذين أسهموا بجهودهم المشكورة في إغنائها بالبحوث والمناقشات الهادفة، سائلين الله تعالى أن يوفق الجميع لخدمة ديننا الحنيف.

والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

ظاهرة الإسلاموفوبيا :
صناعة مشتركة بين الغرب والمسلمين

الدكتور سعيد شبار(*)

في حدود هذا الوقت الوجيز المتاح سأحاول أن أعرض بعض النقاط التي تبدو لي أساسية في هذا الموضوع. عنوان هذه المداخلة كما هو في البرنامج الذي بين أيديكم :

" **ظاهرة الإسلاموفوبيا: صناعة مشتركة بين الغرب والمسلمين** " ذلك أننا حينما نتكلم غالبا حول هذا الموضوع نتوجه بالتهم تلو التهم إلى الكيان الغربي وغالبا ما ننسى أننا طرف مهم في صناعة هذه المعادلة، وفي خلق هذه الظاهرة والتأسيس لها. وأعتقد أن تلمس سبل التعامل مع ظاهرة " **الإسلاموفوبيا** " أو تصحيح هذه الظاهرة يحتاج أولا إلى التدقيق العميق فيها، فهي ظاهرة قديمة منذ مجيء الإسلام وأول سبل الوعي بهذه الظاهرة هو الإلمام الدقيق بالشروط التاريخية لتأسيسها قديما وحديثا، فهنالك محطات كثيرة ساهمت في خلقها سنعرج عليها تذكيرا وإلا فكل محطة تستدعي منا أن نخصها بعرض مستقل. أول هذه المحطات كما قلت مجيء الإسلام كديانة جديدة نظر إليه العالم الغربي المسيحي الذي كانت تحكمه وتمكن له الإمبراطورية الرومانية آنذاك مزاحما لها في مناطق نفوذها. ويمتد على حساب جغرافيتها الدينية والسياسية. ومن ثم بدأ عمل المؤسسات الكنسية الخاضعة لسلطة الإمبراطورية الرومانية في تشويه صورة الإسلام والدعاية الإعلامية ضده للتقليص من نفوذه والحد من امتداده. فكانت التعبئة المضادة في هذه المرحلة تستند إلى أدبيات وشعارات معينة تم تجنيدها لإنشاء صورة (فوبيا) معينة للمسلمين من منظور العالم المسيحي. فهم الكفار والغزاة والبرابرة المحتلين للعالم الشرقي الذي كان مهد المسيحية الأولى.

(*) رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم بني ملال.

أدت هذه التعبئة النفسية الأولى التي صنعتها الدعاية الإعلامية الأولى للمسيحية الرومانية إلى إنتاج حروب صليبية، حينما تم تجييش وتعبئة الجيوش الضخمة من المسيحيين من نظاميين متطوعين. ولا يخفى عليكم الخطاب الذي ألقاه البابا أربان الثاني في الحفل التأسيسي التجمعي والشعارات التي رافقت هذا الخطاب "من لم يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يستحق أن يكون تلميذا للمسيح " ، فكان إعلان الجهاد ضد الكفار من الغزاة المسلمين.

ثمة أدبيات كثيرة جداً خلقت واقعا دوليا جديدا مناهضا ونفسيات حاقدة على هذا الدين الجديد الذي اعتبر منذ البداية خصما دينيا وحضاريا وحتى علميا لامتداد المسيحية في العالم. الحروب الصليبية إذن كانت محطة من محطات الاصطدام الحضاري التي للأسف نرى أن مؤسسات كثيرة تنسب إلى المعرفة وهي أبعد ما تكون عنها استثمرتها وما تزال تستثمرها بشكل سلبي، يروج للعداء والكراهية والتخويف من خلال صور نمطية لا أساس لها في الواقع. من أبرز تلك المؤسسات مؤسسة الاستشراق التي استثمرت كل هذا التاريخ لكي تعيد بناء العالم الشرقي بناءً جديدا بحسب الرغبة والحاجة، بناء وصفه الناقد إدوارد سعيد ب "شرقنة الشرق"، و"المسرح الاستشراقي"، حيث تم بناء نموذج آخر للشرق غير الشرق الحقيقي. وقد بدأت هذه الآلة ضد الإسلام والمسلمين لتمرير سياسات وخوض حروب منذ القرن الثامن عشر وإلى اليوم تحت أسماء وعناوين كثيرة في تعبئة المخيال الجمعي الغربي دون معارضة، إذن ثمة صناعة عكفت على إنتاجها وعلى تدبيرها قوى متعددة إعلامية ودينية وسياسية... إلخ. العالم الغربي الحديث هو عالم سلطة، وعالم مال، عالم سلطة من خلال مؤسساته العسكرية ومن خلال مؤسساته الإعلامية، وهو عالم معرفة كذلك من خلال النماذج الثقافية والحضارية والمعرفية والقيمية والنفسية التي ينتجها ولهذا مواجهتنا لهذا العالم لا يجب أن تكون مواجهة بأسلحة تقليدية نحن نحتاج إلى بناء معرفي موازي للنظام العلمي الغربي. نحتاج إلى بناء إعلامي موازي لسلطة الإعلام في الغرب، ولهذا فمواجهة الأسلحة المتطورة جدا بأسلحة بدائية وقديمة سيجعل المعركة محسومة منذ البداية قبل الشروع فيها.

نحن أمام ظاهرة ليست ظاهرة إعلامية فحسب، نحن أمام ظاهرة تاريخية ثقافية دينية عميقة لها شروط تاريخية ساهمت في صناعتها وفي تأسيسها. وحلها في اعتقادي يبتدئ بتفكيك هذه العناصر التي ساهمت في تأسيس الظاهرة انطلاقا من شروطها الدينية والتاريخية والحضارية والنفسية والإعلامية... إلخ. هذه صورة

إجمالية مختصرة تتعلق بالعالم الغربي كمسهم في صناعة الإسلاموفوبيا، ولا أريد أن أطيل هنا الحديث عن بعض الانتهاكات والمس ببعض المقدسات، كالطعن في الرسالات السماوية وفي الأنبياء وخوض معارك ضد الحجاب والمساجد والمآذن وغيرها مما يدخل ضمن الحريات الدينية المكفولة قانونا، وخصوصا إذا تعلق الأمر بدول تنتمي إلى عالم الحرية والديمقراطية !؟ فهذه مظاهر وتجليات لبعد ثقافي ونفسي وديني تاريخي عميق ما يزال حيا ويتزود باستمرار من خلال الدعاية الإعلامية المكثفة له.

والذي يخوض الحرب على هذه الواجهة فقط إنما يخوض حربا جزئية على مستوى المظاهر والتجليات ويغفل البعد الثقافي والنفسي التاريخي الذي تمت صناعته منذ قرون.

ولا نريد هنا أن نعمم، تجنبا للسقوط في فخ المؤامرة، على كل الغرب فثمة قوى حية رافضة لهذا التوجه الاستفزازي، اللاإنساني اللاديموقراطي والذي يناقض المبادئ والأسس والشعارات التي قام على أساسها ومن أجلها كالحرية والأخوة والمساواة والديمقراطية وما إلى ذلك.

وهذه القوى، مؤسسات ومراكز للبحث والإعلام. مما ينبغي أن تمتد إليه يد التعاون والعمل المشترك.

وهنا أعتقد أن الغرب ساهم في صناعة هذه الظاهرة ولكن نحن أيضا ساهمنا ولازلنا نساهم في صناعة هذه الظاهرة بسوء فهمنا للنصوص واتخاذنا لبعض المواقف المتشددة المتطرفة التي قد تصل إلى درجة استباحة دماء وأموال الآخرين، وعدم التزامنا بالقيم والأخلاق العملية للدين فهذا عرض سيء للدين، أنا أتعجب عندما أزور بعض البلدان الغربية وأرى أن بعض الناس ممن سكنوا هذه البلدان منذ 30 سنة وما زال عندهم فقه دار الحرب ودار السلم. فبعض الإحصاءات تشير إلى أن المسلمين في أوروبا يتجاوزون 30 مليوناً تقريبا ونرى أن المسلمين كجالية ساكنة في أوروبا هي أكثر من كثير من السكان الموجودين في الدول الصغيرة المسلمة في الشرق أو في الغرب والتي لا يتجاوز عددها 5 أو 10 ملايين نسمة. فتلك دار إسلامهم وأمنهم واستقرارهم حتى يثبت العكس. نحن بحاجة مرة أخرى إلى نقد ذاتي من أجل تصحيح وبناء فقه وفكر قادر على مواكبة التحديات داخل المجتمع الغربي وإلى تجاوز أنماط التصنيف التاريخية والفقهية والفكرية القديمة التي كانت مرتبطة بسياقات تاريخية لتطور المجتمع الإسلامي... لقد كانت دار الكفر والحرب كذلك لما كانت معلنة الحرب

على الإسلام والمسلمين ولا يستطيع المسلم أن يجد فيها أمنا ولا سلما وإذا دخلها كان هالكا أو مأسورا . فلم يكن لهم غير دارهم التي هي دار الإسلام والسلم والأمن والأمان على الأنفس والأموال والأعراض والدين، لكن لما تطور المجتمع وامتدت الدولة الإسلامية بالفتح والدعوة واستجابت أقوام وأمم وشعوب تغير الوضع، وحيثما وجد المسلم أمنه على دينه ونفسه وماله وعرضه وجب أن يعامل بالبر وبالقسط ولو كانت الدار دار مخالفة في الملة والعقيدة . أما أن يعيش فيها آمنا مستقرا ثم يستبيح الأنفس والأموال والأعراض فيها فهذا ما لا علاقة له بالشرع ولا بالفقه، وإنما هو جهل مركب يضر بالإسلام وأهله أكثر مما يضر بأصحابه.

فالثقافة الإسلامية أعتقد ما تزال مرهونة بكثير من المكونات التاريخية التي أسهمت في خلق هذه الظاهرة السلبية للأسف، وخصوصا من خلال الإنتاجات الفكرية لا غيرها التي لم نستطع أن نقدم من خلالها النموذج الإسلامي المستورد الكوني الذي ينسجم مع كونية وعالمية الرسالة نفسها. ما يزال للأسف في دوائرنا الثقافية الإسلامية من ينظر إلى الدين وكأنه شأن محلي وكأنه دين طائفة أو دين مذهب أو دين فرقة ! هذا الدين أنزله الله تعالى للعالمين وينبغي أن يكون كذلك للعالمين من خلال علومه، من خلال فكره، من خلال ثقافته، من خلال حضارته، من خلال كل شيء فيه. ولهذا حينما نعمل على إنتاج ثقافة أو فكر محلي نصادم أول ما نصادم حقيقة الدين والتدين في الإسلام، ومن ثم نسيء عرضه للآخرين، إذن فهذه نقطة أساسية مهمة من هذه النقط التي تهمنا كمسلمين مساهمين في تصحيح هذه الصورة من خلال المداخل العلمية والمداخل المعرفية. على كل حال لا أريد أن أطيل بالنسبة لما أقترحه، أعتقد أن مشتركات كثيرة بين المسلمين وغير المسلمين في الدفاع على ما هو مشترك دينيا أو مشترك إنسانيا، وهذه الواجهة مهمة. ففي المشترك الديني ثمة عقائد وثمة قيم دينية وثمة سلوكات دينية موجودة عندنا في الإسلام، موجودة في النصوص اليهودية والنصوص المسيحية ونحتاج إلى أن يتعاون أهل الديانات فيما بينهم من أجل التمكين لهذه المشتركات الدينية، ليس فقط لأننا مطالبون بما يسمى بحوارات الأديان بصفة عامة، ولكن لأن ثمة زحفا لقيم أخرى بديلة الأصل فيها أنها تريد أن تجهز بشكل كامل على القيم الدينية في الأديان كلها أو على كل ما له علاقة بالمرجعية الدينية. العولمة الآن تضرب بالقيم عرض الحائط، تضرب بالثوابت وبعالم الغيب عرض الحائط، العولمة الآن تعمل على إحلال الفكر الاستهلاكي المادي، والذي يمكن أن يواجه العولمة في هذا الزحف هو القيم الفكرية المشتركة التي تشترك فيها الأديان جميعا.

ولهذا المدخل الديني في دائرة المشترك ينبغي أن يكون مقدما على المدخل الخلافي في هذه الدائرة الدينية.

على المستوى القيمي والمبدئي ثمة مراكز بحث ومراكز معرفة وثقافة أو فكر تعمل على نقد التوجه السلبي الغربي، هذه المراكز بالذات تحتاج إلى أن تمد إليها يد التعاون والتنسيق لما تقدم، لأنها فعلا سوف تكون قادرة باعتبارها أكثر وعيا بالخصوصية الغربية، على نقد هذه الحضارة الغربية.

بالنسبة لنا كمسلمين أعيد و أؤكد على أن الإسلام ليس دعوة فحسب، الإسلام بالإضافة إلى كونه دعوة هو كذلك فكر، و هو كذلك ثقافة ومعرفة وعلم، وهو كذلك حضارة ... ولهذا حينما نريد أن نقدم الإسلام إلى الآخر باعتباره دعوة ستخرجهم من دين لتدخلهم دينا آخر، فهذا قد يشكل عائقا. ولكن حينما نقدم الإسلام باعتباره دعوة من خلال العلم أو من خلال الحضارة أو من خلال الفن أو من خلال الفكر أو من خلال مداخل أخرى يجد فيها نفسه كإنسان لا شك أن هذا الآخر سوف يجد بدائل لما تقدمه الحضارة الغربية له داخل دائرة الإسلام، وأعتقد أن ذلك خير وسيلة لتصحيح صورة الإسلام عند الآخرين.

لماذا يخاف الغرب من الإسلام؟

الدكتور عبد الحق حمّيش(*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (سورة فصلت، الآية : 33)، والقائل عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء، الآية : 107) والصلاة والسلام على عبده ورسوله المصطفى الكريم أرسله الله للناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً، بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، أما بعد ؛

فقد أضحت ظاهرة الإسلاموفوبيا تثير جدلاً كبيراً وسط المثقفين الغربيين في السنوات الأخيرة ما بين من يعتبرها أمراً واقعا موثقاً بحيثيات الحياة اليومية للمسلمين المقيمين في ديار الغرب ممثلا ذلك في حظر الحجاب والاعتداء على المؤسسات والأفراد وتضخم الخطاب الإعلامي المعادي للمسلمين وقيمهم باعتبارها مهددة لروح وقيم العلمانية، وبين كونها مجرد معركة مفاهيم تتخفى وراءها إشكالات أكثر عمقا مما يبدو في الواجهة تتعلق بقضايا تاريخية، ثقافية، سياسية واجتماعية تطال التشكيل الحضاري العربي الإسلامي في مقابل التشكيل الحضاري الغربي المسيحي وطبيعة تعاطي كل منهما مع الظاهرة الدينية إضافة إلى طبيعة التدابير الرسمية التي تتعامل بها الحكومات الغربية لملف التعدد الديني.

فما المقصود إذن بالإسلاموفوبيا كمفهوم؟ وما هي مختلف السياقات التي أدت إلى إنتاجه؟ وما هي المسارات التي يختطها هذا المفهوم لنفسه في مختلف التقارير والدراسات التي اهتمت بمقاربته وتحليله؟.

(*) كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

وبرغم الجهود، التي تُبذل في سبيل إيضاح الصّورة «الصّحيحة» للإسلام، وتحديداً في موقفه من المسائل الحرجة في العصر الرّاهن، إلا أنّ النتائج عند الطرف الآخر لا تبدو دائماً في أفضل الحالات. المراكز ودُور الأبحاث الرّصينة، وغير الرّصينة، التي تُعنى بدراسة ظاهرة الإسلاموفوبيا، أو الخوف من الإسلام، تُشير إلى أنّ المعضلة القائمة أمام جهود التصحيح وإزالة المخاوف قد تكون حتى الآن مفقودة وبعيدة عن الإدراك السّليم. فكان لابد من رصْد الظاهرة والبحث عن السّبل والآليات الكفيلة بالحدّ منها والتصدّي لها؛ والعمل على تجاوز حدود التشخيص والتوصيف والانتقال إلى مستوى رسم الخطط والتدابير لمواجهة حملات التّشويه الغربي لصورة الإسلام، وتعزيز فرص التنسيق والتعاون بين المنظمات والجامعات والمؤسسات العلمية والثقافية في العالم الإسلامي من أجل توحيد الطاقات والجهود واستثمار أفضل السبل والوسائل لتنفيذ البرامج المرتبطة بمهمة مواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا.

من هذا المنطلق سيعمل هذا البحث على تقديم بعض الاقتراحات والتوصيات التي من شأنها المساعدة في مواجهة هذه الظاهرة.

ولعلّ هذه الندوة التي نعقدها حول مفهوم "الإسلاموفوبيا"، نقطة في خطوات البداية المعقولة لمعالجة والتصدي لهذه الظاهرة التي سممت الأجواء الصافية بيننا والغرب.

فإن وفقت في ذلك فلله الحمد والشكر والمنة وإن قصرت أو أخطأت فأسأله العفو والمغفرة والله من وراء القصد.

المطلب الأول : مفهوم الإسلاموفوبيا

أولاً مصطلح الإسلاموفوبيا Islamophobia في محتواه وحقيقته لا يعد حديثاً إلا في كونه مصطلحاً. فالإسلاموفوبيا كلمة مشتقة من الكلمة العربية "إسلام" والكلمة الإغريقية «phobia» وتعني «الخوف» [1]، والكلمة بشقيها تعني «الخوف من الإسلام». وهذا يرجع إلى القرن السابع، عندما فتح المسلمون إسبانيا، وبالتالي رأت الحضارة

(1) مرض الرهاب أو الفوبيا PHOBIA هو مرض نفسي ويعني الخوف الشديد والمتواصل من مواقف أو نشاطات أو أجسام معينة أو أشخاص...

الغربية نفسها مهددة بسبب وجود الإسلام، ليس فقط باحتلال معظم الأراضي المسيحية الواقعة جنوب وشرق البحر المتوسط، بل أيضاً في أوروبا نفسها. وتزايد هذا الخوف خاصة عندما احتل العثمانيون بعد بضعة قرون لاحقة معظم شرق أوروبا. لهذا فإن فكرة الخوف من الإسلام ليست جديدة على الإطلاق.

أما مصطلح الإسلاموفوبيا فقد تم اختراعه حديثاً بسبب تسييس بعض المشاعر الدينية الغاضبة وتحويلها إلى إيديولوجيا تتصف بالعدوانية والعنف تجاه الغرب، وهنا يرى الغرب أنه مهدد وهذا التهديد هو الإسلام، وبالتالي ظهر مفهوم الإسلاموفوبيا.

ويعتبر الإسلاموفوبيا الآن ظاهرة، لا شك في ذلك؛ فهناك العديد من القوى في الغرب تعمل جاهدة على دعم هذه الظاهرة لتحقيق أطماع سياسية واقتصادية، فالعالم الإسلامي مقارنة بالغرب أضعف بكثير اقتصاديا وسياسيا وعسكريا. لذا ففكرة أن الإسلام يمثل خطراً يهدد الغرب هي فكرة ملفقة لا سبب وراءها سوى تحقيق أهداف سياسية.

المطلب الثاني : أمثلة حديثة عن أعمال الإسلاموفوبيا

جاء في التقرير السنوي "الإسلاموفوبيا بفرنسا" في عام 2008م المتكون من 18 صفحة والذي أصدرته منظمة "ائتلاف الإسلاموفوبيا" أن سنة 2008م عرفت 80 عملاً من أعمال الإسلاموفوبيا منها 59 عملا ضد أشخاص و21 ضد مؤسسات إسلامية فيها مساجد ومقابر، وغيرها [1].

وقال التقرير الذي صدر يوم الخميس 22-4-2009م في مقدمته : "إن الاتجاه العام يُظهر ارتفاعاً في أعمال الإسلاموفوبيا بفرنسا"، ويمس ذلك كل المجالات الاجتماعية بفرنسا".

ومن المفارقات يقول التقرير إن معظم أعمال الإسلاموفوبيا سجلت في الإدارة العمومية التابعة للدولة حيث أحصى التقرير 36 عملاً منها، أي ما يعادل 64% من مجموع أعمال الإسلاموفوبيا، تتضمن تمييزاً في الإدارات ضد الأشخاص على أساس ممارساتهم وانتمائهم للإسلام.

---

(1) موقع WWW.ISLAMONLINE.NET:

ويشير التقرير الذي يحدد هذه الإدارات (بلديات وجامعات وشرطة ووزارات) إلى أن هناك أشخاصاً لا يحترمون مبادئ المساواة فيما يتعلق بالخدمات العامة أو مبدأ عدم التمييز، وهؤلاء الأشخاص لا يترددون في إظهار عداوتهم وأحكامهم المسبقة ضد المسلمين.

ويضرب التقرير مثلاً لهذه الإسلاموفوبيا الإدارية بالطلب الذي تقدم به أحد أعوان الشرطة في مدينة ليون بوسط فرنسا من إدارة عمومية أخرى بمده بقائمة الأشخاص "من غير المسيحيين والذين يطلبون تكييفهم مع ساعات عمل معينة بدافع ديني ومن أجل ممارسة شعائر".

ويحصي التقرير نسبة 35,59% من أعمال الإسلاموفوبيا مما تجرى في الحياة الاجتماعية بعيداً عن الهياكل الرسمية، مشيراً في هذا الإطار إلى حالة الطفل "إسلام" (9سنوات) الذي رفضت مشاركته في فبراير 2008م في برنامج تلفزيوني خاص بالأطفال بسبب اسمه. واقترحت المسؤولة عن البرنامج يومها على أم الطفل تغيير اسمه إلى "سفيان"؛ لأنه يحمل اسماً لديانة غير محبوبة كثيراً من الفرنسيين، بحد قولها.

وفي ظل الأزمة الاقتصادية التي تضرب الكثير من المؤسسات والشركات الفرنسية اقترحت إحدى الشركات على مواطن فرنسي مسلم تسريحه مقابل تعويض مالي، ولما سأل العامل عن السبب، لم يكن دافع الأزمة الاقتصادية في مقدمة حجج الإدارة بل كان "أنه يحمل لحية في الشركة، وهذا لا يتماشى مع صورة الشركة"، كما يقول أحد المسؤولين.

وإلى جانب استهداف الإسلاموفوبيا للأشخاص في المؤسسات العامة والخاصة، فإن الظاهرة تضرب بشكل واضح الرموز الدينية والمؤسسات، وخاصة المساجد والمقابر، حيث سجل التقرير حدوث 21 عملا من أعمال الإسلاموفوبيا ضد المؤسسات والمساجد، منها تشويه وحرق وكتابات عنصرية، ومنها 11 عملاً ضد بيوت الله.

وبلغت أعمال الإسلاموفوبيا ضد المؤسسات أوجّها في شهر ديسمبر 2008م حيث تم في ليلة 7 و 8 ديسمبر تشويه 800 واجهة قبر في المقبرة العسكرية لقدامى المحاربين المسلمين "نوتر دام دي لوريت Notre-Dame-de-lorette " في شمال فرنسا.

وفي 20 ديسمبر تم حرق مسجد "سانت بيرست" في ضواحي مدينة ليون في وسط فرنسا، وفي 26 ديسمبر تعرض مسجد السلام في منطقة شوني إلى التشويه بعبارات إسلاموفوبيا من قبيل "الموت للمسلمين".

خطورة الظاهرة :

لابد من التأكيد على خطورة الظاهرة واعتبارها سياسية في المقام الأول، سواء من حيث دوافعها أو أهدافها الكبرى، الظاهرة والباطنة معا، وأنه نظراً لطبيعة العصر الذي نعيش فيه وما يتسم به من سرعة التطوّرات والتغيّرات، فقد أصبح تفادي المشكلة يحتاج إلى حلول جذرية على المستوى الكوني كلّه، حلول تشارك في صُنعها وممارستها الحكومات ومنظمات المجتمع المدني في تناغم وتكامُل، يعكِس الشعور بالمسؤولية أمام مصير البشرية، حاضرها ومستقبلها معا، حسب قول نجم صادق أوغلو، السكرتير العام لاتحاد المنظمات الأهلية في العالم الإسلامي.

فحين تكون هناك جِهات رسمية وغير رسمية تعمَل على صُنع عداء بين الشعوب والمجتمعات، بزعم أن الإسلام دِين يبُث الكراهية في نفوس أتباعه ويشجِّعهم على العنف والإرهاب، وأن لا شيء يوقف هذا المدّ سوى المواجهة والعُنف المضاد وتعبِئة الموارد من أجل جولة الحسم، فإننا نكون أمام تحضير منهجي لحرب عالمية كُبرى وتجهيز لكارثة بشرية بكل المقاييس وانتكاسة رهيبة للسِّلم والأمن العالمي، توجب الوقوف ضدها بكل حسم ومسؤولية.

إنها باختصار ـ أي ظاهرة الإسلاموفوبيا ـ حسب قول وليام بيكر، الأستاذ الأمريكي في العلوم السياسية ومؤسس منظمة التآخي الإسلامي المسيحي : "جزء من سياسات تصنيع الخوف، التي برع فيها تاريخيا المُجمع العسكري الصناعي السياسي في الولايات المتحدة، بهدف تبرير سياسات الإنفاق الهائلة على كل جديد في عالم السلاح والتدمير والقتل".

جذور هذه الظاهرة :

يجب أن نعلم تماماً أن هذه الظاهرة ممتدة عبر القرون وليست وليدة أحداث ربع القرن الأخير. ولعل المفكر العربي الفلسطيني "إدوارد سعيد" كان من أفضل الذين شخّصوا هذه الظاهرة في كتابه المهم "الاستشراق"، وهو الذي يُعرِّي بموضوعية ومنهج علمي، أساليب الاستعمار في رسم الصورة المشوهة للعربي والمسلم بشكل نمطي مبرمج في الكتب المدرسية وأفلام السينما وكل وسائل الإعلام[1]. كما أصدرت الباحثة "مادلين

(1) راجع في هذا ما كتبه إدوارد سعيد في كتابه القيم : الاستشراق : المعرفة، السلطة، الإنشاء.

نصر"، وهي من أصل لبناني، كتابا بعنوان : "صورة العربي في الكتاب المدرسي الفرنسي"، وهي صورة بالغة القبح والكراهية، تعكس النفسية الحاقدة المتجنية لمؤلفي الكتب المدرسية.

وسواء أكانت وراء تلك الحملات والكتابات مؤسسات سياسية أو لاهوتية أو أنثروبولوجية، فإنَّ الأمر لا يختلف في نهاية المطاف، بل إن هذه المؤسسات كثيراً ما تعمل وفق نسقٍ مدروس توزع فيه الأدوار بدقة ومهارة.

في عام 1978م عقد في ولاية كولورادو الأمريكية مؤتمر تبشيري تقبع خلفه الفئات المتصهينة من الكنيسة، ووصف هذا المؤتمر بلدان العالم الإسلامي بأنها "معاقل الشيطان الحصينة". ومن الغريب أن نسمع هذا المنطق الذي ينتمي إلى عصر محاكم التفتيش في العصور الوسطى، ويبدو أن عقلية المحافظين الجدد التي تدعي الوحي اللاهوتي، لا تختلف عن عقلية منظري محاكم التفتيش ذات السمعة السيئة.

وإذا عدنا قرابة قرن إلى الماضي واستمعنا إلى آراء مستشرقين من أمثال رينان، وشاخت، وغولد زيهر، لرأينا الوجه القبيح يطل علينا في مزاعمهم بأن الحضارة العربية ليست إلا نتاج عقل إسلامي منغلق يعادي الابتكار، ولم يقدم أيّ أثر علمي ملموس، وأن المسلمين لم يكونوا سوى نقلة للفكر الإغريقي.

بل إنَّ رينان الفرنسي يلغي كلَّ الشعوب الأخرى ويقول : "إن العقل الأوروبي هو الوحيد المنفتح المبدع، وكل ما سواه عاجز بليد غير منتج"[1]، ومع ذلك يأتي كتاب "هنتنغتون" ليضع الإسلام عدوّاً أول للحضارات البشرية المعاصرة، ويأتي كتاب الباحث الأنثروبولوجي "شتراوس" ليقول : "إنَّ الدين الإسلامي يجب أن يصنف ضمن الديانات البدائية"[2].

وعلى الرغم من أن العنف المعاصر له أسبابه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القاهرة، وعلى الرغم من أنَّ ظاهرة العنف لا ترتبط بالعالم الإسلامي وحده، كما يحاول الإعلام الغربي تصوير ذلك، وكلنا يعلم ماذا حصد العنف في إفريقيا بين

---

(1) مقال الإسلاموفوبيا دلالات المصطلح وأبعاده : للأستاذ محمد قجة، ضمن كتاب دور الإعلام في معالجة ظاهرة الخوف من الإسلام (منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة)، الرباط.

(2) Hintington, Samuel: The Clash Of Civilizations and The Remarking Of world Older, New york1996 .

القبائل، وماذا يحصد بين الهندوس والتاميل والسيخ، وفي "الباسك" وإيرلندا الشمالية، وحركات أمريكا اللاتينية، فلماذا تلصق تهمة العنف والقتل بالعالم الإسلامي وحده؟.

وقد حاول بعض منظّري المخابرات الأمريكية الإيهام بأنَّ الإسلام عدوٌّ للحضارات المعاصرة كلها. وحاول هؤلاء المنظرون إثارة النعرات في مناطق شتى في العالم، بأساليب مختلفة تمتد عبر القارات، نعرات عنصرية وعرقية ومذهبية وتاريخية، في محاولة محمومة لتفتيت هذا العالم أكثر مما هو مفتت، أو تجزئته أكثر مما هو مجزأ.

ولعل كتابات "لندسي" في هذا المجال خير دليل على توجّه الفكر السياسي المشحون بالكراهية، ومن أبرز كتاباته، كتابه "الكراهية الأبدية"، وفيه يقول "لندسي": "إنَّ الخطر الأعظم الذي يتهدد الحرية والسلام العالمي اليوم هو الأصولية الإسلامية. وإن الكراهية تجاه هذه الأصولية يتجاوز عمرها أربعة آلاف سنة، وإن على العرب أن يتخلوا عن كل طموحاتهم السياسية والاقتصادية، ويسلّموا بوجود إسرائيل حتى يتحقق السلام"[1].

إن هذا الكلام يفسر لنا الحقد التاريخي الذي ضرب العراق، ولم يكتف بالأهداف العسكرية، بل قصف التاريخ الممتد أكثر من أربعة آلاف سنة، وقتل أكثر من مليون عراقي. وهو حقد ممتد في عبثه الهمجي في فلسطين ولبنان وأفغانستان والسودان والقرن الأفريقي... حتى إندونيسيا تحت مسمى "الشرق الأوسط الكبير".

إنها الصورة النمطية في قالب مسبق الصنع. وهي صورة بدأت تنتقل إلى الأقليات العربية والمسلمة في المجتمعات الغربية، حيث بدأت هذه الأقليات تعاني من التضييق والتمييز والاضطهاد، في مجتمعات تضم أشتاتاً من كل أنحاء العالم. ويمكن تتبّع هذه الظاهرة في كتابات كثيرين من الباحثين من أصل عربي رصدوا بمنهجية عالية أشكال التجني في الكتب والإعلام والسينما، ولا سيّما في الولايات المتحدة، ومن أبرز هؤلاء الباحثين "جاك شاهين، إدموند غريب"، وقبلهما بجدارة "إدوارد سعيد". ولعل أهم كتاب في هذا المجال هو "كيف شوّهت هوليوود شعباً" من تأليف "جاك شاهين".

---

(1) الغرب والإسلام : استدراج التعالي الغربي : لرسول محمد رسول، ص 57. (دار أسامة، الأردن، ط1، 0002م).

المطلب الثالث : وسائل الإسلاموفوبيا

إن مرض الخوف من الإسلام أو الخوف المرضي من الإسلام، يكاد يتجسد في كل مناحي الحياة السياسية والدينية والإعلامية والفكرية والفنية والتاريخية، وغيرها، فهو على سبيل المثال موجود في : الكتب والمجلات والصحف والمسرح وأشرطة السينما بكل اهتماماتها التاريخية والسياسية والاجتماعية والترفيهية، حتى أشرطة وألعاب الأطفال لم تخل من هذا الموضوع، وهو أيضاً مطروح على ساحة البحث في المؤتمرات والندوات، كما أنه متغلغل في الإذاعات المرئية والمسموعة، ناهيك عن شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، وتجسد في لوحات فنية مشهورة رسمها فنانون أوروبيون، ورسوم ساخرة غزت أوروبا، فضلاً عن أن عدداً لا بأس به من الساسة ورجال الدين لم يسلموا من هذا المرض.

وهذه الصورة الحاقدة نراها في كثير من الأدبيات والسينما والفنون، صورة تقدم الشرق الإسلامي من خلال أعاجيب "ألف ليلة وليلة"، ومفهوم الحريم وأسواق النخاسة، والعنف البدائي المتوحش. وكأن الفكر الغربي أراد أن يُسقط ذاته الفظّة على الآخر المسلم، فنحن نعلم أن الذي أباد الشعوب الأصلية في أمريكا وأستراليا هو الإنسان الأوروبي، وأن الذي مارس استعباد الشعوب ونهبها هو الغرب عموماً، وأن تجارة الرقيق الأبيض المعاصرة تفوق آلاف المرات ما ورد في قصص "ألف ليلة وليلة"، وأن العنف البدائي الوحشي هو الذي نراه يومياً في شوارع المدن الأمريكية حينما يقتل الإنسان إنساناً آخر من أجل حفنة دولارات.

إن هذه الظاهرة "الإسلاموفوبيا" قد غدت مرضاً يتم فرضه على أجهزة الإعلام من خلال إشاعة ثقافة رفض الآخر والتطرف والكراهية وإثارة الأحقاد، وهنا لا يمكننا التعميم العشوائي في أن المجتمعات الغربية مصابة بفيروس هذا المرض على جميع مستوياتها؛ فالدراسات الموضوعية موجودة لدى كثير من الباحثين والأكاديميين، ولكنها تبقى تدور في إطار نخبوي بعيد عما تتناوله أجهزة الإعلام الموجَّهة أساساً وفق معايير سياسية.

ولعلنا نذكر أن بعض مشاهير الفكر والأدب في الثقافات الأوربية، كانت لهم مواقف إيجابية من التراث الإسلامي، بل مواقف إعجاب لدى بعضهم، فهناك "غوته، وبوشكين، ولامارتين، وغارودي، وجاك بيرك، وبرنارد شو".

وقد تكون هذه المواقف الإيجابية تركت انطباعاً معاكساً لدى الرأي العام الغربي المسيّس، فبرنارد شو مثلاً يقول منذ عام 1936م بأنّ الإسلام سوف يكون له شأن كبير خلال عقود قليلة، وهذا الكلام يستخدمه المغرضون لمزيد من التخويف وإذكاء الأحقاد والكراهية.

يدور مصطلح "الإسلاموفوبيا" حول تكريس صفات سيئة يُتهم بها الإسلام، ويتم زرعها في أذهان الغرب بوسائل مختلفة. وتتركز هذه الصفات في أنَّ الإسلام كما يزعمون، دين متحجر منغلق عدواني يؤمن بالعنف ويرفض الآخر، ويهدد جيرانه، ولا يعترف بالثقافات الأخرى لدى الشعوب، وبالتالي يناصبها العداء.

واللافت للنظر، والداعي للاستغراب، أنَّ بقية الأديان في العالم لا يُنظر إليها بهذه العدوانية وهذه الكراهية. ونحن نعلم أنَّ هناك ديانات كبرى كالبوذية والتاوية والكونفوشية والهندوسية، وتنتشر أقليات وجاليات كثيرة منها في المجتمع الأمريكي والمجتمعات الأوربية من غير أن تلقى ذلك العنت والتمييز العنصري والمضايقات التي تلقاها الأقليات ذات الأصول الإسلامية عامة، والعربية خاصة، بل إن هناك العبارة الشهيرة التي أطلقها أحد المفكرين الغربيين يقول فيها : "الشرق شرق، والغرب غرب ولن يلتقيا إلا في ساحة القتال"[1]، وهو يقصد بالشرق الحضارة الإسلامية وبالغرب الحضارة الأوربية وامتدادها الأمريكي. وهذا فهم خاطئ جغرافياً وتاريخياً وفكرياً.

المطلب الرابع : أسباب ظاهرة الخوف من الإسلام

قراءات مختلفة لأسباب الظاهرة :

هناك قراءات مختلفة لأسباب صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا خلال الآونة الأخيرة، فهناك قراءة ثقافية ترى أن صعود الإسلاموفوبيا هو انعكاس لمشاعر سلبية عميقة مدفونة في وعي المواطن الغربي ضد الإسلام والمسلمين، وتعبير عن تحيز تاريخي وثقافي ضد الإسلام كدين وضد المسلمين حضارةً.

---

(1) هذه المقولة للأديب الإنجليزي رديارد كبلنج (Kipling) 1865-1936 الحاصل على جائزة نوبل.

وهناك قراءة ثانية ترى أن ظاهرة الإسلاموفوبيا هي نتاج لبعض الأحداث الدولية التي أثرت بقوة على العلاقات بين العالم الإسلامي والمجتمعات الغربية خلال السنوات الأخيرة، وعلى رأس هذه الأحداث هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001م الإرهابية وما تبعها من هجمات إرهابية ـ رفع مرتكبوها شعارات إسلامية ـ ضربت مجتمعات غربية مختلفة مثل إسبانيا وبريطانيا.

هذا إضافة إلى بعض المشكلات الثقافية الدولية التي أثرت سلباً على العلاقات الإسلامية ـ الغربية مثل أزمة الرسوم الدانمركية، وأزمة تصريحات البابا " بنديكت" السادس عشر، وأزمة الحجاب بفرنسا، وتصريحات بعض القيادات الغربية الدينية والسياسية المسيئة للمسلمين.

القراءة الثالثة ـ وليست الأخيرة ـ المطروحة في هذا المجال هي قراءة سياسية اقتصادية ترى أن صعود الإسلاموفوبيا خلال السنوات الأخيرة هو انعكاس لبعض التغيرات المجتمعية الكبرى التي لحقت بالمجتمعات الغربية والإسلامية خلال العقود الأخيرة، وعلى رأس هذه التحولات تراجع قوى اليسار الغربي التقليدية والتي سادت خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وصعود قوى اليمين الثقافي والديني في الغرب والعالم الإسلامي خلال الفترة ذاتها.

يعيب القراءة الثقافية لظاهرة الإسلاموفوبيا طبيعتها القدرية، والتي تكاد تفترض أن الخلاف الثقافي بين المسلمين وأبناء المجتمعات الغربية هو خلاف حتمي، وتكاد تعفي المسلمين من مسؤولية فهم المجتمعات الغربية وتفاصيل ما يدور بهذه المجتمعات وسبل توعيتها بصورة الإسلام الصحيحة خاصة في ظل تنامي أعداد المسلمين بالدول الغربية، وانفتاح أعداد متزايدة من أبناء تلك المجتمعات على فهم الإسلام والمسلمين، وتنامي قوى العولمة والاتصالات بما يسهل عملية التواصل مع الآخر وتوعيته.

ويعيب القراءة الثانية أنها قد تقتصر على الأحداث المادية وتصورها منزوعة عن سياقها وكأنها ولدت لحظياً وليست نتاجاً لتراكمات حدثت عبر عقود، لذا تمثل القراءة الثالثة أسلوبا أكثر ديناميكية لفهم أسبابِ صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا في المجتمعات الغربية خلال العقود الأربعة الأخيرة، وهي قراءة ترى أن للمسلمين والعرب دوراً يمكن أن يلعبوه للتأثير على مسار تلك الظاهرة الخطيرة.

وكأي ظاهرة أخرى تعصى على الانحصار ضمن إطار الأحادية السببية، فإننا نقول : إن لظاهرة "الإسلاموفوبيا" أسباباً متعددة تتفاوت في أهميتها وقوتها، بيد أنها تتضافر فيما بينها لتشكيل الظاهرة على النحو الذي تتراءى به. وأن هذه الأسباب بعضها خارجي تحركه دوائر تكره الإسلام وتعاديه، والبعض الآخر داخلي نابع من المسلمين أنفسهم نتيجة تشويههم للمظهر الحضاري الراقي للإسلام. وفيما يلي محاولة لاستعراض أبرز وأهم الأسباب التي يمكن أن تكون مسؤولة عن إيجاد تلك الظاهرة [1]:

أ) الأسباب الخارجية :

أولاً : احتشاد التاريخ بالكثير من وقائع الصراع بين الإسلام والغرب :

قد يمكن القول إن الفتوحات الإسلامية التي بدأت منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وتوسعت حدودها وآفاقها على امتداد قرون طويلة لاحقة، قد شكلت بما ارتبط بها وتمخض عنها من دحر جحافل الروم وتهديم معاقل وجودهم في المناطق التي اكتسحتها راية الإسلام، أولى وأبرز الخبرات المؤلمة التي تعرض لها الغرب في علاقته بالعالم الإسلامي، تلك الخبرات التي غرست بذور الخوف من الإسلام في ذهنيته، وجعلته يطور نزوعاً مرضياً يحكم تفاعله مع ذلك الدين وأتباعه. فعلى سبيل المثال، وبعد الهزيمة المنكرة التي منيت بها جيوشه الجرارة في معركة اليرموك في السنة السادسة عشرة للهجرة، التي ترتب عنها جلاء الاحتلال الرومي عن المنطقة العربية حيناً من الدهر، أُثر عن هرقل عظيم الروم قوله : "السلام عليك يا سوريا، سلاماً لا لقاء بعده، ونعم البلد أنت للعدو وليس للصديق، ولا يدخلك رومي بعد الآن إلا خائفاً"[2]. ويزخر التاريخ بسلسلة لا تكاد تنتهي من الخبرات غير السارة التي اتخذت طابعاً دموياً في كثير من الحالات، التي كرست النظرة المرتابة، بل العدائية، من جانب الغرب ـ وهو الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية ـ حيال الإسلام وأهله. إذ لم تتوقف تلك الخبرات المؤلمة عند حدود معركة اليرموك المشار إليها بكل تأكيد، بل تعدتها إلى سلسلة طويلة من مواقف المجابهة العنيفة، التي سجلها التاريخ في العديد من المعارك الحاسمة، التي جسّد بعضها، أو كاد، تهديداً جدياً للعالم الغربي، كفتح الأندلس سنة 91 هـ،

---

(1) راجع فتنة التفجيرات والاغتيالات : مصطفى السليماني، ص 123-169. (دار الكيان ـ الرياض 2006م).

(2) الإرهاب : التشخيص والحلول : لعبد الله بن بيه، ص 35. (مؤسسة الريان، ط2، بيروت 2000م).

ومعركة بلاط الشهداء (لابواتيه) سنة 114هـ، التي لو انتصر المسلمون فيها لدخل الإسلام إلى باريس نفسها، وفتح القسطنطينية على يد العثمانيين سنة 857 هـ ...إلخ قائمة لا تكاد تنتهي من وقائع الصراع الدامي بين الجانبين.

ويبدو أن التفاعل المباشر لأبناء الغرب مع المسلمين لعقود طويلة، سواء في سياق احتلالهم بعض الديار الإسلامية إبان ما عرفت عند بعض المؤرخين بالحروب الصليبية، أو في إطار استفادتهم عن طريق رحّالتهم وطلابهم من النهضة العلمية والحضارية التي ازدهرت في كثير من مدن العالم الإسلامي، يبدو أنه لم يكن كافياً للنجاح في تبييض الصورة القاتمة التي رسموها في أذهانهم تجاه الإسلام وأتباعه، بوصفه ديناً دموياً لا يمكن أن يقترن إلا بالعنف والتخلف والإرهاب![1].

ثانياً : الجهل بالإسلام :

وفقاً لمقولة دارجة لا تخلو من الصحة، يميل الإنسان في العادة إلى معاداة ما يجهل، بوصفه يشكل خطراً غامضاً يحسن الاحتراس منه وتجنبه. وهذا ما قد يفسر خوف الكثيرين من الإسلام وميلهم إلى معاداته والنفور منه، حتى بين بعض أبناء المسلمين أنفسهم، الذين يملكون معرفة سطحية بالإسلام!. والواقع أن هناك جهلاً صارخاً بحقيقة الإسلام، وبخاصة في العالم الغربي، الذي يستقي معلوماته عن الإسلام من مصادر قد تفتقر في كثير من الحالات إلى الموضوعية والنزاهة والتجرد، أو الإحاطة الكافية بحقيقة الإسلام وجوهره. فالمناهج المدرسية وحتى الجامعية في العالم الغربي، ما تزال مثقلة بكم هائل من المعلومات المغلوطة والمضللة عن الإسلام، التي تعود في جذورها إلى نتاجات المدرسة الاستشراقية، إحدى الأذرع التقليدية الرئيسة للاستعمار الغربي. التي يوجد من الشواهد ما يؤكد انطلاقها من مرجعيات قروسطية مصطبغة بروح الحروب الصليبية، لا ينقصها الكثير من التعصب والتحيز وتزييف الوقائع وليّ أعناق الحقائق لإثبات مزاعم وافتراضات قبلية عارية عن الصحة[2].

وفي هذا الإطار، يشير أحد الباحثين إلى "أن القليل من إنتاج المستشرقين الجدد، وهو كثير في حد ذاته، يذهب إلى صانعي السياسة والقرار في الغرب، بينما يذهب الكثير من إنتاجهم إلى الرأي العام عن طريق أجهزة متطورة للإعلام والدعاية ليؤكد صوراً

(1) هموم الأمة الإسلامية : د. محمود حمدي زقزوق، ص 199. (نشر مهرجان القراءة للجميع، القاهرة 2001م).
(2) راجع في هذا : الاستشراق المعرفة، السلطة، الإنشاء : إدوارد سعيد.

نمطية أو يشوهها" ، وحول النوايا العدائية للاستشراق وسعيه إلى المزيد من اختلاط الأوراق وتوتير العلاقات بين الإسلام والغرب يتابع الباحث نفسه القول: "إن الاستشراق الجديد الساعي قولاً وفعلاً إلى صدام (حضاري) مع الشرق الإسلامي حريص أيضاً على فتح حوار على مستويات متعددة يختلط فيه الدين بالسياسة والفاهمون بغير الفاهمين"[1].

ويشكل الجهل بالإسلام وحمل تصورات مغلوطة عنه، مع ما يترتب عن ذلك من الحيلولة دون تشكل أرضية ملائمة لفهمه وتفهمه والتواصل الإيجابي مع معتنقيه، معلماً بارزاً من معالم الحياة في العالم الغربي. وربما كان هذا هو ما دفع عضو مجلس النواب الأمريكي السابق (بول فندلي)، الذي خبر العالم الإسلامي عن قرب، إلى أن يأخذ على عاتقه السعي إلى كسر حاجز الجهل الغربي بالإسلام، والعمل على تصحيح المفاهيم والصور النمطية الخاطئة المتصلة به، ودحض الأضاليل التي تستوطن أذهان الغربيين بشأنه، وبخاصة في المجتمع الأمريكي. ويجمل (فندلي) الأسباب التي تقف خلف جهل الأمريكيين، والغربيين عموماً، بالإسلام وتبنيهم صوراً نمطية مضللة عنه فيما يلي من أسباب :

أ) **دور اللوبي اليهودي في تقديم صورة سيئة عن المسلمين**، وتصوير (إسرائيل) على أنها دولة ضعيفة يهدد العرب والمسلمون أمنها ووجودها.

ب) **الاقتصار على الحديث عن الأخلاق اليهودية والمسيحية في المجتمع الأمريكي**، بوصفها الأخلاق العالية المقبولة الجديرة بالاتباع، مع تجنب الإشارة إلى الأخلاق الإسلامية، وتصويرها بشكل سلبي منفر في حال الحديث عنها. بحيث غدت اليهودية والمسيحية في نظر الأمريكي أنموذجاً للتقدم والحضارة والأخلاق، وأصبح الإسلام تعبيراً عن القوة المتخلفة والخطرة.

ج) **وسم الإسلام بالإرهاب والتعصب**، واحتقار المرأة، والافتقار إلى التسامح مع غير المسلمين، ورفض الديمقراطية، وعبادة إله غريب وانتقامي.

د) **تخوف الغربيين من خطر إسلامي متصاعد**، وخشيتهم من الحرب الإسلامية ـ الغربية القادمة، وتغذية الهيئات الصهيونية لتلك المخاوف، حتى لا يتراجع الدعم الغربي للكيان الصهيوني في فلسطين.

---

(1) حوار الحضارات : مطر جميل (مجلة المستقبل العربي العدد 325)، ص 57.

هـ) تركيز وسائل الإعلام الغربي على تصوير الحركات الإسلامية، وبخاصة حركات المقاومة، على أنها حركات إرهابية لا تحترم الديمقراطية وحقوق الإنسان. وعمل تلك الوسائل في بعض الأحيان على فبركة برامج يتم عن طريقها تضخيم دعوات بعض المسلمين إلى محاربة أمريكا و(إسرائيل) والغرب، وإخراج تلك الدعوات عن سياقها الأصلي[1].

ثالثاً : تضارب المصالح واختلاف المنطلقات القيمية :

على الرغم من أن الجهل بالإسلام قد يشكل سبباً أساسياً للخوف منه ومعاداته، إلا أنه ليس السبب الوحيد بكل تأكيد. فقد سجل التاريخ أن معرفة الكثيرين بالإسلام لم تَحُل دون الخوف منه ومناهضته، بل ربما يمكن القول إن تلك المعرفة قد كانت المدخل الرئيس لاتخاذ موقف سلبي منه. فقد جاء الإسلام ليشكل مشروع رؤية تجدد ما دأبت تعاليم السماء على الدعوة إليه والمناداة به مذ وجد الإنسان على الأرض، رؤية تقوم على تدمير معاقل التظالم بين البشر، ونشر قيم العدالة والأخوة والمساواة والفضيلة فيما بينهم. وبطبيعة الحال، كان من المحتم أن يصطدم ذلك المشروع بمصالح كثير من الفئات الانتهازية التي كانت تحرص على استمرار الأوضاع المختلة القائمة، بكل ما فيها من استغلال وظلم واعوجاج، فاليهود في الجزيرة العربية على سبيل المثال، وهم الذين احترفوا العمل بالمراباة والدعارة وتجارة الخمور... إلخ، كانوا متأكدين من صدق النبي محمد عليه الصلاة والسلام وصدق رسالته، حسب ما جاء في أسفارهم المقدسة من نبوءات، إلا أنهم أصروا على معاداة الإسلام والكيد له، استناداً إلى رفضهم التضحية بالمكاسب غير المشروعة التي لا يقرها الإسلام، التي كانوا يجنونها جرّاء استغلال الناس وإشاعة الرذيلة بينهم، وانطلاقاً من استكبارهم عن اتباع رسول ليس من أبناء جلدتهم، بعد أن انحصر كل الأنبياء المعروفين ضمن نطاق بني إسرائيل منذ عهد النبي إسحق عليه السلام. وقد فضح القرآن الكريم مكر اليهود وإنكارهم معرفة الرسول تبعاً للنبوءات التي تبشر به في كتبهم المقدسة بقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة البقرة، الآية : 146).

هذا، وقد انسحب الحال نفسه على كثير من زعماء قريش والعرب في بداية الدعوة الإسلامية، الذين رفضوا اتباع الرسالة المحمدية، ليس من منطلق عدم تصديقها، بل من

(1) مقالة : ظاهرة الإسلاموفوبيا : قراءة تحليلية : لخالد سلمان (شبكة النبأ المعلوماتية).

باب الاستكبار والحرص على مكتسبات الزعامة ورفض النزول عنها. فقد ورد عن (أبي جهل) أحد أشهر أعداء الإسلام عبر التاريخ في معرض تفسيره الإصرار على عدم الإيمان بالرسول ومعاداة رسالته قوله : «والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء. إن بني قصي قالوا : فينا الحجابة، فقلنا نعم، ثم قالوا : فينا السقاية، فقلنا نعم، ثم قالوا : فينا الندوة، فقلنا نعم، ثم قالوا : فينا اللواء، فقلنا نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبي، فلا والله لا أفعل»[1].

والواقع أن المنطق ذاته يمكن أن ينطبق على الحالة الغربية اليوم. فمن المعروف أن الغرب يتبنى الكثير من السلوكيات الخاصة به، التي ترتبط في كثير منها بالنظام الرأسمالي ومبادئه البراغماتية الساعية إلى تعظيم الربح واللذة والمنفعة الخاصة، وتدخل في الوقت نفسه ضمن دائرة الحريات الاجتماعية والاقتصادية المعترف بها هناك من قبيل : حرية المقامرة، وتناول الكحول، والاشتغال بالربا، وقوننة ممارسة البغاء والعلاقات الجنسية المثلية، والسماح بالعلاقات الجنسية خارج إطار الزوجية ... إلخ. وبكل تأكيد، لا يمكن أن تحظى مثل تلك السلوكيات بمباركة الدين الإسلامي، الذي يعدها ومثيلاتها من المحرمات التي يستدعي اقترافها التجريم والعقاب. ومن ثم، فإن من الطبيعي أن يجد كثير من أبناء العالم الغربي في الإسلام وتعاليمه تهديداً صارخاً لما يعتبرونها حريات أساسية، لا ينبغي المساس بها أو التفريط فيها!

وتتداخل التعارضات المصلحية والحضارية لترسيم شكل العلاقة بين الإسلام والغرب إلى حد بعيد. فبينما يمكن الإقرار ـ إلى هذا القدر أو ذاك ـ بأن الصراع الذي يحكم علاقة العالم الغربي بالإسلام يستند في جزء منه إلى اختلافات حضارية عميقة ضاربة بجذورها في التاريخ، كما تزعم نظرية (صراع الحضارات) الشهيرة لصاحبها المنظر الأمريكي (صامويل هنتجتون) ، فإن من الممكن أيضاً القول إن جزءاً مهماً من ذلك الصراع يرتكز إلى تضارب المصالح بين الإسلام والغرب، بحيث يبدو هذا الأخير على درجة من الاستعداد للقبول بإسلام (معتدل) يضمن مصالحه السياسية والاقتصادية ولا يشكل تهديداً لها[2].

---

(1) دلائل النبوة : للإمام أحمد بن الحسين البيهقي 207/2، (تحقيق عبد المعطي قلعجي) دار الكتب الجامعية، بيروت.

(2) Gerges, Fawaz. America and Political Islam: Clash of Cultures or Clash of Interests?, Cambridge: Cambridge University Press, 1999.

رابعاً : الخلط بين الدين الإسلامي وواقع المسلمين :

ليس من الخافي على أحد أن الأمة الإسلامية تعاني منذ قرون عديدة واقعاً مأزوماً على مختلف الأصعدة والمستويات: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وهو ما ينعكس في وقوف تلك الأمة في ذيل سائر أمم الدنيا على صعيد الإسهام الحضاري والمشاركة في ارتقاء الإنسانية وتقدمها. فعلى المستوى السياسي، عصفت الحروب والنزاعات المسلحة وما تزال تعصف بأرواح الآلاف من أبناء العالم الإسلامي كل عام، كما هي الحال في كل من فلسطين والعراق وأفغانستان والسودان والصومال على سبيل المثال. وتبدو الدول الإسلامية عاجزة عن فعل الكثير من أجل إيقاف تلك الصراعات أو الانتصار فيها أو تسويتها. كما ما يزال العديد من الدول الإسلامية يخضع بشكل أو بآخر لقوى أجنبية تصادر حريتها وتحد من إمكانات استقلالها الفعلي. وعلى الصعيد الاقتصادي، تشير الإحصائيات إلى أن أكثر من نصف مليار مسلم يعيشون تحت خط الفقر، وهذا يعني أن أكثر من ثلث سكان العالم الذين يعيشون تحت مستوى خط الفقر هم من أبناء العالم الإسلامي، على الرغم من كل ما تتمتع به دول ذلك العالم من ثروات بشرية وطبيعية هائلة. الأمر الذي يوجه الأنظار إلى ما تكابده تلك الدول من استشراء الفساد وسوء الإدارة واختلال العدالة في توزيع الموارد والثروات. ليس هذا فحسب، بل إن دولاً إسلامية عديدة قد اجتاحها شبح المجاعات وافترس وحش الجوع مئات الآلاف من أبنائها، كما جرى في كل من النيجر والصومال والسودان.

وفي المجال الاجتماعي، يمكن الحديث، بوجه عام، عن معاناة دول العالم الإسلامي، تفاوتات طبقية صارخة تتفاقم حدتها عاماً بعد آخر، فضلاً عن تصدع بناها المؤسسية التقليدية مع العجز عن إيجاد بناءات حديثة قادرة على الإنجاز الناجح الفعال، وانحطاط مكانة المرأة، وتهميش دور الشباب، وضعف الاهتمام بالأطفال، ناهيك عن اهتزاز المنظومات القيمية وتخلخلها تحت وطأة القيم الغربية الغازية.

وعلى الصعيد الثقافي، يبدو العالم الإسلامي منقطعاً بصورة شبه تامة عن الثورات المعرفية والمعلوماتية والعلمية التي يشهدها العالم، فيبدو الأقل إسهاماً في تلك الثورات، سواء على مستوى الإبداع أو التطوير، ليغدو في أفضل الحالات مستهلكاً نهماً، وبصورة استعراضية فجة، لما تنتجه تلك الثورات من تطبيقات وتقانات!.

وإزاء الواقع المتردي الذي يتخبط فيه العالم الإسلامي، ومع أخذ الجهود الصهيونية والاستعمارية في تعميق ذلك الواقع وإبرازه وتضخيمه بعين الاعتبار، يغدو من الطبيعي انبعاث حالة من المماهاة التلقائية بين الإسلام من جهة، والفقر والتخلف من جهة أخرى، ليتم تحميل الإسلام جرائر ضعف أبنائه وتخلفهم. وعليه؛ يبدو أن من العسير أن يتعاطف الغربي الذي لا يعرف إلا صورة مشوهة عن الإسلام مع هذا الدين، بل إن من الطبيعي أن يتخذ منه ـ وهو يظنه سبباً رئيساً لتخلف أرجاء واسعة من العالم ـ موقفاً سلبياً عدائياً، ويولي جزءاً من اهتمامه لمحاربته واستئصال شأفته[1].

خامساً : تبني صورة نمطية سلبية عن المسلمين :

في الأصل، تتمتع المبادئ والنظريات، وبخاصة العقائدية، بطابع مثالي يتيح هامشاً معقولاً من الانفصال بينها من جهة، وبين أتباعها وتطبيقهم لها على أرض الواقع من جهة أخرى. إلا أنه وفي كثير من الأحيان، يتم الخلط بين الأفكار ومعتنقيها، فيتم عزو ما يقترفه هؤلاء من أخطاء وتجاوزات إلى الأفكار التي يزعمون تبنيها. وهذا يظهر واضحاً تماماً في حالة الإسلام والمسلمين، إذ يتم تحميل الإسلام مسؤولية السلوك غير السوي الذي يصدر عن بعض المسلمين، وبالإضافة إلى الجهل بحقيقة الإسلام، كما سلفت الإشارة، فإن من مصلحة الكثيرين من أنصار التوجهات الاستعمارية والصهيونية استغلال السلوك السيء للمسلمين للنيل منهم ومن دينهم، وإثبات صحة الصور النمطية المرتسمة في أذهان الكثيرين من أبناء الغرب عنهم. وبتسليط الضوء على تلك الصور النمطية الماثلة في الذهنية الغربية عن المسلمين، التي تطورت عبر قرون طويلة ظللتها أجواء التصارع والتفاعل المتوتر غير المتوازن بين الجانبين، فإنها تسقط على الشخصية المسلمة كماً هائلاً من الافتراءات والخيالات المريضة، فتصورها بالجشع والنهم والغباء والسفه والمكر واحتقار المرأة والتكالب على الشهوات...

وقد لعبت. السينما العالمية ووسائل الإعلام المغرضة التي تخضع لسيطرة واضحة من جانب الدوائر الصهيونية في العالم دوراً أساسياً في ترسيخ معالم تلك

---

(1) الحضارات صراع أم حوار : صلاح الدين جعفراوي (ضمن أوراق مؤتمر الإسلام وحوار الحضارات) 436/3، نشر مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض 2004م.

الصور النمطية وتضخيمها وتعميمها، حتى غدت بمثابة الحقائق الثابتة التي لا تحتمل النقاش، التي تحكم تعاطي كثير من أبناء الغرب مع الإسلام والمسلمين!.

وللحقيقة، فقد لعب ـ أيضاً ـ بعض أبناء المسلمين أنفسهم دوراً لا يستهان به في تصديق تلك الصور النمطية الشائهة، وذلك عن طريق سلوكهم المتخلف والمنحرف أثناء تجوالهم في عواصم الدنيا، مقدمين بذلك الأنموذج الأسوأ عن الشخصية المسلمة، ومن ثم عن الإسلام نفسه!

كما كان للتطبيق المتزمت للإسلام، الذي يركز على الشكل على حساب الروح والمضمون، من جانب بعض أنظمة الحكم التي تزعم اتخاذ الإسلام منطلقاً للتشريع فيها، نصيب في عملية الإساءة إلى الإسلام وتخويف الناس منه. إذ أظهرته تلك الأنظمة وكأنه جلاد قاس متحجر يطارد الناس لسلب حرياتهم وحرمانهم من كل مظاهر البهجة، وإجبارهم على إتيان الفرائض والطقوس الدينية على الرغم منهم!.

وجاءت التفجيرات المدوية على أهداف مدنية في عدد من البلدان الغربية، كالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإسبانيا، والإسلامية أيضاً، كالسعودية ومصر وباكستان والأردن، التي تبنتها جماعات تزعم انتماءها للإسلام، كتنظيم القاعدة بتفرعاته، لتصب في تيار تصعيد المخاوف من الإسلام، ولتعطي لأعدائه المزيد من المبررات لمحاربته وتضييق الخناق عليه، بحجة مسؤوليته المباشرة عن توليد الإرهاب والإرهابيين !.

ب) الأسباب الداخلية[1].

أولاً: الإرهاب :

ومن التحديات الداخلية ظاهرة الإرهاب وهي تعد أخطر التحديات التي تواجه العالم الإسلامي ـ كما يقول د. زقزوق ويضيف: «وقد شهدت الأعوام الأخيرة على وجه الخصوص تطور هذه الظاهرة بشكل مخيف، إذ اتجه الإرهاب إلى القتل والتدمير للأبرياء دون تمييز بين طفل وامرأة وشيخ وشاب، وتعدى ذلك إلى التمثيل بالقتلى دون

(1) هموم الأمة الإسلامية : لزقزوق ص 40.

سبب مفهوم، وفي كثير من الأحيان تحت شعار إسلامي، وبصيحات الله أكبر.وعواقب هذا الإرهاب مدمرة لقدرات الشعوب الإسلامية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، كما تمثل عقبة كأداء أمام تنفيذ الخطط التنموية في البلاد الإسلامية، ولا شك أن الإرهاب في العالم الإسلامي يتلقى الدعم والتخطيط من رؤوس الإرهاب في الخارج وبخاصة في الدول الأوروبية التي وفرت لهم على مدى عقود الملاذ وحرية الحركة تحت مظلة الحماية المزعومة لحقوق الإنسان، أما ما يطلقه الإرهابيون من شعارات إسلامية فإنها لا يمكن أن تخدع عاقلاً لأن الأديان كلها، والإسلام بصفة خاصة، ترفض العنف والقتل والتخريب وتدعو إلى المحبة والأخوة والسلام، والإسلام إذ يرفض العدوان رفضا قاطعا فإنه يعتبر قتل نفس واحدة كأنه قتل للإنسانية كلها»[1]. ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (سورة المائدة، الآية: 32). ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن الرحمة هي الهدف الأساسي للرسالة الإسلامية ـ كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى مخاطبا نبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء، الآية: 107).

ثانياً : التخلف [2] :

وإذا كان الغربيون فعلاً يخافون من الإسلام، فمن المسبب لهذا الخوف؟ أليس المسلمون أنفسهم؟ نحن نعرف أن العرب مصابون بمرض عضال لا أمل في شفائه، يدعى بـ(نظرية المؤامرة). فالعرب يشعرون أنهم متخلفون جداً ويعادون الحضارة الحديثة، وليس عندهم ما يقدمونه للعالم سوى النفط والإرهاب والتخريب. والمشكلة أنهم رغم تخلفهم المريع، وجهلهم، حيث بلغت نسبة الأمية الأبجدية نحو 60% في صفوفهم، والأمية الثقافية ربما بحدود الـ 90%، ولكن مع ذلك فإنهم يعتقدون بأنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم أثقف الشعوب وأفضلها، وأن هذا الغرب بما عنده من علوم وتكنولوجيا وحداثة وفلسفة وحضارة وديمقراطية وحقوق الإنسان، كلها تعتبر جاهلية حسب نظرية سيد قطب والتي هي التعبير الواضح والصريح لما هو سائد عند المسلمين إزاء الغرب. لذلك فإذا قلت لهم أنهم متخلفون، سرعان ما يصرخون بوجهك

---

(1) الإرهاب : التشخيص والحلول : عبد الله بن بيه، ص 36.

(2) الحضارات : صراع أم حوار 439/3.

قائلين إن الغرب هو سبب تخلفنا، إنه الإمبريالية الغربية والصهيونية والصليبية... إلخ،، وهؤلاء جميعاً يصنفون في خانة واحدة وهي "ملة الكفر واحدة"، يريدون القضاء على الإسلام والمسلمين ونهب خيراتهم!! وهذه النظرية هي الأخرى ساهمت إلى حد كبير في شحن الشباب المسلم بالكراهية والعداء للغرب والانخراط في الإرهاب[1].

يقول الباحث الفرنسي غي ميليير. وهو نائب رئيس معهد أوروبا الحرة وأستاذ في إحدى جامعات باريس؛ في كتابه " من الذي يخاف من الإسلام؟ " : " فالواقع أن المسلمين منذ ثمانية قرون وحتى الآن يكررون نفس الشيء. فشيوخهم يقولون لهم صباح مساء : نحن لسنا بحاجة لأحد ولا لأي علم أجنبي غريب علينا، نحن نمتلك الحقيقة المطلقة والنهائية في كتابنا فلماذا نبحث عنها في مكان آخر؟ لماذا نتعب أنفسنا؟ وهكذا يتواصل الانحطاط في العالم الإسلامي منذ ثمانية قرون، وكذلك التكرار والاجترار، لا يوجد أي شيء جديد تحت الشمس، وبالتالي فينبغي أن نعود إلى الوراء لا أن نتقدم إلى الأمام، منطق معكوس ومضاد لمنطق التطور والتقدم"[2].

ثالثاً: عدم تمثل المسلمين للإسلام الصحيح :

لماذا تختلف أخلاقنا عن مبادئ الإسلام؟ لماذا يتكلم المسلمون كثيراً، ولا يلتزمون الإسلام ؟!. ومبادئه الواضحة التي لا غموض فيها ولا تعقيد. هذا سر البلاء، فأنت تجد كل مسلم يتحدث اليوم عن فساد المجتمع الإسلامي، وينشد إصلاحه، وقد يرسم منهجا للإصلاح يدعو المسلمين إليه، ثم هو في نفس الوقت، لا يتحدث عن فساد نفسه، ولا ينشد إصلاح نفسه ويغيب عنه قول ربه : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة البقرة، الآية: 44). وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الصف، الآيتان : 3،2) ولو أنصف كل مسلم لعلم أن التواصي بالحق، يقتضي أن يلتزم الداعي هذا الحقَّ حتى يستطيع دعوة الناس إليه، فكيف يستجيب الناس لمن يدعوهم إلى تحريم القتل مثلا، ويداه ملوثتان بدماء الأبرياء من المسلمين؟ وكيف تدعو الناس إلى الخير والرحمة والمودة، وأنت شرير قاس تقطع الأرحام؟.

---

(1) خرافة الإسلاموفوبيا : عبد الخالق حسين (مجلة آفاق) http://www.aafaq.org.

(2) الإسلام والحضارة الغربية : د.محمد علي الخولي إذ يؤكد ويقول : " نعم، هناك مؤامرة محكمة متواصلة يقودها الغرب ... "، ص 148، دار الفلاح، ط1،2001 م.

إن المثال الحي والقدوة الصالحة يثير في نفس البصير العاقل قدراً كبيراً من الاستحسان والإعجاب والتقدير والمحبة، فيميل إلى الخير، ويتطلع إلى مراتب الكمال ويحاول أن يعمل مثله حتى يحتل درجة الكمال والاستقامة. إن القدوة الحسنة المتحلية بالفضائل تعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل والأعمال الصالحة من الأمور الممكنة التي هي في متناول القدرات الإنسانية وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال.

لقد انتشر الإسلام في أصقاع كثيرة عن طريق القدوة الحسنة وهي مضمون دعوته صلى الله عليه وسلم، لقد بعث الله عز وجل رسوله رحمةً للعالمين، فمن تبعه كان له الفلاح في الدنيا والآخرة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء، الآية: 107)، وقال صلى الله عليه وسلم : «إنما بُعِثْتُ رحمة» [1] ففي ظل شريعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينعم البشر جميعاً بالحريةِ والعدل والمساواة وتُرحم البشرية من الجور والشقاء والخوف والرعب الذي جرَّه عليهم عنادهم ليس برفض الرحمة المهداة، ولكن بأبعد من ذلك بإعلان الحرب على شريعة السماء والتطاول والنيل من الرحمة المهداة والنعمة المُسدَاة والسراج المنير.

المطلب الخامس : دور المسلمين لمواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا :

والسؤال الذي ينبغي طرحه بعد كل هذا : ما هو الدور الذي ينبغي على المسلمين القيام به لمواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا؟

مسؤولية العالم الإسلامي :

يتحمل العالم الإسلامي مسؤولية تجاه نفسه وتجاه تقدّمه وتعزيز قوّته في العالم المعاصر. فأنور إبراهيم، نائب رئيس وزراء ماليزيا الأسبق وجد أن الإسلاموفوبيا ليست قاصِرة على الغرب فقط، بل هي موجودة أيضا في العالم الإسلامي نفسه، وإنما تأخذ أشكالا أخرى بين المسلمين وبعضهم البعض، ولا مخرج هنا سوى الاجتهاد وإعمال الفِكر انطلاقا من المبادئ الإسلامية، وإذا كانت هناك حاجة ماسة لمد الجسور مع العالم الغربي ومناقشة المتطرفين منهم في أفكارهم عن الإسلام والمسلمين، فإن المناقشة

(1) أخرجه مسلم 2599.

والحوار داخل المجتمعات الإسلامية لابد أن تكون عنصرا أساسيا في حياة المسلمين أنفسهم، ذلك أن جوهر الحرية هو في الإسلام نفسه[1].

إن الحديث عن مواجهة هذه النمطية الظالمة، وهذه الكراهية الحاقدة، يقودنا إلى محاور متشعبة يمكن رسم ملامحها بالنقاط التالية:

في البداية لا بد من **إبراز أن الإسلام والحضارة الإسلامية والشعوب الإسلامية جميعاً ليسوا ضد الغرب وما يقوم به في نطاق حدوده.** وقد تنعكس هذه الفرضية إذا تعارضت مصالح الغرب مع مصالح الشعوب الإسلامية داخل العالم الإسلامي، لذا فليس هناك مبرر أن يخاف الغرب من الإسلام أو حتى من أكثر القوى عنفا، لكن الخوف يأتي من تلك القوى التي تحاول عرقلة مصالح الغرب في العالم الإسلامي. إن الإرهاب الآن مأساة، وتحريف للحقيقة، إنه ضد التشريع الإسلامي، وفكرة أن بعض المسلمين المتطرفين يلجؤون إلى العنف لمواجهة الإسلاموفوبيا يساعد على جعله ظاهرة. لذا يعتبر الإرهاب أسوأ أنواع الاستجابة لمواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا، إذ يعمل على زيادته لا الحد منه.

إن الأسلوب الأمثل فيما يتعلق بالإسلام هو محاولة التصرف وفق أسلوب عقلاني مدروس جيدا. لا وفق عواطف ومشاعر غاضبة وثائرة. وأيضاً لا بد من إعداد حوارات فكرية ودينية يستطيع المجتمع الغربي فهمها بسهولة بغرض التأكيد على أهمية احترام معتقدات ومقدسات ومذاهب المجتمعات والحضارات الأخرى.

فإذا تحدثنا عن أهمية وجود احترام متبادل، فهذا يستوجب على كل طرف أن يحترم الطرف الآخر. وعلى الذين لا يؤمنون بالمقدسات احترام من يؤمنون بها، وإلا فأين الإنسانية هنا ؟ وعلى الذين يؤمنون بالمقدسات احترام حقوق المجتمعات التي لا تؤمن بها.

ولتصحيح الفكرة التي لدى الغرب عن الإسلام يجب أن نوجه طاقاتنا نحو **نشر المنهج الصحيح والتعاليم السمحة للإسلام في البلدان الغربية** باستخدام كل الوسائل المتاحة لدينا، وكذلك دعم المنظمات والرابطات والاتحادات الإسلامية الموجودة في الدول الغربية بشتى الطرق لتعرض للشعوب الغربية صورة سليمة غير مشوهة عن المسلمين والإسلام، ونتوجه أيضاً إلى التعاون في المجالات العديدة مع

---

(1) نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام ومستقبله : د. عماد الدين خليل، ص 107، (دار النفائس، لبنان 1999م).

الدول الغربية والتوسع في العلاقات التي تربطنا بالغرب مع مراعاة المحافظة على هويتنا الإسلامية الشرقية المحافظة[1].

وأعتقد أننا بحاجة إلى **قوانين دولية لتحقيق احترام متبادل للأديان والأنبياء والقيم العليا بين الشعوب والمجتمعات المختلفة.** ولكننا للأسف نتحدث عن قوانين دولية، ولكن السؤال هو: ما هو القانون الدولي؟ هؤلاء الذين يملكون القوة يحطمون القانون الدولي عن عمد، لأنهم يعتقدون أننا نعيش في عالم نضحك فيه على أنفسنا. وعلى أية حال فوجود قوانين أحسن بكثير من عدمها.

ويمكن الحد من ظاهرة الإسلاموفوبيا عن **طريق إيجاد وشائج قوية** تجمع بين الجاليات المسلمة من جهة ومواطني الدول التي يتواجدون على أراضيها بوصفهم مواطنين أو مقيمين، وتأسيس مجالس وتجمعات طوعية تتكفل بإدامة العلاقات الطيبة بين المسلمين أنفسهم، والمسلمين وغيرهم، وتوطيد عرى التعاون مع الجمعيات الحقوقية الأجنبية التي تُعنى بمكافحة العنصرية ومحاربة التعصب والدفاع عن حقوق الأقليات.

إن على الجاليات العربية والمسلمة دوراً كبيراً **في توحيد مواقفها** وتكوين قوة ضغط في مجتمعات مؤلفة أساساً من نسيج ديموغرافي متعدد.

كما يجب على الإعلام العربي والإسلامي أن يخرج من سباته العميق، ويضع إستراتيجية لمخاطبة الآخر، تقدم الصورة الحقة للحضارة الإسلامية التي كانت دائماً ولا تزال، تؤمن بالتسامح وبالأديان الأخرى، وتعترف بالآخر، ولا تمارس القمع والقتل والإبادة.

محاولة التنسيق بين وسائل الإعلام في الدول العربية والإسلامية والاتفاق على حد أدنى من المعقولية في مخاطبة الذات ومخاطبة الآخر.

تنظيم المؤتمرات والندوات العالمية في المدن الأوربية والأمريكية لتوضيح صورة الإسلام لدى النخبة، ثم لدى العامة، وبكل الوسائل الممكنة.

توظيف المال العربي الهائل في مجال الإعلام: شراءً واستئجاراً وإعلاناً وتنظيماً، لأنّ المستهدف في النهاية، هو كل التراث العربي بجميع أشكاله.

---

(1) الغرب والإسلام : د. رسول محمد رسول، ص 57. (دار الفارس، ط1، 2001 م).

محاولة ملامسة القضايا الساخنة كالإرهاب، ونظم التعليم، وقضايا المرأة، والاندماج الاجتماعي لتكون محاور في تلك الندوات.

العمل على إدخال مواد دراسية تدعو إلى نبذ العنف والإرهاب وتحث على التعايش السلمي بين الجماعات المختلفة في مناهج التعليم بالنسبة للمدارس الإسلامية الخاصة الموجودة في العالم الغربي.

إقامة المؤتمرات والندوات والمناظرات عن طريق وسائل الإعلام المؤثرة والقادرة على تنميط الصورة إيجابيا وإخراجها عن النمط السلبي الدارج في بعض وسائل الإعلام الغربية المتحاملة.

التعريف بالوجه الحقيقي للإسلام والمسلمين والتبري من أصحاب المناهج التكفيرية، والضغط على مراكز الفُتيا في العالم الإسلامي من أجل استصدار فتاوى واضحة تدين الإرهاب وأتباعه، وعدم الاكتفاء بتصريحات مبهمة أو قابلة للتأويل.

محاولة فك الارتباط بين مفهومي الإسلام والأصوليات المتطرفة والإسلام والعرب، من خلال التعريف بالمدارس الإسلامية ذات التوجه المعتدل من جهة والتعريف بالقوميات غير العربية المنتمية إلى الإسلام كالقوميات الكبيرة القاطنة في القارة الأوربية مثل ألبانيا، والبوسنة والهرسك...إلخ، والعمل في ذات الوقت على فضح الحكومات الإسلامية التي تحكم شعوبها بالحديد والنار وتساهم بشكل أو بآخر في خلق الجماعات المتطرفة والترويج إيجابيا لمن تقف منها موقفا جيدا من مسائل الحريات العامة وحقوق الإنسان.

التفاعل مع النسيج الاجتماعي الغربي ودمج الشباب المسلم بنشاطات وفعاليات الحياة العامة ولكن مع الاحتفاظ بالهوية الدينية الجوهرية وبيان مدى أهمية البناء الأسري مثلا في تعضيد روابط المجتمع... ، والاستفادة من تجارب الأقليات الدينية الأخرى التي أحرزت نجاحات واضحة على هذا الصعيد.

تشكيل جماعات ضغط إسلامية للوقوف ضد الجماعات اليمينية المتطرفة سياسيا في بلدان مثل هولندا وسويسرا والدانمرك وغيرها، ومقاومة عوامل اليأس والإحباط التي تحاول تصوير وجود جماعات إسلامية فاعلة في الغرب على أنه ضرب من ضروب المستحيل.

إعطاء صورة إيجابية عن الإسلام واتباع الأساليب التربوية المفضية إلى تجسيد تلقائي للفضائل الأخلاقية في سلوك الإنسان المسلم ورفض المجموعات المسلحة العنيفة التي تشيع الخوف بين الشعوب المسلمة، وغير المسلمة.

الترويج لثقافة التدين وحرية الاعتقاد من خلال الاستناد إلى منطلقات الفكر الإسلامي والميثاق العالمي لحقوق الإنسان والنظريات الاجتماعية الغربية التي تُعلي من شأن الإنسان بوصفه إنسانا.

ضرورة الاتفاق إسلاميا على تجديد الخطاب الديني بشكل عام يُراعى فيه التباين الثقافي بين الشرق والغرب ويتجاوز الخلافات الثانوية فيما بين المذاهب المختلفة ويستند في إقراره والمصادقة عليه إلى مرجعية دينية أو مجمع إسلامي رصين.

وللخروج من كل هذه المآزق، **على الجماهير والحركات الإسلامية أن تقدم صورة مشرقة للإسلام للعالم**، وعليها أن تنبذ وتقاوم كل المجموعات الصغيرة والأعمال الفردية التي تكرس الدعاية العالمية المناوئة للإسلام والتي تستهدف المدنيين في الغرب، ويمكن للمسلمين في شتى أنحاء العالم أن يكونوا شبكة عالمية إسلامية تتفهم القوانين الدولية الداعمة لحقوق الإنسان والحرية والاستقلال والسيادة وتحترمها، وتعمل على عدم إعطاء أي فرصة للمجموعات المتهورة وللشباب المنفعل بإعطاء صورة غير حقيقية للإسلام والمسلمين أو تمثيل الإسلام والمسلمين فيما يقومون به من اعتداء على المدنيين الغربيين في بلادهم.

على العرب أن لا يستهينوا بالأعمال الصغيرة التي تؤدي إلى تحقيق أهداف عظيمة على المدى البعيد، فالنظر إلى الأمور بطريقة متطرفة لا يخدم قضايا أمتنا، فهناك فضاء واسع من الأعمال التي يمكن أن نؤثر بها على الآخرين، ونعبر من خلالها عن المظالم التي يتعرض لها العرب والمسلمون في كل بقاع الأرض، ويتدرج طيف هذا الفضاء الواسع من رسائل الاحتجاج إلى مقاومة الاحتلال مرورا بالاحتجاجات والتظاهرات السلمية ومحاورة النيِّرين من الغربيين والتنسيق مع كل من يدعم القضايا العربية والإسلامية العادلة وعلى رأسها القضية الفلسطينية التي أصبحت تلقى تفهماً ودعماً عالمياً.

لابد أن تفهم الشعوب الغربية دور حكوماتها المتحالفة مع الأنظمة العربية في كل المآسي التي ألمت بالأمة العربية من تشرذم وانقسامات وزعزعة الاستقرار، ولا بد

من التركيز على انتهاك (إسرائيل) لحقوق الإنسان وخرقها للقانون الدولي فيما يتعلق بالفلسطينيين الذين يعيشون في فلسطين التي احتلت في عام 1948م وفي المناطق المحتلة الأخرى، يجب أن يتحول الدعم الغربي لهذا الكيان صداعا مستمرا في رؤوس صناع القرار الغربيين وذلك بتسليط الضوء على المعايير الغربية المتناقضة والمزدوجة في التعامل مع القضية الفلسطينية.

والجاليات الإسلامية التي تعيش في الغرب هي أهم جسر للتواصل بين الشعوب العربية والإسلامية من جهة وبين الشعوب الغربية من جهة أخرى، وهي أهم وسيلة لتقديم صورة حقيقية عن الإسلام بعيدا عن الصورة المظلمة التي يحرص أعداء الإسلام على تقديمها للغرب، ومعاناة الشعب الفلسطيني هي أهم العناصر التي يمكن استخدامها لإبراز التناقضات الغربية وتفنيد المبررات الغربية في التدخل في الشؤون العربية وإصدار التوصيات الأمريكية المتعلقة بالحريات الدينية وحقوق الإنسان وما إلى ذلك من منظومة الأكاذيب الأمريكية للضغط على الأنظمة العربية وترويضها لخدمة (إسرائيل) والمصالح الغربية.

ولابد من **إعادة صياغة الخطاب الإسلامي** وتنقيته من كل ما يؤدي إلى تشويه صورة الإسلام وتعميق الاتهامات له بالعنف والكراهية وتحريض الشعوب الغربية على الإسلام، فهناك في مجتمعاتنا العربية والإسلامية تجاوزات كثيرة وعدم إدراك لطبيعة الإسلام الذي أراده الله دينا عالميا، وأن الله عز وجل أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، فلا ينبغي - على سبيل المثال - أن يدفعنا ظلم الآخرين إلى الدعاء على الشعوب بالهلاك، فهذا مخالف للإسلام ويؤدي إلى تعطيل الدعوة إلى الإسلام.

الخاتمة

يدور مصطلح "الإسلاموفوبيا" حول تكريس صفات سيئة يُتهم بها الإسلام، ويتم زرعها في أذهان الغرب بوسائل مختلفة. وهناك قراءات مختلفة لأسباب صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا خلال الآونة الأخيرة، فهناك قراءة ثقافية ترى أن صعود الإسلاموفوبيا هو انعكاس لمشاعر سلبية عميقة مدفونة في وعي المواطن الغربي ضد الإسلام والمسلمين، وهناك قراءة ثانية ترى أن ظاهرة الإسلاموفوبيا هي نتاج لبعض الأحداث الدولية التي أثرت بقوة على العلاقات بين العالم الإسلامي والمجتمعات الغربية خلال السنوات الأخيرة، وعلى رأس هذه الأحداث هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001م الإرهابية.

وكأي ظاهرة أخرى تستعصي على الانحصار ضمن إطار الأحادية السببية، فإننا نقول : إن لظاهرة "الإسلاموفوبيا" أسباباً متعددة تتفاوت في أهميتها وقوتها، بيد أنها تتضافر فيما بينها لتشكيل الظاهرة على النحو الذي تتراءى به، وأن هذه الأسباب بعضها خارجي تحركه دوائر تكره الإسلام وتعاديه، والبعض الآخر داخلي نابع من المسلمين أنفسهم نتيجة تشويههم للمظهر الحضاري الراقي للإسلام والمسلمين.

أ) الأسباب الخارجية : احتشاد التاريخ بالكثير من وقائع الصراع بين الإسلام والغرب، الجهل بالإسلام، تضارب المصالح واختلاف المنطلقات القيمية، الخلط بين الدين الإسلامي وواقع المسلمين، وتبني صورة نمطية سلبية للمسلمين.

ب) الأسباب الداخلية : وهي الإرهاب، التخلف، وعدم تمثل المسلمين للإسلام الصحيح والسؤال الذي ينبغي طرحه بعد كل هذا : ما هو الدور الذي ينبغي على المسلمين القيام به لمواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا؟.

في البداية لا بد من **إبراز أن الإسلام والحضارة الإسلامية والشعوب الإسلامية جميعاً ليسوا ضد الغرب وما يقوم به في نطاق حدوده.**

يجب أن نوجه طاقاتنا نحو **نشر المنهج الصحيح و التعاليم السمحة للإسلام في البلدان الغربية** باستخدام كل الوسائل المتاحة لدينا، وأعتقد أننا بحاجة إلى **قوانين دولية لتحقيق احترام متبادل للأديان والأنبياء والقيم العليا بين الشعوب والمجتمعات المختلفة**، ويمكن الحد من ظاهرة الإسلاموفوبيا عن **طريق إيجاد وشائج قوية** تجمع بين الجاليات المسلمة من جهة ومواطني الدول التي يتواجدون على أراضيها بوصفهم مواطنين أو مقيمين، وتأسيس مجالس وتجمعات طوعية تتكفل بإدامة العلاقات الطيبة بين المسلمين أنفسهم.

إن على الجاليات العربية والمسلمة دوراً كبيراً في **توحيد مواقفها** وتكوين قوة ضغط في مجتمعات مؤلفة أساساً من نسيج ديموغرافي متعدد. **كما يجب على الإعلام العربي والإسلامي أن يخرج من سباته** العميق، ويضع استراتيجية لمخاطبة الآخر، تقدم الصورة الحقة للحضارة الإسلامية التي كانت دائماً ولا تزال، تؤمن بالتسامح وبالأديان الأخرى، وتعترف بالآخر، ولا تمارس القمع والقتل والإبادة.

محاولة فك الارتباط بين مفهومي الإسلام والأصوليات المتطرفة والإسلام والعرب، من خلال التعريف بالمدارس الإسلامية ذات التوجه المعتدل من جهة والتعريف بالقوميات غير العربية المنتمية إلى الإسلام كالقوميات الكبيرة القاطنة في القارة الأوربية مثل ألبانيا، والبوسنة والهرسك... إلخ.

ولابد من **إعادة صياغة الخطاب الإسلامي** وتنقيته من كل ما يؤدي إلى تشويه صورة الإسلام وتعميق الاتهامات له بالعنف والكراهية وتحريض الشعوب الغربية على الإسلام، فهناك في مجتمعاتنا العربية والإسلامية تجاوزات كثيرة وعدم إدراك لطبيعة الإسلام الذي أراده الله دينا عالميا، وأن الله عز وجل أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، فلا ينبغي ـ على سبيل المثال ـ أن يدفعنا ظلم الآخرين إلى الدعاء على الشعوب بالهلاك، فهذا مخالف للإسلام ويؤدي إلى تعطيل الدعوة إلى الإسلام.

قائمة بأهم المراجع

- **الإرهاب : التشخيص والحلول** : عبد الله بن بيه، (مؤسسة الريان، ط2 ، بيروت 2000م).
- **الاستشراق : المعرفة ، السلطة، الإنشاء :** إدوارد سعيد.
- **الإسلاموفوبيا دلالات المصطلح وأبعاده** : الأستاذ محمد قجة (ضمن كتاب دور الإعلام في معالجة ظاهرة الخوف من الإسلام : منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة) الرباط.
- **الإسلام والحضارة الغربية** : د. محمد علي الخولي.
- **الحضارات صراع أم حوار :** صلاح الدين جعفراوي (ضمن أوراق مؤتمر الإسلام وحوار الحضارات) نشر مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض 2004م.
- **خرافة الإسلاموفوبيا :** عبد الخالق حسين (**مجلة آفاق :** http://www.aafaq.org).
- **دلائل النبوة** : للإمام أحمد بن الحسين البيهقي (تحقيق عبد المعطي قلعجي) دار الكتب الجامعية، بيروت.
- **ظاهرة الإسلاموفوبيا :** قراءة تحليلية : خالد سلمان (شبكة النبأ المعلوماتية).
- **الغرب والإسلام :** استدراج التعالي الغربي : رسول محمد رسول (دار أسامة الأردن، ط1، 2000 م).
- **فتنة التفجيرات والاغتيالات :** مصطفى السليماني. (دار الكيان، الرياض. 2006م).
- **هموم الأمة الإسلامية :** د. محمود حمدي زقزوق (نشر مهرجان القراءة للجميع، القاهرة 2001م).

Hintington, Samuel,The Clash Of Civilizations and The Remarking Of world Older, New york 1996.

Gerges, Fawaz. America and Political Islam: Clash of Cultures or Clash of –Interests?, Cambridge: Cambridge University Press,

- موقع WWW.ISLAMONLINE.NET:

الأسس المعرفية لظاهرة الإسلاموفوبيا

الدكتور عبد الواحد جهداني(*)

هذا موضوع يحتاج إلى فقهاء متخصصين، ضربوا سيرا في الأرض، وكابدوا صفحات التاريخ، وتعرفوا على سنن الكون وثقافات الشعوب. وفي غياب هؤلاء الفقهاء المتخصصين، بسبب غياب الجامعات والمؤسسات التي تخرجهم ليخرجوا بدورهم أمة الشهادة من جديد، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون، فإننا سنسمح لأنفسنا بالخوض في هذا الموضوع الهام، رغم معرفتنا بقلة حيلتنا، وضعف مصادرنا ومراجعنا.

تنطلق هذه الورقة من فكرة أساسية وهي أننا لن نستطيع فهم العلاقة التي تربط بين الغرب والآخر بصفة عامة وبعالم الإسلام إلا من خلال الغوص في التاريخ وفي أعماق الرؤى المعرفية التي تنبني عليها الممارسات والمواقف الغربية إزاء الآخر. لقد جاءت هذه الندوة في وقت أصبحت فيه هذه الظاهرة ملفتة وخطيرة (مقتل مروة الشربيني)، فمع تزايد الأزمات الداخلية للمجتمعات الغربية التي كانت موعودة برغد العيش، وبحبوحة الحياة، استغلت بعض الجهات واللوبيات التي تتحمل مسؤولية هذه الأزمات، لتقول لشعوبها إن سبب هذه الأزمات هو في وجود هؤلاء الأجانب بين أظهرنا خاصة المسلمين منهم. ومن هنا ازدادت الاعتداءات العنصرية على المسلمين بشكل مقلق، وتزايدت ظاهرة العداء للإسلام وأهله بشكل خطير، ولهذا ارتأينا أن نخصص هذه الورقة للأسس المعرفية لظاهرة الإسلاموفوبيا، وبتعبير أكثر شمولية لهذه الظاهرة المرضية لموضوع العلاقة مع الآخر في الفكر الغربي.

وقبل أن نخوض في هذا الموضوع الشائك، وحتى لا يفهم من هذه الورقة عكس ما تهدف إليه، فإننا نقدم الإطار المعرفي الذي تندرج فيه هذه الورقة :

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير.

- أننا ومن خلال مرجعيتنا نؤمن أن اختلاف الناس واختلاف الحضارات واختلاف اللغات كل ذلك آية من آيات الله في خلقه، وسنة من سننه الثابتة، وأن هذا الاختلاف يجعل الوجود الإنساني يسعى بما يملك للتعارف والتعايش بسلام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].
- أن الغرب ليس كتلة واحدة، والغرب الذي هو محور هذه الورقة، ليس غرب الشعوب، إنما هو الغرب المستكبر، وهو خليط من التيارات والاتجاهات : من أقصى اليمين السياسي إلى أقصى اليسار، ومن تيارات كنسية وتيارات عنصرية، إضافة إلى المرابين الجدد وهم المتعطشون للثروات فوق جثث الشعوب الباحثين عن المجد المالي كما سبقهم إليهم جدهم كولومبوس بالقتل والتدمير، وهم، وأخيرا، أولئك الذين يشعلون هذه النار كلما خبت ونعني بهم الحركة الصهيونية.
- هناك غرب آخر، على خلاف ما تقدم، يؤمن بنسبية الغرب، وليس بمركزيته، ويؤمن بتعدد الحضارات والثقافات، وبعض هؤلاء موقفهم لا يقارن بموقف بعض أبناء جلدتنا، وما تقرير غولدستون منا ببعيد.
- كذلك يجب أن نعترف أننا نتحمل جزءاً من تنامي هذه الظاهرة المرضية.

الغرب والآخر :

"ذهلت البلدان الغربية وخافت خوفا شديدا، فانهيار عدوها السوفياتي الذي كانت تعتمد عليه، منذ 45 عاما، لأجل إرهاب سكانها قد أغرق هذه الديمقراطيات [البلدان الغربية] في كآبة شديدة : ماذا ستكون روما من دون أعدائها؟"، هكذا كان كاتون caton يسخر بعد تدمير قرطاجة!.

وكان في وسع الغرب أن يطرح على نفسه السؤال المقلق عينه.

تذكروا أيها الغربيون هذا الاضطراب العظيم إزاء سقوط جدار برلين، ذلك القلق المتمثل بألا يخيف الغرب الموتُ والخطرُ بعد الآن، إلا من نفسه.

---

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

لم يلزم غير وقت قصير لرؤية أنهم كانوا على حق، فعملية عسكرية أمريكية كبيرة في بانما، واضطرابات خطيرة في أذربيجان السوڤياتية، وسلسلة لم يسبق لها مثيل من النزاعات الدموية في إفريقيا، وبالطبع، بوجه خاص، غزو الكويت، جاءت بالخبر السعيد : لقد ولد للشمال عدو مجددا.

"الجنوب! هاكم التهديد الجديد".

"لقد زال الصدام شرق/غرب وحل محله الصدام شمال/جنوب".

"الشرق؟ لقد كان واضحا ما يعنيه هذا اللفظ: كان العالم الشيوعي يشكل معسكرا قاريا (الاتحاد السوڤياتي وأوربا الشرقية) تدور في فلكه توابع بعيدة ولكنها صلبة". أما الجنوب فكيف نحدده؟ وهل يتمتع بوجود مستقل؟".

"إن الجنوب المجزأ، المضطرب، غير القابل للتوقع، لا يمكن أن يحل محل التجمع الأحادي الذي كان يشكله الشرق. إن التقابل بين الشمال والجنوب يمكن أن يتبع التقابل بين الشرق والغرب، أن يأتي بعده، ولكنه لا يحل محله".

"إن الخصم هذه المرة ليس معطى لنا، ولذلك سيكون علينا أن نخلقه، أن نوحده، أن نبحث له عن الانسجام الذي يفتقده"[1].

بهذه الكلمات يفتتح جان كريستوف ريفان J.C.Ruffin كتابه الرائع : الإمبرطورية والبرابرة الجدد L'empire et les nouveaux barbares، وفيه يحاول أن ينفذ إلى أعماق التاريخ الذي بنت عليه الحضارة الغربية المعاصرة في علاقتها مع الآخر، ليكتشف أن موقف الغرب الليبرالي من الآخر الآن ليس بدعا من المواقف، بل هو في حقيقته امتداد لموقف روما أمَّ أوربا من الآخر البربري، وبالتالي فإن هذا الموقف الغربي هو الأصل، ولا يمكن أن يتغير لا بالأمنيات ولا بالندوات وإنما بمشروع آخر. إن الغرب لا يمكن أن يحس بوجوده إلا بوجود عدو متخيل، وخوف مصطنع، ولو أدى ذلك إلى صناعة ذلك الخوف وذلك العدو الوهمي، سواء كان ذلك العدو مجموعة من الأشرار الجياع المحاصرين في غزة أو في قرى وسهول ومساجد أفغانستان أو أسلحة دمار شامل تفكر فيها بعض دول مارقة ستؤدي إلى إفناء البشرية.

---

(1) Ruffin, J;C, Lempire et les nouveaux barbares, p

وهناك ترجمة عربية لهذا الكتاب : أوهام الامبراطورية وعظمة البرابرة.

إن مسألة اختراع العدو الوهمي مسألة جوهرية ووجودية بالنسبة للغرب، فحضارته «لا يمكن أن تتأمل الفراغ طويلا حولها من دون أن تمسك بتلابيبها فكرة موتها هي»[1].

روما والآخر :

ومن أجل فهم حقيقي ودقيق، قائم على أساس المعرفة الممتدة في أعماق التاريخ، وليس من أجل فهم فارغ وخادع كما تعودنا أن نسمعه من النظام العربي الرسمي، وجب علينا أن نغوص في أعماق التاريخ البعيد والقريب من أجل فهم هذه الظاهرة ـ ظاهرة التخويف من الآخر بصفة عامة ومن الإسلام بصفة خاصة ـ من أجل إيجاد الحلول والبدائل حتى تعود البشرية إلى رشدها وتتقبل اختلافها وتنوعها.

إن فهم علاقة الغرب بالآخر لا يمكن أن يتم بدون المرور من التراث الفكري والمعرفي المؤسس للرؤية المعرفية الغربية الحديثة. إن التراث اللاتيني، كما يقول ريفان، يقدم لنا الأدوات الثقافية والمعرفية التي تتيح لنا إدراك تحول الذهنيات الحالية «إن الأوهام الثقافية التي عرفتها روما بعد هزيمة قرطاجة، مشابهة للأوهام التي تترسخ اليوم محل المواجهة بين الشرق والغرب مواجهة يسودها التعارض بين الشمال والجنوب»[2]. ومن هذا المنطلق فإنه يمكننا القول بأن روما هي أول من أسس العلاقة مع الآخر من خلال : الأنا المتحضرة والآخر البربري والهمجي.

وكما بيّن ذلك فرنسوا ماتيي في كتابه الهام " البربرية الداخلية : محاولة حول العالم المعاصر" (La barbarie intérieure, Essai sur l'immonde moderne)، فإن المعارضة الفاصلة بين الحضارة والبربرية التي تخط تاريخ أوربا قد تم اختراعها من لدن الرومان. وإذا كان الرومان قد أخذوا مصطلح البرابرة من اليونان، والذي لم يكن يحمل هذه الحمولة التي نعرفها عنه عند اليونان، فإن روما هي أول من رفع ذلك الحاجز الذي لا يمكن تخطيه بين رومانيا وبربريا، واضعة بذلك العالمين من جهتي حدود الإمبراطورية. يشكل ذلك الخط الحدودي الممتد على حوالي تسعة آلاف كلم والممتلىء بالقلاع والتخوم الطبيعية للهيمنة الرومانية، ويشكل في نفس الوقت خط حدود الروح، وبدايتها[3].

---

(1) الإمبرطورية والبرابرة الجدد 27.

(2) أوهام الإمبراطوية 25.

(3) Mattéi, La barbarie intérieure, Essai sur l'immonde moderne, 63.

فإذا كانت كلمة البربري في أصلها عند اليونان و الرومان تعني كل الشعوب التي لا تتكلم اليونانية أو اللاتينية، ثم أصبحت تعني في إمبراطورية روما كل من لا ينتمي إلى الإمبراطورية أو يعارضها، ويحدد لنا بوليب البربري بقوله : « يكون بربريا من هو من غير الإمبراطورية، من يعارضها، وبالتالي يعززها وَهْماً ويحددها»[1].

أما الحدود بين عالم إمبراطورية روما وبين البرابرة الذين يحددونها وهما، فهي ليست حدود طبيعية فحسب، إنها كذلك «الحدود بين ما هو إنساني وما هو حيواني»[2].

و«الحدود بين الإمبراطورية والبرابرة هي حدود بين الحضارة والطبيعة، بين الإنساني والحيواني»[3].

إن ذلك الخط الفاصل بين روما وأعدائها، بين البربرية والحضارة، بين الإنسانية والتوحش هي تلك الحواجز التي يطلق عليها التخوم Limes. وهذا الخط الفاصل بين عالمين «ليس فقط مكان مواجهة عسكرية...إن التخم هو بادئ ذي بدء الحد الثقافي بين ما تتعرف إليه الإمبراطورية كملك لها وما تنبذه كغريب عنها»[4]. هذه التخوم تحمي الإمبراطورية وتبقيها بعيدة عن تهديدات البرابرة المتوهمة وتسمح للإمبراطورية وسكانها بالعيش في طمأنينة ورفاهية وتقدم ورخاء.

أما التخوم المعاصرة الجديدة، فهي التي تفصل بين عالم الشمال وعالم الجنوب، «وتميز بلطف وهدوء مجيء عالم أخلاق اللامساواة، أو بتعبير آخر حسب ريفان، نوع من التمييز العنصري العالمي[5].

داخل هذه التخوم يطبق القانون على البشر، أما خارجها فبما أنه لا يوجد بشر وإنما البرابرة فلا قانون يطبق.

فهذا القديس امبروسيوس، على سبيل المثال كان يشجع بيع الخمر للبرابرة «كي يتلاشوا في السكر ويصابوا بالإنهاك. أما التعامل بالربا الذي كان محظورا على سكان

---

(1) 31-32.

(2) الإمبراطورية والبرابرة الجدد 33.

(3) نفسه.

(4) الإمبراطورية والبرابرة الجدد 35.

(5) أوهام الإمبراطورية 35.

الإمبراطورية، فإن هذا القديس كان يجيزه مع البرابرة قائلا: «حيث يوجد قانون حرب، يوجد أيضا قانون ربا»[1]، وهو نفس موقف الإمبراطورية المعاصرة والتي كان يصرح الناطق باسمها الرئيس الأمريكي بوش : "لا عدالة ولا قانون مع أعداء الإمبراطورية". فالبرابرة باعتبارهم ليسوا بشرا، وباعتبارهم يهددون روما والإمبراطورية، لا تطبق عليهم القوانين العادية، بل تطبق عليهم قوانين غير عادية واستثنائية.

وكذلك تفعل إمبراطورية عصر الأنوار مع البرابرة الجدد، فقد اخترعت لهم لأول مرة في تاريخ البشرية سجونا متنقلة عابرة للقارة، وسجونا غير مرئية، إضافة لحرمانهم حتى من القوانين التي سنتها الإمبراطورية على أعدائها، وهذه الأمور التي تستعصي على فهم من لا يريد أن يفهم أساس العلاقة بين الإمبراطورية والآخر البربري، خصوصا في عالم اليوم الذي لا مكان فيه للضعفاء إلا في المقابر الجماعية ولا سلام معهم إلا سلام القبور.

وإذا كانت روما تبيح الخمر للبرابرة، كما نشر أبناؤها الڤيروسات والأمراض المعدية بين الهنود، وفي كلتا الحالتين من أجل القضاء عليهم، فكذلك، كما يقول ريفان، تفعل الإمبراطورية اليوم مع البرابرة، فالحرب الديمغرافية تهدف الحد من نسلهم، وفي المجال الاقتصادي لا تقدم "المساعدات" إلا للدول العازلة، وهي تلك الواقعة على تخوم الإمبراطورية، والذي يتوجب عليها تأمين استقرار الغرب، ونضيف إلى ذلك إغراقهم بالقنوات، وتغيير مناهج تعليمهم، وقوانين أسرهم، والإطار المعرفي لفهم دينهم، وحتى تغيير أيام عطلهم.

إن البربري يتم اختراعه، وتقديمه لإرهاب سكان روما قديما ولسكان الإمبراطورية الحديثة. فها هو بومبونيوس Pomponius Mela، وهو من أقدم مؤرخي الرومان، يقدم وصفا للبرابرة لأهل روما : «على تخوم العالم البربري، أقواما متشردين، من دون سقف أو مسكن ثابت، ينتمون بالقدر نفسه إلى البهيمية وإلى الإنسان»[2].

وفي مكان آخر يقدم ميلا، لسكان روما المتحضرين صورة لأولئك البرابرة الذي يحيطون بهم من كل جانب : «نصادف شعوبا خرساء، لا تتفاهم إلا بالإشارات، بعضها

---

(1) أوهام الإمبراطورية 271.

(2) بومبونيوس ميلا، (الكتاب الأول III) نقلا عن الإمبراطورية 33.

له لسان لكن لا تستطيع النطق به، وبعضها محروم تماما من اللسان، وثمة شعوب أخرى ليس لها فم، بل ثقب صغير، يقال إنها تشرب بواسطة قشة عبر هذا الثقب»[1]. لا نعرف أين رأى ميلا هذه النماذج، ولكن لا يخالجنا شك، أنه رآها في مخيلته المتوهمة والمخترعة لتلك الأوصاف، ومن الأساطير المؤسسة لأساطير اليونان والرومان ولفكر الإمبراطورية المعاصرة.

وقد أقام روفان في كتابه "الإمبراطورية والبرابرة الجدد" مشابهة تاريخية بين روما القديمة في علاقاتها بالبرابرة، وروما الجديدة ممثلة في البلاد الغربية المتقدمة في علاقتها بشعوب الجنوب، ليتحدث عن الانقسامات الجديدة لعالم ما بعد الحرب الباردة، ويشبهها بالانقسامات التي سادت العالم في العصر الروماني. يقول ريفان في هذا الصدد "إن روما كانت تجسد السلام والاستقرار وتتمتع بسلطة وثقافة موحدة، وكانت تحترم القانون وتطبق العدالة، عكس البرابرة الذين لم يكونوا يفكرون إلا في الحروب وهم منقسمون لا يتفاهمون ولا يتواصلون في ما بينهم ولا يعرفون إلا القوة والعنف".

وبالتالي فهؤلاء «البرابرة محرومون من الحضارة، ومن واجب روما أن تحملها إليهم، أو أن تقاتلهم إذا حاولوا تهديدها، وهم ممعنون في تمسكهم بالتقاليد القديمة»[2]، أو بحسب تعبير بوليب مؤرخ روما : «تحمل روما عبء عمل سلام وعدل وحكمة»[3].

وهو نفس العبء الذي تحمله روما المعاصرة، ولكن هذه المرة بأسلحة أشد فتكا، وأسرع حسما. وهكذا ترسل الإمبراطورية الطائرات القاذفات لحمام الدم، والجيوش الجرارة، والأسلحة المحرمة، من أجل محاربة الأشرار، لنشر وتدعيم " الديمقراطية الغربية"، وتنظيم انتخابات تحت أسنة الرماح، حتى يمكن للبرابرة الاقتراب من عالم البشرية الغربية.

لقد أخذت الحضارة الرومانية، كما يقول ماتيي، رويدا رويدا الوعي بذاتها من تحت وطأة التهديدات الخارجية، وكذلك رؤيتها ونظرها إلى ما يكون إنسانيتها، التي تقع وسطا بين الوحشية والرخاوة Mollesse[4].

---

(1) بومبونيوس ميلا، (الكتاب الأول III) نقلا عن الإمبراطورية 47.

(2) نفس المرجع 28.

(3) نفس المرجع.

(4) Mattéi, Jean Francois, La barbarie intérieure, Essai sur l'immonde moderne,72.

هذه الحضارة الرومانية، تعتقد وهي محاطة ومهددة بأحزمة من الشعوب البربرية بأنها تعيد صياغة الإنسان المتحضر من جديد.

لقد كان اختراع الآخر البربري والعدو أحد العوامل الرئيسية في الإحساس بهويتها وذاتها. فمن خلال الشعور بخطر البربري وتهديداته المتخيلة وإرهابه المزعوم تكتشف روما ذاتها وهويتها وحضارتها. وعلى خطى روما، يعتبر اختلاق البربري والأصولي والمتطرف الإسلامي أحد العوامل الأساسية لتحديد هوية الإمبراطورية وتحديد هويتها وتخويف واستنهاض رعاياها الموجهين.

إن موقف روما هذا سينتقل بالوراثة الحضارية إلى العالم الغربي الذي سيؤسس رؤيته للآخر من خلال هذه الرؤية الرومية، القائمة على الأنا المتحضرة والآخر البربري. يقول ماتيي : "وهذا الخط الفاصل بين الحضارة والبربرية سيصبح تلك الصورة النمطية الانثربولوجية الكبرى في تاريخ أوربا"[1].

العالم الغربي المسيحي والآخر : الإسلام والمسلمون :

لقد كان المخيال المسيحي ـ كما يشير إلى ذلك توماش ماستناك ـ مسكونا بوثنيين وبرابرة. ولم يغير مجيء المسيحية / الكنيسة موقف أوربا من الآخر، بل صارت على نهج روما، واستبدلت مفهوم البرابرة بالوثنيين والكفار والهراطقة. فإذا كان البربري هو من ليس من روما أو ضدها، فإن البربري وهو الوثني والكافر والهرطقي هو الذي لا يؤمن برسالة الكنيسة.

لم يكن للعرب وجود حضاري وفعال قبل مجيء الإسلام، ومع مجيء الرسالة الخاتمة والعالمية، ودخول الكثير من أتباع الكنيسة لهذا الدين الجديد المحرر للإنسان، أصبحت العداوة الغربية المسيحية للإسلام مزدوجة : فالمسلمون هم البرابرة الذين أطلق عليهم اسم سراسان Sarrasins، إضافة إلى العداوة الدينية . فالإسلام بالنسبة للكنيسة هرطقة، وأن المسلمين على حد تعبير بطرس المبجل ـ أحد أبرز رجال الكنيسة في وقته ـ هم : « ضحايا خطة إبليسية عبر نبيهم الزائف، إن محمدا الحقير جدا والشرير جدا هو الذي وجههم ...وهو الذي قاد نحو ثلث الجنس البشري، عبر حكم إلهي لم نؤت

---

(1) المصدر السابق 68.

به علما، وعبر حكايات مخبولة مجنونة لم نسمع بمثلها من قبل، إلى الشيطان وإلى الموت الأبدي»[1]. ولقد اعتبر بطرس المبجل، الذي اتهم المسلمين باللجوء إلى العنف لأن العقل ليس في وصفهم[2]، وهو كلام سمعناه حديثا من أعلى سلطة كنسية، اُعتُبر بطرس هذا في الأدبيات الغربية رائد الحوار مع المسلمين ورائد الدراسات العربية والإسلامية في الغرب، ولكنه في الحقيقة كما يقول عنه أحد المسيحيين المعاصرين له بأنه «يذبح بسيف الكلمة المقدسة أعدى أعداء المسيحية المقدسة الثلاثة : اليهود والهراطقة والساراسان»[3]. ولم يجد راهب كنسي معاصر لدانتي ما يقول عن الإسلام بعد ما زار بغداد إلى أن خرج بالخرافة التالية على حسب تعبير جورافسكي فقال : «بما أنه لم تكن للشيطان قدرات ذاتية كافية لوقف انتشار المسيحية في الشرق، اخترع "كتابا"، يمثل حلقة وسطى بين العهدين القديم والجديد، واستخدم لأجل هذه الغاية الشريرة "وسيطا" من طبيعة الشيطان ذاته. أما "الكتاب" فهو القرآن، بينما "الوسيط" هو محمد، الذي يجسد دور المسيح الدجال»[4].

لقد كان خلق هذه الصورة للآخر البربري والكافر في عهد إمبراطورية روما وإمبراطورية الكنيسة، وكما هو الحال مع إمبراطورية الغرب، أحد المحفزات لتلاحم الجبهة الداخلية وإخراجها من مشاكلها التي تنخر فيها، ووضعها أمام هذا العدو المختلق.

ففي أعقاب الحملة الفرنجية الأولى، كتب جيبير النوجاني: « لقد أسس الرب في زماننا نوعاً مقدساً من الحرب، بحيث إن الفرسان والعوام الذين كانوا في السابق غارقين في مذابح بين الأشقاء، بما يتماشى مع أسلوب الوثنية القديم، قد وجدوا سبيلاً جديداً للفوز بالخلاص. فهم لم يعودوا بحاجة، مثلما كانوا بحاجة في السابق، إلى هجر العالم بالكامل بدخول أحد الأديرة أو بالتزام آخر مماثل. فبوسعهم كسب نعمة الرب وهم فيما اعتادوا عليه من أعراف وثياب ومن خلال أسلوب حياتهم العادي»[5].

---

(1) السلام الصليبي 257.

(2) السلام الصليبي 255.

(3) السلام الصليبي 256.

(4) الإسلام والمسيحية 74.

(5) السلام الصليبي.

وإذا كان البرابرة بالنسبة لروما ليسوا بشرا، فالمسلمون بالنسبة للكنيسة لا عقل لهم ومن ثم فهم ليسوا بشرا. وهذا الحكم على عدم بشرية الآخر ليس خاصا بالمسلمين، فالمطلع على تاريخ الغرب وموقفه من الآخر، ابتداء من روما إلى غزو العراق وأفغانستان ومحاصرة العالم الإسلامي حاضرا يبين أن الموقف الغربي الحديث لا يختلف عن موقف الكنيسة إبان عصورهم الوسطى.

ومناظرات بلد الوليد بإسبانيا خلال الغزوات الغربية لأمريكا حول سكان الهنود هل هم بشر لهم روح أم لا؟! خير دليل على ذلك.

أما في عصر الإمبراطورية الحديثة التي تجهد لنشر الديمقراطية، فهذا الجنرال وليام جري بوكين، والذي عين سنة 2003 السكريتير الثاني في وزارة الحرب الأمريكية المكلف بالتجسس يقول وهو يبرر حروب بلاده على الأشرار: «لأننا مجتمع مسيحي، ولأن أصولنا وجذورنا يهودية ـ مسيحية، ولأن العدو يسمى الشيطان»[1]. وفي مناسبة أخرى يصرح بما يلي : «نحن جيش الإله، في بيت الإله، وفي مملكة الإله، تربينا على هذه المهمات»[2].

وليس ببعيد منا، ما صرح به أحد الجنود الأمريكيين المشاركين في غزو العراق لنشر "الديمقراطية" حيث قال : «كنا نظن أن هؤلاء أصحاب البشرة الداكنة الذين لا يتحدثون الإنكليزية ليسوا بشراً»[3].

وفي علاقة العالم المسيحي مع ما أنتجه العقل المسلم، فقد تم التعامل معه بتعامل غريب، إذ جرى الاهتمام بمنجزات العقل المسلم على أنها أرقى ما وصل إليه العقل البشري، وفي نفس الوقت جرى رؤية هذا المسلم صاحب هذا الإبداع على أنه بربري وهمجي وليس له عقل يفكر به. إنها لمفارقة عجيبة وغريبة، تدل على مقاييس وموازين هذا الغرب، والتي يظهر أنها لم تتغير إلى يومنا هذا.

ويوجز لنا ماشناك هذا الموقف الغريب تجاه المسلمين فيقول : «في عين الوقت الذي كان تفوق العالم العربي يعتبر فيه من المسلمات، وفي عين الوقت الذي كانت

---

(1) Sous le sceau des croisades,14. Manière de voir.

(2) المرجع السابق.

(3) محمود المبارك، فاشية الغرب، جريدةالحياة08/08/11.

الدراسات العربية (Arabum studia) تمارس فيه في الغرب اللاتيني، فإن الصورة الكاريكاتورية الفجة لساراساني العصر الوسيط قد ازدهرت في المخيلة الشعبية»[1].

وعندما لم يستطع بطرس المبجل أن يرد المسلمين إلى الطريق الصحيح، فلقد أصبحوا ليس فقط الشعب البربري، بل إنهم أيضا أكثر الأجناس شرا.

هذه أقوال راهب مبجل في العصور الوسطى، فما الفرق بينها وبين ذلك الذي أعلن حربه الكونية ضد الأشرار والذي كان يقرأ كل يوم في الكتاب المقدس قبل النوم ليستلهم القرار المناسب، قيل يومها إنه يقرأ المزمور (137) من كتاب التوراة الذي يتضمن وعد الرب ودعاء اليهود بتدمير بابل التي نفاهم إليها نبوخذ نصر كما تذكر التواريخ.

″ يا بنت بابل المحتّم خرابها، طوبى لمن يجازيك بما جزيتنا به. طوبى لمن يمسك صغارك ويضرب بهم الصخرة ″ (المزمور 137).

وبما أن المسلمين كان ينظر إليهم بأنهم «أكثر الناس شرا» على حسب الراهب القديم بطرس المبجل، أو «محور الشر » على حسب الراهب الحديث، فلم يكن بد من إبادتهم. يقول « ولم يكن للمسلمين الكفار، بألف ولام التعريف، حرية الاختيار؛ فلم يكن من حقهم الاختيار بين التحول إلى اعتناق المسيحية والموت لأنهم كانوا يُعتبرون غير قابلين للتحول إلى اعتناق المسيحية. والتبشير، إن كان أحد قد فكّر فيه أصلاً، ما كان يمكن أن يكون ممكناً إلا بعد ″الدعوة بألسنةٍ حديدية″ أي بعد الحرب؛ لكن الحرب كانت حرب إبادة. والحال أن الدعوة إلى إبادة (exidium) ″الوثنيين″ قد قام بها الباباوات، كما قام بها القديس برنار، فهذا الرجل المقدس قد أظهر ما هو أكثر من حس حسن بتركيب الكلمات عندما أعلن أن قتل كافر ليس قتلاً لإنسان، بل هو إبادة للشر، وأن قتل وثني هو مجد مسيحي، ففي هذا القتل يجري تمجيد المسيح»[2].

لقد كانت الإبادة هي المصير الحتمي والوحيد للآخر المسلم، البربري، الشرير، ولم يكن هناك مجال لقبول التعايش والاختلاف. إن قصة حملة فريدريك الثاني الفرنجية، والتي استولى فيها على القدس بمعاهدة مع المسلمين، وليس عن طريق حرب فرنجية، قد اعتبرتها الكنيسة إساءة بليغة الدلالة؛ والسبب في ذلك هو أن فريدريك الثاني « لم يحارب

---

(1) السلام الصليبي 251.

(2) السلام الصليبي 176.

أعداء الدين بسيفه، ومن ثم أساء إلى الحملة الصليبية»[1] ويعلق توماس ماستناك على هذه الواقعة بقوله إنها «بليغة الدلالة بقدر ما هي غريبة، فهي تبين مدى ضآلة اهتمام المسيحيين اللاتينيين، ومن بينهم البابا، بالقدس (أورشليم) وفلسطين بالفعل - باستثناء المدينة المقدسة والأرض المقدسة التي خلقوها في أدمغتهم، إذ يبدو أن هذه القصة تقول إن "تحرير" أورشليم الأرضية كان أقل أهمية بالنسبة لهم من النضال المسلح ضد الكفار. فبحلول أواخر القرن الثاني عشر، كانت الحركة الصليبية قد كفت عن أن تكون حركة من أجل "تحرير الأرض المقدسة" وأصبحت بدلاً من ذلك حركة لإبادة الكفار - لمحو الوسخ الوثني - كما أن قصة فريدريك الثاني توضح إلى أي حد كانت الحركة الصليبية بالفعل شأناً داخلياً للجماعة المسيحية الغربية: فما كان مهماً بالفعل هو الآثار التي أنتجتها الحركة الصليبية داخل الجماعة المسيحية»[2].

وبكلمات دقيقة لقد كان السلام المتحقق التي كانت تسعى إليه الكنيسة مع المسلمين، هو نفس السلام الذي تسعى إليه الإمبراطورية الغربية الحديثة اليوم مع المسلمين «هو سلام القبور : السلام الأبدي (pax perpetua)، لأن الموتى يكفون عن القتال»[3].

لقد كان احتلال القدس النموذج الحي لتلك الحروب المقدسة التي أعلنتها الكنيسة على الآخر الشرير، يصف أحد مدوني الأخبار هذه المذابح التي تعرض لها الآخر المسلم الملعون بقوله : «إن أحدا لم يسبق له قط أن شاهد أو سمع عن مذبحة كهذه للوثنيين»[4].

وكتب ريمون الأجليري الرواية التالية المعبرة بصدق عن همجية المتحضرين الكنسيين «إلا أنه بعد أن استولى رجالنا على الأسوار والأبراج، لاحت للنظر مشاهد رائعة: فبعض رجالنا (وهذا كان أكثر رحمة)، قد قطعوا رؤوس أعدائهم، وآخرون رموهم بالسهام فسقطوا من الأبراج، وآخرون أطالوا تعذيبهم برميهم في النار. وقد شوهدت أكوام من الرؤوس والأيدي والأرجل في شوارع المدينة. ولم يكن هناك مفر من أن يشق المرء طريقه فوق جثث البشر والخيول»[5].

(1) نفس المرجع.

(2) السلام الصليبي.

(3) السلام الصليبي 177.

(4) السلام الصليبي 96.

(5) السلام الصليبي 97.

وإذا كانت روما قد حددت هوية وذات سكانها من خلال الآخر البربري، كما حددت الإمبراطورية وعيها اليوم بذاتها من خلال عدوها المختلق المسلم الأصولي والمتطرف، فإن أوربا قرون الوسطى قد حددت هي كذلك وعيها بنفسها من خلال الحروب المقدسة ضد الآخر السراساني المسلم.

يرى توماس ماستناك في كتابه " الإسلام وخلق الهوية الأوربية": أن أوروبا كوحدة ذات هوية جماعية وقادرة على تنسيق الفعل قد جرى التعبير عنها كقاعدة في العلاقة بالمسلمين كعدو".

ويضيف: "ومن زاوية النظر هذه، تظهر الحروب الصليبية بوصفها "الاتحاد الغربي الأول"، ويظهر خلق "جيش صليبي" بوصفه علامة على تقدم مثير نحو السلم والوحدة الأوروبيين. والواقع أن السلم والوحدة الأوروبيين كانا مرتبطين ارتباطاً حميماً بالحرب... بالحرب ضد أولئك الذين كان ينظر إليهم على أنهم يهددون تلك الوحدة، ضد أعداء في الداخل والخارج : الكفار، الهراطقة، دعاة الانشقاق (الذين جرى ضم المتوحشين إليهم فيما بعد). وقد جرى جعل المسلمين العدو من بين جميع الأعداء الممكنين، وجرى، على نحو سافر، اعتبار الحرب ضدهم مخرجاً للعنف الذي كان من شأنه، لولا ذلك، أن يجتاح الجماعة المسيحية وأوروبا، ومن ثمّ فقد جرى تصور السلم الأوروبي على أنه غير ممكن إلاّ بالارتباط بحرب ضد العدو الخارجي". ويضيف ما ستناك: "وكانت الحروب الصليبية حروباً دينية ضد الإسلام، حيث لا يعتبر المسلمون كفاراً بين كفار كثيرين، بل يعتبرون العدو الأول للمسيحية. وما كان جديداً لم يكن هو معرفة الإسلام، بل الإصرار على تدميره عن طريق العنف المنهجي الذي تنظمه أعلى السلطات المسيحية"(63).

يقول المستشرق توماش ماستناك في كتابه " الإسلام وخلق الهوية الأوربية " : « إن تشكيل أوروبا بدأ بالحرب المقدسة التي خاضها المسيحيون اللاتينيون ضد المسلمين، إني أفهم الحروب الصليبية بوصفها تجربة تكوينية حاسمة لما سوف يصبح أوروبا، وأعتبر أن هذه الحروب كان لها أثر عميق على الأفكار والمؤسسات الغربية»، ويضيف ما ستناك: «وكانت الحروب الصليبية حروباً دينية ضد الإسلام، حيث لا يعتبر المسلمون كفاراً بين كفار كثيرين، بل يعتبرون العدو الأول للمسيحية.. وما كان جديداً لم يكن هو معرفة الإسلام، بل الإصرار على تدميره عن طريق العنف المنهجي الذي تنظمه أعلى السلطات المسيحية.

ما كان جديداً لم يكن هو أن عدواً قد جرى النظر إليه على أنه الآخر، بل إن آخر محدداً (هو الإسلام) قد جرى تصويره على أنه العدو الشامل»[1].

كما لا ننسى أن نشير هنا، بأن تلك الحرب المقدسة التي شنت على المسلمين لم تكن فقط حروبا عسكرية، بل حاولت أن تكون شاملة كما هو الحال الآن. فهذا رجل العلم بيكون الذي تتلمذ على المعرفة العلمية للحضارة الإسلامية، كان يسعى لنهضة علمية ومعرفية تتوخى أربعة أهداف رئيسة؛ منها :

ـ استخدام العلوم لتيسير كنيسة الرب وتنظيم أسرة المؤمنين.

ـ تأمين تحويل غير المؤمنين إلى اعتناق المسيحية وقمع أولئك الذين يصرون على التمادي في خبثهم[2].

وخلاصة لهذه الفترة، وبشكل عام، وكما يوجز لنا إتيان جيليسن GILSON : «فقد تكونت في وعي الأوروبيين في القرون الوسطى ملامح اللوحة التالية عن الإسلام : إنه عقيدة ابتدعها محمد، وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، إنها دين الجبر، والانحلال الأخلاقي، والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية، إنها ديانة العنف والقسوة»[3].

الغرب الحديث والآخر :

يمكن اعتبار سنة 1492م محطة أساسية لظهور الغرب الحديث، ومن خلال هذه المحطة ستتشكل المنظومة المعرفية الغربية انطلاقا من التراث السابق ومن وقائع النشأة الجديدة.

ففي هذا السنة ثمة حدثان أساسيان سيشكلان فيما بعد الأسس للعلاقة مع الآخر في المنظومة الغربية : الطرد من جهة، والاستيلاء والتدمير من جهة أخرى. ففي هذه السنة تم طرد المسلمين من الأندلس، وفيها كذلك تم الاستيلاء على أراضي الهنود وإبادتهم وتدمير حضاراتهم. وانطلاقا من هذه السنة يبدأ بالنسبة للعقل الغربي زمن

---

(1) توماش ماستناك، الإسلام وخلق الهوية الأوروبية، ترجمة بشير السباعي، نقلا عن :

عبد الوهاب محمود المصري، مؤامرة الغرب على الإسلام، مجلة الفكر السياسي، العدد 21، السنة الثامنة، شتاء 2005.

(2) السلام الصليبي 280.

(3) E.GILSON, «Les Sources gréco-arabes de l'augustinisme avicennisant»,., vol.IV, 1929; Archives d'histoire doctrinale et littéraire du Moyen-Âge, vol. 4, p.-101102

جديد لم تألفه البشرية من قبل، زمن يقول عنه لاس كاساس : " إنه الزمن الجديد إلى هذا الحد والذي لا يشبه أي زمن آخر[1]. وبعد مرور خمسمائة عام على هذا الزمن يكتب نعوم تشومسكي واصفا هذه الفترة المظلمة من تاريخ البشرية، والمتنورة بالنسبة للإنسان الأبيض فيقول : « لقد سمح سقوط غرناطة في 1492 والذي ختم ثمانية قرون من سيادة المور، لمحاكم التفتيش الإسبانية بتوسيع سيطرتها البربرية. وأتلف الغزاة كتبا ومخطوطات لا تقدر بثمن بما حملته من سجل غني للتعاليم الكلاسيكية ودمروا الحضارة التي ازدهرت في ظل حكم المور المتسامح المثقف»[2].

لقد أطلق غزو القارة الأمريكية ، أو ما يطلق عليه الإنسان الأبيض، اكتشاف العالم الجديد، «اثنتين من الكوارث السكانية التي لا مثيل لها في التاريخ : إهلاك السكان الأصليين في نصف الكرة الغربي، وخراب إفريقيا حيث توسعت تجارة الرقيق سريعا لخدمة حاجات الغزو، وأخضعت القارة كلها»[3].

وفي الجانب الآخر من الكرة الأرضية، فإن أولئك الهنود المتسامحين، والذين نجوا من إبادات 1492، والذين رفضوا الخنوع والاستسلام لهذه البريرية الحقيقية فقد تكلفت بهم الكنيسة الكاثوليكية التي سنت ابتداء من سنة 1572 محاكم التفتيش في البيرو والمكسيك.

وعلى خطى هذه الرؤية الصليبية الجديدة كانت الغزوات الغربية لأمريكا، وقد يخيل للمرء من خلال قراءة سريعة لمذكرات كولومبوس ـ كما أشار إلى ذلك تدوروف ـ أن الذهب والبحث عنه كان المقصد من هذه الرحلات/ الغزوات، نظرا لأن كلمة الذهب ترد كثيرا في مذكراته ومراسلاته. يقول كولومبوس في يوميات الرحلة الثالثة : «يعلم ربّنا حق العلم أنني لا أتحمل هذه المعاناة لكي أحقق الثراء لنفسي، لأنني أعرف عن يقين أنّ كل شيء في هذا الزمن زائل إلاّ من يجري عمله لوجه الرب»[4].

وفي ختام روايته للرحلة الرابعة : «لم أقم بهذه الرحلة سعيا إلى كسب المجد أو الثروة، هذا مؤكّد، لأنّ الأمل في مثل هذه الأمور كلّها كان قد مات، لقد جئت إلى سموّكما بمقصد شريف وحمية نزيهة، وأنا لا أكذب» [5].

---

(1) فتح أمريكا 11.

(2) سنة 501 الغزو مستمر 13.

(3) نعوم تشومسكي، سنة 501 الغزو مستمر 13.

(4) فتح أمريكا 15.

(5) نفس المرجع.

«وفي الحقيقة لم يكن الهدف من هذه الغزوات ماديا فقط، بل كان المحرك الأساسي لها الذي قاد أوربا لركوب مخاطر المحيطات الغامضة، والتضحية بأغلى ما يملك الإنسان وهي نفسه، والإبحار الطويل نحو المجهول، إنه الهدف الذي يستحق كل غال، إنه تصفية الحساب مع عدو تاريخي، إنه تصفية الحساب مع الإسلام الذي زحزح عرش الكنيسة عن الكثير من بقاع العالم، وحرر الملايين من الناس من جبروتها وظلمها. ومن هنا كانت الغاية الاستراتيجية من هذه الغزوات تتمحور حول ثلاث ركائز أساسية سواء في العصر الصليبي الأول الذي كانت تقوده الكنيسة أو في العصر الصليبي الحداثي المعاصر الذي تقوده الإمبراطورية الغربية. هذه الركائز هي :

- ✤ نشر المسيحية قديما والتغريب حديثا،
- ✤ محاصرة عالم الإسلام، والذي يستكمل الآن، والمطلع على خريطة العالم الإسلامي اليوم يرى بوضوح بأنه محاصر من جميع الجهات، برا وبحرا وجوا. وهذا ما أراد أن يفهمنا إياه تشومسكي من خلال عنوان كتابه: 1492 الغزو ما زال مستمرا، أي أنه لم يتوقف منذ سنة 1492. وكما يقول فقيه العلوم السياسية سيف الدين عبد الفتاح، فإن الأمة انتقلت من حصار العسكر الذي كان يحاصرها من أجل الآخر، إلى حصار المعسكر، ويعني المعسكر الغربي، الذي يحاصر الأمة من كل الجهات.
- ✤ ويستكمل هذا المشروع الاستراتيجي بالاستيلاء على بيت المقدس، والذي أسس فيه الغرب الحديث قلعته وقاعدته العسكرية الكبرى.

وليس من باب المصادفة أن تبدأ مشاريع الغزو الغربي في القرن 15 م بدولتين تحملان جينات العداء للإسلام هما إسبانيا والبرتغال.

لقد كان الدافع الأول لكولمبوس وهو الرجل المتدين ،عميق التدين، الذي لا يبدأ الإبحار أبدا يوم الأحد، كما يقول تدوروف، هو انتصار المسيحية العالمي. ففي رسالته إلى البابا ألكسندر السادس يقول : «أتمنى من ربنا أن يهبني القدرة على نشر اسمه المقدس وإنجيله في أرجاء الكون»[1]. وعن رحلته القادمة كما يشير كولمبوس في رسالته إلى البابا سوف تكون « لمجد الثالوث المقدس، ولمجد الدين المسيحي المقدس»[2].

(1) فتح أمريكا 16.

(2) نفسه.

وسيادة المسيحية العالمي رهين بالقضاء على الإسلام والاستيلاء على القدس قلب العالم الإسلامي في صراعه قديما وحديثا مع الإمبراطورية.

ولهذا يضيف كولومبوس «فقد أعلنت لسموكما أن كل مغانم مشروعي هذه سوف تنفق على فتح القدس. وقد ابتسمتما يا صاحبي الجلالة وقلتما أن ذلك يسركما، وأنه حتى دون ذلك فإن لديكما تلك الرغبة القوية».

وهو كولومبوس يشير مرة أخرى إلى ذلك اللقاء فيما بعد بالقول: «عندما بدأتُ الاستعدادات لاكتشاف جزر الهند الغربية، كان ذلك بقصد مناشدة الملك والملكة، عاهلينا، اتخاذ قرار بإنفاق الموارد التي يمكن أن ترد إليهما من جزر الهند الغربية على فتح القدس. وهذا الشيء بالفعل هو ما طلبته منهما»[1].

لقد كان كولمبوس محاربا صليبيا مخلصا، يرى في كل أعماله ومغامراته وتضحياته، أحجارا ومحطات تعبد الطريق إلى المقصد النهائي من مشروعه : احتلال بيت المقدس. فها هو حماسه يجعله يلتمس من الملكة دونيا ايسا بيلا «أن تقسم بأنها سوف تنفق الثروة التي سوف يكسبها الملكان من الاكتشاف على استرداد أرض وبيت المقدس»[2].

ومن أجل هذا الهدف الاستراتيجي العقدي الكبير، قديما وحديثا، كان لا بد من القيام بعملية التفاف ومحاصرة العالم الإسلامي. لقد صار هدف أوروبا، كما يقول ـ روسلان موسينه : «خلال قرنين كاملين بلوغ آسيا، فالوصول إلى الهند والصين واليابان، واستثمار ما فيهما من موارد طائلة، وحمل سكانهما على اعتناق المسيحية، والقيام بحركة التفاف على الإسلام، من ورائه، والعمل على سحقه بحيث لا يبقى على الأرض سوى إيمان واحد، وحضارة واحدة، تلك الغاية الأولى، والحلم الأسمى البعيد الذي راود خواطر الأوربيين بكثير من الإغراء»[3].

وفي الوقت كان فيه الجلادون والحجاج القديسون يمارسون ابتداء من سنة 1492، في حق شعوب أمريكا والقارة الإفريقية فيما بعد كل أنواع الإبادة والتصفية، أو بتعبير

---

(1) فتح أمريكا 17.

(2) فتح أمريكا ـ مسألة الآخر 18.

(3) روسلان موسينه، تاريخ الحضارات العام، 422/4، نقلا عن الإسلام وأوربا المسيحية، 219.

دقيق « يصنعون الفراغ - بالإبادة الجماعية - فيما سيطلقون عليه " العالم الجديد"، الذي هو في حقيقة الأمر أقدم من الغرب نفسه، كان ما يطلق عليهم بمفكري الأنوار في عواصم الغرب ينظرون لهذه الإبادة ويحاولون المواءمة بينها وبين القيم التي قامت عليها النهضة الغربية : الإخاء والمساواة والحرية. فمفكرو وفلاسفة هذه الفترة صاغوا خطابا شاملا، يعطي معنى ويوائم في نفس الوقت بين الطرد والاستيلاء، هذا الخطاب وكما تصرح به سوفي بسيس في كتابها المتميز " الغرب والآخر" سيشكل الأرضية والأساس للفكر الغربي»[1].

هذه الأرضية ستستمد من الماضي البعيد روما، ومن القريب مسيحية القرون الوسطى، ومن الحاضر الغربي القائم على تفوق العنصر الأبيض الذي اختلقته فلسفة الأنوار. ومن هذه الأرضية ستحدد علاقة الغرب في تعامله مع الآخر : فإذا كان غير غربي فيجب أن يساق إلى الإبادة ومن نجا إلى التحضر، وذلك لا يتم بالطبع إلا بالسلاح، لأن البرابرة يكرهون التحضر. وبالرغم من أن صناع القرار والغزوات هم أبناء العلمانية، فقد شاركت الكنيسة بدورها في المهمة التحضيرية التدميرية.

ومن هذا المنطلق، وكما تقول بسيس فإن الغرب قد قام بأول إبادة في التاريخ. ففي خلال حوالي ثلاثين سنة تمت إبادة 80% إلى 90% من سكان الأنتيل الكبرى، وعلى صعيد القارة انتقل عدد سكان الهنود المكسيكيين من 25 مليون سنة 1519 إلى 1,9 مليون سنة 1580[2]، وخلال احتلال فرنسا الأنوار والحرية والمساواة بلاد الجزائر فقد نقص سكان الجزائر خلال نصف قرن بحوالي نصف مليون[3].

ومن أجل تبرير الإبادات التي تعرض وسيتعرض لها كل من هو غير غربي، وتبرير الغزوات التي سيتعرض لها العالم غير الغربي، صاغ فلاسفة ومفكرو الأنوار منظومة عبء الرجل الأبيض. فإذا كانت الكنيسة تبرر حروبها المقدسة الدينية لنشر المسيحية، فغرب الأنوار باعتباره علمانيا صاغ نظرية عبء الرجل الأبيض، وهي نظرية تلزمه بالقيام بالغزوات والإبادات لإخراج الناس من البربرية إلى الإنسانية ومن الهمجية إلى الحضارة كما يتصورها الإنسان الأبيض.

---

(1) Sophie Bessis, L'Occident et les autres : Histoire d'une suprématie, p.17.

(2) المرجع السابق .

(3) المرجع السابف 45.47.49.

فهذا ماركس أحد أنبياء الغرب إلى رجعيي العالم غير الغربي، فقد ذهب في خطاب تقدمي له بأن غزو بريطانيا الرأسمالية والإمبريالية ـ للهند يعتبر عامل تحضر « أمام إنكلترا مهمة مزدوجة تنجزها في الهند : الأولى تدميرية والثانية توليدية ...إزالة المجتمع الآسيوي القديم ووضع الأسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا»[1]. وانطلاقا من هذا التمركز حول الغرب، يذهب ماركس أبعد من ذلك حينما يقول : « إن المجتمع الهندي لا تاريخ له، أو على الأقل ليس له تاريخ معروف. وإن ما نسميه بتاريخ الهند ما هو إلا تاريخ الغزاة المتعاقبين الذي أقاموا إمبراطورياتهم على القاعدة السلبية لهذا المجتمع الجامد واللامقاوم»[2]. إن ماركس يقول لنا بوضوح : لا حضارة إلا في الغرب، ولا تاريخ إلا في الغرب، ولا وجود إلا في الغرب أو بالغرب.

أما زميله في النضال من أجل التوسع الغربي إنجلز، فقد صرح عندما اعتقل الغزاة أمير المقاومة الأمير عبد القادر الجزائري، بأنه «لا أمل من نضال البدو ...غير أن فتح الجزائر هو حدث يحمل البرجوازي الحديث الحضارة والصناعة والنظام والأنوار إلى السيد الإقطاعي أو قطاع الطرق وللحالة البربرية للمجتمع»[3].

وهيغل نفسه، وهو يتحدث عن سكان أمريكا الأصليين وعن مآل مصيرهم الإبادي لا يفسر ذلك ببربرية الإنسان الغربي بل لأن الهنود بحسب فيلسوف الصالونات الغربي كانوا « معدومي القوة جسديا ونفسيا»، ومن تم «تلاشى السكان الأصليون تدريجيا أمام أنفاس النشاط الأوروبي»، أما الزنوج «مجرد أشياء، موضوعات لا قيمة لها» [4].

وكما لاحظ آدم سميث، كان النجاح الأوربي ناتجا عن تمكن أوربا من ثقافة العنف وانغماسها فيها، أو على حد تعبيره «كانت الحرب في الهند ما تزال نوعا من الرياضة»[5].

لقد كان لقاء سكان أمريكا وإفريقيا بأوربا يدشن وكما تقول صوفي بسيس لمرحلة قاتلة Mortifiére. إنها أوربا عصر النهضة، التي ما زلنا نتغنى بفنها وشعرائها

---

(1) مارشو، مقجمات الاستتباع،118.

(2) المرجع السابق.

(3) Le marxisme et l'Algerie, 25-26.

(4) 1492 الغزو ما زال مستمرا، 12-13.

(5) الغزو ما زال مستمرا، 17.

وفلاسفتها، إذ هي نفس أوربا وفي نفس الوقت هي التي كانت تمارس حروب التوسع والتدمير والقتل. إنها كانت تؤسس لمنظومة البقاء للأقوى [1].

لقد كان لقاء أوربا بإفريقيا وغيرها، كما كان لقاء أولئك الحجاج القديسين بالهنود، قائما على التدمير والإبادة، ومن استعصى على ذلك، كانت هناك محاولة إبادة من نوع تقوم على مسخ الآخر من هويته الإنسانية وتكوين هوية مستعبدة، وهذا ما فعل الاحتلال الغربي بعد اختفاء آلته العسكرية التدميرية.

وفي هذا الإطار سيصبح الغرب كله روما، أو ما يسمى بالمركزية الغربية. فروما، ستصبح هي الغرب بأسره. والمركزية الغربية ليس مصطلحا جغرافيا يشير إلى موقع الغرب في مركز الخريطة الأرضية، بل هو أبعد من ذلك. إنها مصطلح حضاري عنصري شامل. فالمركزية الغربية تعني بأن الغرب هو مركز وقلب العالم، وبمعنى آخر فإن الغرب هو الحضارة ـ كما كانت روما من قبل ـ هو التقدم، والإنسانية، والعقلانية والتوحد. وفي مقابل هذا الغرب، وكما كان في مقابل روما، توجد في مقابل الغرب على الأطراف والهوامش، وهي البلاد التي يسكنها البرابرة، وهي بلاد التوحش، والتجزؤ، والإرهاب والتطرف والأمراض والحروب.

إن المركزية الغربية هي التمركز حول الذات ورؤية العالم والآخر من خلال الذات. وستؤدي هذه الرؤية إلى نفي الآخر وعدم الاعتراف به.

وكما كان قدر روما المتوهم والمتخيل هو نشر السلم، فكذلك كان قدر الإنسان الأبيض ورسالته الإمبريالية : عبء الإنسان الأبيض، وهو حمل هؤلاء البرابرة والمتوحشين على الحضارة وعلى التقدم كما يحددهما الإنسان الأبيض.

فهذا جيل فيري أب المدرسة العلمانية بفرنسا يقول أمام البرلمان : «أكرر بعد سن الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن، أن على الأجناس العليا حق، لأن من واجبهم تحضير الأجناس السفلى»[2]. لقد كان فيري صادقا، حينما بيّن أن الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان، هو خاص بالإنسان في المنظومة الرومية الغربية، أما الأجناس الأخرى، فلا بد لهم من التحضير، ثم بعد سيرى هل لهم حقوق أم لا ؟.

لقد تشكل الغرب الحديث إذن من هذه الثنائية التي لا تنفصم عراها : الغزو والإبادة. وإذا كان الغزو لم يتغير ليومنا هذا، بل ازداد تدميره وتناثرت جثث ضحاياه

(1) L'occident et les autres 26-27.

(2) L'occident et les autres, 35.

خصوصا من المسلمين، فإن الإبادة هي كذلك ما زالت قائمة كما كانت في عهد كولومبوس كما هو الحال في فلسطين والعراق وأفعانسان، وأضيف إليه شكل آخر وهي الإبادة الناعمة ونعني بها الإبادة الثقافية والفكرية والحضارية مع المجتمعات الأقل مقاومة أو ما يسميه سرج لاتوش بـ Ethoncide culturelle.

وأخيرا،

في ختام كتابهم المشترك : الآخر البربري، يقول مؤلفو هذا الكتاب وهم على التوالي المفكر المسلم ضياء سردار والمفكرة الهندية أتيس ناندي؛ وما يلي : « يجب على العالم غير الغربي أن يتعلم كيف يتخاطب مع نفسه وعن نفسه عبر لغته الذاتية، وأن يعيد تلقين تقاليده وتاريخه بشكل أكثر مرونة وديناميكية. وعندما ينبني النقاش على تصوره الذاتي للكون يمكنه أن يخلق علاقة جديدة مع العالم الغربي وإعطاء نظرته الذاتية لما بعد الحداثة»[1].

نعود من حيث بدأنا، فإذا كان كولومبوس قديما والمؤسسات الغربية حديثا ـ كما بين تودوروف بوضوح يمتلك على المستويين الواعي واللاوعي « طريقة محددة جدة وثابتة في فهم الحياة، بما في ذلك وجهة نظر عما سيجده في الطرف الآخر من العالم»، فإنني أتساءل هل أمتنا ومن يقودها من أصحاب الفكر وأصحاب السلطة يملكون شيئا من ذلك ؟؟.

لقد تبين من خلال هذه الأسس المعرفية الضاربة في التاريخ، أن أوربا قديما وأوربا حديثا لا يمكن أن تنعم بالهناء والاستقرار الداخلي إلا من خلال اختراع عدو، ومن خلال حروب دموية وإبادة. فعندما بشر أحد فقهاء الإمبراطورية عالمه بنهاية التاريخ ونهاية الصراعات، لأن البشرية ليس أمامها سوى حقيقة الغرب المطلقة وهي الليبرالية، لم تكد تمر أيام على هذه البشرى السارة، حتى قام أحدهم محفزا إمبراطوريته بحروب قادمة بين حضارات مختلفة تستعصي على الذوبان وعلى الانكسار أمام حضارة الإمبراطورية، وهي الحروب التي تكتوي بها أمتنا الآن.

إن الحوار مع الغرب كما يقول أستاذنا عبد الوهاب المسيري ـ رحمه الله ـ يجب أن يكون حوارا مسلحا، أي حوارا بين جهتين متكافئتين من جميع الجوانب، وإلا فإننا أمام استعباد جديد وهو الحال اليوم.

---

(1) Barbaric Others, 9 3.

لائحة المراجع والمصادر

الإسلام والمسيحية، جورافسكي، عالم المعرفة ع 215.

أمريكا والإبادة الجماعية، منير العكش، دار الساقي، 2002.

أوهام الإمبراطورية وعظمة البرابرة، ج ك روفين، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 1995.

السلام الصليبي، توماش ماستناك، ترجمة بشير السباعي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، رقم 620، 2003 م.

سنة 501 الغزو ما زال مستمرا، نعوم تشومسكي،ترجمة مي النبهان، دار المدى، 199.

"**فتح أمريكا** ـ مسألة الآخر، تودوروف، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر الطبعة الأولى 1992.

مقدمات الاستتباع، غريغوار مرشو، المعهد العالي للفكر الإسلامي، 1996.

مؤسسة الاستشراق والسياسة الغربية، عبد الله يوسف سهر محمد، دراسات استراتيجية، ع57، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية.

مراجع ومصادر غربية

- **Ayse Ceyhan,** «La fin de l'en-dehors : les nouvelles constructions discursives de l'ennemi intérieur en Californie», Cultures & Conflits, 43, automne 2001, [En ligne], mis en ligne le 28 février 2003. URL: http:// www. conflits. org/ index 569. html. Consulté le 16 août 2009.
- BESSIS,Sophie, **L'Occident et les autres : Histoire d'une suprématie, La Découverte,2003.**
- Manière de Voir: Sous le sceau des croisades, n°78, le Monde diplomatique.
- **Mattéi, Jean François**, La barbarie intérieure, Essai sur l'immonde moderne, Presses Universitaires de France, Paris, 1999.
- **Ruffin, J;C,** L'empire et les nouveaux barbares, Jean-Claude Lattès,1991.

الإسلاموفوبيا العالمة : قراءة في المفهوم والمسار

الدكتور إدريس مقبول (*)

صناعة نفسية العالم :

تجتهد اليوم دوائر القرار السياسي والاقتصادي العولمي في رسم صورة لكل طرف في معادلة الصراع الدائر حاليا بين المتدافعين والمتخاصمين والمتزاحمين على خيرات ومصادر الطاقة في عالمنا المعاصر.

ولسنا نقصد بالصورة معناها الأيقوني المختزل، وإنما كل الأشكال التي يمكن أن تكون حاملة لملامح الكائن ومحددة لسماته الوجودية والوظيفية، فتكون الصورة عندنا على أشكال لا منتهية بسبب تعدد الحوامل وإن توحدت في الغائية من مخاطبة العقل والخيال وانطباع الصورة فيه حتى تشكل تصورا يرتقي إلى مرتبة التصديق.

وطبيعة الصورة التي يرسمها كل طرف عن الأطراف الأخرى تتحكم فيها عوامل معقدة تعكس في النهاية الموقف الوجودي والمسافة الفاصلة وطبيعة العلاقة أو التقاطع القائم بين الأطراف التي ترغب في فرض هيمنتها على الآخرين وتسخيرهم.

وفي كل الأحوال تلعب الصورة ومجال الصورة دورا محوريا في عمليات الاستقطاب والتعبئة والهجوم والمناورة والخداع والضبط والتحكم بما تحمله طبيعة الصورة من إمكانات لاختراق عالم الحقيقة إلى عوالم المجاز، وتجاوز عالم الواقع إلى عوالم المتخيل، وقد لا يخفى على المتتبع أننا تعمدنا الإشارة إلى عالم الحقيقة والواقع بالإفراد في مقابل عوالم المجاز والمتخيل بالجمع اللامتناهي، وذلك راجع لما نعتقده من أن أشرس الحروب وأخطرها تلك التي تدور بآليات مخترعة ومن وحي الخيال والكذب والاختلاق وهي بطبيعتها متعددة، منتقلة من واقع ظالم تحوله بسحرها إلى واقع مظلوم، فينقلب حينئذ سلم القيم رأسا على عقب.

(*) المركز التربوي الجهوي بمكناس ـ المغرب.

وإذا ظهر ما للصورة التي يرسمها اليوم كل طرف عن الآخر في عالمنا، خصوصا الأطراف المتغلبة، ظهر معها ما تقصد إليه هذه الصور من عمل متواصل لصناعة ما نسميه نفسية العالم التي أصبحت رهانا استراتيجيا من أجل المزيد من استلاب الإنسان وسلخه عن إنسانيته لينتهي وعاءً فارغا تملأه هذه القوى الأفعوانية بما تعده من سموم الخطط وبرامج التزييف.

إن أي صورة لاشك تحمل مدلولا قد يكون مرادا لصانعها أو مرادا لغيره من المجازات مما يتفنن فيه الأخصائيون والخبراء والكتاب وتتفاوت قدراتهم في تطريزه وتثقيفه حتى يفعل فعله السحري في جمهور المخاطبين به.

نفسية الخوف :

هناك قاعدة نفسية تعتبر أن تعريض الإنسان للتخويف يسهم في إضعاف قدراته العقلية والنقدية والإبداعية، ويتحول إلى كائن شبه مسلوب، بل ربما يفقد الإنسان قدرا كبيرا من إنسانيته التي تقوم على عنصر الممانعة والرفض، لأن الخوف يؤدي للاستسلام والخنوع.

ولأجل ذلك وجدنا أن المتحكمين اليوم في رسم السياسة العالمية يجتهدون في خلق جو من الرعب والخوف بين الفينة والأخرى من قضايا يؤرقهم حلها وفق أجندة الحقوق والعدالة الاجتماعية والشفافية ليحشروا العالم المستهدف في دوامة من الارتعاب الذي تختلط فيه الأوراق والحقائق بالأراجيف والأكاذيب ليسهل قيادة الجماهير بسهولة نحو برامج تزيد من استضعافها وتسليمها لمقاليدها لغيرها لينوب عنها في إدارة الصراعات المصيرية.

أكبر مثال على ذلك اليوم ما تواجه به قوى الاستكبار العالمي المتصهين حركية الإسلام المتصاعد والمتنامي هنا وهناك في كل أصقاع الأرض، حركية الإسلام هاته التي باتت تمثل جدار الصد في وجه الغطرسة الأمريكية والصلف الغربي المعربد استعمارا وتدخلا سافرا في شؤون الشعوب والدول واحتكار خيراتها واستغلالها بغير وجه حق بعد أن أغرقتها في مديونية مجدولة بفوائد خيالية جعلت هذه الشعوب لا تملك قراراتها ولا كلمتها.

أسهل طريق إلى التحكم في عباد الله وتسخيرهم عبيدا للطغيان الجارف هو رفع معدلات الخوف من شيء ما، وليكن الإسلام هذه المرة.

فكيف تشتغل آلية التخويف وما هي مستويات عملها؟

سنحاول أن ننظر في واحدة من هذه المستويات التي تسهم في ما يسمى بالإسلاموفوبيا ألا وهي الأدبيات المحسوبة تجاوزا على جانب من قطاع المعرفة والعلم، وتسمى بالإسلاموفوبيا العالمة.

فماهي طبيعتها؟ ومن هم بعض روادها؟ وكيف تطورت؟ وكيف السبيل لمواجهتها؟

الإسلاموفوبيا مرض نفسي :

دخل مصطلح الإسلاموفوبيا إلى دائرة الاستعمال والتداول قريبا جدا، إذ تذهب بعض الدراسات إلى اعتباره من المصطلحات الجديدة كل الجدة رغم أن مدلوله بما هو رهاب مرضي من الدين الإسلامي قديم قدم الإسلام نفسه عقيدة وشريعة حياة.

وقد أطلق سنة 1996 على يد من يطلقون على أنفسهم (لجنة المسلمين البريطانيين والفوبيا من الإسلام)، ومع الوقت زاد انتشاره مع ارتفاع معدل الحديث عن مشاكل المسلمين وأزماتهم في العالم خصوصا في صدامهم مع العالم الغربي تحديدا، حتى إن السكرتير العام للأمم المتحدة السابق كوفي عنان سيترأس مؤتمرا بعنوان (مواجهة الفوبيا من الإسلام) سنة 2004 فضلا عن إدانة قمة المجلس الأوربي للفوبيا من الإسلام في مايو 2004 [1].

ولئن كان مدلول الإسلاموفوبيا قديما فإنه تزايد اليوم في عالمنا المعاصر بسبب مشكلة الصورة التي تحدثنا عنها، خصوصا وأن المخيال الغربي ترسخ عنده أن صورة تصاعد النجم الإسلامي تعني عنده تاريخيا أفول النجم الغربي وما سواه من النجوم.

بعد 11 شتنبر سيصبح استعمال المفهوم دارجا على لسان الجميع في فرنسا كما في باقي الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأميركية هكذا سيظهر في أكتوبر 2001 مفهوم الإسلاموفوبيا على الموقع الإلكتروني لكل من المرصد الأوروبي لظواهر العنصرية ومعاداة الأجانب بفيينا EUMC والشبكة الأوروبية ضد العنصرية ENAR أما في فرنسا فإن سنة 2003 ستعرف تنظيم يوم دراسي في موضوع l'islamophobie du Racisme anti-arabe من قبل

---

(1) Danyal Babees; Islamophobia, Newyork sun, 25 oct 2005.

منظمة الحركة ضد العنصرية ومن أجل الصداقة بين الشعوب PARM كما سيتشكل التجمع ضد الإسلاموفوبيا بفرنسا ccif الذي أصدر أول تقاريره في 21 أكتوبر 2004 كما سيجد المفهوم طريقه إلى دائرة المشتغلين بالسياسة، حيث سيستخدمه الوزير الأول الفرنسي السابق nirafar.erreip.j في كلمة له بمناسبة افتتاح المسجد الكبير بباريس في 17 أكتوبر من نفس السنة.

ونحن لما أشرنا إلى تأثير الصورة المصنوعة في تشكيل نفسية الإنسان، كنا نرمي إلى القول بأن موقف الغرب النفسي من ظاهرة الإحياء الإسلامي، وعودة الإسلام إلى حياة الناس عبر تنامي الحديث عن قضايا الفكر والسلوك الخاصين مما يتصل مباشرة بالإسلام باتت تعمق حالة الخوف من هذا العائد الجديد إلى مسرح الحياة.

حالة الخوف من الإسلام أو ما يصطلح عليه بالإسلاموفوبيا هي حالة سيكولوجة مرضية تغذيها روح العداء والكراهية التي تسكن العقلية المناهضة للوجود الإسلامي سواء كانت دينية؛ مسيحية أو يهودية أو حتى علمانية أو ملحدة.

وإذا كنا نتحدث عن حالة مرضية من طبيعة نفسية مركزية، فإن الحديث عنها يضطرنا للقول بأننا انتقلنا من ظاهرة مرضية فردية ومتناثرة إلى ظاهرة جماعية ذات قدرة على الانتشار والتوسع الدائري والموجي مع ازدياد الحديث عن الإسلام والمسلمين بالخير أو الشر في العالم.

إن الإسلاموفوبيا وإن كانت تدخل في نطاق المسكوت عنه من حيث كونها تتداخل مع أشكال أخرى من العنصرية والتمييز ضد الأجانب xénophobie فإن الإشارات الكثيرة الصادرة عمن يقفون وراءها تجعل من السهل تعريتها؛ ففي سنوات السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي كانت السلوكات العدوانية تتوجه بالأساس نحو مآوي المهاجرين والجمعيات المدافعة عن حقوق الأجانب بما يدفع للقول بأن رموز الهجرة والمهاجرين هي التي كانت مستهدفة من مختلف أشكال التمييز، أما اليوم فإن نفس المنطق يجعل المتأمل يقول بأن رموز الحضور الإسلامي بالغرب هي المستهدفة على خلفية مهاجمة المساجد والأئمة والنساء المحجبات. هكذا إذن يرتكز الرفض في الإسلاموفوبيا عبر كل وسائل الإعلام وكل الوسائط الثقافية لا على الأصل وإنما على المرجع الديني باعتباره يحيل على الهوية. إنه الإسلام إذن ديانة المهاجرين المستوردة والغريبة على الثقافة اللاتينية كما توطرها أطروحات الإسلامفوبيين التي تجد من الفضاء الإعلامي مجالا شاسعا لترسيخ رؤيتها الضيقة للإسلام والمسلمين

والتي لا تمل من تكرار نفس الصور النمطية لأناس يرون من ظهورهم وهم يصلون في العراء، تجمعات حاشدة تصرخ وتهدد، نساء محجبات، وجوه ملتحية، أفواه مفتوحة وعيون محملقة [1].

إنها ظاهرة مرضية يستغلها اليمين المتطرف في أوربا يوما بعد يوم لينفذ مخططاته العنصرية تجاه الأجانب من سكان شمال إفريقيا أو الشرق الأوسط أو إفريقيا باعتبارهم محتلين جدد للعالم المتحضر وعناصر فتك وتدمير لتاريخ من التقدم والنضال من أجل العقل والحضارة.

مع الإسلاموفوبيا تتحول البشرة السوداء أو اللحية أو الحجاب أو المآذن أو الذبائح الإسلامية أو أي رمز من الرموز التي قد تتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بالعالم الإسلامي إلى لوحة إنذار وتخويف ونفث للرعب في أوساط جموع الأوربيين المستسلمين لآلة الإعلام العابث ليلعب بعقولهم في غفلة من أمرهم عما تنقله وتركبه الأوعية الإعلامية الجهنمية من حقائق مفبركة لتعزيز الخوف المرضي وفي نفس الآن الكراهية تجاه الإسلام والمسلمين.

الإسلاموفوبيا العالمة :

هل يصح أن تكون هناك إسلاموفوبيا عالمة؟

وإذا كانت كذلك فما طبيعتها أو ما حقيقتها؟

لقد استعيرت عبارة "**الإسلاموفوبيا العالمة**" من عنوان كتاب "اليونان والعرب ونحن: بحث في الإسلاموفوبيا العالمة Les Grecs, les Arabes et nous. Enquête sur islamophobie savante, [2]، وقد صدر في فرنسا من تأليف مجموعة من أبرز المختصين في الفلسفة والعلوم الإسلامية الوسيطة : فيليب بوتغن[3] Philippe Buttgen وألان دليبرا[4] Alaln de Libera ومروان راشد[5] Marwan Rashed وإيرين روزيه كاتاش[6] Irene Rosier Catach

(1) محمد فاضل رضوان : الإسلاموفوبيا قلق المفهوم وجدل الرؤى، نموذج فرنسا، ضمن علوم إنسانية، مجلة إلكترونية، ع 26، 2006.

(2) صدر الكتاب عن دار Fayard سنة 2009.

(3) أستاذ باحث بالمعهد الوطني للبحث العلمي بفرنسا مختص بمختبر الديانات التوحيدية.

(4)مدير الدراسات بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا وأستاذ بجامعة جونيف.

(5) أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة بفرنسا.

(6) مديرة بحث بالمعهد الوطني للبحث العلمي بفرنسا مختصة بمختبر تاريخ النظريات اللسانية بباريس.

والكتاب في عمومه رد على كتاب مثير للجدل صدر سنة 2008 كتبه المؤرخ الفرنسي المختص في العصور الوسطى "سيلفان غونغهيم"[1] Sylvain Gouguenheim حول " أرسطو في جبل القدّيس ميخائيل : الأصول الإغريقية لأوروبا المسيحية"[2].

Aristote au Mont-Saint-Michel: Les racines grecques de l'Europe chrétienne

ذهب غوغنهايم فيه إلى نفي التأثير العربي فلسفياً وعلمياً في فكر النهضة الأوروبية، وأنه ليس سوى"أسطورة" سائدة، مدعياً أن شروح وتراجم العرب للفلسفة اليونانية كانت محدودة وهامشية وضحلة، في الوقت الذي اضطلع العلماء والمترجمون المسيحيون بالدور المحوري في نقل الثقافة اليونانية إلى الغرب الحديث. كما ذهب إلى اعتبار اللغة العربية عقيمة فلسفيا، وأن العنف متجذر مذهبيا في الإسلام، كما أشاد في المقابل بما سماه المزايا الواضحة لاستهلاك لحم الخنزير في حوض المتوسط.

وكتاب غوغنهايم يحمل رهانات ثلاثة يمكن إجمالها فيما يلي :

- الاحتفاء بالجذور المسيحية الخالصة لفرنسا، والدعوة لمراجعة خط العلمانية الجمهورية القائمة لإعادة الاعتبار لهذه الهوية الدينية المسكوت عنها في الثقافة السياسية السائدة.

- الدعوة لإعادة الاعتبار للتجربة الاستعمارية، من حيث كونها تحتوي عناصر "إيجابية" تمدينية، يتعين التنبيه إليها في المناهج التربوية، مما يذكر بالأدبيات الاستعمارية القديمة في حديثها عن "تمدين الشعوب المتوحشة" تبريراً للاحتلال والاستيطان.

- النزوع إلى محو آثار "ثورة مايو 1968" التي نسفت القاعدة النظرية والإيديولوجية لليمين المحافظ. وفتحت آفاقاً رحبة للخطاب النقدي الرافض للمركزية الثقافية والمنفتح على السياقات المغايرة المختلفة.

يظهر من خلال كل هذا أن المقصود بالإسلاموفوبيا العالمة ذلك النمط من الكتابة أو التأليف عن الإسلام الذي يصدر عن مثقفين أو علماء بمعنى من المعاني تجدهم يتحاملون على الحضارة الإسلامية ويختزلونها في اللحية والحجاب والإرهاب...

(1) مؤرخ وأستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة بليون بفرنسا.

(2) صدر الكتاب بباريس عن منشوراتSeuil سنة 2008.

وما إلى ذلك من الرموز والطقوس، مقررين زورا أن هناك تنافرا جوهريا بين "الحضارة اليهودية ـ المسيحية" التي يرون أنها متفتحة ومرحّبة بالآخر و"الحضارة الإسلامية" التي يرون أنها منغلقة وعدوانية. متجاهلين العمق الفكري والغنى الثقافي والرؤية الوجودية للإسلام وللقرآن.

وإضافة "العالمة" لهذا النوع من الإسلاموفوبيا لتأكيد شرعية هذا الرهاب أنه ليس رهاب عوام يسيطر عليهم الإعلام والإشاعات وإنما هو رهاب مشروع إذ يصدر عن عقول منظمة وعالية الكفاءة والقدرة على تحليل الظواهر أي عقول أكاديمية، إنهم خبراء الرعب الجدد كما يسميهم[1] Vincent Geisser في عمله عن الإسلاموفوبيا الجديدة[2] LA NOUVELLE ISLAMOPHOBIE.

والحق أن المتأمل في حقيقة هذه التسمية لا يساوره أدنى شك بأن يبادر بالسؤال عن علاقة الخوف بالمعرفة والعلم، كيف يتصلان وكيف ينفصلان؟ ثم عن الطبيعة السببية الحقيقية لهذا الترابط؟ أهو ترابط حقيقي أم ترابط زائف لا أساس له من الصحة؟.

معرفة مشوهة وغير دقيقة:

تبين النظرة المتأنية في سلة ما يكتبه رواد الإسلاموفوبيا العلمية أن طبيعة المعرفة التي يحملونها عن الإسلام لا تعكس جهدا كبيرا في التقصي والبحث الذي يستوجبه النظر الأكاديمي البحث على الأقل، ولهذا فهي أسيرة نمطية ونظرة تجزيئية وبعد عن الواقع وإغراق في الخيال المريض، فكثير من الكتاب المحسوبين على هذا التيار يكتبون كما كان يكتب بعض ضعفاء المستشرقين الذين لا يحسنون لا فهم لغة العرب ولا ثقافتهم ولا معرفة لهم بتاريخهم ولا بعاداتهم وتقاليدهم، ومُعَوَّلُهم الأول والأخير على ما يذهبون إليه من تأويلات لا تغني في الاقتراب من حقيقة الظاهرة بقدر ما تعمق جهلهم بمن يتحدثون عنهم.

---

(1) أستاذ بالمعهد الوطني للبحث العلمي وأيضا أستاذ بمعهد الدراسات السياسية بإيكس أون بروفانس بفرنسا. وهو صاحب مواقف مدافعة عن الحق في الاختلاف، وقد كان موضع هجوم من قبل التيارات العلمانية والعنصرية في فرنسا بسبب مواقفه المساندة للمسلمين وحقهم الثقافي والوجودي.

(2) صدر الكتاب عن دار La Découverte عام 2003. في هذا الكتاب يعالج فانسون كيسيغ قضية التحامل على الإسلام في الثقافة الغربية المسيحية واليهودية! وكيف تصاعدت هذه الحملة من التخويف من الإسلام داخل فرنسا انطلاقا من تحليل لأدبيات كبار الإسلاموفوبيين الفرنسيين المبنية على الأحكام الجاهزة وتغذية الإحساس بالكراهية تجاه العرب والمسلمين.

إن كثيرا من هؤلاء يكتبون عن الإسلام من خلال ما تنشره المراصد والتقارير المأجورة المتصهينة، ومن خلال ما تبثه القنوات الفضائية المتحيزة، كما ينتهون إلى خلاصات لا تخدم سوى دعاة تسعير النار بين المسلمين والغرب.

صامويل هانتجتون :

في مقالة صامويل فيليب هانتجتون[1] Samuel Phillips Huntington (صدام الحضارات) Clash of Civilizations [2] التي نشرها أول مرة في مجلة الفورن آفيرز ثم طورها إلى كتاب فيما بعد، يتحدث الكاتب محذرا من تنامي المد الإسلامي، ويدعو صانعي القرار الأمريكي إلى التحرك لمواجهة هذا المارد الجديد انطلاقا من تصور نسجه عن الحرب القادمة بأنها ستكون حربا ثقافية ودينية بامتياز وسيكون فيها الإسلام هو الند والعدو اللدود للحضارة الغربية.

ولا يخفى على أحد أن أفكار هانتجتون كانت الموجه الرئيس للسياسة الخارجية الأمريكية في إعلانها الحرب على العديد من المنظمات الإسلامية بل و الدول الإسلامية بدعوى امتلاك بعضها للسلاح النووي أو دعمها لما تسميه بالإرهاب.

يحكي لنا هانتجتون في كتابه (أمريكا : الأنا والآخر) أن خمسا من بين الدول السبع التي وضعتها أمريكا في قائمة الدول التي تدعم الإرهاب هي دول مسلمة، والدول والتنظيمات الإسلامية التي تهدد إسرائيل التي يعتبرها العديد من الأمريكان حليفا قريبا.

وقد كانت إيران بحسب هانتجتون حتى حرب 2003، والعراق يمثلان تهديدات محتملة لإمدادات أمريكا والعالم النفطية، وقد تحصلت باكستان على الأسلحة النووية في عقد التسعين، ونقلت التقارير في أوقات مختلفة أن إيران والعراق وليبيا والعربية السعودية تؤوي مخزونات من الأسلحة النووية، ونوايا أو برامج تطوير أسلحة نووية.

وبنفس يختلط فيه الاستعلاء والخوف يقول بأن الفجوة الثقافية بين الإسلام ومسيحية أمريكا ومذهبها الأنجلو ـ بروتستانتي، تعزز من تأهيل الإسلام كعدو[3].

---

(1) أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد، توفي عام 2008.

(2) صدر العمل أول مرة عام1993 بالشؤون الخارجية. والمصطلح استعمل أول مرة عند برنار لويس في مقالة له سنة 1990.

(3) صامويل هانتجتون : أمريكا : الأنا والآخر، ترجمة عثمان الجبالي، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ط 1، 2006، 301-302.

أوريانا فالاشـي :

كتبت الإيطالية [1] ORIANA FALACCI كتابا تحت عنوان "الغضب والكبرياء" la rage et lorgueil; contre le jihad et lintolerance [2] وهو عبارة عن غضب شديد تقول الكاتبة بأنها شعرته ضد المسلمين في أوروبا، وعند صدوره أثير نقد حاد ضده لطابعه الانفعالي الجامح وفقدانه للنسق التحليلي المتزن، ثم كتبت كتابا آخر تحت عنوان " قوة العقل La Force de la raison "، حاولت من خلاله الكاتبة أن ترسم سيناريو مستقبلياً رهيباً، حيث القارة الأوروبية تواجه مؤامرة كبرى تستهدف تدمير حضارتها واستعباد شعوبها، واستخدامها كقاعدة للسيطرة على العالم. والمؤامرة يتم الإعداد لها على يد المسلمين باستخدام استراتيجية شيطانية تستند إلى هجرة واسعة إلى أوروبا ومعدلات ولادة عالية حالما يستقرون هناك.

الذي قال بخصوصه المفكر Gilles Kepel : "فائدة كتاب السيدة Fallaci البعيد عن الموضوعية هي في توفيره لمفتاح لتحليل مجموعة من السيرورات العقلية التي تقود منذ 11 شتنبر جزءا يتزايد باستمرار من الكتلة الناخبة الأوروبية والرأي العام الأمريكي نحو ربط الفزع والمخاوف التي تعود إلى عدم الإحساس بالأمان تجاه الهجرة ربطها بالإسلام والإرهاب الشيء الذي يصب في مصلحة أحزاب اليمين المتطرف".

ولنا أن نفهم تعليق Gilles Kepel على هذا الكتاب،أي "الكبرياء والغضب"، من خلال إحدى فقراته ذات الطابع التحريضي : " أقليات عادية من المتطرفين؟ لا يا عزيزي، لا إنهم ملايين وملايين. المتطرفون، استيقظوا لا تفهمون أم لا تريدون أن تفهموا، إن الأمر يتعلق بحرب دينية من قبل أبناء الله les fils d'Allah الذين عوض أن يساهموا في تطور الإنسانية يقضون أوقاتهم في الصلاة في العراء خمس مرات في

---

(1) كاتبة وروائية وصحافية من أصول إيطالية ابتدأت حياتها في الصحافة اليسارية اللائيكية، اشتهرت بمعالجتها لقضايا لها جانب من الإثارة منها الشذوذ الجنسي والإجهاض و اللائكية والحرب، وأجرت عددا من الحوارات مع مشاهير منهم آية الله الخميني وشاه إيران وليش فاليسا وأنديرا غاندي والقذافي وغيرهم. غير أن مسارها انتهى بالقرب من اليمين المسيحي، وقد كان يطلق عليها "الملحدة المسيحية، une athe chrétienne " وذلك بسبب ما قامت تدافع عليه من حاجة أوربا لعقيدة مسيحية جامعة وإن كانت غير مؤمنة هي نفسها بها فقط لمواجهة الإسلام. وقد ترجمت أعمالها قبل موتها سنة 2006 إلى أكثر من 21 لغة.

(2) صدر الكتاب بالإيطالية تحت عنوان La rabbia e l'orgoglio ثم ترجم إلى الفرنسية عن دار Plon عام 2002.

اليوم. هذه حرب تستهدف عمق أرواحنا وإذا بقينا عاجزين إزاءها فستهدم ثقافتنا، وفننا، وعلمنا، وأخلاقنا، وقيمنا ومتعنا[1].

"إن فالاشي في كتابها "قوة العقل" تعلن عن كراهيتها للرموز الإسلامية صراحة، فهي تغضب كثيرا على وجود مساجد كثيرة بنيت في مواقع مرتبطة بالمسيحية في إيطاليا. مع ذلك فإنها تفشل في الإشارة إلى أنه في أي من الحالات التي ذكرتها كان المسلمون في وضع يسمح لهم لفرض قرارهم. لقد كانت تراخيص السماح ببناء مساجد هي دائما تُمنح من قبل رؤساء بلديات يساريين يسيطر عليها الملحدون الذين يتمنون أن يُصَفّوا حساباتهم مع الكنيسة الكاثوليكية باستخدام المسلمين كحجة. وفي بعض الحالات مثلما هي الحال عند اختيار موقع جميل في شمال إيطاليا لبناء مسجد كبير مع مركز إسلامي. إذ لم يكن هناك طلب من الجالية المسلمة للبناء فعدد الأفراد المسلمين في تلك المنطقة هو 33 شخصا. إنه رئيس البلدية اليساري الذي حفز لبناء المسجد والمركز الإسلامي مدفوعا بكراهيته للكنيسة الكاثوليكية. وفالاشي غاضبة بشكل خاص بسبب بناء مسجد في روما هدفه إضعاف الصلة القائمة بين المدينة والكاثوليكية. ومرة أخرى فشلت المؤلفة بتذكير القارئ بأن بلدية روما ذات الأغلبية الشيوعية هي التي رخصت ببناء المسجد ضمن سياق الخلاف القديم مع الفاتيكان.

وتتوهم فالاشي أن هناك جهات كثيرة تريد أن تطيح بأوربا وبحضارتها وتؤسس لمجد الحضارة الإسلامية، ولهذا تجدها مرة تتهم حاكم الشارقة ومرة أخرى تتهم لويس فارخان زعيم أمة الإسلام. وتستبد بها الكراهية والاستئصال للمسلمين إلى درجة لا توصف إلى الحد الذي أطلق عليها بعضهم "بن لادن الأدب"[2].

وتقدم فالاشي نفسها باعتبارها محرضة متنورة على التصدي للخطر الداهم القادم من أرض الإسلام، من الشرق حيث البربرية والهمجية ومناهضو حقوق الإنسان والحرية، والمسلمون الذين يتكاثرون مثل الفئران.

---

(1) تعرضت فالاشي لنقد شديد من لدن مفكرين وفلاسفة في الغرب منهم الفيلسوف ألان فينكيلكروت Alain Finkielkraut، وعالم الاجتماع بيير أوندري تاغويف Pierre-Andre Taguieff، وجيل كيبل وغيرهم.

(2) يراجع : حسونة المصباحي : كتاب بن لادن الأدب أمام القضاء الفرنسي، ضمن الشرق الأوسط، ع ، 8720 أكتوبر 2002.

كما تدافع أريانا فالاشي في كتابها بروح متصهينة عن حق إسرائيل في الوجود وتتهم الفلسطينيين بأنهم جماعات من الإرهابيين والقتلة، بل وتشبه الإسلام بالنازية أو الفاشية.

مارك ستين :

أصدر الكاتب الكندي "مارك ستين[1] Mark Steyn"، المختص في التحليل السياسي والنقد الثقافي عام 2006 كتابا بعنوان "أميركا الوحيدة:نهاية العالم كما نعرفها[2]: America Alone : The End of the World As We Know it".

ويعد مارك ستين من أشهر كُتّابِ المحافظين الجدد، وعندما صدر الكتاب احتفى به اليمين الأمريكي، فقد وجه النداء لشراء الكتاب عبر أكبر إصداراته انتشارا «هيومن إفنتس».

ومضمون الكتاب كله تحريض شديد وتخوف من تنامي أعداد المسلمين في أوروبا، مدعيا أن القارة الأوروبية سوف «تختفي» كـ «كتلة مسيحية» بعد أسلمتها بالتدريج في ظل المد الإسلامي المتنامي فيها، ومعلقا الآمال على أمريكا وحدها في مواجهة المسلمين.

مما جاء في الكتاب" المستقبل يمتلكه كثيرو الإنجاب والواثقون بأنفسهم. والإسلاميون لديهم الصفتان، بينما الغرب ـ المتمسك بالتعددية الثقافية التي توهن من ثقته، والمتمسك بمبدأ بلاد الرفاهية التي تدفعه نحو الكسل والانغماس الذاتي، وعدم إنجاب الأطفال الذي يودعه إلى النسيان ـ يبدو أنه أكثر عرضة لخراب حضاري" ومما ذهب إليه مارك ستين وهو يدق ناقوس الخطر من الإسلام القادم، أنه إذا لم يتحد الغرب كله فسوف تكون أمريكا هي الدولة المتبقية وحدها، وربما إلى جانبها أستراليا، التي يصفها الكاتب أنها رفيقة الولايات المتحدة، في الشجاعة في مواجهة المسلمين.

وقد خلص فيه إلى أن الديمقراطيات ليس لها وسيلة دفاعية في مواجهة "القنبلة الديموغرافية" الإسلامية سوى الحرب الأهلية، وهو الدرس الذي فهمه الصرب جيداً فصنعوا أكبر مجزرة في تاريخ البشرية كان ضحيتها المجتمع المسلم في البوسنة.

---

(1) باحث مقيم الآن في الولايات المتحدة الأمركية.

(2) صدر الكتاب عن Regnery Publishing، عام 2006.

ومعلوم أن مارك ستين من الكتاب الذين دافعوا عن غزو العراق وعن الدور الوظيفي والحضاري للغزو الأمريكي لبلاد الرافدين، للتخلص من الخطر المرتقب والمنتظر من العرب والمسلمين الذين يتهددون الحضارة الغربية والأمريكية تحديدا[1].

برنار لويس :

يعتبر برنار لويس[2] Bernard Lews من الكتاب المستشرقين ذوي النزعة الصهيونية من أب وأم يهوديين من يهود الأشكيناز، وهو أحد مهندسي مشاريع متعددة تخص الشرق الأوسط،وخرائطه السياسية والاستراتيجية.

تخرج من جامعة لندن سنة 1936، ودرس في باريس، وتتلمذ على كل من ماسينيون الذي كان يعنى عناية خاصة بتاريخ الفرق الإسلامية وبالتصوف. وعلى هاملتون جب الذي نال على يديه الدكتوراه عن أطروحته في تاريخ الإسماعيلية.

عرفه الباحثون بمؤلفات كثيرة منها كتابه سنة 1950 " العرب في التاريخ" The Arabs in History، وقد كان فيه إلى حد ما منصفا في حديثه عن الحضارة العربية الإسلامية وإسهاماتها، غير أنه سرعان ما انقلب لمعاداة العرب والمسلمين والتشهير بهما بأسلوب غاية في المكر واللباقة.

قال عنه جلال أمين :" رجل نشر في الستين عاماً الماضية عدداً كبيراً من الكتب التاريخية عن العرب والمسلمين والشرق الأوسط. تفصح عن علم واسع وانكباب طويل على المصادر التاريخية الأصيلة ما أكسبه شهرة كمؤرخ خبير بأي شيء يتعلق بالإسلام، ولكن لا رغبة عنده البتة في ذكر الحقيقة الكاملة عن الإسلام بل لديه دافع قوي للغاية بسبب ولائه للصهيونية لذكر ما يسيء إلى الإسلام والمسلمين؟"[3].

وقد اختزل جلال أمين مبادئ برنار لويس في علاقته بما يكتبه عن العرب والمسلمين فيما يلي :

---

(1) Steyn, Mark "Why the Iraq war is turning into America's defeat". Chicago Sun-Times, February 18, 2007.

(2) مؤرخ بريطاني يحمل الجنسية الأمريكية والإسرائيلية. وأستاذ فخري بجامعة برينستون في قضايا الشرق الأوسط، وقد عمل مستشارا للمصالح السرية البريطانية إبان الحرب العالمية الثانية، ومستشارا بمجلس الأمن القومي بالولايات المتحدة الأمريكية، ومستشارا لبنيامين نتنياهو حين كان سفيرا لإسرائيل بالأمم المتحدة.

(3) دليل الرجل الذكي إلى التشهير بالمسلمين، ضمن الحياة (26 ـ 2003/7/27).

المبدأ الأول : وهو أبسط المبادئ وأوضحها؛ ومقتضاه : لا تدخر أي جهد في إلحاق أي وصمة عار بالإسلام والمسلمين.

المبدأ الثاني : يتعلق بالكراهية (إذ لا يكفي أن يكون هذا العدو (العربي والمسلم) حافلاً بمختلف النقائص والعيوب، بل يجب أن يحمل قدراً كبيراً من الكراهية العمياء لأصدقائك وعلى الأخص للأمريكيين).

المبدأ الثالث : (لا يكفي أن يكون عدوك مليئاً بالعيوب، ويحمل لك فائق الكراهية، بل لا بد أن يكون قوياً وقادراً على الإضرار بك).

المبدأ الرابع : (وهو على قدر كبير من الأهمية، أن تحاول قدر الإمكان ألا تظهر هذا العدو على أنه مجرد حفنة قليلة من الأشخاص أو نسبة صغيرة من المسلمين).

المبدأ الخامس : (لا تنس أن للمسلمين حججاً مضادة لحججك وبعضها لا يخلو من قوة جعلت الكثيرين يشكون في سلامة موقفنا.. لا تظن أن من الأفضل تجاهلها.. الأفضل أن تذكر هذه الحجج وترد عليها).

المبدأ السادس والأخير : (يتعلق بإسرائيل، وذلك أنه يجب ألا تنسى أن تشويه سمعة الإسلام والمسلمين يستخدم عدا خدمة بعض المصالح الأمريكية المباشرة في البلاد الإسلامية، تحسين صورة إسرائيل لدى الرأي العام).

ومن جملة كتبه التي يمكن التمثيل بها "أزمة الإسلام" أو "حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس,The Crisis of Islam : Holy War and Unholy Terro " وهو الكتاب قبل الأخير لبرنارد لويس، وقد صدر بالتزامن مع الاحتلال الأميركي للعراق. والكتاب عبارة عن مقالات ومحاضرات جمعها برنار لويس خلال عامي 2001 و2002، وأعاد نشره وترتيبها، ويمكن اعتبار هذا الكتاب المتوسط الحجم، تكملة لكتاب "أين الخطأ؟[1] الذي يستعدي فيه برنار لويس الغرب على الإسلام والمسلمين.

في هذا الكتاب يدافع برنار لويس عن الاستعمار الأوربي للبلدان الإسلامية، بحجة أن الاستعمار غداة سيطرة الدول الأوروبية على منطقة الشرق الأوسط، مطلع

---

(1) صدر الكتاب بنيويورك Random House Trade Paperbacks New York عام 2003.

القرن الماضي، لم تقم بضمّ تلك البلدان إلى سيادتها المطلقة بالشكل التقليدي الذي مارسته في بقية المستعمرات والملحقات الأخرى حول العالم. فقد أوكلت عصبة الأمم حينها إلى كل من فرنسا وبريطانيا انتداب تلك البلدان وإدارتها ضمن مهمة واضحة الأهداف وهي تدريب تلك الشعوب، أو تهيئتها لإدارة شؤونها ذاتياً واستقلالها لاحقاً عن سلطة الانتداب، وذلك ضمن فترة قصيرة جدا، بين الحربين العالميتين. وقد تم، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، إعلان انتهاء فترة الانتداب ومُنحت تلك البلدان استقلالها، فيما بقي القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية خارج سيطرة الدول المستعمِرة. وهذا في نظر برنار لويس عامل مهم ومؤشر على الدور التمديني للاستعمار الذي أخرج المسلمين من تخلفهم وهمجيتهم وبربريتهم.

كريستوفر كالدويل :

يشتغل "كريستوفر كالدويل Christopher Caldwell " كاتبا وصحفيا ومحررا في صحيفة "ويكلي ستاندار" صوت المحافظين الجدد بأمريكا، وكاتب عمود في صحيفة "فاينانشيال تايمز". وهو مهتم بقضايا الإسلام والمسلمين بالغرب، وقد أصدر مؤخراً كتاباً مثيراً بعنوان "تأملات حول الثورة في أوروبا: الهجرة، الإسلام والغرب"[1] Reflection on the Revolution in Europe Immigration, Islam and the West قارن فيه بين وجود الجاليات المسلمة في أوروبا والحزب البلشفي في روسيا قبل اندلاع الثورة الشيوعية، 1917 معتبرا أن الثقافات "المتقدمة" كثيراً ما قللت من شأن الخطر الذي يتهددها من قبل الثقافات "البدائية".

لقد أسس المهاجرون الذين يقول عنهم كالدويل إنهم يتناسلون بسرعة وإنهم يفرطون في ممارسة الجنس، ما يدعوه بالطلائع ـ فكرة أن المهاجرين هم طليعة قوة غازية أكبر – وهندسوا استعماراً عكسياً لمدن تاريخية هجرها سكانها الأصليون. فهو يرى أن هجرة المسلمين ليست أقل من "مشروع للاستيلاء على الأرض" يجري تنفيذه لإدخال أوروبا في دار الإسلام. لكن هذا الخيال الجامح الشرير لا صلة له بالواقع، وإنما هو تعبير عن المخاوف التي يشعر بها المحافظون الجدد حول تراجع مشاريعهم.

---

(1) Bernard Lewis, What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response (Oxford: Oxford University Press, 2002).

وينشغل كريستوفر كالدويل بمشكلة الوجود الإسلامي في الغرب انشغالا كبيرا؟ ويطرح عددا من الأسئلة التي تنتهي إلى نفي الحاجة الغربية لكل هذه الهجرات لأنها تشكل خطرا مستترا على مستقبل الإنسان الأوربي وعلى حضارته[1]. كما تشكل تهديدا لثقافته بما تزرعه من ثقافة إسلامية في ربوع أوربا.

يكتب كالدويل محذرا من ظاهرة انتشار الطعام الباكستاني ببريطانيا،إذ إنها بالنسبة إليه تغير ثقافي ومؤشر خطير على الزحف الشرقي والإسلامي، ويربط بينه وبين تفجيرات لندن، حيث المتفجرات صنعت من دقيق باكستاني كما يذكر زاعما، والظاهر أن معرفته ومعرفة كثيرين من الإسلاموفوبيين بالعالم الإسلامي وبتاريخه ضعيفة جدا إلى الدرجة التي يخلطون فيها الأوراق والمعلومات من أجل تبرير نتائج أبحاثهم المسبقة، بل إن معرفتهم بتاريخ أوربا نفسها تنتابها كثير من الصدوع ، من ذلك تشبيهه تاريخ إيطاليا الاستعماري بتاريخ السويد مقللا من أهميته، إذ يتناسى أو يتجاهل المدى الذي بلغته الفاشستية الإيطالية ومشروعها التوسعي.

كارولين فوريست[2] :

كارولين فوريست ,Caroline Fourest كاتبة وصحافية فرنسية، حصل على دبلوم في التاريخ والسوسيولوجيا بمدرسة الدراسات العليا وبمعهد العلوم السياسية. أسست عام 1997 بمعية رفيقة عمرها فياميتا فينير موقع ProChoix، الذي تشرف فيه على هيئة التحرير. يعالج هذا الموقع قضايا العلمانية، وحقوق المرأة، والشواذ[3]. في بداية مشوارها، ركزت كارولين فوريست تحرياتها الصحافية والنقدية على إيديولوجية الجبهة الوطنية بزعامة جان ماري لوبان، وبعد الحادي عشر من سبتمبر 2001 نقلت الحرب إلى الوجود الإسلامي، وتحديدا إلى الصراع العلني والمباشر مع طارق رمضان ومع ما أسمته اليسار ـ الإسلاموي المتحالف مع الأطروحات المتطرفة[4].

---

(1) صدر عن Allen Lane، بلندن سنة 2000.

(2) "Do we need more people in Europe?. The Guardian. 2009-01-17.

"culture of fear. The Guardian. 2009-08-5

(3) مدونتها على النت http://carolinefourest.wordpress.com/

(4) يمكن الاطلاع على موقع المجلة / http://www.prochoix.org

في كتابها "اليوتوبيات الأخيرة. أخطار تهدد العالمية"، تذهب كارولين فوريست إلى أن هناك تراجعا في القيم الكونية لصالح الإيديولوجيات والأفكار الدينية، وهي تقصد بالضرورة الإسلام دونا عن سائر الأديان، وأن هذا التراجع يؤذن بتقلص في دائرة الحريات الفردية التي جاءت المواثيق الدولية للدفاع عنها وتوسيع هامشها، في الوقت الذي تلاحظ من جانبها أن أكبر تهديد لقيمة الحرية هو الإسلام والمسلمون بما يحملونه من أفكار عن الإنسان والمرأة والجنس وغيرها من القضايا التي تعتبر بالنسبة إليها ضوءا أحمر ينبغي أن ينتبه إليه العقلانيون في العالم المعاصر. وبذلك، تنضم فوريست إلى كوكبة تدعو إلى التنوير، لكن باسم استئصال كل ما يخالف قيم الغرب...كما أن نصوصها ومقارباتها لا تخلو من نبرة تبشيرية تأخذ صيغة: حضارتنا اليوم في خطر وأهم ما يهددها الظلامية، التي يعتبر الإسلام مكمنها!. وتبعا للمشروع الاستئصالي لهذه الأخيرة، فالداء الديني هو الإسلام والدواء هو العلمانية. الدواء العلماني في نظرها هو الحل لقطع الطريق على الأفكار الدينية أن تحل في الفضاءات العامة والمنابر الثقافية، ويصبح الديني مرادفا للشخصي اللامرئي.

ألكسندر ديلفالي [1]:

ألكسندر ديل فالي[2] Alexandre Del Valle مختص بالقضايا الجيوسياسية المرتبطة بالإسلام والإرهاب الدولي، في كتابه"الإسلامية وفرنسا، اتحاد ضد أوربا" Islamisme et France. Une alliance contre l'Europe، هو واحد ممن تسميهم صحيفة لوفيغارو حلقة الخبراء السحرية المدعوين باستمرار إلى شاشات التلفزة منذ الحادي عشر من أيلول . فهو لا يحب التعقيد ويمكنه تحليل العالم بسهولة : إن مبدأ رفض الحكم الكافر هو الذي يفسر (...) غالبية النزاعات بين المسلمين والكفار في كشمير والسودان وأرمينيا والشيشان وحتى في كوسوفو ومقدونيا حيث أصبح المسلمون يشكلون الغالبية السكانية. وإذ يجرؤ البعض على الرد بأن الكوسوفيين والأزريين تعلمنوا في شكل واسع وأن مطالبهم وطنية، يأتي الجواب أن هذا خطأ وأنهم مسلمون بيولوجيا وهذا كاف. دافع ألكسندر دل فالي عن حروب كل من سلوبودان ميلوسيفيتش ضد المسلمين وروسيا ضد الشيشان والحكومة الإسرائيلية ضد الفلسطينيين وهو صاحب

---

(1) يراجع : المعطي قبال : حين يتحول التنوير إلى وسيلة لاستئصال كل ما يخالف قيم الغرب، ضمن المساء، ع 1011. 2009.

(2) موقعه على النت http://www.alexandredelvalle.com

نظرية ضبابية حول تحالف الولايات المتحدة مع الإسلاميين ولا يخفي ما يعلقه من آمال على الأزمة الحالية، أي أن تتوقف واشنطن عن حربها ضد أوروبا والأرثوذكسية (كذا) وهو يشير في ذلك إلى الدول الأرثوذكسية من روسيا إلى صربيا.

ريني ماغشون :

كتب ريني ماغشون Ren Marchand وهو كاتب وصحفي فرنسي، حاصل على الإجازة في اللغة العربية وآدابها من السربون، كتابا بعنوان فرنسا وخطر الإسلام بين الجهاد والفتح[1] La France en danger d'islam. Entre Jihad et Reconquista. في هذا الكتاب ليس الإسلام عنده سوى عنف وقتل وعبودية وكذب عبر تاريخه الطويل، ولا يمكن أن يكون سلاما ومحبة على الإطلاق. وهو الأمر الذي يؤكده في عدد من مقالاته أيضا[2].

في كتابه يرفع ريني ماغشون شعار التخويف من الجهاد والقتل في الإسلام، الذي جعله عقيدة مترسخة للتخلص من المخالف أيا كان، ويقدم نماذج تاريخية يسيء قراءتها، كما يعمل على عملية تعميم بعض الأحكام الخاصة بالفقه الإسلامي باعتبار أن ما يطمح إليه الإسلام في أوربا والعالم برمته هو سيادة فقه المسلمين الذي لا يحترم خصوصيات الأفراد ولا حرياتهم، وبالتالي يعمل على استعبادهم.

كما يشتغل ريني ماغشون على مفاهيم يعتبرها جوهرية في فهم انغلاق الإسلام وأصوليته وتوتاليتاريته ورفضه للإبداع والحرية من قبيل مفهوم البدعة وغيرها.

في الكتاب يطالب ريني ماغشون فرنسا إنها إذا أرادت تجنب جهاد المسلمين فعليها أن تنخرط في سياسة جدية وواقعية لتقليم أظافر ثقافتهم العنيفة على أراضيها.

بريس باور :

بريس باور[3] Bruce Bawer, أحد الكتاب والنقاد والشعراء الأمريكيين الذين يرفضون التنوع الثقافي ويناهضونه، وممن ينشطون في الدفاع عن الشذوذ الجنسي، اهتم أيضا بالظاهرة الإسلامية، وانخرط في تيار التخويف من العرب والمسلمين وثقافتهم، وفي هذا الإطار يندرج كتابه الذي عنونه بـ "في الوقت الذي تنام أوروبا:

---

(1) أستاذ علوم سياسية بفرنسا.

(2) صدر عن noitcelloC seliboiM seuqitilopoig، عام 2002.

(3) Ren Marchand. La violence et l'islam ; La Nouvelle Revue d'histoire N°44 -Septembre 2009.

يحطم الإسلام الراديكالي الغرب من الداخل"[1] " While Europe Slept: How Radical Islam is Destroying the West from Within (في العنوان غنى عن كل تفصيل).

في كتابه يعمد بريس باور إلى الدعوة الصريحة لتهجير جماعي للمسلمين من القارة الأوربية ضمانا لاستقرار البلدان وبقاء ثقافتهم، وإلا فإن المد الإسلامي كما يصفه يتصاعد يوما بعد يوم ليضع أوربا على المحك، وبريس باور يلتقي في دعوته هذه مع دعوات اليمين الفرنسي، واليمين الهولندي[2] واليمين السويسري في حربه المعلنة على الأجانب وخصوصا المسلمين.

تحول الخوف إلى عدوان :

تشير العديد من التقارير أن الإسلاموفوبيا تتحول من حالة نفسية إلى موقف سلوكي تتسع دائرته يوما بعد يوم في أوربا والعالم، وقد باتت هذه الأفعال والسلوكيات تهدد الأمن والاستقرار وتنذر بمستقبل يصلح لكل التكهنات الدرامية والاحتمالات المظلمة إلا أن يصلح للتعايش.

وترصد هذه التقارير أن الإسلاموفوبيا كما تتوجه نحو الوجود الفردي للإنسان المسلم تتوجه أيضا للوجود الجماعي للأقليات المسلمة.

فمن جانب الوجود الفردي أبرزت هذه التقارير تنامي الشتائم العنصرية والتهديد بالقتل والاعتداءات المسلحة وما إليها، ويمثل الاعتداء على النساء المحجبات ما يناهز 76 في المائة بما يعطي الانطباع بأن الحجاب كرمز ديني إسلامي كان مستهدفا أكثر من الأشخاص بعينهم... .

ومن جانب الوجود الجماعي يمكن أن نجد في المقام الأول استهداف المؤسسات ذات الطابع الإسلامي من قبيل الاعتداء على المساجد ومنع المآذن وتلطيخ وهدم المقابر وحظر عدد من الأنشطة والندوات حول الإسلام بتعليلات واهية، وتوقيف مجموعة من الأئمة وغيرها، ... .

---

(1) غادر الولايات المتحدة ليستقر في أوربا منذ 1998.

(2) صدر الكتاب عن Broadway book عام 2006 .

(37) يراجع : إبراهيم درويش: كتابات أمريكية تروج لفكرة أسلمة أوربا واحتلال الأقليات لها، ضمن القدس العربي، ع، 6283 س.21

أمام هذا الوضع وفي الختام، يجدر التذكير أن هذه النزعة للكتاب عن الإسلام والمسلمين والتخويف منهم باتت اليوم صناعة يكلف بها خبراء وكتاب كبار من أجل إضفاء الشرعية على تحليلاتهم ومواقفهم من لدن العامة في أوربا والعالم الغربي، وهي تآليف إن كان يجمعها الموضوع، فإنها تتباين من حيث الأسلوب والمنهج، وتحتاج أكثر ما تحتاج إلى مبادرة سريعة للمواجهة الثقافية والعلمية لتعرية هذه الكتابات عن طابعها الإيديولوجي والنفسي الحاقد غير المحايد ولا الموضوعي، كما نحتاج أيضا إلى التشجيع على التقدم في مراجعات تخدم الفكر الإسلامي في مجالات التغيير والإصلاح وتقديم الإسلام بأسلوب حديث ومرن وعقلاني يراعي ما وصلته الحضارة الإنسانية من تقدم فكري ومنهجي.

إساءة فهم الإسلام في اليابان

الأستاذ أمين توكوماسو (*)

المستخلص :

دخل الإسلام اليابان منذ وقت قريب، ولهذا لا يعرف معظم اليابانيين شيئا عن الإسلام بشكل عام، بل ويسيئون فهمه، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها أن تاريخ الإسلام في اليابان ليس طويلا بالمقارنة بالأديان الأخرى كالبوذية أو المسيحية، كما أنه لم توجد لدى اليابانيين فرصة للتعرف على الإسلام والتعرف على مبادئه بشكل صحيح، وربما كان سبب ذلك هو لجوء اليابانيين إلى المصادر الغربية للتعرف على الإسلام، وهي المصادر التي تلح على أن الإسلام انتشر بالسيف وبالحرب. ومن الأسباب التي تؤدي إلى إساءة فهم الإسلام في اليابان أيضا ما ينشر في الصحف والمجلات اليابانية، وتحامل بعض الصحفيين على الإسلام، وافتقار بعض برامج التلفاز إلى بيان الحقائق نظرا للتأثر بالإعلام الغربي الذي يسيء إلى الإسلام.

إساءة فهم الإسلام في اليابان

أود أن أتكلم بإيجاز - كمسلم ياباني - عن وضع الإسلام في اليابان.

طبقا للمصادر المتوفرة فإن أول مسلم ياباني هو توراجيرو يامادا، الذي جمع معونات لأسر ضحايا الفرقاطة التركية التي غرقت أمام شواطئ اليابان سنة 1890م وسافر إلى إستانبول سنة 1892م وظل فيها حتى 1914م بعد أن اعتنق الإسلام، وفي سنة 1909م سافر عمر ياماوكا إلى مكة لأداء فريضة الحج، وقد أقيم أول مسجد في اليابان في مدينة كوبيه سنة 1935م وفي سنة 1938م افتتح مسجد طوكيو.

تأسست جمعية مسلمي اليابان لتضم عددا قليلا من المسلمين اليابانيين سنة 1952م، وفي سنة 1981م تأسس المركز الإسلامي بجهود المسلمين الوافدين في اليابان وبدعم

(*) رئيس جمعية مسلمي اليابان - طوكيو.

من الدول العربية والإسلامية، وتزايد عدد المسلمين الموجودين في اليابان وبخاصة الوافدين وربما بلغ العدد الآن نحو مائة ألف أو يزيد، من بينهم ما يقرب من عشرة آلاف ياباني مسلم، ويوجد في اليابان حاليا نحو ستين هيئة أو جمعية إسلامية ونحو خمسين مسجدا ومصلاة، وهكذا فرغم أن تاريخ الإسلام في اليابان ليس بالطويل إلا أن الإسلام حقق تقدما في اليابان، التي تؤمن أصلا بديانة الشنتو التي تقدس الطبيعة وأرواح الأجداد، والبوذية دخلت اليابان عن طريق الصين وكوريا وذلك في سنة 538 تقريبا بينما دخلت المسيحية اليابان سنة 1549م عن طريق الإرساليات البرتغالية.

بعد الحرب العالمية الثانية وطبقا للدستور الياباني الذي يفصل بين الدين والدولة فقد اتبعت الحكومة سياسة حظر تدريس الدين في المدارس العامة، مما جعل اليابانيين بعيدين عن الأديان التقليدية، إلا أن دستور اليابان يقر بحرية الأديان، ومن هنا ظهرت ديانات جديدة عديدة من خلال الشنتوية والبوذية، ويتزايد عدد أتباع الطوائف الدينية الجديدة بشكل سريع، ومع هذا فعدد اليابانيين المسيحيين الذين يؤمنون بإله واحد يصل إلى نحو مليون أي أقل من 1% من عدد سكان اليابان البالغ 125 مليون نسمة، وذلك رغم الأنشطة الجبارة التي مارستها وتمارسها الإرساليات المسيحية على مدى 450 سنة تقريبا.

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الإسلام فيمكن القول بشكل عام إن المشكلة تكمن في أن الإسلام لم يحظ بدعاية طيبة بين اليابانيين ويرجع ذلك لعدة أسباب منها :

أولاً : لا يعرف اليابانيون الإسلام الحقيقي نظرا لتاريخ الإسلام القصير في اليابان، فالمدة القصيرة لم تسمح بوجود عدد كاف من اليابانيين للقيام بتبليغ الإسلام لأهل اليابان.

ثانياً : تأتي المعلومات عن الإسلام عادة من مصادر غربية، وهي لا تقدم صورة الإسلام الصحيحة لليابانيين.

ثالثاً : تقوم أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة في اليابان يوميا بنقل أخبار الإرهاب والحروب بين الدول الإسلامية.

وعلى سبيل المثال وفيما يتعلق بمصطلح (الجهاد) فإن كثيرا من اليابانيين يرون أن الجهاد يعني أن يُجبر المسلم غير المسلم على اعتناق الإسلام عن طريق الحرب المقدسة (أي القوة) ذلك لأن اليابانيين كانوا قد تعلموا في المدارس أن المسلم يحمل

القرآن في اليد اليمنى والسيف في اليد اليسرى، وهذا يعني أنه إذا رفض غير المسلم التحول إلى الإسلام، فإن المسلم يُجبره على ذلك بالقتال، وقد ساعد على هذا الفهم المغلوط ما قام به أسامة بن لادن حين أعلن الجهاد أثناء الهجوم الإرهابي في نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر 2001م وكان صدام حسين قد سبقه إلى ذلك حين أعلن الجهاد أثناء حرب الخليج عام 1990م.

ومن هنا فإن مصطلح الجهاد أعطى عموم اليابانيين فكرة الحرب العدوانية المقدسة للمسلمين، وصار ذلك أحد الأسباب التي أيقظت مشاعر العداء أو على الأقل إساءة فهم الإسلام.

وأسوق هنا مثالا على قلة معرفة اليابانيين بالإسلام، وذلك من خلال نتائج بحث قامت به وزارة الثقافة اليابانية، والبحث هو عبارة عن استطلاع أجرته الوزارة مع موظفي الجايكا الذين يعيشون في بلدان الشرق الأوسط وينخرطون في مشروعات عمومية في البلاد التي يعيشون فيها، ظهر من خلال الاستطلاع والدراسة أن 124 موظفا ذكروا أسبابا تدعوهم لتحسين صورتهم عن الإسلام يمكن إيجازها فيما يلي :

1. اعترف هؤلاء بأنهم كانوا مفتقرين إلى معرفة الإسلام الحقيقي لأنهم كان لديهم فكرة بأن المسلمين إرهابيون وعدوانيون وقد تشكل لهم هذا الاعتقاد نتيجة ما يبثه الإعلام الياباني. (موظفو الجايكا العاملون في إيران ومصر وتونس ودبي وأبوظبي وقطر والبحرين).

2. الناس يعيشون دون كثير من المتاعب ومجتمعهم منضبط من خلال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية. (موظفو الجايكا العاملون في مصر وتونس ودبي وأبوظبي والكويت).

3. يتصف المسلمون بحسن الضيافة والترحيب بضيوفهم واحترامهم وذلك نتيجة لتعاليم الإسلام السمحة. (موظفو الجايكا العاملون في أبوظبي وعمان وقطر).

4. الإسلام دين لا يدعو لإجبار غير المسلمين على الدخول فيه. (موظفو الجايكا العاملون في دبي).

5. الإسلام دين مثله مثل بقية الأديان في العالم (موظفو الجايكا العاملون في تركيا).

ومن ناحية أخرى فقد ذكروا أن الانطباع السيء عن الإسلام يتمثل في الآتي :

1. تعاليم الإسلام هي تعاليم لا تجاري العصر كما أنها يصعب تطبيقها وهي غير عقلانية وتتصف بالتمييز (موظفو الجايكا العاملون في مصر وتونس والسعودية)

2. المسلم يلجأ عادة للتبرير وينفي عن نفسه أخطاءه ويلقي بمسؤوليتها على الإسلام وعلى القدر الإلهي (موظفو الجايكا العاملون في إيران وأندونيسيا ودبي والبحرين).

3 . لا يعترف المسلمون بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل (موظفو الجايكا العاملون في دبي والسعودية).

4. المسلمون لا يفهمون الإسلام الحقيقي ويفهمون الإسلام بشكل خاطئ (موظفو الجايكا العاملون في تركيا ومصر).

5. يوجد هناك خلافات بين أديان الناس (موظفو الجايكا العاملون في مصر).

6. من الصعب تناول الطعام خارج البيوت (موظفو الجايكا العاملون في السعودية).

وهناك تقرير سيق عن بلدان الشرق الأوسط والعالم الإسلامي أود أن أقدم نبذة عنه، وقد أعد هذا التقرير البروفسر شواتشي هوري وهو أستاذ في جامعة هوكايدو غاكّواين، كان يعمل في صحيفة يوميوري كمحرر خاص بشؤون بلدان الشرق الأوسط والبلدان الغربية وذلك على مدار ثلاثين سنة أو أكثر، كما عمل مراسلا لصحيفة يوميوري في القاهرة لخمس سنوات. وصحيفة يوميوري من أكثر الصحف انتشارا في العالم فهي توزع نحو عشرة ملايين نسخة يوميا:

1. عالم الحروب والنزاعات والإرهاب والانقلابات العسكرية.

بلدان الشرق الأوسط والعالم الإسلامي من خلال ما يقدمه الإعلام هي منطقة الحروب والقتال والعمليات الإرهابية والانقلابات العسكرية التي تقع بشكل متكرر دائما. بعد الحرب العالمية الثانية نشبت الحروب ووقعت الانقلابات العسكرية وحدثت النزاعات بشكل متواتر، والمستمع الياباني والقارئ الياباني المتتبع للإعلام المسموع والمقروء وينال معلوماته من خلالها تشكل لديه انطباع بأن المنطقة منطقة خطرة تنشب فيها الحروب وتقع فيها الانقلابات العسكرية وتحدث فيها النزاعات بشكل متواتر.

2. بدء الحروب دون إعلام.

حين بدأت حرب الخليج في يناير 1991م صُوِّرت على أنها الحرب النظيفة كما لو كانت لعبة تُشاهد من خلال الڤيديو، وكانت هذه بداية الحرب الخفية التي بدأتها السلطات العسكرية الأمريكية، وبينما السلطات العسكرية حجّمت كثيرا من أنشطة المراقبين الإعلاميين، فإن معظم المراقبين لم يمكنهم الذهاب إلى جبهة الحرب، كما كانت تعرض فقط التقارير والصور التي تسمح بها السلطات العسكرية الأمريكية، فكانت نتيجة حرب الخليج هي هزيمة الإعلام المسموع والمقروء والمرئي، وهذا يعني أن السلطات العسكرية تتحكم في المعلومات بذكاء، فكان على المراقبين والمراسلين أن يستخدموا الصور والتقارير التي تقدمها السلطات العسكرية، وهكذا لم يذكر الجيش الأمريكي ما حدث في العراق.

3. صعوبة الدراسات الإسلامية في اليابان.

يذكر البروفسور توشيهيرو كورودا في كتابه (قلب في الإسلام Heart in Islam) أن قلة معرفة اليابانيين بالإسلام ونقص معلوماتهم عنه وعدم دراستهم له يشكل رؤية غير صحيحة لديهم عن الإسلام، كما أن معظم دارسي الإسلاميات في اليابان يعتمدون على مصادر الباحثين الغربيين.

4. التحكم في الإعلام الأمريكي بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك.

بعد أحداث الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر 2001م كانت أجهزة الإعلام الأمريكية تردد تقريبا ما تفرضه عليها الحكومة الأمريكية وكانت هيئات الإعلام اليابانية تستمد معلوماتها تقريبا من الحكومة الأمريكية، وكانت هيئات الإعلام اليابانية تفضل أمن موظفيها فلم ترسلهم إلى البلاد الخطرة واعتمدت على استقاء معلوماتها من أجهزة الإعلام الغربية ومن الصحفيين اليابانيين الذين يعملون بشكل حر دون الانتماء إلى أي صحيفة متحملين مسؤولية أنفسهم، وقد ذكر هؤلاء بأن حرب العراق لم تكن أبدا حربا عادلة وأجهزة الإعلام تأخذ فقط عن الطرف المهاجم بينما نحن نأخذ عن الطرف الذي يتعرض للهجوم فالتقارير الصحيحة يجب أن تؤخذ من الطرفين، وأن تعتمد على الطرفين لكن هناك صعوبة حقا أن نكون عادلين حتى في حالة الأخذ عن الطرفين.

5. تشكيل فريق من الصحفيين المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط والإسلام.

إن اليابان ليست بعيدة عن الاتجاه الذي يسيء فهم الإسلام ووجهات النظر المضادة للإسلام التي تنشر في أجهزة الإعلام الغربي في بلاد الغرب وأمريكا ويتحمل مسؤوليتها الصحفيون بالمقام الأول الذين يقدمون التقارير المتعلقة بأحداث بلدان الشرق الأوسط والعالم الإسلامي. فهناك حاجة ملحة لتشكيل فريق من الصحافيين يمكنه أن يقدم تقاريره عن الشرق الأوسط والعالم الإسلامي بشكل صحيح وحيادي.

وقبل كل شيء على الصحافيين اليابانيين أن يدرسوا الإسلام وأن يفهموه جيدا وعليهم أن يدرسوا أيضا تاريخ المنطقة وثقافتها وعاداتها وعليهم ألا يجيدوا اللغة الإنجليزية والفرنسية فقط بل عليهم أن يعرفوا أيضا اللغة العربية واللغة الفارسية واللغة الأردية وغيرها من لغات العالم الإسلامي حتى يفهموا المنطقة جيدا وبشكل صحيح.

من أجل تغيير هذا الوضع يجب أن نقدم الإسلام الصحيح ونعرض الصورة الطيبة للإسلام ونعرف اليابانيين على ما في الإسلام من مبادئ إنسانية طيبة وما فيه من صالح البشرية والقيام بهذه المهمة يتم بطريقتين مؤثرتين :

إحداهما : تقديم الصورة الصحيحة للإسلام وتقديم الثقافة الإسلامية الإنسانية لليابانيين عن طريق برامج في التلفاز الياباني وعن طريق الصحف اليابانية.

ومن الصعب تنفيذ هذه الطريقة دون وجود دافع روحي ودون وجود دعم مادي من لدن الهيئات الإسلامية وأثرياء بلدان العالم الإسلامي، وذلك نظرا لارتفاع الأسعار في اليابان عنها في أي دولة أخرى في العالم، وهذه الأيام يتأثر المجتمع الياباني كثيرا بالإعلام وبخاصة التلفاز والصحافة.

وعلى سبيل المثال فبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ظن الناس أنها من تدبير الإرهابيين المسلمين وبالتالي أخذوا يلومون الإسلام نفسه ويلومون المسلمين جميعا، ومن ناحية أخرى صار لدى بعض الناس اهتمام كبير بالتعرف على الإسلام وبخاصة الجيل الجديد، فقد رغب بعضهم في دراسة الإسلام، واعتنق البعض منهم الإسلام، وطبع الكثير من الكتب باللغة اليابانية عن الإسلام وتم عرضها في مكتبات اليابان في ذلك الوقت.

ثانيهما: ضرورة عقد مؤتمر دولي في اليابان للحوار بين الأديان والثقافات.

فمن خلال مؤتمرات الحوار هذه يمكننا أن نعرض صورة الإسلام الصحيحة، ونؤكد على أن الإسلام لا يدعو إلى الحروب إلا دفاعا عن النفس وعن الوطن، ويمكن

فهم القيم السمحة للإسلام والأديان الأخرى فضلا عن الثقافات وتكوين علاقات مشتركة بين الناس، فإذا ما اجتمع المثقفون والعلماء وتبادلوا الآراء وشجعوا الأفكار الداعية للسلام وسعادة البشرية فإن من شأن ذلك أن يؤثر على قادة السياسة في بلدان العالم الذين يمسكون بزمام السياسة والاقتصاد في العالم، والذين يسعون عادة إلى الحصول على منافع لأوطانهم ليس إلا. وأسوق هنا مثالا للمؤتمر العالمي للأديان من أجل السلام الذي يعقد مُؤتمراتٍ دينية دولية، وقد تأسس سنة 1970م بهدف تحقيق السلام العالمي، ومركزه الرئيسي في نيويورك، وله لجان موزعة في نحو سبعين دولة، ولجنة اليابان تضم أعضاء من المؤسسات الدينية المختلفة ولها مكتب في طوكيو، وتطلع بأعمال إيجابية لتحقيق السلام العالمي ومساعدة فقراء العالم، وجمعية مسلمي اليابان التي أشرفُ برئاستها هي عضو في هذه اللجنة، وحين عقد مؤتمر دول الثماني الكبرى فيما بين السابع والتاسع من يوليو عام 2008م في هوكايدو شمال اليابان ، كان مؤتمر القادة الدينيين للسلام قد عقد في 3 و4 من يوليوفي مدينة سابورو عاصمة هوكايدو وضم أكثر من مائتين من القادة الدينيين الذين قدموا مقترحاتهم لإحلال السلام إلى قادة الدول الثماني الكبرى، وناقشوا أمورا تتعلق بأمن البيئة وسلامتها فضلا عن أمن البشرية، كما ناقشوا ازدياد ظاهرة الإرهاب بكل أنواعه، وأصدروا في النهاية بيانا بعنوان "نداء سابورو" قُدّم لقادة الدول الثماني الكبرى من خلال رئيس الوزراء الياباني آنذاك السيد/ ياسووُو فوكودا.

والمثال الثاني هو مؤتمر مدريد الدولي للحوار الذي رعاه خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز عاهل المملكة العربية السعودية، والذي عقد في مدريد ما بين 14 ـ15 نوفمبر 2008م.

إن القادة الدينيين يمكنهم أن يلعبوا دورا مهما ويصروا على ذلك من أجل تحقيق السلام العالمي ومن أجل تقدم العالم.

تقوم جمعية مسلمي اليابان منذ قرابة أربعين سنة بإرسال الشباب الياباني إلى البلدان الإسلامية مثل مصر والمملكة العربية السعودية وقطر وسوريا وماليزيا وإندونيسيا وذلك لدراسة الإسلام والعودة إلى اليابان للإسهام في نشر الإسلام، ومن بين هؤلاء يوجد الآن نحو ثلاثين يابانيا مسلما هم أعضاء في جمعية مسلمي اليابان، ويبذلون جهدهم الوافر من أجل تقديم صورة طيبة عن الإسلام بين أفراد الشعب الياباني، وكذلك القيام بالدعوة الإسلامية كلما أمكنهم ذلك، ويمكن تلخيص الأنشطة الرئيسة للجمعية فيما يلي :

1. مساعدة المسلمين اليابانيين من خلال تدريس الإسلام والدعم المالي وإرشادهم إلى الحياة في المجتمع الياباني كمسلمين... إلخ.
2. طباعة أهم الكتب الإسلامية باللغة اليابانية مثل ترجمة معاني القرآن الكريم وترجمة كتب الحديث مثل ترجمة حديث مسلم وترجمة تفسير الجلالين وترجمة كتب السيرة وتأليف كتب مثل تاريخ الخلفاء الراشدين وغيرها.
3. تنظيم محاضرات وندوات إسلامية وتنظيم فصول لتعليم اللغة العربية لعموم اليابانيين والتعريف بالثقافة الإسلامية لعموم اليابانيين.
4. إقامة معسكر إسلامي يشارك فيه أيضا يابانيون غير مسلمين.
5. التعاون مع الهيئات والمؤسسات الإسلامية داخل اليابان وخارجها.
6. إقامة احتفال لمن يدخل الإسلام وإصدار شهادة إسلامه وإجراء عقود زواج لمن يتزوج.
7. إدارة المقبرة الإسلامية والإشراف على صيانتها وتوسيعها.
8. الحوار مع المؤسسات والهيئات الدينية الأخرى.

لا بد من الإشارة هنا إلى أن قلة عدد أعضاء جمعية مسلمي اليابان؛ فهم نحو 300 فقط ومعظمهم مشغولون بالعمل في الشركات والمصالح الحكومية جعل أنشطتَنا محدودة للغاية، وبالطبع يرجع السبب أيضا إلى قلة الحيلة، وعدم وجود ميزانية ثابتة للإنفاق على أنشطة الجمعية، وحتى تتمكن الجمعية من تفعيل أنشطتها في اليابان فإننا بحاجة إلى فريق متفرغ، على أن يُقام مسجد في قلب طوكيو تنطلق منه أنشطتنا، فللمكان أهميته في جذب اليابانيين، ووجوده في وسط طوكيو سيسهم في إيصال رسالة الإسلام لجميع مناطق اليابان، وتحقيق مثل هذا الحلم يساعدنا في الواقع على تنويع أنشطتنا وإبرازها بشكل واضح وملموس واستيعاب الدارسين اليابانيين العائدين من البلاد الإسلامية من أجل دعم أنشطة الدعوة إلى الإسلام بتقديم صورة مضيئة للثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي عن طريق الترجمة والتأليف والطباعة والبرامج التلفازية والكتابة في الصحف والمجلات وإقامة الندوات والمؤتمرات وما إلى ذلك من أنشطة تهدف في النهاية إلى مواجهة الدعايات المغرضة ضد الإسلام.

وبالله التوفيق.

الإسلاموفوبيا وآثارها السلبية على وضعية المهاجرين المسلمين في فرنسا

الدكتور سعيد المغناوي (*)

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

تعتبر فرنسا دولة لادينية منذ سنة 1905م؛ فهي لا تعترف بالأديان ولا تعاديها، ودستورها ينص في مادته الأولى أنها جمهورية علمانية، تحترم كل الأديان بما فيها الديانة الإسلامية[1].

لكنها بعد نهاية الحرب العالمية الأولى قامت ببناء مسجد إسلامي في عاصمتها، امتنانا وعرفانا منها للضحايا المسلمين الذين حاربوا إلى جانبها. وقد تكفّلت بإنشائه من ميزانيتها، وتم تدشينه في الدائرة الخامسة من باريس، وفي حفل رسمي عالمي، حضره سلطان المغرب المولى يوسف بن الحسن العلوي 1926م.

ثم استجلبت العمال المسلمين من مستعمراتها، لإعادة ما دمرته الحرب ولتطوير قطاعها الصناعي. وبذلك تزايد عدد المسلمين بمدنها وقراها شيئا فشيئا، حتى أصبح الإسلام منذ ستينيات القرن العشرين الدين الثاني في فرنسا، وبلغ عدد المسلمين فيها ما بين خمسة أو ستة ملايين نسمة، حسب بعض الإحصائيات غير الرسمية. أما عدد مساجدها اليوم فيفوق الألفي مسجد.

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس ـ سايس.

(1) المادة الأولى من دستور فرنسا (4 أكتوبر 1958) تقول : " فرنسا جمهورية لا تتجزأ، علمانية ديمقراطية واجتماعية، تضمن المساواة أمام القانون لجميع المواطنين دون تمييز بسبب الأصل أو العرق أو الدين، وهي تحترم كل المعتقدات، وتنظيمها لا مركزي ".

وبهذا فهي تُعدّ من بين الدول الأوربية التي ينتشر فيها الإسلام بسرعة كبيرة. هذا ما أكدته دراسة فرنسية، أظهرت أن 3600 شخص يعتنقون الإسلام فيها سنويا[2]. وأوضح ديديي ليشي المسؤول عن التقرير في مكتب الأديان بوزارة الداخلية الفرنسية، أنه يتم كل يوم تسجيل عشرات الحالات من المعتنقين للإسلام[3]. وأشار تقرير آخر نشرته صحيفة الإكسبرس الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ 2008/9/20، إلى أن أعداد المسلمين في ازدياد، ومن كافة الطبقات والمهن في المجتمع الفرنسي، وكذلك من مختلف الأديان والمذاهب الفكرية، من علمانيين إلى بوذيين إلى كاثوليك وغيرهم.

وقد أدى هذا الوضع الجديد في فرنسا إلى تخوف بعض الفرنسيين من أسلمتها، وفي مقدمتهم اليمين المتطرف الذي يرفع أتباعه شعار التصدي للمد الإسلامي ومعاداة كل من ينتمي للدين المحمدي، الذي في اعتقادهم يتهددهم ويتهدد مسيحيتهم؛ ولذلك يعاني الإسلام والمسلمون منهم ويلات عديدة، منها : التهميش والتشويه والتحقير والترهيب، والعنصرية والقذف والإهانة، ومضايقة المحجبات، والحرمان من العمل، والاتهام بالإرهاب والعنف والبربرية والتوحش، والاعتداء على الرموز والمقدسات والمقابر والمساجد.

ومثل هذه الممارسات الدنيئة من بعض الفئات الفرنسية ضد الإسلام والمسلمين، هي ما اصطلح على تسميته في السنوات الأخيرة بالإسلاموفوبيا، التي هي في الحقيقة شكل من أشكال العنصرية أو وجه من وجوهها.

إلا أن هناك من يرى بأن الترجمة الأدق لهذا المصطلح، هي التخويف من الإسلام والترهيب والتنفير منه، وهناك من قال بأنه يعني الكره لكل ما يمت إلى الإسلام والعرب والمسلمين بأية صلة.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الفرنسيين كانوا إلى وقت قريب لا يعترفون بظاهرة الإسلاموفوبيا ويشككون في وجودها في الواقع، ومنهم من اعتبرها قضية مصطنعة من فئة متطرفة من المسلمين استخدمتها كسلاح مضاد لصد ورفض وتجريم كل نقد موجه للإسلام، أو استخدمتها كسلاح مضاد للتغطية على الغزو الإسلامي الجديد لأوربا.

غير أن كلمة الإسلاموفوبيا ما فتئت أن تسربت إلى كثير من الدوائر الفرنسية، ووصلت في نهاية المطاف سنة 2008 إلى فم الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، الذي

---

(1) جريدة التجديد (**المغربية**)، العدد الصادر بتاريخ 9-4-2008.

(2) جريدة المساء (**المغربية**)، العدد الصادر بتاريخ 11-6-2008 .

تعهد بمحاربتها بعد تعرض عشرات المقابر الإسلامية للتدنيس، فقال: "إن الأفعال التي ارتكبت هنا لها اسم، وهو الإسلاموفوبيا؛ التي تحتاج منا محاربتها بحزم بالغ، مثلما نحارب العنصرية ومعاداة السامية".

أما الأكاديميون الفرنسيون فقد اهتم عدد منهم بهذه الظاهرة، ومن بينهم الباحث فانسان جيسير، وذلك في كتاب له سماه (الإسلاموفوبيا الجديدة).

وفانسان جيسير هذا، مؤلف شاب، ولد سنة 1968 بمدينة سان ماندي المجاورة للعاصمة باريس. وفي سنة 1995 كُلّف بمهمة في وزارة الخارجية، بصفته باحثا بمعهد البحث حول المغرب العربي المعاصر بتونس. وفي أكتوبر من سنة 1999 بدأ العمل في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي، وعيّن في مؤسسة تابعة له، هي معهد الأبحاث والدراسات حول العالمين العربي والإسلامي بمدينة إيكس بروفانس.

في كتابه السالف الذكر، الذي صدر عن دار النشر (La Découverte) بباريس في شهر ماي من عام 2003م في 122 صفحة ضمن سلسلة (Sur Le Vif)، يقول بأن الإسلاموفوبيا حسب ما ورد في المعجم الفرنسي (Le Petit Robert) في طبعته الصادرة سنة 2005م، هي اسم مؤنث مركب من كلمتين (إسلام) و(فوبيا)، وهي شكل من أشكال العنصرية الموجهة ضد الإسلام والمسلمين.

والأطروحة المركزية لجيسير في كتابه هذا، تقوم على فرضية مفادها أن هناك تخويفاً وترهيباً من الإسلام في فرنسا، ولاسيما بعد أحداث 11 شتنبر 2001م، الهدف منه رفض وإبعاد من يُفترض أنهم ينتمون لهذا الدين ويعتنقونه. وهذا التخويف من الإسلام، الذي قال جيسير إنه ينتشر تلقائيا، قد ميّزه عن العنصرية التقليدية ضد العرب والمهاجرين؛ لأنه حسب رأيه هو تخويف يمارس ليس على أساس ومرجع عرقي، وإنما على أساس ومرجع ديني، وبالتحديد هو تخويف يمارس ضد أي علامة واضحة تشير إلى الهوية الإسلامية.

لكن، إذا كانت هذه الظاهرة كما قال موجودة في كل من أوربا وأمريكا، فهذا يعني أن هناك فعلا إسلاموفوبيا فرنسية، هي أولا وقبل كل شيء دينوفوبيا. ومن ثم حاول عبر صفحات كتابه هذا، أن يبيّن للقارئ أسبابها وأخطارها.

وقد تحدث فيه حتى عن اليهودفوبيا، إلا أن هذه القضية لا تعنينا الآن، وإنما الذي يعنينا هنا هو ما ذكره في (الفصل الأول، الذي تناول فيه بالتحليل ظاهرة (إسلاموفوبيا وسائل الإعلام). ولقد أثارت انتباهي هناك نقطة هامة، وهي تلك

الانتقادات الصريحة التي وجهها لمن أسماهم بـ (مثقفي وسائل الإعلام)، واعتبرهم مسؤولين إلى حد كبير عن إشاعة الإسلاموفوبيا وسط المجتمع الفرنسي.

أما في الفصل الرابع والأخير، فقد تحدث عن أولئك الذين يحتضنون الإسلاموفوبيا ويرسخونها عن طريق التهويل والتخويف، وفي مقدمتهم الفاعلون السياسيون، ثم المثقفون ورجال الدين والإعلاميون[4].

- ❖ أن صدوره شكّل حدثا جديدا ذا أهمية بالغة في فرنسا، ومنعطفا جديداً في البحث العلمي الموضوعي.
- ❖ وأنه يقدم صورة مضيئة عن وجود أصوات عاقلة منصفة تستمسك بالحق وتستنكف عن الخوض في الحرب الإعلامية التي ينفخ في نارها اللوبي الصهيوني بأوربا كلها، خاصة بعد ظهور استطلاعات للرأي تُبيّن أن أكثر من 59 بالمائة من الأوربيين يؤمنون بأن الكيان الصهيوني أصبح الخطر الأول على السلم العالمي.
- ❖ وأن صاحبه (فانسان جيسير) قد أجاب فيه بشجاعة وموضوعية عن الأسئلة الكبرى التي تُسخن النقاش العام في فرنسا، وتتوتر الأجواء السياسية والدينية بسببها. وأجاب فيه عن أسئلة هامة جدا، مثل :
  - ماذا تُخفي هذه الظاهرة؟
  - ولماذا برزت من جديد؟
  - وما أشكالها وألوانها؟
  - ولماذا تستهدف المغاربيين والعرب والمهاجرين المسلمين؟
  - وما علاقة ذلك بالصراع العربي الصهيوني؟
  - وهل لوسائل الإعلام دور في تأجيج الظاهرة؟

---

(1) الحسن سرات : صحافي مغربي.

(2) انظر : مقال للحسن سرات، نشر على موقع المسلم. -http://almoslim.net، بتاريخ (6-11-1424هـ الموافق 30-12-2003م)، تحت عنوان (حظر الحجاب والإسلاموفوبيا في كتاب جديد).

- وما الأطراف التي تصنعها وتنفخ نارها؟
- وما سبل تجاوزها من خلال عمل المسلمين وغير المسلمين من الفرنسيين أجمعين؟
- وهل يوجد مسلمون مشاركون في صناعة الظاهرة بتواطؤ مع هيئات سياسية وحزبية فرنسية؟

ومن بين ما جاء في كتاب فانسان جيسير ـ حسب ما ذكره الحسن السرات ـ أن الإسلاموفوبيا الجديدة لا تعد شكلا جديدا من أشكال التمييز العنصري ضد المغاربي والمهاجر فحسب، ولكنها أيضا تخويف من الدين؛ بمعنى أن كل ما هو ديني مستهدف بالإهانة. ومن ثم، فخلف رفض المسلم يقبع أيضا رفض اليهودي. ورفض الحجاب هو طريقة أخرى لرفض الكيبا. إلا أن الفرنسيين الذين أثاروا الضجة حول المسألة الأولى، فضلوا السكوت إزاء المسألة الثانية خوفا من تهمة (معاداة السامية). أما الإسلاموفوبيا الاحترافية، فالمقصود بها التمييز الذي يستهدف بصفة خاصة المرجعيات الإثنية والثقافية والعنصرية والدينية أيضا؛ وهي تمييز يهاجم العلامات الظاهرة للتدين الإسلامي. وقد قسمها المؤلف إلى نوعين، هما :

1. **الإسلاموفوبيا الاحترافية الخفية** : وهي التي تهاجم الحاملين للعلامات الدينية البارزة بالالتجاء وراء القيم الموصوفة بالكونية، وتفضل استهداف الفتيات والنساء المحجبات في المقام الأول.
2. **الإسلاموفوبيا الاحترافية الواضحة** : وهي التي تهدف إلى إقصاء المسلمين من العمل في بعض القطاعات، وتجعلهم يواجهون متاعب متزايدة. كأنما يقال لهم : تخلصوا من علامات تدينكم وسوف نوظفكم.

وفي تعليق آخر على ما جاء في هذا الكتاب، قال محمد فاضل رضوان[1] : يرى فانسان جيسير أن صورة المسلمين في فرنسا متداخلة قليلا وغير واضحة، إذ في جانب معين يتم الحديث عنهم كونهم فرنسيين وعن بداية اندماجهم، أما عندما يُظهر المسلمون تمسكا بديانة بلدانهم الأصلية على مستوى التطبيق الديني، فإن المسألة تتعقد بالنسبة للرأي العام كما بالنسبة للنخبة الفرنسية. مما يضعنا أمام مفارقة عجيبة تقبل وتُقر في جزء منها، بأن جزءا من المواطنين الفرنسيين هم مسلمون؛ ولكن

(1) محمد فاضل رضوان: صحافي وباحث مغربي مقيم بكندا.

عندما تتجسد هذه المواطنة في الصلاة أو المطالبة بالمساجد، وبالنسبة للفتيات في ارتداء الحجاب، فإنهم سرعان ما يوصفون بالأصولية. وبالتالي، أصبح على المسلمين الفرنسيين أن يثبتوا أنهم ليسوا مسلمين كثيرا؛ لأن المجال السياسي الفرنسي وإن كان لا يعترض على وجود مسلمين، فإن هؤلاء لا يجب أن يكونوا مسلمين كثيرا، لأنهم إذا أصبحوا مسلمين بشكل زائد عن اللزوم، فإننا نبدأ في الخوف منهم لنصل إلى ممارسة التمييز ضدهم في أحيان كثيرة[1].

هذا المسار الضيق الذي اختطته وسائل الإعلام الفرنسية في التعامل مع الإسلام والمسلمين، الذي يدعو المؤلف ـ على امتداد فصول الكتاب الأربعة ـ إلى ضرورة تجاوزه، يعود من وجهة نظره إلى كون الصحافيين ضحايا معرفة غير دقيقة وغير معمقة، تتأسس على تقارير مشوهة عن حقيقة الدين الإسلامي، وتستند في كثير من أبعادها إلى العقلية الاستعمارية التي ترى في المسلمين مجرد بلهاء ورعاع، وفي الإسلام طائفة مغلقة. مما يحصر الرؤية الإعلامية برمتها في تصور افتراضي متخيل، يضفي الشرعية على مجموعة من الأفكار والأحكام المسبقة[2].

وقد حدد فانسان جيسير أربعة مصادر أساسية لظاهرة الإسلاموفوبيا بفرنسا، يمكن تقديمها على الشكل التالي[3] :

- **المصدر الأول** : مجموعة من الصحافيين ممن أصبحت وسائل الإعلام تقدمهم باعتبارهم حماة القيم الجمهورية، لا يتعامل خطابهم مع الإسلام باعتباره دينا كباقي الأديان، وإنما يعملون على ترسيخ إطار نمطي يضع الإسلام والمسلمين في موضع المهددين لروح الجمهورية الفرنسية.
- **المصدر الثاني** : خبراء الرعب الجدد، وهم مجموعة من الأكاديميين الذين يحتلون بشكل مبالغ فيه مختلف وسائل الإعلام كلما تعلق الأمر بالإسلام أو المسلمين، ويقدَّمون باعتبارهم متخصصين في الشأن الإسلامي ومختلف تأثيراته على الجمهورية الفرنسية؛ غير أنهم لا يتعاملون مع الدين الإسلامي

---

(1) الإسلاموفوبيا : قلق المفهوم وجدل الرؤى (نموذج فرنسا)، بحث لمحمد فاضل رضوان، نشر في العدد 26 من مجلة الجندول العراقية، يناير 2006؛ ونشر أيضا في العدد 76 من مجلة فكر ونقد المغربية، فبراير 2007، ص71- 80.

(2) الإسلاموفوبيا : قلق المفهوم وجدل الرؤى (نموذج فرنسا)، لمحمد فاضل رضوان، ص71- 80.

(3) نفسه.

باعتباره دينا كباقي الأديان، وإنما كحضارة ينبغي أن تدرس وفق مبادئ نظرية (صدام الحضارات). وبالتالي، فأطروحاتهم تساهم في إشاعة جو من الريبة والكراهية تجاه كل ما له علاقة بالدين الإسلامي بفرنسا.

- **المصدر الثالث** : المسلمون الإسلاموفوبيون، وهم مجموعة من الأسماء المغاربية التي تعيش بفرنسا، وتشكل بالنسبة لوسائل الإعلام مرجعا مثاليا لتكريس الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين، وفق منطق (شهد شاهد من أهلها).

- **المصدر الرابع والأخير** للإسلاموفوبيا - حسب جيسير - يتموقع ضمن فعاليات الأوساط اليهودية الفرنسية، التي تعمل على ترويج أطروحة تربط بشكل مباشر الأوساط الإسلامية بمعاداة السامية.

ومما تنبغي الإشارة إليه كذلك، هو أن فانسان جيسير لم يتحدث عن الإسلاموفوبيا في هذا الكتاب فحسب، بل تحدث عنها أيضا في مناسبات أخرى، منها:

1. الندوة التي انعقدت بكلية إكس بروفانس، يوم الجمعة 14 نونبر 2003: قال فيها جيسير بأن فرنسا تشهد منذ ثلاث سنوات تقريبا، موجة متصاعدة من الإسلاموفوبيا متعددة الأشكال. وأشار إلى أنها قد انتقلت من تشويه أشخاص إلى التشكيك في عمل العديد من الجمعيات الإسلامية، ووصمها بأنها جمعيات توظفها أياد خفية، بغية إفقادها مصداقيتها وتخويف الناس منها. ورأى أن رجال الكنيسة يبدون تفهما وتسامحا أكبر من العلمانيين، وهو ما تجسد مثلا في قضية الحجاب؛ إذ وقف العديد من العلمانيين مشجعين على سن قانون يمنع الحجاب في المدارس بفرنسا، فيما أبدى مجمع الكنائس المسيحية المختلفة رفضه لهذا الإجراء[1].

2. الحوار الذي خص به جريدة «التجديد المغربية»[2]، ونشر على صفحاتها يوم 22 يناير 2004: أكد فيه جيسير أن قضية الحجاب في فرنسا تحيط بها رؤية استعمارية، لم تتخلص منها الجمهورية الفرنسية، وضاعفت من سوداويتها

---

(1) الإسلاموفوبيا تتصاعد في فرنسا، مقال لهادي يحمد، نشر على شبكة الإنترنت في موقع إسلام أون لاين.نت، يوم 16 نونبر 2003.

(2) حاوره الحسن سرات.

أحداث 11 شتنبر 2001. وكشف أن الاستغلال السياسي للقضية كان محكما، لـدرجـة أن الحزب الاشتراكـي الـفـرنسـي، المعـروف بـدفـاعـه عـن قضـايـا المهاجرين والمسلمين، قد انزلق في المزايدات السياسية.

وليس الحجاب في حد ذاته كما قال هو الذي يخيف غالبية من الفرنسيين اليوم، بقدر ما أن مصدر الخوف هو الرمز الذي يثيره في المخيلة الوطنية؛ فقد اعتبر علامة للجمود والظلامية الدينية، وعلامة على دونية المرأة وسطوة الرجال على النساء، بل قيل إنه يثير هاجس الراديكالية الإسلامية، والأصولية، والإرهاب الإسلامي.

ومثل هذه النظرة ـ في رأيه ـ ليست بجديدة، ذلك أن الإسلام ولمدة طويلة قد اعتبر من لدن الإيديولوجيات الجمهورية، بمثابة دين متخلف ورجعي؛ والذين ظلوا متمسكين بتلك الإيديولوجيات الجمهورية اعتقدوا أن مهمتهم هي تحرير النساء، وأن نزع الحجاب كان ـ في نظرهم ـ بمثابة واجب للتحرر الجنسي والحداثة الاجتماعية.

من جهة أخرى، فقد كان لهجمات 11 شتنبر 2001 حسب قوله أثر جارح في التمثلات السوسيو سياسية للحجاب، يساوي نفس أثر الصراع الدائر في الجزائر؛ لأن الفرنسيين لم يتخلصوا نهائيا من فكرة أن الجزائر فرنسية. وبالتالي، فكل ما يجري بها له انعكاسات مباشرة على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية الفرنسية. ومن خلال الوضعية الحالية فيها، يميل الفرنسيون إلى معالجة قضية الحجاب وكل الشؤون المرتبطة بالإسلام. وهذا ما يفسر لنا، لماذا من خلال الحجاب ينظر البعض إلى هاجس إرهاب الجماعة الإسلامية المسلحة أو المجموعات الإسلامية المسلحة؟ ولماذا ينظر أحيانا كثيرة إلى الفتيات الفرنسيات المرتديات للحجاب على أنهن تحت قبضة المنظمات والحركات المتطرفة؟ أو أنهن يمثلن تهديدا حقيقيا للانسجام الاجتماعي بفرنسا. وينبغي أن يقال كذلك، إن كثيرا من المثقفين الجزائريين اللاجئين بفرنسا يساهمون في إبقاء هذه الفكرة الخيالية؛ إذ يشاركون في صنع تدليس الأنواع، بمحاولة إقناع الفرنسيين بأن ما جرى في الجزائر عام 1991 و2000 سوف يحدث قريبا بفرنسا: الإرهاب، والمجازر، واغتيال المثقفين العلمانيين.

وحسب تعبيره، فإنه لا يوجد في النصوص الفرنسية المؤسسة للعلمانية، ما يسمح اليوم بإقصاء الفتيات المحجبات من المدارس العمومية. ومن أجل هذا أراد البعض تغيير القانون، أو اختيار قانون للإقصاء يعزز موقفهم من الحجاب. وقد تم بالفعل حظر الحجاب في خطاب رئاسي لجاك شيراك، يوم 17 دجنبر 2003. وإنما فعل

ذلك للخروج من مأزق سياسي، أي استغل قضية الحجاب لهذه الغاية؛ لأنه كان يتخوف من أن يتحول الموسم الدراسي في شهر شتنبر إلى موسم لمظاهرات المدرسين والآباء والطلبة. ومن ثم فقد سمح استخدام تهديد الحجاب بدفن النقاش الوطني حول مستقبل نظام الدراسة العمومية، أي إن قضية الحجاب قد تم تسييسها عن ترصد ورغبة لتغطية المشاكل الحقيقية، وهي أزمة النظام التعليمي العمومي والنتائج الاقتصادية الهزيلة.

ومن الأمور التي أشار إليها جيسير أيضا في هذا الحوار، ذلك الدور الذي تلعبه بعض الفئات المسلمة لتسهيل الإسلاموفوبيا في فرنسا. ويتعلق الأمر بتلك النخب الفرنسية ذات الأصل المسلم، التي تسعى إلى بناء سيرة سياسية أو إعلامية عن طريق ترويج صورة مهينة للإسلام وعن طريق التهويل من خطر الأصولية الإسلامية. وهذه النخب ـ كما قال ـ إنما هي مخلوقات تهفو إلى ترقية سياسية واجتماعية. وخير مثال على ذلك ما يقوم به بعض الصحافيين اللاجئين إلى فرنسا من محاولات للحصول على حياة مهنية، متخذين من فزاعة التهديد الإسلامي رأس مالهم؛ وبالتالي فهم يصدرون في تصرفاتهم عن انتهازية.

وعن إمكانية إيقاف ظاهرة الإسلاموفوبيا، قال جيسير، إن هذه القضية ليست قضية المسلمين فحسب، وإنما هي قضية كل المواطنين بفرنسا. أي هي قضية وطنية، لكن للجمعيات الإسلامية مكانتها في هذه المعركة.

ثم نبّه إلى أن الإسلاموفوبيا لا يمكن أن تواجه بالانكماش الطائفي، ولكن بأسلحة المواطنة والدفاع عن الحريات الأساسية؛ لأن هذا رهان ديمقراطي ضد كل الذين يريدون تحويل العلمانية إلى آلة حرب ضد المسلمين الملتزمين.

وتمنى أن يدرك المثقفون الفرنسيون، بأنه يمكن أن يكون المسلم فرنسيا دون أن يتنكر لمعتقداته الدينية، كما يمكن أن تكون الفتيات المحجبات مواطنات فرنسيات متعلقات بالحرية والديمقراطية والعلمانية.

وعبّر عن تفاؤله في الأخير بكلمة أوضح فيها أن الإسلاموفوبيا ليست قدرا محتوما لن يرتفع، وإنما هي اختبار يجب النجاح فيه بذكاء في الوقت الراهن، وفي سنوات معدودات ستصبح مجرد ذكرى سيئة لا غير.

وقد تبيّن له أن مسلمي أوروبا ـ في أغلبهم ـ باتوا يدركون هذا التحدي، ولهذا يرفضون كل انكماش طائفي.

3. المحاضرة التي ألقاها في المؤتمر السنوي لمسلمي فرنسا[1] في شهر مارس 2004: وأكتفي بالإشارة هنا إلى أنه قد تحدث فيها عن الظاهرة الإسلامية بأوربا، وفي الشهر الموالي من نفس السنة، أي في شهر أبريل من سنة 2004، زار فانسان جيسير المغرب من أجل المشاركة في ندوتين :

- إحداهما بالدار البيضاء، نظمتها جمعية المسار.

- والثانية بالرباط، نظمها مركز طارق بن زياد بقاعة مصطفى الخوضي، التابعة لوكالة المغرب العربي للأنباء.

بقي أن أشير في الأخير، إلى أن مواقف جيسير الجريئة وكتاباته المناهضة للإسلاموفوبيا، قد سببت له متاعب كثيرة، في مقدمتها المضايقات الأمنية التي تعرض لها بالمركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي. وهو ما بات يُعرف سنة 2009 بـ (قضية جيسير)، التي أدت إلى وقوف أكثر من 4500 باحث ومفكر فرنسي إلى جانبه، دفاعا عن حرية التفكير والتعبير والبحث العلمي[2] .

---

(1) محاضرة جيسير في المؤتمر السنوي لمسلمي فرنسا في شهر مارس 2004، هي نفس المحاضرة التي ألقاها بالدار البيضاء بدعوة من جمعية المسار وبالرباط بدعوة من مركز طارق بن زياد في شهر أبريل 2004، وهي أيضا نفس المحاضرة التي شارك بها في حلقة دراسية بالعاصمة المجرية بودابست في شهر يونيو من سنة 2004، نظمتها مديرية الشباب والرياضة واللجنة الأوربية لمناهضة العنصرية وعدم التسامح بالمركز الأوربي للشباب، وبهدف المساهمة في مكافحة ظاهرة الإسلاموفوبيا.

(2) انظر: «جريدة بينات» اللبنانية، العدد 347.

المصادر والمراجع

- **مجلة الجندول العراقية**، العدد 26، يناير 1996 .
- **مجلة فكر ونقد المغربية**، العدد 76، فبراير 2007.
- **جريدة التجديد المغربية**، الأعداد الصادرة بتاريخ 22 يناير 2004، و25 أبريل 2004، و6 يوليوز 2004، و9 أبريل 2008.
- **جريدة المساء المغربية**، العدد الصادر بتاريخ 11 يونيو 2008 .
- **جريدة بينات اللبنانية**، نشرة أسبوعية تبرز أهم مواقف العلامة محمد حسين فضل الله، العدد 347.
- **الموسوعة الإلكترونية الحرة ويكيبيديا**.
- **موقع إسلام** أون لاين.نت (www.islamonline.net)
- **موقع المسلم** (http://almoslim.net)

- **La constitution francaise** du 4 octobre 1958 (Préambule, art. 1.)
- **Vincent Geisser** : La nouvelle islamophobie, Paris, la Découverte, Coll. (Sur le vif), 2003, 122p.
- **Centre européen de la jeunesse** : L'islamophobie et ses conséquences pour les jeunes, Rapport du Séminaire (Ingrid Ramberg), Budapest, 1- 6 juin, 2004.

دور الجاليات المسلمة بالغرب في التخفيف من ظاهرة الإسلاموفوبيا

الأستاذ محمد المهدي (*)

مقدمة :

يعتبر مصطلح "الإسلاموفوبيا" من المصطلحات الحديثة التداول نسبياً في الفضاء المعرفي المنشغل بصورة خاصة بعلاقة الإسلام بالغرب، وهو مصطلح استعير على ما يبدو في جزء منه من علم الاضطرابات النفسية للتعبير عن ظاهرة الرهاب أو الخوف المرضي من الإسلام[1].

ولا خفاء أن ظاهرة الإسلاموفوبيا أو عقدة الخوف من الإسلام كما يحلو للبعض تسميتها من أهم المشكلات التي ابتلي بها المجتمع الإسلامي، ومن أخطر القضايا التي أرخت بظلالها عليه في وقتنا المعاصر، وذلك لما لها من تأثير سلبي على صورة الإسلام والمسلمين على حد سواء.

وإذا كان المهتمون بهذا المجال مختلفين في تحديد أسباب تفشي هذه الظاهرة التي تنامت في السنين الأخيرة على نحو مقلق خصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا، فإنهم متفقون ـ بصرف النظر عن تلكم الأسباب ـ على أن التعامل معها يستلزم التعجيل بتضافر كل الجهود الممكنة من أجل الحد منها أو على الأقل التخفيف من غلوائها وآثارها السلبية على صورة الإسلام والمسلمين، لأن من شأن اتساع نطاقها وتنوع تجلياتها ومظاهرها أن يجعلها أقدر على تثبيت أقدامها بحيث يصعب احتواؤها.

والحمد لله الذي من على أمتنا الإسلامية بهذه الصحوة الشاملة، التي من ثمراتها عقد المؤتمرات والندوات، التي تلتقي فيها شخصيات فكرية وعلمية بغية البحث

(*) الكلية متعددة التخصصات بتازة ـ المغرب.

(1) خالد سليمان : ظاهرة الإسلاموفوبيا، قراءة تحليلية، .http://www.annabaa.org/nbanews/59/375.htm ص1.
ـ لطيفة القصاب: الإسلاموفوبيا ودور الجاليات المسلمة في الغرب، http://mcsr.net/activities/029.html، ص1.

والدراسة، من أجل الوصول إلى الحلول الشرعية لقضايا الأمة قصد تجاوز أزماتها، وفي هذا تندرج الندوة العلمية التي ينظمها اليوم مركز الأبحاث والدراسات في مجال تصحيح صورة الإسلام بفاس، تحت عنوان" ظاهرة الإسلاموفوبيا وسبل التعامل معها"، والتي أتشرف كثيرا بأن أكون واحدا من المشاركين فيها.

وحيث إن مسؤولية الدفاع عن الإسلام هي مسؤولية كل المسلمين، أفرادا وجماعات، سواء داخل العالم الإسلامي أو خارجه، فإن المسؤولية بنظرنا قد تتعاظم في جانب الجاليات المقيمة بالغرب، لاحتكاكها الدائم بمصدر الظاهرة المشار إليها ومرتعها، ولأنهم يشكلون صورة مصغرة للمجتمع الإسلامي، إذ إن تصرفاتهم وسلوكاتهم تعكس تصرفات وسلوكات هذا المجتمع وتحسب عليه، ولعلهم بذلك أقرب من يمكن أن يسهم في تشكيل الصورة النمطية السيئة عن الإسلام والمسلمين لدى الغرب.

وإيمانا منا بأنه مهما عظم الدور الذي يمكن أن تضطلع به هذه الجاليات، فإنه غير كاف لاحتواء ظاهرة الإسلاموفوبيا احتواء كليا، ولذلك أشرنا في عنوان المداخلة إلى مصطلح "التخفيف" وليس "القضاء"، ذلك أن القضاء على الظاهرة يتطلب جهودا أكبر مما يمكن أن تضطلع به الجاليات المسلمة بالغرب، فما هو الدور الذي يمكن لهذه الجالية إذن أن تضطلع أو تسهم به في كسر جدار الخوف من الإسلام ؟، وكيف يمكن العمل على تفعيل هذا الدور خير تفعيل حتى يثمر ثماره المرجوة ؟.

للإجابة عن هذين التساؤلين أقسِّم مداخلتي إلى تمهيد ومبحثين، أتناول في التمهيد أسباب ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على صورة الإسلام والمسلمين، وذلك في عجالة شديدة حتى لا نخرج عن السياق العام للمداخلة.

وفي **المبحث الأول** أبين الدور المفترض للجالية المسلمة في كسر جدار الخوف من الإسلام.
وفي **المبحث الثاني** أبيّن سبل تأهيل الجالية المسلمة لتقوم بالدور المشار إليه أحسن قيام.

تمهيد

أسباب ظاهرة الإسلاموفوبيا وأثرها على صورة الإسلام والمسلمين :

إن ظاهرة الإسلاموفوبيا هي في الواقع ظاهرة قديمة، تضرب بجذورها عميقاً في تاريخ قديم يعود إلى القرن السابع للميلاد[1]، وهو تاريخ حافل بمسلسل طويل من العلاقات المضطربة بين الغرب والإسلام، استقر خلاله هذا الأخير في الذهنية الغربية بوصفه تعبيراً عن خطر داهم محدق يتهدد كل ما هو غربي، ولا جديد في الظاهرة إلا من حيث تصاعد حدتها في عالم اليوم، وبخاصة في دول الغرب بعد التفجيرات الشهيرة التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر من شتنبر عام 2001[2] ،

---

(1) حسب المفكر الإنجليزي صاحب كتاب : الفتوحات العربية، الذي قال: "إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد"، أي إلى ظهور الإسلام (د. محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الأولى 2005، ص 62).

(2) ولكن هذا لا يعني أن صورة الإسلام في الغرب كانت وردية قبل تلك الأحداث، ففي استطلاع للرأي أجرته بعض المؤسسات الأجنبية تبينت بعض الحقائق المذهلة :

ـ ففي سؤال عن تقييم طبيعة العلاقة بين المسلمين والغربيين كانت الآراء المستطلعة وفق النسب الآتية :

البلد	علاقة جيدة	علاقة سيئة
أمريكا	% 32	%55
ألمانيا	%23	%70
إسبانيا	%14	%61
بريطانيا	%28	%61

ـ وحول التقييم لشخصية المسلمة من وجهة النظر الغربية كانت النتيجة :

البلد	متعصب	عنيف	متعجرف
أمريكا	%43	%45	%35
ألمانيا	%78	%52	%28
إسبانيا	%83	%60	%42
بريطانيا	%48	%32	%35
فرنسا	%50	%41	%38

انظر: العدد 20 من مجلة الحياة الطيبة، 2006، ص 9و10.

والتي أبانت عن مستوى الحدة والغضب اللذين كشفا الستار وأماطا اللثام عن مكنونات ثقافة الكراهية السوداء التي تطبع الموروث الثقافي الغربي تجاه الإسلام[1].

وكغيرها من الظواهر فإن الفهم الجدي والعميق لها هو الخطوة الأولى الضرورية والأساس للتمكن من علاج ما يرتبط بها من مشكلات وينجم عنها من آثار، وطبعا لا يتأتى فهمها إلا من خلال الوقوف على أسبابها، وأسبابها كما لا يخفى متعددة تتفاوت في أهميتها وقوتها، بيد أنها تتضافر فيما بينها لتشكيل الظاهرة على النحو الذي تتراءى به.

ورغم عدم وجود اتفاق حول هذه الأسباب فإن ثمة حدا منها متفقاً عليه، نذكر منه على سبيل المثال لا الحصر [2]:

أولاً: الذكريات التاريخية عن الصراع بين الإسلام والغرب

لعل الفتوحات الإسلامية التي بدأت منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وتوسعت حدودها وآفاقها على امتداد قرون طويلة لاحقة، يمكن اعتبارها بالنظر إلى ما ارتبط بها وتمخض عنها من دحر جحافل الروم وتهديم معاقل وجودهم في المناطق التي شملتها، من أهم وأبرز الأحداث المؤلمة التي تعرض لها الغرب باعتباره الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية في علاقته بالعالم الإسلامي، وهي أحداث أسهمت في غرس بذور الخوف من الإسلام في ذهنيته، وجعله يغدو نزوعاً مرضياً يحكم تفاعله مع هذا الدين وأتباعه.

والتاريخ مليء بسلسلة لا تكاد تنتهي من الأحداث غير السارة، ومن مواقف المجابهة العنيفة التي سجلت في العديد من المعارك من قبيل معركة اليرموك التي هزم فيها جيش الروم في السنة السادسة عشرة للهجرة هزيمة نكراء ترتب عنها جلاء الاحتلال الرومي عن المنطقة العربية ولو إلى حين..، وفتح الأندلس سنة 91 هـ، ومعركة بلاط الشهداء سنة 114هـ، التي لو انتصر المسلمون فيها لدخل الإسلام إلى باريس نفسها، وفتح القسطنطينية على يد العثمانيين سنة 857 هـ ...إلخ، قائمة طويلة بوقائع

---

(1) د. محمد عمارة: في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2003، ص91.

(2) خالد سليمان: المرجع السابق، ص1، وما بعدها، وانظر أسبابا أخرى في مداخلة د. حسن عزوزي الموسومة بـ: دور الصحافة المكتوبة في تصحيح صورة الإسلام في الغرب، ضمن أشغال اليوم الدراسي الذي نظمته مجموعة البحث في مجال تصحيح صورة الإسلام بكلية الشريعة بفاس يوم 9 ماي 2006 حول موضوع:"صورة الإسلام في الغرب بين حملات التشويه وواجب التصحيح"، ص 101-102 .

الصراع الدامي بين الجانبين الإسلامي والغربي، كانت الغلبة في أكثرها لقوة المسلمين، وقائع شكلت ما يسمى بعقدة الخوف من الإسلام، ولذلك نجد بعض المستشرقين يقول:"إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوربا"، ويقول آخرون:"إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي"[1]، ويسوق الأستاذ الجابري تحليلا لكاتب أمريكي نشر في مارس 1992 يقول فيه:"يبدو أن الإسلام مناسب لملء دور الشرير بعد زوال الحرب الباردة، فهو ضخم ومخيف وضد الغرب ويتغذى على الفقر والسخط"[2].

ثانياً : الجهل بالإسلام

يميل الإنسان في العادة إلى معاداة ما يجهل، بوصفه يشكل خطراً غامضاً يجدر الاحتراس منه وتجنبه، وهذا ما قد يفسر خوف الغربيين من الإسلام وميلهم إلى معاداته والنفور منه، فالواقع أن هناك جهلاً صارخاً بحقيقة هذا الدين وجوهره، وبخاصة عند هؤلاء، لاسيما وأنهم يستقون معلوماتهم عنه من مصادر قد تفتقر في كثير من الحالات إلى الموضوعية والنزاهة والتجرد، سواء تعلق الأمر بالإعلام أو بمناهج التعليم أو بغيرهما، فالمناهج المدرسية وحتى الجامعية في العالم الغربي، ما تزال كما هو ملاحظ مثقلة بكم هائل من المعلومات المغلوطة والمضللة عن الإسلام، التي تعود في جذورها إلى نتاجات المدرسة الاستشراقية.ولذلك فإن الجهل بالإسلام وحمل تصورات مغلوطة عنه، أيا كانت الأسباب الكامنة وراءه يشكل مع ما يترتب عن ذلك من الحيلولة دون وضع أرضية ملائمة لفهمه والتواصل الإيجابي مع معتنقيه، معلماً بارزاً من معالم الحياة في العالم الغربي، وربما كان هذا هو ما دفع عضو مجلس النواب الأمريكي السابق "بول فندلي"، الذي خبر العالم الإسلامي عن قرب، إلى أن يأخذ على عاتقه السعي إلى كسر حاجز الجهل الغربي بالإسلام، والعمل على تصحيح المفاهيم والصور النمطية الخاطئة المتصلة به، ودحض الأضاليل التي تستوطن أذهان الغربيين بشأنه، وبخاصة في المجتمع الأمريكي، مُعْزياً الأسباب التي تقف خلف جهل الأمريكيين والغربيين عموماً بالإسلام وتبنيهم صوراً نمطية مضللة عنه فيما يلي:

---

(1) عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني : أجنحة المكر الثلاثة، طبعة دار القلم ببيروت 1977، ص705، وانظر : د أحمد عبد الرحيم السايح : في الغزو الفكري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر دون تاريخ، العدد 38، ص 49 وما بعدها.

(2) محمد عابد الجابري: مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت، طبعة 1995، ص 179.

1. دور اللوبي اليهودي في تقديم صورة سيئة عن المسلمين، وتصوير إسرائيل على أنها دولة ضعيفة يهدد العرب والمسلمون أمنها ووجودها.

2. الاقتصار على الحديث عن الأخلاق اليهودية والمسيحية في المجتمع الأمريكي، بوصفها الأخلاق العالية المقبولة الجديرة بالاتباع، مع تجنب الإشارة إلى الأخلاق الإسلامية، وتصويرها بشكل سلبي منفر في حال الحديث عنها، بحيث غدت اليهودية والمسيحية في نظر الأمريكي أنموذجاً للتقدم والحضارة والأخلاق، وأصبح الإسلام تعبيراً عن القوة المتخلفة والخطرة.

3. وسم الإسلام بالإرهاب والتعصب، واحتقار المرأة، والافتقار إلى التسامح مع غير المسلمين، ورفض الديمقراطية، وعبادة إله غريب وانتقامي.

4. تخوف الغربيين من خطر إسلامي متصاعد، وخشيتهم من الحرب الإسلامية الغربية القادمة، وتغذية الهيئات الصهيونية لتلك المخاوف، حتى لا يتراجع الدعم الغربي للكيان الصهيوني في فلسطين.

5. تركيز وسائل الإعلام الغربي على تصوير الحركات الإسلامية، وبخاصة حركات المقاومة، على أنها حركات إرهابية لا تحترم الديمقراطية وحقوق الإنسان، وعمل تلك الوسائل في بعض الأحيان على فبركة برامج يتم عن طريقها تضخيم دعوات بعض المسلمين إلى محاربة أمريكا وإسرائيل والغرب بشكل عام.

ثالثا : تبني صورة نمطية سلبية عن المسلمين

لعل من أسباب تنامي ظاهرة الإسلاموفوبيا فضلا عما سبق طبيعة النظرة الغربية للإسلام التي ترسخت وتأصلت في ذهن المتلقي الغربي عبر كم هائل من الدراسات والأبحاث للعشرات من المستشرقين الباحثين عن الحقيقة في بعض الأحيان، والمدفوعين في أحيان أخرى من قبل الدوائر السياسية الاستعمارية وفقا لمخططات موضوعة ومصاغة بدقة وإحكام[1].

(1) عادل الجبوري: الإسلام والغرب، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت، الطبعة الأولى 2003، ص135.

فمن دون شك أن للمستشرقين أكبر الأثر في تلك النظرة وفي تشكيل مواقف الغرب العدائية إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة[1]، فبالرغم من أن معظمهم ليسوا بمؤرخين وليسوا بعلماء اجتماع، إلا أنهم استطاعوا صياغة قوالب مجحفة عن الإسلام والمسلمين، من أجل تنفير الكثيرين ممن اشرأبت نفوسهم لتفهم الإسلام واعتناقه[2]، قوالب تسقط على الشخصية المسلمة كماً هائلاً من الافتراءات والخيالات المريضة، فتصورها بالجشع والنهم والغباء والسفه والمكر واحتقار المرأة والتكالب على الشهوات...إلخ، حتى صار: "كثير من الأمريكيين يتصورون أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين، ويعتقدون أن سيوف محمد وأتباعه هي السبب في انتشار الدين الإسلامي وبناء على ذلك أصبح أكثرهم ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء، بل ليس هناك من صورة أسوأ في ذهن وضمير المواطن الأمريكي من صورة العالم الإسلامي"[3].

وقد اضطلعت السينما العالمية هي الأخرى ووسائل الإعلام المغرضة التي تخضع لسيطرة واضحة من جانب الدوائر الصهيونية في العالم بدور أساس في ترسيخ معالم تلك الصور النمطية وتضخيمها وتعميمها، حتى غدت بمثابة الحقائق الثابتة التي لا تحتمل النقاش، والتي تحكم تعاطي كثير من أبناء الغرب مع الإسلام والمسلمين.

ولا ينبغي إنكار حقيقة أن بعض أبناء المسلمين أنفسهم قد اضطلعوا بدور لا يستهان به في تصديق تلك الصور النمطية الشائعة التي جعلت الغرب لا يرى فيهم "آخر" يصلح للحوار أو شريكا يستحق الاعتراف بثقافته أو بخصوصيته[4]، وذلك عن طريق سلوكهم المتخلف والمنحرف الذي أبانوا عنه من خلال علاقاتهم المختلفة داخل المجتمع، مقدمين بذلك الأنموذج الأسوأ عن الشخصية المسلمة، ومن ثم عن الإسلام نفسه، وهذا ما أقرت به ماري ويلدز البريطانية المسلمة في كتابها: "رحلتي من الكنيسة إلى المسجد، لماذا...؟"، حيث قالت :" وهناك حقيقة مؤلمة أخرى هي أن السياسات

---

(1) د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، كتاب الأمة العدد 5، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، الطبعة الثانية 1404 هـ، ص 14.

(2) محمد فتح الله الزيادي: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس/ ليبيا، الطبعة الأولى 1983، ص90.

(3) د. محمد عمارة: في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، مرجع سابق، ص137 ، (بتصرف).

(4) د. طلال عتريسي: صورة الإسلام: مسؤولية الغرب والمسلمين، ضمن كتاب:"مستقبل الإسلام"، دار الفكر، الطبعة الأولى 2004 ، ص 281 .

المتبعة اليوم في بعض الأقطار الإسلامية والمقرونة بتصرفات بعض الأفراد المسلمين عمقت بدورها نظرة التشويه لدى الأوربيين"[1].

ولا يخفى أن من مصلحة الكثيرين من أنصار التوجهات الاستعمارية والصهيونية استغلال السلوك السيء للمسلمين للنيل منهم ومن دينهم، وإثبات صحة الصور النمطية المرتسمة في أذهان الكثيرين من أبناء الغرب عنهم، كل ذلك من باب الحرص على اصطناع قطيعة دائمة بين الغرب والعالم الإسلامي وتوسيع الفجوات القائمة بينهما.

كما كان للتطبيق الشكلي السطحي للإسلام من جانب بعض أنظمة الحكم في الدول الإسلامية، التي تزعم اتخاذ الإسلام منطلقاً للتشريع فيها، نصيب في عملية الإساءة إلى الإسلام وتخويف الغربيين منه، إذ أظهرته تلك الأنظمة وكأنه جلاد قاس متحجر يطارد الناس لسلب حرياتهم وحرمانهم من كل مظاهر البهجة، وإجبارهم على إتيان الفرائض والطقوس الدينية على الرغم منهم.

وجاءت التفجيرات المدوية على أهداف مدنية في عدد من البلدان الغربية، كالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإسبانيا، والإسلامية أيضاً، كالسعودية ومصر وباكستان والأردن، التي تبنتها جماعات تزعم انتماءها للإسلام، كتنظيم القاعدة بتفرعاته، لتصب في تيار تصعيد المخاوف من الإسلام، ولتعطي لأعدائه المزيد من المبررات لمحاربته وتضييق الخناق عليه، بحجة مسؤوليته المباشرة عن توليد الإرهاب والإرهابيين.

كانت هذه إذن بعض الأسباب التي أفضت إلى نشوء أو تأجيج ظاهرة الإسلاموفوبيا، والتي كان من نتيجتها بروز عدد من الأعراض تفاوتت في طبيعتها وفي درجة سلبيتها وحدتها، كما يشهد لذلك الواقع المعيش، اتخذت شكل الطعن في رسالة الإسلام والتشكيك بنبوة الرسالة، ومحاولة تشويه التاريخ الإسلامي، ونظام الحياة الإسلامية[2]، أو إثارة النزاعات بين المسلمين، أو السعي إلى إخضاع بلاد المسلمين واحتلالها..، كما تجسدت تلك الأعراض في بعض المواقف والتصريحات

---

(1) د. الأمين بامبا: صورة الإسلام في حملات التشويه الغربية، ضمن أشغال اليوم الدراسي الذي نظمته مجموعة البحث في مجال تصحيح صورة الإسلام بكلية الشريعة بفاس يوم 9 ماي 2006 حول موضوع:"صورة الإسلام في الغرب بين حملات التشويه وواجب التصحيح"، ص77.

(2) انظر بعض مظاهر التشويه في: د. ماهر عبد المحسن حسن، الغزو الفكري والتحدي الحضاري، مقال منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 25، 1992، ص 249 وما بعدها.

لجهات إعلامية أو شخصيات سياسية معروفة، باعتبار الإسلام دخيلا على المجتمعات الغربية، بل وباعتباره عدوا مخيفا يتعين النيل منه[1] والقضاء عليه.

إذا اتضح لنا ما سبق حق لنا أن نتساءل عن أي دور يفترض بالجاليات المسلمة كطرف معني بالقضية الإسلامية الاضطلاع به في علاج ظاهرة الخوف المرضي من الإسلام أو على الأقل التخفيف من حدتها ؟.

المبحث الأول : الدور المفترض للجالية المسلمة في التخفيف من ظاهرة الإسلاموفوبيا

يستطيع المتابع للتحولات التي عرفتها أوربا خصوصا والغرب على وجه العموم خلال السنوات الأخيرة من القرن الماضي أن يرصد التزايد الكبير لأعداد المسلمين بهما، ارتباطا بظروف وأوضاع سياسية واقتصادية شهدتها عدد من بلدان العالم الإسلامي[2]، بحيث أصبح العدد حسب بعض الإحصائيات يقارب العشرة ملايين عربي ومسلم في بلد واحد مثل فرنسا، والعدد بالملايين في كل من ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا وإسبانيا وكندا وأمريكا.

لكن من الملاحظ أن الأفواج الأولى من هؤلاء المهاجرين كانت ذات خصائص متقاربة يغلب عليها الطابع الشخصي العام، إذ لم يكونوا من ذوي المستويات الثقافية العالية، وقد كان الدافع الأساس لهجرتهم هو البحث عن موارد الرزق، ولعل هذا ما أدى بمعظمهم إلى الذوبان والانصهار في المجتمعات الجديدة عليهم، وبالتالي كان البعد الرسالي في هجرتهم خافتا إن لم يكن منعدما.

---

(1) فقد صرح الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن بعد 11 سبتمبر بـ:"ضرورة إعداد تحالف دولي عالمي لمحاربة الإرهاب، وأعلن أن تلك الحرب ستكون الحرب الصليبية الأولى في القرن الحادي والعشرين، وعلى الرغم من تراجعه بعد ذلك مدعيا أنها زلة لسان وأن المقصود هو محاربة الإرهاب، إلا أنها تعكس مدى عداوة الغرب للإسلام"، خصوصا وأنه لم يمض على تدمير أفغانستان خمسة أشهر حتى عاد الرئيس الأمريكي ليفصح عن نواياه ومشاعره ضد الإسلام والمسلمين، قائلا:"إن أمريكا هي مصدر الخير كله والعالم الاسلامي هو مصدر الشر كله"، وصرح بيرلسكوني رئيس وزراء إيطاليا أيضا بعدائه للإسلام وطالب محاربة المسلمين ولكنه تراجع هو أيضا عن تصريحه، خشية أن يعوق ذلك تأييد العرب والمسلمين للحملة العالمية التي زعم الغرب أنها ضد الإرهاب، ولكن ما صرح به ليس بزلة لسان كما قيل عنه، وإنما هو إفصاح حقيقي عن مشاعر العداء الكامنة ضد الإسلام والمسلمين، وفي تقرير تبنته مجموعات من أعضاء اللوبي الصهيوني تم إرساله إلى الكونغرس الأميركي حمل عنوانا ترجمته العربية "لم لا ؟"لم لا تضرب مكة بقنبلة نووية نظيفة، ويهدم ذلك المكان الذي يطلقون عليه الكعبة حتى يعرف المسلمون الإرهابيون أننا أصحاب الكلمة العليا في العالم، ألا يتساوى تدمير نيويورك في أحداث 11 سبتمبر مع هدم كعبة المسلمين ومساجدهم ذات القيمة الدينية والتاريخية الكبرى في مكة" (د. لطيفة ابراهيم خضر: الإسلام في الفكر الغربي، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى 2002، ص89 وما بعدها).

(2) عادل الجبوري: المرجع السابق، ص135 .

غير أنه مع انتهاء الحرب العالمية الأولى حصل تغير رئيس في تركيبة المهاجرين، حيث أخذت أفواج المتعلمين والدارسين من ذوي الكفايات الثقافية والعلمية والمهارات المهنية المتميزة تغلب على ظاهرة الهجرة المتصاعدة[1]، وهو تحول يمكن استثماره في كسر جدار الخوف من الإسلام، طبعا إذا ما أحسن استثماره، عن طريق قيام هذا النوع من الجاليات بدور رسالي، يمكن أن يتخذ شكلين أساسيين، تصحيحيا دفاعيا (أولا)، ودعويا تبليغيا (ثانيا).

أولاً : الدور التصحيحي الدفاعي

يتعلق هذا الدور بتصحيح التصورات المغلوطة والنظرة السلبية المترسبة في المتخيل الغربي عن الإسلام والمسلمين، التي تراكمت في جزء منها نتيجة مخلفات تاريخ العلاقة بين العالم الإسلامي والعالم النصراني التي يختزلها العقل الغربي في الصراع والصدام أيام الحروب الصليبية والاستعمار، غافلا بذلك عن الصفحات المشرقة في هذه العلاقة.. وبنتيجة الجهل وبالصورة النمطية وغير ذلك.

فبناء على تلك التصورات وتلك النظرة وما يترتب عليهما على المستوى العملي تنبع الحاجة إلى هذا الدور، الذي يقوم كما سنرى على تصحيح الرؤى وتغيير الأفكار المغلوطة من أجل احتواء نزعات التحريض والتشويه، عن طريق إقامة حوار حضاري مع النخبة المثقفة، والطبقة السياسية، والجهات الإعلامية والدينية[2]، على أن تتم إثارة المواضيع المناسبة من أجل دعم وتأجيج الحوار الحضاري المنشود[3].

---

(1) عبد العزيز بن عثمان التويجري: **الحوار من أجل التعايش**، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الأولى 1998، ص137.

(2) لقد كانت بداية الغرب في اتصاله بالعالم الإسلامي عن طريق المواجهات العسكرية أولا ثم الإدارة الاستعمارية ثانيا فأصاب المسلمين من جراء ذلك غزو عسكري سياسي، واستغراب فكري ثقافي واجتماعي ونهب اقتصادي، ثم لما نهض المسلمون وبدأوا مسيرة العودة إلى الجذور، عاد خصومهم للحرب العدوانية بأوعى الأسباب والحجج خاصة بعد اختفاء التحدي الذي كان يمثله الاتحاد السوفياتي في مواجهة أمريكا زعيمة النظام الرأسمالي، وقد صارت هذه القوة العسكرية هي سبيل الحضارة الغربية الأوحد في إسكات صوت المسلمين إن طلبوا رقيا أو سعوا إلى الالتزام بشريعتهم أو أرادوا إصلاح حالهم أو تحرير قرارهم، أو تصحيح انتمائهم، ولذلك فإن المطلوب هو العمل على توجيه هذا الصراع من صراع العسكر وتحويله إلى صراع الحوار، فإن استطعنا ذلك نكون قد حولنا صراع الحضارات من التقاتل إلى التحاور (د. أحمد علي الإمام: المستقبل للإسلام، كتاب الأمة، العدد 46، ربيع الأول 1416 هـ، السنة 15، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، ص 48 ـ 49).

(3) د. محمد الغمقي: الكفاءات المهاجرة طلائع لحضارة الإسلام، ضمن كتاب الأمة، العدد 89 ، عدد خاص ب"البعد الحضاري لهجرة الكفاءات"، ص 84 وما بعدها.

1. محاورة المثقفين

يقصد بالنخبة المثقفة هنا المفكرون والجامعيون والباحثون المستقلون أو العاملون في مراكز الدراسات والبحوث، التي يمكن اعتبارها محاضن أو مخابر لصنع الأفكار وإعداد التقارير التي يعتمد عليها أصحاب القرار في اتخاذ قراراتهم، ومن البديهي القول بأن القائمين على هذه المراكز ينظمون ندوات ومحاضرات، بما في ذلك الندوات التي تتناول القضايا المتعلقة بالإسلام والمسلمين وبالجاليات المسلمة، ويدعون إليها مختصين وخبراء.

وهذه الندوات والمحاضرات يمكن اعتبارها إحدى المداخل المهمة للتعرف على الباحثين الغربيين وإقامة علاقات ثقافية معهم يكون من شأن تقويتها الإسهام في ترسيخ الوجود الإسلامي في الغرب عن طريق العمل على إبراز الصورة الحقيقية للإسلام، وبالتالي تصحيح ما يروج من مغالطات وافتراءات عنه، من حيث هو عقيدة ودين وثقافة وحضارة.

وطبعا لا يمكن أن نغفل في هذا الباب ما يمكن أن يقوم به المثقفون المسلمون أنفسهم من أبناء الجاليات على مستوى وضع قطار الأفكار والرؤى والتصورات على السكة الصحيحة، خصوصا مع وجود عدد من المعلمين والأساتذة من أصول إسلامية في المدارس والمعاهد الغربية، بسبب النقص في الكوادر التعليمية من أصول غربية، فمثل هذا الوجود ضمن الطاقم التعليمي الغربي مدخل مهم أيضا لتصحيح عدة تصورات ومفاهيم مغلوطة، خاصة إذا كان هذا الوجود مستوعبا للتصور الإسلامي، ولو عن طريق الإسهام في الدفع نحو إعادة النظر أو على الأقل مراجعة البرامج التعليمية التي تقدم الإسلام والمسلمين بنظرة دونية احتقارية وسلبية، وتتضمن تشويها وتحريفا للحقائق الإسلامية[1].

(1) فالمناهج الدراسية في المراحل التعليمية المختلفة تعتبر وسيلة خطيرة في إرساء وترسيخ المفاهيم لدى التلاميذ خاصة في المراحل المبكرة، وأحيانا تمثل الوسيلة الوحيدة لتشكيل ثقافة الأجيال عن العالم المحيط، وفي هذا الباب كشفت الدراسات والبحوث العلمية التي اهتمت بتحليل مضمون بعض المناهج الدراسية في بعض البلاد الغربية عن التعمد المقصود لتشويه صورة العرب والمسلمين لدى الأجيال الناشئة في بلادهم (د لطيفة خضر: المرجع السابق، ص 96).

2. محاورة الإعلاميين

إن الإعلام سلاح ذو حدين، وأداة مهمة للتأثير في الرأي العام، خاصة الإعلام الغربي بكل مكوناته من صوت وصورة وكلمة وكاريكاتير، إذ يعد من أبرز قنوات الاتصال التي تنتج وتفرخ سياسة التخويف من الإسلام في ديار الغرب، فبحكم ما يمتلكه من إمكانات وقدرة على الانتشار وقوة التأثير استطاع ويستطيع أن يجعل القضية الإسلامية ضمن اهتمامات الإنسان الغربي، وبالتالي استغلال هذا الأمر لترسيخ صورة إسلام رهيب مخيف وكاسح في مخيلة المشاهد أو القارئ، عن طريق تزييف الوقائع والحقائق بما يحقق الأهداف والمصالح[1].

ولذلك يقترح البعض في إطار محاورة الإعلاميين التركيز على بعض القضايا الحساسة لتكون مدخلا لهذا الحوار، مثل قضية الشرق الأوسط بأبعادها الاقتصادية والعسكرية والإيديولوجية، والموقف من السياسة الأمريكية بخلفياتها وتعقيداتها، ومسألة الصحوة الإسلامية في البلاد الإسلامية التي تعالج عادة من منظور سلبي (الإرهاب، الأصولية...)، ويتم ربطها بما يجري في المناطق الأوربية ذات الأغلبية المسلمة، أو الانحرافات السلوكية لدى شباب ينتمي إلى مسلمي أوربا.

على أن المتحاور حول هذه القضايا - وهذا أمر أساس يجب أن يكون مستوعبا للعوامل الفكرية التي أثرت وتؤثر في الإعلامي الغربي وهو يصنع الخبر أو يضع تحليله المتعلق بالإسلام، مثل الثقافة التي تلقاها في مساره الدراسي، والعقلية الغربية المتأثرة بالتصورات الفكرية والإيديولوجية المسيحية والعلمانية، ومخلفات ثقافة الاستشراق، والصورة السلبية الناتجة عن الانحرافات السلوكية والفكرية لبعض المسلمين.

3. مجادلة أهل الكتاب

من المعلوم أن أحداث سبتمبر لسنة 2001 وتداعياتها دفعت مسؤولي المؤسسات الدينية إلى إعادة التفكير في ضرورة التقارب والحوار من جديد بين المسلمين وأتباع الديانة المسيحية، وذلك من أجل رفع الكثير من سوء التفاهم بين الجانبين، ومنع الفكر المتشدد لديهما من هدم جسور التواصل.

ولعل بإمكان أفراد الجاليات المسلمة خصوصا المثقفين منهم أن يضطلعوا بدور هام في هذا الباب عن طريق مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وبالخطاب الذي

(1) د. حسن عزوزي: الإسلام وتهمة الإرهاب، مطبعة آنفو - برانت بفاس، الطبعة الثانية 2006، ص72.

يفهمونه، خصوصا وأنه لا يخفى ما للتبشير المسيحي من دور في تشويه صورة الإسلام والمسلمين في مختلف أنحاء العالم، حيث تنطلق معظم البعثات التبشيرية من أوربا والغرب عموما.

وكل نجاح يسجل في التقريب بين الأديان ونزع فتيلة الكراهية والعداء ستكون له انعكاساته الإيجابية المباشرة وغير المباشرة على العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي، بل إن فوائده تتعداه إلى أفراد الجاليات المسلمة نفسها، وذلك بالحد من ظاهرة تصيد نقاط الضعف فيهم وتوظيفها بطرق ملتوية لأغراض خاصة.

ثانياً : الدور الدعوي التبليغي

إن الدور المنوط بالجاليات المسلمة لا ينبغي الاقتصار فيه على تصحيح المفاهيم المغلوطة وحسب، وإنما ينبغي أن يتعدى الأمر فيه إلى إبراز الطرح الإسلامي كطرح بديل لمعالجة القضايا التي تهم المجتمعات بما فيها المجتمعات الغربية التي يقيم بها المسلمون، وذلك عن طريق عرض القيم الإسلامية ذات الطابع الخلقي والإنساني منها على وجه الخصوص، والتي تحدد المبادئ الكبرى الحاكمة للعلاقات بين بني الإنسان، سواء على مستوى الجماعات والفرق، أو على مستوى الأسر، أو على مستوى الأفراد.

وإذا كان هذا العرض يمكن أن يكون عرضا نظريا حواريا (أ)، فإن الجانب الأهم فيه هو العرض الفعلي العملي ممثلا في التحلي بالقيم الإسلامية في التعامل مع الآخرين (ب).

أ) **العرض الحواري**

وهذا العرض يمكن أن يقوم به المثقفون من أفراد الجاليات على وجه الخصوص، على أنه يمكن أن ينصب على بعض الجوانب الحساسة، مثل الجانب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

1. **على المستوى الاقتصادي :**

يمكن الانطلاق على هذا المستوى مما توصل إليه الناقدون الغربيون أنفسهم من نقد للأبعاد الاقتصادية لكل من الاشتراكية والليبرالية، والنتائج المترتبة عن تطبيق مثل هذه المبادئ في الواقع، من قبيل انتشار العقلية الاحتكارية الربحية الجشعة.

ولعل مرض جنون البقر صورة من الصور البشعة لهذه العقلية، فقد ثبت علميا أن السبب الرئيس لهذا المرض يعود إلى تقديم دقيق الحيوانات الميتة المطحون كطعام للبقر الذي يصاب فيما بعد بالجنون، ولعل هذا المثال كاف للتدليل على أن النجاح الاقتصادي لا يتوقف على حسن التخطيط والتسيير والإمكانات المادية والبشرية فحسب، وإنما هو مرهون أيضا بالمنظومة الخلقية التي ينبغي أن تبنى عليها العملية الاقتصادية.

وهنا يمكن للكفاءات الإسلامية في المجال الاقتصادي من أفراد الجاليات البرهنة على سمو التصور الاقتصادي في الإسلام، الذي يقوم على مراعاة المنظومة الخلقية، ويأمر بالقسط والعدل دون أن يكون ذلك على حساب الملكية الفردية، ويؤكد على قيمة العمل، وعلى روح التكافل الاجتماعي من خلال اعتبار المال أمانة في أيدينا، للفقير والمحتاج حق فيها عن طريق الزكاة والصدقات.

2. **على المستوى الاجتماعي**

ليس خافيا ما وصلت إليه العلاقات الأسرية في الغرب من انسداد وتأزم بسبب غياب المرجعية الدينية أو فتورها، وطغيان المادية والفردية، وأزمة القيم، إلى حد أن الغربي لم يعد يشعر بالسعادة رغم ما يمتلكه من أموال وثروات ووسائل ترفيهية وتقدم عمراني، مع ما صاحب ذلك من ارتفاع في نسبة الجريمة ولجوء عدد من الشباب في ريعان العمر إما إلى الإدمان على المخدرات والخمر هروبا من الواقع، أو إلى الانتحار لوضع حد لحياتهم التي لم يعد لها أي هدف، وهو ما يعد خسارة كبرى لطاقات وموارد بشرية تمثل عدة الغد للمجتمعات الغربية.

ومن هذا المنطلق يمكن للجاليات مثلا الدخول من الباب نفسه الذي ينفذ منه الغرب عادة للتهجم على الإسلام، وهو موضوع المرأة، وذلك عبر شرح وتحليل وتفكيك وضع المرأة الغربية الذي لا تحسد عليه، بهدف إجلاء حقيقة الفخ الذي نصب لها بتخطيط محكم حتى تتحول إلى بضاعة للإغراء، وبالتالي الدعوة إلى إعادة الاعتبار للمرأة الإنسان التي كرمها الله سبحانه في جميع أوضاعها، سواء كانت بنتا أو زوجة أو أما، وإذا ما نجحت الجاليات المسلمة في توجيه الرأي العام الغربي نحو ذلك تكون قد قدمت خدمة حضارية عظيمة للبشرية وللفكرة الإسلامية.

وارتباطا بموضوع المرأة هناك قضية التفكك الأسري الذي تعاني منه المجتمعات الغربية، ومسألة تقلص قيمة الحياة الزوجية نتيجة الغلو في مفهوم الحرية الشخصية، ومن دون شك فإن الطرح الإسلامي الذي يؤمن بقدسية الحياة الزوجية

المبنية على عنصري المودة والرحمة، وما يعني ذلك من غرس قيم الحب والتواصل والاحترام في نفوس الأجيال الصاعدة، يمكنه أن يعالج أزمة القيم فيما يتعلق بالعلاقة بين الرجل والمرأة، ويقدم الحلول الناجعة لقضايا المجتمع المرتبطة أساسا بالمفهوم الخاطئ للحرية، الذي كان من نتيجته انتشار ظاهرة الإباحية والفوضى الجنسية، من قبيل الشذوذ والزواج بين الشواذ، الذين أصبحوا يطالبون من منطلق الحرية بحقوقهم والاعتراف بهم مثل المتزوجين العاديين.

وحيث إن هناك تيارا محافظا سائدا لدى الرأي العام الغربي مستاء من ظاهرة الشذوذ، فإنه يمكن للمسلمين المقيمين في الغرب التحالف معه بهدف غرس القيم التي تتفق والفطرة البشرية، والإقناع بأن ظاهرة الشذوذ مرتبطة بالانحراف في فهم مبدإ الحرية وحدودها.

3. **على المستوى السياسي**

يتفق كثير من المحللين على أن الديمقراطية بالشكل الذي هي عليه في الغرب ليست النظام السياسي المثالي لكل البشر، فقد تكون صالحة للمجتمعات الغربية ولكنها ليست بالضرورة صالحة لمجتمعات أخرى، لأنها ثمرة تفاعلات وصراعات وفلسفات انبثقت من رحم المجتمع الغربي بخصوصياته، وقد أثبت الواقع وجود العديد من الثغرات والسلبيات في تطبيق هذا النظام حتى في البيئة التي نشأ فيها، خاصة في المسائل المتعلقة بالتمثيل النسبي واحترام حقوق الإنسان والأقليات والأخلاقية السياسية والنظام الحزبي وما إلى ذلك.

وبناء عليه يمكن للجاليات المسلمة المؤهلة تقديم الطرح الإسلامي بتصوراته التي يمكن أن تخرج مثلا الديمقراطية على الطريقة الغربية من السلبيات التي تتسبب في إعاقة النشاط السياسي، وزهد نسبة من الرأي العام الغربي في الحياة السياسية، من تجليات ذلكم الطرح أن علاقة الحاكم بالرعية يحكمها في نظامنا السياسي الإسلامي مبدأ الشورى، ولا تخضع لأية علاقة بالمعنى الثيوقراطي، على أن الشورى ليست شعارا يرفع وإنما هي مبدأ للتطبيق على أرض الواقع، بما يعنيه من حق الاختلاف في الرأي والمعارضة وواجب الالتزام برأي الجماعة أو الأغلبية، دون أن تنتهك حقوق الأقلية[1].

---

(1) د. محمد الغمقي: المرجع السابق، ص 102 وما بعدها.

ب) العرض العملي.

هذا العرض يمكن أن يقوم به أفراد الجاليات جميعا، على اعتبار أنه يرتبط بالجانب الإنساني، الذي نجد من أهم تجلياته التسامح الحضاري الذي يشكل القاعدة العامة واللبنة الأساس التي يبني عليها المسلمون علاقاتهم بغير المسلمين، وهو تسامح ينطلق من الإيمان بوحدة الأصل الإنساني، وبالقيم والمثل العليا التي يدين بها البشر في كل عصر من عصور التاريخ، وهي قيم الخير والعدل والفضيلة والعفة والصدق والأمانة والاستقامة والمروءة[1].

وطبعا لا يمكن لهذه القيم أن تؤثر في المحيط الاجتماعي الذي يعيش المسلمون فيه إلا إذا تم الإيمان والوعي بها وتشربها وتمثلها والعمل بمقتضاها، وإلا أصبحوا عبئا ثقيلا على المجتمع الإسلامي يسيئون إليه وإلى الإسلام من حيث لا يدرون[2].

إذا كان هذا هو الدور الذي يمكن للجاليات المسلمة بالغرب القيام به في كسر جدار الخوف من "الغول الإسلامي"، فإن السؤال المطروح هو: كيف يمكن أن نجعل أفراد الجاليات المسلمة تضطلع بهذا الدور بشكل مثمر ومحقق للنتائج المرجوة ؟.

المبحث الثاني : سبل تأهيل الجالية المسلمة للتخفيف من ظاهرة الإسلاموفوبيا

الجاليات المسلمة بالغرب هي مجموعة من الأفراد أو جماعات أو أسر، مؤهلاتهم الفكرية مختلفة، بالنظر إلى أسباب وجودهم بديار الغرب، فهم ليسوا على وعي كاف بالدور الرسالي المأمول منهم، أو ليسوا على وعي به أصلا، وإذا كان الأمر كذلك فكيف السبيل إلى تأهيلهم للتخفيف من ظاهرة الإسلاموفوبيا في ظل هذه المعطيات ؟.

لا شك أن الأمر يتطلب بذل جهود مضنية حتى تتحقق الآمال المرجوة، ولعل السبيل إلى ذلك يكمن في اتباع عدد من الخطوات ورصد جملة من الإجراءات تتكامل فيما بينها، نذكر أهمها فيما يلي :

---

(1) د. عبد العزيز بن عثمان التويجري: المرجع السابق، ص141.

(2) نفس المرجع، ص142 .

أولاً : التوعية بالهدف الرسالي :

يقصد بهذا الإجراء بث روح الوعي الاجتماعي والثقافي والسياسي لدى أفراد الجاليات المسلمة المقيمة في الغرب التي تتحول يوما بعد يوم إلى جزء من النسيج الاجتماعي للمجتمعات الغربية[1]، سواء عن طريق الزواج المختلط، أو عن طريق اكتساب الجنسية أو غير ذلك من وسائل الاندماج.

وبعبارة، فإن المطلوب هو القيام في أوساط أفراد الجاليات بحركة توعية بالبعد الرسالي في هجرتهم، والعمل من ثم على ترشيدهم وتأطيرهم في هذا الباب تأطيرا سليما، ليكون ذلك أساسا للانطلاق في إحياء البعد المذكور وتفعيله[2]، لاسيما وأنهم يتوفرون على مؤهلات ذاتية وموضوعية لا تتوفر لغيرهم من المسلمين في العالم الإسلامي، فهم قد اكتسبوا كيانا قانونيا يوفر لهم إمكانات الاندماج في المجتمعات التي يعيشون في وسطها على النحو الذي لا يفقدهم خصوصيتهم، ولا يؤثر في تركيبتهم الاجتماعية التي تستند إلى الهوية الثقافية الحضارية التي يتميزون بها، وهذا الأمر يجعلهم في موقع القدرة على الحوار والتعايش مع جميع الفئات داخل مجتمعاتهم، ويمكنهم في الوقت نفسه من التعامل المتكافئ مع الظروف المحيطة بهم[3].

فضلا عما لهم من اطلاع واسع على الأوضاع الواقعية للعالم الغربي في مختلف أبعاده الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لأنهم يمارسون العيش في تلك الأوضاع، ويقفون على مكوناتها الظاهرة والخفية، وهو ما يمكنهم من فهم أعمق للواقع الغربي، وهذا أمر مهم ومطلوب في التعامل معه في إطار حوار فعال ومثمر.

وإلى جانب هذه المؤهلات هناك مؤهلات موضوعية تتمثل في البيئة الغربية التي هي مسرح وجودهم وأنشطتهم، فالمجتمع الغربي كما هو معلوم يعاني معاناة مضنية من جراء المذاهب الفلسفية المادية التي صاغت حياته فأفضت به إلى فقر روحي ظهر على مستوى المشاعر الفردية وعلى مستوى العلاقات الأسرية والاجتماعية وغيرها، وأفضى إلى جملة من المشاكل النفسية والاجتماعية من قبيل الاكتئاب والإجرام وتناول المخدرات والتفكك الأسري.

---

(1) نفس المرجع، ص91 .

(2) د. عبد المجيد النجار: البعد الرسالي في هجرة العقول المسلمة إلى الغرب، ضمن كتاب الأمة، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، 1423 هـ، السنة 22، العدد 89، ص 66-67.

(3) د. عبد العزيز بن عثمان التويجري: المرجع السابق، ص140 .

وعليه لو عرض الإسلام في هذا المناخ المتعطش للروحانية عرضا رشيدا لكان رسالة تتقبلها نفوس أهل الغرب المرهقة بالمادة قبولا حسنا لما تجد فيه من توازن تشبع فيه مطالب الروح والجسد، إذ هي مؤهلة بحكم الوضع الذي آلت إليه لتلقي تلك الرسالة[1].

ومن المؤهلات الموضوعية أيضا ما يتوفرون عليه من المناخ الميسر للتواصل ومن الوسائل المساعدة عليه، فالحرية التي هي شرط أساس من شروط التبليغ قائمة في تلك البلدان بالقدر الكافي، خصوصا وأن القوانين المحلية تتيح الفرص المتعددة لإنشاء الجمعيات والهيئات والروابط التي تنظم علاقات أفراد الجالية فيما بينهم من جهة وفيما بينهم وبين جميع فئات المجتمع الغربي من جهة ثانية، وتكفل لهم الحق في ممارسة الشعائر الدينية والقيام بالأنشطة الثقافية التي تخدم الأهداف الإسلامية[2] إلى حد ما، رغم ما نسمعه اليوم بين الفينة والأخرى عما يوحي بغير ذلك.

ولعل هذه المؤهلات التي عرضنا لبعضها، بنوعيها الذاتية والموضوعية، والتي قلنا بضرورة استثمارها واستنهاضها في إطار القيام بالعمل التوعوي في صفوف الجاليات لممّا يسهل تفعيل الدور الرسالي المنوط بها[3]، الذي هو تصحيح صورة الإسلام بالغرب حتى لا يبقى مخيفا بالصورة التي هو عليها.

غير أنه نظرا إلى كون مهمة التوعية بهذا الشكل معقدة وتحتاج إلى نفس طويل، فإن الأمر يتطلب وضع استراتيجية محكمة تأخذ بعين الاعتبار التحولات الداخلية في تركيبة أبناء الجاليات من حيث تصوراتهم وعقلياتهم، ومن جهة أخرى فإن الذين تناط بهم هذه المهمة يتعين أن يكونوا ممن يحملون ثقافة تؤهلهم لرفع التحديات الكثيرة، لا أن يكونوا ممن يتبنون فكرا على طرفي نقيض من طبيعة الفكر الإسلامي الوسطي والواقعي المعتدل.

ذلك أن هناك من يتبنى داخل الصف الإسلامي خطابا وتصورات علمانية تعامل الدين الإسلامي بالنظرة نفسها للدين السائدة في الغرب[4]، وهذا من شأنه أن يشوش بل يضر بالإسلام وأهله، ويجهض عقودا من الجهود التي بذلها مسلمون مخلصون في البلاد الغربية من أجل توضيح خصائص الإسلام القائمة على الاعتدال والواقعية بما

(1) د. النجار: المرجع السابق، ص60–61.

(2) د. عبد العزيز بن عثمان التويجري : المرجع السابق، ص 144 .

(3) د. النجار: المرجع السابق،، ص 58 وما بعدها.

(4) د. محمد الغمقي : المرجع السابق، ص 91–92.

يتماشى والفطرة الإنسانية، بالإضافة إلى إجهاض جهود التواصل والحوار مع العديد من رجال الفكر والسياسة الغربيين، الذين يوجد من بينهم المنصفون في حكمهم على الإسلام وسلوك المسلمين من خلال معايشتهم للحضور الإسلامي في الغرب[1]. ومن جهة أخرى يجب أن يستبعد من ذلك من لا يعتقد أصلا إلا بالمواجهة العسكرية مع الغرب، فهناك من لا يزال ينظر إلى العالم باعتباره دارين، دار الإسلام ودار الكفر، وأن على المسلمين أن ينهضوا لقتال أهل الكفر في كل زمان ومكان.

ثانياً : الاحتضان المؤسسي :

إن العمل المطلوب من أفراد الجاليات المسلمة بالغرب هو عمل جماعي في كليته، ولذلك فهو يقتضي إنشاء مؤسسات من قبيل المراكز البحثية والمنظمات العلمية والجمعيات الدعوية والمؤسسات التعليمية وما شابهها من التشكيلات الجماعية ذات الطبيعة المؤسسية، خصوصا وأن ما كان يقام من الحوار الثقافي والحضاري بين المسلمين وبين أهل الغرب عبر بوادر فردية لم يكن يرقى إلى مستوى الدور الرسالي المأمول.

وهذه التشكيلات ذات الطبيعة الجماعية ينخرط فيها من الجاليات المسلمة من هو مؤهل للقيام بالدور الرسالي، كل حسب تخصصه واهتماماته، لتكون محضنا للحوار في العمل الرسالي بوجوهه المتعددة، وفيها تضبط الخطط والمشاريع في هذا الشأن، ومنها ينطلق الأفراد في الممارسة العملية للمهمة الرسالية.

ومن دون شك أن الطابع المؤسسي لهذه التشكيلات يجعلها تحظى بكثير من المصداقية في عيون أهل الغرب وفي نفوسهم وعقولهم، وتكتسب لديهم مكانة متميزة ينعكس أثرها ويظهر مفعولها على مستوى التعامل والخطاب، وهو ما لا يتحقق للأفراد بصفتهم هذه، وهذا من طبيعة ما بني عليه المجتمع الغربي من القواعد في التعامل[2].

ثالثاً : تفعيل الخطاب العملي :

إن أهل الغرب على وجه العموم بنيت ثقافتهم بناء عمليا واقعيا، نتيجة ما ترسخ فيهم من نزعة ذرائعية زرعتها فيهم الفلسفة النفعية ورعاها ونماها حب المتعة المادية الذي طبع حياتهم بصفة عامة، فبتلك النزعة نجدهم لا يتفاعلون عموما إلا مع

---

(1) د. محمد الغمقي: المرجع السابق، ص92-39.

(2) د. النجار: المرجع السابق، ص 68 وما بعدها.

الخطاب الذي يمس بصفة مباشرة حياتهم العملية، ويجعلهم ينتظرون من ورائه نفعا ناجزا يتمثل في حل لمشكلة من مشاكل حياتهم الفردية أو الاجتماعية أو في توفير سبب من أسباب الرفاه المادي أو في تأمين مسلك من مسالك الأمن النفسي أو الجماعي، وأما ما عدا ذلك مما طابعه نظري صوري بحت فإن التفاعل معه يكون محدودا في كمه من حيث عدد المتفاعلين، وفي كيفه من حيث درجة قبوله والانتفاع به[1].

وبناء عليه فإن تفعيل الدور الرسالي لأفراد الجاليات المسلمة بالغرب، سواء كان تصحيحيا أو دعويا، يتطلب جملة من المقومات نذكر منها:

1. أن يكون الخطاب الإسلامي سالكا مسلك الأنموذج العملي، بحيث تظهر القيم الإسلامية فردية كانت أو اجتماعية أو أسرية في الممارسة العملية للحياة على اختلاف وجوهها، وخاصة ما يتعلق منها بما فيه علاقة مباشرة بالمجتمع، إذ ذلك هو الأظهر للعيان والأقرب للملاحظة.

فهذا الضرب من الخطاب العملي المجسد للقيم الإسلامية الجماعية والفردية يعتبر حجة بالغة التأثير في نفوس أهل الغرب وعقولهم لما يرون فيها من حلول واقعية لبعض ما يعانونه من المشاكل النفسية والأسرية والاجتماعية، فتسري إليهم القيم الدينية من خلالها، ويكون ذلك تهيئة لقبول ما بعدها من الحقائق الإيمانية الأخرى.

2. وفضلا عن ذلك ينبغي أن لا يكون الخطاب استعدائيا يوغر الصدور، بل ينبغي أن يتشبع بروح التسامح والعفو، فيقدم الإسلام للغرب بوصفه خيارا حضاريا يمكن أن يسهم في إثراء القيم الإنسانية التي يؤمن بها الغرب نفسه، وبوصفه رسالة هداية ورحمة للناس.

إذن كانت هذه بعض سبل تفعيل الدور الرسالي المنشود للجاليات الإسلامية بالغرب، نعتقد أنه باحترامها وتفعيلها سيتم تقليص أسباب التوتر وسوء التفاهم بين العالمين الإسلامي والغربي، مما قد تتبدد معه الكثير من آثار ظاهرة الإسلاموفوبيا بكل مخلفاتها وانعكاساتها السلبية.

---

(1) نفس المرجع، ص 71–72.

خاتمة :

الذي نصل إليه في خاتمة هذه المداخلة هو أن ظاهرة الإسلاموفوبيا كأي ظاهرة لابد من دراستها وقراءة أبعادها ومستوياتها من أجل إعطاء تصور منطقي للحلول الكفيلة بعلاجها والقضاء عليها.

وفي هذا الإطار رأينا كيف أن هذه الجاليات قد تسهم في كسر جدار الخوف من الإسلام عن طريق صناعة الصورة البديلة، وذلك من زاويتين أساسيتين، تصحيح وإزالة المفاهيم الخاطئة التي زادت من صلابة الجدار من جهة، ثم تعويضها بعرض التعاليم والقيم الحقيقية التي تعكس الإسلام الحقيقي ومبادئه السمحة من جهة أخرى، فالتعريف بالإسلام واغتنام شغف كثير من المنصفين في التعرف على هذا الدين هو أحد المتطلبات الأساسية لتحدي الظاهرة التي بين أيدينا.

وطبعا لا يمكن للجاليات المسلمة أن تقوم بذلك ما لم يتم توعيتها ممن هو مؤهل لذلك، وأن يتم الاشتغال في أداء الدور الرسالي في إطار مؤسساتي له قوة قانونية معترف بها، مع اتخاذ الأسلوب العملي القائم على الإقناع بالحجة منهجا في التعاطي مع الظاهرة..، فالمطلوب تشجيع هذه الفئة من المسلمين ومساعدتها على الاندماج الإيجابي في المجتمعات التي يعيشون فيها ليكونوا جزءا فاعلا من النسيج الفكري والاجتماعي والسياسي لتلك المجتمعات، كيف لا وهم طليعة التغيير فيها، وعليهم يقع العبء الأكبر من المسؤولية كما أسلفنا، ففي نجاحهم نجاح لنا وفي تعزيز وجودهم عزة لنا.

ونقترح الأخذ في هذا الباب ببعض التوصيات، نذكر منها :

- ضرورة قيام الدول الإسلامية بإصلاح الحقل الديني، وعدم ترك الفرصة لكل من هب ودب ليفسر الدين كما يحلو له، لأن من شأن هذا التسيب أن يسهم في تقديم الطرح الإسلامي بشكل قد لا يشجع على العمل به، فينجم عن ذلك ظهور سلوك غير سليم لا يعكس حقيقة الإسلام، قد ينقله المسلمون إلى البلدان الغربية التي يقيمون فيها، فيؤثر ذلك على صورتهم وصورة الإسلام.
- إنشاء مراكز استقبال أفراد الجاليات المسلمة بمختلف الدول الإسلامية، بل وبمختلف دول المهجر التي يقيمون فيها، من أجل توعيتهم بخطورة الظاهرة، وكيفية التعامل معها، خصوصا على المستوى الإنساني، وذلك بحثهم على

تجسيد قيم الإسلام في تعاملهم فيما بينهم وفي تعاملهم مع غيرهم.

- ❖ رصد الكفاءات من أفراد الجاليات كل في مجال تخصصه، وتكليفهم بإبراز الطرح الإسلامي في جميع قضايا العصر كلما سنحت الفرصة بذلك.

آمل بحق أن تكون هذه المداخلة على اختصارها قد حققت شيئا مما نرجوه، أو على الأقل لامست شيئا من حقيقة ما ينبغي فعله من أجل التخفيف من ظاهرة الإسلاموفوبيا وعلى آثارها السلبية التي جعلت ديننا الحنيف في قفص الاتهام أو ضمن لائحة الأمراض المعدية التي ينبغي الحذر منها.

المراجع المحال عليها
بحسب ترتيبها في المداخلة

- د. محمد عمارة : **الإسلام في عيون غربية**، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الأولى 2005.

- د. محمد عمارة: **في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام**، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2003.

- د. حسن عزوزي : **دور الصحافة المكتوبة في تصحيح صورة الإسلام في الغرب**، ضمن أشغال اليوم الدراسي الذي نظمته مجموعة البحث في مجال تصحيح صورة الإسلام بكلية الشريعة بفاس يوم 9 ماي 2006 حول موضوع : "**صورة الإسلام في الغرب بين حملات التشويه وواجب التصحيح**".

- د. عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: **أجنحة المكر الثلاثة**، طبعة دار القلم، بيروت، لبنان 1977.

- د. أحمد عبد الرحيم السايح: **في الغزو الفكري، كتاب الأمة**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر دون تاريخ، العدد 38.

- د. محمد عابد الجابري : **مسألة الهوية : العروبة والإسلام والغرب**، مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت، طبعة 1995.

- عادل الجبوري : **الإسلام والغرب**، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت، الطبعة الأولى 2003.

- د. محمود حمدي زقزوق: **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، كتاب الأمة العدد** 5، طبعة **وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية** بقطر، الطبعة الثانية 1404 هـ.

- محمد فتح الله الزيادي: **ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس/ ليبيا، الطبعة الأولى 1983.

- د. طـلال عتريسـي : **صـورة الإسـلام : مسؤوليـة الغـرب والمسلمين**، ضـمـن كـتـاب : "**مستقبل الإسلام**"، دار الفكر، الطبعة الأولى 2004.

- د. الأمين بـامبـا : **صورة الإسلام في حملات التشويه الغربية**، ضمن أشغال اليوم الدراسي الذي نظمته مجموعة البحث في مجال تصحيح صورة الإسلام بكلية الشريعة بـفـاس يـوم 9 مـاي 2006 حـول مـوضـوع : "**صـورة الإسـلام في الـغـرب بين حـمـلات التشويه وواجب التصحيح**".

- د. مـاهر عبد المحسن حسن، **الغزو الفكري والتحدي الحضاري**، مقال منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 25–1992.

- د. لطيفة ابراهيم خضر : **الإسلام في الفكر الغربي**، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى 2002.

- د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، **الحوار من أجل التعايش**، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الأولى 1998.

- د. أحمد علي الإمام : **المستقبل للإسلام، كتاب الأمة**، العدد 46, ربيع الأول 1416 هـ، السنة 15، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر.

- د. محمد الغمقي : **الكفاءات المهاجرة طلائع لحضارة الإسلام**، ضمن كتاب الأمة، العدد 89، عدد خاص ب"**البعد الحضاري لهجرة الكفاءات**".

- د. حسن عزوزي : **الإسلام وتهمة الإرهاب**، مطبعة آنفو ـ برانت بفاس، الطبعة الثانية 2006.

- د. عبد المجيد النجار : **البعد الرسالي في هجرة العقول المسلمة إلى الغرب**، ضمن كتاب الأمة، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، السنة 22، العدد89، 1423 هـ.

صورة الإسلام في المتخيل الغربي

ـ قراءة تحليلية نقدية ـ

الدكتور الحسن حمدوشي (*)

في الفترة الأخيرة عموما، وبعد الحادي عشر من شتنبر 2001م. بصفة خاصة، هناك العديد من الدراسات والكتابات لمفكرين غربيين تتحدث عن علاقة الإسلام بالغرب، وقد أخذت تلك الكتابات عدة عناوين ومسميات متشابهة أو متقاربة من أمثال: "الإسلام والغرب" "الصراع بين الحضارات" " المسلمون خلف الحصار الغربي" "انتهزوا الفرصة" "ما بعد السلام" " ما بعد الحرب الباردة" " نهاية التاريخ"، وغيرها مما يسمح المجال بعرضها.

وقد تزعم تلك الحملة التخويفية من الإسلام والمسلمين، ثلة من المفكرين من أمثال: المفكر الأمريكي" برنارد لويس" و"صموئيل هنتجتون" وغيرهم كثير.

وقد أظهرت تلك الدراسات والأبحاث، أن القصد منها هو إعطاء صورة غير سليمة عن الإسلام والمسلمين، وتشويه قيمه عند الآخرين من غير أبنائه، ودفع غير المسلمين على اختلاف مللهم ونحلهم، إلى خلق صراع عنيف أحيانا مع العالم الإسلامي وأهله.

ولابد من الإشارة إلى أن المبادرات الإيجابية التي تحث على إنعاش علاقة الغرب مع الإسلام وتصحيح صورته، يلزم أن نفرق فيها بين نوعين من الغرب؛ أولهما ما نصطلح عليه الغرب الإيديولوجي الذي يوحي بمفاهيم من مثل الهيمنة والاستعلاء والقوة والغلبة وغيرها، وعلى هذا الصعيد يمكن الحديث عن العلاقة الأكثر دموية، وهي محكومة بالمناخ الدولي العام، وهذا المسلك في العلاقة لاينفي، بل يؤكد بأن هناك غربا

(*) رئيس مختبر قضايا الفكر والحضارة (تأصيل وتجديد وتكامل) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز ـ فاس.

آخر يمكن نعته بالغرب الحضاري والإنساني؛ يقدم للإنسان شتى القيم والمبادئ الإيجابية والإنجازات المفيدة ونحو ذلك.

ومما لاشك في أن الدراسة العلمية التي ينبغي استدعاؤها في قراءة صورة الإسلام والمسلمين في الوعي الغربي، يقتضي منا ابتداء التنبيه إلى القضايا التالية :

القضية الأولى : إن صورة الإسلام في الخطاب الغربي ليست صورة واحدة،على اعتبار أن الغرب ليس كتلة واحدة، ومن ثم وجب التأكيد على أننا أمام غرب متنوع في مواقفه وخطاباته، تجاه الإسلام والمسلمين، وتراثه وحضاراته، ذلك أن الموقف الذي يعترف بتعدد التيارات وتنوع ألوان الخطاب عن الإسلام والمسلمين في الفكر الغربي، ليس مجرد " ضرورة مصلحية فرضتها التحولات الدولية والتطورات العلائقية بين الشرق والغرب" أو" القدر المحتوم في ظل ما يسمى بالقرية الواحدة ..." أو تقتضي هذه المصلحة البحث عن الأصدقاء، وتجنب ما أمكن تأليب الأعداء وتكثيرهم، وهذا في حد ذاته ضرورة مشروعة؛ وإنما هو موقف نابع من الوحي الذي اعتبر عدم الظلم والحكم بالعدل من القيم الأساسية التي ينبغي للمسلم إحياؤها والعمل على تنزيلها على الواقع. مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾[1].

وهذا من شأنه أن يفند العبارة التي يرددها البعض "إن الكفر ملة واحدة" مع العلم أن " الإسلام لايضع كل عالم الكفر في سلة واحدة، ولا في مرتبة واحدة، وإنما ميز الإسلام بين المشركين والكتابيين، بل إن الإسلام لم يضع المشركين جميعا في سلة واحدة.وإنما ميز بين المحاربين منهم وبين المعاهدين الذين لم ينقضوا المسلمين شيئا من العهود التي تعاهدوا معهم عليها، فدعا إلى قتال المقاتلين من المشركين ودعا إلى الوفاء بعهود المعاهدين من المشركين... والأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتعددة[2].

فالغرب ليس كتلة صماء، ففي الوقت الذي أثيرت فيه قضية الرسوم المسيئة ، وما قام حولها من ردود أفعال، فليس هذا هو الرأي الحقيقي السائد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الغرب، بحيث وجدنا الكثير من المفكرين الغربيين وقفوا إجلالاً وتعظيما للإسلام وأنصفوه في العديد من الكتابات والدراسات، مثل : توماس أرنو لد، وبرنارد شو، وزيجريد هونكه وغيرهم ممن كانت لهم مواقف مخالفة عن مشروع الهيمنة الغربي، الذي

(1) سورة المائدة، الآية : 8.

(2) المسلم المعاصر، السنة السابعة والعشرون ـ ع 801، ص19. د محمد عمارة. هناك أيضا التميز بين شرك الجاحد للحق الذي يعرفه وبين شرك الجاهل، والأمثلة في هذا الباب كثيرة تدحض مقولة الكفر ملة واحدة. ينظر المرجع نفسه.

يتحيز لكل ماهو غربي. ومن ثم ضرورة التفريق بين الغرب السياسي(الإيديولوجي) والغرب الحضاري[1].

وعليه وبالرغم من أن تلك المواقف والمبادرات ذات أهمية قصوى، فيما يخص صورة الإسلام في الغرب، إلا أنها غير كافية، لتصحيح التصور الغربي المغلوط والمشوه حول الدين والفكر الإسلاميين، ليس فقط لدى المواطنين العاديين، وإنما كذلك لدى النخب الفكرية والإعلامية والأكاديمية والسياسية، التي تستمد مواقفها وتصوراتها تارة من الفكر اليميني المغالي في العدائية والعدوانية، بحيث يرفض كل وجود له علاقة بالإسلام وتراثه وحضارته في الغرب المسيحي، وتارة أخرى من الفكر الصهيوني المسكون بعقدة العداء للعرب والمسلمين.

على هذا الأساس يبدو أن دائرة خطاب الغرب الحضاري والإنساني في علاقته مع الإسلام جد ضيقة، ولا نلفى لها وجودا إلا في بعض الندوات واللقاءات العلمية المتخصصة، أو من خلال مبادرات شخصية يقوم بها بعض المثقفين الغربيين، مما يعني أنها تظل قصرا على بعض نخب المثقفين، لا يكتب لها التسلل إلى الأوساط الشعبية، لاسيما عبر وسائل الإعلام الذي تتحكم فيها الجهات المعادية للإسلام، وهي التي تمثل خطاب الغرب الإيديولوجي أو السياسي.

القضية الثانية : من القضايا الأخرى التي ينبغي الإشارة إليها وهي أن الصورة التي رسمها الفكر الغربي ونقشها في عقول أبنائه عن الإسلام والمسلمين ليست مجرد مقولات نظرية ولا تخيلات عن صور ذهنية مجردة، وإنما هو بناء فكري ومعرفي مركب، له جذوره التاريخية، نما عبر تاريخ الاحتكاك العنيف بين الشرق والغرب، وذلك منذ سقوط غرناطة عام 1492م واكتشاف أمريكا في نفس العام استطاع الغرب الأوربي أن يتجاوز حدوده، ويمتد نحو مناطق نفوذ خارج كيانه الحضاري، مخترقا مجتمعات أخرى، لم تزل تعيش حياتها وتواصل تجاربها الزمنية في إطار تأريخها وتراثها

(1) فقد تعرض الأستاذ زكي الميلاد إلى آراء ومبادرات ومواقف مهمة تحفز على التعامل الحضاري الإيجابي مع الإسلام، وأهمها مواقف كل من السفير الألماني بالمغرب فيلفرد مراد هوفمان الذي يفضح الحملات العدائية الغربية ضد الإسلام، والمستشرقة الألمانية آني ماري شميل التي ترفض مساواة الإسلام بالتطرف والإرهاب، والأمير تشارلز الذي دعا إلى المصالحة بين الإسلام والغرب، والرئيس الألماني رومان هرتزوغ الذي يرى ضرورة الحوار مع الإسلام لتجاوز الخوف وعدم الثقة، والمفكر السويدي أنغمار كارلسون الذي يطرح في كتابه (الإسلام وأوروبا تعايش أم مجابهة)، رؤية إيجابية يدعو من خلالها إلى تفهم الإسلام والحوار مع المسلمين، وغيرها من المواقف والمبادرات. يراجع : كتاب : الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل، مرجع سابق.

الخاص، الذي كان يتقاطع بشكل واضح مع النسق الحضاري لمسار التأريخ الأوروبي. فالقصد من هذا هو إعادة صياغة بنية تلك المجتمعات، بعد تفتيت بنيتها الأولى في ضوء الوعي التسلطي الذي ظل أسيرا له منذ قرون عديدة [1]. وهذا القصد هو ما يكشف عنه علانية كبار المكتشفين "لفنجستون"عام 1850م عن الشعوب المستعمرة وعن مهمتهم هنا يقول :" نأتي عليها لكوننا أعضاء في عرق متفوق، وخدما لحكومة ترغب في تنشئة الأطراف الأكثر انحطاطا في العائلة الإنسانية. نحن أصحاب دين مقدس ومسالم، ونستطيع بفضل سلوكنا المحدد ومساعينا الحكيمة الصبورة أن نصبح رواد السلام لجنس لايزال هائجا ومسحوقا"[2].

وإذا حاولنا التعرف على موقف الإنسان الأوروبي من تراث وحضارة الإسلام والمسلمين قبل عدة قرون، إبان سقوط الأندلس وتراجع المسلمين فيها أمام مؤتمرات وغارات التنصير، فسنجد الموقف الغربي تجاه الإسلام وأهله يناظر موقفه من بقية الحضارات،إذ يتكرر استنساخ رؤيته في نفي الآخر في كل حالة مواجهة بينه وبين أية حضارة أخرى... وتظل الحروب الصليبية وما تركته من صور مأساوية فظيعة أوضح تعبير عما يملأ قلب الإنسان الأوروبي من حقد وكراهية للآخر [3]، والتي كانت تجسد ـ الحروب الصليبية[4] ـ بحق مظهرا للصراع الحضاري بين الإسلام والغرب المسيحي، تواصل حوالي قرنين من الزمان، وامتد على رقعة جغرافية شاسعة.

وهذا الخطاب الغربي عن الإسلام وحضارته، تتوجه به الدوائر الاستعمارية الغربية إلى العقل الشرقي، لتغريب عقول شريحة من نخب مفكرينا ومثقفينا، الذين يتبنون هذه الصورة المخيفة الغربية عن الإسلام والمسلمين وتراثهم وحضاراتهم، فيصبحون بيننا عملاء حضاريين للغرب، يبشرون بالتبعية للمركز الغربي على النحو الذي تحدث عنه جمال الدين الأفغاني عندما قال : "إن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها. ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين

---

(1) نحن والغرب جدل الصراع والتعايش، ص127، عبد الجبار الرفاعي ـ دار الهادي 1-1423/2002م.

(2) بعض مقدمات الاستتباع: المرسلون والمبشرون وشعوب ما وراء البحار. د غريغور مرشو، رسالة الجهاد س7ع. 70، ص 89، أكتوبر 1988م.

(3) يراجع في هذا الصدد، وثائق الحروب الصليبية محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1406/3هـ/ 1986م. وماهية الحروب الصليبية، قاسم عبده محمد، سلسلة عالم المعرفة 1990م. وكتاب هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس. ماجد عرسان الكيلاني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وغيرها كثير.

(4) يمكن القول بأن الحروب الصليبية 1095-1291م، مثّلت المقدمات الأولية لظاهرة الإسلاموفوبيا.

أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم"[1].

وقد عبر طه حسين عن هذا التبني للمشروع الغربي صراحة، قائلا : " لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع، التزمنا هذا كله أمام أوروبا، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال أمام العالم المتحضر بأن نسير سيرة الأوروبيين... إلخ"[2].

وقد تم تبني الكثير من المثقفين للصورة الغربية عن الإسلام وتراثه، وتعالت أصواتهم في المجتمعات الغربية بعد أن مكن لهم في وسائل التعليم والإعلام وقد نتج عن هذا الاقتناع بأنه لا سبيل إلى اللحاق بركب الحضارة المعاصرة، والرغبة في اجتياز التخلف، إلا باتخاذ موقف الإدانة للتراث الإسلامي، ومن ثم مواجهته ومقاومته،لأن الأزمة رئيت في نظر هؤلاء في شكل فوات حضاري. ومن ثم الانسلاخ من كل أشكال الموروث. والهرولة نحو محاكاة الإنسان الغربي الأوروبي، في كل شيء، في لباسه، وطعامه وشرابه، وعلاقاته الإباحية، وطريقته في التفكير، وفلسفته في الحياة، القائمة على النظر المادي، "وكان هذا النزوع إلى الأوربية - إن صح التعبير - وتجاوز مواريثنا الفكرية والحضارية، أحد ردود الفعل التي سقط ضحيته أفراد ومؤسسات، وانتهت إليه دول العالم الإسلامي، وفي مقدمتها تركيا الكمالية مركز دولة الخلافة" [3].

إننا هنا أمام خطة محكمة، وتصنيع متقن لهذه الفئة من المفكرين الخلاسيين..، وهو ما كشف عنه "جون بول سارتر" في معرض تقديمه لكتاب فرانس فانون "معذبو الأرض" حين قال : " كنا نحضر أولاد القبائل وأولاد الأشراف والأثرياء والسادة من إفريقيا وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيام في لندن والنرويج وبلجيكا وباريس... فتتغير ملابسهم ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة ويتعلمون منا طريقة جديدة في الرواح والغدو، ويتعلمون كذلك لغتنا، وأساليب رقصنا وركوب عرباتنا، وكنا ندبر لبعضهم أحيانا زيجات أوروبية، ثم نلقنهم أسلوب الحياة الغربية؛ كنا نضع في أعماق قلوبهم الرغبة في أوربا ثم نرسلهم إلى بلادهم وأي بلاد؟ بلاد كانت أبوابها مغلقة دائما في وجوهنا، ولم نكن نجد إليها منفذا، كنا بالنسبة إليها رجسا ونجسا. ولكن

---

(1) الأعمال الكاملة، ص 196-197، تحقيق ودراسة محمد عمارة، ط، القاهرة، 1968م.

(2) مستقبل الثقافة في مصر، 36/1 -37 ط القاهرة، 1938م.

(3) عبيد حسنة، الشاكلة الثقافية ص60-61 .

منذ أن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم كنا نصيح من برلين" الإخاء الإنساني" فيرتد رجع صدانا من أقاصي إفريقيا أو الشرق الأوسط أو شمال إفريقيا...كنا نقول: ليحل المذهب الإنساني أو دين الإنسانية محل الأديان المختلفة وكانوا يرددون أصواتنا بأفواههم، وحين نصمت يصمتون، وقد كنا واثقين من أن هؤلاء المفكرين لايملكون كلمة واحدة يقولونها غير ما وضعناه نحن في أفواههم"[1].

هكذا إذن تتم صناعة الأفكار والقيم والقوانين التي تتحكم في صناعة القرار في بلاد العالم المتخلف، فقد أصبحت هذه الفئة عبارة عن أبواق تردد في بلاد لا مثيل لها كل ماتنتجه الثقافة المهيمنة التي تريد أن تضع نهاية للتاريخ على حد تعبير "فرانسيس فوكوياما"ولعل من أعجب ما قرأته عن أحد هؤلاء الخلاسيين، قوله : " إنا عزمنا أن نأخذ كل شيء عن الأوروبيين،حتى النجاسات التي في أمعائهم". فأي وقاحة هاته التي تريد أن تلبس ثقافة الاستلاب لبوس الفكر وطقوس العلم وهو منها براء؟؟. فنحن إذن ـ أمام خطاب غربي عن الإسلام، له آثار مدمرة في أرض الواقع، ولسنا أمام مجرد أفكار نظرية، وصور ذهنية سلبية عن الإسلام والمسلمين.

القضية الثالثة : النزعة المركزية الغربية، هذه المركزية التي لا تعترف بالآخر غير الغربي الديني منه والثقافي والحضاري، بل ولا تعترف بالغربي الأبيض إن كان مسلما،كما هو حالها مع الأوروبيين المسلمين في ألبانيا والبوسنة.

إن هذه النزعة القائمة على نفي الآخر، تلعب دورا محوريا في تراكم ثقافة هذا الخطاب الغربي عن الآخر الإسلامي، فعدم الاعتراف بالآخر، فيه التبرير لإلغاء هذا الآخر، وحتى لو كان هناك اعتراف بالآخر، باعتباره أمرا واقعا، فإن عدم الاعتراف بشرعيته وحقه في الوجود المستقل والمتميز يزكي دائما وأبدا السعي ـ إلى إلغائه وطي صفحته من الوجود.

وفي الموقف الغربي من الآخر الإسلامي تنهض هذه النزعة المركزية بالدور المحوري في اختراع الصور الغريبة عن الإسلام، وفي إذكاء روح العداء الغربي للحضارة الإسلامية، وفي التبرير لحروب الغرب الفكرية وغيرها ضد الإسلام والمسلمين وحضارتهم وتراثهم.

---

(1) مجلة الأمة القطرية، ع50، ص1 كلمة المحرر، السنة الخامسة، صفر 1984/1405م.

ومما يؤكد أيضا النزعة الاستعلائية للغرب، ليس مع الإسلام فحسب ، وإنما كذلك مع غيره من الشعوب والثقافات، نورد من الشواهد والتفسيرات من الفكر الغربي نفسه، حيث يتساءل الناقد الأدبي(تزفيتان تودوروف)، وهو يقصد الغرب:" لماذا يقود فهمنا للآخر إلى الاستيلاء عليه، والاستيلاء إلى التدمير، التدمير الذي لايصبح ممكنا إلا بفضل ذلك الفهم على وجه التحديد"[1]. أما تشومسكي ف "هو الآخر لايمل الحفر في تاريخ الثقافة الغربية المعاصرة، على نهج التاريخ، لذلك فهو يسوق لنا آلاف الوثائق التي تؤكد على أن الغزو مازال مستمرا"[2]. حيث إن الأوروبيين كما في كتاب تشومسكي" الغزو مستمر""كانوا يحاربون بهدف القتل، وكان لديهم من الوسائل ما مكنهم من إرضاء شهوة الدم عندهم"[3]. مما سلف يظهر بجلاء الطريقة التي تؤسس لحكم(العرق السيد في العالم) خطها أوائل الفاتحين الناهبين، وما زال هذا المسلك نموذجا يحتذي به ساسة وأسياد النظام العالم الجديد[4]. في حين ذهب كافين رالي في كتابه (الغرب والعالم) إلى " أن العنف يمثل بنية أساسية في الثقافة الغربية، وأنه ومن بين الحضارات لاتوجد حضارة تمادت في طريق العنصرية والعنف مثل الحضارة الغربية"[5].

ويكفي أن نشير في هذا الصدد ـ أعني النفي الغربي للإسلام ـ إلى مقتطفات من كلام المستشرق الفرنسي"جاك بيرك" 1910-1995، حيث يقول: (إن الإسلام الذي هو آخر الديانات السماوية الثلاث، والذي يدين به أكثر من مليار نسمة في العالم، والذي هو قريب من الغربي جغرافيا، وتاريخيا وحتى من ناحية القيم والمفاهيم، قد ظل، ويظل حتى هذه الساعة، بالنسبة للغرب: ابن العم المجهول، والأخ المرفوض، والمنكور الأبدي، والمبعد الأبدي، والمتهم الأبدي، والمشتبه فيه الأبدي)[6].

نحن هنا أمام موقف ثابت ودائم ، فجاك بيرك وهو الخبير في الثقافة الغربية وفي الإسلام معا، قدم الصورة للإسلام في الثقافة والحضارة الغربية، والممارسات الغربية،

---

(1) الإسلام والغرب : الحاضر والمستقبل، ص13، دار الفكر، دمشق، سوريا.

(2) المرجع نفسه، ص 14.

(3) المرجع نفسه، ص 15.

(4) المرجع نفسه، ص 15.

(5) المرجع نفسه، ص 16.

(6) من حديث جاك بيرك في 1995/6/27 م،" العرب والإسلام" في نظر المستشرق الفرنسي جاك بيرك ـ حسونة صحيفة الشرق الأوسط، لندن200/11/1م.

قبل قارعة 11 شتنبر 2001م بسبع سنوات وكأنه كان يصف طوفان ثقافة الكراهية التي انهالت على الإسلام والمسلمين عقب تلك الأحداث. فروح العداء للآخر، وعدم الاعتراف بوجوده متأصلة في الفكر الغربي، ولا تقتصر على المسلمين فقط، بل إن عملية الإبادة الغربية لسكان الأميركيتين الأصليين، باعتبارها أكبر عملية إبادة في التاريخ قام فيها المستوطنون الأوروبيون الزاحفون بإبادة أكثر من 18,5 مليون من الهنود الحمر؛ الذين قتلوهم بدم بارد وبطرق لاإنسانية، مثل زرع الجراثيم والميكروبات في الملابس التي كانوا يوزعونها عليهم.

لقد ضل المركز "الغرب" في تصور الإنسان الغربي منطقة فضاء حضاري وثقافي، ومعرفي، ولأجل ذلك لابد أن يقوم هذا الإنسان بمهمته التمدينية في الأطراف.بل ينبغي له أن يسحق كل مظهر للمقاومة يمكن أن ينبعث في الأطراف، ويحول دون إنجازه لمهمته[1].

من خلال ما عرضناه يظهر جليا أن المشكلة مع المشروع الغربي بشقيه السياسي الاستعماري، والكنسي التنصيري وليس مع الإنسان الغربي، ولا مع العلم الغربي، على وجه الإطلاق.

صورة الإسلام في الإعلام الغربي إلى أين؟

إن الصورة العدائية للإسلام في الفكر الغربي المسيحي، ليست تخمينات عن الإسلام والمسلمين ولا مقولات نظرية، وإنما هو بناء تأسس عبر تاريخ الاحتكاك العنيف بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وقد أشرنا سابقا إلى بعض الصور النمطية للإسلام وتراثه كما صورتها واختزلتها ذاكرة الغرب المسيحي. وفي هذه النقطة سنقوم برصد أشكال تلك الذاكرة المريضة في زمن غير زمان تشكلها الأصلي، وبإمكانيات تفوق ما كان متوفرا للكنيسة إبان الحروب الصليبية، ويمكن اعتبار الإعلام السلطة القوية التي تلعب دورا فاعلا في بلورة التصورات وتنميطها بالشكل الذي تريد تحقيقه والوصول إليه.

وقد اعتبر الإسلام والمسلمين المادة الأساسية التي حظيت باهتمام كبير في مختلف الوسائل الإعلامية الغربية. ومن ثم يمكن اعتبار"صورة الإسلام في وسائل

(1) للوقوف أكثر على جذور تشكيل صورة الإسلام في الوعي الغربي، ينظر ـ نحن والغرب، ص 125 وما بعدها.

الإعلام الغربية صورة غير موضوعية، صورة يتحكم فيها عنصران ذاتيان : الرغبة في نفط العرب والخوف من المهاجرين العرب والمسلمين الذين لا تستطيع أوروبا امتصاصهم ولا الاستغناء عنهم"[1]. لقد أقيمت حملات إشهارية كثيرة ومتنوعة معادية للإسلام والمسلمين، والتي ارتفعت وتيرتها في الآونة الأخيرة، وذلك من أجل تحقيق الأغراض الخاصة والضيقة، وتشويه الصورة الناصعة للإسلام وتراثه وحضارته. ولهذا يمكن القول بأنه قد تعمدت في الآونة الأخيرة وبشكل قوي خيوط سياسة التخويف من الإسلام اتسعت رقعتها أكبر بعد أحداث 11 من شتنبر 2001م وساهمت وسائل الإعلام الغربية المختلفة، في ترسيخ صورة إسلام رهيب وكاسح في مخيلة المشاهد أو القارئ الغربي[2]. وذلك عن طريف تزييف الوقائع والحقائق بحسب المنطق والأهداف والأطماع والمصالح المعارضة.

إن اعتماد الغربيين على وسائل الإعلام من أجل التشويه بصورة الإسلام والمسلمين من جهة وعدم اضطلاعهم على جوهر الإسلام من جهة أخرى"...يجعل الغربيين ذوي قابلية واستعداد بالغين للتصديق والاستيعاب السريع لكل المعلومات الخاطئة والمغلوطة في حق الإسلام والمسلمين"[3].

إن مثل هذه الأكاذيب والروايات ليست حديثة العهد ولا وليدة الساعة، فقد كانت " أولى الصور تتمثل في اعتبار الإسلام دينا وثنيا وأن نبوة محمد مشكوك في صحتها وصدقيتها،فالقول بأن محمدا أرسل إلى الناس لتصحيح التحريف الذي طرأ على اليهودية والمسيحية، وبأن كل ماهو جيد في الإنجيل يوجد في القرآن، قول "باطل" لأن ذلك يتم عن "ادعاء" وعن"جنون" أكيد"[4]، ولهذا لم تتنوع الصحافة الغربية في الاستنجاد بالمصطلحات الرنانة التي تم اقتناصها ببراعة قصد توظيفها واستغلالها أثناء الأزمات ونشوب الخلافات[5].

---

(1) مسألة الهوية : العروبة والإسلام والغرب ، ص167ن مركز دراسات الوحدة العربية، قضايا الفكر العربي ـ سلسلة الثقافة القومية.

(2) وهي نفس الصورة تتكرر بأشكال وألوان ليس إلا. ويبقى القصد والهدف واحد، وهو التشويه والتخويف من الإسلام والمسلمين. والحروب الصليبية تجسد هذا مظهرا للصراع بين الإسلام والغرب.

(3) الإسلام وتهمة الإرهاب، ص61، سلسلة تصحيح صورة الإسلام، ع1، د. حسن عزوزي.

(4) فكر ونقد، ع5، يناير 1998م، ص57، الإسلام في متخيل الغرب، بقلم محمد نور الدين أفاية.

(5) يراجع الإسلام وتهمة الإرهاب ص 62، مرجع سابق.

إن صورة الإسلام في الفكر الغربي أصبحت مرتبطة بشكل مباشر بالإرهاب وكأن الإسلام لا يلد إلا الإرهاب والإرهابيين وهو من هذا الوصف براء، فقد وسم الإسلام في الإعلام الغربي بأنه إمبراطورية الشر الجديدة، وليس دين الحضارة والبناء والمعرفة. ولعل منبع الخوف هذا راجع بالأساس إلى قلق الغربيين من المسلمين المقيمين بالديار الغربية، واندماجهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية وغيرها.

ذلك أن "الإعلام الغربي في العديد من قنواته يتخلى عن أصول المهنة وقواعد العمل الإعلامي وضوابطه حينما يتناول موضوعات وقضايا وشؤونا تتعلق بالعالم الإسلامي وبالإسلام والمسلمين في كل مكان، معتبرا أن هناك قوى تعمل بكل الوسائل المتاحة لها لتخويف الغرب من الإسلام وإبعاد حكوماته وشعوبه عن العالم الإسلامي وتنتهز الفرص التي يقع فيها حدث شاذ من أفراد أو جماعات تنتمي إلى العالم الإسلامي فتبادر إلى خلط الأوراق وتوجيه الشبهات والاتهامات ضد الإسلام على الرغم من إدانة العالم الإسلامي لأي عمل إرهابي أو سلوك إجرامي مهما كان مصدره وأيا كان الدافع إليه"[1].

فقد أدرك إدوارد سعيد فيما يتعلق بوسائل الإعلام الغربية، ومدى تحكمها في تشكيل وعي الآخرين وفهمهم بخصوص الإسلام، بأنها تجمع على إيجاد أو خلق كبش فداء، أو ضحية ما، على اعتبار أن الإسلام هو ذلك الكبش لكل ما لا يروق للغربيين من أنماط سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة في العالم، حيث إنه بالنسبة لليمين يمثل الهمجية، وبالنسبة لليسار الثيوقراطية في العصر الوسيط، أما بالنسبة للوسط فإنه يمثل نوعا من الغرائبية الممجوجة[2] ولكن هل ما زال هذا الإجماع مستمرا، لاسيما وأننا في زمن بدأت تتغير فيه نظرة العديد من المثقفين الغربيين إلى الإسلام، لما اكتشفوا أن الأدبيات السياسية والإعلامية التقليدية حوله محشوة بالكثير من المغالطات والمزايدات، مما دفع بعضهم إلى الانتظام في بوتقته، إما إيمانا به، أو تعاطفا معه، أو تناولا موضوعيا له؟

إن إدوارد سعيد يطرح معادلة جديدة في قراءته لإشكالية الإسلام والغرب، فهي تلتقي مع غيرها من الطروح والدراسات الأخرى، في التركيز على التعامل الإيديولوجي

(1) مقتطف من كلام الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري في ندوة دولية عقدت في الرباط وأشرفت على تنظيمها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، تحت عنوان «صورة العالم الإسلامي في الإعلام الغربي بين الإنصاف والإجحاف».

(2) ينظر : الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل، ص 44.

للغرب مع الإسلام، غير أن نظرته هاته لا تهتم بالعامل التاريخي المحدد بالحروب الصليبية، ومن ثم يميِّز بين الغرب والمسيحية، على أن الصراع قائم بين الإسلام والغرب، لا الإسلام والمسيحية، وغيرها من الرؤى الجديدة المبتكرة. يقول الأستاذ الربيعو: "إن سعيد في قراءته لإشكالية الإسلام والغرب، يوجه اهتمامه إلى نظام الاستشراق وارتباطه بالقوة وإلى أجهزة الإعلام وارتباطها بالهيمنة والغزو. إنه لا يلتفت إلى الحروب الصليبية والتي يكثر الحديث عنها هذه الأيام. إنه يركز على الغرب؛ فالغرب من وجهة نظره، لا المسيحية، هو الذي بقي دائما في موقع التنافس والعداء مع الإسلام. فالغرب ظل يرقب باستمرار قوة الإسلام المؤهلة لإزعاجه المرة تلو المرة"[1].

إن الخوف من الإسلام أو ما يعرف بمصطلح الإسلاموفوبيا هو المصطلح الأجنبي المعبر عن تلك النزعة، فقد أصبح حالة مرضية يعاني منها الغرب. ويسعى بكل الوسائل إلى التعبير عنها عن طريق العمل على تحجيم الدور الفاعل للإسلام في دائرة التفاعل الحضاري المعاصر والتخويف منه، فضلا عن الإحجام وعدم الاطلاع على المعرفة الصحيحة والسليمة للإسلام، مما لايزال يتحكم بالسياق التاريخي لعلاقة الشرق بالغرب[2]. إلا أن الإسلام يقر بضرورة التفاعل بين الحضارات، باعتبار أن التقاء الحضارات معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية، وهو قدر لاسبيل للإنسانية من تجاوزه، وأنه أصبح من اللازم أكثر من أي وقت مضى، التخلي عن أفكار نهاية التاريخ أو صدام الحضارات، تلك النظرية التي تدفع الغرب بإمكاناته العلمية والمادية لممارسة الهيمنة ونفي الآخر، والسيطرة على مقدوراته وثرواته. وهذا من شأنه أن يقوي ترسيخ الأطروحة البديلة حضاريا التي تخدم مصلحة الإنسانية، وهي أطروحة" حوار الحضارات" أو ما يمكن تسميته "بتفاعل الحضارات الإنسانية"، وهي ليست من الأطروحات الجديدة، ولكنها الأطروحة التي تحتاج إلى عقد توافق عام حولها وتعزيزها وترسيخها أخلاقيا ومعرفيا، لأنها تشكل خيار الإنسانية الأمثل لبناء مستقبل جديد تشارك جميع الحضارات في صنعه، وهذه هي قاعدة السلام العالمي والتنمية الشاملة والبناء الحضاري، ونهاية الحروب والدمار، وتحسين نوعية الحياة، ذلك أن تقدم حوار الحضارات ونجاحه، يحتاج إلى عقلية ومنهجية من نوع مختلف،

---

(1) المرجع نفسه، ص48.

(2) التعايش السلمي ص3، محمد العرب موسى، دار النهضة، بيروت، لبنان.

(3) للوقوف على الخطوط العامة التي تؤسس إلى الحاجة الماسة إلى تكوين منظور معرفي بهذا الصدد، تنظر مداخلة زكي الميلاد في كتاب : الإسلام والغرب.

فليس هو حوار الصم والبكم ؟ بل هو حوار بين العلماء والمفكرين والمؤرخين للثقافات والحضارات والتراث والتاريخ، مما يعود على الإنسانية جمعاء بالخير والفائدة، ذلك أن التفاعل بين الحضارات والثقافات، عملية صراعية ولكنها متجهة نحو البناء من أجل الاستجابة لتحديات الوقت الراهن.

البعد المستقبلي في علاقة الإسلام بالغرب :

مما لاشك فيه أن القيام بمهمة تصحيح نظرة الغرب للإسلام والمسلمين، عمل يستدعي سبر أغوار الجذور الفكرية للنظرة العدوانية الازدرائية الغربية، بالإضافة إلى الاستيعاب الواسع للثقافة والحضارة الإسلاميين، مع حصول على قدر هام من إتقان اللغات الأجنبية التي تمكن من الاطلاع على ما يكتب وينشر عن الإسلام وتراث الأمة وحضارتها، من جهة، ومن ثم اكتساب الآليات والوسائل التي تمكن المسلم من الفهم والاستيعاب، وكذا القدرة على الرد على التشوهات والتحريفات التي تطال الإسلام وأهله.وهذا من شأنه أن يجعل المسلم قادرا على إظهار الصورة السليمة والصحيحة للإسلام وأهله بنفس اللغات المستعملة. وفي سبيل بلوغ البعد المستقبلي في علاقة الإسلام بالغرب لابد :

أولاً : من ضرورة التواصل مع الآخر وعدم الصدام معه،لأن التصادم بين الثقافات والحضارات والأمم عواقبه مدمرة لاتخفى على أحد، ولا يسعى إليه عاقل، وهذا لايتحقق إلا بالحوار أولا، ذلك أن الحوار لايدعو إلى مغادرة أحد المحاورين موقعه الثقافي أو السياسي، وإنما لاكتشاف المساحة المشتركة وتطويرها والانطلاق منها.

ولاشك أن الحوار بين المتغيرات الاجتماعية والثقافية وغيرها، يفتح مسالك التعارف ويرسم آفاق التعاون ويكسر حواجز الجهل المتبادل، ويعمق عوامل التفكير السليم، والاستفادة من كل دعوة تحث على العمل المشترك بين أبناء الجنس المختلف دينيا وحضاريا.

ثانياً : إذا كانت العلاقة بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي تتحدد انطلاقا من المضامين التي تحملها الخطابات والتصورات الثقافية والحضارية عند الطرفين معا.فإن الوقوف على حدود هذه العلاقة يقتضي بالضرورة القيام بدراسة موضوعية لمستويات هذه الخطابات، والوقوف على أهم

الأفكار التي تحملها في طياتها. ومن ثم نقدها ومراجعتها والاستفادة مما تقدمه من إيضاحات وبيانات للمستقبل الذي نريده من هذه العلاقة، وكذا الاستعدادات اللازمة لإمكانية تطبيقها على أرض الواقع وجني إيجابياتها بشكل يحفظ الدور الذي يقوم به كل من الفريقين في رسم ملامح القرن الجديد[1].

ثالثاً : ضرورة إيجاد السبيل للانتقال من مجال الدفاع عن النفس وردود الأفعال إلى العمل على تقديم البديل الثقافي والحضاري والمعرفي للعالم، ، انطلاقا من قيم التعدد والتنوع والاختلاف التي يكتنزها الإسلام في أصوله، وفي نظرته وفلسفته للحياة والإنسان والكون.

رابعاً : ضرورة العمل على تكوين تحالف إيجابي بديل لأفكار نهاية التاريخ وصدام الحضارات، تشارك في تأسيسه منظمات ثقافية، تكون لها القدرة على تجميع الطاقات الفكرية والمعرفية والدينية، والسهر على تفعيل دعوة العمل المشترك بين الإسلام والكنائس المسيحية المعتدلة، ويحتضن باقي الديانات والمذاهب الأخرى.

خامساً : وأخيرا إننا مطالبون بأن نؤكد مرات عديدة بأن الإسلام هو دين التسامح وعقيدته إنسانية شاملة، كما أنه يخاطب في الإنسان أقدس حاسة فيه وهي العقل؛ فهو دين العقل والحرية والإخاء والعدالة ذلك أن الإسلام أسيء فهمه في الغرب بدرجة كبيرة تثير إزعاج المنصفين من أبناء الغرب أنفسهم، ذلك أن الاختلاف في اللون والدين وغيرهما بين أبناء البشر سنة إلهية يقتضي أن تكون بداية للتعارف والتعاون، وليست سببا للتنافر والصراع والصدام، ولا إلى الاضطهاد والتمييز العنصري، وقد أسس القرآن الكريم لهذا المسلك القويم، أعني مسلك التعاون والتعارف انطلاقا من المفاهيم الإنسانية التي أشرنا إليها سابقا، وذلك في قوله تعالى ﴿ **يآأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[2] .

---

(1) مرجع سابق.

(2) الحجرات الآية : 13.

إننا في نهاية هذه المداخلة لا بد من التنبيه إلى ضرورة جعل الحضور الإسلامي في الغرب أكثر إيجابية وفاعلية، أخلاقا ومعاملات وسلوكا، تصورا وتطبيقا وتنزيلا، وهذا من شأنه أن يخفف من حدة الخوف والعداء الذي يزكيه الغرب للإسلام والمسلمين، مع ضرورة استثمار المعطيات الفكرية والعلمية المتاحة هناك، وهذا المعطى يعتبر في حد ذاته رافدا مهما من روافد تقدم الأمة الإسلامية وبلوغ غاياتها الحضارية والدينية مصداقا لقوله تعالى ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾.

الإسلام المتخيل في خطابات الإسلاموفوبيا : في بعض المكونات والآثار

الدكتور عبد العزيز انميرات (*)

لننطلق في الكلام عن موضوع هذا العرض من جملة الأسئلة التي نعتقد أهمية استحضارها و نحن نحاول ـ كل من جهته ـ مناقشة الموضوع العام لهذه الندوة الدولية الخاصة بمقاربة (ظاهرة الإسلاموفوبيا وسبل مواجهتها)، في محاولة جادة ـ من قبل مفكري هذه الأمة ومثقفيها ـ للوقوف على أهم أسباب تشويه الإسلام والمسلمين في الغرب وواقع الصورة التي يكونها الآخر عنا، من زاوية بحث المصادر المغذية لهذا السلوك الثقافي ـ السياسي من جهة، والعمل ـ وهذا هو المهم في حقيقة الأمر ـ على إيجاد واقتراح سبل تصحيح تلك الصورة وتحسينها، من جهة أخرى.

1. فهل يشكل الإسلام ـ فعلا ـ خطرا على الغرب، وتهديدا لمصالحه ومجاله الحيوي؟.
2. ولماذا يتم وصف الإسلام بالخطر الأخضر، الذي ينبغي تقويض دعائمه كما فعل بالخطر الأحمر زمن قوة الاتحاد السوفياتي والبلدان الآخذة بالإيديولوجية الشيوعية ؟
3. ولمصلحة من يتم تأجيج الصراع بين الأمم والشعوب عامة، وبين الشعوب وحكوماتها في العالم الإسلامي خاصة ؟
4. وهل يحمل الإسلام ـ فعلا ـ بواعث الصدام والعنف ؟
5. وأخيرا، وليس آخرا : من يقف وراء استمرار التوتر بين المسلمين والغرب الليبرالي المعاصر بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ؟

(*) أستاذ الفكر والعلوم الإنسانية / كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس ـ فاس.

هذه جملة من الأسئلة جعلناها أرضية لمناقشة الموضوع الذي اخترنا المشاركة به في هذا اليوم الدراسي، عسانا نسهم ـ بدورنا ـ في بلورة الإطار العام للصورة التي ينبغي تكوينها عن طبيعة العلاقة بين الطرفين، التي يشهد التاريخ على توترها بما يكفي لجعل العالم برمته يعيش على إيقاع فوضى تاريخية ستكون نتائجها وخيمة على البشرية جمعاء، إن عاجلا أو آجلا.

إنها ـ بصيغة جامعة ـ العلاقة التي تعبر عن عمق الخلاف التاريخي والقيمي بين الإسلام والغرب، بين المسلمين والمسيحيين، تلك التي صاغها كبلنج سابقا بقوله: " الغرب غرب والشرق شرق، ولن يلتقيا "؛ وهي المقولة التي ما تزال العديد من الكتابات الغربية تروج لها بألوان مختلفة؛ وخاصة منها تلك التي يرتبط أصحابها بإدارات الأمن القومي، والتي تقوم ـ بداية ـ على قاعدة تحذير الغرب، على الصعيدين السياسي ـ الاقتصادي والثقافي ـ الديني، مما قد يترتب عن نهوض مختلف الأمم ـ ومنها الأمة الإسلامية على وجه التحديد ـ من خطر على قوة الغرب الليبرالي وتفوقه الحضاري، وتفرده بقيادة العالم وإحكام قبضته حول عنق الدول المنتمية إلى الثقافات الحية والأصيلة.

من ها هنا يمكن القول إن المعالج لقضية صورة الإسلام و المسلمين في الغرب لا ينفك يستحضر إحدى المقدمات الضرورية لفهم التركيبة التاريخية لتكوِّن هذا الضرب من الموقف الذي يزداد ـ يوما بعد يوم ـ باتجاه الكراهية والعداء، حتى أصبح مجرد التفكير في قضية من القضايا المرتبطة بالإسلام والمسلمين يشكل هاجسا مرضيا يعاني منه الغربيون.

فما موقف الغرب اليوم من الإسلام والمسلمين إلا امتداد طبيعي للمواقف التي يسجلها التاريخ وتحفظها أرشيفاته، والتي تبين بوضوح السياسة العامة التي اتخذتها العديد من المؤسسات القابضة على زمام السياسة في الغرب، وهي تؤسس لكيانه وهويته الجديدة في سياق انتصار العولمة الثقافية، وذلك على حساب كيانات وهويات أخرى، انقرض أكثرها بفعل هذا الضرب من الرؤية الوحشية للآخر، وما زال البعض الآخر في قائمة الانتظار.

فالموقف من الإسلام والمسلمين والعالم الإسلامي، جزء من الإحساس بالتفوق منذ تأسيس كيان الغرب عام 1492 م، سنة اكتشاف القارة الأمريكية وطرد المسلمين من إسبانيا،

بحيث تولدّ ـ مع هذا الفعل والإنجاز التاريخي ـ الإحساس بضرورة " امتلاك العالم" ، وهو الإحساس الذي كوّنت أطروحات المركزية الأوربية الأولى أدبياته ومسوغاته التاريخية والثقافية، حيث تم التحرك لإنجاز هذه الخطوات التاريخية الرئيسة في بناء الحضارة الأوربية الحديثة بناء على سياسة مرحلية بدأت بالخلفية الدينية وانتهت بإعلان التفوق العرقي، مرورا بأسطورة النقاء العرقي، لتنسج نمطا حضاريا يقوم على خلفية الاستفراد ومصادرة كل المرجعيات الأخرى لفسح المجال أمام هيمنة مطلقة لنمط حضاري ـ ثقافي واحد يتماشى وسيادة القطب الواحد.

هكذا يتبين كيف أسهمت كتابات التمركز حول الذات في ترسيخ الموقف السلبي من الإسلام والمسلمين وثقافتهم؛ وهي النزعة المتجذرة في ثنايا الفكر الغربي الذي يتقصد تعميم نموذج ثقافي شامل وواحد، تم خلالها اختزال الشرق ـ والإسلام كجزء مكون له ـ إلى صورة في المخيال الغربي المعاصر. وقد ألحق هذا الضرب من السلوك الثقافي، المشبع بالروح السياسية ذات المنزع الميكياڤيلي، ضررا بالغا في الشرق والغرب على السواء؛ إذ نظر إلى كل النتاجات العقلية والروحية، وكل أعمال المخيلة من فنون وآداب، من منظور مغاير للمرجعيات الثقافية التي تكونت فيها. لا غرابة إذا كان هذا هو واقع الحال، أن تلحق إنجازات الأمم الأخرى، بمصادر غربية عنها، أو تطمس إذا تعارضت والرؤية الغربية.

وبسبب المصالح التي فرضتها الحياة الحديثة، شحن الإحساس الغربي بأكثر صور التعصب عنفا تجاه الشرق؛ و بدأ الشرقي، و بخاصة العربي / الإسلامي يظهر في الخطاب الغربي، كائنا ما كان نوعه، بصور تخالف حقيقته، و لكنها تطابق ما يريده الغرب له[1].

هكذا ـ إذن ـ يظهر كيف عملت أسطورة الرجل الأبيض على إعادة كتابة تاريخ الشرق والعالم الإسلامي بما يسمح بتسويغ كل أشكال التفوق ومظاهر اغتصاب الثقافات الأصلية؛ إذ أدت هذه الأسطورة مهمتها في تبرير ما أسماه الغرب بواجب إدخال الشعوب الأخرى، أو ما سمي بالشعوب الدنيا، في دائرة الحضارة، الشيء الذي خلف العديد من الكوارث الثقافية والحضارية والتاريخية، كان من أبرزها إعادة تقسيم جغرافية العالم الإسلامي إلى دويلات وجزر سياسية زادت الطين بلة، وكل ذلك تبعا

(1) عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة، ص181. (المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء، المغرب ـ 1999).

لسياسة إعادة إنتاج مركزية الغرب مقابل ترسيخ عوامل هامشية المحيط، و ذلك لإيمان أصحاب هذه الأطروحة العرقية المتعصبة بأن العالم برمته قطب رحاه هو الغرب الليبرالي، وكل من يرفض أو يبتعد عن دائرة مركزيته مآله إلى الهامش والدونية والانقراض. ولعل هذا ما دفع بالمفكر محمد أسد إلى القول متسائلا: "هل يمكن أن تكون طريقة التفكير اليونانية ـ الرومانية القديمة التي قسمت العالم إلى يونانيين ورومانيين من جهة، وبرابرة من جهة أخرى، لا تزال مكينة في الفكر الغربي إلى درجة أنها لم تستطع أن تقبل، ولو نظريا، بالقيم الإيجابية لأي شيء يقع خارج مدارها الثقافي الخاص؟"(1).

ويقول مجيبا عن هذا السؤال المهم : " لقد مال المفكرون والمؤرخون الأوربيون ـ منذ عهد اليونان والرومان ـ إلى أن يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الأوربي والتجارب الغربية وحدها. أما المدنيات غير الغربية، فلا يعرض لها إلا من حيث إن لوجودها أو الحركات الخاصة فيها ـ تأثيرا مباشرا في مصائر الإنسان الغربي. وهكذا، فإن تاريخ العالم و ثقافاته العديدة، لا يعدو أن يكون في أعين الغربيين تاريخا موسَّعا للغرب"(2).

يتبين مما سلف كيف أسهمت هذه النوعية من العقليات، منذ العصور اليونانية ـ الرومانية ـ في تشكيل الوعي الغربي على امتداد الأزمنة و الأمكنة ، تشكيلا كان كفيلا بالنظر إلى الآخر من زاوية ضيقة جدا تسلبه الحرية في الاختيار الثقافي والاستقلال التاريخي.

وعليه فالصورة النمطية التي يشكلها الغرب عنا في العصر الحاضر، لا ترجع ـ على وجه الخصوص ـ إلى ما نعرفه من أحداث راهنة تتعلق بعلاقة الطرفين من جهة، أو بعلاقة الغرب ذاته بالعالم برمته، من جهة أخرى، بقدر ما ترجع إلى تركة تاريخية مثقلة بالرؤية الدونية للآخر، تعود إلى المقدمات الأولى لنشوء فلسفة التنميط العرقي والثقافي منذ العصر اليوناني؛ وما سلسلة الكتابات التي تعج بها المكتبات، منذ ذلك العصر إلى اليوم، إلا برهان يشير إلى رسوخ هذا الضرب من الرؤية المتشنجة التي تسببت في إنتاج وعي مرضي يعاني من أزمة خانقة سببها الخوف من الآخر.

---

(1) محمد أسد: الطريق إلى الإسلام، ص17 ـ ترجمة عفيف البعلبكي (ـ دار العلم للملايين ـ بيروت، لبنان1977).
(2) المرجع نفسه، ص184 .

فقد اقتضى شعور العقل الغربي ـ منذ القديم ـ بالعظمة والتفوق والنظرة الكلية، ضربا محددا من الرؤية تجاه الآخر، ومنه على وجه الخصوص العالم الإسلامي؛ حيث تم إنتاج صورة نمطية رهيبة عن المسلمين والإسلام داخل سياقات التمركز حول الذات.

ولذلك، لا غرابة في أن تسعى العديد من الأقلام الغربية إلى إعادة إنتاج الثقافات غير الغربية، ومنها الثقافة الإسلامية، وعلى وجه التحديد الثقافة العربية، بالشكل الذي يوافق الاستراتيجية العامة للهيمنة والتفرد؛ ولعل هذا ما قامت به العديد من المؤلفات الإستشراقية التي رسخت فعل التنميط والتصنيف الذي ما زالت تشهد عليه العديد من الكتابات الغربية المعاصرة.

وقد لا نجانب الصواب إن قلنا ـ في هذا السياق ـ إن الحروب الصليبية[2] قد أدت الوظيفة التكميلية لمشروع التنميط والهيمنة. فبالإضافة إلى حربها " المقدسة " ضد المسلمين، كانت هذه الحروب مجالا خصبا لشيوع ثقافة التنميط والأحكام المسبقة التي زادت من حدة التوتر بين الطرفين، بل وكانت من أبرز مقدمات إصابة الوعي الغربي بالإسلاموفوبيا أو مرض الخوف من الإسلام الذي أنتج ـ فيما أنتج من نتائج سلبية ـ الكراهية ضد كل ما يتصل بالإسلام و ثقافته والمنتمين إليه. ولذلك لا غرابة في أن تنجح الحروب الصليبية والاستشراق في تغذية المخيال الغربي بثقافة التعصب العرقي ـ الديني والثقافي ضد المسلمين والعالم الإسلامي، هذا الأخير الذي ذهب مكسيم رودنسون إلى أنه يتكون من " كفار تافهين " يماثلون " الشعوب البربرية"[2]؛ ولذلك نعت المسلم والعربي بالكائن المنحرف والبربري والقاسي والخطر بل ـ وبالمصطلح المتداول راهنا ـ الإرهابي الذي ينتمي إلى ثقافة (محور الشر).

يقول محمد أسد، في سياق حديثه عن أثر الحروب الصليبية على علاقة الغرب بالعالم الإسلامي: " الأذى الذي جلبته الحروب الصليبية لم يقتصر على اصطدام استعملت فيه الأسلحة، بل كان أولا، وقبل كل شيء، أذى عقليا نتج عنه تسمم العقل الغربي ضد العالم الإسلامي عن طريق تفسير التعاليم والمثل العليا الإسلامية تفسيرا خاطئا متعمدا، لأنه إذا كان للدعوة إلى حملة صليبية أن تحتفظ بصحتها، فقد كان من

(1) للمزيد من المعطيات عن هذه الحروب وتاريخها، ينظر: ستيفن رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ـ ترجمة السيد الباز العريني (دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ـ 1967).

(2) للاطلاع ينظر كتاب : تراث الإسلام ـ تصنيف شاخت وبوزورث ـ ترجمة محمد السمهوري وآخرون، ص29-32. سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ـ 1988.

الواجب والضروري أن يوسم نبي المسلمين بعدو المسيح، وأن يصور دينه بأكلح العبارات كينبوع للفسق والفجور والانحراف عن الحق"[1].

من ها هنا ـ يقول الباحث نفسه ـ لا يزال خيال الحروب الصليبية " يرفرف فوق الغرب حتى يومنا هذا" [2]؛ و لعل هذا ما تأكد فعلا من خلال العديد من مواقف المؤسسات السياسية الغربية؛ فقد كشفت فلتة لسان الرئيس الأمريكي جورج والكر بوش عن هذا الضرب من الرؤية حينما أكد، وهو يحضر لضرب أفغانستان، على أن الحرب المقبلة (حرب صليبية جديدة).

إن فلسفة التنميط الثقافي ـ الحضاري التي أسس الغرب عليها كيانه الثقافي في نظرته للآخر، خندقته في حيز ضيق يقوم ـ فقط ـ على الاختزال الذي يمنح المعتد به قيم التفوق والتفرد في عالم متعدد الحضارات والثقافات؛ الشيء الذي يفسر كيف أدى هذا الضرب من الرؤية والموقف إلى العمل إما على إلحاق العديد من الثقافات في منظومة الثقافة الغربية، وإما على طمسها بالمرة، خاصة إذا كانت تتعارض ووجهة النظر العامة لهذا الغرب.

وما دامت هذه هي روح الفلسفة الاستعمارية، فإن الآخر ـ وفق هذه المنظومة من القيم ـ يصبح مجرد اختراع غربي[3]؛ أي إن الغرب يعمل على تلبية حاجياته الثقافية من خلال اختراع الآخر وفق ملامح و معالم و صور محددة، و ذلك لأنه لا يمكن له أن يعيش بدون عدو.

وتبعا لهذه الحاجيات ظهرت جل الكتابات العدائية منذ حقبة الاستشراق والحروب الصليبية، استجابة للرغبة المتزايدة في الاستيلاء على الآخر واستلابه، بل وترتيبه ترتيبا محكما حول مركزه.

وعلى هذا الأساس، فعندما يعمل الغرب على دراسة الآخر والتعامل معه من هذا المنظور، فإنه ـ وكما يقول ميشال فوكو، ابن حضارة الغرب نفسها ـ " يعيد إنتاج نفسه، عبر إخضاع الآخر لمنهجيات العلوم الإنسانية التي تعتبر المحصلة التركيبية العليا والأخيرة لتلك الميتافيزيقا الإنسانوية ذاتها التي تقود المشروع الثقافي الغربي"[1].

---

(1) محمد أسد ـ مرجع سابق، ص 177.

(2) المرجع نفسه، ص 188.

(3) على حد تعبير إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق، ص 37. ترجمة كمال أبو ديب (مؤسسة الأبحاث العربية- بيروت، لبنان 1984).

يظهر جليا ـ من خلال ما سلف ـ أن ثمة رغبة في إقصاء الآخر كليا بما يكفي للبقاء في دائرة التميز والتفرد، وهو ما يبيِّن أن الغرب لا تكتمل قوته إلا بإقصاء كل الثقافات التي تختزن داخلها عوامل التميز والخصوصية. ولذلك، لا غرابة في وجود هذا الضرب من التفكير في لغة المعاصرين، الذين سبقهم إلى ذلك الكثيرون من أمثال غوستاف فون غرو بناوم، الذي ذهب في كتابه (دراسات في الأدب العربي) إلى أن التراث الإغريقي أسهم في تكوين وتطور الفكر العربي الإسلامي من وجوه ثلاثة: " أنه قدم للمسلمين شكلا عقلانيا خالصا من الفكر، وعلمهم فن التنظيم، ونقل إليهم صورا مبرهنة من المقايسات المنطقية؛ بل نقل إليهم القدرة أو الاستطاعة لشرح النظريات العامة على مستوى ملائم من التجريد؛ بل إنه ـ في بعض الأحوال ـ قدم لهم مسلسلات جاهزة من الأفكار، كما قدم في كل مجال مبادئ مقنعة في التقسيم والتبويب"[2].

وبنفس الرؤية يذهب (دي لاسي أوليري) في كتابه (الفكر العربي ومركزه في التاريخ) إلى " أن الثقافة الإسلامية هي في الأصل جزء رئيسي من المادة الهيلينية ـ الرومانية"، وأن " الفقه الإسلامي قد صنع وتطور عن أصول الهيلينية [3].

إن الكتابات في هذا الباب كثيرة جدا، وهي في مجموعها تعمل على ترسيخ أطروحة أجمع عليها الكل، وهي تفوق الجنس الأبيض وتميز الثقافة الغربية منذ اليونان، والرغبة في الاستفراد[4] والتحكم في المستقبل؛ هذا الأخير الذي قال عنه فرنان بروديل أنه (لا يعود إلا لمن يعرف كيف يحقد)[5]؛ وأنه من هذا المنطلق يصبح الإسلام

---

(1) الكلمات والأشياء، ص7، ترجمة مطاع صفدي وآخرون (مركز الإنماء القومي ـ بيروت، لبنان ـ 1990).

(2) ترجمة إحسان عباس وآخرون، ص 23 (دار مكتبة الحياة ـ بيروت، لبنان 1959).

(3) ترجمة إسماعيل البيطار، ص 6. (دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، لبنان 1982).

(4) ينظر في هذا الموضوع كتابات :

أ) أرسطو طاليس : السياسة ـ ترجمة أحمد لطفي السيد ـ الهيئة المصرية، 1979.

ب) آشلي مونتاغو : البدائية ـ ترجمة محمد عصفور ـ سلسلة عالم المعرفة. الكويت 1982.

ج) كافين رايلي: الغرب والعالم ـ ترجمة عبد الوهاب المسيري وهدى حجازي ـ سلسلة عالم المعرفة. الكويت 1986.

د) برتراند راسل : حكمة الغرب ـ ترجمة فؤاد زكريا ـ سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ـ 1983.

هـ) هيجل : محاضرات في فلسفة التاريخ ـ ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ـ دار الثقافة ـ القاهرة ـ مصر، 1974.

(5) ينظر : 13.

Fernand Braudel: La méditerranée: L'espace et l'histoire- Edition Flammarion-Paris1985. Page 173.

في نظره " غربا مضادا بكل الالتباسات التي تتضمنها كل معارضة عميقة، حين تكون هناك مناقشة وعداوة واقتباس"[1].

وعلى هذا الأساس عمل الفكر الغربي منذ القرون الوسطى على وجه الخصوص على إعادة ترتيب الرؤية باتجاه الآخر الذي هو الإسلام والمسلمين، وقد عبر مونتغومري واط ـ وهو من أبناء الحضارة الأوربية ـ عن هذه الحالة الثقافية بكون التشويه الذي تعرض له الإسلام من قبل الأوربيين ما هو إلا تعبير عن حاجة ضرورية " للتعويض عن شعورهم بالنقص"[2]، الشيء الذي يتوجب معه النظر إلى هذا التشويه من زاوية أنه " إسقاط للجانب المظلم في الشخصية الأوربية"[3].

وعلى العموم، يمكن القول إن الغرب المسيحي، على وجه الخصوص، قد كوّن صورة مشوشة في مخيلة الغربيين عن الإسلام ونبيه وثقافته وحضارته، وقد ظل المسلمون يشكلون ـ ولمدة طويلة ـ بالنسبة للغرب المسيحي " خطرا قبل أن يصبحوا مشكلة "، كما يقول ماكسيم رودنسون[4]، وقد أدت هذه الصورة إلى إفساد العلاقة بين الطرفين، وذلك لما تحمله من متخيل أسطوري فرض نفسه على الذاكرة الجمعية، وجثم بكل ثقله الواقعي على المستقبل. كما ساهم في تأسيس سلوكات في العمق، وبهذه الصفة تغدو مشاركة في الواقع[5].

إن هذا الضرب من العلاقة يمنحنا إمكانات الرؤية العميقة لأسباب الكراهية والخوف من الإسلام، بحيث اضطلعت الكثير من الكتابات منذ العصور السابقة بمهمة التحذير من الخطر الإسلامي، وقد أدت هذه الكتابات بشكل كبير وظيفة إعادة بناء الوعي الغربي بناء ثقافيا يرسخ الصور القدحية، وذلك في محاولة مستميتة لإعادة

---

(1) المرجع نفسه ـ ص 160.

(2) W.Montgomery watt: L'influence de l'Islam sur l'Europe Médivale. Page 97- Edition.: Librairie Orientaliste Paul Genthner – Paris – 1974.

(3) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(4) Maxim Rodinson: La vaccination de l'Islam page 35, Edition la découverte, Paris 1989.
ويراجع للمزيد من المعطيات في السياق ذاته :
أ) الإسلام والمسيحية لكاتبه: أليكسي جورافسكي ترجمة خلف محمد الجراد ـ سلسلة عالم المعرفة الكويت ـ 1996.
ب) الصليبيون في الشرق لكاتبه : ميخائيل زابوروف ترجمة إلياس شاهين ـ دار التقدم موسكو 1986 .

(5) ينظر.
Theirry Hentsch:L'orient imaginaire: La vision politique occidentale et l'est méditerranéen page 18 - Edition de Minuit - Paris - 1988.

الاعتبار للمسيحية، إذ ينظر بعض الباحثين الغربيين إلى العلاقة بالإسلام، من زاوية تسبب هذا الأخير في إحداث القطيعة الحاسمة مع الثقافة الرومانية، وذلك من خلال ما حققه من فتوحات جغرافية وتغييرات ثقافية في العديد من البلدان المحسوبة على النظام الكنسي.

من هنا عملت الحروب الصليبية وثقافتها على تكثيف " الصورة الأولى، والصورة المؤسسة التي كوّنتها المسيحية الأوربية عن الدين المنافس"[1]، وذلك بما يكفي لأن يظل نظر المجتمع الغربي ـ المسيحي على وجه الخصوص ـ تجاه الإسلام والمسلمين مؤسسا على خلفية ثقافة ترسخ في الأذهان صورة نمطية مفادها أن الإسلام دين عنف وقتل وحروب، وأنه ما انتشر إلا عن طريق السيف وقتل الأبرياء [2]؛ ولذلك انتشرت أطروحات تبرير أساليب الوقوف في وجه المد الإسلامي، ومنها أسلوب التخويف منه، وقد أنتج هذا الأسلوب متخيلا جمعيا حاقدا على الإسلام والمسلمين يحفز المسيحي ـ على وجه الخصوص ـ على الاستجابة لمخططات إعادة الاعتبار للمسيحية من خلال العدوان على الإسلام.

وبناء عليه، أصبحت الصورة النمطية المنسوجة للإسلام " لا تستمد جذورها من الواقع الذي من الجائز أن يكون قد تعرض لتشويه من طرف الآخر. إنه ينبعث من فكر الآخر، في سياق نية الإساءة و الدفع بالعمل الحربي إلى الغزو"[3].

من هنا يظهر كيف تم تقديم الخصم ـ الذي هو الإسلام ـ " في صور شيطانية، تمكنت الكنيسة ـ و خصوصا المؤسسة البابوية ـ من تبرير الحروب حين تم إعلانها من طرف السلطات العمومية الشرعية، و تبنتها للدفاع عن المؤسسات " الإلهية" المهددة، والنتيجة أن " الحروب العادلة الحقيقية، ثم " الحروب المقدسة"، كانت البابوية هي التي دعت إليها لضمان حمايتها الخاصة للمسيحية، والتي توسعت شيئا فشيئا. هذا هو أصل سلام الرب والحركة الصليبية"، كما يقول (جان فلوري)[1].

---

(1) المرجع نفسه، ص45.

(2) ينظر بتفصيل :

Jean Flori: La radiopraphie d'un stéréotype Maroc - Europe N° 3, 1992 page 97.

(3) المرجع نفسه.

لقد فجرت ثقافة الحروب الصليبية، ولحد الساعة ـ العديد من الكتابات المرسخة لأطروحة العداء، والتي تتأسس خطاباتها على التشويه والتحريف والنيل من شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على وجه الخصوص، بأسلوب خطير للغاية وصل إلى حد وصفه بالمتوحش والمخادع والمتلاعب الكبير بعقول الناس[2]؛ وقد أنتجت هذه الأطروحات سيرة ذاتية للرسول، صلى الله عليه وسلم، تتماشى وما يفكرون فيه، بل وتخدم ما يخططون له، وقد تم استثمار كل ما من شأنه تحقيق هذه النتيجة. فالرسول صلى الله عليه وسلم ـ وفق هذا المنظور ـ " محارب عنيف، في حين أن المسيح لطيف ومسالم، ثم إن المسيح ورع وأعزب، وأما محمد فهو طالب لذة ومتعدد النساء"[3]؛ وبهذا نسجت المخيلة المسيحية الصورة العامة للمسلم وللعقيدة التي ينتمي إليها، والتي تدفعه إلى الشبقية والشهوانية والعنف المسلح. إنها الصورة التي صار معها الإسلام معاديا لكل حضارة وقيم وحرية وإنسانية، حتى صار هذا الدين علامة على العداء والخوف، وقد نسجت المسيحية الغربية هذه الصورة الفضائحية، وهي تعيش داخل "عالم تنقصه المعلومات، منكفئ على ذاته كما على معرفته الخاصة. عالم حيث تتسرب المعلومات الخارجية، بشكل مشوه، حتى وإن كانت مختزلة وفقيرة" كما يقول فيليب سناك [4].

هكذا يتبين كيف أسهمت الكتابات الصليبية ذات المنزع الاستشراقي في التأسيس لخطاب الكراهية تأسيسا مركزا ومخططا له، وذلك بغية إعادة إنتاج ذهنية غربية ـ مسيحية على وجه الخصوص ـ لا تعترف بالآخر إلا من خلال نفيه. وقد أدى البناء التراكمي لهذه الذهنية إلى إنتاج عقلية المؤامرة في الثقافة الغربية، وهي العقلية التي لا تقول بأطروحة "الصديق" إلا إذا كان هذا الأخير خادما لمصالحها ومحققا لوجودها. فقد كان الإسلام قبل أن يصبح خطرا حليفا للغرب في صراعه ضد الإيديولوجية الشيوعية. فقد وجد آية الله الخميني على سبيل المثال ـ زمن الشاه ـ الدعم، ولم يكن الجهاد الأفغاني ـ

---

(1) المرجع نفسه، ص99.

(2) ينظر :

Norman Daniel: Islam et Occident-Traduit par Alain Spiess- Page 123, Edition Du Cerf- Paris 1993.

(3) Jean flori: Op.cit page104.

(4) ينظر :

Philipe Senac:L'image de l'autre: histoire de l'occident médiéval face à l'Islam - page 17, Edition Flammarion Paris, 1983.

زمن الاتحاد السوفياتي ـ إرهابا، ولكن الأمر تغير بسقوط الإيديولوجيات الكبرى في العالم، و بروز الصحوة الإسلامية العالمية، فأصبح الإسلام خصما وعدوا، وكما يفعل العقل الغربي دائما، فهو عندما يتخذ طرفا ما (آخر) له، يبنيه بناء جديدا بل يصنعه ليضمنه جميع أنواع السلب ـ أو النفي ـ التي تمكنه من تحديد هويته هو إيجابيا. وهكذا يصبح الإسلام وعاء لكل ما لا يرغب فيه الغرب، ولكل ما يخاف منه، وبالتالي فالإسلام كـ (آخر) يعني في الوقت نفسه (العرب) بوصفهم مصدر تهديد محتمل لتزود الغرب بالنفط، ويضم (المهاجرين) بوصفهم مصدر تهديد محتمل على مستوى التركيب السكاني لأوربا؛ كما يضم (الإرهاب) بوصفه مصدر تهديد الغرب ومصالحه في العالم العربي الإسلامي(...) وهكذا صنع المستشرقون (الشرق) ليكون (الآخر) للغرب في القرن الماضي (= القرن 19م)، كما أوضح ذلك بجلاء إدوارد سعيد"[1].

لقد أدت الكتابات الاستشراقية ـ على وجه الخصوص ـ المدعمة من قبل المجتمع السياسي ـ الديني الغربي، إلى إنتاج ثقافة الخوف من الإسلام بل ورسخت في الذهنية الغربية المعاصرة هذا الخوف أو الرهاب المرضي، وقد أسهم هذا النوع من التفكير في توجيه الفهم الغربي المعاصر للإسلام، بل وإعادة إنتاج ثقافة العلاقة بالمسلمين، بما يكفي لجعلهم خصما على الدوام، و ثقافتهم خطرا على العالم برمته.

وإننا لا نستغرب من هذا النوع من الفهم والسلوك، إذا ما استحضرنا ـ في هذا السياق من التحليل ـ عقدة التفوق الحضاري والتميز العرقي التي تسيج العقلية الغربية منذ العصر اليوناني، ظل خلالها الآخر بصفة عامة ـ مجرد حضارة متخلفة ومنحطة لا ترقى إلى خط الإبداع الحضاري والدفع باتجاه المستقبل، وبذلك فلا وجود للآخر إلا كما هو في مخيلة الغرب، وكما له ـ كما يذهب إلى ذلك أدموند هوسرل ـ لا يتم إلا حينما يكون غربيا[2].

في هذا السياق، وبسبب توالي المصالح الغربية المتعددة التي فرضتها الحياة المعاصرة للغرب الليبرالي، عرفت العلاقة بين الغرب والإسلام زيادة في التعقيد

(1) ينظر: محمد عابد الجابري: "آليات تشويه صورة العرب في الإعلام الغربي"– منقول عن موقع.
http://www.balagh.com/mosoa/garb/li0m0u4l.htm.

(2) ينظر بتوسع: هشام غصيب : "نحن والفكر المستورد" ضمن كتاب : الفلسفة العربية المعاصرة، ص456، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.

والتشابك، الشيء الذي زاد من حدة الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين، بل وجدد في الثقافة الغربية المعاصرة عقلية الخوف والرهاب إلى درجة يعيش معها الغرب الليبرالي المعاصر نوعا خطيرا من الاضطراب، مما أنتج العديد من الكتابات العاكسة لهذا النوع من الخوف. وقد ذهب روبرت كوكس إلى أن " سيناريوهات روبرت كابلان حول " الفوضى القادمة"، وفوكوياما حول" نهاية التاريخ"، وصموئيل هنتنغتون حول" "صدام الحضارات"، هي تجسيد للنفسية الأمريكية التي تتشابك داخلها الآمال والمخاوف حول المستقبل"[1].

إن خطابات (الخوف من الإسلام) أو (كراهية الإسلام) لا تخرج عن هذه السياقات من التفكير، حيث زاد التفكير في الإسلام كخطر جديد من داخل رؤية استعلائية ما زالت تكرس أطروحة المركزية الغربية بتلوينات متعددة، لا يكون معها الآخر موجودا إلا من خلال العمل على نفيه. وقد أسهمت العديد من الكتابات الغربية المعاصرة الوازنة في تطعيم هذا التوجه الثقافي المليء بالكراهية والخوف، حتى أن مفكرا أكاديميا بحجم صموئيل هنتنجتون يخلص في أطروحة "صدام الحضارات" إلى أن للإسلام " حدودا دموية" [2]؛ وقد عزز استنتاجه هذا بمجموعة من الإحصائيات، بين من خلالها أن للمسلمين أكبر قدر من الصراعات الداخلية مقارنة بالحضارات الأخرى، وأكبر حصة من الصراعات مع الحضارات الأخرى[3].

من هنا نفهم لماذا تم اعتبار الإسلام عدوا للغرب، بل وأضفى عليه صبغة (إمبراطورية الشر الجديدة)؛ ولعل هذا النوع من التصور في العلاقة بالآخر منبعه مخلفات ثقافة الحرب الباردة، التي تفترض دائما وجود عدو لحضارة الرفاهية. فقد تساءل في أحد مقالاته بشكل قلق للغاية: " أن تكون أمريكيا ملتزما بمبادئ الحرية، الديمقراطية، الفردانية والملكية الخاصة، وإذا لم تكن هناك إمبراطورية شر تهدد هذه المبادئ، ماذا يعني بالفعل أن تكون أمريكيا؟ وماذا سيكون مصير المصالح الأمريكية" [4].

إن الإسلاموفوبيا ـ في عمق الفهم ـ جزء لا يتجزأ من الرؤية العامة التي يقيمها الغرب الليبرالي منذ القديم في علاقته بالآخر، وهي الرؤية الضيقة التي تختزل

(1) مذكور في :

Hittel Man James: "Coxion historicism as an alternative perspective in international Studies" -Alternatives- V: 23, N° 1 January - March 1998, page 77.

(2) Samuel Huntington : Le choc des civilisations- page 282- Odile Jacob Paris 1997.

(3) ينظر بتفصيل المرجع نفسه، ص 285.

(4) S. Huntington: "The erosion of American national interest"- Foreign affairs- V°76, N°5 Sept - October 1997, page 29-30.

الحضارات والقيم والثقافات، بل والإنسان في نموذج واحد فقط، هو النموذج الغربي.

في هذا السياق نفهم لماذا ذهب صاحب كتاب (الإمبراطورية والبرابرة الجدد)، جون كريستوف روڤان، إلى تنبيه الوعي الغربي بضرورة الوقوف في وجه كل المجتمعات غير الغربية، وذلك للحفاظ على نموذجية الحضارة الغربية. يقول على سبيل المثال: "في الحقيقة إننا ندافع عن مستوى عيشنا، لا يمكن لنا أن نستقبل كل بؤس العالم، التحرك ضد تهديد اجتياحنا من طرف البرابرة ليس عملا لاأخلاقيا كما تريد أن تقنعنا بذلك بعض الضمائر التي تدافع عن التعددية الثقافية. في الواقع نحن نتحرك مثل الرومان أمام تهديد هجومات البرابرة"[1].

هذه نماذج من كتابات غربية معاصرة تعكس التصور نفسه الذي أقام خطوطه العريضة الفكر الغربي منذ العصر اليوناني، والذي ظهرت معالمه وتقاسيمه الكبرى مع الفكر الاستشراقي ـ الصليبي؛ وهي كلها كتابات تنفي حق الآخر في الوجود كحضارة وهوية وأمة لها خصوصياتها الثقافية وتميزها التاريخي، بل وتعمل على التشويه بالآخر وإسقاط الأحكام القاسية عليه، وتوجيه الاتهامات الباطلة له قصد التخويف منه.

وقد تعرض الإسلام ـ بشكل كبير جدا ـ لهذه الحملات العدائية لأنه المرجعية العقيدية الوحيدة التي استعصى تطويعها واختراقها وغزوها. وقد شكلت الكتابات العدائية خطابا أعاد بناء الذهنية الغربية بما يكفي لإنتاج وعي جماعي ضدي بالإسلام والمسلمين، وذلك بشحن هذا الوعي بالصور الرافضة مسبقا، وكل ذلك من أجل إنتاج ردود أفعال رافضة للإسلام في كليته، ومستعدة للوقوف في وجهه بكل الوسائل.

وقد استطاعت خطابات التخويف من الإسلام إنتاج ذهنية عامة ترى في الإسلام العدو والخطر الذي ينبغي الوقوف في وجهه بكل الوسائل والطرق، حتى وإن اقتضى الأمر الدخول في حرب عسكرية مع من يمثلونه ويدافعون عنه، ولا غرابة في ذلك إذا ما عرفنا أن استراتيجيي السياسة الغربية، وخاصة الأمريكيين منهم، قد ابتدعوا مصطلح " الحرب الوقائية أو الاستباقية"، وذلك لتبرير العديد من الحروب التي يخوضونها ضد الآخر؛ و قد عبر الكاتب إيرل تيلفورد عن هذا التصور في مقال عنوانه (كيف سنخسر حرب 2020؟) في كتاب "هكذا يصنع المستقبل"، ركز فيه على مفهوم الحرب الاستباقية وضرورتها، وذلك للحفاظ على مصادر القوة والسلطة والثروة في العالم.

---

(1) J.C Ruffin: .Nord - Sud: c'est la nouvelle guerre froide, Paris Match N° 2204, 22 Août 1991, page 5.

استتباعا نقول :

- ❖ هل يشكل الإسلام ـ فعلا ـ خطراً على العالم ؟.
- ❖ وهل نظامه يدعو إلى الثقافة الفاشية كما يدعي الكثيرون؟.

لقد حاولنا ـ من خلال ما سلف ـ الوقوف على بعض أسباب هذا العداء والتخويف من الإسلام، فتبين لنا ـ من خلال كل ذلك ـ أن ثمة ذهنية راسخة في التاريخ قوامها خمس نقط رئيسة ومتكاملة :

1. أن الغرب ـ منذ الحقبة اليونانية ـ يعتقد أنه الأصل والمحور والمركز، و أنه لا حضارة تستطيع الوصول إلى قمته؛ ومن هنا نشأت عقدة المركزية الغربية، التي قسمت العالم إلى مركز و أطراف.
2. أن العقل الغربي، عموما، لا يعرف الإثبات إلا من خلال النفي، الشيء الذي يجعله يقيم دعائم وجوده من خلال نفي وجود الآخر، والحصيلة هي أن مستقبله رهين بوجود الآخر متخلفا ومستعمرا و مشتتا، وهو ما يؤدي ـ في نهاية المطاف ـ إلى إحداث عدو للغرب، وذلك لأن (الأنا) الغربية ـ في عمقها ـ فارغة ما لم توضع في مقابل (الآخر)، ويعتبر الإسلام ـ في المرحلة الراهنة ـ الآخر / العدو بعد انهيار الآخر / العدو : الاتحاد السوفياتي.
3. أن الغرب، و لكي يحافظ على قوته وسلطته ومركزيته لا بد له من السيطرة على مواقع الثروة في العالم، وتعتبر الثروة النفطية اليوم الهاجس المحرك لهذه الذهنية. فلا وجود للغرب، ولا قدرة له على فعل المغالبة، بدون هذه الثروة، ومادام المسلمون يمتلكون النفط، فلا بد من العمل على السيطرة على ثقافتهم وتعديل مرجعيتهم الدينية.
4. أن للغرب مصالح مع الكيان الصهيوني في العالم برمته، ومادام هناك جهاد لتحرير أرض المسلمين من هذا الكيان الاستعماري ـ الاستيطاني، فإن ثمة حاجة ـ لدى الغرب ـ لتأليب الرأي العام العالمي، ـ ناهيك عن الغربي ـ ضد المسلمين وعقيدتهم واعتبار كل أشكال المقاومة الإسلامية إرهابا وتطرفا.
5. أن ثمة جهلا حقيقيا بالإسلام، عقيدة وشريعة، وكلما جهل المرء حقيقة الشيء عاداه. ومادام هذا هو حال العلاقة بين الطرفين، فلن تستقيم بوصلة الطريق.

وبالجملة نقول: سيظل الإسلام عدوا وخطرا ما بقي في البشرية من ينظر إلى العلاقة بين الشعوب والأمم من منظور التقسيم العرقي والثقافي والجغرافي، وكيف بمن يصف رسول الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالبربري والجاهل والشبقي والكاذب، أن يفقه قول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[1].

وسيظل كذلك ما دام المسلمون متشبثين بالإسلام، مدافعين عنه. وقد لا نجانب الصواب إن قلنا في النهاية : إن الأصل في العداء دليله قوله تعالى الجامع المنبه للمسلمين على الدوام، وهو العليم الخبير بعباده :

﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلاَ ٱلنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[2].

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[3].

---

(1) سورة الأنبياء، آية 107.

(2) سورة البقرة، آية : 120.

(3) سورة البقرة آية : 109.

سيطرة المعرفة الوسطوية على الفكر الكنسي المعاصر وأثرها في تكريس الصورة السلبية عن الإسلام

الدكتور يوسف الكلام(*)

1. الجذور التاريخية للصراع بين المسيحية والإسلام

يعود التنافر بين العالمين الإسلامي والمسيحي إلى زمن بعيد، إلى زمن البعثة النبوية الشريفة، فقد أرق ظهور الإسلام العالم المسيحي منذ أول يوم صدع فيه الرسول بالدعوة، معتبرا رسالته رسالة عالمية موجهة لكل الأمم العربية وغير العربية، وعرفت العلاقة بين العالم الإسلامي وهذه الأمم صورا وأشكالا متعددة بعضها عراكي تنافري وبعضها تسامحي ودي. وقد كان اطلاع العالم المسيحي على العالم الإسلامي من خلال نظرة هذا الأخير فيه وانتقاده للأديان السماوية السابقة، فالإسلام وإن اعترف بالمسيحية واليهودية باعتبارهما ديانتين سماويتين مصدرهما الوحي الإلهي، واعتبر الخلاف بين البشر عموما والخلاف العقدي بينهم خصوصا سنة إلهية، فقد كان ناظرا في هذه الأديان ناقدا لها، إذ لم يكتف بتقديم أفكاره مجردة عن باقي الأفكار السائدة بل قدم بدائله الفكرية من خلال نقد الأفكار السابقة ووضع الكل في مقارنة علمية متبعا منهجا نقديا ومصححا وممحصا.

ونظرا لهذا المنهج النقدي الذي تبناه القرآن اضطرت باقي الأديان المنتقدَة إلى أن تبلور منهجا دفاعيا ترد به عن النقد الموجه إليها وتبلور موقفا معينا من الإسلام، ولما كانت الكنيسة المؤسسة الممثلة لهذا الغرب ووعاءه الديني، كانت أكثر من غيرها من المؤسسات الغربية موضوع نقد متواصل من لدن المسلمين من حيث عقائدها وشعائرها وممارساتها، بل كان النقد الإسلامي وراء نشوء حركة فكرية كبيرة جعلت هدفها الإحاطة الشاملة بالإسلام ومبادئه ومواقفه؛ ففُتِحت بالغرب المسيحي أقسام

(*)مؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط.

علمية مختلفة داخل الجامعات تشجع على البحث العلمي في الإسلام ومنابعه وأصوله لإنشاء معرفة به، وإن كنا لا ننكر أن بعضها كان موضوعيا نزيها، فإن جلها كان لأهداف وغايات أنشئت سلفا، وقصدت تشويه الإسلام وتأثرت بالرؤية الكنسية التي كانت تسعى إلى الحد من انتشار الإسلام على حساب المسيحية، فكانت هذه الأهداف والغايات الإيديولوجية الكنسية حجابا وغشاوة على أعين الغربيين حالا بينهم وبين إنشاء معرفة صحيحة عن الإسلام وكتابه ونبيه.

وحتى لا نكون مجرد مُدّعين، فسنحاول الوقوف مع نماذج من هذه المعرفة الغربية عن الإسلام، ونبرز دور الكنيسة ورجالاتها في تشويه هذه المعرفة من خلال النظر في بعض أعمال وكتابات القرون الوسطى التي اتخذت من الإسلام ونبيه وكتابه وشريعته موضوعا لها.

لاشك أن الانتشار الإسلامي الكاسح في حوض البحر الأبيض المتوسط على حساب المسيحية كان تهديدا كبيرا للوجود المسيحي، إذ قطع الفتح الإسلامي الصلة بين مقر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ومهد المسيح عليه السلام، فباتت الكنيسة كالأفعى التي قُطع رأسها تضرب بذيلها في كل ناحية، وكانت أهم الضربات التي وجهتها الكنيسة إلى الإسلام، عملها على تشويه صورته بين صفوف أتباعها، وذلك من خلال نشر أدبيات وضعها رجال الكنيسة باعتبارهم مُلاّك مفاتيح المعرفة والمسؤولين على تربية المؤمنين على التشبث بالدين المسيحي والدفاع عنه ضد الديانات الوثنية[1]، من هنا جاء التركيز على فكرة **إظهار الدين الإسلامي على أنه دين وثني بعيد عن الوحي السماوي، وأن محمدا وحش شيطاني مخيف ادعى الألوهية ودعا العرب إلى عبادته والخضوع إليه، ومن هذه الفكرة نشأت فكرة أخرى هي أن الدين الإسلامي باعتباره دينا وثنيا فهو دين دموي همجي شعاره القتل والعنف والحرب، مقصده الأساس التوسع بالنار والحديد، وأتباعه العاديون يتسمون بالعدوانية والهمجية، أما زعماؤه ومفكروه فيتميزون بالابتعاد عن العقلانية**، بخلاف المسيحية دين الله الموحى إلى البشر المبني على الحب والسلام، القائمة على الفكر العقلاني المتسم بالموضوعية والعلمية، إلى جانب أفكار أخرى ليست أقل أهمية من هاتين، ركزت على تشويه الشريعة الإسلامية، خصوصا قضية المرأة ومكانتها في المجتمع الإسلامي.

ولإثبات دور الفكر الكنسي في نشر هذه المعرفة المغلوطة عن الإسلام في العصور الوسطى، لابد أن نشير إلى بعض المصادر القديمة التي اعتمد عليها كثير من

(1) Simon Jargy, Islam et chrétienté, Ed. Labor et Fides, Genéve, 1981, p.9.

رجال الكنيسة الذين كرسوا أنفسهم لهذا العمل، ونقصد على الخصوص كتابات المسيحيين البيزنطيين الذين عاشوا في ظل الحضارة الإسلامية، واستغلوا التسامح الإسلامي معهم وما منحهم من حرية للفكر، فكتبوا كتبا كثيرة جدا في نقض الإسلام ونقد نبيه وشريعته ومن هؤلاء علمان بارزان هما : يوحنا الدمشقي[1] (675-749)م وتيودور أبو قرة[2]، فقد نذر يوحنا الدمشقي نفسه لتشويه الإسلام ونبيه، مع أنه عاش في القصر الأموي وتحت رعاية المسلمين، فقد كتب رسالتين في نقد الدين الإسلامي اعتبر في أولاهما الإسلام الهرطقة مائة من هرطقات المسيحية، وكان أول المسيحيين الذين أطلقوا على المسلمين تسمية "سرازان Sarrasin "، أما رسالته الثانية فكانت عبارة عن حوار بين مسلم ومسيحي.

---

(1) Jean Damascéne, Ecrits sur l'Islam, présentation, commentaires et traduction par Raymond LE COZ, ouvrage publié avec le concours du Centre National des lettres et de l'œuvre d'Orient, Paris, les Edoitions du Cerf 1992; Sources Chrétiennes N°383,pp. 211-252.

(2) هو تيودور أبو قرة أحد آباء الكنيسة الشرقية وعلم من أعلام اللاهوتيين المسيحيين العرب. ولد في الرها في أواسط القرن الثامن الميلادي (حوالي 750م) من أبوين ملكيين سريانيين، وفيها تلقى العلم أولاً، ثم ترهّب في دير القديس مار سابا (قرب القدس) حيث كان ذكر القديس يوحنا الدمشقي لا يزال حيّاً يملأ الأرجاء. فطالع كتاباته وتخرّج فيها. ثم تحوّل إلى داعية متجوّل يدافع عن الدين المسيحي وعن تعليم المجمع الخلقيدوني وعن إكرام الصور المقدّسة مجادلاً النساطرة واليعاقبة ومحاوراً المسلمين. فطاف في البلاد يعظ ويعلّم، حتى بلغ أرمينية حيث خاض، سنة 815م في أغلب الظن، غمار مناظرة مشهورة في بلاط أميرها آشور مسّاكر (المتوفى سنة 826). وأقام مدة في بغداد على ما يبدو. وقد توفي سنة 830م.

كان أبو قرة يجيد لغات العلم الثلاث في عصره: السريانية واليونانية والعربية، وقد كتب فيها كلّها. في السريانية وضع ثلاثين ميمراً (أي مقالاً) مدحاً لرأي الأرثوذكسية كما يخبر هو بنفسه، لكنها لا تزال حتى الآن مفقودة. وفي اليونانية نُشر له 44 مقالة بعضها وجيز جداً في أقل من صفحة واحدة وبعضها في حجم كتيّب صغير.

لكن شهرة تيودورس أبي قرة ومكانته قامتا على مصنفاته العربية التي تفوق اليونانية حجماً وأهمية، وإن كانت دونها عدداً، إذ لا يتعدّى مجموع ما عُرف منها حتى الآن الثلاثين بين ميمر ورسالة وعظة وما شاكلها. وأبو قرة علاوة على كل ما تقدم يعد من نقلة الفلسفة اليونانية إلى العربية ومن الرعيل الأول منهم. يذكر له ابن النديم في الفهرست تعريب أحد كتب أرسطو المنطقية: التحليلات الأولى. وتنسب إليه المخطوطات نقل مؤلفَين آخرين منسوبين إلى أرسطو. ويعدّ الجاحظ في كتاب الحيوان أبا قرة في جملة النقلة المجيدين.

إن أبا قرة لا يرضى بإيمان لا ينظر العقل في مسوغاته، بل العقائد الإيمانية ذاتها لا بد من أن تكون موضوع نظر العقل قبل أن تصير موضوع اعتقاده، فعلى المرء أن يدبّر إيمانه بالعقل. وهذا التعبير أثير لديه يكثر من ترداده.

هذا التشديد على الشأن العظيم للعقل في مجال الدين والإيمان يبرز مدى اندماج أبي قرة في بيئته. وكل من درس فكره لاحظ الصلات المتينة العرى بينه وبين المعتزلة، والواقع أن الصفة الغالبة على فكر أبي قرة هي الحوار والتوجّه إلى الآخر لإطلاعه أو لإقناعه. ومعظم آثاره تنطق بهذا حتى في صيغة عناوينها: محاورة، وجواب سؤال، ورد اعتراض، ومجادلة ورسالة... وتبرز هذه الصفة حتى في أسلوبه الإنشائي، فإنه يكثر من كاف المخاطب وأدوات النداء وأفعال الأمر، كما يكثر من الأمثال والتشابيه التي تضفي على حديثه طلاوة وتوضح مقاصده لغير المتفقهين، وبعضها بديع بليغ في حسن دلالته ووفائه بالغرض.

جورج شحاتة قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،د.ت، ص 263-264.

وقد قسم يوحنا الدمشقي رسالته إلى ثماني فقرات؛ ذكر في الأولى مقدمة عن دين الإسماعليين وهم السرازانيين Sarrasins، وزمن ظهور النبي محمد ودين الإسلام، وذكر في الثانية القرآن وموقفه من المسيح وولادته وألوهيته، وفي الفقرة الثالثة انتقد ادعاء القرآن أنه وحي من الله وادعاء محمد أنه رسول الله، معتمدا في ذلك على غياب الإشارة إلى نبوته في الكتب المقدسة السابقة، وفي الرابعة رد فكرة الشرك التي يتهم القرآن بها المسيحيين عند قولهم إن المسيح ابن الله، وفي الخامسة رد اتهام المسلمين للمسيحيين بالإشراك بالله، أما الفقرات السادسة والسابعة والثامنة فانتقد فيها بعض سور القرآن فانتقد في الفقرة السادسة سورة النساء التي تبيح الزواج بأربع نساء، وسورة الأحزاب التي تذكر زواج النبي بزينب مطلقة زيد، وفي الفقرة السابعة انتقد قصة ناقة النبي صالح المبعوث إلى قوم ثمود، وكانت سورة المائدة والبقرة موضوع نقده في الفقرة الثامنة التي اختتمها بذكر المحرمات في الإسلام.

أما الحوار الذي جاء في الرسالة الثانية بين مسلم ومسيحي، فقد دار في إحدى عشرة نقطةً: أولها عن حرية الإنسان، وعدالة الله والخير والشر، والخلق والولادة، والثانية عن التعميد والخلاص، والثالثة والرابعة عن الإرادة والتسامح، وفي الخامسة عن الله والمسيح، وفي السادسة عن كلمات الله واتصالاته، والمعنى الحقيقي والمجازي، وفي السابعة عن التجسد، وفي الثامنة عن اتحاد الأقانيم، وفي التاسعة عن موت العذراء، وفي العاشرة عن تتمة الخلق، وأخيرا عن مقارنة المسيح بيوحنا المعمدان. وقد حاول يوحنا الدمشقي في مجموع هذه القضايا بيان تفوق الجانب المسيحي على الجانب المسلم.

وإذا كان يوحنا الدمشقي فاز بعناية الخليفة الأموي، فلم يكن تيودور أبو قرة أقل حظا منه ونال من الحظوة العباسية ما نال معلمه من التشريف والتقدير، فلم تمنعه عقيدته من مناظرة المسلمين في حضرة خليفتهم. وإذا كان أبو قرة لم يواجه المسلمين في تأليف مستقل، فإنه تعرض إليهم في كتاباته الدفاعية عن العقيدة المسيحية، فمدونته اليونانية تضم أربعين مقالة، تنقسم إلى ثلاث مجموعات، مجموعة لاهوتية، ومجموعة دفاعية، ومجموعة جدلية، ويأتي تعرضه للمسلمين في المجموعة الدفاعية على شكل حوار بينه وبين عربي "سرازان" في موضوع ألوهية المسيح وبشريته، طبيعته اللاهوتية والناسوتية، علاقة الخبز القربان المقدس بجسد المسيح Eucharistie .

ولكن هجومه يتضح في المجموعة الثالثة الجدلية حيث كانت موضوع الجدل يدور حول خاتمية رسالة الإسلام، ونبوة محمد ﷺ، وهنا يصف أبو قرة النبي محمدا

بأنه نبي كاذب غير مبعوث من الله، بل عدو لله وبه مس من الشيطان، ويتعرض لقضية الإفك، ويعيب على الإسلام تعدد الزوجات وفي المقابل يمتدح المسيحية لتحريمها التعدد في الزيجات[1].

حرصنا على الإشارة إلى كتابات يوحنا الدمشقي وثيودور أبي قرة[2] لأنها كانت ـ بالإضافة إلى الكتابات الأخرى المشار إليها في الهامش ـ الأرضية التي بُنيت عليها انتقادات رجالات الكنيسة في القرون الوسطى، إذ لم يستطع هؤلاء ابتكار شيء غيرها وإنما اقتصروا بإعادتها شكلا وموضوعا، واكتفت بإعطائها بعدا فانتازيا مثيرا

(1) Adel-Théodore Khoury, Les Théologiens Byzantins et l'Islam: I. textes et auteurs (VIII^{e}-XIII^{e} S), p:

(2) ليس يوحنا الدمشقي وتيودور أبو قرة الوحيدين اللذين انتقدا الإسلام من بين الذين عاشوا في ظل الخلافة الإسلامية، بل هناك عدد مهم من المسيحيين الذين خطوا خطاه واتبعوا طريقه نذكر منهم على الخصوص يحيى بن عدي القرن التاسع، البطريرك طيموثاوس الأول، المعروف بطيموثاوس الجاثليق النسطوري المعروف أيضا بالكبير (780-833م). وعمار البصري، القرن التاسع الميلادي، و حبيب بن خدمة أبو رائطة التكريتي، الربع الأول من القرن التاسع وغيرهم، ولعل الحرية الفكرية التي تميز بها المسلمون كانت وراء نشوء مثل هذه الكتابات والمناظرات الإسلامية المسيحية،وكانت مصدرا مهما لمن جاء من بعد من النقاد المسيحيين البيزنطيين، للمزيد من المعلومات عن الكتابات المسيحية ضد الإسلام يمكن الرجوع إلى كتاب عادل تيودور الخوري.

Les Théologiens Byzantins et l'Islam: I. textes et auteurs (VIII^{e}-XIII^{e} S), II. Polémiques Byzantines contre l'Islam Adel-Théodore Khoury, Thése Principale pour le Doctorat és lettres présenté à la faculté des lettres et sciences humaines de l'université de lyon en 1966.

ولم تقتصر المناظرات الإسلامية على المسيحيين بل خلفت لنا كتب التاريخ مناظرات إسلامية مجوسية أيضا، وقد ذكر ابن النديم الوجود المهم لفئة المجوس في الدولة العباسية، فقد خصص المؤلف فصلا سماه :" أسماء وذكر رؤساء المنانية في دولة بني العباس"، الفِهْرِست لابن النديم، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له يوسف علي طويل وضبط فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1416هـ/1996م، ص 522. وذكر أيضا عقائدهم وأعيادهم ومذاهبهم وفرقهم وتاريخهم، في المقالة التاسعة، ص495-540.

ونظرا لوجودهم الكبير وتأثيرهم البليغ في المسلمين بل في المثقفين المسلمين ألّف القاضي عبد الجبار كتابه "تثبيت دلائل النبوة" للرد على أفكارهم ومعتقداتهم، يقول القاضي عبد الجبار واصفا نشاط المجوس الفكري المعادي للإسلام: "ومن الكتب التي وضعها الملحدة وطبقات الزنادقة كالحداد وأبي عيسى الوراق وابن الراوندي والحصري وآمالهم في الطعن في الربوبية وشتم الأنبياء صلوات الله عليهم وتكذيبهم فإنهم وضعوها في أيام بني العباس وفي وسط الإسلام وسلطانه وملوكه أكثر مما كانوا إذ ذاك وأشد ما كانوا ولهم القهر والغلبة والعز " تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار الهمداني، تحقيق وتقديم عبد الكريم عثمان الجزء الأول دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع لبنان د ت، ص 129. أما عن افتتان المسلمين بهم فيقول: "والمنانية تزعم أن الفلاسفة عنها أخذت هذه المذاهب وإنما ذكرت ذلك بهذا المكان لتعرف مقدار عقول الزنادقة والملحدة ولولا فتنة قوم من الرؤساء والكتاب والوزراء بهم ما ذكرناهم"، تثبيت دلائل النبوة، ص 80.

يسهل به قبولها لدى العامة ولدى المشاركين على الخصوص في الحرب المقدسة ضد المسلمين، فتثير مشاعرهم وتوقظ هممهم وتجعلهم يقاتلون دون هوادة ودون شك أنهم يقاتلون أعداء المسيح وربما يقاتلون المسيح الدجال.

2. انتقال التصورات "الدمشقية" إلى العصر الوسطوي واستثمار الكنيسة لها

وقد انتقلت هذه التصورات التي وضعها هؤلاء بالإضافة إلى ما كتبه المسيحيون العرب في كتاباتهم الجدلية مع المسلمين، خاصة ما جاء فيها بشأن نقد الإسلام ونبيه وشريعته، إلى المسيحيين البيزنطيين ثم من هؤلاء إلى أوروبا، مع اختلاف جوهري؛ ذلك أن المؤلفات المسيحية العربية كانت ذات طابع جدلي لاهوتي يسعى إلى دحض الدين الإسلامي وبيان "زيفه" اعتمادا على المنهج الجدلي "الاستدلالي". أما الصيغة البيزنطية فحكمتها النظرة الإيديولوجية التي تسعى إلى هدف واحد هو ترسيخ الصورة المشوهة عن الإسلام، لذلك كانت المعطيات التي تقدمها الصيغة الأولى عن الإسلام في غالبيتها معطيات صحيحة تؤول تأويلا بعيدا، في حين كانت معطيات الصيغة الثانية مشوهة مكذوبة، وهذه الصيغة البيزنطية هي التي انتقلت إلى الأوروبيين في القرون الوسطى، أما تلك المجادلات العربية المسيحية الإسلامية فلم تكن معروفة عندهم[1].

إن أول الصور التي سيطرت على المخيلة الغربية كانت على المستوى العقدي إذ الإسلام في هذه المخيلة دين وثني، ومحمد نبي كاذب. ونسجت حول هذا الادعاء خطابات تداخلت فيها المعلومات المنتزعة من سياقها وواقعها والافتراءات القاصدة إلى تشويه الإسلام وعرضه بشكل متناقض مع حقيقته، فالقول بوثنية الإسلام قول مخالف لأصله، إذ كانت الدعوة إلى توحيد الله وعبادته أول القضايا التي نادى بها القرآن، ودافع عنها ضد مشركي العرب، لكن رجال الفكر الكنسي نذروا أنفسهم لتضليل الأوربيين وإبعادهم عن حقيقة الإسلام، فسلكوا طرقا شتى كان أهمها العمل على إبعاد القرآن عن دائرة الوحي الإلهي من خلال إنجاز ترجمة له، فقد كلف بطرس المبجل رئيس دير مدينة كلوني (1094-1156م)Petrus Venerbilis von Cluny روبرت الكيتوني

(1) أليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد الجراد، مراجعة محمود حمدي زقزوق، سلسلة عالم المعرفة 512، نونبر 1996، ص 73-74.

Robert von Ketton ليضع ترجمة لاتينية لمعاني القرآن الكريم، لكن بدل استخدام هذه الترجمة لتكون أرضية للاتفاق والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين، استغلت للطعن في الإسلام على امتداد عدة قرون.

واستعانت الكنيسة بالأدب الشعبي في نشر هذه الصورة القاتمة عن الإسلام والمسلمين وعن نبيهم، وتعد أغنية رونالد الفرنسية من الأوهام المسيحية التي تتهم المسلمين بعبادة الأصنام حيث تذكر الأغنية أسماء الأصنام وتذكر من بينهم ماحوميت Mahumet باعتباره صنما عبدته العرب وهو ثالث ثلاثة آلهة هي أبوللين Apollin، وتيرفاجانت Tervagant، مع أن المسيحيين يعلمون أكثر من غيرهم أن النبي محمدا جاء ليقضي على جميع أشكال الشرك والوثنية، كيف لا وهو منتقد عقيدة التثليث في المسيحية، وبعد ترجمة الأغنية إلى الألمانية على يد القسيس كونراد Pfaffe Konrad حوالي 1170م تم تطويرها لتتحول من أغنية إلى رواية تحاكاها الصليبيون.

"في تلك الرواية، يدعو الكفرة (=المسلمون) آلهتهم؛ قائلين: "على هؤلاء الذين يريدون الخلاص أن يجتمعوا معا. ها هو تيرفاجانت Tervagant الرحيم، فلنعبده، وكذلك ماحوميت (محمد Mahmet) العزيز، وأبوللو Apollo المجيد. ولنعبد أيضا المخلصين الآخرين من الآلهة الخالدة". وعندما يسمع الإمبراطور كارل الأكبر Kaiser Karl der Grosse هذا الدعاء". تزداد ثقته في نجاح مهمته، حيث يقول: "انظروا إلى هذا الشعب الملعون! إنه شعب ملحد، لا علاقة له بالله. سوف يمحى اسمهم من فوق الأرض الزاخرة بالحياة، لأنهم يعبدون الأصنام. لا يمكن أن يكون لهم أي خلاص، لقد حكم عليهم. فلنبدأ إذن في تنفيذ الحكم: بسم الله" ثم تبدأ المذبحة". وما زالت النسخة المنقحة لهذه القصة (=أغنية رولاند) التي نشرها ستريكر Stricker، في كتاب بعنوان "كارل الأعظم " Karl der Grosse (كتب بين سنة 1215 وسنة 1233م) تحتوي على خرافة الصنم ما حوميت (= محمد Mahmet)[1].

وتقبع الكنيسة وراء كل هذه الصور المشوهة لعقيدة الإسلام، مستعملة كل الوسائل في حربها الصليبية ضد المسلمين، من أجل تحريض الفرسان الصليبيين على القتال بشجاعة لا تنقطع، فهاهو برنارد فون كليرفو Bernard von Clairvaux حوالي (1090-1153م) مسؤول الدعاية الحربية في الحروب الصليبية الثانية يكشف عن حقده على الإسلام ويمدح شدة فرسان المعبد التابعين له ومهارتهم العالية في معركتهم ضد

(1) هوبرت هيركومر Hubert Herkommer، دروس ومواعظ من القرون الوسطى، ص36.

الكفرة (المسلمين) قائلا: "لا يمشطون شعورهم أبدا، ونادرا ما يستحمون. بل إنهم يظهرون أفظاظا، لأنهم يهملون تصفيف شعورهم، يعتليهم الغبار، ويميل لونهم إلى السمرة، بتأثير من حرارة الشمس والسلاح. فإذا أنذرت الحرب، تسلحوا داخليا بالإيمان، وبالنار والحديد خارجيا. يسعون لإثارة الرعب، أكثر من الإعجاب، في قلوب الأعداء إذا حان وقت النزال، يدعون الهدوء المعتاد جانبا، وينقضون على أعدائهم، وكأنهم يقولون: " ألا ابغض مبغضيك يا رب وامقت مقاوميك" (المزامير139) وهم يعتبرون أعداءهم غنما"[1].

أما توماس الإكويني مُنظّر الكنيسة في القرون الوسطى وصاحب الخلاصة اللاهوتية، مع استفادته من الفكر الإسلامي عموما، والفكر الرشدي خصوصا، نجده كغيره من رجال الكنيسة يعتمد المعلومات المشوهة نفسها ولا يكلف نفسه بالرجوع إلى مصادر أوثق في حديثه عن الإسلام ورسوله، ويكتفي بما حدده بطرس المبجل في مؤلفاته الطاعنة في الإسلام.

واعتبر الإسلام من حيث عقيدتُه دينا وثنيا، وتعرض له عند رده على الوثنيين؛ ففي مقدمته العامة لمؤلَفه الموسوم "الخلاصة الشاملة في الرد على الوثنيين"، في الكتاب الأول الذي يحمل عنوانDe Deo Uno: [2]. يدعي أن "ماحوميت Mahumet

(1) نفسه ص33.

(2) Saint Thomas D'Aquin, La Somme contre les gentils, Livre Premier, 6: **ce n'est pas Légréte que de donner son assentiment aux choses de la foi, bien qu' elles dépassent la raison:** Encore que Dieu, méme de nos jours, ne cesse de confirmer notre foi par les miracles de ses saints. Les fondateurs de sectes ont procédé de maniére inverse. C'est le cas évidemment de Mahumet qui a séduit les peuples par des promesses de voluptés charnelles au désir desquelles pousse la concupiscence de la chair. Làchant la bride à la volupté, il a donné des commandements conformes ses promesses, auxquels les hommes charnels peuvent obéir facilement. En fait de vérités, il n'en a avancé que de faciles à saisir par n'importe quel esprit médiocrement ouvert. Par contre, il a entremélé les vérités de son enseignement de beaucoup de fables et de doctrines des plus fausses. Il n'a pas apporté de preuves surnaturelles, les seules témoigner comme il convient en faveur de l'inspiration divine, quand une œuvre visible qui ne peut étre que l'œuvre de Dieu prouve que le docteur de vérité est invisiblement inspiré. Il a prétendu au contraire qu'il était envoyé dans la puissance des armes, preuves qui ne font pouit défaut aux brigans et aux tyrans. D'ailleurs, ceux qui dés le début crurent en lui ne furent point des sages instruits des sciences divines et humaines, mais des hommes sauvages, habitants des déserts, complétement ignorants de toute science de Dieu, dont le grand nombre l'aida, par la violence des armes, à imposer sa loi à d'autres peuples. Aucune prophétie divine ne témoigne en sa faveur; bien au contraire il déforme les enseignements de l'Ancien et du Nouveau Testament par des récits légendaires, comme c'est évident pour quitudie sa loi. Aussi bien, par une mesure pleine d'astuces, il interdit à ses disciples de lire les livres de l'Ancien et du Nouveau Testament qui pourraient le convaincre de fausseté. C'est donc chose évidente que ceux qui ajoutent foi sa parole, croient à la légére. Pour les écrits de St Thomas D'Aquin, voir le site: http://docteurangelique.free.fr/

(=محمدا) قد أغوى الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية". وبالتالي لم يجد الشهوانيون من البشر أي صعوبة في اتباع تعاليمه، ويستطرد توماس الإكويني إن محمدا لم يرد ذكره في التوراة والأناجيل، ولا يمكنه أن يدعي أن الرسل الأسبقين قد تنبؤوا بظهوره وبعثته من بعدهم. واتهم توماس الإكويني رسول الإسلام بتحريف جميع الأدلة الواردة في التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه. ولم يؤمن برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم)، إلا المتوحشون من البشر homines bestiales الذين كانوا يعيشون في البادية"[1].

وحتى بداية العصر الحديث لم يتغير من ذلك شيء. فعندما قام السويسري البازلي يوحنا أوبورين Johann Oporin سنة 1542م بطبع هذا القرآن اللاتيني، سارعت بلدية مدينة بازل بحظر نشره. ولم تسحب حظرها، إلا بعد التدخل المكثف لمارتن لوثر Martin Luther مؤسس الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية. بيد أن حجة لوثر في ذلك، كما صاغها هو بنفسه، كانت كما يلي: "لقد استيقنت أنه لا يمكن عمل شيء أكثر إزعاجا لمحمد Mahmet أو الأتراك، ولا أشد ضررا (أشد من جميع أنواع السلاح)، من ترجمة قرآنهم ونشره بين المسيحيين. عندئذ سيتضح لهم أي كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن ـ مليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع"[2].

والغريب أن لوثر الزعيم البروتستانتي الذي عانى من الاضطهاد الكاثوليكي ومن مقاومته للفكر الإصلاحي وللحرية الدينية، بمجرد تمكنه من السلطة يسلك مسلك الاضطهاد والانتقام من الكاثوليك ثم يهين نبي الإسلام بلا أدنى حياء أو تأنيب ضمير، واصما إياه بأنه "خادم العاهرات، وصائد المومسات" . كان ينظر إلى قرآن مترجم إلى اللاتينية في عصر الحروب التركية، على أنه وسيلة مثالية لتسليح القلوب اليائسة للمسيحيين، ورفع روحهم المعنوية، حيث أعلن قائلا: "بعد ظهور الأتراك على حقيقتهم، أرى أن القساوسة عليهم أن يخطبوا الآن أمام الشعب عن فظائع محمد Mahmet حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضا ليقوي إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب، ويضحوا بأموالهم وأنفسهم". من شأن موعظة كهذه أن يكون أثرها النفسي على المسيحي أشد من طبول الحرب وأبواقها، بل إنها ستمنحه قلب أسد

(1) هوبرت هيركومر Hubert Herkommer، دروس ومواعظ من القرون الوسطى، ص39 .

(2) هوبرت هيركومر Hubert Herkommer، دروس ومواعظ من القرون الوسطى، من تاريخ العلاقة الشائكة بين المسلمين وأوروبا، ترجمه عن الألمانية وقدم له ثابت عيد، مجلة فكر ونقد العدد الخامس، 1998 ص34.

حقيقي في ساحة القتال"[1]. هذه هي الصورة العقدية للإسلام ونبيه التي كان مارتن لوتر يروج لها.

وتستمر الحرب الكنسية على الإسلام، لكن هذه المرة على المستوى السياسي وبخصوص طريقة انتشاره السريع، فتمكن المسلمين من الدخول إلى ثلاث قارات في مدة تقل عن قرن من الزمان، جعلت رجال الكنيسة يبحثون عن مبرر مقنع للمؤمنين المسيحيين بعدم صحة هذا الدين بالرغم من هذا الانتشار السريع، فكان المبرر المناسب لذلك هو ادعاء أن الإسلام لم ينتشر إلا لاعتماده على السيف، فالإسلام دين عنيف دموي شعاره السيف والحرب والقتال، واستغلت الكنيسة هذه الفرية ونشرت إلى جانبها صورة المسيحية السمحة القائمة على الحب والسلام، ومع ذلك لم تجد الكنيسة في نفسها حرجا وهي تعلن قيام الحروب الصليبية ضد المسلمين، مدعية أن هدفها من ذلك رد الاعتبار للدين الحق دين المسيحية، "وبتقديم الخصم في صور شيطانية تمكنت الكنيسة، وخصوصا المؤسسة البابوية، من تبرير الحروب حين تم إعلانها من طرف السلطات العمومية الشرعية وتبنتها للدفاع عن المؤسسات "الإلهية" المهددة والنتيجة أن "الحروب العادلة" الحقيقية، ثم "الحروب المقدسة" كانت البابوية هي التي دعت إليها لضمان حمايتها الخاصة للمسيحية والتي توسعت شيئا فشيئا. هذا هو أصل سلام الرب والحركة الصليبية"[2].

أما على المستوى الأخلاقي فقد توجهت الكنيسة بالنقد لشخص النبي صلى الله عليه وسلم معتبرة إياه رجلا شهوانيا، وتضافرت جهود رجالها من أجل إثبات هذا الادعاء وحياكة سيرة جديدة للنبي الكريم معتمدين اختلاق الأكاذيب والافتراءات عليه، مستغلين بعض النصوص الواردة في القرآن أو في السيرة النبوية وعملوا على تفسيرها تفسيرا بعيدا عن سياقها متبعين في ذلك الهوى، مستفيدين من كتابات يوحنا الدمشقي الذي أشرنا إلى نقده لبعض الآيات الواردة في بعض السور القرآنية كسورة النساء وسورة الأحزاب، كل هذا لبيان أن النبي محمدا رجل انغمس في عالم الملذات والاستمتاع بالنساء، وبالمقابل ركز رجال الكنيسة على سيرة المسيح ودعوته إلى

---

(1) المصدر نفسه، ص 34.

(2) Jean Flori, Radiographie d'un stéréotype: la caricature de l'Islam dans l'Occident chrétien : sens et contresens, in Maroc-Europe, n° 3, 1992, p.98.

نقلا عن نور الدين أفاية، الإسلام في متخيلة الغرب: في مكونات الصور النمطية الغربية عن الإسلام، مجلة فكر ونقد العدد الخامس 1998، ص 59.

الزهد والبتولية، وهي مقارنة حرص الكنسيون على إظهارها في كل اعتراضاتهم؛ فالإسلام دين وثني وفي أحسن الحالات هرطقة خارجة على الدين المسيحي الحق دين التوحيد، وهو دين العنف والحرب والقتال في حين تتميز المسيحية بالدعوة إلى الحب والسلام، ومحمد رجل شهواني يدعو إلى إشباع الغريزة الجنسية على كل المستويات، أما المسيح فرجل ورع أعزب يدعو إلى الترفع عن الممارسات الجنسية والحفاظ على البتولية.

إن هذه الصور الثلاث التي رسمها رجالات الكنيسة عن الإسلام عقيدة وسياسة وأخلاقا ما كان لها أن تتبدل ولو اطلع هؤلاء على حقيقة الإسلام وهو ما عبر عنه "جون فلوري" صراحة في قوله: "إنه حتى ولو اطلعوا، بالفعل، على السلوك الحقيقي للنبي، لأصدروا في حقه نفس الأحكام ولانتقصوا من صورته وحياته ورسالته، لأن المسألة تدخل في الأول والأخير ضمن صراع شامل كان يتعلق بالوجود المسيحي نفسه في حوض البحر المتوسط وجنوب أوروبا. فالصور النمطية الانتقاصية، والقدحية التي اتخذت من الإسلام موضوعا لها، حرّكتها الرغبة العارمة في خلق "رأي عام" مسيحي ينفر من الإسلام ويشمئز من المسلمين، وهي صور "دعائية سلبية استخفافية تتغيى جمع المسيحيين حول القيم الذي تظهر لهم مشتركة. وللرفع من شأن هذه القيم وتبرير الكفاح من أجلها ركزت هذه الصور على القيم المضادة الموازية التي مثلها الإسلام"[1].

3. الفكر الكنسي المعاصر ورواسب المعرفة الوسطوية، خطاب البابا نموذجا

كانت تلكم الصورة القاتمة التي أبدعها الفكر الكنسي في العصور الوسطى عن الإسلام وكتابه ونبيه وعقيدته، وقد يقول قائل إنها صورة لم يعد لها في ذهن الغربي أي حضور، خصوصا بعد انعتاق هذا الأخير من سيطرة الكنيسة وقبضتها، ولكن الواقع يكذب ذلك تكذيبا؛ فمحاضرة البابا بندكت السادس عشر بتاريخ 12 شتنبر 2006 في جامعة رغنسبورغ الألمانية تحت عنوان "الإيمان والعقل والجامعة"، والتي حاول فيها صاحبها التطرق إلى علاقة كل من الإسلام والمسيحية والعنف، بناها البابا على أساس من نص قديم، اعتبره نصا صحيحا مسَّلما به وغير قابل للنقاش أو الطعن، محاولا من خلاله تكوين معرفة "حقيقية" و"موضوعية" عن الإسلام، وبيان موقفه من مشكلة الإرهاب والعنف ومقارنة هذا الموقف بموقف المسيحية.

(1) المصدرنفسه، ص61.

لكن ما هو النص الذي اتخذه البابا ـ وهو الباحث الجامعي والأكاديمي وأستاذ اللاهوت بجامعة بون عام 1959ـ ليكون منطلقا لمحاضرته في العقل والإيمان؟ إنه نص مقتبس من الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني باليولوغوس، ذكره في معرض مجادلته لعالم فارسي مسلم مفترض، مؤداه أن الله ذو طبيعة عاقلة، ولذلك فإن الإيمان بالنسبة له يرتبط بالعقل، وهو يقصد بذلك الإرادة الحرة العاقلة. والبابا لم يرجع إلى هذا النص بنفسه، بل اكتفى بنقله من اللاهوتي الكاثوليكي المعروف، ذي الأصل اللبناني، عادل تيودور خوري والذي نشر جدالات مانويل الثاني أو محاورته مع المسلمين، كما أنه خصص أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه في رصد وجمع الردود المسيحية البيزنطية على الإسلام من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر[1].

ولانريد مناقشة فكر وأعمال عادل الخوري الذي يعتبره البابا خبيرا ومتخصصا في هذا النوع من الآداب، ولكن القارئ لأطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه سيلمس بكل وضوح موقفه من الإسلام والمسلمين، مع ما ادعاه في أول صفحة من جزئيها الأول والثاني من كونه يورد أقوال المنتقدين البيزنطيين ضد الإسلام من باب الأمانة العلمية دون تبنٍّ لها[2]، ويكفي أن نشير إلى أن عادل الخوري مسيحي عربي، ومع ذلك لا يسمي النبي صلى الله عليه وسلم محمدا وإنما "محميت" وقد أشرنا أعلاه إلى الدلالة القدحية التي تدل عليها هذه التسمية، بالإضافة إلى اعتماد البابا على تعليقه على نص الحوار دون نقد أو تمحيص.

ومع أنه يجب التمييز ـ ونحن بصدد محاضرة أكاديمية جامعية ـ بين النصوص الأصلية المؤسسة والأفهام البشرية لهذه النصوص، وأن البحث العلمي الرصين يقتضي الرجوع إلى الأصول لا إلى الأفهام البشرية لها، فاعتماد البابا على نص بيزنطي يؤكد ما ذكرناه من اعتماد الكنيسة في القرون الوسطى على ما نقله الفكر البيزنطي بشأن الإسلام، فمرور الزمان لم يغير من منهج الكنيسة في استقاء معلوماتها كلما تعلق الأمر بالمسلمين، خصوصا إذا علمنا أن ظرفية كتابة هذا النص تدعونا إلى الاحتراز في اعتماده، فالنص كتب إبان محاصرة القسطنطينية عاصمة الإمبراطور من طرف

---

(1) Adel-Théodore Khoury, Les Théologiens Byzantins et l'Islam: I. textes et auteurs (VIII^{e}-XIII^{e} S), II. Polémiques Byzantines contre l'Islam, Thése Principale pour le Doctorat és Lettres présent à la faculté des lettres et sciences humaines de l'université de Lyon en 1966.

(2) Ibid, Tome I, p.9, et Tome II p.7.

الأتراك بين سنتي 1393م و1402م، ولا شك أن هذه الظروف غير مناسبة لانعقاد المحاورات العلمية الموضوعية، بل لا بد أن تكون مثل هذه الكتابات من قبيل الكتابات التحريضية ضد العدو والتي تخضع للإيديولوجية الحربية وهي أبعد ما تكون عن الموضوعية العلمية.

بل أكثر من ذلك فالنص كما أشار إلى ذلك الدكتور عبد المجيد الصغيّر "مشكوك حتى في أصله الذي هو حادثة المناظرة التي أجراها الإمبراطور المعلوم مع مسلم فارسي مجهول؛ ففضلا عن كون هذا الفارسي المسلم يظل خلافا للإمبراطور، مجهول الهوية كما هو مجهول المستوى الفكري، الذي يتمتع به، إلا أن الشك يزداد في صدق هذا المصدر حينما يعترف البابا قائلا، دون أن ينتبه إلى ذلك، أن "مناظرة الإمبراطور كانت أكثر توسعا من محاوره الفارسي"، بل إنه ليعترف أيضا أنه "من المحتمل أن الإمبراطور نفسه هو من رتب هذا الحوار خلال حصار القسطنطينية بين عامي 1394 و1402" أليس في هذا ما يجعلنا نشك في أن المناظرة المذكورة مخترعة "اختراعا"، علاوة على أنها إذا كانت تندرج ضمن أدب الحوار والمناظرة العلمية فللمناظر الآخر حق الاعتراض على خصمه، فأين هي ردود واعتراضات الفارسي المسلم المزعوم؟"[1].

ومما يؤكد نقل الفكر الكنسي المعاصر واقتياته على الفكر الوسطوي موضوع المحاضرة التي ألقاها البابا والذي دار حول فكرة لاعقلانية الدين الإسلامي ومعقولية المسيحية، هذه الفكرة بنى عليها البابا تفاسيره لمفاهيم إسلامية خصوصا مفهوم الألوهية معتبرا لاعقلانية هذا الأخير هي التي صوغت للعنف في الإسلام، واعتمد لتبرير تفسيره نصا للإمام ابن حزم الذي يجعل في نظره إله الإسلام إلها عنيفا متعسفا، وهو اتهام قديم كما رأينا آنفا، فالصور الأساسية التي رسمتها الكنيسة في العصور الوسطى للإسلام اهتمت بثلاثة جوانب؛ اعتبار الإسلام دينا وثنيا، اعتبار الإسلام دينا عنيفا انتشر بالنار والسيف، اعتبار نبي الإسلام رجلا شهوانيا مزواجا، وقد اختار البابا في محاضرته هاته التركيز على الصورة الثانية وهي اعتبار دين الإسلام دين عنف.

لقد أحسن أليكسي جورافسكي إذ يقول نقلا عن كتاب مونتغمري واط "تأثير الإسلام على أوروبا في القرون الوسطى (ص 99-103)" : "وبشكل عام، فقد تكونت في

(1) عبد المجيد الصغيّر، قناعات معرفية أم أهداف استراتيجية؟ مراجعة نقدية لمحاضرة بابا الفاتيكان حول الإسلام، تقديم طه عبد الرحمن، الرباط دار أبي رقراق، الطبعة الأولى 2008.

وعي الأوروبيين في القرون الوسطى ملامح المرحلة التالية عن الإسلام: إنه عقيدة ابتدعها محمد، وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، إنها دين الجبر، والانحلال الأخلاقي، والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية، إنها ديانة العنف والقسوة"[1]، ويعلق أليكسي جورافسكي على هذا القول قائلا: "وانسجاما مع هذا الموقف المعادي، فقد رسم الإسلام على هيئة نموذج قبيح سيء، يتعارض ويتناقض كلية مع النموذج المثالي للمسيحية بوصفها ديانة الحقيقة، التي تتميز بالأخلاق الصارمة وروح السلام، وبأنها عقيدة تنتشر بالإقناع وليس بقوة السلاح"[2] . أليس ما ذكره أليكسي جورافسكي وهو يصف صورة الإسلام في الفكر الوسطوي هو عين ما يردده البابا الببغاء؟ أليست تهمة العنف هي نفسها التي يدندن حولها الكنسيون منذ ظهور الإسلام منذ يوحنا الدمشقي وتوماس الإكويني ومارتن لوثر وغيرهم؟.

إننا لا نريد مناقشة ادعاء البابا من كون الإسلام ديناً لاعقلانياً بخلاف المسيحية المبنية على الفكر اليوناني المنطقي، فقد أفاض في ذلك كل من الدكتورين الجليلين المختصين رضوان السيد وعبد المجيد الصغيّر في ردهما على محاضرة البابا[3]، ويكفي أن ننقل هنا قولا للجاحظ: "ولو جهدت كل جهدك، وجمعت كل عقلك لتفهم قولهم في المسيح، لما قدرت عليه حتى تعرف به حد النصرانية وخاصة قولهم في الإلهية. وكيف تقدر على ذلك وأنت لو خلوت ونصراني نسطوري فسألته عن قولهم في المسيح لقال قولا، ثم إن خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطوري مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف أخيه وصنوه. وكذا جميع الملكانية واليعقوبية، ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية، كما نعرف جميع الأديان"[4].

---

(1) أليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، ص 75.

(2) نفسه، ص75.

(3) رضوان السيد، البابا والتاريخ والعوالم الجديدة، والإسلام، على موقع إسلام أولاين :

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&pagename=Zone-Arabic-Shariah/SRALayout&cid= 1173694851970"

ـ عبد المجيد الصغيّر، قناعات معرفية، مرجع سابق

يمكن الرجوع أيضا إلى كتابنا "تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقديس، دراسة في التاريخ النقدي للكتاب المقدس في الغرب المسيحي"، تقديم عبد المجيد الصغيّر، دار صفحات دمشق الطبعة الأولى 2009. خصوصا الفصل الثاني من الباب الأول عند حديثنا عن كيفية تقنين الكتب المقدسة في مجمع "ترنت"، وخضوعها للتصويت والاقتراع بعيدا عن كل المعايير العقلية والمنطقية. ص107 وما يليها.

(4) الجاحظ عثمان أبو عمرو، رسائل الجاحظ، الجزء الثالث، القسم الأول من الفصول المختارة من كتب الجاحظ، اختيار الإمام عبيد الله بن حسان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، من كتابه في الرد على النصارى، بيروت دار الجيل، الطبعة الأولى 1411هـ/1991م ص324.

إن المعرفة التي أنشأها مسيحيو العصر الأموي والعباسي عن الإسلام خاصة ما كتبه يوحنا الدمشقي وما سطره تيودور أبو قرة ويحيى بن عدي وغيرهم، والتي كانت تستهدف بالأساس تشويه الدين الإسلامي والنيل من نبيه وأتباعه كانت الرافد الأساسي والمنهل الذي نهل منه آباء الكنيسة في العصور الوسطى في حربهم الصليبية العشواء ضد المسلمين، وهي التي تحكم إلى الآن كثيرا من عقول المفكرين الغربيين الأكاديميين وغير الأكاديميين، ولقد عملت الكنيسة قديما على نشر هذه المعرفة المغلوطة عن الإسلام بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، واستعانت بالفكر والثقافة الشعبيين لترسيخ هذه الصورة في أذهان أتباعها من العوام والسذج.

ولا تزال الكنيسة مستمرة في عملها هذا، إذ نجد رأس الكنيسة وسنامها قداسة البابا بنديكت السادس عشر وهو الرجل الجامعي الأكاديمي لا يكلف نفسه عناء البحث والرجوع إلى الأصول والمصادر الأساسية في محاضرته حول الإسلام والمسلمين مع أن أبجديات البحث العلمي تقتضي ذلك، ولكنه يكتفي بما نقل عنهما بوساطة غير أمينة، ويعتمد شهادة مجروحة في حقهما، ليعطي محاضرته ويحرر صك اتهام جديد ضد الإسلام والمسلمين، ناعتا إياهم بالتعصب واللاعقلانية والعنف والإرهاب، وحري به وهو يحاضر في محفل جامعي ويخاطب جامعيين وأكاديميين أن يرجع إلى الأصول الإسلامية الصحيحة ويتفحصها قبل أن يصدر حكمه المسبق عنهما. لم يكن هدف البابا البحث الموضوعي الذي يتغيى الحقيقة بقدر ما كان بحثه يهدف إلى جمع مزيد من أدلة الإدانة لإثبات الحكم السابق في علمه، الراسخ في ذهنه المتغذي لعقود طويلة بغذاء الحقد والضغينة الذي كانت الكنيسة تطعمه إياه وهو يترقى في أسلاك الكهنوت الكنسي.

4. خطورة الخطاب وتكريس الصورة السلبية

إن مثل هذه المحاضرات الصادرة من مثل هؤلاء في محفل جامعي عام تعد بالنسبة للكثيرين من الحاضرين والمتلقين لها مصدرا للمعرفة الحقة التي لا يعتريها الشك، فهي صادرة عن شخصية مقدسة معصومة من الخطإ والزلل، فتكون بذلك تكريسا لنفس المعرفة الوسطوية وسيرا على خطى الصليبيين. وما دام المتلقي الغربي أصابه الوهن والكسل ولم يعد بقدرته الرجوع إلى الكتب الأصلية والاستقاء منها ويكتفي بالركون إلى ما تقدمه إليه وسائل الإعلام ومثل هذه المحاضرات وهو ممدود على أريكته يتناول وجبة سريعة من معرفة عن الإسلام والمسلمين، ما دام الأمر كذلك فلا شك أن الأمل في بناء معرفة جديدة وصحيحة عن الإسلام يبقى أملا بعيد المنال.

إنه لمن الغرابة بمكان أن يقطع الفكر الغربي صلته بمعرفة القرون الوسطى بشكل قطعي، الكوني منها والطبيعي والعلمي والإنساني بعدما تبين له أنها معرفة خاطئة خصوصا بعد الثورة العلمية مع كوبرنيك وجاليلو وبرونو وغيرهم، وبدأ يعمل على تأسيس معرفة علمية جديدة تقوم على المنهج التجريبي العلمي، وأشد غرابة من ذلك كله أن الكنيسة نفسها ابتعدت عن هذه المجالات المعرفية وتركتها لأهلها من ذوي الاختصاص واهتمت بالمعرفة اللاهوتية، مع هذا كله نجد الفكر الغربي وكذا الكنيسة عندما تعلق الأمر بالمعرفة حول الإسلام لا يزالان لحد اليوم يتمسكان بما خلفه الآباء الوسطويون عن الإسلام، ولم يسْعَ أي منهما إلى إنشاء معرفة جديدة عنه أساسها الدقة في البحث والرجوع إلى الأصول في مظانها ولغاتها الأصلية.

إن هذا الإصرار الكنسي على تكريس نفس الصورة الظالمة المظلمة عن الإسلام، وإهمال الفكر الغربي لهذه المسألة يجعلنا نشك في نوايا الكنيسة بالخصوص تجاه المسلمين ويدعونا إلى مزيد من الاحتياط من دعوى الحوار خصوصا التي يدعو إليها رجال الكنيسة، لأن حقيقة الحوار تستدعي وتقتضي معرفة الآخر معرفة حقيقية تقوم أساسا على مطالعة ودراسة أصوله الدينية والفكرية، من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، كما أن الحوار الحقيقي يقتضي المراجعة النقدية للمواقف المتخذة من كل جانب من الجانب الآخر وتقييمها وتقويمها والتخلي عن كل موقف غير علمي منها.

ولا أظنني أستطيع القول إن الكنيسة ستستجيب لمثل هذه الدعوة وتقوم بمراجعة نقدية لمواقفها من الإسلام خصوصا بعدما أصبحت مؤسسة سياسية تحكمها الإيديولوجية الغربية العلمانية، وتوظفها لتبرير مواقفها السياسية، فالمتتبع للأحداث السياسية في العالم يلحظ بكل جلاء أن المحاضرة التي ألقاها البابا ضد الإسلام ولا أقول حول الإسلام جاءت لتبرير مواقف السياسة الأمريكية من المسلمين في حربها ضد الإرهاب، وتعطيها المشروعية وتُحلّ لها كل ما ترتكبه في حق المسلمين في العراق وأفغانستان وغيرها من دول العالم الإسلامي. إن توظيف الدول العلمانية على الخصوص للمفاهيم والمؤسسات الدينية توظيفا سياسيا أضحى أكبر خطر وأشد من توظيف المتدينين لها، فالهلوكوست ونبوءات ستراداموس ومجيء المسيح المنتظر كلها مفاهيم دينية وظفتها الاتجاهات العلمانية لتصفية حسابات وتحقيق أهداف سياسية واقتصادية في مناطق مختلفة من العالم.

يجب الاعتراف أن المسؤولية من أجل تحسين صورة الإسلام في الفكر والوعي الغربيين مسؤولية جسيمة وهي اليوم ملقاة بالدرجة الأولى على عاتق المسلمين أكثر

من أي وقت مضى، فالمسلمون أفرادا وجماعات مسؤولون عن الصورة الموجودة في مخيلة الغربيين، إذ لا أمل لهم في أن تُحسن المؤسسة الكنسية أو السياسية هذه الصورة عنهم مادام تحسينها لا يخدم مصلحتهما معا. وعليه يلزمهم القيام بذلك بأنفسهم من خلال الانفتاح على المفكرين الغربيين مباشرة، فالفكر الغربي يتميز بخاصية لا يمكن جحودها وتتمثل في قبوله للنقد والمراجعة العلمية للمواقف التي يتخذها في كل المجالات المعرفية، ولا يمكن الانفتاح على المفكر الغربي إلا عن طريق عقد الندوات الدولية التي تعقدها المؤسسات العلمية المستقلة غير السياسية والحكومية المنبثقة عن المجتمع المدني والتي تعنى بقضايا الإسلام والمسلمين والجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا والمشاركة فيها، فالجاليات الإسلامية يمكنها أن تساهم بشكل كبير وفعال في تصحيح الصورة عن الإسلام وتصحيحها.

ولا نعدم الباحثين الغربيين من ذوي الاستقلال الفكري عن الكنيسة والجهات السياسية الذين باستطاعتهم المساهمة في تصحيح صورة الإسلام والعمل على إنشاء معرفة جديدة ونشرها في بلاد الغرب، وأخص من بين هؤلاء الباحث السوسيولوجي الفرنسي[1] Vincent GEISSER المهتم بقضايا الإسلاموفوبيا في بلده فرنسا والذي يسعى في أعماله المكتوبة وفي محاضراته بيان الخلفية الإيديولوجية لهذه الظاهرة، وكشف الأيادي الخفية التي لها مصالح في استمرارية هذه الصورة عن الإسلام والمسلمين.

ختاما، إذا كنا نحمد للغربيين قبولهم واستعدادهم لمراجعة مواقفهم منا، فيجب على المسلمين أيضا أن تكون لهم عقول نقدية وأن يعملوا على مراجعة بعض المواقف التي اتخذوها في ظروف معينة من الغرب بعد الحروب الصليبية وقبلها، وأيام الحملة الاستعمارية الغربية على العالم الإسلامي، فمفاهيم دار الحرب ودار السلم، والكفر والإلحاد، باتت تحتاج إلى مراجعة نقدية وتاريخية للإحاطة بالظروف التاريخية التي ولدت مثل هذه المفاهيم، والنقد أيضا مطلوب بالنسبة لبعض الروايات التي يتخذها البعض مدخلا لتشويه الإسلام والنيل من نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأشير هنا إلى أسطورة الغرانيق التي كانت أساسا قامت عليه رواية آيات شيطانية التي وضعها سلمان رشدي.

---

(1) Vincent Geisser, La nouvelle islamophobie, la Découverte, Paris, 2003.

الأساطير المؤسسة لإيديولوجية الإسلاموفوبيا وأثرها في تشويه صورة الإسلام بالغرب

الأستاذ عزيز البطيوي (*)

تقديم :

تستدعي التحولات المتسارعة في الغرب والشرق ضرورة تطوير مناهج النظر والتحليل للخروج بخلاصات واستنتاجات علمية بعيدا عن ردود الأفعال والتفسيرات اللاعقلانية أو المجانية المغالية في تعميق صورة نمطية مشوشة عن الغرب والشرق معا، والتي في الغالب يتولى كبرها الخطاب الإعلامي المتحيز والحوارات والتصريحات السياسية المغرضة ونخب ثقافية إما مأجورة أو مشوش على جهاز استقبالها العقلي.

إن حالة الإسلاموفوبيا كصناعة غربية للعداء للإسلام، والحشد الإعلامي والسياسي لتخويف جماهير الغرب منه ليست وليدة اللحظة على كل حال، إنها حالة تاريخية ترتبط بالتكوين الحضاري والتاريخي لكل من تاريخ الغرب وتاريخ الإسلام، وهوما يرخي بظلاله على الواقع المعاصر فيما يخص العلاقة بين الغرب والإسلام.

نرى بأن الموجه الإرشادي الذي ينبغي أن يحكم كل نقاش حول هذا الموضوع الشائك والمعقد يستوجب أن يتخذ أبعادا منهجية ومعرفية وبيانية وقيمية تحمي كل حوار أو نقاش حول الموضوع من الانزلاقات المأساوية التي غالبا ما تنقلها لنا وسائل الإعلام من هنا وهناك، ومن بين ماينبغي التنبيه عليه :

- ضرورة الحذر من كل معالجة إعلامية ضيقة أو تحليلات سياسية متسرعة وجاهزة.
- تحييد البعد الإيديولوجي في شكله الصارخ والمتحيز الذي يلغي كل نظرة موضوعية تاريخية وواقعية.

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير ـ المغرب.

- ضرورة اعتماد منظور سوسيو معرفي تاريخي تكاملي استشرافي قادر على استحضار التشابك والتعقيد في العلاقة بين الغرب والإسلام.
- توظيف مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية واعتماد منهج النقد الأنتروبولوجي والتحليل التاريخي البنيوي للعلاقة بين الإسلام والغرب.
- تجاوز التصورات النمطية السطحية والتسطيحية التي تنظر إلى الغرب على أنه واحد أو أن خطابه العدائي - وهو الغالب - مجرد مقولات معرفية ونظرية مجردة، بل إن عقدة الخوف من الإسلام لدى الغرب وأهله وأثرها في تشويه صورة الإسلام هي نتاج لصيرورة تاريخية من العطب في علاقة الغرب بالإسلام.

تعريف الإسلاموفوبيا :

ما المقصود إذن بالإسلاموفوبيا كمفهوم؟ وما هي مختلف السياقات التي أدت إلى إنتاجه؟ وما هي المسارات التي يختطها هذا المفهوم لنفسه في مختلف الدراسات التي اهتمت بمقاربته وتحليله؟ من هذا المنطلق سنعمل على مقاربة المفهوم مسترشدين بالكم الهائل من المحاولات التي سارت في نفس الاتجاه ما بين محاولة تعريفه وتحليل مختلف الاتجاهات المتدخلة في إنتاج سياقاته. إضافة إلى محاولة تقديم صورة عن بعض المظاهر والتجليات التي تدلل على وجود الظاهرة وذيوعها وتطورها.

أما أكثر التعاريف شيوعا وتبنيا من قبل الباحثين فيعود للمركز من أجل تكافؤ الفرص ومواجهة العنصرية والذي جاء فيه : الإسلاموفوبيا كراهية ورفض لإسلام مختزل في كيان شرير، بينما الإسلام هو متعدد على المستوى الاجتماعي، الجغرافي، التاريخي والثقافي. هذه الكراهية تتغذى على أحكام مسبقة وخلفيات تاريخية وقوالب جاهزة سلبية تمارس غالبا خلطا بين مفاهيم متعددة : إسلام، عرب، مسلم، إسلاموي، إرهابي، أصولي. من جهة وبين ثقافة ودين من جهة أخرى،بين الخطاب والتصور، والتطبيق والممارسة.

الإسلاموفوبيا، حالة رهاب مرتبطة بإرهاب، من أجل تثبيت بعض الأحكام المسبقة تجاه الإسلام، ويحاول تحويلها من مجرد حالة نفسية، إلى موقف فكري وإيديولوجي دائم تجاه هذا الدين، من خلال تثبيت صورة ذهنية نمطية مضللة عن الإسلام تقرنه بالعنف والإرهاب وكونه ديناً ضد الحداثة، وأن العقل الإسلامي عاجز بنيويا عن هضم الفلسفات الغربية منذ أرسطو إلى اليوم، مع نفي وإلغاء الوسيط العربي

الإسلامي في تواصل أوروبا مع تاريخها، والهدف هو إبقاء أوروبا مسيحية،والوقوف دون ذلك المد والانتشار للإسلام في أوروبا.

يأتي ذلك كله في سياق حرب ثقافية ممتدة ضد العرب والمسلمين تبدأ من الكتب الدراسية وتستمر عبر السينما والمسرح والكاريكاتور وكتب الصحافيين...، مما أورث خوفاً من الإسلام لدى المجتمعات الأوروبية، حتى إن هيئة بريطانية أُحدثت لرصد الإسلام في الإعلام ودراسة ظاهرة الإسلاموفوبيا وتعني "الرهاب الإسلامي" أو الخوف من الإسلام البريطاني، الإسلاموفوبيا بهذا المعنى إذن حالة ذهنية نفسية تسيطر عليها أوهام ومبالغات ومغالطات حول الآخر تدفع بصاحبها إلى تبني موقف الخوف وحمايته بموقف العداء لتنتهي إلى خيار الرفض. وتتغذى هذه الحالة وتطور نفسها من خلال نمط التفكير السائد وطبيعة البناء الاجتماعي والسياق التاريخي للمجتمع وبنيته الثقافية والسياسية.

إننا أمام نازلة من نوازل العصر الكبرى بلغة الفقهاء، وأمام ظاهرة سوسيو تاريخية معقدة بلغة علماء الاجتماع، وأمام ظاهرة فكرية ومعرفية بلغة أهل الفكر والثقافة، يتداخل فيها ماهو أخلاقي ديني مع ماهو تاريخي اجتماعي، وماهو معرفي فكري مع ماهو سلوكي عملي، وماهو سياسي خصوصي مع ماهو حضاري كوني، والحيطة والحذر ضروريان حتى لاننظر بعين واحدة أو نصدر حكما بدون مداولة.

في الكلام عن ثنائية : غرب/ إسلام :

تتطلب بعد ذلك مقتضيات المنهج العلمي النظر في هذه الثنائية التي تتجاور فيما بين طرفيها : إسلام/غرب وما تثيره من إحراج نظري وفلسفي، إذ نحن أمام ثنائية قلقة تضعنا أمام وضعية الإسلام باعتباره دينا ونسقا من المبادئ ونظاما من القيم، والغرب من حيث بعده الجغرافي وحدوده المعروفة، لكنها جغرافية ثقافية وفضاء معرفي عرف تاريخه علاقة متوترة مع الدين والأخلاق، فهل نحن أمام تكافؤ وتضايف فيما بين المفهومين أم أمام مفارقة واختلاف وافتراق؟

"عدم التناسق الظاهر على الأقل بين نفس ألفاظ أوربا و"الإسلام". فأحدهما يشير بالفعل إلى قارة والآخر إلى ديانة. ولكن ها نحن أمام أول مفتاح للمفاهيم للخروج من معضلتنا، حيث يعلق برنار لويس قائلا في هذا الشأن : "إن عدم التناسق ظاهري أكثر منه حقيقي. وأوربا هي مفهوم أوربي، مثل كل النظام الجغرافي للقارات، وأولها أوربا. لقد حملت أوربا وأنجبت، واكتشفت أمريكا وأعطتها اسمها وصنعتها إلى

حد ما. وقبل ذلك بقرون كانت أوربا قد اخترعت آسيا أو إفريقيا، اللتين كان مواطنوهما، حتى القرن التاسع عشر- حقبة التفوق العالمي الأوربي - غير واعين تماما بالأسماء والهويات وحتى بهذه التصنيفات التي اخترعها الأوربيون لاستخدامها واستهلاكها.

والإسلام ليس مكانا؛ إنه ديانة. ولكن كلمة الدين بالنسبة للمسلمين ليست لها نفس الملامح بالنسبة للمسيحيين أو التي كانت عند المسيحيين في العصور الوسطى. إن الإسلام بالنسبة للمسلمين ليس فقط نظام إيمان وعبادة؛ إنه يشير بالأحرى إلى مجموع الحياة وتتضمن قواعده عناصر من القانون المدني والقانون الجنائي وحتى من القانون الذي يمكن أن نسميه بالقانون الدستوري"[1].

إننا أمام مفاهيم ذات طبيعة تاريخية وحضارية بأبعاد معرفية انبنت عليها علاقات معقدة ومتداخلة فهل نحن أمام تقابل أم تضايف؟ هل الغرب يقابله الشرق، والمسيحية تقابل الإسلام؟ وهل هاتان الثنائيتان لاتتناقضان وإنما التناقض هو بين الغرب من جهة والإسلام من جهة ثانية؟

يبدو أننا أمام مفهومين غير متكافئين دلاليا ومنهجيا " فالغرب فضاء معرفي جغرافي، والإسلام دين متكامل، والغرب حدود تتمطط وتتقلص بحسب الرؤية الإيديولوجية له، والإسلام نسق من المبادئ يتجاوز الزمان والمكان. والغرب اتجاه، بينما الإسلام يتعالى على تلك التحديدات؛ لأن تلك الأبعاد الجغرافية تضيق عن احتواء مضامينه" [2] لكن معطيات الواقع تثبت أن الغرب يقدم نفسه كمفهوم حضاري، فهو منظومة ثقافية ودينية وليس مجرد منطقة جغرافية، أي إن مفهوم الغرب يحمل نفس الأبعاد التي يحملها مفهوم الإسلام على اختلاف في السياق التاريخي والبناء المعرفي والتشكلات الاجتماعية والسياسية، والمقصود أن الغرب حضارة والإسلام حضارة وهذا يعني أن بين المفهومين تناظرا وتضايفا. لكن الإسلام عبّر عن ذاته من خلال مضمونه الحضاري والغرب عبّر عن ذاته من خلال جغرافيته وماديته المتمثلة في الحيز المكاني. الإسلام من حيث وقع الكلمة ودلالتها هو دين لا يقبل التشخصن، أي ترفض نصوصه المؤسسة أي نوع من أنواع شخصنة التاريخ والحضارة، إن المكان أو الشخص لا يملك الأهمية التي تملكها الفكرة أو التاريخ أو الحضارة، في حين أن الغرب

(1) أوربا والإسلام: تاريخ من سوء التفاهم، ص 12.

(2) روافد ص18و19.

شخصن الصراع بينه وبين الإسلام ولذلك لم يتمكن الغرب من مراجعة مواقفه من الإسلام وتاريخه إلا ما نسمع من أصوات نادرة تتعرض للإقصاء والتهميش.

الجذور التاريخية والخلفيات الحضارية والرؤية المعرفية للإسلاموفوبيا :

يفيد الحفر الأركيولوجي في الذاكرة الأوربية وفي اللاوعي الجماعي الغربي أن مسألة الإسلاموفوبيا ليست وليدة الأحداث الأخيرة المرتبطة بما يسمى "الإرهاب"، بل لها جذورها التاريخية وخلفياتها الحضارية والدينية والسياسية ورؤيتها المعرفية، وما ذاكرة الحروب الصليبية والاستعمار الغربي والاستشراق والحروب الحديثة إلا أمثلة لخلفية صناعة الصورة المشوهة التي يعرضها الإعلام الغربي للإسلام والمسلمين.

لقد أشار المستشرق الهولندي (فان كوننكز فيلد) في كتابيه "أسطورة الخطر الإسلامي في الغرب" و "حديث حول الإسلام في العصر الحديث" إلى الصورة المشوهة التي يحملها الغربيون تجاه الإسلام، وأن لها جذوراً في الفكر اللاهوتي المسيحي، كما تعرض لنتائج الحروب الصليبية وأثرها في صناعة مواقف العداء والكراهية للإسلام.

لقد صنع الغرب الروماني والبيزنطي من ق4ق م إلى ق7م صورة مزيفة عن حضارة الشرق برر بها اضطهاده له،ولما جاء الإسلام اتخذته روما عدوا جديدا وبدأت عملية التفكير في اختطاف الغرب للشرق من الإسلام بدءً باللحظة الاستعمارية الصليبية (489هـ/690هـ) ثم اللحظة التترية التي قاد جيوشها نصارى نساطرة، إلى سقوط غرناطة 897هـ ونجاح مشروع الصليبية الأوربية لتنطلق مرحلة جديدة من مراحل علاقة الغرب بالإسلام اتسمت باستعادة الشرق من الإسلام وفق عمليات الاستعمار والإبادة الثقافية وتدمير كل البنى الاجتماعية والأنساق القيمية، وليتم حرمان مجتمعات وشعوب الشرق من واقعية الإسلام وحيويته الحضارية. وبالموازاة مع ذلك أنتجت خطابات استشراقية حول الشرق تدعمها مؤسسات تنصيرية خدمة لاستراتيجية الغرب الاستعمارية: "لقد كان المشروع الغربي السياسي منه والكنسي حريصا دائما وأبدا على إنعاش ذاكرة الشعوب الغربية بذكريات "خطر العالمية الإسلامية" على استراتيجيته. ولقد أثمرت تراكمات مفردات هذا الخطاب الغربي الخاص بالشرق الإسلامي، أثمرت مخزونا من ثقافة الكراهية"[1]. يتجلى الحضور المرضي لتاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام لدى الغرب عبر اتخاذ 2يناير يوم سقوط غرناطة عيدا وطنيا، واتخاذ يوم هزيمة كوسوڤو ذكرى وطنية وقد مر عليها أكثر من 630 عاما.

(1) عمارة 69 و 70.

إن علاقة الشرق بالغرب قديمة، ولم يعد الشرق مشرقا بل صار مشارق بحكم القراءات الغربية له. والذي أطر هذه القراءات هو الاستشراق بمختلف تياراته ومدارسه معتمدا في ذلك على مفاهيمه الخاصة وآلياته المعرفية والمنهجية. وللاستشراق جذور تاريخية تطور بعد ذلك وفق السيرورة الثقافية والحضارية للغرب كما عبرت عن ذلك مؤتمراته العالمية، والتي وإن انتهت فإن الاستشراق جدد نفسه اليوم واتخذ طابعا يكاد يلتحم مع الدراسات في العلوم الاجتماعية والإنسانية كما هو واضح اليوم من خلال مؤسسات الاستشراق ومجلاته. ولسنا في معرض تقديم الدراسات الاستشراقية حول القرآن والإسلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم وتشكيلها للمخيال الغربي وتوجيهه نحو صورة مغلوطة عن ذلك.

إن الغرب تاريخيا هو مشروع للسيطرة وللهيمنة العالمية سياسيا وعسكريا لايرى التاريخ خارج ذاته، بل هو مركز العالم؛ بدايته ونهايته، أما الآخر فعدم يحتاج إلى التدخل التاريخي للغرب ليعترف له بالوجود. من هنا آمن الغرب بمعيارية نموذجه المعرفي ومركزيته الحضارية المستندة أولا على تاريخ الفلسفة اليونانية وحضارة الرومان، وعلى الإرث المسيحي التاريخي، وعلى نتائج الفلسفة الحديثة والمعاصرة بكل تياراتها ومدارسها التي نادى أصحابها بموت الإله وموت الإنسان، وعلى معطيات الثورات العلمية، بدءً بثورة الفيزياء (الإلكترون) وثورة البيولوجيا (الجينوم) وثورة الإعلام والتواصل (الصورة) وما نتج عنه من رؤية مادية استهلاكية للعالم. لقد شكل هذا التاريخ البنية الذهنية والنفسية للإنسان الغربي وتمثلاته عن الدين والأخلاق عموما وعن الإسلام وتاريخه وأهله على وجه الخصوص.

الخريطة المعرفية للإسلاموفوبيا :

هل نحن اليوم أمام شكل واحد للإسلاموفوبيا؟ أم أننا أمام أشكال وتيارات من الإسلاموفوبيا تحكمها مرجعيات ومصالح مختلفة؟ وهل يمكننا أن نضع تصنيفا لتوجهات ومقاربات الإسلاموفوبيا بالغرب ورسم خريطة معرفية لها؟

إن الذي يتابع السيل الكبير من الكتابات حول الإسلام بالغرب لا يسعه إلا أن يخلص إلى وجود تعدد في مقاربة الموضوع، وأن الذين يروّجون لخطاب الإسلاموفوبيا يؤسسون هذا الخطاب على منطلقات ومقاربات مختلفة: سياسية واستراتيجية ودينية وثقافية وذلك بحسب موقع هذا الخطاب في المنظومة الغربية المعاصرة وموقع صاحبه أو المركز والجهة التي تنتج ذلك الخطاب.

ونقدم هنا تصنيفا للأطراف والمصادر المنتجة للإسلاموفوبيا بالغرب من خلال النموذج الفرنسي كما في كتابه ميشيل جيسير يقدمه الباحث الفرنسي : La Nouvelle Islamophobie

يحدد الكاتب أربعة مصادر أساسية لظاهرة الإسلامفوبيا بفرنسا يمكن تقديمها كالتالي :

الخطاب الصحافي :

تقدم وسائل الإعلام مجموعة من الصحفيين باعتبارهم حماة القيم الجمهورية من أمثال (Alain Finkielkraut,Jean-Franois Revel,Jacques Julliard, Pierre-André, Emmanuel Todd,) خطاب هؤلاء لا يتعامل مع الإسلام باعتباره دينا كباقي الأديان يتطلب التعامل معه تحليل مختلف الأنساق والظواهر المتفاعلة في العلاقة به بقدر ما يعمل على ترسيخ إطار نمطي يضع الإسلام والمسلمين في موضع المهدِّدين لروح الجمهورية الفرنسية.

هذا هو المسار الضيق الذي اختطته وسائل الإعلام الفرنسية في التعامل مع الإسلام والمسلمين الذي يدعو الكاتب وعلى امتداد فصول الكتاب الأربعة إلى ضرورة تجاوزه، ويعود من وجهة نظره إلى كون الصحافيين ضحايا معرفة غير دقيقة وغير معمقة تتأسس على تقارير مشوهة عن حقيقة الدين الإسلامي تستند في كثير من أبعادها إلى العقلية الاستعمارية التي ترى في المسلمين مجرد "بلهاء" و"رعاع"، وفي الإسلام طائفة "مغلقة" مما يحصر الرؤية الإعلامية برمتها في تصور افتراضي متخيل يضفي الشرعية على مجموعة من الأفكار والأحكام المسبقة.

خطاب خبراء الرعب الجدد :

خبراء الرعب الجدد هم كما يقدمهم Vincent Geisser في كتابه مجموعة من الأكاديميين الذين يحتلون بشكل مبالغ فيه مختلف وسائل الإعلام كلما تعلق الأمر بالإسلام أو المسلمين، هؤلاء الذين يقدمون باعتبارهم متخصصين في الشأن الإسلامي ومختلف تأثيراته على الجمهورية الفرنسية لا يتعاملون مع الدين الإسلامي باعتباره دينا كباقي الأديان وإنما كحضارة ينبغي أن تدرس وفق مبادئ نظرية Samuel Huntington. حول صدام الحضارات choc des civilisationns أطروحات خبراء الرعب الجدد كما يسميهم Vincent Geisser تسهم في إشاعة جو من الريبة والكراهية

تجاه كل ما له علاقة بالدين الإسلامي بفرنسا، وحين يتحدث عن النموذج المثالي لهؤلاء ممثلا في الكاتب Alexandre Del Valle صاحب كتاب Islamisme ecnailla contre l'Europe France Une et والكاتب René Marchand صاحب كتاب La France en danger d'islam, Entre Jihod et Reconquis, فإنه في نفس الآن يتساءل عن سر غياب أو تغييب أسماء مفكرين كبار من أمثال Olivier Roy و Gilles Kepel إننا بصدد تغييب المتخصصين لصالح أشباه المتخصصين يقولGeisser.

خطاب المسلمين الإسلاموفوبيين :

ويتعلق الأمر بمجموعة من الأسماء المغاربية بالأساس التي تعيش بفرنسا وتشكل بالنسبة لوسائل الإعلام مرجعا مثاليا لتكريس الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين وفق منطق شهد شاهد من أهلها.

الخطاب اليهودي المتصهين :

المصدر الأخير للإسلاموفوبيا حسب Vincent Geisser يتموقع ضمن فعاليات الأوساط اليهودية الفرنسية من أمثال Pierre André,Taguieff ,Shmuel Trigano و Raphael Drai التي تعمل على ترويج أطروحة تربط بشكل مباشر الأوساط الإسلامية بمعاداة السامية[1].

وإذا كان هذا الباحث الفرنسي قدم المصادر التي تروج لخطاب الإسلاموفوبيا، فإنه يمكننا تقديم تصنيف آخر يقوم على أساس معرفي يرتبط بالحقول المعرفية الآتية: الدين والسياسة والاستراتيجية والثقافة.

الإسلاموفوبيا الدينية :

يسعى الغرب اليوم جاهدا إلى استعادة الدور التاريخي للمسيحية وإثارة قضية التدين لدى المواطن الغربي لمواجهة مد الإسلام "لقد اكتسح التدين في أمريكا مجالات عمومية عديدة لدرجة تصبح المرجعية الكاثوليكية والإنجيلية مهيمنة على كثير من

---

(1) انظر : الإسلاموفوبيا قلق المفهوم وجدلية الرؤى - (نموذج فرنسا) د. محمد فاوضل رضوان.
مجلة علوم إنسانية www.uluminsania.net السنة الثالثة : العدد 26 فبراير (ك2)، 2006.
(rd Year : Issue 26, jan 3)

مناحي الحياة هناك، وإمكانية ممارسة العمل السياسي مثلا في إطار من الإيمان الديني دون أن يثير ذلك علامات الاستغراب أو الاستهجان وهكذا تحوّل الدين إلى قضية وطنية وعمومية بشكل يبدو معه إيقاع الحياة مرتبطا بنواقيس الكنيسة وترنيمات الاناجيل[1]. إن هذا الحضور القوي للمسيحية في الغرب يدعو إلى إعادة النظر في مفهوم الدين والعلمانية والممارسة السياسية في مجتمعاتنا الإسلامية، وإن الحديث عن الإسلاموفوبيا ينبغي أن يستحضر عودة أشكال من التدين داخل الغرب واهتمام الإعلام المتزايد بالفاتيكان وبخطابات البابا، ولذلك فالنقاش حول الإسلام في الغرب هو في حد ذاته موقف من الديانة المسيحية ودفاع عنها. وهكذا يمكن تأطير كلام ORIANA FALACCI صاحبة كتاب la rage et l'orgueil; contre le jihad et l'intolerance في إطار"أقليات عادية من المتطرفين؟ لا يا عزيزي،لا إنهم ملايين وملايين. المتطرفون استيقظوا، ألا تفهمون أم لا تريدون أن تفهموا، إن الأمر يتعلق بحرب دينية من قبل أبناء الله الذين عوض أن يساهموا في تطور الإنسانية يقضون أوقاتهم في الصلاة في العراء خمس مرات في اليوم. هذه حرب تستهدف عمق أرواحنا وإذا بقينا عاجزين إزاءها فستهدم ثقافتنا، فننا، علمنا، أخلاقنا، قيمنا ومتعنا".

وتقول إحدى وثائق مؤتمر كولورادو سنة 1978: "إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره أسس النصرانية. والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيا وسياسيا. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز لفهم الإسلام ولاختراقه في صدق ودهاء"، وبعد ذلك باثنتين وعشرين سنة يقول الكاردينال بول بوبار مساعد بابا الفاتيكان : "إن التحدي الذي يشكله الإسلام يكمن في أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب تفكير وتصرف. في حين أن المسيحيين في أوربا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع". أما جاكوموبيفي أسقف مدينة بولونيا بإيطاليا فقد صرح في رسالته بتاريخ 2000/09/13 بقوله :"إما أن تتحول أوربا إلى مسيحية فورا و إلا ستكون إسلامية بالتأكيد"[2].

---

(1) 87/77 روافد.

(2) صحيفة العالم الإسلامي 20006/10/06.

الإسلاموفوبيا العالمة أو الثقافية :

نشأ خطاب جديد موضوعه "عودة أوروبا"، وهو خطاب هوياتي يفكر في أوربا جديدة. ولتحديد ملامح هذه العودة انعقدت ندوات شارك فيها فلاسفة ومفكّرون أوروبيّون كالنّدوة الّتي انعقدت بطورين Turin في ماي 1990 بعنوان "الهويّة الثّقافيّة الأوروبيّة" وكان من أبرز نصوصها المنشورة المحاضرة التي وألقاها الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا يوم 20 ماي 1990 وصدرت في كتاب "الرّأس الآخر L'autre cap". ومن ثمّة توالت الإسهامات المفكّرة في هذه العودة لعلّ أبرزها البرنامج الكبير الّذي اختطّه إدغار موران Edgar Morin في كتابه "التّفكير في أوروبا Penser l'Europe" وكتاب جاك أتالي Attali "أوروبا (ت) Europes" وكتاب الفيلسوف الفرنسي ريمي براق Rémi Brague "أوروبا: السّبيل الرّومانيّة "Europe : la voie romaine" أو مقالته : "أوروبا : كلّ الطّرق تمرّ من روما Europe: tous les chemins passent par Rome"، ودراسة جون كريستوف روفان Jean-Christophe Rufin "الإمبراطوريّة والبرابرة الجدد L'Empire et les nouveaux barbares" وكتاب الفيلسوف الألماني بيتر سلوترداك Peter Sloterdijk " لو استيقظت أوروبا Si l'Europe s'éveille " وكتاب الفيلسوف والمحلّل النّفسي السّلوفيني Slavoj iek "ماذا تريد أوروبا؟ Que veut l'Europe?" وغيرها من الكتابات التي تمثل النخبة من المثقفين والفلاسفة. ولعلّ مدار جميع هذه الكتابات هو البحث عن صيغة جديدة لوجود الإنسان الأوروبيّ اليوم في العالم. هل ينبغي أن يوجد فيه كما كان من قبل، أي على نحو إمبرياليّ، أم ينبغي أن يبحث عن صيغة جديدة مختلفة عن صورة أوروبا القديمة؟ إنّ قول المؤرّخ الفرنسيّ جاك لوقوف Jacques Le Goff في مقالته "أوروبا القديمة وأوروبانا La vielle Europe et la notre" يلخّص برنامج هذه البحوث والكتابات فهو يقول "ينبغي أن تَبتدع أوربا اليوم شكلا آخر من الوحدة غير شكل الإمبراطوريّة".

في سياق هذا الخطاب تبرز الإسلاموفوبيا العالمة محرفة مسار مشروع "عودة أوربا" نحو وجهة عنصرية صراعية يقودها في فرنسا مثقفو المحافظين الجدد أمثال أندريه غلوكسمان وألان فينفيلكروت وبيير أندريه طاكيف، وهؤلاء يقودون موجة شرسة من العداء تجاه الإسلام وينطلقون من أن الغرب في حالة حرب، أي في حالة دفاع عن النفس منذ 11 سبتمبر 2001. وتواجه قيمه وحضارته موجة عالمية من الاعتداء، ظهر نتيجة ذلك تيار يساري متطرف جديد يتحالف مع الحركات الإسلامية، ويكوِّن معها جبهة من الممانعة الثقافية ضد الغطرسة اليهودية المتصهينة.

في خضمّ هذه العودة ننزّل محاولة سيلفان غوغنهايم في كتاب "أرسطو في جبل سان ميشيل : الجذور اليونانيّة لأوروبّا المسيحيّة". غير أنّ محاولته قد ظلّت محكومة بالشّكل الإمبراطوريّ القديم الذي ميّز الرّوح الأوروبيّة الإمبرياليّة. ولمّا كان هذا الشّكل الإمبراطوريّ يعارض خطاب "عودة أوروبا" فإنّنا نعتبر تبنّي شكل الإمبراطوريّة والتّفكير على نحو إمبرياليّ هو الذي جعل موقف سيلفان غوغنهايم ينم عن هستيرية أو ذهان ثقافي. وقد رد كثيرون عليه وسفّهوا كتابه، أبرزهم آلان دوليبيرا وآخرون في كتابهم "الإغريق والعرب ونحن: الإسلاموفوبيا العالمة" وسيأتي الحديث عن ذلك أثناء الكلام عن أسطورة القطيعة الحضارية.

الإسلاموفوبيا الاستراتيجية :

وهو ما تتبناه كثير من مراكز الدراسات الاستراتيجية بالغرب ومراكز التفكير في أمريكا، فالمصالح القومية وتوازن القوى هي المسؤولة عن صناعة صورة مشوهة عن الإسلام. وهنا يمكن فهم الدعم الأمريكي لإسرائيل؛ ويمثل هذا الاتجاه فوكوياما وهنتنغتون، ومثقفو المحافظين الجدد بفرنسا أمثال طاكيف وغيره.

أساطير الإسلاموفوبيا :

أسطورة المركزية الأوربية والتفوق القيمي :

إن الغرب في تعامله مع العالم الإسلامي محكوم ومأسور بمحددات وأطر ثقافية ذات نوعين؛ أولهما : موروث مستقر في ذاته وموصول بمركزيته الثقافية. وثانيهما: تفوقه القيمي ومن ثم التعارض بين قيم الحرية والديمقراطية والحداثة وحقوق الإنسان الغربية والنسق القيمي الإسلامي. من هنا يمكن تفسير النزوع نحو عولمة النموذج الحضاري الغربي مما يعني احتضار الثقافات وإبادتها واجتثاثها وإدخالها في متاهات من فقدان التوازن وضياع المعنى وتأليه السوق. إننا يقول جارودي: " نعيش قلقا ناجما عن مرحلة تاريخية اعتقد الغرب فيها أنه الشكل الوحيد للثقافة والحضارة باعتباره الشعب المختار فارضاً على العالم سيطرته"[1].

تكمن خطورة أسطورة المركزية الأوربية في تمكين خطابات الإسلاموفوبيا من فكرة عدم الاعتراف بالآخر وإلغاء الغيرية الحضارية والتشكيك في شرعية الاختلاف والتخلي عن التعددية لفائدة التماثل الثقافي المعبرة عن نرجسية حضارية وجنون

(1) جارودي، 13.

عظمة التاريخ الغربي، وقد عبر عن ذلك برلسكوني يوم 26 سبتمبر 2001 قائلا : "إن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية، ولابد من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام الذي يجب أن يهزم لأنه لايعرف الحرية ولا التعددية ولاحقوق الإنسان. وإن الغرب سيواصل تعميم حضارته وفرض نفسه على الشعوب"[1].

إن الغرب معاد للثقافة لأنه يدمر ثروة الجماعات الإثنية في العالم الثالث،إن الغرب نموذج حضاري غير قابل للتعميم (لاتوش 56) لأن وجوده التاريخي قائم على المحو الجذري والمبرمج للثقافات وتدمير تاريخ الآخر.

هكذا انتصر داروين ولم ينتصر المسيح :

إن تاريخ الغرب الحديث، يقول كريستوفر : " الموشوم بغرف الغاز والغولاغ، وكذا إرثنا المسيحي الملطخ بمعاداة السامية فاقعة أو على الأقل متحفظة، لا يسمح لنا بالتحدث إلى العالم الإسلامي باستعلاء،كما لو كنا أصحاب قيم أخلاقية متفوقة. أحكامنا المسبقة صفيقة، ومع ذلك لسنا في وضع يتيح لنا إعطاء دروس في الأخلاق"[2].

لكن الولايات المتحدة تدرك تماماً مكمن الممانعات الثقافية البادي على سلوك الثقافات الإسلامية، لذلك فهي تسعى دائماً لامتلاك حق الوصاية في وضع المعايير والقيم التي من خلالها تتمكن من تذليل وخرق مفهوم السيادة الفكرية والسياسية للحضارات الأخرى، ومنها قيم حقوق الإنسان والديمقراطية. وهذه القيم على الرغم من سموها إلا أنها وُظفت سياسياً من قبل الغرب ضد دول الممانعة.

وفي مقابل ذلك فإن الغرب يتهم حركة الإسلام بأنها حركة صماء لا تقيم للحوار مع الغرب أية أهمية، كما يقول المستشرق الهولندي المعاصر (رودولف بيترز) الذي يضيف: «وهذا ما يقوي ويكرس الصورة المشوهة عن الإسلام، على أساس أن الإسلام هو الأصولية، وأن الأصولية هي الإسلام، وأنهما الخطر الأول على الغرب والعالم الحر».

إن الغرب يعود إلى التاريخ عودة مرضية محكومة بخلفية صراعية ومركزية مستكبرة. إن تصور التاريخ لدى الغرب اختصره بول فاليري فقال :" التاريخ هو النتاج الأكثر خطرا للكيمياء، إنه يسلمنا للحلم، إنه يخدر الشعوب، يجلب لها الذكريات المزيفة

---

(1) صحيفة الحياة 2001/09/30 .

(2) مجلة الكلمة : الإسلام والغرب في مفترق الطرق، باتن كريستوفر. 17-06-2006 ترجمة : هشام الميلوي.

ويقودها إلى هذيان العظمة أوالاضطهاد. إن التاريخ يبرر مايريده لأنه يحتوي على كل شيء ويقدم أمثلة لكل شيء، وفي الوضع الحالي للعالم (كنا في عام 1938 عند كتابة هذا النص) صارت غواية التاريخ أكبر مما كانت عليه في أي فترة مضت"[1].

لقد عاد الجنرال غورو سنة 1918 إلى التاريخ عودة مرضية حين قال : "ياصلاح الدين ها نحن أولاء نعود"، في حين أن صلاح الدين كان قد وضع حدا للعنف والصراع والحرب والكراهية، ودشن عهودا من التسامح الأسطوري اعترف به عقلاء الغرب في زمانه وفي الزمن المعاصر.

أسطورة العودة إلى الذات وضرورة الاندماج:

يبني هانتنغتون فرضيته الأساسية على ملاحظة ارتفاع درجة (الإحساس بالذات) في الأمم على نطاق العالم،ضد هيمنة الثقافة الغربية، ويجعل من ذلك أحد العوامل الجوهرية في صدام الحضارات. ولكن الذي يراه المحللون هو عكس ذلك، أي إن العودة إلى الذات ما هي إلا شكل من الممانعة الثقافية وحركة احتجاج ورفض ناتجة عن عجز الحضارة الغربية عن أن تصبح حضارة عالمية مستوعبة للتنوع الثقافي العالمي (وذلك بسبب تحولها إلى إيديولوجية مطابقة لمشروع (الرأسمالية) القائم على الربح والاستهلاك والسيطرة)[2].

ثم إن استقراء الوقائع التاريخية يثبت أن الحس الديني،وإن كان له دور في إحداث تحولات اجتماعية واقتصادية... إلخ، لم يكن سبباً قط لإشعال الحروب بين الأمم إلا في إطار من مصالح الدول، أو تعصب ديني لا مبرر له. فالصدامات والحروب تبقى في أبعادها العميقة نزاعات تتحكم فيها مصالح الدول ومصادر الثروة وغيرها من العناصر، وليس العوامل الثقافية والدينية، كما يحاول هانتنغتون أن يضلل بها الرأي العام العالمي. ولذلك ليس صحيحاً أن ثقافة أو حضارة ما تحمل في داخلها عنفاً أو عدوانية،من حيث كونها ثقافة أو حضارة لجماعة من البشر، إلا إذا تلبست صفة دولة

---

(1) جارودي 175.

(2) وجيه كوثراني: (صدام حضارات أم إدارة أزمات)، مقال ضمن كتاب: صدام الحضارات (بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية، ط1، 1995) ص 99.

لها سياسات توسعية وسيطرة، أو بالمقابل تكون في إطار حماية ودفاع عن الذات في وجه السيطرة والاستتباع [1]، كما هو الحال في العالم الإسلامي المعاصر، والشعوب المستضعفة وعندما يتحدث هنتنغتون عن الإسلام هنا، لم يكن ليقصد الإسلام بمعناه الضيق، بحصره وتحديده بسلوك الأصولية الإسلامية وحسب، وإنما المشكلة الهامة والرئيسة فيه الإسلام نفسه، فهو حضارة مختلفة، ودين مغاير، أمة تعتز بتفوق ثقافتها. فالمسلمون يُعنون بمسألة التمايز بين حضارتهم والحضارة الغربية، وعلى تفوق ثقافتهم أيضاً، والحاجة إلى الحفاظ على ثبات وديمومة تلك الثقافة ضد الهجوم الغربي.

ويؤكد هنتنغتون أن الثقافة الغربية تواجه "تحديات من قبل جماعات داخل المجتمع الغربي، ويأتي أحد هذه التحديات من المهاجرين من حضارات أخرى والذين يرفضون الاندماج في النسق القيمي الجديد ويواصلون التمسك بقيم وعادات وثقافات مجتمعاتهم الأصلية ويعملون على نشرها. ولقد هاجموا باسم التعددية الثقافية توحد الولايات الأمريكية مع الحضارة الغربية وأنكروا وجود ثقافة أمريكية مشتركة، ورفعوا لواء هويات ثقافية عنصرية وعرقية، وهويات ثقافية وتجمعات فئوية أخرى" [2].

تروج الإسلاموفوبيا أسطورة الاندماج الاستلابي في ظل غياب الاعتراف بالآخر وحقه في الاختلاف وعدم قبوله في تعدده الثقافي وغيريته الحضارية، عبرت عن ذلك تصريحات ساركوزي لما كان وزيرا للداخلية بقوله:"من لايحب فرنسا عليه أن يرحل عنها" وحب فرنسا معناه نسيان الهوية وخوض خيار المماثلة والامتثال الثقافي ونفي الحق في الاختلاف، وبذلك تعبر الإسلاموفوبيا عن خيبة أمل مشاريع التنوع الثقافي.

أسطورة كراهية الإسلام للقيم الغربية :

لقد أثار فوكوياما العديد من القضايا حينما عرض لأطروحة نهاية التاريخ، ولكن من بين ما يمكن اعتباره وجها من أوجه الإسلاموفوبيا قوله :" إن الإسلام هو الحضارة الرئيسة الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة، ماذا عن هذا العالم الإسلامي الذي نزعم أنه كاره لحضارتنا؟ قد يغيب عنا أحياناً أن المسلمين والذين يبلغ عددهم 1,2 مليار يعيشون في ثلاثة أرباع من الدول البعيدة عن الجامعة العربية، ويقيمون في ديموقراطيات كماليزيا، إندونيسيا

(1) كوثراني، المصدر السابق.

(2) الثقافة العالمية، ص47، عدد 85.

والهند. إن المجتمعات الإسلامية في آسيا ليست بمنأى عن الصعوبات التي يعرفها باقي دول العالم، فهم في مواجهة جيوب من التطرف،ومن السخرية أن نتصور موجة من الحنق الإسلامي تغرق دولاً بأكملها،من شواطئ الأطلسي إلى الهادي.

إذا قمنا بالتركيز على البلدان العربية في المغرب والمشرق العربي والخليج،ما الذي يمكن استخلاصه من بين الدول الموجودة في قلب الصراعات والخلافات المعاصرة؟ سنة 2002 تقدمت مؤسسة الفكر العربي إلى معهد الزعبي الدولي بطلب إجراء استطلاع للرأي في ثماني دول هي : مصر وإسرائيل والأردن ولبنان والكويت والمغرب والإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية، نتائج هذا الاستطلاع والذي شمل 3800 شخص، أكدت نتائج دراسات أخرى مماثلة، إن لم تكن متطابقة، قام بها مركز (بو) للأبحاث، وهي أن الشعوب العربية مثلها مثل الأمريكيين والأوروبيين، يشغلها الهاجس الأمني قبل أي شيء آخر، بالإضافة إلى إشباع حاجاتها الأساسية، ربما سنفاجأ بأنهم لا يكرهون قيمنا الغربية ولا تعبيراتها، سواء في الديموقراطية والحرية والتعليم والسينما أو التلفزيون. بل سنجد أن أفضل البرامج التلفزيونية والتي حققت نجاحاً هناك هو برنامج (من سيربح المليون). دراسات أخرى أكدت النتائج نفسها فيما يخص القيم الأساسية. إن تقرير التنمية البشرية الثاني في العالم العربي، والذي نشر في 2003 ـ سأتناول التقرير الأول لاحقاً ـ ذكّر باستطلاع الرأي العالمي rus eulaV dlroW eye، الذي خرج بأن المجتمع العربي هو أكثر المجتمعات قناعة بأفضلية الديموقراطية كنظام للحكم، بعيداً عن الأوروبيين والأمريكيين أنفسهم، بل وأكثر نزوعاً ثلاثة أضعاف من الشعوب الآسيوية.

إن مثل هذه النتائج لا تشير إلى وجود صراع بين القيم؛ الإشكالية تبدو أكثر بساطة مما نظن، ليس لدى العالم الإسلامي شيء ضد القيم الأمريكية والأوروبية، فقط لا يتحمل السياسات التي تقودها الولايات المتحدة،وبالتالي نفس هذه السياسات المتبناة أو المتسامح معها من قبل الأوروبيين"[1].

أسطورة الخطر والتهديد الإسلامي :

لايمكن للغرب أن يعيش بدون عدو يواجهه، إن فرضية العدو ضرورة سياسية واستراتيجية أمنية لإدارة الصراع وضمان الحقل الحيوي للمصالح. ولئن انتهت الحرب

(1) مجلة الكلمة : الإسلام والغرب في مفترق الطرق 17-06-2006 باتن كريستوفر. ترجمة: هشام الميلوي.

الباردة بسقوط الشيوعية فقد وجد الغرب ضالته في عدو جديد هو الإسلام فاعتبر تهديدا إرهابيا جديدا " لقد شعر الكثيرون - في الغرب - بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتي، وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز؛ فالإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدّ فعلي، لا وحقيقي للثقافة الغربية"[1].

لقد جعل هذا الأمر الغرب ينظر إلى الإسلام عبر التاريخ على أنه قوة عسكرية مهددة ومجال اقتصادي حيوي وعدو إيديولوجي، وعلى هذا الأساس يتم الحديث عن ولادة أوروبا، ولا يمكن أن تتم إلا عبر الإسلام. فإذا طرحنا مشكلة كيف ومتى ولد الضمير الحديث لأوربا والهوية الأوربية،فإننا سندرك إلى أي مدى كان الإسلام من بين العوامل التي ساعدتها على أن تحدد نفسها"[2].

قاد التحسب لمثل هذا الخطر (توينبي) من قبل إلى التحذير من مغبة ظهور الصحوة الإسلامية التي تمت الإشارة إليها،فيقول في كتابه (الحضارة في الميزان) : "صحيح أن الوحدة الإسلامية نائمة ولكن يجب أن نضع في حسباننا أن النائم قد يستيقظ إذا ما انتفضت البروليتاريا (ويقصد بهم بسطاء المسلمين) ضد السيطرة الغربية،وإذا ما نادت بزعامة معادية للغرب،إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولي للإسلام،فالإسلام يمكن أن يتحرك ويقوم بدوره التاريخي إذا تغير الوضع الدولي، وأرجو أن لا يتحقق ذلك".

وبعد ذلك بعقود وبلغة رمزية ساخرة وماكرة يقول هنتنغتون: " لن يفي آدم سميث ولا توماس جيفرسون بالاحتياجات النفسية والعاطفية والأخلاقية للمهاجرين إلى المدينة أو الجيل الأول من خريجي المدارس الثانوية. ولا المسيح قد يفي أيضاً وإن كانت فرصته أكبر، على المدى الطويل، وسينتصر محمد".

ويثير سكرتير دولة الفاتيكان، الكاردينال تارتشيسيو برتوني الأمر بصورة أخرى تتخذ أبعادا دينية، بقوله: "إن خطاب البابا في ألمانيا يشكل مرجعا لكل من يريد أن يعمل في سبيل تجديد الهوية الأوربية، وهو يحدد مهمة أساسية للجامعيين والطلاب المسيحيين الباحثين عن منطق عقلاني تام، وهذه الأرضية الثقافية صالحة للعمل بواقعية علي بناء هوية أوربية متجددة "؛ أما في يوليو 2007 فلقد حذر السكرتير

(1) مجلة شؤون دولية.
(2) **أوربا والإسلام**، ص 13.

الخاص للبابا من "أسلمة الغرب" معتبرا أن خطاب البابا في ريغنسبرغ كان بمثابة رؤية "تنبؤية" مضيفا " ينبغي ألا نستهين بمحاولات أسلمة الغرب، وألا نتجاهل خطرها على هوية أوربا بذريعة مجاملة تفهم بشكل خاطئ".

أسطورة الديموغرافيا :

لقد كتبت صحيفة هآرتس الإسرائيلية في تموز 2001 (إن التغيير الديموغرافي الجاري في غرب أوربا الذي يتضمن ارتفاع عدد المسلمين وانخفاض عدد اليهود في أوروبا) بدأ يؤثر على موقف الحكومات الأوروبية تجاه إسرائيل، لأن الوجود الإسلامي الكبير في أوساط السكان يتحول إلى عامل سياسي كما حدث في الانتخابات البريطانية). كما أن الكونغرس اليهودي العالمي أعد ورقة تحت عنوان (نمو الإسلام في أوربا) جاء فيها: " اليوم يتمتع الدين الإسلامي بمعدلات النمو الأعلى في أوربا، وهناك حوالي 20 مليون مسلم في دول الاتحاد الأوروبي، وإذا تواصل هذا الاتجاه فسيشكل المسلمون في عام 2020 حوالي 10% من مجموع السكان في أوروبا".

أسطورة التاريخ المنفصل أو القطيعة الحضارية مع الإسلام :

ولعلّ كتاب المؤرّخ الفرنسيّ سيلفان غوغنهايم Sylvain Gouguenheim "أرسطو في جبل القديس ميشيل. الجذور اليونانيّة لأوربّا المسيحيّة" يمكن أن يدرج في صنف الأحداث الصّادمة، وأثار ضجّة كبيرة في أوساط الجامعيّين والمشتغلين في حقل الفلسفة وتاريخ العلوم والفلك واللّغويّات.

يرفض غوغنهايم الاعتراف بالدور التاريخي لحضارة الإسلام في تشكيل حضارة أوربا وتاريخ الغرب وأن إسلام الأنوار مجرد أسطورة. تنكر هذه الأطروحة أدنى تأثير إيجابي للإسلام على حضارة الغرب وتدافع عن التمايز الثقافي والحضاري بين الغرب والإسلام لتؤسس لفكرة الصراع الأبدي والبنيوي بين كل ماهو إسلامي عربي وماهو مسيحي غربي وهو مايغذي عالم الإسلاموفوبيا ويمنحه الدعم الإيديولوجي، بل يذهب غوغنهايم إلى اتهام الإسلام بكونه عائقا أمام الروح الفلسفية والعقلانية اليونانية وعلمية الحكماء، وأنه دين وحضارة جامدة، وأن أهله لا يملكون العقلية العملية بل هم أشخاص لا تاريخيون. إن أورربا لاتدين بمعارفها وحضارتها للإسلام، وأن جذور تاريخها وحضارتها ترتبط أساسا بالأصول اليونانية وبالإرث المسيحي الروماني. هكذا يتم التنكر لحقائق التاريخ وتشويه صورته وتأويل وقائعه

بشكل ماكر بعيدا عن السياق التاريخي للأحداث وذلك نتيجة لعقم في المنهج وخلل في الرؤية واضطراب في فهم الحدود الفاصلة بين العقلاني والمتخيل، بين الواقعي والوهمي، بين الإسلام من خلال نصوصه وعصور ازدهاره وصورة الإسلام من خلال تجليه على مستوى الممارسة العملية للمسلمين.

يبدو جليا أن الكتاب ينتمي إلى مشروع إيديولوجي، ترعاه شخصيات أكاديمية في الجامعات ورجال دين في الفاتيكان وبعض دوائر صنع القرار في المؤسسات التنفيذية، فمن ناحية المؤسسات السياسية لم يجانب مجموعة من الكتاب الصواب عندما ردوا على سيلفان في كتاب تحت إشراف ماكس ليجبوويتس بعنوان " مؤرخ في خدمة الإسلاموفوبيا : العلم والإيديولوجيا " صدر في 2009 عندما أكدوا أن أطروحة كاتب أرسطو في جبل القديس ميشال تحدد رؤية للعالم تندرج في إطار فلسفة التاريخ الساركوزي - نسبة للرئيس ساركوزي - وهي تلتقي عند ثلاثة محاور رئيسة من سياسته، يتمثل المحور الأول منها في الإشادة بفرنسا المسيحية تماما، أما الثاني فإنه يتمثل في تمجيد الاستعمار، والمحور الثالث، يكمن في التخلص من آثار انتفاضة مايو 1968.

أسطورة التوتاليتارية :

تسوِّق الإسلاموفوبيا لفكرة شمولية النظام الإسلامي وكليانيته بما يعني قيام الإسلام على العرقية والعنصرية وتطويع شعوب العالم بالقوة العسكرية، وأنه نظام لا يميز بين الدين والسياسة والفكر والاجتماع والأخلاق. ولذلك يسود في الخطاب الإسلاموفوبي تخويف الغرب من عودة النازية والفاشية في صورة الإسلام. يقول بوزنسون:" إن على الكنيسة أن تواجه الإسلام كما واجهت من قبل النازية والشيوعية،" فالمخيال الغربي واللاوعي الجماعي الأوربي مازال يحتفظ بذكريات مأساوية عن النازية والفاشية والشيوعية كأنظمة شمولية استبدادية، لكن هؤلاء ينسون أو يتناسون أن الليبرالية المتوحشة هي شمولية مقنعة ونظام استبدادي يقدم في صور ديمقراطية.

الأساطير المؤسسة لعقدة الخوف المرضي الغربي من الإسلام والمسلمين

الدكتور محمد عبد الواحد العسري(*)

ترجع الإسلاموفوبيا، من حيث كونها خوفا غربيا مرضيا من الإسلام والمسلمين وكراهية متأصلة ومتنامية لهما وتخويفا مبالغا فيه منهما، إلى أسباب متعددة ودواعي مختلفة تؤول في مجملها إلى العلاقة التي جمعت بين الغرب والإسلام، بوصفهما جغرافيتين ثقافيتين متقابلتين. لقد تحددت هذه العلاقة، التي اتسمت منذ بداياتها الأولى إلى يوم الناس هذا، بالتوجس المتبادل بين هاتين الجغرافيتين وبتنافسهما المستمر على بسط هيمنتهما المادية والروحية على الأرض والإنسان ورهانهما عليهما. ولا غرو في ذلك، ما دام أن هذه العلاقة قد جمعت في واقع الأمر بين الإسلام وبين النصرانية ـ التي شكلت للغرب النواة الصلبة لأهم مكوناته الثقافية ـ ودفعت بهذين الدينين، المعروفين بشموليتهما وبقيامهما على مبدإ التبشير الإسلامي والكرز النصراني بين الناس، إلى الرهان على التسابق على قلوب هؤلاء وأرواحهم وكذلك على التمكن في الدنيا والسيطرة عليها، من خلال الإمبراطوريات التي أسهما تاريخيا في تأسيسها وتدبير شؤونها المختلفة. والواقع، وكما هو معروف، فلقد سلك كل طرف من هذه العلاقة، أي كل دين من هذين الدينين، ممثلا في عقائده وشرائعه وأهله وأصحابه، مسالك تاريخية مخصوصة ومختلفة ومتفاعلة فيما بينها لتحقيق هذا الأمر لم تعر أبدا عن نقدهما ودحضهما المتبادلين بينهما. وفي هذا المضمار، فإنه لمن المعروف كذلك، بأن النصرانية لم تدخر جهدا في تفسير انتشار الإسلام بين الناس، فيما زعمت من جانبها، بأنه يتضمنه من عناصر العنف الأصلية فيه والمحايثة له، والمتمثلة عندها : في الجهاد الذي اختزلته بدوره في تهديد هؤلاء الناس وإعلان الحرب

(*) جامعة عبد المالك السعدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان.

عليهم وتقتيلهم لحملهم قسرا على الدخول فيه أو البقاء عليه. وذلك فضلا عما يسمح لهم به من التهالك على الملذات الحسية المتمثلة في الشبقية الجنسية، والمنافع المادية والدنيوية، المتمثلة في أسلاب حروبه وغنائمها[1]. فلا غرو إذاً أن توجست النصرانية خيفة من الإسلام والمسلمين، وإن استمر الغرب على هذا التوجس وعلى هذا التخويف بالإسلام؛ فلقد شكلت له النصرانية الوسيط الأساس في تعرفه إلى الإسلام والمسلمين، والرافد الأهم من روافد تشكيل وعيه بهذا الدين وأهله وأصحابه. وهو ذات التعرف ونفس الوعي اللذان ما فتئا يتأبيان على كل تحول نوعي أو تغير جذري، مسهمين في ترسيخ الأحكام الغربية المسبقة والجاهزة باستمرار عن الإسلام والمسلمين في هذا المضمار، إلى الحد الذي يصح لنا فيه أن نتساءل مع هشام جعيط عن إمكانية تخلص الغرب منها والحال أنها قد استحوذت، وما فتئت، على لاشعوره الجمعي[2]. ويكفي دليلا على ذاك الإباء وهذا الاستمرار ما تضمنته وتتضمنه بعض الخطابات التي تصدر عن بعض الجهات الغربية، من مثل الرسوم المسيئة المعروفة لنبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ومحاضرة بابا الكنيسة الكاثوليكية المشهورة، من رسالات تخويفية من الإسلام ورسوله وأهله عبر ادعاءاتها وافتراءاتها عليهم جميعا بممارستهم للعنف في حق النساء عند تدبيرهم للجنس وفي حق الناس عند اعتمادهم للجهاد في دعوتهم.

لقد زودت النصرانية الرومية الكاثوليكية الغرب الأوربي بمعرفته عن الإسلام ووعيه به من خلال ترجمتها في طليطلة إلى اللاتينية كُلاًّ من معاني القرآن الكريم

---

(1) وفي هذا الزعم اختزلت وتختزل النصرانية جاذبية الإسلام وانتشاره بين الناس. وبهذا الزعم كذلك كان رمون لول في القرون الوسطى يفسر ما كان يقف عليه من كثرة تحول النصارى إلى الإسلام، وقلة انقلاب المسلمين إلى النصرانية. وضمن قابليته على خداع نفسه، فلقد ذهب كذلك إلى أن النصارى يتحولون بكثرة إلى الإسلام، الذي كان يسميه من جهته "بالشريعة المحمدية" لأنه "يعدهم بكثير من الثروات المادية والملذات الحسية".

" Promisisti mihi uxorem et multa alia terrena, si acciperem Legem, Mahometi" Ramon Llul, Disputatio Raimundi christiani et Hamar sarraceni, Ed. Salzinger, 1972, 12.

عن هذه القابلية التي تمتع بها رامون لول على خداع نفسه وتصديقها في هذا المضمار وعن إسلاموفوبيته المبكرة، يراجع،محمد عبد الواحد العسري، الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني. من ريموندس لولوس إلى أسين بلاثيوس، الرياض، 155-168، 2003.

(2) "il reste que les préjugés médiévaux se sont insinués dans l'inconscient collectif de l'occident à un niveaus si profond qu'on peut se demender, avec effroi, s'il pourront jamais en etre extirpés", Hichem Djait, L'Europe et l'Islam, Seuil, Paris: 1974, 21

ورسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي[1]. وهي الرسالة التي كان قد جادل بها الكندي الإسلام والمسلمين؛ بحيث ذهب فيها إلى أن الإسلام مجرد دعوة رجل غير مؤهل لاستقبال النبوة، بالنظر لكونه قد نشأ وثنيا "يعبد الأصنام" و "لم يكن له فكر إلا في امرأة ينكحها" ولقد استندت هذه الدعوة البشرية، بصفة أساسية، على مبادئ نصرانية منحرفة علمها راهب نصراني متهرطق ومحروم من الكنيسة، لصاحبها الذي عمد إلى نشرها مع أصحابه عبر "شن الغارات والخروج لإصابة الطرق والتعرض لأخذ أمتعة الناس"[2]. والظاهر أن هذا التصور لنبوة محمد وللإسلام والمسلمين قد هيمن على ترجمة القرآن الكريم المذكورة التي أنجزها التراجمة أنفسهم الذين ترجموا رسالة الكندي، بحيث أعادوا إنتاجه في المقدمة التي قدموا بها لترجمتهم للقرآن الكريم. وهو نفس التصور الذي سيخلد في جميع الترجمات التي أنجزت بمختلف اللغات القومية الأوربية لهذا الكتاب؛ بحيث إنها لن تُعرّى أبدا عن مثل هذه المقدمة، فضلا عن أنها لم

---

(1) وذلك ضمن مشروع دير كلوني الفرنسي الذي اقترحه وأنجزه للأندلس أو لشبه الجزيرة الإيبيرية رئيسه بطرس المبجل Petri Venerabilis في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي (1141م) للتعرف إلى الإسلام ومجادلته، بقصد الحد من انتشاره وتنويع أساليب مواجهته، من بعدما أخذت الأساليب العسكرية تؤتي أكلها بعد استلاء ألفونسو السادس على طليطلة في 478/1085. لقد جاء هذا المشروع في أصله لإصلاح النصرانية الإسبانية التي رأت فيها نصرانيته ونصرانية الفاتكان Vatican انحرافات وهرطقات، باتت الحاجة ملحة لتحطيم معتقداتها وتعويضها بالمعتقدات الرومية الكاثوليكية، ليتطور بعد ذلك وخلاله إلى أول مشروع غربي أوربي للتعرف إلى الإسلام والمسلمين.

يراجع عن تأسيس هذا الدير وتاريخه،

Marcel Pacaut, L'Ordre de Cluny (909-1789), (2eéd), Paris, 1994.

ويراجع عن سياق التاريخي والثقافي لهاتين الترجمتين، محمد عبد الواحد العسري، "من روافد الاستشراق الإسباني ومكوناته في القرون الوسطى. مجادلة عبد المسيح الكندي للإسلام بالأندلس"، مج. العلوم الإنسانية، جامعة البحرين، ع.9، شتاء، 2004، 339- 367.

محمد عبد الواحد العسري، "أصول الصورة المشوهة لمحمد صلى الله عليه وسلم في الغرب الأوربي ومكوناتها: قراءة في تاريخ الاستشراق الإسباني ونماذجه وامتداداته"، ضمن الأعمال المقدمة لمؤتمر نبي الرحمة، الجمعية السعودية للسنة وعلومها.

رسالة عبد المسيح الكندي إلى عبد الله الهاشمي. هذبها للطبع القس أنطوان تيان، بعنوان، رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي يدعوه بها إلى الإسلام ورسالة الكندي إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية، ونشرت مرتين بلندن، 1880، ثم في 1885. 32-33/36-37/50-51.

تعتمد إلا إلى عهد قريب نصه العربي، مكتفية بالعودة في ذلك إلى نصه اللاتيني كما استوى على يد تراجمة دير كلوني[1].

ولقد عرف هذا التصور، كيف يتخذ طريقه للعبور بكل سلاسة من نصوص دير كلوني إلى غيرها من النصوص الغربية التي استخلفتها في التعرف إلى الإسلام والمسلمين، ولكي يزداد قوة ورسوخا في الغرب الذي ما فتئ يستبنيه انطلاقا من تمركزه على ذاته وتمحوره حولها، عبر اعتماده في ذلك لآلية القياس والمقارنة والاختزال والتعميم التي انتهى بها إلى اختزال الإسلام في دعوة بشرية اتخذت من العنف معتقدا وشريعة ووسيلة للانتشار بين الناس وضمان هيمنتها عليهم[2].

---

(1) لقد شكلت هذه الترجمة أصل جميع الترجمات التي اعتنت بنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأوربية الأخرى، من بعد ما قام اللاهوتي السويسري تيودور بيبليياندر Teheodor Bibliander بطبعها ونشرها في بازل Basileae بسويسرة في949-1543، ضمن نشره لنصوص فيلق دير كلوني.

Th. Bibliander (ed.), Mahumeti Saracenorum principis eiusque successorum uitae, doctrina ac ipse Alcoran... quae ante annos CCC... D. Petrus abbas cluniacensis per uiros eruditos... ex arabica lingua in latinam transferri curauit... opera et studio Theodori Bibliandri... Bàle, 1543.

ويراجع كذلك،

Oscar de la Cruz Palma, “La Trascendencia de la Primera Traduccion Latina del Coràn (Robert de Ketton, 1142)“ (Proyecto de investigacion BFF2000-1097-C02-02, dirigido por el profesor José Martànez Gizquez y financiado por la DGICYT. Collatio n°7.(2002), pp. 21-28, (Hy PERLINK “http://www.hottopos.com/collat7/oscar.htm”/t”blant”).

عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، موسوعة المستشرقين، بيروت، 1984, 302-310.

محمد عبد الواحد العسري، ″تصورات الاستشراق الإسباني لمحمد ولسيرته من خوان أندريس إلى خوليو كورتيس″، السيرة النبوية في الكتابات الإسبانية، أشغال الندوة الدولية التي نظمها فريق البحث في السنة والسيرة وقضايا الإعجاز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، جمع وتنسيق سعيد مغناوي، فاس، 2009، 174–185.

(2) وبذلك فإن الإسلاموفوبيا، من حيث موضوعها وتصوراتها ومنهجها في إعدادهما وتنزيلهما على أرض الواقع، قديمة قدم بواكير التعرف الغربي إلى الإسلام والمسلمين، وذلك على الرغم من كون مصطلحها لم يظهر للوجود، على الشكل الذي هو عليه اليوم إلا مؤخرا. ولا غرو في ذلك، فالدوال تتأخر في الظهور عن مدلولاتها، وقد تأخذ في بعض الأحيان أوقاتا طويلة لتتم صياغتها بالشكل الذي هي عليه اليوم. يراجع عن الإسلاموفوبيا، د. حسن عزوزي، الإسلاموفوبيا الغربية وسياسة التخويف من الإسلام، سلسلة اخترت لكم، مكناس، 2002. والجدير بالتنبيه عليه أن هنالك من ينكر وجود هذه الإسلاموفوبيا، ولا يرى في ذلك إلا خرافة. وهذا خطأ بيّن في ذاته، وإن كنا نقتسم مع صاحبه تحميل المسؤولية في تخويف الغرب من المسلمين لبعض الجماعات التي تنسب نفسها إلى الإسلام ولا تتورع في تقسيم عالم اليوم إلى دار إسلام ودار حرب، بما يترتب لديها عن ذلك من أحكام معروفة. عبد الخالق حسين، خرافة الإسلاموفوبيا ، يوليوز، 2007.

http://www.annaqed.com/ar/content/show.aspx?aid=15653.

ومن المراصد الرصينة للإسلاموفوبيا، يمكن مراجعة: مرصد الإسلاموفوبيا. نصوص ودراسات تحليلية عن صناعة الأسطورة الغربية عن التهديد الإسلامي

Observatorio de la Islamofobia. Textos y anàlisis sobre la fabricacion del mito occidental de la "amenaza islmica " http://islamofobia.blogspot.com/search/label/La%20islamofobia%20en%20la%20historia

هل غزا العرب المسلمون شبه الجزيرة الإيبيرية؟

من المعلوم أنه يكاد لا يكترث أحد من مؤرخي هذه الجزيرة من المسلمين أو من غيرهم بطرح هذا السؤال[1]. فلقد شكل هذا الغزو بالنسبة إلى جميع المهتمين بتاريخ هذه الجزيرة وبدخول أهلها في الإسلام واتخاذهم منه ومن الثقافة العربية مكونا أساسا من مكونات هويتهم في مطلع القرون الوسطى، مصادرة لا تقتضي البرهنة عليها، فهي بينة بذاتها؛ بل إنها ضرورية لقيام أي بحث في هذا التاريخ، الذي لا يمكنه أن ينجز إلا بعد التسليم بها والانطلاق منها. ومن المعروف كذلك، بأن هذه المسلَّمة قد شكلت وتشكل في جميع مدارس العالم وجامعاته ومراكز بحوثه في مغارب الأرض ومشارقها، بما في ذلك البلاد العربية والإسلامية منها، موضوعا من أهم موضوعات

---

(1) والحق أن إغناسيو أولاغوي Ignacio Olagüe قد تميز من بينهم بطرح هذا السؤال في أحد كتبه التي ترجع إلى عقد الستينات من القرن الماضي، والذي وسمه: الثورة الإسلامية في الغرب. وفيه يدافع عن أطروحة مركزية مفادها أن العرب المسلمين لم يغزوا إسبانيا ولم ينشروا بين أهلها إسلامهم بالقوة العسكرية. وبما أنه لم يكن من الممكن طبع كتاب يتضمن مثل هذه الأطروحة ونشره في إسبانيا خلال هذه المرحلة من تاريخها المعاصر، فلقد دفع بمخطوطته إلى عمدة تاريخ البحر الأبيض المتوسط الفرنسي فرناند بروديل. "Fernand Braudel" بتلخيصه وترجمته إلى الفرنسية. وبالفعل فلقد تم هذا الأمر ونشر الكتاب بباريس سنة 1969 بعنوان: العرب لم يغزوا إسبانيا قط.

HYPERLINK " http:// es.wikipedia.org/niki/fernand Vraudel"/OHYPERLINK "Fernand Braudel".

الذي كلف جان باري بترخيصه وترجمته إلى الفرنسية.بالفعل فلقد تم هذا الأمر ونشر الكتاب بباريس، سنة 1969 بعنوان : "العرب لم يغزُوا إسبانيا قط".

"http://es.wikipedia.org/w/index.php?title=jean Baere&action=edit"

Ignacio Olagüe, Les arabes n'ont jamais envahi l'Espagne, trad, HYPERLINK "http://es.wikipedia.org/w/index.php?title=Jean_Baert&action= iedit\oJean Baert, Paris, 1996.

وفي 1974 صدر الكتاب بلغته الأصلية وبعنوانه الأصلي بإسبانيا.

Ignacio Olagüe,HYPERLINK"http://aleph.csic.es:80/F/BL3T8U7XEU7CQ4I3RPK6RP8JB215CRN7NJG4I95ILSNE8T3S23-00027?func=full-set-set&set_number=171075&set_entry=000001&format=999" La revolucion islàmica en Occidente, Barcelona,1974.

ثم أعيد نشره في قرطبة بنفس العنوان في سنة 2004.

Ignacio Olagüe,HYPERLINK"http://aleph.csic.es:80/F/BL3T8U7XEU7CQ4I3RPK6RP8JB215CRN7NJG4I95ILSNE8T3S23-00027?func=full-set-set&set_number=171075&set_entry=000001&format=999" La revolucionisl islàmica Occidente, Cordoba, 2004.

ولقد ترجم إسماعيل الأمين إلى العربية النشرة الفرنسية المذكورة لهذا الكتاب، إسماعيل الأمين، العرب لم يغزوا الأندلس. رؤية تاريخية مختلفة، لندن، 1991. ونعنى حاليا من جهتنا بنقله إلى العربية اعتمادا على نصه الإسباني الأصلي كما جاء في نشرة قرطبة ولحساب ناشرها. ولقد حظي هذا الكتاب بكثير من القراءات ومن المراجعات النقدية التي ترمي إلى رد أطروحته وتفنيدها. ومنها مراجعة بير غيشارد.

Pierre Guichard, Les Arabes ont bien envahi l'Espagne : les structures sociales de l'Espagne musulmane, Annales, Année 1974, volume 29, Numéro 6, 1483-1513.

التاريخ العام التي يجري تناولها وتعليمها وترديدها بالشكل الذي لا يسمح بتسرب الشك إليها، أو بمراجعتها أو تمحيصها، أو على الأقل بتنسيب الحديث فيها وعنها. فلا غرو إذاً إن أجمع المؤرخون القدماء والمحدثون والمعاصرون، على اختلاف تصوراتهم للتاريخ ومناهجهم في تأسيسه وعلى تنوعها وتنوع مشاربهم الإيديولوجية والدينية، وتمكنهم من أساليب النقد والمراجعة المعاصرة، على أن شبه الجزيرة الإيبيرية، التي تحتضن اليوم دولتي إسبانيا والبرتغال من بعد احتضانها لدولة الأندلس الإسلامية، قد خضعت للغزو العربي الإسلامي الذي بسط هيمنته عليها بالحديد والنار وحملها وأهلها على الديانة الإسلامية والثقافة العربية، وحولهما إليهما قسرا وعنوة.

ومما لا شك فيه أن الغرب قد وجد ولَواجِدٌ باستمرار في أطروحة هذا الغزو المزعوم شاهدا مستمرا على ما لم يكل عن ترديده أبدا عن العنف في الإسلام وعن اعتماده من طرف المسلمين لنشر دينهم بين الناس ولضمان سيطرتهم عليهم وعلى بلادهم. وكيف لا، ولسان حاله يقول اليوم، ضمن أدبيات الإسلاموفوبيا وروحها العامة في التخويف من الإسلام والمسلمين، بأن الإسلام، قد أخذ منه الجزيرة الإيبيرية وهي قطعة من جغرافيته الفيزيائية والدينية والثقافية واستأصلها عنه طيلة قرون متتالية، وأنه يمكن لهذا الدين، إن استطاع التمكن كما استطاعه في الماضي، أن يعاود الطمع فيه وغزوه بأهله الذين لا يقصرون مع عدم تمكنهم من إرهابه بهجمات الانتحاريين منهم[1].

لكن هل غزا العرب المسلمون، بالفعل شبه الجزيرة الإيبيرية، وحملوا أهلها عنوة على الدخول في الإسلام والحياة وفق مقتضياته ومقتضيات الثقافة العربية؟

يذهب إغناسيو أولاغوي Ignacio Olagüe في كتابه المذكور إلى أن العرب المسلمين لم يتوسلوا أبدا بالغزو المسلح لنشر دينهم في هذه الجزيرة وبين أهلها، وللاستدلال على ذلك قدم جملة من الاعتراضات على ما أجمع عليه المؤرخون في هذا المضمار، ليعمد بعد ذلك إلى تقديم تصوره الخاص لكيفية انتشار الإسلام وثقافته بين الإيبيريين الذي أسهمت فيه عوامل أخرى لاعلاقة لها بالغزو المزعوم. فأما اعتراضاته فهي كثيرة ومختلفة ومتنوعة وتكتسي في نظرنا وجاهة علمية ونقدية ملحوظتين.

(1) وغني عن التنبيه عليه بأن الهجمات التي قام بها بعض المسلمين في بلادهم وبلدان الغرب الأوربي والأمريكي، إذ تسيء في ذاتها إلى الإسلام والمسلمين وتجلب عليهم كل الأضرار والمفاسد الممكنة، فإن الغرب يجعل منها مطية موضوعية لتخويف أهله والعالم بأسره من هذا الدين ومن أهله.

وأما تصوره الخاص لدخول الإيبيريين في الإسلام وثقافته، فإنه لا يقل عن اعتراضاته وجاهة ومهابة. وما يهمنا في هذه الورقة هو أن نقف على أهم اعتراضاته على أطروحة الغزو وأن نقدمها، على أن نكتفي بالتعريج على تصوره لانتشار الإسلام في هذه الجزيرة[1].

كما يذهب أولاغوي كذلك إلى أن هذا الغزو ليس أكثر من مجرد أسطورة El Mito de la Invasion جاءت لتفسر تحول الجزيرة الإيبيرية إلى الإسلام، من بعدما تم هذا التحول وليس خلال مدة تحققه التاريخية. فالمصادر العربية الإسلامية واللاتينية النصرانية التي أنتجت أطروحة توسل المسلمين بالحرب للظفر بهذه الجزيرة ونشر دينهم بين ظهرانيها، لم تنتج خلال زمن هذا الغزو ولم تواكبه؛ بحيث إنها لن تبدأ في الظهور إلا بعد انصرام قرنين عن تحققه المزعوم. ولقد قدم أولاغوي هذا الغزو ـ الأسطورة كما استوى في هذه المصادر ثم في جميع كتب التاريخ التي تلتها إلى اليوم واستعرضه بكل أمانة ودقة، في كثير من فصول كتابه وكلما دعته الضرورة إلى ذلك.

ويمكن إجمال محتوى هذه الأسطورة ومضمونها كما يلي : سيطر العرب المسلمون على الجزيرة الإيبيرية وهيمنوا على مجمل مساحتها البالغة 584.192 كيلومتراً مربعاً، مخضعين أهلها إليهم وإلى دينهم الجديد بالحديد والنار فيما بين 711 و713 ميلادية/ 92-94 هجرية. وذلك ضمن غزوهم لنصف العالم المعروف في هذه المرحلة من التاريخ، وظفرهم به. ولقد تم لهم ذلك على يد 7000جندي بقيادة طارق بن زياد الذي هزم رودريغو Rodrigo [آخر ملوك القوط بإسبانيا]، قبل أن يغبطه على هذا النصر موسى بن نصير، الذي سيلحق به على رأس جيش آخر قوامه 25.000 جندي، ليتم بذلك سحق الإيبيريين ويضمن بهذه الطريقة نشر الإسلام بينهم وإلحاقهم عنوة به وبثقافته.

كما يمكن إجمال اعتراضات أولاغوي على نفس هذه الأطروحة في مثل هذه التساؤلات الاستنكارية التي لم يكل عن تقديمها وعن تفصيل الأقوال والأدلة فيها. كيف كان يمكن للعرب المسلمين تجييش الجيوش وتجهيزها للقيام بغزو نصف العالم

---

(1) يشكل في الواقع هذا التصور في ذاته موضوعا آخر عالجه أولاغوي من خلال رجوعه، في فصول عديدة من كتابه، إلى تاريخ الأفكار وتاريخ الديانات في شبه الجزيرة الإيبيرية، اللذين أسهما بصفة أساسية في تحولها إلى الإسلام وثقافته وحسما فيه. وذلك بالنظر إلى أن هذه الجزيرة قد ارتبطت بأفكار شرق البحر الأبيض المتوسط وفلسفاته، خلافا مما يظن عن انتمائها إلى الثقافة اليونانية ـ الرومانية، وبالتالي الغربية الأوربية. وكذلك بالنظر إلى أن الإيبيريين لم يكونوا في أغلبيتهم الساحقة، ومنذ القرن الرابع الميلادي على النصرانية الرومية الكاثوليكية التثليثية، بل على ضرب آخر، ومغاير، من ضروب هذا الدين.

المعروف آنذاك وتدبير الهيمنة عليه، والحال أن المناخ الحار لبلادهم الأصلية، شبه الجزيرة العربية، وبالتالي نمط إنتاجهم الاقتصادي ووسائله ما كانا ليسمحان أبدا بذلك؟ وكيف كان يمكن لنفس هؤلاء الغزاة الطمع في غزو شبه الجزيرة الإيبيرية، والحال أنها لم تكن قد دانت لهم بصفة تامة ونهائية بلاد الشمال الغربي لإفريقيا؟ ثم كيف كان يمكن لهم العبور بجيوشهم إليها عبر مضيق جبل طارق، في الوقت الذي لم يكن من الممكن لهم التوافر فيه على مراكب كافية لذلك؟[1] وهل كان يمكنهم التغلب بعددهم المذكور على ملايين الإيبيريين وبسط هيمنتهم على مجموع الجزيرة الإيبيرية، بتضاريسها الوعرة والمعقدة، بهذه السرعة الخيالية وفي زمن قياسي لا يتعدى ثلاث سنوات؟ وبالإضافة إلى ذلك، ألم يكن حريا بالإيبيريين مقاومة هؤلاء الغزاة بدلا من التفرج عليهم ومشاركتهم في ذلك، أو الهروب منهم للاختباء بأودية منطقة أسطورياس Asturias في شمال جزيرتهم، والحال أن هذه الأودية، لم تكن، بالنظر إلى جغرافيتها الطبيعية لتسعهم جميعا ولتتيح لهم إمكانية العيش بها مدة طويلة من الزمن؟ وكيف كان يمكن للعرب وللمسلمين أن يقتلوا جميع الإيبيريين ويبيدوهم عن آخرهم على الرغم من عدم توفرهم في ذلك الزمان على أسلحة كفيلة بتحقيق ذلك؟.

والواقع أن كتاب أولاغوي ليحفل بكثير من جنس هذه الاعتراضات الاستنكارية التي شكلت له صك اتهامه الإخباريين القدماء والمؤرخين المحدثين "بالسكوت عنها، بل بعدم التفكير في طرحها أصلا، لكي لا تنهار أطروحتهم في الغزو العربي المزعوم. ولقد فضلوا بدلا من ذلك، دعوتنا إلى أن نتصور معهم بأن الإيبيريين قد وقفوا يتفرجون على المسلمين يأخذون منهم بلادهم ودينهم وحضارتهم، لينخرطوا بعد ذلك في سبات عميق لعدة قرون متتالية"[2]. وفي هذا المضمار، فإنه إن التمس العذر للإخباريين القدماء المسلمين العرب واللاتينيين النصارى على السواء في عدم تسلحهم

---

(1) تذهب الحوليات إلى أن الدون خوليان Don Julin حاكم منطقة شمال المغرب باسم العرش القوطي الإيبيري، هو الذي دل العرب المسلمين على طريق الظفر بإيبيرية، انتقاما منه لشرف ابنته الذي كان قد أهدره ملكه رودريغو، وهو الذي زودهم بالمراكب الأربعة التي كان يتوفّر عليها للقيام بذلك. فهل كان من الممكن لهذا العدد من السفن أن يكفي لنقل هذه الأعداد الوفيرة من الجيوش، وكم كان يلزمهم من الوقت؛ أي من الأيام المبحرة للقيام بذلك في مضيق من أخطر المضايق التي تكاد تخضه الرياح الشرقية والغربية طيلة أغلب أيام السنة، فضلا عما يضطرب فيه من التيارات البحرية الأطلسية والمتوسطية القوية.

(2) Ignacio Olagüe, HYPERLINK."http:// aleph. esie.es: 80/F/BL3T8U7XEU7 CQ413RPK6RP8JB215CRN7NJG4195ILSNE8T3S23-00027?fune=full-Set-Setx Setnumber=171075&Set_entry=000001&firmat=999" La revolucion islàmica en occidente, op.cit.36.

في إعداد رواياتهم للغزو المزعوم بالحس النقدي المطلوب لذلك، فإنه لم يلتمسه للمؤرخين المحدثين والمعاصرين الذين يتوفرون على إمكانية إخضاع هذه الروايات إلى مناهج النقد التاريخي التي يتقنونها، ويتقاعسون عن تشغيلها عندما يتعلق الأمر بلَوْك أطروحة انتشار الإسلام بين الناس بما يمارسه عليهم من عنف في غزوهم وقتالهم[1]. وبالنظر إلى أن هؤلاء المؤرخين قد اكتفوا بترديد روايات القدماء عن غزو العرب المسلمين للجزيرة المذكورة من دون أي نقد أو تمحيص، فلقد عاد أولاغوي بدوره إلى هذه الروايات في مصادرها اللاتينية والعربية ليستفرغ جهدا متواصلا في نقدها لدحضها من بعد تبيين حدودها وغاياتها... إلخ[2].

ولعلنا لن نثقل كاهل هذه الورقة لو ضمناها قسما مما ند به قلم أولاغوي من الفصل الثالث لكتابه الذي خصصه للنظر في هذه المصادر[3]. وهو النظر الذي خلص منه إلى أن الغزو العربي الإسلامي لشبه الجزيرة، لم يشكل واقعا تاريخيا من وقائع تاريخ هذه الجزيرة ولا تاريخ انتشار الإسلام بين الناس ودخولهم فيه؛ مما يمكن أن يعد في ذاته مراجعة للتصورات الغربية المسندة للإسلاموفبيا التي اختزلت هذا الانتشار فيما زعمته عن عنف الإسلام:

"سيستغرب قارئ هذا الكتاب عندما يعلم، مثلما علمنا بدورنا لحظة شروعنا في إعداد هذه الدراسات منذ ثلاثين سنة خلت، بأنه لم تتوفر للمؤرخين المعاصرين مصادر معاصرة للغزو العربي لإسبانيا. لذلك فإنه ما زال بعضهم يرجع إلى الأسقف إسيدورو باسانسي Isidoro Pacense ويحيل عليه بوصفه شاهد عيان على وقائع هذا الغزو

(1) لقد جاءت روايات القدماء النصارى والمسلمين متأثرة بالسياق التاريخي لوضعها؛ المتميز بتفشي العداء والمنافسة بين النصرانية والإسلام بالأندلس، عند إعدادهم لها، فضلا عن أن علم التاريخ لم يكن قد ظهر بعد بينهم جميعا. أما المحدثون فإنه لا يمكن فهم موقفهم من الإسلام وانتشاره بالعنف من خارج موقفهم المسبق من هذا الدين وأهله.

(2) كما عاد كذلك إلى مصادر أخرى كثيرة ومتنوعة استعان بها على تقصي أحوال تحولات تاريخ الفكر والأفكار الدينية في شبه الجزيرة الإيبيرية التي أسهمت، بالنسبة إليه، في تفاعل هذه الجزيرة مع الإسلام وثقافته طيلة قرنين من الزمان، من قبل أن تتحول في مجملها إليهما. والمقصود بذلك مصادر بعض مراحل ما قبل الغزو المزعوم وبعده، مما لن نتطرق إليها في هذه الورقة. يتعلق الأمر بنصوص بعض المسكوكات بالأفكار الدينية للبرسليانية Priscilianismo ولمعتقدات ما يسمى في النصرانية بهرطقة التبني Adopcionismo وخاصة للمعتقدات الدينية للأريوسية التي كانت عليها ساكنة شبه الجزيرة الإيبيرية قبل اندراجها في صيرورة تحولها من هذه النصرانية التوحيدية والموحدة إلى الإسلام وثقافته.

(3) خاصة وأنه يكاد لا يعرف هذا الجهد الذي استفرغه أولاغوي في مراجعة أسطورة توسل المسلمين بالعنف الحربي لنشر دينهم وثقافتهم في شبه الجزيرة الإيبيرية، وفي إعداده لأطروحة بديلة ولتفسير ملائم لانتشار ذاك الدين وثقافته بين ساكنة هذه الجزيرة.

وأحداثه، على الرغم من تأكد الجميع، ومنذ أكثر من قرن، من الطابع الخرافي لكتابه. والواقع أننا لا نفتقر إلى مثل هذه المصادر فقط، بل إننا لنفتقر كذلك إلى مصادر معاصرة لمجمل هذه المرحلة عن تاريخ المتوسط وشمال إفريقية والشرق الأدنى. ويعود ذلك إلى اندراج كل هذه الجهات من عالم تلك المرحلة في مسلسل الصراعات الدينية، التي أسهمت في تدمير مختلف الوثائق الكفيلة بالتشويش على تكون الهويات داخل النزاعات الأهلية المرافقة لتلك الصراعات والتشغيب على مثلها وعلى منطق اشتغالها. ولقد وقف على هذا الفراغ المصدري أحد مؤرخي الغزو العربي لإسبانيا إدواردو سيابيدرة Eduardo Saavedra الذي سجل "بأنه لم يكتب نصارى شمال إسبانيا ولا عربها ولا مستعربيها أي شيئ عن تاريخ إسبانيا الممتد فيما بين مرحلتي مملكة فامبا (Reino de Vamba 682) ومملكة ألفونسو الثالث بليون[1] (Alfonso III de Leon Alfonso 882) ، كما وقف على نفس الفراغ مؤرخ الإمبراطورية البيزنطية لويس برييه Louis Bréhier الذي "أكد بأنه إن كنا لا نجهل أي شيء عن أية مرحلة من مراحل الإمبراطورية البيزنطية، بحيث احتفظ لنا كل قرن منها بحولية ومؤرخ، فإننا نجد أنفسنا أمام فراغ وثائقي مهول بالنسبة لمرحلة الغزوات العربية لهذه الإمبراطورية، الممتدة فيما بين القرن الثامن والقرن التاسع؛ بحيث لا تخبرنا عن وقائعها إلا المصادر التي أنجزت في مراحل لاحقة عنها"[2].

ولا نرى من جهتنا بأن هذه المصادر كفيلة بتجلية غموض الحالة العامة لتكوُّن الأفكار وانتشارها في تلك المرحلة، من بعد تحولها أو اندثارها ونهايتها في بيزنطة أو في طليطلة أو في قرطبة. فالواقع أن السياق العام لإنتاجها كان يعيقها بالقوة وبالفعل عن إمكانية إعادة تأسيس هذه الحالة. كما أن الإخباريين لم يكونوا ليدركوا أهمية الأفكار وأدوارها الحاسمة في المجتمعات والتاريخ، فضلا عن أن الأفكار بطبيعتها لا تترك بعد تحولها أو زوالها في الأذهان والعقول والذكريات التاريخية، آثارا من مثل الآثار التي تتركها أحداث محاصرة المدن وويلات الزلازل والأوبئة وما يترتب عادة عن موت الأمراء والملوك... إلخ. فلم يكن بمقدور مؤلفي تلك المصادر من المسلمين ومن النصارى استعادة الحالة العامة لتكوّن الأفكار الدينية التي اشترطت مرحلة التحول الذاتي لمعظم شعوب شبه الجزيرة الإيبيرية من النصرانية الأريوسية المتصارعة مع النصرانية الكاثوليكية إلى الديانة الإسلامية. فلقد اندثرت هذه الحالة وانصرمت بانصرام مرحلتها، وابتعادها عنهم بمسافة قرنين أو ثلاثة قرون. ولم يعد

---

(1) Eduardo Saavedra, Estudio sobre la invasion de los rabes en Espana, p 2, Madrid, 1892.

(2) Louis Bréhier, Le monde byzantin, Paris, 1969-70, t III, p 344.

أي أحد من هؤلاء الإخباريين يتعرف إلى نفسه أو أهله فيها وبواسطتها؛ من بعدما لبس معهم هوية دينية جديدة، مغايرة لهوية أسلافه المسلمين أو النصارى زمن التحول المذكور. وهي الهوية التي يتحتم عليه اليوم، بحكم مهنته، الإسهام في تأسيسها باختراع حكاياتها المتجذرة في ماضيها التليد والنقي. لقد كتب كل واحد من هؤلاء الإخباريين أخباره عن أسلمة إسبانيا وتعريبها في مرحلة لاحقة وبعيدة عن مرحلة الغزو المزعوم، وفي الوقت الذي كانت قد اتسعت فيه الهوة بين الإسلام والنصرانية واستحكم بين أهليهما العداء المتبادل، نتيجة الإصلاحات الدينية الإسلامية المرابطية والنصرانية الكلونية التي أخضعوا إليها بالجزيرة الإيبيرية[1].

لذلك كان يجب على جميع الإخباريين المسلمين والنصارى نسيان مرحلة امتزاج النصرانية الأريوسية بالإسلام وصيرورة انصهار هذين الدينين معا في البوتقة الخلاقة التي أسفرت عن تلك الأسلمة وهذا التعريب، لكي لا يشوشوا على الأسس الدغمائية الجديدة للهويات للسلط التيوقراطية الإسلامية والنصرانية المتصارعة على الجزيرة. وهكذا فلقد كان من الأفضل للنصراني من هؤلاء أن يكتب في مصادره بأن قوة عربية وأجنبية وبعيدة عن أرضه وأهله قد غزتهما وظفرت بهما عنوة، ويدافع عن ذلك، على أن يعترف بما كان موجودا بأرضه وبين قسم كبير من أسلافه من معتقدات نصرانية أريوسية مخالفة لنصرانيته الكاثوليكية الحالية، مهّدت أمامهم الطريق للتحول التلقائي إلى الإسلام. [لقد كان لسان حاله يقول بالتصريح والتضمين، بأنه قد أخذت من أهله أراضيهم ومعتقداتهم بالقوة، وبأن عليهم أن يأخذوا بأسباب القوة لاسترجاعها]. كما أنه كان من الأفضل للمسلم من أولئك الإخباريين أن يحتفي في مصادره بأمجاد أسلافه من الفرسان العرب المسلمين الذين فتحوا الجزيرة عنوة ونشروا فيها دينهم بسرعة فائقة. وذلك لكي لا يقر بدوره بأن هذه الجزيرة أو أندلسه لم

(1) [من المعروف أن الإصلاحات الدينية المرابطية كانت قد طالت المغرب أكثر مما طالت الأندلس، وإن كنا لا ندعي من جهتنا بأنهم لم يحملوا الأندلسيين على تصور متشدد للإسلام ولممارسته، ولتدبير علاقاتهم بنصارى الجزيرة ومماليكهم. أما الإصلاحات النصرانية الكلونية فهي الإصلاحات التي جاء بها مشروع دير كلوني الفرنسي إلى إسبانيا. فكان قد رأى بطرس المبجل Petrus Venirabilis رئيس هذا الدير بأن النصرانية في إسبانيا المنظمة والمدبرة داخل كنيستها المستعربة، قد انحرفت وتهرطقت نتيجة تعايشها مع الإسلام واستخدامها للغة العربية، مما يستدعي العمل على إصلاحها للعودة بها إلى أصولها الحقيقية. والجدير بالذكر في هذا المضمار بأن هذا المشروع يعد أول مشروع نصراني لاتيني للتعرف إلى الإسلام والمسلمين. فهو المشروع الذي احتضن أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم، التي امتدت تصوراتها عن هذا الكتاب في مجموع الترجمات اللاتينية والأوروبية، وما فتئت مهيمنة في الترجمات الاستشراقية لهذا الكتاب إلى الآن. تراجع المصادر والدراسات المذكورة في الهوامش أرقام: 3و4و5. وكذلك محمد عبد الواحد العسري، الإسلام والمسلمين في تصورات الاستشراق الإسباني. من ريموندس لولوس إلى أسين بلاثيوس، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 2003.

تنقلب بين عشية وضحاها إلى الإسلام على الحالة التي يوجد عليها اليوم، بل تحولت إليه نتيجة امتزاجه بأريوسية أهلها وانصهاره معها في الدينامية الطبيعية لتطور الأفكار فيما بين الإسلام والأريوسية، التي لم يعد الإصلاح المرابطي يسمح بها. [لقد كان عليه تقوية مشاعر الاعتزاز بين أهله باستعادة أمجاد أسلافه الميامين الذين قاتلوا لتوريثهم ميراثا، بات من الواجب عليهم الأخذ بأسباب القوة للمحافظة عليه].

وهكذا ارتاح جميع الإخباريين، على اختلافاتهم الدينية لأطروحة غزو العرب لإسبانيا، وألبسوها لبوس الأسطورة الذي التحم بها في القرن الثاني عشر، ليشكل لها ثوابتها البنائية النهائية، وليضمن لها بذلك إمكانية التردد والاستنساخ في أعمال المؤرخين الذين سيأتون بعدهم. ومما زاد هذه الأسطورة قوة وثباتا كذلك بين عموم المسلمين والنصارى، اعتمادهم جميعا تفسيرا غيبيا لجريان أحداث هذا الغزو المزعوم ووقائعه، نتيجة عجزهم عن تفسيره تفسيرا عقلانيا ومعللا، لا يتحدى قوانين التاريخ والجغرافية التاريخية. فذهب المسلمون إلى أن معجزة انتشار الإسلام بإسبانيا ترجع إلى العناية الإلهية التي شملتهم وضمنت لهم التفوق العسكري على أعدائهم. وتبع النصارى هؤلاء في اعتماد نفس الطابع الغيبي لتفسير نفس الأمر، فلقد أرسل الرب إليهم، على حد زعم "خيمنيث دي رادة" منهم، السراسانيين [المسلمين الشرقيين] وسلّطهم عليهم بالحديد والنار عقابا لهم على ما اقترفوه من آثام على عهد القوط الغربيين. ومشهورة في هذا المضمار قصة خيانة رودريغو، آخر ملوك القوط بإسبانيا، للدوق يوليان الذي كان يمثل سيادته على جهة سبتة من الشمال الغربي من إفريقية، ويحكمها باسمه. وهي النقطة التي ستفيض كأس هذا التفسير الغيبي، فلقد كان قد أرسل هذا الحاكم إلى بلاط ملكه بطليطلة ابنته وائتمنه على تربيتها وتأديبها. غير أن هذا الأخير أغواها وفسق بها. وللانتقام لشرف ابنته المهضوم، ومن ملكه الخائن لعهده ولربه، بادله الخيانة بالخيانة، بتحريضه للعرب على غزو إسبانيا، وتيسير عبورهم المضيق إليها[1]. فلا عجب إذاً، إن رمى الرب بالعرب هذه البلاد وأهلها؛ عقابا لهم على كل هذه الخيانات المتبادلة وهذه الآثام الجنسية المقترفة بينهم، ليغزوهم بقوة رياح السموم الحارة التي حملوها معهم من صحرائهم.

(1) ستتحول هذه القصة إلى أسطورة مستحكمة في اللاوعي الإسباني. ولقد تتبع تواريها وخمودها وكذلك انبعاثها كالعنقاء من رمادها مينيدث بيدال في تعبيراتها الفنية والأدبية في المسرح والقصة والرواية وغير ذلك.

فأية قيمة وثقية يمكن أن نخلعها على مثل هذه المصادر التي تروي أحداثا لم تعاصر مرحلة وقوعها المزعومة، ولا تتردد، بالنظر إلى المناخ الفكري العام الذي شرط وضعها وإنتاجها، في اعتماد مثل هذا التفسير الغيبي للتاريخ، فضلا عن تناقضها وتضاربها فيما بينها عند رواية نفس الوقائع؟ وكيف يمكن أن يعتمدها المؤرخ على الرغم من تضمنها لأخطاء ومفارقات بينة في ذاتها، ولخرافات لا يمكن أن تصمد أمام أبسط شروط الحس المشترك؟.

والحق أن مثل هذه التساؤلات لم تغب أبدا عن المؤرخين المحدثين في تعاملهم معها، بحيث لم يترددوا في الاعتراف بقصورها وبهذه العيوب الفادحة التي طالتها. غير أن ذلك لم يمنعهم، فيما خلا فيليكس داهن[1] Felix Dahn من الاعتماد عليها في تأريخهم للغزو العربي لإسبانيا. والظاهر أنه قد عزت عليهم التضحية بما كانوا قد استفرغوه من جهد مضنٍ في تعاملهم معها. فلقد اعتمدها في هذا المضمار ليفي بروفنسال على الرغم من تعبيره صراحة عن عيوبها، ففي معرض مقارنته بين ما قدمته العربية منها من معطيات عن مرحلة آخر ملوك القوط الغربيين بإسبانيا، الذي يفوق ما أعدته نظيرتها النصرانية في نفس الموضوع، شكك فيما " بلورته كلتاهما عن هذه المرحلة"، مؤكدا كذلك عدم "معاصرة أية واحدة منها للأحداث والوقائع التي ترويها عن القرن الثامن، ما دامت أنها قد كتبت في قرون لاحقة عليه". كما أنه لم يتردد في اعتمادها إدواردو سيابيدرة مسوغا ذلك بقوله: " بأنه إن كان يجب علينا أن نقفل الباب في وجه دراسة مرحلة ما من التاريخ، بسبب المفارقات والمتناقضات والاختلالات الكرونولوجية التي حشدت فيها، وأن نهمل بكل ازدراء جميع ما رواه عنها الإخباريون القدماء، فإنه لن تكتب، تبعا لذلك، أهم صفحات تاريخ الإنسانية العام"[2].

وعندما نذهب من جهتنا بأن جميع هذه المصادر قد كتبت في مراحل لاحقة عن المرحلة التي أرَّخت لها، فإن ذلك لا يعني عندنا، بأنه لم توجد أبدا مصادر معاصرة للقرن الثامن والتاسع، تكون قد واكبت مرحلة تفاعل الإسبانيين الموحدين بمعتقدهم النصراني الأريوسي مع المسلمين بمعتقدهم الموحد كذلك، وعبرت عنها خير تعبير. فكل ما في الأمر أنها قد أتلفت واختفت. ولا غرو في ذلك، فلكونها كانت قد وضعت باللغة

---

(1) Ramón Menéndez Pidal, Floresta de leyendas heroicas españolas: Rodrigo, el último Godo, Madrid, 1956-58.

(2) Felix Dahn, Die Konigue der Germanen, t V, Munich y Wurtzburg, 1861-1871, p 226. Lévi-Provençal, Histoire des musulmans d'Espagne, Maisonneuve, Paris, 1950.t.1, p 3.

اللاتينية، فلقد توقّفت النصرانية الأرثودوكسية في متابعتها ومحاربتها، وتخلى عنها أهلها بتخليهم عن اللاتينية ونسيانها عند تعلمهم للعربية وبعد تعريبهم. ومع ذلك فإنه يمكن الوقوف على بعض أصداء هذه المرحلة الخلاقة من تاريخ إسبانيا في بعض المصادر الإخبارية اللاحقة عليها، التي وصلنا منها الكتاب الذي ينسب إلى إيزيدورو باسنسي وكتاب أحمد الرازي. ويكتسي هذان المصدران أهمية خاصة في هذا المضمار، لما يتضمنانه معا من المؤثرات البيزنطية، وبالنظر إلى أن كلا من مؤلفيهما قد عاش بجنوب الجزيرة الإيبيرية؛ مما يسوغ لنا إدراجهما ضمن المصادر الأندلسية، في ترتيبنا وتصنيفنا لمجموع مصادرنا عن هذه المرحلة. ومنها المصدر الموسوم بأخبار مجموعة، وهو مصدر مغربي جمع فيه صاحبه مجموعة من الحكايات التي بقدر ما كانت تُروى من جيل إلى آخر، بقدر ما كانت تبالغ في إضفاء هالة التقديس والبطولة على عبور الأسلاف المغاربة إلى إسبانيا في القرن الثامن، وعن ملحمتهم في هذه البلاد. لقد تحول هؤلاء الأسلاف، الذين أسهموا في الصراع الدائر بين الموحدين والمثلثين من أبناء الجزيرة، إلى أبطال أسطوريين ومعجزين.

وتتوافر في هذا المضمار كذلك مصادر مصرية كان لها دور أساسي وحاسم في تكون أسطورة الغزو وترسخها. نذكر منها كتاب ابن عبد الحكم عن فتح العرب لمصر الذي سيتخذ إخباريو غزو العرب لإسبانيا من حكاياته الخرافية نموذجا احتذوه في وضع حكاياتهم عن موضوعهم. ذلك هو ما نقف عليه عند ابن القوطية وابن عداري والمقري وغيرهم.

ومن المصادر الأندلسية الأخرى كتاب التاريخ المنسوب لابن حبيب المتوفى في 835م، الذي بين رينهارد دوزي Dozy Reinhart بأنه من وضع تلميذه المنسوب إليه ابن أبي الرقاع الذي كان يمزج بين علمه الخاص وتعليم أستاذه[1]. ومنها كتاب حديث الإمامة والسياسة الذي نسب إلى ابن القوطية (828-889م)، والذي بيّن دوزي كذلك بأنه قد ألف في 1062م. وعلى غرار المصادر الأخرى، فإن هذين المصدرين لا يعريان بدورهما عن المبالغات والخرافات البيّنة في ذاتها.

ومعلوم بأنه لا يمكن لجميع هذه المصادر أن تكتسي اليوم، من حيث القيمة الوثقية، أية حجة في مجال موضوعاتها التي تخبر عنها. لذلك فأهميتها لا تكمن إلا في كونها ضرورية لإعادة تأسيس جذور أساطير انتشار الإسلام في إسبانيا وفي العالم.

(1) Dozy, Reinhart Pieter, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age, Leyde : E.J. Brill, 1860.

وقد يجدر بنا التعريج على ما يتوافر اليوم من معلومات فيلولوجية حول هذه المصادر وغيرها، قبل الشروع في تناول بعض مضامينها المجلية للمدهش والمتخيل فيها.

الحولية اللاتينية المجهولة :

لقد استند مؤرخو الغزو العربي لإسبانيا على حولية لاتينية مغفلة واعتمدوها بصفة أساسية في أعمالهم، ظنا منهم بأنها قد ألفت في القرن الثامن، لتعاصر بذلك مرحلة هذا الغزو المزعوم، لكونها تروي أحداثه إلى سنة 754م. يتعلق الأمر بالحولية المنسوبة إلى إيسيدورس باسينسي Isodorus Pacense شماس مدينة باكس خوليا Pax Julia المعروفة اليوم باسم باجة. Beja ويتبين من مضامينها بأن مؤلفها قد عايش غزو العرب لإسبانيا وبسط سيطرتهم عليها، في روايته لأحداث ذلك فهو يصف كيف خربت المدن الإسبانية الكبيرة الواحدة تلو الأخرى، وأحرقت عن آخرها لتتحول إلى أنقاض مهجورة، وكيف أرهب العرب أهالي إسبانيا، فاسترقوا قسما منهم، وصلبوا قسما آخر، وذبحوا الباقين. والواقع أنه لا يقصر في مثل هذا التوصيف الذي يذكر بعلامات القيامة ونهاية العالم، بحيث لا يملك المرء فكاكا عن التساؤل عن كيفية عودة الحياة إلى إسبانيا من بعد نهاية هذا الغزو، بله ازدهار حضارتها التي لا يشك فيها أحد.

وتتوافر نسخ كثيرة من هذه الحولية، حيث تحتفظ المكتبة الوطنية بمدريد بخمسة منها، فضلا عن أنها قد ضمنت في نصوص حوليات أخرى. ومن أقدم هذه النسخ وأهمها بالنسبة لموضوعها، نسخة بمكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد، ونسخة مكتبة أرسنال Arsenal في باريس. ولقد نشر نص هذه الحولية لأول مرة ساندوفال Sandoval في كتابه عن تاريخ الشمامسة الخمسة[1]. كما ضمنها الأب إنريكي فلوريث Florez الجزء الثامن من كتابه: إسبانيا المقدسة[2]. أما تايلند Tailhand فلقد نشر نسختيها المحفوظتين في المكتبتين المذكورتين، مستفرغا جهدا نقديا ملحوظا في تعليقاته الكثيرة عليهما[3]. كما ترجمها إلى الإسبانية تيوفيليو مارتينث إسكوبارْ Teofilio Martinez Escobar، ونشرها في مجلة الفلسفة والأدب والعلم بإشبيلية[4].

---

(1) Sandoval, Historia de los cinco obispos, Pamplona, 1615.

(2) Henrique Florez. España Sagrada, Madrid : Antonio Marín, 1759, T. VIII.

(3) P.J Tailhand, S. j, L´anonyme de Cordoue. Chronique rimée des derniers rois de Tolède et de la conquête de l´Espagne par les arabes, Ernest Leroux, Paris, 1885.

(4) Teófilio Martinez Escobar, Revista de Filosofía, literatura y ciencias de Sevilla.

ولقد خلت هاتان النسختان من اسم مؤلف هذه الحولية. أما نسبتها إلى إيسيدورو باسينسي، فإنها ترجع إلى بلاخيو Pelagio شماس أوفيدو Oviedo الذي ضمن نصها الكامل في حوليته الشخصية التي تنتهي رواياتها في مطلع القرن الثالث عشر. ولقد استدل رينهارد دوزي بما فيه الكفاية، ومنذ أكثر من قرن، على خطإ بلاخيو في هذه النسبة[1]. وكذلك الشأن بالنسبة لتاياند، ولجميع من تناوله من الباحثين والمؤرخين من أمثال تيودور مومسن[2] Teodor Mommsen وفديركو سيمونيت[3] Fedrico Simonet وإدوارد سيابيدرة؛ بحيث لا أحد منهم اقترح له مؤلفا معروفا.

والواقع أنهم لم يقصروا في دراسة مختلف الإشكالات الفيلولوجية التي يطرحها هذا النص، اللهم إلاّ إشكال تحديد المرحلة الزمنية لتأليفه ووضعه، وكأنه إشكال ثانوي لا يستحق منهم إهدار وقتهم وجهدهم العلمي في دراسته!! ولا غرو في ذلك، فالحق أنهم ما صدقوا وقوفهم ولو على نص واحد لشاهد عيان مجهول يشهد على مرحلة الغزو العربي لإسبانيا، من دون أي دليل على ذلك، غير دليل انتهاء رواياته إلى سنة 745م. وغني عن البيان أنه لا يمكن الاعتداد بمثل هذا الدليل، على تلك الدعوى، ما دام يمكن لأي إخباري أو مؤرخ أن يروي وقائع تاريخية تنتهي إلى مرحلة ما من دون أن يعني ذلك، بالضرورة، بأنه قد شاهدها أو عاش خلالها. وفي مقابل ذلك، فإننا نرى من جهتنا بأن هذا النص يعود إلى نهاية القرن التاسع أو بداية القرن العاشر. فكُتاب مدرسة قرطبة الذين أحالوا على كثير من نصوص القرن الثامن، لم يذكروا قط هذه الحولية، ولا صاحبها القرطبي المزعوم ولا كتبه المفترضة. أفلم يكونوا بحاجة إليه بوصفه قرطبيا، وبحاجة إليها، لما تتضمنه عن الأعداء المسلمين، وهم الذين انتظروا أن يزودهم إليوخيو Eulogio بكتاب عن هؤلاء، تحصل عليه خلال مقامه بنبرة Navarra بشمال إسبانيا في النصف الثاني من القرن التاسع؟ كما أنه لم يذكرها غيرهم من علماء إسبانيا وإخباريها، قبل 1243م، تاريخ تضمين خمينيث دي راضة Jiménez de Rada لنصها في كتابه عن تاريخ إسبانيا Historia de Rebus Hispaniae. وفضلا عن ذلك، فإنه لم يعرف، على حد رينهارد دوزي، أي نص من نصوص القرون الوسطى ما عرفه

---

(1) Dozy, Reinhart Pieter, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age, op.cit. las primeras paginas del. vol. I.

(2) Teodor Mommsen, Crónica minora, t II, 1894.

(3) Simonet, Francisco Javier, Historia de los mozárabes de España, Real Academia de la Historia, Madrid, 1897-1903, p. 234.

نص هذه الحولية اللاتينية المجهولة، من عبث الأيدي، بالحذف منه والزيادة فيه وحشوه. ذلك هو ما يمكن أن يدركه بكل وضوح ومن دون أي جهد، أي واقف على هذا النص، عندما يقرأ في بعض فقراته أسلوبا مغايرا لأسلوبه العام، وعندما يقرأ فيه سطورا منثورة في بنيته النظمية، وعندما يقف فيه كذلك على ما وسمه من تداخلات واضطرابات كرونولوجية وقف عليها فلوريث وأشار إليها عند تضمينه هذا النص كتابه: إسبانيا المقدسة. لقد جاء في مقدمة هذه الحولية بأنها تقف في روايتها للأحداث عند سنة 754م، غير أن ذلك لم يمنعها من تأبين شماس مات في 783م!! ولم يستطع تايلند، للالتفاف على هذا الأمر، غير إرجاعه إلى ما هو من قبيل الإضافات في هذا النص.

فأية قيمة وثقية يمكن أن تخول لنص هذه الحولية بالنسبة إلى موضوعها وصفتها التي تزعمها لنفسها؛ من حيث كونها شهادة عيان على وقائع غزو العرب لإسبانيا وسيطرتهم عليها في القرن الثامن؟ الواقع أنه لا يمكن أن يتمتع بأية قيمة من هذا النوع. غير أن قيمته الحقيقية تكمن فيما هو أهم من ذلك كله. فلقد جاء هذا النص، من حيث مضامينه وأسلوبه، ليعبر خير تعبير عن الروح العامة للمرحلة الحقيقية التي كتب فيها، وليس عن وقائع مرحلة القرن الثامن التي يدعي نسبه إليها. فلم يكن ليستطيع كاتب هذه الحولية المغفلة التخلص من قبضة أسطورة غزو العرب لإسبانيا، التي كانت تنتظم العلاقات العدائية المتبادلة بين المسلمين والنصارى من أهالي إيبيرية في القرن العاشر أو فيما سيليه من القرون. أما مرحلة القرن الثامن، التي امتزج فيها الإسلام بالنصرانية الأريوسية في بوتقة خلاقة، فلم يكن ليستطيع تذكرها، أو إعادة كتابتها في حوليته، وهو يعيش على إيقاع هذا العداء المستحكم بين مشروعين دينيين وحضاريين مختلفين لكل من هؤلاء النصارى وأولئك المسلمين.

وثائق مرحلة ما بعد القرن الثامن ونصوصها :

المسكوكات :

تحتفظ المكتبة الوطنية بباريس ونظيرتها بمدريد بتوصيفات دقيقة لبعض المسكوكات التي ضربت في إسبانيا عبر التاريخ. ومن خلالها يتضح بأن هذه المسكوكات ستتداخل تدريجيا فيما بينها لتخضع بالتالي إلى تغيرات جذرية، بمقدار تداخل وتغير الرموز الدينية والسياسية التي تحيل عليها الرسوم والنقوش المسكوكة

على وجهيها. لقد تميزت مرحلة بداية القرن الثامن بمزاحمة عملات أخرى للعملة القوطية الغربية، ثم بتعويضها. فإلى جانب العملة الأموية التي عوضت صليب العملة القوطية بسارية أو صومعة، وجدت عملات أخرى، عوضته بنجمة. غير أنها لم تكن عربية أو إسلامية؛ بدليل لغتها اللاتينية، وعدم إحالتها على أي معنى إسلامي خالص. مما لا شك فيه أن هذه العملات، وإن لم تحمل رموزا أو إيحاءات سياسية بينة، فإنها تحيل بهذين الرمزين المضروبين عليها إلى انتماءات دينية أخرى. فمن ضرب هذه العملة؟ ولمن سُكَّت؟ وما هي يا ترى الجماعة الدينية الإسبانية التي كانت تتعرف إلى نفسها فيها؟ فإذا علمنا بأن النصوص اللاتينية المسكوكة عليها، تحيل إلى معاني التوحيد، وعلمنا كذلك بأن النجمة المضروبة عليها قد اتخذها أهل التوحيد رمزا لهم بصفة تقليدية، علمنا بأن هذه العملة قد كانت عملة الموحدين الإسبان من النصارى الأريوسيين. ولقد تلت هذه العملة وعوضتها عملات مزدوجة اللغة؛ بالعربية واللاتينية، قبل أن تُسَك في القرن التاسع دنانير عربية إسلامية خالصة. وفي هذه الصيرورة من القرن الثامن إلى القرن التاسع، ومن العملة النصرانية القوطية إلى العملة العربية الإسلامية، مرورا بالعملة الأريوسية والعملة المزدوجة، ما يعضد ما نذهب إليه وندافع عليه في هذه الدراسة. فلم ينتشر الإسلام في إسبانيا عنوة ولم يتم تعريبها بالسرعة التي يدعيها المؤرخون؛ نتيجة غزو عربي جامح لم يُبق ولم يذر، بل بصفة تدريجية، تعبر عن إحدى علاماتها البارزة، الصيرورة التاريخية التي أطرت تفاعلات هذه العملات فيما بينها، وشرطت مختلف تحولاتها المذكورة[1].

وثائق مرحلة القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر ونصوصها :

ظهرت في هذه المرحلة البعيدة جدا عن مرحلة القرن الثامن ثلاث حوليات عربية وإسلامية أندلسية ومغربية، وهي أخبار مجموعة، وأخبار الرازي، وأخبار ابن القوطية. وبالنظر إلى هذا البعد الزمني، فلقد أسست جميع هذه الحوليات رواياتها عن هذا القرن ضمن السياق الإيديلوجي والديني الجديد للقرن العاشر وما تلاه، الذي شرط طرائق تذكرها وصياغتها. كما أنها قد أسهمت، بما تخللها من روايات لا يمكن

(1) والحق أننا نجد عبارة : محمد رسول الله أرسله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون مرسومة على دائرة الدرهم الأندلسي. وذلك على الأقل، منذ 154 هجرية، أي خلال بداية عهد الإمارة بالأندلس، وبالضبط على عهد عبد الرحمن الأول.

راجع أوصاف هذه العملة الأندلسية وصورها :

Las monedas de Al-Andalus, HYRERLTINK"http://www.islamyalandalus.org/nuevo/historia/bibliografia.htm".

تصديقها، في ازدهار كثير من الحكايات، وعدد عديد من الخرافات الموازية لأسطورة الغزو العربي لإسبانيا، التي استثمرتها الحوليات النصرانية في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر، وأعادت إنتاجها، لتضمن لها بذلك شروط استمراريتها وديمومتها.

أخبار مجموعة :

تشكل هذه الأخبار التي نشر نصها العربي وترجمه إلى الإسبانية إيميليو لافونتي ألقنطرة[1]، مصدرا مغربيا جمع فيه صاحبه المجهول في 1007م، مجموعة من الحكايات، التي بقدر ما كانت تروى من جيل إلى آخر، بقدر ما كانت تبالغ في إضفاء هالة التقديس والبطولة على عبور الأسلاف المغاربة إلى إسبانيا في القرن الثامن، وعن ملحمتهم في هذه البلاد. لقد تحول هؤلاء الأسلاف، الذين أسهموا في الصراع الدائر بين الموحدين والمثلثين من أبناء الجزيرة، إلى أبطال أسطوريين وتحولت أعمالهم في هذا المضمار إلى ملاحم معجزة. غير أن كل هذا لم يمنع رينهارد دوزي وليفي بروفنسال وغيرهما من المؤرخين من اعتماد هذا المصدر بوصفه شهادة عن أحداث الغزو العربي لإسبانيا.

أخبار الرازي :

يتعلق الأمر بنص يروي فيه صاحبه الرازي أحمد بن موسى، من أهل القرن العاشر، الملقب بالتاريخي، جملة الوقائع التاريخية لشبه الجزيرة الإيبيرية الممتدة من قبيل مرحلة بداية غزوها العربي على عهد آخر ملوك القوط بإسبانيا إلى سنة 976م، مرورا بما ترتب عن ذلك من الأحداث المرافقة لتكون الإمارات والمماليك الإسلامية الأندلسية بالجزيرة. وينقسم هذا النص إلى ثلاثة أقسام: يتعلق أولها بالجغرافيا، وثانيها بأحداث الغزو، وثالثها بالأحداث المترتبة عنه. ويعد النص العربي المفترض لهذه الأخبار من النصوص المفقودة إلى يومنا هذا، والتي وصلتنا عبر طريق طويل ومنعرج. فلقد قرأ في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر مسلم مجهول بلسان برتغالي

---

(1) Emilio Lafuente Alcántara, Colección de crónicas arábigas, t I, Real Academia de la Historia, 1867.

لقد نشر إبراهيم الأبياري هذا الكتاب بعنوان أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذِكْر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم، بيروت ـ القاهرة، ط2، 1989، ولقد حاولت دولوريس أولفير بيريث Dolores Oliver Pérez تحديد مؤلف هذه الحولية في مقالتها الموسومة.

LOS AUTORES DEL EL AJBÂR MAYMÛ'A : LOS TAMMÂM B. 'ALQAMA?
http://www.islamyal-andalus.org/publicaciones/ajbar_maymua/cap01.htm.

هذا النص على الراهب خيل بيريث Gil Peréz الذي ترجم إلى الإسبانية ما كان يسمعه بالبرتغالية. لذلك فإن هذا النص، يطرح إشكالات فيلولوجية كثيرة متعلقة بصحة نسبته إلى الرازي، وبما ترتب عن ترجمته الشفهية والفورية من العربية إلى البرتغالية إلى الإسبانية، من تشويهات، فضلا عما لحقه، مما لا شك فيه، بعد ذلك من حذوفات وإضافات. وتبعا لكل هذا، فكيف يمكن استخراج الأخبار التي يمكن أن تتخذ قيمة تاريخية ما من مجموع روايات هذا النص الذي وصلنا على هذا الشكل؟ وفي هذا المضمار، فلقد نبه باسكوال دي غاينغوس[1] على أن القسم التاريخي الأول من هذا الكتاب الذي يتحدث عن رودريغو ليس من وضع كاتب عربي، بل هو مستوحى من رواية مشهورة عن هذا الملك ند بها في 1443م قلم الروائي بيدرو ديل الكورالPedro del Coral أما إدواردو سيابيدرة فإنه يرى بأن هذه الرواية هي التي استوحت الرازي وليس العكس[2]. وفي مؤلفه الضخم عن أصول الرواية، يكتفي مينينديث بلايو Menéndez Pelayo بإبراز الأشباه والنظائر بين ذاك العمل التاريخي وهذا العمل الروائي المحض. وبصرف النظر عن هذا الأمر، فإن أهمية هذه الحولية ترجع بالنسبة إلينا إلى كونها، مثل الحولية اللاتينية المجهولة، قد أنتجت داخل التقليد الأندلسي الإخباري للقرن العاشر. وذلك على الرغم من قلة ما يمكن الظفر منها به من أخبار تاريخية مقبولة، بعد إخضاعها بطبيعة الحال إلى التمحيص والنقد في ضوء سياق إنتاجها، وفي ضوء مقارنتها بأخبار أخرى. فلقد أخذنا منها، أخبار المجاعات التي اجتاحت إسبانيا خلال القرن السابع والقرن الثامن، في ضوء إعادة تأسيسنا لتاريخ صيرورة تراجع الرطوبة عن الصحراء وجفافها.

ولقد نشر نص هذه الأخبار باسكوال دي غايانغوس في دراسته المذكورة، وكذلك فعل إدواردو سيابيدرة، مضيفا إليه ملحقا في تاريخ أواخر ملوك القوط الغربيين في إسبانيا.

---

(1) Pascual de Gayangos, Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del moro Rasis leída en la Real Academia de la Historia por Don Pascual de Gayangos al tomar posesión de su plaza de académico supernumerario, Memoria de la Real Academia de la Historia, t. VIII, 1850.

أبو بكر أحمد بن محمد الرازي، ويعرف أيضا بابن لقيط، (ت.344هـ/955م). يراجع كتاب الدكتور أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص377.

(2) Eduardo Saavedra, Estudio sobre la invasion de los rabes en Espana, Madrid, 1892.

أخبار ابن القوطية :

على الرغم من كون نسب هذا الإخباري، ابن القوطية أحمد بن عمر، يرجع إلى إحدى حفيدات الملك القوطي غيطشة Vitiza الذي أخذ رودريغو عرش إسبانيا من أبنائه، فإنه لم يحتفظ في أخباره بأية ذكريات عائلية عن أواخر ملوك القوط الغربيين بإسبانيا. ولا غرو في ذلك، فمسلسل التعريب الذي هيمن على إسبانيا خلال وضعه لهذه الأخبار في القرن الحادي عشر، حال بينه وبين إمكانية إعادة تأسيس المناخ الحقيقي للواقع التاريخي لمرحلة القرن الثامن التي كانت قد ولت وانتهت. فإن لم يكن من الممكن بالنسبة لسليل القوط أن يسترجع ذلك، فكيف كان يمكن لغيره أن يسترجعه؟

لقد جهز بسكوال دي غاينغوس وإدواردو سيابيدرة وفرانسيسكو كوديرا النص العربي لهذه الحولية للنشر في 1868. غير أن خوليان ريبيرا إي طارغو[1] هو الذي نشره رفقة ترجمته إلى الإسبانية في 1926.

ومن المصادر الأندلسية الأخرى كتاب التاريخ المنسوب لابن حبيب المتوفى في 835، الذي بين دوزي Dozy بأنه من وضع تلميذه المنسوب إليه ابن أبي الرقاع الذي كان يمزج بين علمه الخاص وتعليم أستاذه. ومنها كتاب حديث الإمامة والسياسة الذي نسب إلى ابن قتيبة (828–889)، والذي بيّن دوزي بأنه قد أُلف في 1062. وعلى غرار المصادر الأخرى، فإن هذين المصدرين لا يعريان بدورهما عن المبالغات والخرافات البيّنة في ذاتها[2].

وتتوفر في هذا المضمار كذلك مصادر مصرية كان لها دور أساسي وحاسم في تكون أسطورة الغزو وترسخها. نذكر منها كتاب ابن عبد الحكم عن فتح العرب لمصر الذي سيتخذ إخباريو غزو العرب لإسبانيا من حكاياته الخرافية نموذجا اتبعوه في وضع حكاياتهم عن موضوعهم.

---

(1) Ibn al-Qutiyya, Muhammad b. `Umar , Ta'rij iftitah al-Andalus. Español-Arabe. Historia de la conquista de España de Abenalcotía el Cordobés : seguida de fragmentos históricos de Abencotaiba, etc. / traducción de Julián Ribera y Tarragó. Colección de obras arábigas de historia y geografía; t. 2, Madrid : Tipografía de la "Revista de Archivos", 1926.

[ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز الأندلسي القرطبي (367 ـ 977) تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة ـ بيروت، 1999.

(2) أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي القرطبي (توفي 238 هجر ية) اشتهر بوصفه من أهم فقهاء المالكية بالغرب الإسلامي وله مؤلفات فقهية عديدة. ومن غير الفقهية مؤلفه: استفتاح الأندلس. اعتنى به عبد الغني مسطو ونشره موسوما: كتاب التاريخ، المكتبة العصرية، 2008.

لقد ترجم دو سلان هذه الحولية إلى الفرنسية ونشرها ملحقة بترجمته لتاريخ البربر من تاريخ ابن خلدون[1]. كما ألحق إيمليو لا فونتي ألقنطرة نصوصا منها بترجمته المذكورة لأخبار مجموعة.

ومعلوم بأنه لا يمكن لجميع هذه المصادر أن تكتسي اليوم، من حيث القيمة الوثقية، أية حجة في مجال موضوعاتها التي تخبر عنها. لذلك فأهميتها لا تكمن إلا في كونها ضرورية لإعادة تأسيس جذور أساطير انتشار الإسلام في إسبانيا وفي العالم. لذلك وجب انتظار مجيء المؤرخ التونسي من أصل أندلسي عبد الرحمن ابن خلدون لكي ترقى الكتابة التاريخية العربية معه إلى مستوى نقد الأخبار وتمحيصها، بما في ذلك، بطبيعة الحال، أخبار فتح العرب لإسبانيا.

خصائص جميع هذه الحوليات وسماتها العامة

العجيب والغريب في الحوليات اللاتينية :

يتضح من المعلومات المتوافرة لنا اليوم بأن أحداث القرن الثامن لشبه الجزيرة الإيبيرية لم تستجب إلى منافسات أو صراعات سياسية بقدر ما استجابت إلى صراعات دينية وعبرت عنها وواكبتها. غير أن الإخباريين الأوائل الذين تعرضوا إليها لم يهتموا بكيفية حصولها وأضربوا عن اعتماد أي تفسير واضح لأسباب وقوعها ومسبباتها، قبل أن يعتمد لها في وقت لاحق خيمنيث Jiménéz de Rada تفسيرا دينيا نصرانيا، لمواجهة تفسيرها الإسلامي. وضمن هذا الإضراب، لم يهتم أحد من هؤلاء الإخباريين بتحديد العدو الذي تغلب على أهله وبلده. لا أحد منهم يذكر لنا هل يتعلق الأمر بمتهرطق كافر، أم بكلداني أو عربي أو مسلم، أم بجار قريب، أو مغامر أجنبي، أم بدولة أجنبية أرسلت جيوشها للظفر به وبأهله. ولقد كان لهذا الصمت عن هذا العدو وغموضه دور كذلك في تكون أسطورة الغزو العربي لإسبانيا. وفي مقابل ذلك فلقد حددت الحوليات اللاتينية عدوها بكل دقة عندما أرخت لانتصاراتها عليه، من دون أي تفريط في طابعها العجائبي. ذلك هو ما نقف عليه مثلا عند بيكلرة Biclara في إخباره عن هزيمة ستين

---

(1) Ibn Khaldoun, `Abd al-Rahman b. Muhammad , Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale; traduit de l'arabe par le Baron de Slane ; nouvelle ed. publiée sous la direction de Paul Casanova. 2 ed, Paris : Librairie Orientaliste : Paul Geuthner, 1969.

ألفا من الأريوسيين في المنطقة الإيبيرية أمام ثلاثة مائة جندي من جيش ملك طليطلة في سنة 587م. وهو ما يمكن الوقوف عليه كذلك في حولية ألفونسو الثالث التي تخبر عن معركة كابضونغة Cavadonga التي قتل فيها النصارى مائة وعشرين ألفا من أعدائهم الكلدانيين أو العرب، وأرغموا ستين ألفا منهم على الفرار، قبل أن ينهار عليهم جبل من جبال أسطورياس ليقبرهم تحت أنقاضه إلى الأبد. ولكي يرد صاحب هذا الخبر على استنكار قارئه المفترض لكيفية وقوعه، لم يجد خيرا من مقارنته بما له في توراته عن إقبار الرب لفرعون وجنوده بالبحر الأحمر لتخليص بني إسرائيل من شرهم[1]. ولا غرو في ذلك، فالطابع العجائبي قد وسم مراحل وضع هذه الحوليات، لاضطرار الإخباري القديم بالاستنجاد بمثل هذه التفسيرات الميتافيزيقية للأحداث، ليبقى متسقا مع انتماءاته الدينية. ولا يعني هذا الأمر بأن ذاك الطابع العجائبي سينتفي عن أعمال المؤرخين المحدثين والمعاصرين. فالواقع أنه ما زال يتسلل إلى صفحات كتبهم وأبحاثهم، حيث ينعكس، تبعا لذلك، على المقررات المدرسية، وعلى تشكيل الوعي العام ببعض القضايا التاريخية من مثل الغزو المعني عندنا بهذا الكتاب. كما يتخذ هذا التسلل أشكالا مختلفة؛ لعل من أبرزها إصرار هؤلاء المؤرخين على عدم استعادة البحث في أساطير هذا الغزو في ضوء مناهج النقد التاريخي الحديثة والمعاصرة، واعتبارها من القضايا المحسومة أو المتجاوزة.

وهكذا يجري تعطيل آليات النقد التاريخي عندما يتعلق الأمر بروايات تاريخية مترسخة أو بروايات محرجة لقناعاتهم الدينية والإيديولوجية. وذلك في الوقت الذي لا يقصرون في تشغيل نفس الآليات على روايات تاريخية أخرى، لِيكيلوا بذلك نفس الكيل بمكيالين مختلفين. فهذا الأب فلوريث، الذي ينتمي إلى القرن الثامن عشر، يفسر لنا ظفر جيلبير الأول Gilbert I ملك فرنسا بأراضي أملريكو التابعة لملك طليطلة، بعدد جيشه الذي كان يفوق عدد جيش هذا الأخير. غير أنه سرعان ما يعصف بمثل هذا النقد، حيث لا يجد أية غضاضة في قبول خبر بكلارا الذي يذهب فيه إلى أن الكوندي كلوديو Conde Calaudiobli قد غلب بثلاثمائة جندي جيشا عرمرما من ستين ألف مقاتل! ولقد استطاع إلى ذلك سبيلا لا لشيء إلا لأنه كان يقاتل عن حق الهراطقة الأريوسيين.

مما لا شك فيه أن القارئ لَمُستغرب كيف يقبل فلوريث من عصر الأنوار مثل هذه الرواية، غير أن عليه أن يستغرب كذلك كيف يقبل، بكل تقاعس نقدي، المؤرخون

(1) Gómez Moreno, “las primeras crónicas de la Reconquista, El ciclo de Alfonso III”, Boletín de la Historia, 1932, p 615.

والمتخصصون المعاصرون في هذا القرن الحادي والعشرين روايات اجتياح العرب الغزاة لمساحات شاسعة ووعرة من الأراضي الممتدة شرقا من خليج غابس بليبيا إلى جبال البرانس غربا في القرن الثامن وفي مدة لا تتجاوز إحدى عشرة سنة!! ومع ذلك، فلقد قبل الجميع هذه المفارقة المبثوثة في جميع النصوص التاريخية وفي جميع المقررات الدراسية بمشارق الأرض ومغاربها.

والواقع أنه إذ ترجع رواية بيكلرة إلى قناعته الدينية المتمثلة في عدائه للأريوسيين، فإنها تنسجم كذلك مع روح العصر الذي كان يكتبها فيه، وإلى نمط التفسير الذي كان معتمدا لجميع الحوادث التاريخية ومنطقه المهيمن عليها. يتعلق الأمر بالتفسير الميتافيزيقي الضارب لجذوره في الروايات الخرافية للعهد القديم التي كان يعتقد فيها جميع الذين كان يكتب إليهم هذا العبد. فإن كان شمسون الجبار قد أتى بما لا يمكن تصديقه، فلماذا لا يقدر على ذلك كلاوديو فيقضي بثلاثمائة على ستين ألف؟

أما تصديق المحدثين والمعاصرين لما جاء في الحوليات عن الغزو المذكور من قبيل هذه الخرافات، فإنه يحتاج كذلك إلى تفسير. فعلى الرغم من كون تصورات التاريخ ونظرياته ومناهجه قد تغيرت وتطورت منذ عصر النهضة بشكل يتيح للمؤرخ الاستعصام بها من الخطإ والزلل، فالواقع أنه عندما تهيمن عليه الأحكام المسبقة الدينية والوطنية وغيرها فإنه مفرط لا محالة في الروح النقدية لتلك التصورات وهذه المناهج.

يعتقد المؤرخون بأن العرب الرحل قد قدموا من حجازهم إلى إسبانيا، فغزوها عسكريا وظفروا بها وبأهلها خلال سنوات معدودات. غير أنه لا أحد منهم يبسط أمامه خريطة ليتساءل في ضوء ما تبرزه له من تضاريس، عن طول الطريق التي كان على الغزاة قطعها للقيام بذلك، وعن وعورته المتمثلة في صحاريه القاحلة وجباله ووديانه المنيعة. ويؤكد المؤرخون كذلك بأن حركة الاسترداد النصراني لشبه الجزيرة الإيبيرية من العرب المسلمين، قد بدأت مع معركة كاباضونغة المذكورة، من دون أن ينبه أي منهم على استحالة اجتماع الأعداد المذكورة من الجيوش في جيب لا يمكن أن يتسع إلا لعدد قليل من المقاتلين.

وفضلا عن كل هذا فإنه لا بد من التساؤل مرة أخرى عن مغزى تشغيل المؤرخين في هذا المضمار لآليات التمحيص والنقد التاريخي في بعض الأحيان وتعطيله أحيانا

أخرى. فلماذا ينقد فلوريث رواية بيكلرة المذكورة ويرفض ما جاء فيها من أخبار غير معقولة، ويعدها مجرد خرافات، في نفس الوقت الذي يعطل فيه هذا النقد، ليقبل ما جاء في حوليات أخرى من خرافات مثيلة عن الغزو العربي المزعوم لإسبانيا؟ الظاهر أنه لم يجد أية غضاضة لنقد العباد بيكلرة، لأنه لا أحد من النصارى أو غيرهم سيتحرج اليوم من الاعتراف بالمنافسة الشرسة التي جمعت بين الأريوسيين والكاثوليك في القرن السابع من تاريخ إسبانيا. وفي مقابل ذلك، فإنه لم يتجشم ولا يتجشم المؤرخون معه اليوم مشقة نقد الروايات العجائبية التي تحدثت عن الغزو المذكور؛ بحيث تكتسي عندهم طابع الحقائق اليقينية، والمسلمات البديهية التي لا تحتاج إلى البرهنة عليها. لماذا يميز المؤرخون بين الخرافات فيرفضون منها ويقبلون؟ لماذا تختفي بعض الخرافات من كتب التاريخ وتبقى أخرى قائمة فيها ومهيمنة عليها باستمرار؟ لماذا اجتثت مثلا خرافة قدوم محمد ﷺ إلى إسبانيا وتبشيره بدينه بين أهلها من تاريخ الأندلس[1]، في نفس الوقت الذي ترسخت فيه خرافة الغزو العربي الإسلامي لنفس هذه البلاد؟ مما لا شك فيه أن هذا الأمر يؤول إلى أن فكرة التبشير بالإسلام لم تكن مقبولة في ذاتها من طرف الإخباريين اللاتين القدماء. فلقد كانوا يرفضون رفضا تاما فكرة احتمال انتشار الإسلام بين الإسبانيين عن طريق التبشير به بينهم، في الوقت الذي يرسخون فيه فكرة أنه لم يدخل الإسبانيون في هذا الدين إلا عنوة وبحديد الغزو العربي وناره المحرقة. لكل هذا وذاك، فإن السؤال عن معيار الانتقاء والاختيار بين الخرافات يبقى مطروحا على المؤرخين الذين يخرجون كناسة النقد التاريخي لكنس العجيب والغريب من خرافات الحوليات اللاتينية، ويخفونها بعد ذلك، للإبقاء على البنية العامة لأسطورة الغزو التي أخذوها من نفس الحوليات.

الروائي والمتخيل في الحوليات العربية :

لا تهيمن الأفكار والمواقف الدينية المسبقة في هذه الحوليات بنفس القدر والدرجة التي هيمنت بهما على الحوليات اللاتينية. فالواقع أنها تتوارى لتفسح المجال لهيمنة آليات التخييل على أصحابها وصياغتها وجمهورها المعني بها، إلى حدّ أننا لا

(1) يتعلق الأمر بالفعل بخرافة. وهي مدونة في نص مجهول ملحق بكتاب تاريخ القوط لقديس إسيدور Historia de los Godos, de San Isidoro Flórez, Enrique, España sagrada, op. cit, t V pp 285-286. يراجع فلوريث.

نبالغ أبدا عندما نذهب بأنها قد وضعت لتسلية قرائها أكثر مما وضعت للتأريخ لأحداث وقعت بالفعل. لذلك جاءت مليئة بكثير من الأقصوصات والمستملحات التي تذكر بحكايات ألف ليلة وليلة. ويمكن في هذا المضمار التمثيل على ذلك بجملة من الأمثلة. فلقد جاء في الحولية المغربية البربرية أخبار مجموعة بأن قائدي الفتح العربي لإسبانيا قد اختلفا وتخاصما إلى الحد الذي بات عليهما نقل خصومتهما إلى دمشق أمام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، ثم أمام أخيه الذي استخلفه سليمان بن عبد الملك. والغريب أن مرجع هذه الخصومة لا يكمن فيما كان يمكن أن يختلف فيه قائدان عسكريان أمام خليفتهما حول المشكلات السياسية والقتالية التي كان من المفروض أن تنتج عن غزو شبه الجزيرة الإيبيرية المترامية الأطراف. كلا، بل يرجع إلى تحديد من منهما غنم مائدة سليمان من خزائن ملوك القوط بإسبانيا. يتعلق الأمر في رواية عبد الملك بن حبيب السلمي بالمائدة التي "قيل أنها كانت من ذهب منظومة بالدر والياقوت والزمرد، التي يزعم الناس أنها مائدة سليمان بن داوود عليهما السلام". ولقد وصلت هذه المائدة إلى إسبانيا عندما وقعت في سهم ملكها الذي كان قد غزا "في الزمن الأول" بيت المقدس لمعاقبة "اليهود الذين ادعوا قتل عيسى بن مريم عليه السلام". كان طارق هو من غنم هذه المائدة، غير أن موسى طلبها منه، "فأتاه بها ناقصة الرجل، وكان قد اقتلعها" من قبل. وعندما ادعى بأنه هو الذي أصابها كذّبه طارق وقال "بل أنا أصبتها، والدليل على ذلك الرجل الناقصة منها معي، ثم أخرجها فصدقه الوليد وقبل قوله وأعظم جائزته". ماذا وقع بعد ذلك لهذين القائدين؟ يذهب بعض الرواة إلى أن الخليفة جلد موسى بن نصير وسماه بالشيخ الكذاب. ويكتفي صاحب أخبار مجموعة بمعاقبته بالتغريم فقط. أما طارق فلا أحد يذكر لنا أين ذهب بمائدته والأغرب من كل هذا، أن أيا من هذين الغازيين الكبيرين لم يعد إلى إسبانيا، في الوقت الذي كانت عودته إليها ضرورية، لتهدئة الصراعات والنزاعات التي قامت بها بين العرب طيلة سبعين سنة بعد رحيله عنها.

وشبيهة بهذه الحكاية يروي ابن حبيب قصة أخرى متعلقة كذلك بملحمة موسى بن نصير الأندلسية، ليفسر بها، كيف كان يظفر المسلمون بكل سهولة ويسر وسرعة بقلاع إيبيرية المنيعة. فلقد وجد هذا القائد وجنوده أنفسهم يحاصرون "حصنا من حصون شرق الأندلس بضعا وعشرين ليلة" ويلحون في قتاله ولا يقدرون عليه لمنعته. ولما تسلل إليهم اليأس منه، رفع هذا القائد "يده إلى السماء وأقبل على الدعاء والرغبة والتضرع والبكاء؛ فانهدمت ناحية من سور الحصن التي تليه، وجالت الخيل على هدمه".

كما يروي ابن حبيب في بداية القرن التاسع عن نفسه كيف رحل من أندلسه إلى مصر ليأخذ عن علمائها. وبالفعل، فلقد أخذ عن أحدهم، وهو الأندلسي المعني بتاريخ بلاده، أخباره عن ملحمة موسى بن نصير بهذه البلاد. كما أخذ عن عبد الله بن وهب، وهو مصري كذلك، أخباره عن عبور طارق إلى الجزيرة الإيبيرية. فإذا علمنا بأن حبيبا هذا هو أول من أخبر عن هذه الأحداث من إخباريي الأندلس، الذين سيأخذون عنه بدورهم كثيرا من أخبارهم، علمنا كيف تسللت الروايات المصرية إلى هذه الأخبار الأندلسية والمغربية، وكيف هيمنت عليها، لتشكل بذلك ما نسميه من جهتنا بالتقليد المصري فيها.

ومن الأدلة على ذلك ما رواه صاحب أخبار مجموعة، في معرض تفسيره للسرعة المذهلة التي تم بها الغزو الإسلامي للجزيرة الإيبيرية، من أخبار غير معقولة عن خدعة موسى بن نصير لأهالي مدينة ميردة Merida فلكي يدفعهم إلى الاستسلام استقبل ممثليهم في الجولة الأولى من مفاوضتهم، بلحيته البيضاء، ثم فاوضهم في الجولة الثانية بلحية حمراء، قبل أن يفاوضهم في النهاية بلحية سوداء. ولقد كان ذلك كافيا لكي يظن هؤلاء المفاوضون بأن الرجل ومن معه يتغيرون ويتحولون بمشيئتهم من شيوخ هرمين إلى شباب أقوياء، مما يرجح بأنهم بالفعل من أكلة البشر. وكأنه لم يكن بمقدور هؤلاء المفاوضين التمييز بين اللحى الأصلية واللحى المخضبة والمصبوغة. مما لا شك فيه أن هذا الإخباري كان قد قرأ تفسير ابن عبد الحكم، وهو إخباري مصري، لنجاح الغزو المذكور ولسرعته وهوله. لقد خدع طارق الإيبيريين وجعلهم يعتقدون بأن العرب من أكلة لحوم البشر، عندما قتل جنوده أسيرا من أسراهم ثم طبخوه في قدر، وطبخوا لحما آخر في آنية ثانية، ثم أراقوا خفية عن بقية الأسرى القدر الأولى، وأخذوا يأكلون أمام أعينهم لحم الثانية، قبل أن يطلقوا سراحهم ليروِّعوا بقية الإيبيريين بما شاهدوه ويدفعوهم إلى الاستسلام[1].

وبذلك يتضح بأنه لا يمكن أن تكون محل تصديق المؤرخ الحصيف مثل هذه النصوص العربية والبربرية، التي هيمن على قسم كبير منها الخيال الروائي، وانحصر فيها الفعل التأريخي الرصين. فهي لا تقدم، مثلها في ذلك مثل نظيراتها اللاتينية والأندلسية، تفسيرا مقنعا للغزو العربي لإسبانيا ولمصلحة من تم هذا الغزو. وتكتفي

(1) لقد وردت هذه الخدعة في كثير من قطع الآداب والتاريخ العالمية. كما أنها تشكل في ذاتها، كما هو معروف موضوعا من موضوعات الفلكور الحربي العالمي كذلك.

في هذا المضمار بإنتاج مجموعة من الخرافات التي ما فتئت تتردد في المقررات الدراسية بين أطفال العالم بأسره، وفي كتب كبار المؤرخين وبين عموم المتخصصين. علما بأنها، وكما ذكرنا ذلك سالفا، لا يمكنها أن تصمد في وجه النقد التاريخي. ومع ذلك، فلا بد من الاستئناس بها لإعداد تصور تقريبي للأحداث التي جرت في إسبانيا خلال القرن الثامن. وفي هذا الصدد، فإن تفضيلاتنا ستنصرف إلى اللاتينية والأندلسية منها، بحيث لن نحتاج إلى المصرية والمغربية منها إلا عندما سيتعلق الأمر بتأكيد خبر محتمل من أخبار الأولى. وبالنظر إلى عوامل عديدة، عرجنا على بعضها وسنتناول أخرى في فصول لاحقة من هذا الكتاب، فلقد حولت هذه الأخبار اللاتينية النصرانية والعربية الإسلامية حدثا عرضيا في تاريخ العلاقات المتبادلة بين شبه الجزيرة الإيبيرية والشمال الغربي لإفريقية إلى حدث تاريخي جسيم، تنسلت من الحديث عنه وروايته أسطورة الغزو العربي لإسبانيا التي لم يزدها توالي الزمان إلا رسوخا في الأذهان والعقليات والمشاعر. يتعلق هذا الحدث بموت الملك القوطي الغربي غيطشة الذي خلف وراء ظهره أبناء غير مؤهلين لاستخلافه بالنظر إلى صغر سنهم. لذلك قامت جماعة من الإسبانيين بانتخاب رودريغو ملكا عليهم بطليطلة، طبقا للمقتضيات الجرمانية في انتخاب الملوك القوط. غير أن هذا الأمر لم يحظ بقبول أغلبية الإيبيريين وبرضاهم، مما أدى إلى نشوب حرب أهلية بين أنصار رودريغو وحلفائه السياسيين والدينيين وبين أنصار ورثة غيطشة وحلفائهم السياسيين والدينيين كذلك[1]. ضمن هذا الإطار طلب هؤلاء النصرة من حاكم منطقة طنجة من شمال المغرب الذي كان في تلك المرحلة من تاريخه تحت السيادة القوطية. وبالفعل هب يوليان إلى نصرتهم وأرسل إليهم بضع مئات من المحاربين الذين عبروا مضيق جبل طارق ليساعدوا حلفاءَهم الإيبيريين على هزم الملك المغتصب لعرشهم وجنوده في معركة وادي لكة قرب قادس. ولقد توالت بعد ذلك معارك هذه الحرب الأهلية ومناوشاتها بين مختلف قاداتها وأنصارهم، طيلة ستين سنة متتالية.

يتعلق الأمر إذاً بمساهمة مغربية عرضية في أحداث حرب أهلية إيبيرية تحولت، على يد الإخباريين العرب المسلمين واللاتين النصارى الذين أخبروا عنها، بعد انصرامها بأكثر من قرن ونصف، إلى ملحمة خرافية، ثم إلى أقوى الأساطير التاريخية استعصاء على النقد ورسوخا في الأبحاث والعقول. ولا غرو في ذلك، ما دامت قد أفلحت

(1) فإذا علمنا بأن خال هؤلاء الورثة الذي جيّش لهم الأنصار كان من كبار شمامشة الأريوسية الإيبيرية، علمنا بأن أنصار رودريغو وأنصاره كانوا من النصرانية الكاثوليكية.

هذه الأسطورة على يد هؤلاء الإخباريين، ثم على يد من تلاهم من المؤرخين، في تفسير تحول إسبانيا من النصرانية إلى الإسلام ومن الثقافة الرومانية الغربية إلى الثقافة الإسلامية الشرقية. والحق أنه إن كنا قد فسرنا موقف أولئك الإخباريين في ضوء السياق التاريخي لوضع حولياتهم وفي ضوء تواضع إمكانياتهم النقدية، فإنه لا يمكننا أن نحمل موقف هؤلاء المؤرخين المحدثين والمعاصرين إلا على محمل تقاعسهم عن تشغيل عدتهم النقدية لمراجعة هذا التفسير الميكانيكي والساذج للأحداث والوقائع.

غير أنه إن لم نربط بين ذاك الحدث العسكري المتمثل في عبور المغاربة إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وبين دخول الإيبيريين في الإسلام واندراجهم في الثقافة الإسلامية الشرقية، فكيف يمكن أن نفسر من جهتنا تفسير تحول هؤلاء عن نصرانيتهم وثقافتهم الغربية إلى ذاك الدين وهذه الثقافة؟

لقد اتضح لنا اليوم بأن انتشار الإسلام والحضارة العربية في العالم لم يتم بفضل الإمكانيات العسكرية والهجومية والحربية للمسلمين، بل يرجع إلى ما يتمتع به الإسلام، مثل غيره من الأديان الأخرى والحركات المشابهة، من إمكانيات أخرى، كان لها الدور الأساس والحاسم في انتشاره. يتعلق الأمر بمختلف الأفكار والمبادئ الروحية والعقدية والشرعية والحضارية التي جاء بها، والتي نسميها من جهتنا بالفكرة القوة Idea-fuerza، أو بالفكرة القادرة على إحداث أقوى التغييرات وأعمقها في العالم وفي الناس. لذلك سنهتم في الفصل الموالي من هذا الكتاب بدراسة هذا الأمر، مثلما سنعنى في فصول القسم الثاني منه، باستعراض كيف تطورت الأفكار والمواقف الدينية بصفة تلقائية في إيبيرية وفي الشرق الأوسط، قبيل القرن الثامن وخلال ما تلاه من قرون، في اتجاه بلورة حالة روحية وذهنية وتشكيلها بالشكل الذي سيساعد عقيدة محمد[1] على الانتشار السريع في هذه البلدان. والحق أننا نتوفر على كثير من المصادر والشواهد المختلفة التي تسمح لنا بالاستدلال على هذا الأمر أكثر مما نتوافر عليه للنظر في الغزو المزعوم. فمن حسن طالعنا في هذا المضمار، أن التاريخ قد احتفظ لنا بنقوش وخطوط متعلقة بذلك، وبمنشآت عديدة، من مثل مسجد قرطبة، التي يقترن فنها المعماري

(1) ولا بد من التنبيه في هذا المضمار على أن إغناسيو أولاغوي لم يستطع أن يتخلص من الفكرة الاستشراقية التي لا ترى في الإسلام غير دعوة محمدية، وتربط بين الدين وبين النبي الذي جاء به على عادة النصارى في ذلك. وهي فكرة استشراقية قديمة. غير أنه لا بد من القول كذلك، بأن أولاغوي لم يقصر في الرد على كثير من الدعاوى الاستشراقية ودحضها في محمد ﷺ، وتكلم عنه وعما جاء به بكل احترام وتقدير. وذلك في وقت لم تكن فيه قد ظهرت بعد المناهج المعاصرة في نقد الاستشراق.

بحركة الأفكار الدينية المذكورة. وذلك فضلا عن نصوص لاتينية متعددة تسمح قراءتها بإعادة تأسيس نفس الحركة التي تواجه داخلها وبمقتضى منطقها الإسبانيون النصارى الأريوسيون الموحدون والإسبانيون النصارى الكاثوليك المثلثون فيما بينهم. وهي نصوص لا يتسرب الشك إلى صحتها، دونت نسخها خلال حياة مؤلفيها فيما بين القرن الرابع والقرن التاسع، وما زالت محفوظة بصورة جيدة في المكتبات الوطنية والمكتبات الكاتيدرائية ومكتبة الإسكوريال. وهي بذلك تشكل في ذاتها كنزا قيما من الوثائق الكفيلة، كما قلنا، بتتبع حركات الأفكار الدينية المذكورة، لرسم معالم الأريوسية وخصائصها، ولإلقاء الأضواء الكاشفة على الأحداث والوقائع التاريخية التي عرفتها إسبانيا فيما بين القرن الثامن والقرن التاسع؛ أي خلال مرحلة تفاعل هذه الأريوسية مع الإسلام في السنكريتية الخلاقة التي ستسمح بانتشاره في هذه البلاد وترسخه فيها.

التوجهات الغربية حول تنميط الإسلام كدين إرهاب : قراءة تحليلية نقدية

الدكتور عبد القادر لشقر(*)

مقدمة:

أصبح موضوع الإرهاب من أكثر الموضوعات إثارة للجدل ضمن أدبيات وتحليلات مختلف الباحثين الأكاديميين ورجال الفكر والسياسة والإعلام. بل غدت قضية العنف والإرهاب تشغل بال واهتمام الرجل العادي كذلك، ويرجع ذلك إلى تصاعد وتيرة أعمال العنف وتطور أشكال الممارسات الإرهابية في السنوات الأخيرة، إذ تجاوزت آثارها حدود المجتمع الواحد لتصبح ظاهرة تعني كل الدول والمجتمعات.

بادئ ذي بدء، تجب الإشارة إلى أنه لا يوجد تعريف جامع مانع للإرهاب، إذ تتعدد التعريفات وتتداخل لدرجة أن أحد الباحثين قد أحصى حوالي 108 تعريفات للمفهوم، الأمر الذي يثير اللبس والغموض عند التعامل معه(1). ذلك أن التعامل مع الظاهرة الإرهابية يتخذ اتجاهات مختلفة ترتبط أساسا بالانتماءات العقائدية والخلفيات المرتبطة بالمصالح السياسية والاقتصادية للدول والجماعات المعنية، فبعض الأطراف تحاول توظيف ظاهرة الإرهاب ومضاعفاتها كسلاح في الصراع الذي تخوضه ضد أطراف أخرى(2). إذ يحاول كل طرف أن يبعد على نفسه تهمة الإرهاب ويلصقها بالآخرين، فالآخرون دائما هم الإرهابيون. وحتى لو مارس طرف ما الإرهاب، فإنه يحاول إضفاء طابع المشروعية على إرهابه، كأن يطلق عليه مثلا "الإرهاب الأبيض" أو "الدفاع عن النفس"...إلخ (3).

(*) أستاذ القانون العام بالكلية متعددة التخصصات ـ تازة ـ المغرب.

(1) حسنين توفيق إبراهيم : " **ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية** " مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات جامعية، الطبعة الأولى، ص 52، 1992.

(2) محمد تاج الدين الحسيني : "**مساهمة في فهم ظاهرة الإرهاب الدولي**"، مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، السنة 6، العدد 67 ، ص 22، أبريل 1990.

(3) إبراهيم أبراش : " **العنف السياسي بين الإرهاب والكفاح المشروع**" مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، السنة 6، العدد67، ص 84-85، أبريل 1990.

ومن ثم تبدو عملية تناول موضوع ظاهرة الإرهاب محفوفة بكثير من المحاذير ومحاطة بجملة من العقبات، إن لم يكن هذا التناول في حد ذاته حلقة من مسلسل الصراع القائم بشأن موضوع الإرهاب[1].

وتروم هذه الورقة مناقشة إشكالية تنميط الإسلام في الغرب الذي يتبنى سياسة التخويف من الإسلام من خلال اعتماد عدة مداخل لعل أخطرها محاولة إظهاره كدين إرهاب، والترويج لذلك ثقافيا وسياسيا وإعلاميا، علما بأن الربط بين الإسلام والإرهاب يوجد أكثر لدى النخبة الثقافية الغربية أكثر مما يوجد لدى النخبة السياسية كما يؤكد ذلك المؤرخ الإسباني بيدرو مارتينيز مونتابيز[2].

وسنحاول فيما يلي بحث وتحليل ظاهرة تنميط الغرب للإسلام كدين إرهاب من خلال تسليط الضوء على السياقات والخلفيات التاريخية التي أنتجت هذه الظاهرة (المحور الأول)، وذلك في أفق إيجاد السبل الممكنة لمعالجتها (المحور الثاني).

المحور الأول : **السياقات والخلفيات التاريخية لظاهرة تنميط الإسلام كدين إرهاب**

إذا كان الإجماع حاصلا على أن ظاهرة الإرهاب قد أصبحت تمس كل الدول والمجتمعات والأديان، مسيحية كانت أو يهودية، إسلامية أو هندوسية أو بوذية...، فإن الملاحظ هو وجود توجهات غريبة ـ غربية بالأساس ـ تحاول أن تربط الإرهاب دائما بالإسلام عندما يرتكبه مسلمون، بينما لا يتم ربط إرهاب غير المسلمين بالأديان التي يعتنقونها. بتعبير آخر يتم إبراز الإرهاب على أنه حكم على المسلمين، بينما يصور الإرهابيون من غير المسلمين على أنهم إرهابيون فقط. فعندما يرتكب اليهود أو المسيحيون أو البوذيون أو الهندوس أعمال عنف تصنف عادة في خانة الإرهاب، فإن ذلك لا يعتبر إرهابا يهوديا أو مسيحيا أو بوذيا أو هندوسيا.... وبالنتيجة، فإن تهمة الإرهاب يراد لها أن تظل لصيقة بما يصدر بالذات عن المسلمين أفرادا وجماعات[3] .

---

(1) محمد تاج الدين الحسيني : "**مساهمة في فهم ظاهرة الإرهاب الدولي**"، مرجع سابق، ص 22.

(2) يعتبر بيدرو مارتينيز مونتابيز من أبرز المثقفين الإسبان المهتمين بدراسة الإسلام والثقافة الإسلامية. وقد أصدر مؤخرا كتابا تحت عنوان : " **تطلعات غربية واحتياجات عربية**" انظر إدريس الكنبوري : " **مؤرخ اسباني ينتقد تجاهل الغرب للإسلام وصراع الحضارات**"، جريدة المساء، عدد 1032 بتاريخ، 15-01 - 2010، ص17.

(3) عثمان بن جمعة ضميرية : " **الإرهاب نظرات لغوية وشرعية وقانونية مقارنة**" (في المصطلح والأصول ودوافع التهمة) كتاب البيان عدد 73، سلسلة تصدر عن مجلة البيان، دار الكتب المصرية، ص41-42، 2006.

وليس هذا فحسب، بل المثير للاستغراب هو اتهام الغرب لحركات التحرر الوطني في فلسطين ولبنان مثلا بكونها منظمات إرهابية رغم اعتراف المجتمع الدولي بشرعية نضالها، استنادا إلى حق تقرير المصير الذي أقرته الأمم المتحدة في العديد من الاتفاقات والقرارات الدولية. كما أن الغرب يتهم عددا من الدول بالضلوع في الإرهاب: إيران، سوريا، السودان، ليبيا، العراق وأفغانستان. وكل هذه الدول التي تصفها الإدارة الأمريكية بمحور الشر هي دول إسلامية باستثناء كوريا الشمالية.

ولنا أن نتساءل في هذا السياق : ما هي أسباب اتهام الغرب للإسلام والمسلمين بالإرهاب؟ وما هي الدوافع الكامنة وراء ذلك؟

تفاعلت مجموعة من العوامل والأسباب التي ساهمت في تشكيل الشرق الإسلامي والغرب النصراني كمنظومتين متنافرتين متناقضتين في الرؤى والمصالح، وذلك منذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي كدين عالمي يفرض على معتنقيه نشر رسالته كديانة وحضارة في مشارق الأرض ومغاربها. وهكذا، فقد اتسمت العلاقة تاريخيا بين الشرق والغرب بالصراع الذي وصل إلى ذروته خلال القرن الثاني عشر بانطلاق الحروب الصليبية التي مثلت محاولة أوروبية مسيحية لاستعادة الشرق الإسلامي من النفوذ الإسلامي الذي كان في يوم من الأيام ضمن مناطق السيطرة الرومانية المسيحية. كما أن الغرب الأوروبي الذي وجد نفسه في فترة لاحقة، خاصة بعد الثورة الصناعية، في حاجة إلى البحث عن الأسواق والموارد والعمالة الرخيصة سيصطدم بوقوف الدولة العثمانية أمام مخططاته التوسعية التي كانت تستهدف استعمار الشعوب ونهب خيراتها، الأمر الذي زاد من عدائية الغرب للإسلام والمسلمين[1].

وإذا كانت حدة الصراع الإسلامي ـ الغربي قد خبت في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية وحتى انتهاء الحرب الباردة وسقوط جدار برلين، بحيث أخذ الصراع أو التناقض العالمي، الذي ظل محتدما آنذاك بين الدول الغربية فيما بينها: الولايات المتحدة الأمريكية متزعمة المعسكر الرأسمالي والاتحاد السوفياتي متزعم المعسكر الاشتراكي، أبعادا إيديولوجية[2]، فقد شكلت أحداث عام 1979 نقطة تحول مهمة في

---

(1) أيمن طلال يوسف : "**تنميط الإسلام في التصورات الغربية بين الأصولية والفوبيا: قراءة تحليلية نقدية**" **المجلة العربية للعلوم السياسية**، تصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع الجمعية العربية للعلوم السياسية، العدد 18، ربيع 2008، ص 117-123-127.

(2) المرجع نفسه، ص 118.

التوجهات والتصورات الغربية حول الإسلام، إذ بدأ الترويج لفكرة إسلاموفوبيا في الإعلام الغربي وفي مراكز الأبحاث ودوائر صنع القرار السياسي بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران وتأسيس دولة شيعية بزعامة آية الله الخميني من جهة، وانطلاق الجهاد الأفغاني ضد الغزو السوفياتي لأفغانستان، لكن هذه الأصوات ظلت خافتة، تحقيقا لمصالح الدول الغربية، خاصة أمريكا التي اقتضت مصلحتها استغلال الجماعات الجهادية لشن حرب عنيفة بالوكالة ضد الخصم الشيوعي السوفياتيفي أفغانستان. وقد كانت هذه الاستراتيجية هي الأفضل في المنظور الأمريكي في أعقاب حرب ڤيتنام، باعتبار أن أي تدخل أمريكي مباشر في هذه الحرب كان ينطوي على خطر اندلاع مواجهة نووية مع الاتحاد السوفياتي[1].

لكن، وبعد انهيار المنظومة الشيوعية التي مثلها الاتحاد السوفياتي عام 1991 وانتهاء الحرب الباردة، الأمر الذي أدى بالتالي إلى حدوث خلل في التوازن الدولي، سيجد الغرب نفسه في حاجة إلى البحث عن عدو جديد يستغل كمبرر لفرض هيمنته وتحقيق أطماعه التوسعية عالميا، وبالتالي سيتولد عن ذلك ظهور العديد من الكتابات الغربية عن العلاقة القائمة بين الغرب والإسلام، مثل: ″ الإسلام والغرب″، ″الإسلام الأصولي″، ″ الأصولية الإسلامية″، ″ تحدي الإسلام الأصولي″، ″ المنظور الديني للحرب: المواقف المسيحية والإسلامية واليهودية″، ″ الإسلام والتكيف الثقافي مع التغيرات الاجتماعية″، ″ الخطر الإسلامي: خيال أم حقيقة؟ ″، ″ الحرب الباردة الجديدة″، ″ جذور الغضب الإسلامي الشديد″، ″ الهجرة الإسلامية إلى أوربا″، ″ نهاية التاريخ″، ″ صراع الحضارات″...إلخ[2].

ولا يتسع المجال لاستعراض مختلف هذه الكتابات. ولكن تكفي الإشارة إلى أهم النظريات أو الأطروحات الفكرية الغربية التي تبنت البعد الديني الحضاري كمدخل لفهم طبيعة الاستقطاب الدولي والعلاقات بين الأمم والشعوب. ونقصد بذلك أطروحة: ″ ″صدام الحضارات″ لـ″ صامويل هانتنغتون″.

ففي هذه النظرية- التي نشرها ″صامويل هانتنغتون ″ لأول مرة في مقال له بمجلة شؤون خارجية سنة 1993 وطورها في كتاب أصدره سنة 1996- والتي لاقت

---

(1) المرجع نفسه، ص 145.

(2) زغلول النجار : "**الإسلام والغرب في كتابات الغربيين**"، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة 4، سبتمبر 2005 ، ص 21-22.

رواجا كبيرا وصدى واسعا في مختلف الأوساط العلمية والسياسية والإعلامية الغربية، يرى " هانتنغتون" أن صراع الحضارات سيكون هو المصدر الرئيس للنزاعات في عالم ما بعد الحرب الباردة، كما أن العالم الجديد سيشهد صراعا بين الثقافة الغربية من جهة، والثقافة الكونفوشيوسية والثقافة الإسلامية من جهة أخرى[1]. وعند حديث " "هانتنغتون" عن الخطر الذي يمثله الإسلام بالنسبة للغرب، فإنه لا يقصد الأصولية أو التطرف، بل يتحدث عن خطر الدين الإسلامي نفسه الذي يعد حضارة مختلفة، شعوبها مقتنعة بتفوق ثقافتها وواعية بدونية موقفها[2].

كما يعتبر " هانتنغتون " أن الحضارة الغربية هي حالة طبيعية لصيقة بطبيعة الإنسان، وبالتالي فمن ينحرف عنها فهو إنسان غير طبيعي وشاذ، ومن يقاوم قانون الطبيعة والتطور الغربي لابد من تقويمه ووضعه على المسار الطبيعي والوحيد (أي المسار الغربي العلماني الحديث)، وذلك من خلال اتخاذ بعض الإجراءات الطبيعية، مثل إسقاط الحكومات القومية التي تتمسك بالخصوصيات وبقيم الكرامة والعزة الوطنية[3]. وفي هذا السياق يقول "هانتنغتون" : "لقد تغلب الغرب على العالم، ليس من خلال تفوقه في الأفكار أو القيم أو الديانة، ولكن بسبب تفوقه في تطبيق العنف المنظم"[4].

كذلك، فقد كتب" فرانسيس فوكوياما" كتابا تحت عنوان: " نهاية التاريخ" الذي نشره في عام 1989، حيث اعتبر بأن نهاية الحرب الباردة تعني باللغة الهيغلية أن التاريخ قد انتهى، لأن الليبرالية الديموقراطية الغربية قد انتصرت وبقيت وحيدة في ميدان الصراع بعد اندثار النظام الاشتراكي السوفياتي، ومن ثم فعلى جميع الشعوب، ومن ضمنها الشعوب العربية الإسلامية، الالتزام بالقيم الغربية التي تمثل أعلى ما يمكن أن تصل إليه حضارة الإنسان على الأرض[5].

---

(1) انظر صامويل هانتنغتون : " **صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي**" ترجمة د. مالك عبيد أبو شهيوة ود. محمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى1999، ص 71-72–80 .

(2) نفس المرجع، ص 383.

(3) د. عبد الوهاب المسيري ود. فتحي التريكي : " **الحداثة وما بعد الحداثة**" سلسلة حوارات لقرن متجدد، دار الفكر ـ دمشق، الطبعة الأولى، 2003 ص، 162–163.

(4) انظر صامويل هانتنغتون : " **صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي**" مرجع سابق، ص 120.

(5) أيمن طلال يوسف : " **تنميط الإسلام في التصورات الغربية بين الأصولية والفوبيا: قراءة تحليلية نقدية**" مرجع سابق، ص 118. وكذلك انظر زغلول النجار : " **الإسلام والغرب في كتابات الغربيين**"، مرجع سابق، ص25.

وواضح أن أطروحتي "هانتنغتون" و "فوكوياما" إنما تعكسان نزعة مركزانية غربية مطبوعة بالأنانية والاستعلائية والعنصرية الضيقة التي يتشربها عدد كبير من المفكرين الغربيين، سعيا منهم إلى تنميط الآخرين ورسم صورة سلبية عنهم، خاصة عندما يتعلق الأمر بالإسلام والمسلمين.

ولاشك، فإن أحداث سبتمبر 2001 جاءت لتعمق هذه الصورة أكثر لدرجة أن الإسلام يمثل اليوم علاقة العداء الرئيسية مع الغرب، ولتعمق في نفس الوقت نزوع الولايات المتحدة الأمريكية- التي فرضت تقسيما دوليا جديدا للنظام الدولي : إما مع أو ضد السياسة الأمريكية في حربها ضد الإرهاب - إلى تشديد ضغوطها على دول العالم باتجاه تأييد سياساتها، وإلى استخدام القوة بصورة مفرطة ودون ضوابط قانونية[1]، إذ أخذت الحرب الأمريكية على الإرهاب شكل الإرهاب ذاته من خلال الهجوم والاعتداء على بعض الدول من غير أسباب مبررة[2].

إن التوجه المعادي للإسلام، والذي يمثله "هانتنغتون" وأمثاله من المثقفين الغربيين يتعمد التشويه المقصود لصورة الإسلام من خلال وصفه بمفردات سطحية وأحكام مسبقة مغرضة مثل : العدوان، الوحشية، التعصب، معاداة المرأة...، كما يسعى إلى تصويره كخطر مناوئ ومهدد للغرب. ويعزز الاتجاه المعادي للإسلام فرضية الخطر الإسلامي عن طريق التحذير من الانفجار السكاني في العالم الإسلامي، والذي وصلت آثاره إلى الغرب من خلال موجات اللجوء والهجرة، إذ تفيد التوقعات بأن المسلمين سيشكلون % 30 من سكان العالم سنة 2025 [3].

وفي نفس السياق يشير التقرير الأمريكي المتعلق بالحريات الدينية الصادر سنة 2003 إلى أن الإسلام يحتل المرتبة الثانية من حيث عدد معتنقيه في أكثر من 16 دولة من مجموع 37 دولة أروبية، بينما يقدر عدد المسلمين في أوروبا بأكثر من 23 مليون نسمة، أي إنهم يشكلون حوالي 5% من عدد السكان، على أن هذا العدد سيرتفع إلى أكثر من 90 مليون في حالة انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي، أي ما يمثل 15% من عدد سكانه[4].

---

(1) محمد المصالحة : " **التطورات في البنية الدولية وتأثيرها في ظاهرة الإرهاب**"، **المجلة العربية للعلوم السياسية**، العدد 21 ، شتاء 2009 ، ص62 –66.

(2) م. شمس الدين " **الحرب والعنف منظور إسلامي**" مجلة قضايا إسلامية معاصرة تصدر عن مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، العدد 37-38، ص 302، 2008.

(3) انظر صامويل هانتنغتون : " **صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي**" مرجع سابق، ص143.

(4) د. رشيد أبو ثور: "**صورة الإسلام والعرب والمسلمين في وسائل الإعلام والتثقيف الغربية**" **مجلة الحياة الطيبة**، المؤسسة العالمية للمعاهد الإسلامية العالية، لبنان - بيروت، السنة 6، العدد20 ، ص،201–2006.

هذا بالإضافة إلى تزايد ظاهرة اعتناق الأوروبيين للإسلام الذي يعد أسرع الأديان انتشارا في العالم، حيث تشير إحصائيات مكتب الهجرة بدولة النمسا أن هناك 63 مواطنا أوروبيا يعتنقون الإسلام يوميا، الأمر الذي يثير مخاوف الأوروبيين من إمكانية تحول بلدانهم في المستقبل إلى جمهوريات إسلامية، نفس التخوف عبر عنه "هانتنغتون" الذي أكد بأن المسيحية التي تنتشر عن طريق الاعتناق سوف تجتاح من قبل الإسلام الذي ينتشر بالاعتناق والتكاثر السكاني[1].

وبالنتيجة، فإن الغرب أصبح أسير الخوف المرضي من الإسلام أو هيستيريا معاداة الإسلام، وهي هستيريا ناتجة عن خلفيات سياسية قائمة على أسس غير موضوعية وغير علمية تعكس سوء فهم مقصود ومتعمد بغرض تحقيق أهداف محددة، فالغرب يحتاج إلى عدو ولو افتراضي ليتسنى له تبرير المواجهة وتحقيق أهدافه التوسعية، فإذا لم يتم تصوير الآخر بصورة سلبية وتحويله إلى عدو مخيف، فلا يوجد مبرر للحضور العسكري وللحروب التي تخاض للسيطرة على ثروات الشعوب، وبالتالي لفرض الهيمنة على العالم كما بين ذلك إدوارد سعيد في كتابه "**الاستشراق**" بقوله : "إن الغرب الاستعماري المسيحي كان هو الطرف البادئ بالصدام والاستعمار، والحريص دائما على تشويه صورة العرب والمسلمين، والحط من قيمة الثقافة الإسلامية بغية فرض إرادته وإملاء شروطه والسيطرة اقتصاديا وسياسيا وثقافيا على الشعوب العربية الإسلامية، ومنع وحدتها ونهضتها. ولقد اتسمت الهجمات الغربية بالعنف والتركيز على العالم الإسلامي، لأنه كان الاستثناء الذي واجه السيطرة الغربية الاستعمارية على الشرق"[2].

نخلص من كل ما سبق إلى أن أغلب التوجهات المبثوثة في العديد من التقارير والكتابات الغربية حول العلاقة بين الغرب والمسلمين إنما تسعى إلى تشويه صورة الإسلام ومحاربة المسلمين بغرض تحقيق عدد من الأهداف في مقدمتها :

- محاصرة ووقف المد الإسلامي في العالم بصفة عامة والعالم الغربي بصفة خاصة.

---

(1) انظر صامويل هانتنغتون : "**صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي**" مرجع سابق، ص142 .

(2) انظر د. إدوارد سعيد: "**الاستشراق**" ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، نقلا عن د. رشيد أبو ثور، المرجع السابق، ص89.

- إعطاء المبرر للتدخل الغربي في شؤون العالم الإسلامي تحت المظلة المزيفة التي اشتهرت باسم " مكافحة الإرهاب الدولي".
- توفير الغطاء لزيادة الحضور العسكري الأمريكي في المنطقتين العربية والإسلامية وإقامة المزيد من القواعد العسكرية فيها.

وقد شكلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 حلقة في مسلسل التآمر الغربي ضد المسلمين وإشاعة الخوف من الإسلام، بحيث استغلت أمريكا هذه الأحداث لاستباحة أفغانستان واحتلالها عسكريا من أجل تحقيق الوجود الأمريكي بالقرب من نفط بحر قزوين بما يمكّن من الهيمنة على مصادره ووسائل نقله، وكذلك من أجل إنشاء قواعد عسكرية غربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية في قلب القارة الأسيوية على حدود كل من أعدائها التقليديين : روسيا والصين، وأعدائها الجدد: إيران وباكستان التي تمتلك "القنبلة النووية الإسلامية[1].

كذلك، فقد استغلت أمريكا أحداث 11 سبتمبر من أجل التدخل العسكري في العراق عام 2003 سعيا منها لحماية أمن الكيان الصهيوني وتحقيق السيطرة التامة على مصادر النفط العربي في منطقة الخليج، علما بأن الادعاءات والمزاعم الأمريكية في امتلاك العراق أسلحة دمار شامل وتعاونه مع تنظيم القاعدة والتي جاءت كمبرر لغزو العراق قد ثبت زيفها [2]، كما أن هذه الحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية على العراق تحت مسمى" عملية حرية العراق" قد تمت دون غطاء شرعي من الأمم المتحدة، وهذا ما أكده الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي أنان بقوله : "إن الحرب الأمريكية في العراق غير شرعية وتتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة، وإن درس حرب العراق واضح، وهو أنه من الأفضل العمل بشكل جماعي مع الحلفاء تحت مظلة الأمم المتحدة. وآمل أن لا نرى في المستقبل أي عملية عسكرية لا تحظى بموافقة الأمم المتحدة ودعم المجتمع الدولي [3]".

---

(1) زغلول النجار: "**الإسلام والغرب في كتابات الغربيين**"، مرجع سابق، ص 17، 67 .

(2) منتصر سعد حمودة : "**الإرهاب الدولي جوانبه القانونية وسائل مكافحته في القانون الدولي العام والفقه الإسلامي**" دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، ص 383-894 ، سنة 2006.

(3) عبد الله خليفة الشايجي : " **حرب الولايات المتحدة الأمريكية على العراق وأمن منطقة الخليج العربي: المراحل التداعيات المستقبل**"، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 19، صيف31، سنة 2008.

إذاً، وبالمحصلة، تمثل دعوى محاربة الإرهاب وفق التصور الأمريكي إحدى أدوات السياسة الخارجية الأمريكية لتحقيق مصالحها الاستراتيجية، فحتى يصبح العالم ساحة مفتوحة لفرض الأجندة الأمريكية، ذهبت الولايات المتحدة، منذ أحداث سبتمبر 2001، بعيدا في تصوير وتضخيم خطر الإرهاب عليها، فطرحت العديد من المبادرات لمحاربة الإرهاب حسب زعمها، منها مثلا مبادرة مكافحة الإرهاب عبر الصحراء التي تعد برنامجا حكوميا للولايات المتحدة الأمريكية لمواجهة خطر الإرهاب القادم من إفريقيا [1]، علما بأن العديد من التقارير الدولية تشكك بشأن وجود مثل هذا الخطر.

وفي هذا الصدد جاء في تقرير لجنة الأزمات الدولية الصادر في عام 2005 تحت عنوان" الإرهاب الإسلامي في الساحل: حقيقة أو وهم": إن المنطقة الشاسعة المحاذية للصحراء، والتي تشمل مالي والنيجر والتشاد وموريتانيا، لا تشكل مرتعا للنشاط الإرهابي. غير أن التصور الخاطئ والتعامل الخاطئ يؤديان إلى نتائج غير مرجوة... إن القول بتعاظم النشاط الإسلامي في المنطقة بما في ذلك النشاط العنفي هو قول غير دقيق تماما، فالمسلمون في غرب إفريقيا، كما هو الحال في مناطق أخرى، يعبرون عن معارضة متزايدة للسياسة الغربية، ولا سيما الأمريكية في الشرق الأوسط، وهناك في الوقت نفسه تزايد في الاستقطاب الأصولي، ومع ذلك يجب الحذر من المبالغة في تقدير أهمية هذه الأمور، فللإسلام الأصولي حضور هنا في الساحل منذ ما يزيد عن 60 عاما، دون أن يرتبط بالعنف المعادي للغرب"[2].

المحور الثاني : **من أجل مواجهة حملة تنميط الإسلام كدين إرهاب**

ما هو يا ترى الموقف الذي ينبغي أن يتخذه المسلمون لمواجهة الحملة الغربية لتشويه الإسلام وتنميطه كدين إرهاب؟

لا نحتاج إلى كبير عناء للتأكيد على أن المسلمين يجدون أنفسهم أمام ثلاثة اختيارات، وهي الاستسلام، الحوار، والمواجهة. أما الاستسلام، فهو مرفوض من الأساس، لأنه يعني القبول بالتهمة، كما يعني الانهزامية وموت الضمير. وأما الحوار

---

(1) خيري عبد الرزاق جاسم : " **قيادة عسكرية أمريكية جديدة لإفريقيا فرصة أمريكية ومحنة إفريقية**" المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 21، شتاء، ص 104. 2009.

(2) المرجع نفسه، ص 105.

بين المسلمين والغرب، فهو من حيث المبدأ موقف إيجابي إذا كان القصد منه التعارف والتفاهم والتعاون وتوسيع الجوانب المشتركة وتقويتها في اتجاه نشر التسامح ونبذ العنف ووقف الخصومة والصراع بعد إعطاء كل ذي حق حقه، وهو حوار يشجعه الإسلام ويحث عليه[1]. ولكن في غياب هذا النوع من الحوار، فإن خيار المواجهة يفرض نفسه على المسلمين حتى لا يتركوا الساحة مفتوحة أمام سهام الحملة الغربية الظالمة.

وأول ما يجب عمله في مواجهة حملة اتهام الإسلام بالإرهاب هو البدء بتحليل ادعاءات الغربيين والرد عليها في مختلف وسائل الإعلام المتاحة من برامج تلفزية وإذاعية وأفلام سينمائية ومواقع على شبكات المعلومات الدولية المختلفة وغيرها...، ونشر ذلك بلغات مختلفة في صفوف المسلمين وغير المسلمين[2].

وهذا ما يلقي على كاهل الدعاة والمفكرين والمثقفين المسلمين مسؤولية كبيرة في مجال نشر التوعية لدى المسلمين وغير المسلمين عن مفهوم الإرهاب وفق المنظور الإسلامي لكشف زيف ادعاءات الغربيين وتفنيد أباطيلهم، إذ في سياق الهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين بإلصاق تهمة "الإرهاب"، فإن البعض من خصوم الإسلام يستشهد بالآية الكريمة : "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون"[3]، ليحاول تأسيس نظرية في ما يسمى: "الإرهاب الإسلامي"، زاعما بأن الإسلام يضفي المشروعية على الإرهاب بالمعنى الذي يريده، والحال أن المعنى الحقيقي لكلمة ترهبون ترتبط بمعنى الردع، ذلك أن الله يأمر بإعداد القوة والاستعداد ليكون ذلك سببا لردع الأعداء قبل وقوع الحرب والقتال، مما يعني أن الغاية من ذلك الاستعداد هو إرهاب العدو وردعه بما يمنعه في التفكير في الاعتداء على المسلمين، ومن ثم، فإن الاستعداد والردع والإرهاب أساليب وقائية من الحروب، وهذا ما يعرف في وقتنا الحاضر بنظرية أو استراتيجية الردع[4].

---

(1) عباس الجراري : "**الفكر الإسلامي والاختيار الصعب**" منشورات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة1، ص 18-35-93، سنة 1979.

(2) زغلول النجار : "**الإسلام والغرب في كتابات الغربيين**"، مرجع سابق، ص 28-29.

(3) سورة الأنفال، الآية 60. بخصوص دراسة وتحليل هذه الآية انظر هيثم عبد السلام محمد : "**مفهوم الإرهاب في الشريعة الإسلامية**" دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص 33-41، سنة 2005.

(4) عثمان بن جمعة ضميرية : "**الإرهاب نظرات لغوية وشرعية وقانونية مقارنة**" (في المصطلح والأصول ودوافع التهمة)، مرجع سابق، ص 47-52-54.

والجدير بالذكر هنا أن هذه النظرية ارتبطت بالتوازن النووي، وهي تعني أنه مادام هناك توازن بين القوتين الكبيرتين ـ الولايات المتحدة والأمريكية والاتحاد السوفياتي سابقا ـ في القوى النووية، فإن احتمال قيام الحرب بينهما يكون بعيدا جدا، بسبب قدرة كل جانب على امتصاص الضربة النووية الموجهة إليه، وعلى توجيه ضربة الرد والانتقام إلى الخصم، وذلك بخلاف الحال عندما يختل التوازن بين القوتين، بحيث تتمكن إحداها من تحقيق تقدم ساحق على الأخرى، فإن الطرف القوي يغتر بقوته، ويغامر باستخدام قوته ضد الطرف الآخر، فعندئذ يكون من المتوقع جدا أن تندلع الحرب النووية بينهما. وخير مثال على ذلك ما حدث بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان[1].

وهكذا، فإن الباحث في القرآن الكريم لا يجد كلمة إرهاب بالمعنى الذي يحاول الغرب أن يلبسه أو يسقطه عندما يستعمل كلمة إرهاب. كما لا يجد لهذا المعنى ظهورا في السنة النبوية وفي كتب اللغة العربية[2]، فإذا رجعنا إلى أحاديث النبي في كتب السنة المشهورة، كالصحيحين، والسنن الأربعة، وموطأ مالك ومسند أحمد، وسنن الدارمي، نجد أن مادة "رهـ ب"، التي جاءت في أكثر من عشرين موضعا، كلها تشير إلى الخوف والفزع من الله، وإلى التعبد[3]، كما أن الإرهاب لغة مأخوذ من رهب بالكسر، يرهب، رهبة رهبا أو رهبا: وهو بمعنى خاف مع تحرز واضطراب[4]. وترهبه : توعده، أرهبه ورهبه واستر هبه: أخافه وأفزعه. والإرهاب بكسر الهمزة: بمعنى الإزعاج والإخافة، ولها معنى آخر، وهو قرع الإبل عن الحوض وذيادها[5]. ومن ثم فإنه يتعين

---

(1) في السادس والتاسع من شهر غشت عام 1945 ألقت الولايات المتحدة الأمريكية قنبلتين ذريتين على مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين بعد استسلام الجيش الياباني. وقد أحدثتا دمارا رهيبا، كما ذهب ضحيتهما مئات الألوف من الضحايا. ففي الأولى راح ضحيتها 137 ألف شخصا منهم 78150 شخصا في الحال والباقي بعد ذلك. وفي الثانية قتل في الحال 73884 نسمة وأصيب بعد ذلك أكثر من 70٪ من سكان ناجازاكي. انظر د. زغلول النجار :" الإسلام والغرب في كتابات الغربيين"، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ص 156 ، سنة 2005.

(2) عثمان بن جمعة ضميرية : " **الإرهاب نظرات لغوية وشرعية وقانونية مقارنة**" في المصطلح والأصول ودوافع التهمة، مرجع سابق، ص 37-38-157.

(3) فمن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث الدعاء عن البراء بن عازب : اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، أي خوفا من عقابك وطمعا في ثوابك. ومنه أيضا ما يعني التعبد، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري: "**عليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام**"، انظر د. عثمان بن جمعة ضميرية : الإرهاب نظرات لغوية وشرعية وقانونية مقارنة (في المصطلح والأصول ودوافع التهمة)، مرجع سابق، ص 36.

(4) انظر: القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة 2، 1987. مادة رهب، ص 118.

(5) انظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت 1979، مادة رهب، 1/140. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد الحسيني الزبيدي، دار الفكر، مادة رهب 1/28 .

التمييز بين المعنى الشرعي لكلمة إرهاب وبين المعنى السياسي السائد في المجال التداولي الغربي.

كما أن مهمة التعريف بالإسلام باللغات الأجنبية، وبما يحمله من مبادئ السلم والحوار والتسامح والتعايش مع سائر الديانات والشعوب، تعتبر من أولويات العمل الإسلامي الجاد الذي يجب على الدول والمنظمات الإسلامية أن تعيره أكبر الاهتمام، ذلك أن نسبة الأبحاث والكتابات الإسلامية باللغات الأجنبية هي أقل بكثير مما وضعه المستشرقون الذي لا يكاد يجدي الرد عليهم باللغة العربية ما دام الغربيون لا يمكنهم الاطلاع على حقائق الإسلام وثقافته إلا عن طريق لغاتهم الأصلية[1].

على أن التعريف بالإسلام وبالمنظور الشرعي للإرهاب لا يكفي لنفي التهمة عن الإسلام بكونه دين عنف وإرهاب، بل ينبغي من جهة أخرى على المسلمين تمثل تعاليم وقيم الإسلام على الوجه الصحيح، وأن يعبروا من خلال سلوكياتهم وممارستهم العملية وطرق تعاملهم مع الآخر عن روح سماحة الإسلام وطبيعته السلمية، إذ لا يخفى على أحد أن الغرب يستغل ممارسة بعض المسلمين للعنف، ليطعن في الإسلام ويضعه في قفص الاتهام باعتباره مصدر خطر وتهديد للغرب وحضارته[2]، خاصة إذا تمت أعمال العنف داخل حدود الدول الغربية أو على أشخاص وممتلكات الغربيين خارج تلك الحدود، بل إن الواقع يؤكد أنه سرعان ما ينصرف صناع القرار ووسائل الإعلام في الغرب، وقبل إجراء أي تحقيق في الحادث، إلى توجيه التهمة مباشرة ودون تبصر إلى الإسلام والمسلمين بمجرد وقوع حادث عنف هنا وهناك، وذلك حتى قبل اكتشاف ومعرفة الجناة الحقيقيين. كمثال ذلك ما وقع خلال حادث أوكلاهوما في أمريكا سنة 1995 [3] .

ويبقى المطلوب أيضا هو أن يجتهد المثقفون والمفكرون المسلمون في تجديد الوسائل وتحديد القضايا والموضوعات التي يقيمون بها الحجة على الغربيين، وفي هذا السياق أشير إلى بعض القضايا، كما أثير بعض الملاحظات لعل من أهمها.

---

(1) حسن عزوزي : "**الإسلام والغرب قضايا ومواقف**"، مطبعة أنفو برانت، فاس، الطبعة 2، ص 41، 1999.

(2) المرجع نفسه، ص 106.

(3) نشير هنا إلى أن تفجيرات مركز أوكلاهوما الفيدرالي التجاري في أمريكا قد قام بها "**تومني مكاليف**" والأصوليون المتطرفون الأمريكيون في 19-4-1995 وقتل فيها 168 شخصا. انظر د. عثمان بن جمعة ضميرية : " الإرهاب نظرات لغوية وشرعية وقانونية مقارنة (في المصطلح والأصول ودوافع التهمة) كتاب البيان سلسلة تصدر عن مجلة البيان، 2006، ص 91.

ـ إن أغلب المصادر الغربية التي كتبت عن الإسلام تفتقر إلى فهم دقيق للإسلام وللتاريخ الإسلامي. لذلك نجدها تعادي الإسلام والمسلمين بحجج غير مقبولة وبمنطق غير سوي. كما أن هذه الكتابات لا تميز بين الإسلام كدين وحضارة وبين تصرفات بعض المسلمين الغلاة، كما أنها تساوي بين هؤلاء وبين الإسلاميين الوسطيين أو المعتدلين، وهذا التعميم يعكس نوعا من القصور والنظرة الضيقة [1] .

ـ إن تنميط الغرب للإسلام كدين إرهاب يضر أيضا بالمصالح الغربية في المنطقتين العربية والإسلامية، لأن من شأن ذلك أن يساهم في إشاعة اليأس والعجز لدى الشعوب الإسلامية، وأن يؤدي بالتالي إلى دفع أعداد جديدة من أبناء هذه الشعوب إلى الانخراط في صفوف الحركات الإسلامية العنيفة[2].

ـ إن الغرب، إذ يجعل العنف والإرهاب صفة لهوية أو ماهية إسلامية، فإنه يحاول التنصل من مسؤولياته في إنتاج هذا العنف، سواء أكانت مباشرة أو غير مباشرة، فالحكومات الغربية الكبرى، باعتبارها صاحبة السلطة المطلقة على الصعيد الدولي فيما يتعلق بتوزيع السلطة والثروة...، هي مسؤولة عن إنتاج العنف، وذلك بسبب تبنيها لسياسات وممارسات خاطئة تجاه الشعوب العربية الإسلامية، ومن هذه الممارسات مثلا: استهتار الحكومات الغربية بالقوانين الدولية، تدخل الحكومات الغربية في الشؤون الداخلية للدول العربية الإسلامية، وعدم احترامها لحق تقرير هذه الشعوب لمصيرها، دعم الأنظمة والحكومات التسلطية الموالية للغرب على الرغم من دعوة الغرب إلى التمكين للديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، احتكار وهيمنة الطبقات الرأسمالية والشركات الأجنبية على الثروات والموارد الطبيعية لدول الوطن العربي، غزو وإلغاء الهويات الثقافية وفرض القيم وأنماط السلوك الغربية في المجتمعات العربية الإسلامية، تشجيع وإثارة النزعات الإثنية والعرقية والطائفية...إن مثل هذه الممارسات الغربية تعمق عدم ثقة الشعوب بأنظمة الحكم لديها وتثير السخط والنقمة

---

(1) أيمن طلال يوسف : "**تنميط الإسلام في التصورات الغربية بين الأصولية والفوبيا: قراءة تحليلية نقدية**" مرجع سابق، ص 121.

(2) محمد المصالحة: "**التطورات في البنية الدولية وتأثيرها في ظاهرة الإرهاب**"، مرجع سابق، ص76. وكذلك انظر أيمن طلال يوسف: "**تنميط الإسلام في التصورات الغربية بين الأصولية والفوبيا: قراءة تحليلية نقدية**" مرجع سابق، ص121.

على هذه الأنظمة بسبب خضوعها وتبعيتها للسياسات الدولية، الأمر الذي يوفر حالة من عدم الاستقرار وتربة خصبة ومواتية لممارسة العنف في البيئات الوطنية وفي البيئة الدولية على السواء [1] .

ـ إن الغرب، في إطار مكافحته للعنف الذي يسميه إرهابا، يتجاهل ويتغافل الأسباب الحقيقية المنتجة لهذا العنف، علما بأن الرد المناسب على العنف يكون من خلال نزع فتيل العنف، أي بإزالة الأسباب التي تدفع إليه، وليس بإرهاب العالم الإسلامي كله سياسيا وثقافيا وعسكريا وبخرق القانون والالتفاف على القضاء كما حصل في غوانتانامو وأبي غريب وغيرهما. وكما يحصل في موضوع حرمان الفلسطينيين من استرجاع حقوقهم وتحقيق مطالبهم المشروعة. هذا هو أصل العنف والعنف المضاد في الشرق الأوسط، ولا يمكن تجاوزه من دون إزالة عوامل إنتاجه وحفظ حقوق الشعوب ومصالحها وفي مقدمتها الشعب الفلسطيني[2].

إن أسلوب تعاطي الغرب مع أعمال العنف يكشف عن ازدواجية المعايير أو الكيل بمكيالين في التعامل، مما يشكل انحيازا أعمى عن أبسط صور العدل، ذلك أن الغرب، سعيا منه إلى توفير مزيد من الحماية للكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين وأجزاء من أراضي سوريا ولبنان، فإنه يجرم حركات التحرر والمقاومة العربية في فلسطين ولبنان... بصفتها حركات إرهابية، بينما يعتبر إرهاب الكيان الصهيوني المتكرر في كل يوم على أرض فلسطين عملا من أعمال الدفاع عن النفس، بل إن مواقف الولايات المتحدة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية مليئة بالنماذج التي تؤكد وقوفها وتشجيعها للكيان الصهيوني على ممارسة الإرهاب ضد الفلسطينيين من خلال تقديم مختلف أشكال الدعم: مساعدات مالية وعسكرية، تعطيل دور مجلس الأمن والأمم المتحدة في حل جوانب عديدة من هذه القضية كما حصل عند استخدام واشنطن حق النقض عام 2001 ضد قرار من مجلس الأمن يقضي بإرسال مراقبين دوليين إلى المناطق الفلسطينية[3].

---

(1) محمد المصالحة : " **التطورات في البنية الدولية وتأثيرها في ظاهرة الإرهاب**"، مرجع سابق، ص 66-69 .

(2) برهان غليون : " **حيث تنحصر الثقافة ينفجر العنف**" مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد 37-38، ص 38-40، 2008 .

(3) محمد المصالحة: " **التطورات في البنية الدولية وتأثيرها في ظاهرة الإرهاب**"، مرجع سابق، ص 67.

إن الغرب يملك من القوة بمختلف مظاهرها ومستوياتها ما يجعل الهوة بينه وبين العرب والمسلمين شبيهة بالفرق بين العملاق والقزم، وفي ضوء ذلك يمكن أن نتساءل: من يرهب من؟ وهل بإمكان القزم الضعيف أن يرهب العملاق القوي؟ الواقع أنه بالنظر إلى حالة عدم التكافؤ بين الجانبين، فإن الأشكال المختلفة للصراع بين الإسلام والغرب ترجح كفة الغرب بشكل واضح، والنتيجة هي أنه مهما وصل عنف الطرف الضعيف، وهم المسلمون والعرب خلال هذه الحقبة الزمنية من تاريخ البشرية، فإنه لا يمكن أن يقارن بإرهاب الغرب القوي. لذلك، فإن أكثر الناس عرضة للإرهاب في الوقت الحاضر هم المسلمون، كما أن حالات ومعدلات الإرهاب الدولي بأيدي غير المسلمين تفوق في أعدادها وحدتها كل ما يحاول الغرب نسبته زورا إلى المسلمين.

ومن جهة أخرى، فإنه يتعين على المثقفين والمفكرين المسلمين الانتقال، في مواجهتهم للغربيين الذين يربطون عمدا بين الإسلام والإرهاب، من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم، وذلك من خلال الدعوة إلى إجراء مقارنة تحليلية بين التاريخ المسيحي والتاريخ الإسلامي لقياس حجم الجرائم التي ارتكبت باسم المسيحية أو الإسلام لمعرفة أيهما أهدر دماء أكثر...[1].

لا شك، أنه من يفتح السجل التاريخي الإنساني سوف يجده حافلا بالإجرام الغربي، فهذا السجل يؤكد على أن جميع صور الإرهاب قد ابتدعها الغرب وأشاعها في العالم من مثل الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش وإبادة الحضارات القديمة والاتجار في الرقيق واستعمار الشعوب ونهب ثرواتها وحركات النازية والنازية الجديدة والتمييز العنصري واختطاف واغتيال رؤساء الدول والسفراء واغتيال المدنيين العزل في كل مكان وضرب المدن الآمنة بالقنابل النووية واستخدام الأسلحة المحرمة دوليا[2].

وتأسيسا على كل ما سبق يمكن أن نقترح مجموعة من التوصيات والاقتراحات من أهمها :

---

(1) مراد هوفمان : "**الإسلام عام 2000** ترجمة عادل المعلم، مكتبة الشروق، القاهرة، ص 33ـ 44، 1995.

(2) للمزيد من التفصيل حول هذه المواضيع يرجى الاطلاع على كتاب : "**الإرهاب في اليهودية والمسيحية والإسلام والسياسات المعاصرة**" لصاحبه زكي علي السيد أبو غضة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى، 2002 ـ

ـ تشجيع وتكثيف الجهود العلمية والبحثية والأكاديمية في مراكز البحوث والجامعات العربية الإسلامية، ولاسيما في أقسام الدراسات العليا والدكتوراه، لدراسة المصطلحات والمفاهيم الغربية بطريقة تحليلية نقدية في أفق وضع معاجم أو موسوعات إسلامية تضم المفاهيم الجديدة المتداولة وفق منظور إسلامي.

ـ نشر التوعية لدى الناس عن مفهوم الإرهاب وغير ذلك من المفاهيم مثل العنف الحرب الجهاد... وفق المنظور الإسلامي وباستخدام مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة.

ـ تفعيل دور المنظمات العربية والإسلامية الحكومية وغير الحكومية ومضاعفة الجهود التي تقوم بها السفارات والقنصليات، وذلك في إطار خطة أو منظومة عمل شاملة ومتسقة لتوضيح الصورة الصحيحة للإسلام والرد بطريقة حضارية على السياسات والإجراءات الغربية التي تستهدف تشويه صورة الإسلام والمسلمين.

ـ إقامة شراكات بحثية وأكاديمية بين المثقفين العرب والمسلمين من جهة والمفكرين الغربيين العقلاء والمنصفين من جهة أخرى، إذ ينبغي ألا تغيب على بال المسلمين مسألة وجود مفكرين ومثقفين غربيين يعترفون بأن الإسلام هو دين تسامح وسلام، وليس دين عنف وإرهاب. ومن الواجب على المسلمين إبراز هذه الجوانب الايجابية ومناصرة أصحاب هذه الاتجاهات وفتح قنوات الاتصال والحوار وربط جسور التعاون معهم. يساعد على ذلك وينميه أن يكون المسلمون المقيمون في الغرب على وعي تام والتزام بالأحكام الشرعية التي تحكم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين[1]، وأن يتم إعداد دعاة ممن عاش في الغرب وعرف لغاتهم وطرائقهم في التفكير ومداخلهم في التعامل ليؤدوا مهمة الحوار[2].

ـ عقد مؤتمر دولي تحت رعاية الأمم المتحدة للبحث عن تعريف مقبول للإرهاب ولصياغة نهج دولي للتصدي للإرهاب بجميع أشكاله ومظاهره.

---

(1) عثمان بن جمعة ضميرية : " **الإرهاب نظرات لغوية وشرعية وقانونية مقارنة**" (**في المصطلح والأصول ودوافع التهمة**) مرجع سابق، ص 156-157.

(2) أحمد علي الإمام: " **المستقبل للإسلام**"، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر، العدد46، 1995، ص50.

خاتمة :

في الأخير نؤكد على أنه مهما اقترحنا من توصيات ومقترحات في سبيل مواجهة تهمة إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام والمسلمين، فإن كل محاولة ستبقى مجرد عبث لا جدوى منه ولا نفع ما لم نبدأ من الأساس، ذلك أن الموقع أو الموقف الذي توجد فيه الأمة الإسلامية يجعلها معرضة باستمرار لألوان من الضغوط والتحديات الداخلية والخارجية، وهي لا تستطيع أن تواجهها إلا إذا راجعت الأمة الإسلامية ذاتها ووقفت على مكامن الخلل في محاولة لتقويمها وتصحيحها.

ويبقى المطلوب، في كل مشروع للنهوض والتجاوز، هو أن تحسن الأمة الإسلامية استثمار قدراتها وتوجيه طاقاتها ضمن استراتيجية مدروسة وشاملة لإعداد العدة وامتلاك القوة والتقدم العلمي والتميز الحضاري لتفرض على الأمم الأخرى احترامها. ولابد هنا من العمل على تعبئة قوى المسلمين في وحدة متراصة تزيل من طريقها كل عوامل الفرقة والخلاف في صفوفهم بما يجعلهم في موقع قوة، وقادرين، ليس فقط على إجراء الحوار البناء مع الآخر، ولكن على القيام بالمواجهة وفرض الحل الصحيح للمشكلات التي يعانون منها. هذا هو التحدي الكبير الذي تواجهه الأمة الإسلامية، والذي يحتاج منها إلى جهد نظري ورد عملي. وإن المسؤولية تقع في هذا كله على جميع المسلمين، وبالدرجة الأولى على حكامهم باعتبارهم أئمة المسلمين، كما تقع بنفس الدرجة على العلماء بوصفهم ورثة الأنبياء.

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1].

---

(1) سورة الرعد، جزء من الآية: 11.

لائحة المراجع

الكتب :

- أحمد علي الإمام : "**المستقبل للإسلام**"، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر، العدد 46، 1995.

- إسماعيل بن حماد الجوهري : **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت 1979.

- حسن عزوزي : " **الإسلام والغرب قضايا ومواقف**"، مطبعة أنفو برانت، فاس، الطبعة، 2، 1999.

- حسنين توفيق إبراهيم : " **ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية**" مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات جامعية، الطبعة الأولى، 1992.

- زغلول النجار : " **الإسلام والغرب في كتابات الغربيين**"، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة 4، سبتمبر 2005 .

- زكي علي السيد أبو غضة : " **الإرهاب في اليهودية والمسيحية والإسلام والسياسات المعاصرة**" دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى، 2002.

- صامويل هانتنغتون : " **صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي** " ترجمة د. مالك عبيد أبو شهيوة ود. محمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1999 .

- عباس الجراري : " **الفكر الإسلامي والاختيار الصعب**" منشورات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة1، 1979 .

- عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي : " **الحداثة وما بعد الحداثة** " سلسلة حوارات لقرن متجدد، دار الفكر ـ دمشق، الطبعة الأولى، 2003 .

- عثمان بن جمعة ضميرية : " **الإرهاب نظرات لغوية وشرعية وقانونية مقارنة**" (**في المصطلح والأصول ودوافع التهمة**) كتاب البيان عدد 73، سلسلة تصدر عن مجلة البيان، دار الكتب المصرية، 2006 .

- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، الطبعة 2، 1987.

- مراد هوفمان : " **الإسلام عام** 2000 " ترجمة عادل المعلم، مكتبة الشروق، القاهرة، 1995.

- منتصر سعد حمودة : " **الإرهاب الدولي جوانبه القانونية وسائل مكافحته في القانون الدولي العام والفقه الإسلامي**" دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، 2006.

- هيثم عبد السلام محمد : "**مفهوم الإرهاب في الشريعة الإسلامية**" دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2005.

المقالات :

- إبراهيم أبراش : " **العنف السياسي بين الإرهاب والكفاح المشروع**" مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، السنة6 ، العدد 67، أبريل 1990.

- أيمن طلال يوسف : " **تنميط الإسلام في التصورات الغربية بين الأصولية والفوبيا: قراءة تحليلية نقدية** " المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 18، ربيع 2008.

- برهان غليون : " **حيث تنحصر الثقافة ينفجر العنف**" مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد37-38 ، 2008.

- خيري عبد الرزاق جاسم : " **قيادة عسكرية أمريكية جديدة لإفريقيا فرصة أمريكية ومحنة إفريقية**" المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 21، شتاء 2009.

- رشيد أبو ثور : "**صورة الإسلام والعرب والمسلمين في وسائل الإعلام والتثقيف الغربية** " مجلة الحياة الطيبة، المؤسسة العالمية للمعاهد الإسلامية العالية، لبنان - بيروت، السنة 6، العدد20، 2006.

- عبد الله خليفة الشايجي : " **حرب الولايات المتحدة الأمريكية على العراق وأمن منطقة الخليج العربي: المراحل التداعيات المستقبل**"، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 19، صيف 8002.

- محمد المصالحة : " **التطورات في البنية الدولية وتأثيرها في ظاهرة الإرهاب**"، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 21، شتاء 2009.

- محمد تاج الدين الحسيني : "**مساهمة في فهم ظاهرة الإرهاب الدولي**"، مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، السنة 6 ، العدد 67، أبريل 1990.

- م. شمس الدين : " **الحرب والعنف منظور إسلامي**" مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد37 -38، 2008.

صورة الإسلام في الإعلام الغربي

الدكتور محمد بن علي الهرفي (*)

مقدمة :

الخوف من الإسلام ظاهرة انتشرت في السنوات الأخيرة في معظم وسائل الإعلام الغربية، وقد غذى هذه الظاهرة مجموعة كبيرة من السياسيين الغربيين بالإضافة إلى عدد من رجال الدين النصارى واليهود، وكانت كراهية الإسلام ـ من جهة ـ والبحث عن مصالح مادية ـ من جهة أخرى هي السبب وراء كل تلك الكراهية التي طفح بها الإعلام الغربي، ولايزال.

وأعتقد أن احتلال أفغانستان والعراق، والحديث عن تقسيم بعض الدول العربية كان إحدى نتائج تلك الكراهية، أما الإساءة للإسلام ولنبيه وللمسلمين عموماً فقد كانت نتائج أخرى ظهرت في صحف أوروبية وأمريكية كثيرة.

وهذا البحث يحاول قدر الإمكان، وبحسب ظروف المؤتمر، أن يبرز أهم أسباب هذه الظاهرة.

أسأل الله أن يوفق جميع العاملين في هذا المؤتمر لِخدمة دينهم، وأمتهم،كما أسأله أن يوفق قادة المسلمين للنهوض بمسؤولياتهم على الوجه الذي يرضي ربهم.

الإسلاموفوبيا مصطلح يعني : الخوف من الإسلام والرهبة منه بشكل لاشعوري دون أن يكون هناك مبرر معقول لذلك.

وظاهرة الخوف من الإسلام عند الغربيين ليست وليدة أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م ولكنها سبقت هذه الحادثة بمئات السنين وتحديدا مع بداية الحروب الصليبية التي أطلق شرارتها البابا "إريان الثاني" سنة 488هـ داعيا النصارى إلى قتال

(*) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ المملكة العربية السعودية ـ الرياض .

المسلمين لاستعادة بيت المقدس منهم،فقال لهم أثناء اجتماعه بهم في مدينة كليرمون الفرنسية : "تقدموا إلى البيت المقدس، انتزعوا تلك الأرض الطاهرة، واحفظوها لأنفسكم، فهي تدر سمنا وعسلا.

إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق، وإن خذلتم فستقضون حيث مات يوسع فتخلدون في النعيم الدائم. اذهبوا إلى القتال، وسنرتب أموركم و أموالكم في غيابكم، سأغفر لكم ذنوبكم وخطاياكم بالقوة التي زودني بها الله" (1).

إن العداء للإسلام الذي نراه اليوم في معظم دول أوروبا وأمريكا إنما هو "نتاج إرث ثقيل من الكراهية والحقد على الإسلام والمسلمين، نضحت به الحروب الصليبية قديما، وتؤكده الحروب الاستعمارية الحديثة التي يشنها الغرب على العالم الإسلامي ويحتل خلالها أقطارا إسلامية، مدمراً مقدراتها، وناهباً ثرواتها، كما تؤكدها الحملة الدائرة على الثقافة الإسلامية والضغوط المتواصلة على الدول الإسلامية لتغيير مناهج التعليم بما يرضي الصهاينة والغرب، وتؤكدها الحرب الضروس التي تستهدف تجفيف ينابيع العمل الخيري الإسلامي مقابل إفساح المجال على مصراعيه أمام العمل الإغاثي التنصيري"(2).

وقد عبر أحد الصحفيين السويديين عن الخوف الذي ينتابه من الإسلام والمسلمين بقوله: لو أن مائة ألف عربي قتلوا لما انتابني أي شعور غير عادي، أما بالنسبة لأموات الحلفاء الغربيين فالأمر مختلف لأني أشعر بالتعاطف معهم ومع أسرهم،إن العرب يبعثون الخوف في نفسي على أية حال.

وأعتقد أن هذا الصحفي لا يعبر عن حالة خاصة به، ولكنه يعبر - كما أرى - عن شعور كثير من أبناء الغرب تجاه الإسلام ومعتنقيه سواء أكانوا من العرب أم من غيرهم.

ويتحدث الأستاذ "علاء الدين آل رشي" عن ارتباط مفهوم الإسلام بالعرب عند الغربيين والمظاهر السلبية التي تصاحب هذا الترابط فيقول: إن الذاكرة التاريخية للغربيين تجمع بين العرب وبين الحروب الصليبية في العصور الوسطى "فلا يمكن لإسباني أن يتجاهل معرفته بأن إسبانيا كانت مسلمة مدة أطول مما كانت مسيحية

---

(1) القدس ومعاركنا الكبرى، محمد صبيح، طبع في مصر سنة 1970م ج1، ص 366.

(2) مجلة المجتمع الكويتية، العدد 18، 1860، رجب 1430-2009/7/11م، ص5 .

"800 عام، وليس من نمساوي لا يعرف عن حصار العثمانيين لڤينا. وفي ذلك الوقت أعلن عالم اللاهوت الألماني "مارتن لوثر" أن الأتراك عقاب الله للآليات الشريرة التي يتبعها البابا في روما" [1].

ويؤكد هذا الاتجاه الدكتور"مراد هوفمان" الألماني المسلم الذي يرى:"أن التحاملات ضد الإسلام والمسلمين لها جذور أعمق فهي تعود للحروب الصليبية ضد المسلمين في فلسطين التي انتهت بكارثة، إذ دخل صلاح الدين في الأدب الشعبي الأوروبي في حين عكس دانتي وجهة النظر الغربية عن الإسلام، إذ جعل محمداً في أسفل الجحيم... وباختصار ما دام الغربيون يرون الإسلام تهديداً كما تراه أمريكا اليوم منذ 2001/9/11 فإن أي تفسير أو سلوك إيجابي مهما بلغ لن يقدر على حل ما عقده وما طبعه التاريخ في الوعي الجماعي للشعب الغربي"[2].

ومما يدعو للأسف والاستهجان أن يتحدث البابا الحالي بنديكت السادس عشر حديثاً مسيئاً للإسلام؛ فقد وصف الدين الإسلامي بأنه دين همجي، كما وصف المسلمين بالهمج. ومعروف أنه انتقد الإسلام ورفض الاعتذار عن فعلته، وبررها بصورة غير مقبولة على الإطلاق.

وإذا كان رجل الدين الأول عند النصارى يحمل هذا الحقد على الإسلام فكيف نلوم بعض العامة على إساءتهم للإسلام مثل الرئيس الأمريكي جورج بوش الذي أعلن أنه يشن حرباً صليبية على المسلمين، أو رئيس وزراء إسبانيا السابق خوزية إزنار الذي تحدث بصورة سيئة عن المسلمين في إسبانيا، أو سواهم.

مما سبق نلاحظ أن انتشار الأحكام المسبقة عن الإسلام والمسلمين هي التي تجعل معظم الغربيين يتخذون مواقف سلبية من المسلمين دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث و التأكد من معلوماتهم، ولهذا سيكون من واجب المسلمين أن يبذلوا جهوداً مضاعفة للتعريف بدينهم في سائر أنحاء العالم وليس في الغرب وحده.

---

(1) هل يتحمل الغرب مسؤولية شقاء العرب والمسلمين: أصول التلاقي والحوار مع الغرب: نشر مركز الناقد الثقافي، دمشق، ط1، 2009 ، ص 179.

(2) مستقبل الإسلام في الغرب والشرق: حوارات لقرن جديد ط1، سنة 2008م، دار الفكر، دمشق، ص160.

من صور الإساءة للإسلام في الإعلام الغربي :

يصعب حصر كل ما يكتب عن الإسلام في الإعلام الغربي، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م، حيث كثر هذا النوع من الكتابة، كما أن تأثيرات هذه الكتابة طالت بالسوء أعداداً من المسلمين وجمعياتهم؛ سواء أكانوا في أوروبا أم في العالم الإسلامي.

لقد وصلت إساءة بعض الأمريكان إلى الذات الإلهية، فقد كتب الأمريكي "ستيف فايتزمان" دراسة بعنوان : "اليمين الديني الأمريكي: قديسين أم ملاعين" في 6 أبريل 2005م وقد ذكر في هذه الدراسة أن الجنرال الأمريكي"بويكن" تحدث أمام مجموعة من ممثلي الجماعات المسيحية قائلا: "إن إله المسيحيين أكبر من رب المسلمين".

وقال : "إننا نعمل في جيش الرب، ونحن في بيت الرب، لقد أقام الرب مملكته من أجل عصر كهذا. إن عدونا الروحي سيهزم عندما نواجهه باسم المسيح".

وعندما أنكر بعض المسلمين هذه التصريحات، وطالبوا بمحاكمة قائلها، دافع عنه وزير الدفاع الأمريكي السابق"رامسفيلد" معتبراً أن ما قاله بويكن يدخل ضمن حرية التعبير التي يكفلها الدستور الأمريكي !!.

وبسبب الحرب الشرسة على الإسلام في أمريكا فقد وضعت شركة "ويسترون يونيون" المختصة بتحويل الأموال كل المسلمين في دائرة الاتهام، وخصوصاً من كان اسمه محمد، وذلك تطبيقاً للتعليمات الحكومية. كما أن دوائر الهجرة والجوازات بدأت تعامل المسلمين معاملة سيئة وخصوصاً السعوديين.

وقد كتبت بعض الصحف الأمريكية عن المعاملة السيئة التي يلاقيها بعض المسلمين في أمريكا وخصوصاً كل من له نشاط إسلامي في الداخل الأمريكي أو في خارج أمريكا وكان في كتاباتها شيء من الاعتدال والإنصاف.

وبسبب الحرب الإعلامية على الإسلام فقد حاربت الحكومة الأمريكية وبشراسة وظلم كل الذين يتعاطفون مع حركة حماس أو فقراء فلسطين عموماً، وقد تم القبض على مجموعة من القيادات الإسلامية في بعض الولايات الأمريكية، وتم التحقيق معهم، ومحاكمتهم بتهم الإرهاب ودعم الإرهابيين، وكانت كل جرائمهم أنهم جمعوا بعض الأموال وبصورة مشروعة، وأرسلوها للفقراء في غزة وعبر جمعية رسمية معترف بها في أمريكا.

وقد نال هؤلاء أحكاماً قاسية لا يمكن تصورها أو قبولها ولم يرتكب هؤلاء أي جريمة تستوجب العقاب، لكن محاربة الإسلام ـ أولاً ـ والوقوف مع الصهاينة ـ ثانياً ـ كان الدافع وراء كل ذلك العمل المشين، ولو أنصف الأمريكان لعرفوا أن حكومتهم تقدم مليارات الدولارات لحكومة الصهاينة، كما تقدم لهم الأسلحة الفتاكة والمحرمة دولياً ليقوما باستخدام كل ذلك في قتل الفلسطينيين، وارتكاب مجازر وإبادة جماعية بحق الشعب الفلسطيني، وكان الأجدى أن تعاقب هذه الحكومة على دعمها المتواصل لدولة الصهاينة رغم كل ما تفعله من مخالفات لا أن تحكم بالسجن على من يدعم الفقراء والأيتام ببضعة آلاف من الدولارات.

وقد أسهمت بريطانيا بصورة كبيرة في تشويه صورة الإسلام من خلال معظم أجهزة إعلامها، وبطبيعة الحال فقد أثرت هذه الأجهزة على تغيير صورة المسلم عند شريحة كبيرة من البريطانيين، كما أنها أثرت على وضع الجالية المسلمة في بريطانيا.

وقد حاولت الكاتبة البريطانية السيدة "إليزابيث بول" أن ترصد صورة الإسلام من خلال أشهر الصحف البريطانية وذلك في كتابها: "الإسلام والمسلمون في الإعلام البريطاني" فقامت باستعراض ما كتبته في أشهر الصحف البريطانية وهي "التايمز" و"الغارديان" عن الإسلام، وخلصت إلى بعض النتائج كان من أهمها :

أولاً : أن الخطاب الاستشراقي ما زال حاضراً وبقوة في الإعلام البريطاني عند الحديث عن الإسلام والمسلمين وقضاياهم. فهناك مواقف مسبقة عن الإسلام أسست العقلية الجماعية للبريطانيين.

هذا الخطاب يعمم أشياء غير صحيحة عن الإسلام وعن المسلمين مثل: طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وكذلك تعدد الزوجات، وطبيعة الحكم السياسي، وعدم تواؤم الإسلام مع الحياة الحديثة مثل: الديمقراطية وحقوق الإنسان وما شابه ذلك.

ثانياً : إن أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م أثرت على كيفية نظرة البريطانيين للإسلام، إذ كانت قبل هذه الأحداث أفضل بكثير مما أصبحت عليه بعدها.

ثالثاً : وقد أكدت المؤلفة أن التغطية الإعلامية لقضايا المسلمين تتم بصورة سالبة.

وهناك مجموعة من الكتاب المهتمين بدراسة الوضع الإعلامي الغربي المتخوف من الإسلام تحدثوا عن هذه الظاهرة وسلبياتها، وكيف استغلتها بعض الأحزاب السياسية لتفوز في الانتخابات أو تتقدم على غيرها.

ففي مجلة المجتمع الكويتية أكد الكاتب الدكتور "أحمد عيسى" أن الأحزاب العنصرية تقدمت في الانتخابات الأوروبية بسبب استغلالها لظاهرة الخوف من الإسلام، واستطاعت أن تتقدم في الانتخابات.

وكذلك فعل الحزب القومي البريطاني الذي يعد من أشد الأحزاب البريطانية معاداة للأجانب، وقد اتخذ مؤخراً شعار "معاداة الإسلام" سلاحاً لجذب أكبر عدد من الناخبين.

وقد بذل هذا الحزب جهدا كبيراً لتشويه صورة الإسلام لدى الرأي العام البريطاني، فزعم أن الإسلام دخيل على أوروبا وحضارتها وتقاليدها المسيحية.

ووصف زعيم الحزب أن الإسلام ديانة شريرة وعنيفة، وقد انتشرت على أيدي حفنة من المجانين الحمقى، وأنها تمتد حالياً من بلد لآخر[1].

وقد فعل المحبس الإسلامي البريطاني خيراً عندما استنكر ما فعله الحزب القومي، ووصفه بأنه حزب له تاريخ في تأجيج الكراهية ضد السود والآسيويين واليهود والمسلمين والمهاجرين.

لقد استطاع الإعلام الموجه ضد الإسلام أن يجعل متطرفين بريطانيين يهددون عبر الإنترنت بذبح كل المسلمين في بريطانيا، وذلك بحسب صحيفة "صنداي تايمز" الصادرة في الثالث من سبتمبر 2005م.

أما صحيفة "إيفننج ستاندار" البريطانية فقالت: إنها أجرت مسحاً إحصائياً أثبتت فيه أن واحداً من كل ستة بريطانيين يتحاشى الركوب إلى جوار المسلمين في المواصلات العامة.

وساهمت فرنسا في حملة ضد الإسلام وبصورة متنوعة تحدث عنها "فنسان جيسير" في كتابه : "الإسلاموفوبيا" المخاوف الجديدة من الإسلام في فرنسا، وقد عرض في كتابه بعض ما تعرضه الصحافة الفرنسية عن المسلمين أو عن بعض مستلزمات بعض شريعتهم الإسلامية.

وقد نقل المؤلف عن مجلة "le Point " عدد 1550 في 31 مايو 2002م مقالاً للكاتب "كلود اجبر" قال فيه: إن الإسلام يقيم نظاماً اجتماعياً مخالفاً للقيم الفرنسية وهذا خطر على فرنسا ومبادئها العلمانية.

(1) المجتمع عدد 1858 في 1430/7/4هـ.

ويضرب المؤلف مثلاً بالشباب المغربي الذي يقول عنه: إنه لم يعد يمارس العبادات مثل آبائه ولكن مخالطتهم للأصوليين أثرت عليهم وجعلتهم يشكلون خطراً على مجتمعهم[1].

كما ذكر المؤلف أن الحجاب في فرنسا يتعرض لهجوم شديد في معظم وسائل الإعلام الفرنسية وخاصة المجلات الأسبوعية، فهذه المجلات تضع صور فتيات محجبات على صفحتها الأولى، وتظهر هذه الصور أن جزءاً من الحجاب يحمل صورة البراءة كما أن الجزء الآخر يحمل صورة الإرهاب والتهديد بالخطر[2].

وقد أدت هذه الحملة - وربما غيرها - إلى تبني الرئيس الفرنسي "ساركوزي" حملة شرسة ضد النقاب في فرنسا والضغط على المسلمات لكي لا يضعن نقاباً على وجوههن، كما قادت أيضاً - إلى منع المسلمات من استخدام برك السباحة إذا أصررن على ارتداء الملابس الإسلامية أثناء السباحة.

ولعلي أشير هنا إلى أن الحرب القذرة على الإسلام التي يروجها الإعلام الغربي هي التي جعلت مواطناً ألمانياً يقتل امرأة مسلمة داخل جدران المحكمة في مدينة "دريسدن" الألمانية.

ولعل هذا الإعلام نفسه الذي جعل صحيفة "مفركاس" تقول: إن ردة الفعل عن الحادث كان مبالغاً فيها!! مع العلم أن معظم وسائل الإعلام الألمانية لم تتحدث عن حادثة القتل على بشاعتها وبصورة مهنية إلا بعد ستة أيام على الأقل وبعد أن أخذت هذه الحادثة بعداً عالمياً[3].

إن هذه الحادثة تؤكد أن سبب قتل هذه المواطنة المصرية "مروة الشربيني" كان بسبب إسلامها وليس بسبب حجابها، كما تؤكد على عمق العنصرية ضد الإسلام لدى بعض الأوروبيين.

كما أن هذه الحادثة ومثيلاتها في دول أوروبية أخرى تفسر كل ظواهر العنصرية التي يلاقيها المسلمون في أوروبا في العمل والتعليم وفي المواجهات شبه

---

(1) الإسلاموفوبيا، ص56، ترجمة د. محمد صالح الغامدي وقسم آدم بره ط1، 1430 هـ.
(2) المرجع السابق، ص94.
(3) انظر عن هذه الحادثة بالتفصيل: الأهرام العربي عدد 644 تموز 2009، أسامة الدليل.

اليومية في الشارع، ومعروف أن هذه المواجهات كلها يغذيها الإعلام الغربي بقوة باعتبار أن المسلمين خطر يجب التخلص منه وبأسرع وقت ممكن.

وقد تحدثت صحيفة "الجارديان" البريطانية عن حادثة مقتل المصرية "مروة الشربيني" فكان مما ورد فيها: "علق كثير من الكتاب والصحفيين على تلقي الإعلام الغربي نبأ مقتل مروة وقاموا بأداء لعبة "ماذا لو" : ماذا لو كانت القتيلة غير مسلمة والقاتل هو المسلم، أكان باستطاعته أن يسلم من الهجوم الإعلامي الذي سيشن عليه. ربما لا. خصوصاً في ظل حظر الرئيس الفرنسي ساركوزي للنقاب، والتصاعد الملحوظ للأحزاب العنصرية المتطرفة في الانتخابات الأوروبية الأخيرة قبل أقل من شهرين والتي تعلن معاداتها للإسلام جهراً وعلى الملإ.

أما التغطية الإعلامية الشحيحة للحدث فإنها تعكس وتؤكد الإسلاموفوبيا في أوروبا، مما يستدعي التساؤل "ماذا لو" قتلت امرأة غربية في إحدى دول العالم العربي /الإسلامي هل سيكون هذا كفيلاً باستقطاب هذا القدر من الضوضاء الإعلامية والجماهيرية في صفوف المصريين"[1].

وبالإضافة إلى الإعلام المسيء إلى الإسلام فإن هناك مؤتمرات تعقد في هذه الدولة أو تلك للهدف نفسه، ففي مدينة كولونيا في ألمانيا نظم اليمين المتطرف مؤتمراً في 20 سبتمبر 2008م حذروا فيه من تحول أوروبا إلى الإسلام بسبب كثرة المهاجرين المسلمين الذين سيعملون على تغيير حضارة أوروبا وعاداتها.

وللإنصاف فإن مؤتمر "لوغانو" الذي عقد في جنوب سويسرا 16-17 مارس 2007م خرج بنتائج مغايرة ومنصفة منها: أن الإعلام الغربي لم يكن معتدلاً ولا منصفاً لأنه ركز على إظهار الصور السلبية عن الإسلام.

ومنها : أن الصحفي الغربي لا يستطيع التفرقة بين التعاليم الإسلامية وبين التقاليد المجتمعية، وهذا ما يجعله يسيء للإسلام باستمرار كلما وجد عملاً يقوم به مسلم بحكم تقاليد مجتمعه وليس بحكم تعاليم دينه.

"وقد اعترف المقرر الخاص للأمم المتحدة حول العنصرية في مؤتمر المنظمة الأوروبية للأمن والتعاون التي تضم أمريكا وكندا في يونيو 2003م بأن المعاداة

(1) فتقول من صحيفة "الوطن" السعودية العدد 3308 - 13 يوليو 2009. الكاتبة: نسرين مالك.

للإسلام أصبحت التحدي الرئيس للدول الأوروبية في ميدان التمييز العنصري بحيث ينظر إلى المسلمين في هذه الدول كأعداء في الداخل، وقال: إن المعاداة للسامية في الغرب تبدلت بالمعاداة للإسلام.

كما اعترف تقرير لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة الصادر في أبريل عام 2005م بأن هناك حملة تشويه متنامية ضد الإسلام والمسلمين في الغرب. وأن التقارير والدراسات المحايدة في الغرب ترصد تلك الظاهرة منذ سنوات مؤكدة أن المسلمين يتعرضون للتمييز والإضرار بمصالحهم إلى درجة تصل إلى حد العنف على أساس ديني[1].

ولعلي أشير هنا إلى نوع آخر من الإساءة للإسلام، مثل الرسوم المسيئة للرسول ﷺ التي انتشرت في الدنمارك وهولندا، ثم انتقلت إلى عدد آخر من الدول الأوروبية، وكانت هذه الدول تنشرها بدعوى حرية التعبير؛ هذه الحرية المزعومة التي لا نراها مطلقاً عندما يأتي الحديث عن المحرقة النازية والمزاعم التي تقال عنها، فهنا تختفي تلك الحريات، وتصبح أثراً بعد عين".

ولعلي هنا أختم هذا الجزء من البحث بقول المؤلفة الإسبانية "لورا نافارا" في كتابها "ضد الإسلام" حيث قالت: "إن الإعلام الغربي أصبح عاملاً رئيسياً في تشويه صورة العربي المسلم، وإن هذا الإعلام يمارس انتقائية ضد القضايا العربية خاصة قضية فلسطين".

وقالت أيضاً: "إن الغرب أنتج 373 شريطاً سينمائياً عن الإرهاب ما بين سقوط جدار برلين إلى عام 2006م أكثرها يركز على الإرهاب الإسلامي".

نعرف أن بعض وسائل الإعلام الغربي عملت ـ ولازالت تعمل ـ على تشويه صورة الإسلام في الغرب لأهداف متعددة، كما نعرف أن التخويف من الإسلام أصبح ظاهرة يستغلها كل صاحب مصلحة في أوروبا لتمرير مصالحه وليس خوفاً على أوروبا من انتشار الإسلام فيها، فأوروبا ليست مسيحية بالمعنى الذي نعرفه لأنها علمانية والدين ـ أياً كان نوعه ـ لا يهمها كثيراً كما تهمها مصالحها الاقتصادية.

---

(1) مجلة المجتمع الكويتية العدد 18، 1860، رجب 1430هـ ـ 2009/7/11م، ص5 .

كما ندرك أن تصاعد الحملات الفاشية المناهضة للمسلمين في بريطانيا وسواها بدأت هي الآخر تتصاعد، وأعتقد أن هناك تنسيقاً بين من يقومون بهذه الحملات وبين الجمعيات الصهيونية التي تجعل محاربة المسلمين هدفاً لها لأن هذه الحرب تخدم مصالحها السياسية في أوروبا وإسرائيل.

وأعتقد أن المصالح الاقتصادية تشكل أهم عوامل هذه الحرب بالنسبة للأوروبيين خاصة في ظل الأزمة الاقتصادية التي ضربت الاقتصاد الأوروبي في الآونة الأخيرة، فهؤلاء يظنون أن المهاجرين المسلمين ينافسونهم على الوظائف المتاحة لهم، وربما كان ما نشرته صحيفة "الديلي تلغراف" معبراً عن تلك الحالة حينما قالت : إن أكثر خطر يهاجم بريطانيا هو تزايد مواليد المهاجرين المسلمين.

نعرف هذا كله ونعرف ـ أيضاً ـ أن عدداً من وسائل الإعلام الغربية تحتفي بكل من يكتب ضد المسلمين ودينهم كما فعلت مع سلمان رشدي وتسنيمة نسرين ونصر حامد أبو زيد، والهولندي "فيلدرز" الذي أخرج فيلماً سينمائياً قال فيه: "أنا أكره الإسلام ولا أكره المسلمين"وغيرهم كثير ولكن هذا كله كان يجب أن يقودنا ـ نحن المسلمين ـ إلى القيام بأعمال جادة وفي كل اتجاه للدفاع عن ديننا وبكل الوسائل المتاحة وللرد على كل الشبهات التي يثيرها الإعلام الغربي وغيره.

دور المسلمين في الدفاع عن دينهم :

لا أستغرب كثيراً ما تقوم به وسائل الإعلام الغربية في تشويه صورة الإسلام والتخويف منه لأن لهذه الوسائل أهدافاً تريد تحقيقها، ولكني أستغرب من ضعف ردة الفعل العربية؛ الرسمية منها والشعبية مع خطورة ما تقوم به تلك الوسائل سواء على الأفراد أم على الجاليات المسلمة في الغرب أو حتى على الدول العربية الإسلامية مع أن بلادنا العربية تمتلك من المقومات الفكرية والمالية ما يجعلها تفعل الكثير من أجل دينها وأبنائها.

قد يصعب علي أن أتحدث عن كل ما يجب أن تفعله الحكومات أو الأفراد لإظهار الصورة الحقيقة للإسلام ولكني سأحاول قدر الإمكان أن أشير إلى أهم النقاط التي أرى أهميتها.

تتحدث بعض وسائل الإعلام الغربية عن تدني مكانة المرأة المسلمة وأنها شبه مستعبدة، وأن الحجاب والنقاب من أشد ظواهر العبودية للمرأة، هذا الاعتقاد هو الذي جعل بعضهم يمنع الحجاب ويضيق على المحجبات في أكثر من دولة أوروبية.

إن الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام، وكيف تحدث عنها رسولنا الكريم،وكيف كان يعامل زوجاته، وكيف كان يفعل الصحابة وسواهم على مدى تاريخنا كله، كل ذلك يعطي دلالة قوية على مكانة المرأة عند المسلمين.

أما الحجاب فإن المرأة المسلمة ترتديه عن قناعة تامة وهي ليست مجبرة على ارتدائه،بل إنها ترفض مطلقاً التخلي عنه لأنه، كما تعتقد ـ جزء من دينها.

وإذا كان الغربيون يتحدثون عن حقوق الإنسان ومنها حريته فيما يقول ويفعل فإن من أبسط تلك الحريات أن تلبس المرأة ما تريد لبسه.

وإذا كان الغربيون يسمحون لنسائهم أن يخلعن ما يرغبن من ملابسهن بدعوى تطبيق مبادئ الحرية فلماذا تضيق صدورهم إذا مارست المرأة المسلمة حقها في لبس ما ترغب؟.

أعرف أن هناك عشرات ممن كتبوا عن المرأة المسلمة ولكني أرى أن هذه الكتابات يجب أن تترجم لكل لغات أوروبا، كما أرى أن على الإعلاميين المسلمين دورا بارزا في مواصلة الحديث عن هذا الموضوع وفي وسائل الإعلام الغربية إذا تيسر لهم ذلك.

ولعلي هنا أشير إلى ما قاله الملك محمد السادس في ندوة "صورة الإسلام في الإعلام الغربي بين الإنصاف والإجحاف"التي عقدت في الرباط حيث قال: "إن الإعلام الإسلامي تطور كثيراً بفضل ما يملكه من أجهزة وقنوات للتواصل إلا أن هذا الإعلام مطالب بفهم العقلية الغربية وإتقان لغاته ليخاطبه بنفس مفاهيمه وأدواته". كما أشار جلالة الملك إلى أهمية وضع استراتيجية إعلامية تكفل تحقيق الأهداف المتوقعة منها.

و أعتقد أن الإعلاميين المسلمين لو أخذوا بتلك التوجيهات لتغيرت صورة المسلمين ودينهم كثيراً عند الغربيين.

وهنا أشدد على أهمية دور الزعماء العرب والمسلمين في دعم الإعلام الهادف الذي يحقق مصلحة المسلمين بكل جوانبها.

ويتحدث الإعلام الغربي عن المناهج الدينية في المدارس الإسلامية، ويدعي أن بعض هذه المناهج تدعو إلى الإرهاب، وقد مارس الأمريكان ضغوطاً هائلة على بعض الدول العربية لتغير مناهجها الإسلامية.

إن على إعلاميينا أن يناقشوا هذه المسألة، ويقولون بوضوح: إن مناهجنا لا تدعو إلى الإرهاب لأن إسلامنا دين تسامح مع الجميع، وإن كان فيها ما يمكن فهمه بصورة خاطئة فهذا يمكن تعديله وإيضاحه.

ومن المعروف أن المناهج الدراسية في كل دول العالم تعتبر مناهجها التعليمية من أهم خصوصياتها، ولا يسمحون لأحد أن يتدخل فيها، فلماذا تكون مناهج بلادنا كلأً مباحاً للجميع!!

وعلى الجاليات المسلمة أن تقوم بدورها في الأماكن التي تعيش فيها، ومن أهم هذه الأدوار أن تكون علاقات الجاليات المسلمة مع أهالي البلاد التي يعيشون فيها جيدة وتقوم على الاحترام المتبادل وتبادل المصالح.

ومن المهم أن يكون هناك صلات قوية بين الجاليات وبين هيئات حقوق الإنسان التي تكافح العنصرية وتدافع عن الأقليات، لأن هذه العلاقة تجعل تلك الهيئات تتبنى الدفاع عن قضايا الجاليات العادلة.

ومن المفيد الترويج لثقافة حرية الاعتقاد وحقوق الإنسان، والحريات العامة التي جاء بها الإسلام، لأن هذه القضايا تحتاج إلى بلورة خطاب إعلامي رشيد يتوافق مع العقلية الأوروبية، فهذا الخطاب يؤتي ثماره بشكل جيد.

وعلى الحكومات أن تستغل علاقاتها القوية مع أوروبا خاصة الاقتصادية لكي تضغط على هذه الحكومات لتوقف إساءتها للجاليات المسلمة ولكي تعطيها حقوقها بموجب قوانين البلاد التي تعيش فيها تلك الجاليات.

وعلى هذه الدول أن تقيم مؤتمرات وندوات للحوار الفكري في الدول الأوروبية والأمريكية لتصحيح صورة الإسلام فيها.

ولا شك أن الجميع يتفقون على أهمية الحوار بين أتباع الديانات لتقريب الفجوة بينهم.

ولعلي أشيد هنا بما قام به خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز في تبني إقامة عدة مؤتمرات للحوار في بعض دول أوروبا وكذلك في أمريكا.وكذلك تبنيه إقامة مركز عالمي للحوار على نفقة المملكة العربية السعودية.

وقد أثبتت تلك المؤتمرات التي أقيمت في مكة المكرمة وإسبانيا ونيويورك فوائد كبيرة وأتمنى أن يكون عطاؤها أكبر في المستقبل.

أمام العرب والمسلمين طريق طويل لكي يصلوا إلى مبتغاهم بسبب شراسة الحرب ضدهم، ولأنها حرب تفتقر إلى العدالة والأخلاق، لكن لا بد من العمل المتواصل لكي نجعل صورة ديننا كما أرادها الله أن تكون، ولكي يعرف العالم كله أن هذا الدين يمثل قمة التسامح والأخلاق وليس كما يروج له بعض الحاقدين هنا وهناك.

وأخيراً: فأني آمل أن يكون هذا البحث وغيره من الأبحاث التي ستلقى في هذا المؤتمر محفزة على مزيد من العطاء لخدمة ديننا وبلادنا وبكل ما نملك من مقومات مادية ومعنوية، والله ولي التوفق.

المراجع :

1. **الإسلاموفوبيا** : كلود إجبر، ترجمة محمد صالح الغامدي وقسم آدم،ط1، 1430 هـ.
2. **القدس ومعاركنا الكبرى:** محمد صبيح، طبع في مصر سنة 1970م.
3. **مستقبل الإسلام في الغرب والشرق : حوارات لقرن جديد**، مراد هوفمان، ط1، سنة 2008م، دار الفكر دمشق.
4. **هل يتحمل الغرب مسؤولية شقاء العرب والمسلمين : أصول التلاقي والحوار مع الغرب**، علاء الدين آل رشي، نشر مركز الناقد الثقافي، ط1، سنة 2009م.
5. **مجلة المجتمع الكويتية**، العدد18، 1858.
6. **الأهرام العربي**، العدد 644، تموز 2009م.
7. **صحيفة الوطن السعودية**، العدد 13، 3308، 16 يوليو2009م.
8. **مجلة le point الفرنسية**، عدد 1550 في 31 مايو 2002م.
9. **صحيفة صندي تايمز**، بريطانيا، 3 سبتمبر 2005م.

الإسلام والإعلام الغربي
وتحديات ما بعد أحداث 11 شتنبر 2001

الدكتور محمد بشاري(*)

قد يكون قطاع الإعلام اليوم، من بين أهم القطاعات الأكثر تأثرا بالأحداث التي ميزت مطلع القرن الميلادي الجديد، أي أحداث 11 شتنبر 2001، على اعتبار أن تسويق التعليقات وردود الفعل على الحدث وخاصة تبعاته جاءت بالدرجة الأولى عبر القطاع الإعلامي، سواء كانت تلك الردود سياسية أو ثقافية أو أكاديمية.

من ناحية ثانية، علينا أن نتأمل جيدا الفرص الضائعة التي سقطت فجأة بيد صناع القرار الإعلامي في العالم العربي، ونخص بالذكر نموذج قناة "الجزيرة"، عندما أصبحت القناة ولمدة شهور عديدة مصدرا أساسيا عند العالم بأسره بخصوص تتبع مستجدات أحداث الحرب في أفغانستان، بحكم أن القناة كانت الوحيدة التي سمح لها بتغطية الحدث.

مثل هذه الفرصة تدفع بنا للتساؤل عن الخدمات الذي يمكن أن تكون القناة قد قدمتها للعالم الإسلامي بخصوص تحسين صورة الإسلام والمسلمين في الغرب.

فطبيعي أن نكون نحن ممثلي الأقلية المسلمة في الغرب، من أهم المعنيين بتحسين هذه الصورة، خاصة بعد القلاقل التي أفرزها حدث 11 شتنبر 2001 على الأقلية المسلمة في القارة الأوروبية وبالتحديد في القارة الأمريكية، إن لم نؤكد على أن الأحداث نسفت مجهودات عقود وسنوات من عمل أقليات وجدت نفسها بين ليلة وضحاها مضطرة لإعادة عمل مضنٍ وطويل يقوم على إعادة بناء أسس علاقة سوية مع الجار الغربي في المسكن والعمل والشارع، ووجدت نفسها أيضا مضطرة للدفاع عن

(*) رئيس الفيدرالية العامة لمسلمي فرنسا، وأمين عام المؤتمر الإسلامي الأوروبي. عميد معهد ابن سينا للعلوم الإنسانية، عضو مجمع الفقه الإسلامى الدولي.

نفسها من مجموعة من الاتهامات الجاهزة الصادرة عن بعض العقليات العنصرية أو العقليات التي كانت تنتظر فقط الذريعة من أجل تفريغ أسهم الحقد والبغض، ويكفينا في هذا الصدد الاستشهاد، على سبيل المثال لا الحصر بما نشرته "رولا خلف" محررة شؤون الشرق الأوسط في صحيفة "الفاينانشيال تايمز" البريطانية في عدد 13 أكتوبر 2001، أي بعد حوالي شهر واحد فقط من الاعتداءات التي تعرضت لها نيويورك وواشنطن، عندما استشهدت بما جاء على لسان الخبير الفرنسي "أوليفر روي": "لقد تحول الإرهاب الإسلامي الدولي من الإرهاب المدعوم من الدول أو العمليات - التي استهدفت الداخل - إلى إرهاب غير محدد الموقع، ويتجاوز الحدود عبر دول عديدة"، مضيفا ما مفاده أن "مسلمي الغرب مرتع للإرهاب وهذا يشرح العامل الثالث وراء حادث يوم 11 سبتمبر؛ وهو أن المهاجرين العرب في الغرب أكثر من يفضلهم أسامة بن لادن للتجنيد في القاعدة". يقول روي: "هذا من ناحية نتيجة للعولمة؛ فهؤلاء الناس يجابهون الواقع الذي يدفعهم للاندماج بالمجتمعات الجديدة. لكن قلة منهم ترفض ذلك. وتكون النتيجة خليطا من تمرد إسلامي وعداء غربي تقليدي للنظام القائم". ويكون المجندون الذين يستقطبهم أسامة بن لادن لقضاياه السياسية من العمال المهاجرين والشباب الضائعين أو الشباب العربي المتحمس"، وهذا تصريح يتماشى مع ما جاء في العديد من وسائل الإعلام الغربية، ونستشهد هنا بما جاء في صحيفة "هيرالد تربيون" الأمريكية التي حملت راية الدعوة لتصحيح مواقف الحكومات الأوروبية تجاه اندماج اللاجئين المسلمين في داخل المجتمعات الأوروبية، ومنها المجتمع الهولندي، بدليل دخول الإعلام الهولندي في متاهة موضوعات لا يجرؤ أي إعلام أوروبي على الدخول بها أو التصدي لها. فحسب بعض التحليلات فإن المهاجرين العرب والباكستانيين والأتراك يعتبرون الآن خطرا قوميا، وهو نفس ما أشار إليه أوليفيه روا كما أسلفنا من قبل. لسنا بحاجة إلى أن نؤكد على أن ما تعرضت له العديد من المساجد والمراكز الإسلامية والمدارس الإسلامية من اعتداءات ومضايقات أدت بالكثير منها إلى التوقف عن النشاط إلى وقت غير معلوم. وقد مثلت هذه الضغوط عبئا جديدا يضاف إلى كاهل القائمين على المراكز العربية والإسلامية والراغبين في فتح مراكز أخرى خاصة إذا علمنا أن بعض المناطق يمنع المسلمون من بناء أي معلم لهم فيها يدل على هويتهم بالإضافة إلى ذلك بعض العراقيل البيروقراطية التي تواجه المسلمين إذا ما تعلق الأمر ببناء مسجد أو مركز إسلامي مثلما حدث منذ مدة عندما منع المسلمون في منطقة (وست هام) في بريطانيا، من بناء مسجد على قطعة أرض كانوا قد اشتروها بحجة أن البلدية قررت تحويل الأرض إلى طريق. وقد نالت النساء والأطفال من هذه الفوضى حصة الأسد لأن

النساء في هذا البلد هن في الأصل فريسة سهلة، وأخبار قتل واغتصاب واختفاء النساء تملأ صفحات المنابر الإعلامية الأوروبية، وقد كانت في تزايد مطرد وكانت هذه الأخبار لوحدها كافية لأن تقرر الكثير من النساء القعود في البيوت تجنبا للمشاكل فجاءت الحوادث الأخيرة لتزيد من معاناتهن.

المهم أننا لا نزعم أننا نختزل الخطوط العريضة لصورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربي في مداخلة واحدة أو عرض موجز، خاصة وأنه سبق لنا أن أنجزنا هذه المهمة منذ مدة من خلال عمل من المنتظر أن يصدر لسوق النشر العربية عما قريب، ولو صح اختزال هذه الصورة في الإعلام الغربي لاختزلناها فيما أصبح يصطلح على تسميته بالإسلاموفوبيا، فالإسلام يعني بالنسبة لهم القسوة والوحشية، ويساهم في ذلك بعض المسلمين عن وعي أو غير وعي، كما في الأفلام التسجيلية التي تصور معاملة المرأة في أفغانستان التي تحكم باسم الإسلام، وكذلك المذابح التي حدثت بالجزائر ونُسبت إلى إسلاميين. ونستحضر هنا ما تحدث عنه الدكتور غانم جواد في مبحث له يحمل عنوان: "من أكلاهوما إلى محمد الدرة": صورة الإسلام في الإعلام الغربي– بريطانيا نموذجًا" حيث أكد على أن الاتجاه المعادي للإسلام في الإعلام الغربي قد رصدته الكثير من الدراسات منذ عام 1970 حين بدأ هذا الاتجاه في النمو عقب الحرب الإسرائيلية العربية عام 1967، وحرب أكتوبر 1973، والحظر النفطي، واندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، والثورة الإسلامية الإيرانية، وما واكبها من أزمة الرهائن والكساد الاقتصادي في بداية الثمانينيات، والجهاد الإسلامي ضد السوفيات، وحربي الخليج الأولى والثانية. مضيفا أن الروايات الشعبية والأفلام السينمائية والصور الصحافية والكاريكاتيرية بدأت تصور المسلمين على أنهم إرهابيون ومتوحشون، وفاسدون، وقد ساعد أيضًا على زيادة مخاوف الغرب من المسلمين تزايد الهجرة الواسعة من العالم الإسلامي إلى أوروبا، وما واكبها من أزمة البطالة، واتساع نطاق الجريمة، وانتعاش تجارة المخدرات وغير ذلك، وهو ما فسره الغربيون بزيادة أعداد المهاجرين من دول الجنوب إلى الشمال.

من ناحية ثانية، لا بد لنا من استعراض الخطوط العريضة لهذه الصورة في الفترة التي جاءت بعد أحداث 11 شتنبر 2001، كما أشرنا إلى ذلك في معرض مداخلة لنا أمام البرلمان الأوروبي يوم 17 أبريل 2002، وذلك على هامش اعتراف البرلمان الأوروبي ب"المؤتمر الإسلامي الأوروبي" كمنظمة غير حكومية، في سابقة من نوعها تهم منظمة إسلامية، يأبى هذا البرلمان إلا أن يقر بشرعيتها، حيث أشرنا إلى أن

الأصوات الأوروبية المسؤولة، سواء كانت محسوبة على الحقل السياسي أو الثقافي أو الديني أو الإعلامي وغيره، انقسمت فيما يخص التعامل مع الوجود الإسلامي في القارة الأوروبية إلى فرعين أساسين:

* منحى تبنىّ خط التعقل والحكمة في تحليل أسباب الاعتداءات التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية أولا، ولم يتردد في الإقرار على تبرئة الإسلام من مثل هذه الممارسات، وكذلك الحال مع الديانات الأخرى، ثم، وهذا هو الأهم، تبنى الدفاع عن تبرئة طبيعة الإسلام المعتدل الذي يطغى على ممارسات مسلمي القارة الأوروبية من مجرد التفكير في مثل هذه الأعمال الإرهابية، وإن كانت ممارسات هذه الأقلية تؤكد على ذلك بالفعل، سواء تعلق الأمر بالفترة التي تسبق تاريخ هذا الحدث (أي 11 سبتمبر) أو بعده.

* منحى تبنىّ خلط أوراق ممارسات الإسلام المعتدل الذي تتبناه الأقلية المسلمة مع بعض الممارسات الشاذة والمتطرفة والتي نجدها بالمناسبة في جميع الديانات والإيديولوجيات، وما نأسف له، أن هذا التيار وجد أصداء مدوية في العديد من وسائل الإعلام الأوروبية المسؤولة، ولأنه لا يسعنا استعراض مجمل الأصوات العنصرية والحاقدة التي تبنت هذا الطرح الشاذ، فإننا نكتفي باستعراض بعض النماذج العابرة فقط، ولكنها نماذج معبرة بحق عن مدى خطورة خلط الأوراق في صالح عام لا يخدم بالضرورة مستقبل اندماج هذه الأقليات في الفضاء الأوروبي الرحب، ونؤكد أنه حقا فضاء أوروبي رحب، لأنه ثبت للجميع، ومباشرة بعد الاعتداءات التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية أن الوجود الإسلامي في أوروبا عموما لم يتأثر كثيرا كما حصل مع الوجود الإسلامي في القارة الأمريكية، وهذه خلاصة لا يسعها إلا أن ترسخ من تفعيل وتيرة الاندماج المرجو من قبل المسؤولين الأوروبيين من جهة، وكذا من قبل الأقلية المسلمة من جهة ثانية.

ولعل الحضور الكريم يتذكر جيدا إحدى أهم الشهادات التي جاءت على لسان المسؤولين الغربيين، أي سيلفيو برلسكوني، والتي كانت مناسبة لأن نطلع على ما تكنه بعض العقليات الفكرية الغربية نحو الإسلام والمسلمين، ونستشهد على الخصوص بالتصريحات العنصرية والمليئة بالحقد الصادرة في صحيفة "كوريري دي لاسيرا" الإيطالية الشهيرة على لسان الكاتبة والصحافية الإيطالية أوريانا فالاسي في رسالة مطولة أكدت فيها من خلال منطقها المغلوط أننا نعيش "حربا صليبية قائمة بالفعل"، "إنكم لا تفهمون ولا تريدون أن تفهموا بأن هناك حربا دينية قائمة تضيف أوريانا

فلاسي" "حربا يسمونها جهادا، حربا لا تريد أن تغزو أراضينا بل أرواحنا، حربا تريد القضاء على حريتنا وعلى حضارتنا، وتريد أن تغير طريقة عيشنا وموتنا، طريقة أكلنا وشربنا ولبسنا وتعلمنا. لا تفهمون ولا تريدون أن تفهموا بأننا إذا لم نقاوم ولم ندافع عن أنفسنا ولم نحارب فإن الجهاد سينتصر وسيدمر العالم الذي بنيناه، وغيرناه وطورناه وجعلناه أكثر تسامحا؟ وسيدمر قيمنا ولذاتنا. ألا تفهمون أن أمثال أسامة بن لادن يستحلون قتلكم وقتل أولادكم لأنكم تشربون الخمر أو الجعة، لأنكم لا تطلقون اللحية ولا تلبسون النقاب، لأنكم تذهبون إلى المسرح والسينما، لأنكم تنصتون إلى الموسيقى وتغنون الأغاني، لأنكم ترقصون في الملاهي أو في بيوتكم، لأنكم تشاهدون التلفزة، وتلبسون السراويل القصيرة، لأنكم تتعرون كليا أو جزئيا في المسبح أو الشاطئ، لأنكم تمارسون الجنس مع من تحبون، حيث تحبون، وعندما تحبون".

عندما تصف أوريانا فالاسي مساجد ميلانو وروما أنها أصبحت "تعج بالأوغاد من أنصار أسامة بن لادن"، فإن مثل هذه التصريحات تخلف بالضرورة أصداء في الشارع سواء الإيطالي أو الأوروبي، ونستشهد على ذلك بمضمون استطلاع أجرته صحيفة "ذي أوبزرفر" البريطانية صدر في 25 نونبر 2001، جاء فيه أن غالبية البريطانيين يطالبون بطرد المسلمين الذين يدعمون في بريطانيا أسامة بن لادن، وبالمناسبة، أشار نفس الاستطلاع إلى تدهور العلاقات بين الإثنيات في بريطانيا منذ أحداث 11 شتنبر، حيث أكد ذلك 36 في المائة من الأشخاص الذين شاركوا في الاستطلاع، مقابل نسبة 21 في المائة ظهرت في دراسة سابقة أجريت قبل الاعتداءات.

لا نشك مطلقا أن الوجود الإسلامي المعتدل والمندمج سيضايق أوريانا فالاسي، ما دامت هذه الأخيرة تنطلق في تصريحاتها من خلفيات مليئة بالحقد والعنصرية والتطرف، والدليل هو اعترافها بكره الأجانب العرب والمسلمين، وتأكيدها على عدم تحمل موجة من المهاجرين الذين يريدون بطريقة أو بأخرى أن يغيروا نظامنا في الحياة وقيمنا. إنني أقول إنه ليس عندنا مكان للمؤذنين، للصوامع، ولعقليتهم القروسطوية ولحجابهم، ولو كان عندنا مكان لهم، فإني لن أعطيه لهم.

كتاب آخرون، وفي معرض ربط الإسلام كدين جاء رحمة للعالمين، كما نقرأ في إحدى الآيات القرآنية، نجدهم يستشهدون ببعض الآيات القرآنية التي تزكي هذا الاتهام غير المقبول، ومنها الآية : ﴿**واقتلوهم حيث وجدتموهم**﴾، ولا داعي لأن نستفسر هؤلاء عن عدم الاستشهاد بالآية الكريمة التي ترد على هذه الأباطيل والتي يقول فيها الله عز

وجل: ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾، أو بالآية : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء** ﴾، وآيات أخرى ونصوص نبوية صحيحة وصريحة تفند هذه المزاعم والمغالطات.

من ناحية أخرى شهدنا أقلاما صحافية قامت بالدعاية والترويج لثنائيات تفضح العقلية الغربية والصور النمطية الاستشراقية والتي تمس الإسلام والمسلمين ونختصرها في النماذج التالية:

- العربي المسلم يقابله الغربي المسيحي
- الاستبداد والظلامية مقابل الحرية والديموقراطية
- الإرهابي مقابل الضحية
- الإرهابي غير المنظم مقابل الحرب المشروعة كالدفاع عن النفس.

ويكفينا قراءة ما كان يحرره رئيس تحرير مجلة "لوبوان" الفرنسية، الكاتب الفرنسي كلود أمبير من سموم تجاه الإسلام والعرب، فنجده وعلى سبيل المثال لا الحصر يقول في إحدى مقالاته، أنه أينما حل الإسلام. يكون مصير تلك البقعة الفشل المزدوج، وكون الحضارة الغربية هي المستهدف الوحيد من الرعب الإسلامي، والذي يبعث على الاستنكار بالفعل، هو أن تكون النافذة الوحيدة الواردة في افتتاحية أمبير تضم هذا التصريح الخطير، كما أنه أشار إلى أن الإرهاب الإسلامي على حد قوله يرفض الحضارة، ولمح إلى أن الاعتداءات التي عرفتها نيويورك وواشنطن تجسد نموذجا لصراع الأديان وصراع الحضارات، عاقدا الأمل أن تمثل فرصة لأن يخرج الإسلام من أوهام القرون الوسطى.

وبخصوص حجم الخطر الذي تشكله الصليبية على الإسلام في الوقت الراهن شدد رئيس أساقفة كانتربري على أن الرئيس الأمريكي جورج بوش لم يكن حكيما على الإطلاق في استخدام مصطلح الحروب الصليبية، معربا عن اعتقاده بأن استخدامه لهذه الكلمة يعكس عدم فهمه لتاريخ العالم، وقال : "لا أريد لصورة الإسلام أن تتعرض للتشهير بأي شكل من الأشكال بسبب أحداث 11 سبتمبر". وفيما يتعلق بدور الكنيسة الإنجليزية في منع المزيد من الاعتداء على المسلمين في بريطانيا، أوضح كاري أن بلاده لم تشهد سوى اعتداءين منذ هجمات 11 أيلول (سبتمبر) مشيرا إلى تجربة مدينة ليستر التي شكل فيها أبناء الديانات الإسلامية والهندوسية والمسيحية قوة رد سريع للتعامل مع أية هجمات تطال الأماكن الدينية أو دور العبادة.

وحذرت صحيفة "غارديان" أن التشريعات الجديدة التي تطالب بتعديل القانون يمكن أن تطال حرية الأفراد، فيما انعقدت أيضا خطوات أوروبية اتخذت بعد الهجمات والتي تشير إلى أكثر من خمسة عشر مدخلا للتصدي للإرهاب. وقالت إن كل هذه الإجراءات لا تعطي معنى دون حماية قانونية لها. هذا ومن المتوقع أن تؤثر التشريعات الجديدة في بريطانيا وخطوات أخرى اتخذتها حكومة غربية أوروبية على العلاقات الحذرة بين الحكومة والمهاجرين المسلمين في هذه البلاد. وحتى الآن كان المثال الهولندي الأنجح في التعامل مع المهاجرين المسلمين الذين ينتمون إلى أصول مغربية ودول أخرى من شمال إفريقيا، واستطاعت حكومة هولندا ضمن منظور التعددية الثقافية تعزيز أوضاع الجالية الإسلامية والعربية، واتخاذ خطوات لدمجها داخل المجتمع العام وإعطائها الوسائل للحفاظ على هويتها.

سيطرة اللوبي الصهيوني على وسائل الإعلام الأمريكية مما جعل لليهود تأثيراً واضحاً على صانع القرار الأمريكي قبل حادث 11 سبتمبر، ولكن تأثير اليهود زاد عقب حادث الثلاثاء الخطيرة، ثم إن تأييد أمريكا المطلق لإسرائيل يرجع إلى قوة اليهود علمياً واقتصادياً، مما جعل لهم وضعا مميزا، إضافة إلى أن اليهود جزء من الحضارة الغربية فكانت لهم مكانة عالمية جعلت للصهيونية تأثيرها الكبير على الإدارات الأمريكية المتعاقبة.

بالنسبة للحالة الأمريكية، فمن المؤسف جدا أن نجد بأن العناصر المحافظة هي التي تسيطر علي إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، التي تؤمن بتعزيز القوة العسكرية لأمريكا والاستمرار في برنامج حرب النجوم ومحاربة الإرهاب الدولي، وتؤمن بأن على أمريكا تقديم الدعم المستمر للكيان الصهيوني؛ لأن العرب متخلفون؛ ولا يستحقون الدعم الأمريكي.

وعلى الصعيد الإعلامي والأكاديمي الصرف، شهدنا أن الإسلام وعلاقته بالديمقراطية وحقوق الإنسان أصبح موضوعاً دائماً في الإعلام الغربي والأمريكي حيث كان الصدام الحضاري بين الإسلام والغرب يثار من قبل تاريخ الاعتداءات، ولكن الآن أصبح يثار بعنف أكثر. والجديد اليوم في إثارة الصراع بين الإسلام والغرب هو دعم الحكومات الغربية وبالذات أمريكا للحملات المعادية للإسلام في الإعلام الغربي، وظهور تيار غربي قوي يتبنى فرض ما يطلق عليه الإصلاح الشامل للفكر الإسلامي لمحاربة الاتجاهات المتطرفة في الفكر الإسلامي كما أشار إلى ذلك عبد العليم الأبيض

الخبير في الإعلام الأمريكي، والذي أضاف بالمناسبة أن هدف أمريكا من الحملة العالمية ليس هو محاربة الإرهاب بالأساس بل تغيير الفكر الإسلامي ليتوافق مع حضارة العولمة إما بالضغوط السياسية أو العسكرية والاقتصادية، وقد شهدنا العديد من إفرازات هذه الضغوط منها الضغط على الدول العربية والإسلامية من أجل أن تتحول لقاءات الحوار مع الغرب نحو حوار داخلي بين المسلمين كعملية مراجعة الفكر الإسلامي. وهناك أيضا إعلان الرئيس الباكستاني برويز مشرف بأن الخطاب الإسلامي الراهن يعمل على تخلف المسلمين ونادى بتنقية المناهج الدينية، ويمكننا إضافة تصنيف العراق وإيران ضمن دول "محور الشر" أو الحملة الإعلامية التي شنتها وسائل الإعلام الأمريكية ضد المملكة العربية السعودية.

توصيات ختامية :

إن مهمة المسلمين هي تمثيل الإسلام التمثيل الحقيقي، أو التعريف به التعريف الصحيح عن طريق وسائل الإعلام، عن طريق المدارس والكتب والرسائل والمطبوعات ووسائل الإعلام المختلفة سواءً المنظور منها أو المسموع أو المكتوب إلى آخره، هذه كلها، وأهم شيء بدون شك هو التعامل والاحتكاك مع الناس، وهنا تبرز نقاط الضعف لدى المسلمين، كثير من المسلمين مع الأسف يسيء إلى الإسلام أكثر مما يحسن إليه، وهذه معضلة، يعني هذا الشيء في تركيبة المسلمين سواءً في تعاملهم، في أساليب تعاملهم، في أساليب حياتهم، في فهمهم لمختلف الأمور، فمنهم من يُنفِّر الناس من الإسلام أكثر مما يجذبهم إليه، وهكذا فالعملية معقدة جداً، ولكن غياب القيادات وغياب التنظيمات القادرة التي لديها الإمكانيات الصحيحة والحقيقية والفعالة لحشد هذه الإمكانيات وتوجيهها التوجيه الصحيح للتعريف بالإسلام هو الشيء الغائب، وهو الشيء المفقود في الساحة الإسلامية في الغرب.

علينا أن نعترف اليوم أن هناك قصورا من الجانب الإسلامي في إبلا غ الصوت العربي والإسلامي إلى المجتمعات الغربية بصورة. صحيح أن المسألة تحتاج إلى إمكانيات وطاقات ولكنها قبل ذلك تحتاج إلى رؤية، فما معنى أن تحتضن الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من 7 ملايين مسلم دون أن نستفيد من هذا الحضور في تمرير الصورة الإيجابية عن الإسلام والمسلمين، الذي أضحى مشهوراً هو تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن عند أغلب وسائل الإعلام الأمريكية.

عمليا يمكننا أن نؤكد أن صورة الإسلام في الغرب قد تغيرت إلى حد ما بعد ما عرف العالم براءة المسلمين من حادث أوكلاهوما، وكذلك التغطية الإعلامية لأحداث كوسوڤو والبوسنة، والعنف الوحشي الصهيوني الذي صورته صورة استشهاد الطفل محمد الدرة، ومقتل الطفلة إيمان حجو، وتزايد عدد المسلمين الأوروبيين. ولكن، لا يحول ذلك من أن تتحد المبادرات الصادرة عن المسلمين أنفسهم من داخل وخارج العالم الإسلامي والتي تهدف إلى إزالة العديد من نقاط سوء الفهم التي تهم علاقتنا بالغرب بصفة عامة، ولا نريد أن نسرد لائحة طويلة من التوصيات الذي تطرقنا إليها في ختام مؤلفنا الذي يحمل عنوان : "صورة الإسلام في الإعلام الغربي"، ولكن، يمكننا مثلا أن نتساءل عن السبب الذي يقف دون أن ننشئ قناة فضائية تبث باللغات الأجنبية تشرح الحضارة الإسلامية والدين كأحد مكوناتها، وأن نمول إنتاج أعمال تلفزيونية وسينمائية عن الحضارة الثقافية الإسلامية، على أن تكون باللغات الأجنبية، وتكوين لوبي إعلامي ثقافي لتصحيح ما ينشر عن الإسلام، والرد عليه أيضًا عبر جرائد تصدر بلغات أجنبية عن إحدى دور النشر العربية في المهجر، خاصة وأن الجيل الجديد من مسلمي أوروبا والدول الغربية عموما يبدو أوفر حظاً في التفاعل الإيجابي المثمر مع الساحة الإعلامية الأوربية من سابقه، وهذا ما نلمسه من خلال معاينتنا الميدانية والجولات والحوارات التي نجريها في البلدان الأوربية.

يمكننا أيضا إعداد عدة دورات تدريبية للإعلاميين الشبان ولمسؤولين في مؤسسات نفع عام في أوساط الأقليات الأوربية المسلمة، والعمل على إطلاق مشروعات إعلامة، تتركز على ميادين مكافحة التشويه في وسائل الإعلام، وإنتاج المواد الإعلامية، وإعداد بحوث ودراسات معمّقة، وتأهيل الإعلاميين الناشئين، ولن يتم كل هذا إلا باستحضار رؤى واستراتيجيات عمل واضحة من لدن المسؤولين المسلمين سواء في الدول الإسلامية أو في الدول الغربية التي تشهد حضورا متصاعدا للأقليات المسلمة.

أخيرا، وليس آخرا، نحتاج اليوم إلى أن نكون على وعي تام بدور الإعلام في بلورة خطاب وصورة تشرف الإسلام والمسلمين. فنحن في أمس الحاجة إلى بلورة خطاب إعلامي عصري وموضوعي، يغزو الأسواق الغربية، ويتجاوز الإطلاقات المتناقضة ويعلو على النزعة العاطفية ويؤسس رؤية معرفية إسلامية مستقلة وشاملة، ويرتكز على الانفتاح النقدي، يعلي من شأن الأمة كبديل عن الاهتمام بالدولة المركزية خاصة وأننا نعيش في فترة تتميز بحضور متصاعد لمفهوم "أمة المواطنة"، وهذا يتطلب من المسؤولين عن الخطاب الإعلامي أن يكونوا مدركين للبعد الحضاري للظواهر

حتى يساهموا في التفعيل من أسلمة المعرفة الإسلامية. وكما أشرنا في خاتمة مبحثنا حول صورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية، نلح كثيرا على دور الأقليات المسلمة التي يمكن أن تشكل قوة ضغط فعالة، خاصة في ظل سيادة أجواء حرية التعبير وحرية التفكير في الدول الغربية، مما يتطلب مساعدة هذه الأقليات واستثمار قدراتها وإمكاناتها.

مراجع البحث :

- محمد بشاري. "**واقع الأقليات الإسلامية في القارة الأوروبية**". ورقة مقدمة للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. القاهرة. مصر 1997.

- محمد بشاري. "**صورة الإسلام في الإعلام الغربي**"، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى 2004.

- محمد بشاري "**العالم الإسلامي وتحديات 11 شتنبر**"، دار الفكر - دمشق، 2006.

صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي

الأستاذ مصطفى الطالب (*)

مقدمة :

لا شك أننا اليوم نعيش حضارة الصورة بامتياز، ولاشك أيضا أن الإعلام والسينما يحتلان مكانة كبرى في حياة البشرية جمعاء، وخاصة عند الغربيين الذين يجعلون من السينما والإعلام مصدرهم الأول. واليوم حرب الصورة أشد خطورة وأشد فاعلية من حرب الكلمة أو حتى السلاح. ولتبيان ذلك ننطلق من معطيين مهمين :

المعطى الأول : لم يكن الرأي العام العالمي يتوقع أن عملا فنيا دراميا سيخلق أزمة سياسية بين تركيا و "إسرائيل"، ويتعلق الأمر هنا بالمسلسل التركي "في وادي الذئاب" الذي أرعب الكيان الصهيوني من خلال حلقة من حلقاته التي تصور الجيش الإسرائيلي على أنه جيش إجرامي وأن "إسرائيل" دولة إرهاب منظم. وقد شهد بث المسلسل حملة تحريض واسعة في الصحافة الإسرائيلية التي اتهمته باللاّسامية. هنا يتضح أن "إسرائيل" تفهم خطورة الصورة وتأثيرها على المشاهد. ومن هنا نفهم أيضا إنتاج شريط "فتنة" لتشويه وتهييج المسلمين.

المعطى الثاني : في دراسة قام بها مؤخرا محمد يونس الباحث بمركز "جالوب" للدارسات الإسلامية بواشنطن، جاء فيها أن الإعلام الأمريكي ينقل للشعب الأمريكي معلومات مغلوطة ومشوهة عن المسلمين، تفضي إلى أخذ انطباع سيء عنهم. وخلصت الدراسة أن 43% من المواطنين الأمريكيين لديهم شعور بالتحيز ضد المسلمين، وأن 53% لديهم انطباع سلبي عن الإسلام، و63% لا يعرفون الكثير عنه. وأضاف الباحث وفقاً لما نشره موقع "مفكرة الإسلام" أن دراسة أخرى لأحد المراكز أثبتت أن أربع

(*) أستاذ لأقسام التعليم التقني العالي (تخصص سمعي بصري بالرباط) وناقد سينمائي.

قنوات من أكبر القنوات الأمريكية تنقل مواضيع تتعلق بالإسلام بشكل سلبي وغير محايد، وتعتبر أن 60 % من المنظمات التي تمثل الإسلام مسلحة، ما يؤثر على رأي الجميع. وعلى الرغم من الحقائق التي أثبتتها الدراسات إلا أن الباحث أكد أن انطباع الشعب الأمريكي عن العالم الإسلامي تحسن العام الماضي بعد خطاب أوباما، مشيرا إلى أن الدراسة كشفت أن الناس الذين ليس لديهم معرفة تامة بالإسلام لديهم تحيز أقل ضد الإسلام والمسلمين. وهنا بيت القصيد هو أن الجانب السياسي لديه دور كبير في التأثير على آراء الشعوب. فإذا توفرت إرادة سياسية حقيقية لدى المسؤولين الغربيين فسيكون لها الأثر الإيجابي على علاقة الشرق الإسلامي والغرب.

وتعتبر السينما في وقتنا الراهن من أهم التعابير الفنية وأخطرها لكونها تحظى بجماهيرية واسعة من خلال القاعات السينمائية والتلفزيون وأجهزة "الدي في دي" والأنترنيت...لهذا تصرف عليها الأموال الطائلة لتشويه صورة الإسلام والمسلمين ولخدمة المشروع الصهيوني في السيطرة على العالم فكريا وخاصة إيهامه بيهودية القدس. **ففي أي صورة يظهر المسلمون في السينما العالمية؟**

1. صورة العرب والمسلمين في السينما العالمية

قبل البدء لابد من الإشارة إلى أن الموضوع قد تداوله مجموعة من النقاد السينمائيين والباحثين كإدوارد سعيد وأحمد رأفت بهجت في كتابه القيم "**الشخصية العربية في السينما العالمية**" ودراسة جاك شاهين حول صورة العرب في السينما العالمية في كتابه "العرب الأشرار ...كيف تشوه هوليود أمة" الذي نشر قبل أحداث 11 شتنبر والذي قال فيه :" "أن تكون عربيا يعني أن تكون مسلما ويعني أن تكون إرهابيا؛ تلك هي الصورة السائدة عن الإسلام". و لقد قام جاك شاهين وهو أمريكي مسيحي من أصول لبنانية بتصوير شريط وثائقي أسماه " شريط العرب الأشرار" (جهود ثلاثين سنة من المراقبة). إضافة إلى بعض الأعمال لغربيين مثل كلوري جودشتين و آرثر جونز ودانيال ماندل.كما أن قناة "اِقرأ" الفضائية خصت منذ سنوات (23 رجب 1419) حلقة من برنامجها "مدارات الأحداث" بعنوان : "هوليود؛ وصورة العرب والمسلمين"، ثم برنامجا في قناة "الجزيرة" (2-7-2007) بعنوان " صورة أميركا بالعالم وصورة العرب والمسلمين بهوليود". فضلا عن وجود العشرات من المقالات الصحفية المناسباتية. وكل هذه الكتابات أكدت على التشويه النمطي المنظم للشخصية العربية والإسلامية في السينما الغربية والهندية (نسبة إلى الهنود الحمر) أحيانا.

على أنه بصفة إجمالية، هناك أربع فئات في العالم الغربي تهاجم اليوم الإسلام والمسلمين بشكل متواصل ومنتظم: رموز الكنائس الأوربية والأمريكية الكبرى، والقادة السياسيون، ووسائل الإعلام والسينما، ثم الرموز الفكرية للتوجهات العلمانية والمتصهينة.

أ) صورة المسلمين قبل أحداث 11 شتنبر

* صورة المسلمين في السينما الأوربية الكولونيالية :أقوام همجيون يجب تمدنهم :

إن السينما الكولونيالية ساهمت بشكل كبير في تشويه صورة المسلمين والعرب في المخيل الغربي الجماعي من خلال البحث عن ديكور غرائبي عجيب يعزز الصورة النمطية التي كوّنها الغربي عن المشرق العربي الإسلامي "العدواني والمتخلف". وهذا ما أشار إليه إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" بقوله: "فقد كان الشرق تقريبا اختراعا غربيا، وكان منذ القدم الغابر مكانا للرمنسة والكائنات الغريبة المدهشة والذكريات والمشاهد الشابحة والتجارب الاستثنائية"[1].

وحول السينما الكولونيالية يقول الناقد والباحث مصطفى المسناوي :" هكذا لم تخرج "تيمات" الفيلم الكولونيالي عن الغرابة والهوى والسحر والانفعالات القصوى والغيرة القاتلة، كما لم يخرج مجاله البصري عن الرمل والنخيل وقوافل الجمال ومآذن المساجد والأزقة الضيقة والشمس الحارقة، وحكايته عن قصص الحب والمغامرة. كل ذلك مع تحويل المواطنين (أو الأهالي) المغاربة إلى ما يشبه الهنود الحمر في أفلام رعاة البقر. إنهم كما يلاحظ باطاي وفيو في كتابهما القيم "كاميرات تحت الشمس" (الجزائر 1956) شبيهون بالعاصفة والعطش والرمال والشمس وبالتالي لابد من مقاومتهم مثلما تقاوم قوى الطبيعة سواء بسواء"[2].

ومن بين الأفلام الكولونيالية التي رسخت الصورة البدائية لشخصية العربي المسلم خاصة بمنطقة المغرب العربي هناك فيلم "روح البلد" و"وردة السوق أو الريح الشرقية" لجاك سيفيراك (1928) وشريط "الكونتيسة ماري" (1927) و"أبناء الشمس

---

(1) بيروت، ص 27 .

(2) " أبحاث في السينما المغربية"، منشورات الزمن (العدد21 سنة 2001)، (ص 23).

(1924). ومن قبل أفلام "دم الله" (1922) و "إن شاء الله" (1922). وهي أفلام يظهر فيها العربي المغربي مهمشاً كليا وإذا ظهر فلتأثيث الديكور السينمائي فقط مثل أي عنصر من عناصر الديكور. لكن حين أتيحت له الفرصة للظهور و يلتحق بعالم البشر، فإنه:" إن كان رجلا فهو مجرد شرير بالفطرة تسري الجريمة والرغبة في القتل مسرى الدم في عروقه ولا يمكن للمرء (الغربي) أن يؤمن جانبه على الإطلاق. أما إن كانت امرأة فهي إما راقصة أو عرافة أو مومس...لا يؤتمن جانبها، بدورها على الإطلاق وإما "امرأة شيء" (ممثلة غربية) يتدله الضابط الأوروبي الشاب في حبها وقد تبادله حبا بحب إلا أن النهاية لا يمكنها أن تكون سعيدة بسبب" الأعراف والتقاليد الدينية والأخلاقية" التي تحرم زواج المغربية المسلمة بنصراني"[1].

وبموازاة مع هذه الأشرطة الروائية ظهرت أفلام تسجيلية وجهت للمشاهد المغربي أظهرت المستعمر الفرنسي بصورة مزدوجة : فهو ناشر التمدن والحضارة والعمران من ناحية، الجبار مطلق القوة من ناحية أخرى، يستحسن مصادقته ومهادنته طمعا في رحمته وتجنبا لغضبه.

وهكذا فالأفلام الكولونيالية لعبت دورا كبيرا في تشويه صورة العرب والمسلمين لدى المشاهد الغربي وتخويفه من المسلم الذي صور على أنه جاهل متوحش وسفاك دماء ولا يحترم المرأة بل ويستعبدها، وأن المرأة المسلمة مقهورة أو أنها شهوانية شبيهة بالحية. وهذا يبين مدى اعتماد السينمائيين الكولونياليين النظرة الاستشراقية للعالم العربي الإسلامي. ولذلك فإن جل الأفلام (التي تأثرت بكتابات بعض الرحالة والدبلوماسيين الذين زاروا المغرب) ركزت على هذه الجوانب ولم تنقل الواقع بشكل موضوعي أو لم تركز على الجوانب الإيجابية في المجتمعات الإسلامية المستعمرة.

* السينما الأوروبية الحديثة: خطر الإرهاب من خلال الجالية المسلمة :

بالنسبة للسينما الأوروبية الحديثة فإنها لم تخرج كثيرا عن هذا الإطار الذي رسمته السينما الكولونيالية، لكنها أصلت لمنظورها الفني منظومة فكرية تطعن في الثقافة الإسلامية وفي شخصية العربي والمسلم، من خلال طرح نفس المواضيع التي

---

(1) نفس المصدر، ص 25.

شكلت المادة الخصبة للدراسات الاستشراقية المعادية مثل موضوع المرأة في الإسلام وموضوع الحجاب وتعدد الزوجات والطبيعة القاسية والشهوانية لشخصية الرجل العربي. ثم بعد ذلك موضوع الإرهاب بعد أحداث الحادي عشر من شتنبر.

ولقد وجد السينمائيون الأوروبيون في الجالية المسلمة حقل تجاربهم لإعطاء صورة مشوهة عن المسلمين الذين كما يدعون "يهددون أمن أوروبا". وخير دليل على ذلك الشريط الفرنسي الأخير "نبي" (2009) لمخرجه جاك أوديار الحائز على جائزة "سيزار" الفرنسية والجائزة الكبرى في مهرجان "كان" الفرنسي (2009)، والذي صور الجالية المسلمة من أصول عربية وخاصة مغاربية بطريقة تحقيرية، حيث شبه المسلمين بالكلاب القذرة وأنهم بشر إما مجرمون قتلة منظمون في عاصابات المافيا وإما متطرفون منغلقون على أنفسهم، وأنهم لا يفكرون إلا من وفي "أعضائهم التناسلية".

*** السينما الأمريكية : العربي المسلم إنسان شهواني، خبيث، متخلف وإرهابي :**

في حوار أجرته مجلة "المستقبل الإسلامي"[1] مع المفكر الأكاديمي الأمريكي خالد عبد الهادي يحيى بلانكشيب، تحت عنوان "هوليود...السبب في عداء الأمريكيين للإسلام"، أشار هذا الأخير الى أن الإعلام الأمريكي لا يقول الحقائق بل دائما يطرح الأمور من الزاوية التي يريدها هو. وأن السينما الأمريكية تلعب الدور الكبير في تشكيل عقلية المواطن الأمريكي وتكوين ذهنيته وأطر تفكيره،لأنها تطرق موضوعات تثير اهتمامه وترضي فضوله وغروره. وقال : "إن عرض الأفلام لصورة العربي جاء على شقين، فهي تظهره إما في صورة القاتل والشرير وسفاك دماء الأبرياء، أو في صورة الشيخ المبذر الذي يجلس على بئر من النفط والجواري حوله. وهي تصوره بصورة الرجل الجبان المخادع سيء السلوك، فقد جاءت صورة الشيوخ السلبية في 160 فيلما، وصورة الجواري في 150 فيلما والصورة السلبية للفلسطينيين في 50 فيلما". بل أخطر من ذلك كما يقول :" أن هناك أفلاما لم يكن العرب ولا المسلمون فيها ولا موضوعها حولهم، ولكن أقحمت بصورة سلبية بدون أي مبرر، لتشويه الصورة فقط، 250 فيلما من قدم شخصيات عربية شريرة وقاتلة ". وقد استدل في حديثه بدراسة جاك شاهين عن الأفلام الأمريكية التي أنتجت خلال مائة عام حيث شملت الأفلام من 1896 إلى 2004 والتي أظهرت أن 95 بالمائة من هذه الأفلام تقدم صورة سلبية ضد العرب والمسلمين

(1) العدد 157 جمادى الأولى 1425هـ الموافق يوليو 2004 ، ص 36–39 .

وتهاجمهم هجوما عنيفا، و5 بالمائة فقط من هذه الأفلام تقدم صورة محايدة عنهم، "حاولت أن تستفيد من الإطار الأخلاقي في العائلة المسلمة، واقتبست بعض الرؤى التاريخية وكتابها لم يكونوا تحت التأثير اللوبي الصهيوني".

وتحت ضوء هذه المعطيات فإن القاموس الذي روجت له السينما العالمية عن العرب والمسلمين والذي يستقي أساسا من المناهج الدراسية الغربية[1] ، يمكن حصره في ما يلي :

- **الصورة النمطية العامة** : العرب راكبو جمال، يضعون نشافات على رؤوسهم، عبيد الرمال، القبيلة، البدو، الواحة، الجمال، الصحراء، الحريم، الشيخ.

- **العالم العربي** : ساحة تنافس يعيش فيها الأبطال الغربيون مغامراتهم العاطفية، ألف ليلة وليلة، الجن، البساط السحري، الأميرات، وزير شرير ظالم.

- **المسلمون** : سفاحون، إرهابيون، محاربون، متطرفون، مغتصبون، مضطهدون للمرأة، الجهاد، الحرب المقدسة.

- **صور نمطية عن الفلسطينيين** : يحاولون تدمير "إسرائيل"، مفجرو طائرات وإرهابيون.

- **صورة العرب الصالحين** : شخصيات دونية، سلبيون، شخصيات ثانوية بالنسبة للأبطال الغربيين، قلما يكونون أبطالا.

- **صورة الرجل العربي** : شيخ بترول، ثري جدا، مسرف، يريد شراء أمريكا بماله، قذر، غير متعلم، غير أمين، ديكتاتور فاسد، عنيف، خائن، يكره اليهود والأمريكيين، عنده خطط سرية لتدمير أمريكا، مخادع، عصبي المزاج، غير عقلاني، يخطف النساء الشقراوات الغربيات.

- **صورة المرأة العربية** وينظر لها على أنها مضطهدة من طرف الرجال العرب والمسلمين، حريم مترفات، راقصات عاريات، سيدات جميلات يقعن في حب الرجل الغربي الذي ينقذهن من شر الرجل العربي، أسيرات المنازل، سلبيات، مخفيات عن العيون، غير متعلمات، بلا وجوه ولا شخصيات ولا أصوات.

---

(1) مجلة المعرفة، صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية حول العالم، العدد12، 2003.

ولتوضيح ذلك نعرض لبعض الأفلام التي روجت لهذه الصورة المخالفة للحقيقة، وذلك حسبت السنوات:

1. من بداية القرن الماضي الى غاية سنوات الخمسينيات منه:

الشريط الأمريكي المشهور "الشيخ" (1923) الذي ابتدعت فيه هوليود أول تقليد استشراقي.

وقد أنتجه الصهيوني "جيسي لاسكي" ولعب بطولته رودولف فالينتينو الذي اشتهر بلقب "شيخ الشاشة". وأيضا شريط "ابن الشيخ" (1926). وقبل ذلك شريط "علاء الدين ومصباحه" الذي اعتبره رأفت بهجت "بداية العداء للعرب والمسلمين" وقد وردت في الفيلم جملة تبين ذلك :" أنا قادم من بلاد بعيدة حيث تسير القوافل بالجمال وحيث يقطعون أذنك إذا لم يعجبهم وجهك، إنه أمر وحشي ولكنها بلادي".

هناك شريط "علي بابا والأربعون حرامي" (1918) الذي سار على نفس المنوال. وفيلم "في ظلال الحريم" (1928م) الذي يصور أميرا عربيا لا يتورع في خطف أطفال صديقه بغرض إجبار والدتهم الأوروبية الحسناء على ممارسة الجنس معه.

ثم شريط "الهمجي" (1933م) الذي يبين أن المرشد المتطفل على سيدته البيضاء "لم يكن سوى "أمير لإحدى قبائل الصحراء". نفس الصورة التحقيرية للعربي نجدها في شريط "كازابلانكا" الشهير (1942) لمايكل كورتيس، الذي لم يصور قط في مدينة الدارالبيضاء، كما يظن الكثير.

إضافة إلى الأشرطة التي جاءت بعد قيام دولة الكيان الصهيوني والتي تسير في اتجاه تمجيد اليهود والتخويف من العرب والمسلمين.

2. من سنوات الستينات إلى غاية أواخر الثمانينيات :

في هذه الفترة استغلت الآلة الهوليودية كل وسائلها لإظهار العداء للعرب والمسلمين سيما وأن هذه الفترة تزامنت مع العدوان الثلاثي على مصر وحرب سيناء (6 أكتوبر 1953) و هزيمة العرب في 1967 (النكسة). وهنا لا بد من الإشارة إلى الشريط الشهير والذي كان له الدور الفعال في ترسيخ الصورة المشوهة عن العرب وهو شريط "لورانس العرب" (1962) للمخرج البريطاني دافيد لين، عن حياة توماس إدوارد لورانس الذي لعب دوره بيتر اوتول. حيث يصور الفيلم العرب بطريقة بشعة: خائنين، متوحشين، قاسين، غير متحضرين، لا أمان لهم. وسيأتي الغربي ليحضرهم.

شريط "الخروج" (1960) للمخرج الأمريكي اوطو بريمنجر، وهو مستوحى من رواية "الخروج" لليون أوريس. ويتحدث عن هجرة بعض اليهود إلى "إسرائيل" أثناء قيامها عبر باخرة، حيث سيحاول الفلسطينيون نسفها. وسيصور الفلسطينيين على أنهم متوحشون عندما سيقتلون الطفلة كرين.

شريط "الشبكة " (1976) لسيدني لوميت يعرض للخطر الذي يواجه أمريكا: استيلاء العرب على التلفزيون الأمريكي بواسطة دولاراتهم النفطية.

شريط "أرابسك " (1966) لمخرجه ستالني دونن، الذي حول لندن الهادئة إلى مسرح عمليات اغتيال متتالية بين العرب في إطار تصفية حسابات سياسية بين فريق عربي متخلف ورجعي وآخر منفتح على الغرب.

وفي فيلم "حريق سانت بالمو " (1985م) يتم تصوير العرب "على أنهم من ذوي الميول الجنسية الشاذة، وممن يروجون الكوكايين"، وفي فيلم "سائق خاص" (1986م) نرى اللص المحتال "وهو يقوم بتوجيه الإهانات للشيخ، وإطلاق التعليقات الساخرة عليه، مثل "صاحب الرأس المغطاة بالمنشفة" و"راكب الجمال" و"كوم من الزبالة".

شريط "انديانا جونس" (1981 و1984 و1989) حيث البطل (هارسون فورد) الذي يذهب إلى الأهرامات يصطدم بالعرب "الأوغاد واللصوص" نفس الأوصاف في شريط "المومياء".

شريط "جوهرة النيل " (1985) للمخرج مايكل تيغ مع الممثل مايكل دوغلاس، ويظهر فيه استبداد الحاكم العربي الذي يسعى لإغواء كاتبة أمريكية جميلة وضمها لحريمه.

شريط "تحت الحصار" (1986)حيث الشرير إرهابي شيعي وفيلم "مطلوب حيا أو ميتا" (1987) وهذه المرة الإرهابي يساري، وكلاهما فجرا مقاهي وقاعات سينمائية. ويساعدونهما طلبة عرب في جامعة أمريكية. أشرطة أخرى : "ذعر الإرهاب" (1987) وفيه إرهابي ليبي ينشر الذعر في شوارع المدينة، ثم شريط "لا تقل لا أبدا" (1983) وبطله جيمس بوند : عشيقته تباع كجارية للعرب، فيصور الفيلم وكأنهم في سوق النخاسة يتهافتون على امرأة شقراء فيأتي جيمس بوند ليحررها منهم.

3. من التسعينيات إلى اليوم :

من الأشرطة التي شوهت صورة المسلمين خلال هذه الحقبة التي ستعرف أحداث 11 شتنبر واحتلال العراق من طرف الأمريكيين والحلفاء، هناك: شريط " بلاك هوك داون" عن التدخل الأمريكي في الصومال، حيث يقدم مليشيات "فرح عيديد" على أنهم

متوحشون حين يفتكون بالجنود الأمريكيين ويمثلون بجثثهم. بينما الجندي الأمريكي يصور على أنه بريء ومنقذ للصوماليين.

شريط "يوم الاستقلال" (1996) يصور العرب في خيام وغير متحضرين، على أن البطل هو يهودي عبقري وهو المنقذ للعالم. كما أن في الشريط لقطة تبين العرب وإسرائيل وقد نسوا خلافاتهم.

الشريط الشهير"كلا بدون ابنتي" (1991)، الأمريكية المتزوجة بإيراني، عندما ترحل معه إلى إيران ستكتشف مجتمعا متوحشا ومسلحا وزوجها متوحش ويضربها وعائلته عنيفة، فتقرر الهروب.

شريط "قرار تنفيذي" (1996) لستيوارد بيرت، حيث يقوم مجموعة من العرب والإيرانيين باختطاف طائرة أمريكية للمطالبة بإطلاق سراح أحد القياديين المعتقلين.

شريط "أكاذيب حقيقية" (1994) لجيمس كامرون والذي مثّل فيه أرنولد شوازنكر، الفيلم يصور أن أمريكا مهددة من طرف جماعة عربية إرهابية سرقت أربعة رؤوس نووية لتدمير الأمريكيين انتقاما من الحرب على العراق. زعيم العصابة يحيل على القائد طارق بن زياد، حينما قال البحر من ورائكم والعدو أمامكم. هذا فضلا عن بعض الرسوم المتحركة مثل شريط "كاظم" و"كوندور" و"علاء الدين" وفيه صورة العربي المتوحش من خلال الجني.

شريط كندي بعنوان "الإرهابي الباب المقبل" (2008)، وفيه مسلم مهاجر متزوج من كندية يخفي نواياه الإرهابية. ثم نرى الشاب البطل وهو مسلم، يلفظه المجتمع فيتقرب من جماعة مسلمة إرهابية فيتم تدجينه، لكنه سيتم القبض عليه ليتعاون مع الشرطة والمخابرات.

شريط "الحرب حسب شارلي ولسون" لمايكل نيكولس، الذي يفتتح بأجواء الرقص الشرقي في إشارة إلى المسلمين. شريط آخر بعنوان "اللحد" وإنتاجه مشترك بين "إسرائيل" وأمريكا. ويصور الفلسطينيين المقاومين على أنهم إرهابيون، وهي نفس الصفة التي ألصقت بهم في شريط "ميونخ" الشهير في حين أن الاغتيالات التي يقوم بها الإسرائيليون فسرت على أنها رد طبيعي.

شريط "الرحلة 93" لبول كرينكراس عن أحداث 11 سبتمبر. شريط"الخائن" (2008) للمخرج الأمريكي جفري نكمانوف، ويتطرق للإرهاب حيث عصابة من المسلمين

الإرهابيين يقومون بتفجيرات متفرقة في أوروبا وأمريكا. فيلم "اختطاف" لمخرجه بيير موريل الذي يتطرق لشبكة عصابة كبيرة فيها أجانب وعرب تختطف الفتيات الغربيات القادمات إلى فرنسا لإهدائهن لأمير عربي. كما لا ننسى شريط "بابل" الذي صُوّر في المغرب والذي يصور فيه طفلان مغربيان في قمة التخلف حينما يطلقان رصاصة طائشة فتصيب إحدى السائحات الأمريكيات، فضلا عن المعيشة السيئة في القرى المغربية.

شريط : "المملكة" (2008) للمخرج بيتر بيرغ، الذي يصور فريق تحقيق كوموندوز يبعثه مكتب التحقيقات الفيدرالي يأتي إلى السعودية لتفكيك عصابة إرهابية فجرت مجمعا سكنيا يقطنه غربيون أمريكيون بالرياض. إضافة إلى الأشرطة المتعلقة بالحرب على العراق والتي تصف المقاومين للتدخل الأمريكي كإرهابيين. بينما المحتلين كمحررين للشعب العراقي من الطغيان ومن الفساد. لكن مع ذلك ظهرت أشرطة أمريكية تصور حرب العراق بطريقة محايدة مثل فيلم :"في وادي الله " (2007) لبول هاكيس.

من جهة أخرى تجب الإشارة إلى أنه عندما يقوم العدو الإسرائيلي بمجزرة في فلسطين، ويحس بتعاطف الجميع مع الشعب الفلسطيني تقوم هوليود بإنتاج أفلام دعائية عن اليهود وعن الهولوكوست لكسب تعاطف الغربيين مع اليهود والصهاينة. مثل شريط : "يوم الأحد الأسود" (1977) لجون فرانكهايمر الذي استغل قصة الفدائية الفلسطينية ليلى خالد التي شاركت في محاولة اختطاف طائرة إسرائيلية من طرف منظمة "بادر ماينهوف" الألمانية، في محاولة لتقديم الفلسطينيين كعرب إرهابيين يساعدونهم ألمان لتفجير ملعب أمريكي لولا تدخل المخابرات الإسرائيلية. وشريط "قائمة تشيندلر" (1993) لستيفن سبيلبرغ الذي حصد 7جوائز أوسكار. وقد تزامن الشريط مع مذبحة الخليل بالقدس.

شريط إسرائيلي بعنوان "التل 24 لا يجيب" لثورولد ديكنسون أو شريط "بلا وطن" لنوري حبيب العراقي الأصل. ثم شريط تسجيلي "الناجون من الهولوكوست" (1996) على تلفزيون "سي. إن . إن" تزامن مع مجزرة قانا. وأيضا شريط "مملكة الجنة" (2008) لردلي سكوت الذي يعطي صورة سلبية عن المسلمين وإن حاول أن يترك لصلاح الدين الأيوبي صفة البطل المتسامح، لكن المخرج صوَّره على أن فلسطين لم تعني صلاح الدين في شيء.

ومع مجزرة غزة الأخيرة خرج الى الوجود شريط "فالكيري" حول ضابط ألماني يهودي يحاول قتل هتلر انتقاما لليهود. ثم شريط "أبناء الزنا والمجد" عن عصابة

يهودية ستصفي ضباطاً ألمانيين قتلوا اليهود. دون الحديث طبعا عن العديد من الأشرطة الوثائقية الدعائية عن اليهود وعن الهولوكوست في القنوات الأمريكية والأوربية التي تتحكم فيها عقول صهيونية.

ب) من المسؤول عن الصورة السيئة للمسلمين في السينما والإعلام الأمريكي؟

للإجابة يمكن القول إن هذا تاريخ طويل وميراث من الحقد والبغض والعنصرية يقوم به الإعلام الأمريكي لا ضد العرب فقط، بل ضد كل ما هو غير غربي أبيض أنجلوساكسوني، فالعرب والمسلمون والصينيون واليابانيون والأمريكيون الجنوبيون والإيرلنديون أيضا صورهم مشوهة في الإعلام الأمريكي. طبعا هناك احتجاجات حدثت من طرفهم ومجهودات بذلت للضغط ولتحسين صورتهم. بخلاف المسلمين والعرب الذين لم يبذلوا أي جهود لتحسين صورتهم أو للضغط على الآلة الإعلامية الغربية أو الأمريكية.

لكن يجب الاعتراف أنه لا يمكن الفصل بين الصراع العربي ـ الإسرائيلي ومحاولات الإعلام الأمريكي الخاضع للوبي الصهيوني في تشويه صورة المسلمين.

لكن ثمة أسباب أخرى مباشرة لعبت دورا كبيرا في ترسيخ صور مشوهة عن العرب والمسلمين.

* صورة المسلمين بعد أحداث 11 شتنبر :

يرى الدكتور فهد العرابي الحارثي في كتابه "أمريكا التي تعلمنا الديموقراطية والعدل " (2004) أن أحداث الحادي عشر من شتنبر كانت "نقطة تحوّل مفصلية في تاريخ العالم اليوم" فعلى إثر هذه الأحداث ولد "عالم جديد...مختلف...مغاير" بدل كثيرا في نظامه وفي مفهوماته السياسية والثقافية، فقد انصرف العالم من "التنمية" إلى الحروب. وعلى هذا الأساس غيرت هذه الأحداث الولايات المتحدة، حيث أعادت واشنطن النظر في الكثير من منطلقات سياستها الخارجية والدفاعية بعد 11 شتنبر.

وفي نفس السياق كتب الناقد السينمائي أحمد رأفت بهجت فى كتابه " الشخصية العربية في السينما العالمية ": " إن العرب في نظر الغرب ما هم إلا شعوب متخلفة ليس لديهم القدرة على التفكير والابتكار، وليس لهم علاقة بالتطور والتكنولوجيا وليس لديهم القدرة على حماية أنفسهم والاستفادة من ثرواتهم، وهم دائما في حاجه دائمة للحماية الغربية مثل ما حدث مع الكويت فى حرب الخليج الأولى، وغزو العراق

وأفغانستان. أما بعد 11 سبتمبر فقد تحولت النظرة وأخذت اتجاها آخر وملامح أخرى والحدث نفسه أصبح له صدى للإرهاب. وأصبح العالم الغربي يتعامل مع العربي على أنه عقل مدبر ومخطط مبتكر وذو تفكير متقن في عمليات الإرهاب وبدأ الاتجاه أيضاً للتأكيد على أن الإرهاب يكمن في الجامعات وأن كل من له لحية داخل الحرم الجامعي فهو قنبلة موقوتة".

وهكذا بعد 11شتنبر زادت الصورة السلبية للعرب في الإعلام الأمريكي والسينما الأمريكية؛ حيث أصبح الاعتقاد أن كل مسلم أو عربي (كبش فداء يلقون عليه الأوزار ويحملونه المسؤولية) هو مثل من قام بعمليات ضرب مبنى مركز التجارة العالمي والبنتاجون، فكل الأفلام التي أنتجت بعد 11 شتنبر 2001 تؤلب على قتل الشخصية العربية والمسلمة.

وهذا كله لمصلحة إسرائيل واللوبي الصهيوني، فأغلب من يقومون بتشكيل هذه الصورة من اليهود الصهاينة وليس كل اليهود. وأغلب المعارضة في الإعلام الأمريكي تأتي من اليهود (50 بالمائة من الصحفيين الأمريكيين يهود، وهم لهم الغلبة في أصحاب المسؤوليات والمراكز الإعلامية البارزة)، والجميع يخاف من معاداة السامية، ومن اليهود الصهاينة الذين لا يقبلون بأي شيء غير الدعم المطلق لإسرائيل، ومن تحالف الليكود الصهيوني مع اليمين النصراني (1/5 من الشعب الأمريكي من اليمين النصراني أي البروتستانت الذين هم أكثر تعصبا). وإن كان هناك تيار ينمو الآن بين اليهود المعتدلين يرى أن إسرائيل مشروع فاشل.

* السينما الإسرائيلية :

لعبت الأفلام الصهيونية والإسرائيلية (سواء المنتجة داخل الكيان الصهيوني أو خارجه) دورا هاما في تشويه صورة العرب والمسلمين عبر إلصاق عدة تهم بهم مبالغة وافتراء، ومن هذه التهم : اتهام العرب بتجارة الرقيق، حيث صورت الدعاية اليهودية العرب والمسلمين بصورة القراصنة الذين يهاجمون سكان إفريقيا الآمنين ليحملونهم في سفنهم إلى أسواق النخاسة العربية. أو إنهم متعاونون مع النازية مثل شريط "عمود النار" الذي يتناول حرب 48 حيث يبين تعاون العرب مع النازيين. أو شريط "عملية القاهرة" (1965) وشريط"جوديث " (1965) لدانييل مان والممثلة صوفيا لورين التي تلعب دور امرأة يهودية متزوجة سابقا من ضابط نازي انضم إلى القوات العربية في

حربها ضد إسرائيل، وبهدف التعرف عليه وكشفه للإسرائيليين تنضم من جانبها إلى قوات الهاغانا. وأشرطة أخرى سبقت الإشارة إليها.

تأثير المقررات الدراسية

لتوضيح هذه النقطة نستشهد بما كتبته الدكتورة فوزية العشماوي، وهي أستاذة بقسم الحضارة الإسلامية والدراسات العربية والإسلامية بكلية الآداب جامعة جنيف ـ سويسرا، في مقدمة كتابها "صورة الإسلام والمسلمين في المناهج الدراسية في الغرب" (2007): " وقد حرص الأوربيون منذ العصور الوسطى وعبر الأجيال على تصوير الآخر، أي المسلم وكل ما يتعلق به، بأسلوب منفر لتشويه صورته حتى يخاف منه التلاميذ منذ أول لقاء لهم مع الإسلام والمسلمين على صفحات كتب التاريخ المدرسية. وهذا التشويه قد ترسب في نفوس الأوروبيين منذ الصغر لان العلم في الصغر، كالنقش على الحجر، وهذا ما ظهر جليا بعد أحداث 11 سبتمبر من خلال تصريح رئيس وزراء إيطاليا، سيلفيو برلوسكوني حين أعلن"أن حضارتنا أرقى من الإسلام...ويجب أن نعي تفوقنا، تفوق الحضارة الغربية".

وتضيف : "ولم يكن ذلك زلة لسان، كما قيل بل انعكاسا للاقتناع الراسخ في ذهنه منذ الصغر مثله مثل كل أوروبي مسيحي تعلم في المدارس الحكومية في أي دولة أوروبية، وأخذ معلوماته من كتب التاريخ المدرسية" [1].

وقد أعطت بعض الأرقام في هذا الصدد، تقول : "وباستعراض معظم هذه الكتب وتحليل ما تذكره عن الإسلام وعن المسلمين نجد في الغالب أن عدد الصفحات المخصصة للشرق وحضارته، بما في ذلك الحضارة البيزنطية والصينية يقل عن 10 بالمائة من إجمال كتاب التاريخ، والنسبة المخصصة للحضارة الإسلامية داخل الحضارات الشرقية لا تتعدى نسبة 5,4 بالمائة من إجمالي المقرر الدراسي وهي نسبة ضئيلة جدا بالمقارنة بباقي المقرر أي 5,5 بالمائة المخصصة لتاريخ أوروبا وأمريكا"[2].

تأثير الأدب على السينما :

إن السينما الغربية تستمد جل مواضيعها وصورها النمطية (الإكليشيهات) عن الإسلام والمسلمين من الدراسات الاستشراقية والكتابات الأدبية والدينية منذ القرون

(1) د. فوزية العشماوي، صورة الإسلام والمسلمين في المناهج الدراسية في الغرب"، منشورات الدعوة الإسلامية، 2007 طرابلس، ص15.
(2) نفس المصدر، ص 23.

الوسطى إلى اليوم. بل إن الأدب الغربي سيتأثر بالأساس بما كتب في القرون الوسطى من طرف الكنيسة وغيرها. يقول الدكتور أليكسي جورافيسكي في بحثه عن الإسلام والمسيحية : ″ إن أدب أوروبا في القرون الوسطى حول الإسلام وضع في غالبيته العظمى من طرف رجال الدين المسيحي، الذين استندوا إلى مصادر شديدة التمايز والتباين، كالحكايات الشعبية وقصص الأبطال والحجاج والقديسين والمؤلفات الجدلية اللاهوتية الدفاعية للمسيحيين الشرقيين وشهادات بعض المسلمين وترجمات مفكريهم وعلمائهم. كانت المعلومات المقدمة تُنتزع في معظم الحالات من سياقها الأصلي، ثم تقدم للقارئ الأوروبي. وبهذا الشكل شوهت الوقائع بصورة متعمدة.في إطار البحث الحماسي عن حل سريع لـ (مشكلة الإسلام) التي سيطرت في القرون الوسطى على الموضوعات الدينية الإيديولويجية″[1] .

وبخصوص الأدب يكفي أن نعطي مثالا بكتاب ″الكوميديا الإلهية″ للكاتب الإيطالي دانتي اليكيري في القرن 14 م، الذي وصف فيه طبقات الجحيم والمطهر والفردوس في رحلة خيالية ـ ذهنية قام بها بقيادة ″فيرجيليوس″ وحبيبته ″بياتريس″. و الكتاب يعد أسوأ ما كتب عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث جعله الكاتب برفقة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الخندق التاسع من الحلقة الثامنة في الكوميديا الإلهية، وهذا الجزء من الجحيم، كما يدعي الكاتب:قد تم تخصيصه لمثيري الصدمات والانشقاقات الدينية والسياسية و ″من يزرعون الفتن فيحصدون الأوزار″[2] .

تحكم اللوبي الصهيوني في السينما والإعلام :

يجب الاعتراف بان تشويه صورة المسلمين في السينما العالمية لم يتأت إلا بعد أن أحكمت الصهيونية العالمية سيطرتها شبه التامة على مركز الصناعة السينمائية في العالم (هوليود) وروجت من خلاله مجموعة من الأفلام التي تخدم مصالحها. وقد جاء في كتاب ″نزعة التفوق اليهودية، صحوتي على المسألة اليهودية″ للكاتب ديفيد ديوك، أن المحطات التلفزيونية الأربع من الخمس الكبرى يديرها يهود أو يملكها يهود (داعمين لإسرائيل وللمنظمات الصهيونية) والتلفزيون المصدر الرئيس الذي يتعلم منه

(1) الدكتور باسم خفاجي، لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، ص 26 إصدارات مجلة ″البيان″ 2006 .

(2) نفس المصدر، ص 29 .

الأمريكيون معظم الأشياء عن العالم. (ان.بي. سي - سي.بي.سي - أي.بي.سي) الجرائد: نيويورك تايمز - واشنطن بوسط - وول ستريت جورنال (ملكية يهودية).

"الفيلم الذي نراه في دار سينما أو على التلفزيون سيكون غالبا من إنتاج اليهود أو إخراجهم أو كتابتهم، وغالبا الثلاثة معاً[1]. وأوضح الكاتب أن اليهود يسيطرون سيطرة تامة على شركات الإنتاج السينمائي. فشركة فوكس يمتلكها اليهودي ويليام فوكس، وشركة غولدين يمتلكها اليهودي صاموئيل غولدين، وشركة مترو يمتلكها اليهودي لويس ماير، وشركة إخوان وارنر يمتلكها اليهودي هارني وارنر وإخوانه، وشركة برامونت يمتلكها اليهودي هودكنسون.

الصراع العربي الاسرائيلي :

على مدى تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي أثبت الواقع السياسي تحيز الغرب "لإسرائيل" والتعصب للرؤية الأمريكية الإسرائيلية، لتوغل اللوبي الصهيوني في المنتظم السياسي الدولي وفي دوائر اتخاذ القرار، سواء على المستوى الأوروبي أو الأمريكي. وكما أوضحنا من قبل فإن الصورة العربية في السينما الأمريكية مرتبطة بالنزاع العربي الإسرائيلي والموقف الأمريكي تجاه هذا النزاع. وعليه فمن الطبيعي أن تشوه صورة العدو "العربي المسلم" وتستخدم كل الوسائل الدنيئة لذلك.

إساءة السينما العربية للمسلمين :

لم يعمل الغرب لوحده على الإساءة للمسلمين في السينما، بل عمدت ثلة من المخرجين والسينمائيين المحسوبين على المجتمعات المسلمة إلى الطعن في ثقافة وقيم مجتمعاتهم وتصويرها بأقدح الصور، إرضاء لجهات خارجية أو للحصول على دعم أجنبي أو لإنتاج مشترك. على أن أغلب هؤلاء السينمائيين درسوا بالخارج فتشبعوا بثقافة غير ثقافتهم الأصلية، مما جعلهم يعيشون قطيعة ثقافية مع أوساطهم، ويسقطون أفكارا أجنبية عليها. فجاءت أعمالهم السينمائية مشوهة للحقيقة وحاملة لعدة مغالطات وبرؤى استشراقية محضة.

---

(1) ترجمة حسام الدين خضور (2006) وكالة س.ب.ر

(2) مجلة المعرفة، العدد12، 2003، ص 14.

وقد أورد الناقد أحمد رأفت بهجت في كتابه المشار إليه قائمة بأسماء بعض المخرجين العرب متهما إياهم بأنهم بدأوا تجنيد السينما لتلعب دورا في نشر ما سمي بالتسامح بين العرب واليهود وأن هناك فروقا بين اليهودية والصهيونية من أجل أن تتسرب الأفكار الصهيونية إلى وجدان المتفرج سواء الغربي أو العربي. ومن هذه الأسماء: يوسف شاهين وخالد الحجر من مصر والأخضر حامينا ومرزاق علواش ومهدي شريف من الجزائر ونورى بوزيد وفريد بوجدير وسامي بكار من تونس وسهيل بن بركة من المغرب وميشيل خليفي وايزادور مسلم وعلي نصار ومحمد بكري من فلسطين.

ويمكن أن نضيف إليهم محمد إسماعيل مع شريطه "وداعا أمهات" (2008) و"فين ماشي ياموشي" لحسن بنجلون (2008) من المغرب، حيث إن أشرطتهما تصب في التطبيع مع الكيان الصهيوني. كما أن هؤلاء المخرجين لعبوا دورا كبيرا في ترسيخ الإكليشيهات التي يروجها الغرب عن المسلمين.

غياب الاهتمام العربي بالسينما لتصحيح صورة المسلمين :

إن جُل الأفلام العربية إلا القليل منها لا تهتم بتصحيح صورة العرب والمسلمين. كما أن أغلبية المثقفين العرب والمسلمين الذين يتصدون لحملة التشويه الممنهجة من طرف الغرب ضد الإسلام والمسلمين، لم يهتموا بالسينما (وبالفن وبالصورة إجمالا) ولم يوظفوها في ذلك.

وفي هذا الصدد يقول المخرج المعروف نجدة إسماعيل أنزور في إحدى الحوارات الصحفية : "لقد فرط العرب والمسلمون حقيقة بهذا السلاح الفعال، والذي يتمثل بالسينما والمسرح والدراما في وقت استغلها أعداء الإسلام أيما استغلال، ووظفوها لتشويه صورته والعبث بتاريخنا وثقافتنا، والعمل على تسطيح فكرنا وعقولنا، وآزرهم في ذلك الفضائيات العربية التي وقفت صفا واحدا ضد مصالح الأمة إلا من رحم الله"

مضيفا : "وإذا أردنا أن نوصل خطابنا للغرب وننجح في ذلك فإنه علينا أن نخاطبهم بأسلوبهم وطريقتهم، ونعرض أعمالنا في محطاتهم الفضائية ودور عرضهم هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإننا عربيا يجب أن نقدم أعمالا ترتقي بثقافة أجيالنا، وتسلط الضوء على العيوب، بأسلوب إيجابي بعيد عن التشهير بالمجتمعات والبحث عن الإثارة الرخيصة كما يفعل أغلب المنتجين اليوم،لأن ذلك جزء من المقامرة بالفن من أجل الكسب والشهرة".

كيف يمكن تحسين صورة الإسلام؟

قال نيكولاس فون هوفمان الصحفي بجريدة "واشنطن بوسط": "لم تشوه سمعة جماعة دينية أو ثقافية أو قومية ويحط من قدرها بشكل مركز ومنظم كما حدث للعرب".

وعليه فإن الجهود يجب أن تبذل من أجل إزاحة هذا الظلم، وبمكن للصورة أن تلعب دورا كبيرا وفاعليا في هذه العملية كما فعل المخرج الراحل مصطفى العقاد رحمه الله، بمعنى أن السينما سلاح مؤثر في الظرفية الراهنة (عوض الاقتصار على ردود أفعال عاطفية ومتسرعة ومتشنجة)، وليس فقط للدفاع عن الإسلام والمسلمين، بل ولتقديم بديل لشبابنا الذي يقبل بشراهة على السينما العالمية. ومن أجل تحقيق ذلك نطالب بإحداث صندوق عربي إسلامي للسينما من أجل تصحيح صورة الإسلام والمسلمين.

سياسة التخويف من الإسلام في الإعلام الغربي

الدكتورة ناجية أقجوج (*)

إذا كانت ظاهرة الإسلاموفوبيا واحدة من الظواهر المَرَضية التي نتجت عن الصورة النمطية القروسطية المتجذرة وتستند في أساسها إلى خلفية تاريخية متمثلة في ركام هائل من المفاهيم الخاطئة والأفكار المشوهة والرؤى المشوشة حول الإسلام والمسلمين، وتولدت عن ظاهرة الخوف المرضي من تزايد عدد المسلمين المهاجرين إلى الغرب، فإن الغرب قد عرف ومن القديم أصنافا من الخوف غير المبرر، فلطالما شكل الغريب والأجنبي والطارئ عقدة لدى الآخر، حيث كان الخوف من الغريب أو ما يعرف بالزينوفوبيا، xénophobie، من الأمراض التي كانت تفرض نوعا من أخذ الحيطة والحذر.

وإذا كان الإعلام الغربي قد ساهم وبشكل كبير في تمرير صورة نمطية قاتمة عن الإسلام والمسلمين، وأذكى حملات التشويه والإساءة للرموز والمقدسات الدينية في الغرب، فقد ساعد على تصاعد الحملات الموجهة ضد الإسلام والمسلمين، وتزايد هجمات الترهيب والتخويف والترويع، وتفاقم عقدة الخوف من الإسلام، وتطور صناعة الفوبيا التي اتخذت أشكالا متنوعة وفنونا مختلفة؛ والتي تنامت وبشكل كبير بعد أحداث 11 من شتنبر؛ حيث أصبح الغرب في وضع الخائف من التزايد المتنامي والامتداد الهائل للمسلمين، وأصبحت ترتيبات الأجندة الغربية قائمة على افتراضات صناعة الوهم وصياغة الخوف بصورة مرضية وإنتاج وتسويق الفوبيا بطريقة فظيعة. كما أن الإعلامي الذي تشبع في طفولته بالأفكار الخاطئة والمفاهيم المغلوطة، والذي يتأثر بمسرح العمليات اليومية التي تقع هنا وهناك، والتي تلصق بالإسلام تحول إلى أداة لتمرير الصورة النمطية ونهج سياسة التخويف، خصوصا وأنه يبحث عن المعلومة أو الخبر ليس من أجل القيمة الثقافية والمعرفية، وإنما من أجل حجم الإثارة التي تحدثها لدى الرأي العام الذي يمكن أن يستثيره الخبر.

(*) عضو مركز الدراسات في مجال تصحيح صورة الإسلام وأستاذة بكلية الآداب ـ ظهر المهراز ـ فاس ـ المغرب.

الغرب بين الخوف المرضي وسياسة التخويف

إن تزايد عدد المسلمين في الغرب و تزايد عدد الغربيين الذين يعتنقون الدين الإسلامي هما أحد الأسباب التي أفرزت عقدة الخوف المرضي من الإسلام، مما جعل أصحاب القرار السياسي في الغرب ينتهجون سياسة تهويل وتخويف الرأي العام من هذا الدين الذي ارتضاه الله دينا للعالمين، كما أن هذه السياسة المنتهجة من قبل الغرب هيئات وحكومات ووسائل إعلام هي التي أذكت ظاهرة الخوف المرضي غير المبرر من الإسلام والمسلمين، لذلك يمكن القول إن الغرب يوجد في وضع الخائف الساهر على إثارة الخوف، وفي حالة الخائف بسبب سياسة التخويف؛ فأما الأول فهو الغرب الخائف على المصالح الراغب في السيطرة على العالم بأسره، وأما الثاني فهي فئة من الرأي العام التي تعيش ضحية التشكيل والتمويه والتنميط. وبذلك فإن سياسة التخويف من الإسلام وصناعة الفوبيا أصبحت اليوم ظاهرة استراتيجية محكمة ينتهجها الغرب بوسائله المختلفة وإعلامه الضخم من خلال تزييف الحقائق وتنميط المفاهيم والتركيز على أي حدث من شأنه أن يشكل مادة أساسية لإلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام.

وسائل الإعلام بين التنميط والتخويف:

إذا كانت الصورة العامة للإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية تعكس حالة من سوء الفهم والحقد، فإن سياسة التشويه التي تنتهجها وسائل الإعلام والصورة النمطية التي يتم تمريرها عبر الفضائيات العابرة للقارات والكاسحة للأدمغة يكون الهدف منها التخويف من الإسلام ومن المسلمين؛ وسياسة التنميط والتخويف هذه تعمل عليها كبرى الهيئات المعادية للإسلام خاصة وأنها هي التي تحتكر في الغالب السيطرة على أجهزة الإعلام حيث توجهها بإمكانياتها الهائلة، وبأفكارها وأهدافها السلبية وأساليبها المختلفة، فالإعلام الغربي يركز على القضايا التي تصف الإسلام ليس كدين بل كإيديولوجيا سياسية، ويعرضها وفق ما يخدم مصالح الغرب بتجسيد خرافة الخطر الإسلامي، وتكريس فكرة التطرف الإسلامي والتخلف الاجتماعي، وتغذية ظاهرة الإسلاموفوبيا؛ انطلاقا من فنون جديدة وغريبة لإثارة الخوف والفزع وبأقل تكلفة من خلال التركيز على الأحداث والمبالغة في تصويرها باعتماد الصورة المعبرة والصوت المؤثر والكلمة القصيرة الفعالة.

وإذا كان السبق في التشويه والتنميط والتخويف من الإسلام والمسلمين يعود للمستشرقين الصحفيين الذين نجحوا في تهيئة العقول وتعبئة الشعوب من أجل الهجوم على الإسلام عن طريق ترسيخ وتكريس الصورة النمطية القروسطية، فإن ثمة استشراقا فنيا آخر أنضج سياسة الفوبيا والتخويف؛ حيث يتم إعادة وإنتاج وصناعة الصور النمطية وتسويق الفوبيا في قوالب فنية مثيرة من خلال حملات ووصلات إشهارية وملصقات مستفزة (مثل ملصق حظر بناء الصوامع في سويسرا)، وأفلام قصيرة (فيلم فتنة)... فعرض مشاهد العنف والدماء، وصور الفوضى والاعتداء هي أنجح وسيلة للتخويف والترويع وزرع الكراهية أو كما قال كاي حافظ[1] "عندما تركز وسائل الإعلام على العنف، يجيب الجمهور بكرهه للإسلام أو ما يسمى بالإسلاموفوبيا"[2] كما أن صورته في السينما لا تقل عن صورته في الصحافة؛ إذ يبدو متعطشا إلى الانتقام، قاسيا، منحطا مهووسا، يبتز الأمم بواسطة النفط[3].

كما أن أساليبهم الموسومة بالتحيز الكبير تختلف بين التحذير والتخويف والتشويه والتذكير بأخطاء معينة، واختراع نظريات وأفكار جديدة لإثارة المشاعر وتشكيل العقول؛ ومن جملة ذلك :

مصطلح الأورابيا EURABIA:



أصبح مصطلح EURABIA وهو المصطلح الاستفزازي الحديث الذي بات يغطي الصحف والمجلات، وهو الذي استنبط من الخوف المرضي من خطر التواجد الإسلامي في الغرب، فوسائل الإعلام المكتوبة على الخصوص لا تكتفي بمناقشة المصطلح وطرحه على مختلف واجهات الصحف، لكن غالبا ما تصور ذلك في قوالب فنية تبين حجم الاختراق والتواجد الإسلامي في الغرب، مصحوبة بالدماء والجهاد والعنف والإرهاب.

---

(1) خبير وسائل الإعلام بجامعة إيرفورت الألمانية.

(2) دور الإعلام في العلاقة بين الغرب والإسلام، ملتقى لوغانو جنوب سويسرا 16-17مارس 2007، عن مجلة swissinfo النسخة العربية الإلكترونية، 22 مارس 2007م، في مقال تحت عنوان : "**اعترافات بانحراف الإعلام الغربي في حديثه عن الإسلام**".

(3) صورة العربي في صحافة ألمانيا الاتحادية، سامي مسلم، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2 بيروت 1976، ص 23.



وإن من يتتبع عن قرب وسائل الإعلام الغربية بمختلف أصنافها، مكتوبة أو مسموعة أو مرئية أو صحافة إلكترونية، سَيَقف بجلاء على حجم العداء للإسلام والسياسة المنتهجة في التخويف، كما يلاحظ المتتبع القولبة المعتمدة أساسا على الصورة المخيفة، والتي تصور المسلم والإسلام والامتداد السكاني للمسلمين في الغرب بشكل مثير للاستغراب، حيث إنه غالبا ما تعتمد الصورة كوسيلة لتشكيل العقول والتخويف من الإسلام، فمثلا يمكن الاطلاع على أعداد من مجلة The economist وهي المجلة الأمريكية الأكثر انتشارا بنسخها الورقية والإلكترونية، بل والأكثر من هذا أنها المجلة التي توزع في الأسواق العربية قبل موعد نشرها بأسبوع!!!! خصوصا تلك التي تكون فيها أخبار مثيرة أو صور أكثر إثارة وتشويشا، ويمكن للمتتبع أن يطلع على عدد 8561 وهو العدد الذي يحمل صورة لأخطر مكان في العالم، ـ حسب تعبير المجلة ـ حيث يظهر في الغلاف صورة على شكل عبوة ناسفة تحمل اسم وشعار دولة باكستان وفوقه عنوان عريض : أخطر مكان في العالم the world's most dangerous place، وينطلق صاحب المقال في الافتتاحية من فكرة أن باكستان ليست فقط ملاذا للقاعدة وأسامة بن لادن أو الأكاديمية التدريبية للعمليات الانتحارية، بل تعتبر البلد الثاني في العالم الذي يضم أكبر عدد من المسلمين.

"It is not only that the country's lawless frontier lands provide a refuge for al-Qaeda and Osama bin Laden, and that its jihad academies train suicide-bombers with global reach. Pakistan is also itself the world's second most populous Muslim nation, with a proud tradition of tolerance and moderation, now under threat from the extremists on its fringes[1]....

هكذا أصبح الغرب يعمل على صناعة وإنتاج وتسويق ظاهرة الإسلاموفوبيا، والعقول الغربية غير الواعية تستهلك الظاهرة وتروج لفكرة الخوف الإسلامي في الصحف والمجلات والقنوات وعلى شبكات الأنترنيت، بل وقد انتقل من مجرد النظرة الاعتيادية للإسلام والمسلمين وللمرأة المسلمة، والممزوجة بالكراهية والحقد والازدراء والتعريض والتهويل إلى حالة أخرى وهي حالة الخواف الإسلامي، ممزوجة بالتهويل والتحذير من كل ما هو عربي ومسلم.

---

(1) The economist,January 5th- 11th 2008, number 8561,p:7 .

الأساليب المعتمدة في صناعة الفوبيا

تتعدد الأساليب التي تعتمدها وسائل الإعلام الغربية في تشكيل الصورة وفي التخويف من "العدو البديل"، بين التحيز والتحذير والترهيب المباشر والتذكير بالأخطاء والتركيز على المخيف.

التحيز:

إن كان أسلوب التحيز هو الأسلوب الغالب على تعامل وسائل الإعلام الغربية مع كل ما هو عربي وإسلامي في عرض القضايا المختلفة، فإنه تحيز يرتبط بتلك الصورة النمطية أو إنتاجها والعمل على تحريف المعلومات وتنميط الحقائق، وسياسة التحيز هذه التي تنتهجها وسائل الإعلام الغربية تعتمد في أصلها على معلومات ناقصة أو خاطئة مع إجحاف في عرضها، مما أدى إلى توسيع دائرة ترسيخ الصورة النمطية وتأثيرها في العقول وزرع الخوف والرعب في النفوس.

التحذير:

يقوم الإعلام الغربي بتخويف الرأي العام من الإسلام والتحذير من المسلمين، انطلاقا من نشر أفكار ومفاهيم خاطئة وصور نمطية عن الإسلام والمسلمين؛ فالإسلام دين الانتحار والانفجارات، والكراهية والعنف والقتل، وهو دين يشجع الأطفال ليتربوا في أحضان الموت، والمعاهد الدينية عبارة عن ورشات لصناعة الإرهاب وتخرج الإرهابيين. والمسلمون إرهابيون ويريدون القضاء على الغرب؛ فالأفلام الغربية التي تعرض باستمرار في وسائل الإعلام تقوم بتصوير العرب والمسلمين جميعهم على أنهم في حالة حرب مع الغرب، ويتم إظهارهم بأنهم لا إنسانيون فطريا في عدد من الأفلام مثل: " أكاذيب حقيقية"، "فرق الإرهاب"، "قرار تنفيذي"، " الحصار"، و"رحلة الرعب"[1].

التعميم:

تقوم وسائل الإعلام الغربي في تغطيتها للأحداث بتعميم الأخطاء الفردية لعناصر معينة أو لشخص معين، أو لدولة معينة على جميع المسلمين، وإلصاقها بالإسلام (الدين)، وذلك من خلال التركيز على أحداث إرهابية معينة أو بعض التصرفات الخاطئة التي يكون

---

(1) **التربية الخاطئة للغرب، كيف يشوه الإعلام الغربي صورة الإسلام**، تحرير: جوكينشلو وشيرلي شتاينبرغ، ترجمة: حسان بستاني، ط1، (2005)، الفصل الثامن : إبراهيم أبوخطالة، الغول الجديد تحت السرير، ص 244-245.

المتهم أو الحاضر في تفاصيلها طرفا مسلما أو عربيا؛ مثل: التركيز على منطقة الشرق الأوسط وعلى تغطية الأحداث الإرهابية التي عرفتها دول مختلفة من العالم العربي.

التذكير:

لا يفوت الغرب بوسائله المختلفة فرصة التذكير بالمواجهات وبالحروب الصليبية للتشكيك في المسلمين ونواياهم وأهدافهم، ومن ذلك محاضرة بابا الفاتيكان "بنيديكت السادس عشر" التي ألقاها بإحدى الجامعات الألمانية في موضوع : "العقيدة والعقل والجامعة " والتي لقيت تداولا واسعا في وسائل الإعلام الغربية، هذه المحاضرة التي لم تكن نتيجة سوء فهم، بل عن عمد وقصد وجهل مركب، خصوصا وأن الرجل وهو رجل دين لم يكلف نفسه البحث عن الحقيقة بل اكتفى ـ كغيره ـ بالاقتباس والإحالة على ذلك النص لـ "تيودور خوري(THEODORE KHOURY) الذي ضمنه مناظرة بين القيصر البيزنطي وبين أحد المثقفين الفرس بقوله :" أرني ما الجديد الذي أتى به محمد ولن تجد سوى كل ما هو سيء وغير إنساني مثل أنه أوجب نشر الاعتقاد الذي يعلمه بحد السيف " [1].

الوسائل المسخرة في ترويج الفوبيا :

أصبحت وسائل الإعلام الغربية تعمل على زرع الخوف والتخويف بأقل تكلفة، فهي من جهة تعتمد على الاختصار في التنميط بالصوت والكلمة والصورة، وذلك بإنجاز أفلام قصيرة في دقائق جد محدودة مثل فيلم "فتنة" الهولندي، أو فيديوهات في غالبها لقطات عنف وإرهاب (مثل فيلم "فتنة"، الدانماركي)، أو لوحات تحمل كلمات قصيرة مكتوب عليها وأفلام قصيرة (مثل روبورطاجات حظر المآذن في سويسرا)، أو مصطلحات مضللة وغير دقيقة في وصف الإسلام والمسلمين، يقول إبراهيم أبو خطالة: "مراسلو الأخبار التلفزيونية ومنتجو الأفلام مذنبون بسبب جهلهم أو عدم اهتمامهم

---

(1) والنص كما ورد باللغة الألمانية. "Zeig mir doch , was Mohammed Neues gebracht hat und da wirst du nur Schlechtes und Inhumanes finden wie dies, daB er vorgeschrieben hat , den Glauben , den er predigte , durch das Schwert zu verbreiten

ترجمة منشورة بمجلة الأزهر ، عدد خاص " **هذا هو الإسلام / حوار هادئ مع قداسة بابا الفاتيكان** "رد شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي، عدد : ذو القعدة 1427هـ/ دجنبر 2006م.

بالمصداقية على حد سواء، لاستخدامهم مصطلحات إسلامية غير دقيقة تؤثر بشكل سلبي في آراء الغربيين، فمثلا على سبيل المثال، هي تسيء استعمال العبارة الإسلامية "جهاد" عانيةً بها حربا مقدسة. و"الأصولية" هي كلمة أخرى يستخدمها معدو الأخبار بشكل خاطئ، ولا مرادف ديني لها ألبتة في اللغة العربية "[1].

كما أن عناوين الأفلام ومقالات الصحف والمجلات تكون قصيرة وجد مثيرة من قبيل:" القنبلة الإسلامية"، الإسلام الملتهب"،"خنجر الإسلام"، سيف الإسلام"،" نار الإسلام"،"جذور الغضب الإسلامي" ، "قنبلة الإسلام الموقوتة"، "الصين أيضا قلقة من الإسلام"[2].

ومن جهة أخرى تعمل على استقطاب أكبر عدد من المتتبعين من خلال تغطية إعلامية مناسبة زمانا ومكانا؛ حيث إنها تعمد إلى اختيار الأوقات المناسبة لنشر الخبر حتى يتمكن أكبر عدد من الناس من المشاهدة والاستماع؛ فالبرامج التلفزيونية المتخصصة في التهجم على الإسلام والمسلمين يختار لها الأوقات التي يكون فيها العمال والموظفون والعامة في البيت في المساء، ويتم إعادتها أكثر من مرة. كما أن البرامج الحوارية والإذاعية غالبا ما تذاع حين يكون غالبية المستمعين في حالة التنقل بسياراتهم أو في أماكن لا تسمح لهم بمشاهدة التلفاز، ومثل هذه البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي تعمل على تشويه صورة الإسلام والمسلمين تستقطب ملايين المستمعين والمشاهدين على مدار الأسبوع.

---

(1) إبراهيم أبوخطالة، الغول الجديد تحت السرير، ص 248-249.

(2) الخواف الإسلامي بين الحقيقة والتضليل، عطية فتحي الويشي، ص 132.

بواعث الغرب في التخويف من النظريات السياسية الإسلامية

الدكتور عبد المجيد بوكير (*)

تقديم وتقسيم :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي المصطفى الأمين وعلى آله وصحابته أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد،

فإنه لشرف لي عظيم أن أشارك السادة الأساتذة أشغال الندوة الدولية حول "ظاهرة الإسلاموفوبيا وسبل التعامل معها" وهو النشاط العلمي الذي ينظمه مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام بفاس، فالشكر كل الشكر للإخوة المنظمين على إتاحة هذه الفرصة لنا كي نسمع صوت الاعتدال في النظرة ونظفر بآداب الإسلام في الاختلاف والحوار الهادف، وإنها لمناسبة طيبة لترسيخ ثقافة التسامح بما يسهم في كشف الصورة الناصعة لديننا الحنيف، والشكر موصول ـ بطبيعة الحال ـ للسادة الأساتذة المشاركين ومن خلالهم للحضور الكريم.

لقد، وقد ارتأيت أن أشارك في فعاليات هذا المؤتمر بموضوع حول: " بواعث الغرب في التخويف من النظريات السياسية الإسلامية"، والحقيقة أن الأصل في أي نظام سياسي أنه مجموعة من القواعد والمرتكزات والقيم التي تروم تقديم الحل الأمثل للنظام الاجتماعي عموما وللإشكالية السياسية على الخصوص، على أن خصوصية النسق السياسي الإسلامي ومدى قدرته على تقديم إجابات فعالة للراهن السياسي على غرار النظم السياسية الغربية المعاصرة مما تلقفه الغربيون بالتشكيك في أحسن الأحوال والتخويف في أسوئها.

(*) الكلية متعددة التخصصات بتازة.

في ضوء هذا يحق لنا أن نتساءل : ما حقيقة النظريات السياسية الإسلامية؟ وما الداعي الذي دعا الباحثين والسياسيين الغربيين إلى التخويف منها والتأليب على نظمها؟ وبالتالي ما سبب تشكك أصحاب القرار السياسي من الغربيين في الحركات السياسية ذات المرجعية الإسلامية الملتزمة وباقي منظمات المجتمع المدني؟ ولماذا يحاصرون الأحزاب الموصوفة بالإسلامية رغم اعتمادها المنهج الديمقراطي المعدود من مقدسات العقل الغربي؟.

وبالمقابل، أليست نظرياتنا قاصرة أو على الأقل تبعث على الشك حول مدى انبنائها على قيم الحضارة الحديثة؟ أليست الحركات والأحزاب الموصوفة بالإسلامية تنقلب ولأول وهلة تصل فيها إلى الحكم عن الديمقراطية فيكون الموقف الغربي المرعوب منها مبررا؟.

إن أصولية الفكر الغربي في مجمله وعداءه المستفحل تجاه القضايا الإسلامية، جعلت منه الأداة الأساسية التي تسعى لتصوير المسلمين إرهابيين وأشرارا وسعاة فتك بالآخر، وهي الصورة المقايسة التي جعلت الجمهور الغربي يحس بأن دين الإسلام ونظمه السياسية تحديدا هي التحدي الذي يواجه حضارتهم، وهذا ما عبر عنه صمويل هنتنغتون بصراحة في كتابه عن "صدام الحضارات".

وأستسمح السادة الأساتذة والحضور الكريم في أن أقرر منذ البداية أنه لا توجد معرفة غربية حقيقية لا بالنظريات السياسية الإسلامية ولا بالإسلام الحركي، وإنما هناك تصورات سطحية تشكل متخيلا غربيا عنه ساهمت في بلورته مجموعة من العوامل المتدخلة بدرجات مختلفة، ويمكن أن نرصد أهمها في مساهمات الدراسات الاستشراقية في بث صورة مغلوطة عن فقه الخلافة، كما يمكن أن نلحظ ظاهرة الإسلاموفوبيا أو ما يصح وصفه بالرهاب الإسلامي كسياسة دعائية غربية تعمد إلى التخويف من الإسلام ونظمه وتشكيل جمهور غربي مناوئ لقضاياه.

وسعيا منا في إبراز الوجه الحقيقي المشرق والحداثي للأفكار السياسية الإسلامية وكشف المؤامرة الغربية بحقها، وتوضيحا لزيف الادعاءات الغربية التي تروم إلصاق تهمة الأوتوقراطية بها، وإسهاما في تصحيح صورة المسلمين لدى الغربيين والتي تضررت كثيرا في العشرية الأخيرة جراء تصاعد العنف عبر العالم، بما يؤدي في آخر المطاف إلى بعث روح الحوار بين المختلفين في الدين والثقافة والمذهب بدل الصدام، سوف أركز على رصد الدوافع الباعثة لهذا الموقف العدائي الغربي من

القيم السياسية الإسلامية والتي تتصل[1] بصفة جوهرية فيما أحسب بالتحدي الذي تشكله هذه القيم للنظم الدستورية الغربية خاصة على مستوى تجاوزها لما عده الغربيون زمنا طويلا نهاية التاريخ في خط تطور المؤسسات السياسية. وفي ضوء كل ما سبق يقتضي منا ترتيب الكلام هنا تقسيم الحديث إلى محورين اثنين متتاليين كما يلي:

المحور الأول : تجاوز مبادئ نظام الحكم في الإسلام للمبادئ الغربية

المحور الثاني : تجاوز قيم النظام السياسي الإسلامي للقيم السياسية الغربية

المحور الأول : تجاوز مبادئ نظام الحكم في الإسلام للمبادئ الغربية

تتخذ التعددية السياسية في الفكر السياسي الإسلامي عدة مظاهر لعل أوضحها مظهر الشورى الذي يعد بحق ركن النظام السياسي الإسلامي الكامل والراشد والذي يضاهي ويفوق دقة مبدأ الديمقراطية الذي يعتبر آخر محطة في تطور قيم النظام السياسي الغربي، وإلى جانب هذا الصرح السياسي ينتصب صرح آخر يضاهيه في الأهمية وهو مؤسسة الفصل بين السلطات العامة في الدولة والذي يتجاوز في ضبطه التنظيمي لسلطات الدولة آخر ما تفتقت عنه العبقرية البشرية في إطار تحصين حقوق الناس. فما هي حقيقة منهج الفقه السياسي الإسلامي في تدبير الرأي والاختلاف وفي تنظيم عمل السلطات العامة في الدولة بما يكفل توزيع العدالة الفردية والاجتماعية إلى درجة إثارة الجهات الفكرية الغربية وانتصابها في وجه نظرياتنا وقيمنا الدستورية؟ وكيف تتفوق هذه القيم على نظيراتها الغربية فإذا هي تطرح نفسها بديلا عنها؟.

للإجابة عن هذه الاستفسارات نجزئ الكلام إلى الفرعين التاليين :

الفرع الأول : هيمنة الشورى على الديمقراطية.

---

(1) كما وتتصل من جهة أخرى بالأسس الفكرية والعقائدية التي تنطلق منها حركات الإسلام السياسي وهي تبلور البديل الحضاري والثقافي عن الممارسة السياسية الغربية بعد أن أضحى الكثير من التيارات السياسية الإسلامية المعاصرة حركات اجتماعية وثقافية مدنية ووسطية متقدمة في وعيها السياسي تحتضن كفاءات سياسية براغماتية لا تنطلق في ممارستها السياسية من المرجعية الدينية إلا باعتبارها حاضنة حضارية، وتعبر عن تطلعات شرائح واسعة من الناس من خلال إعادة إنتاج هوية مستقلة للمجتمعات العربية الإسلامية مصدرها الإسلام والثقافة المحلية بعيدا عن العنف والتطرف.

الفرع الثاني : البديل السياسي الإسلامي على صعيد العلاقة بين السلطات العامة في الدولة.

الفرع الأول : **هيمنة الشورى على الديمقراطية**

الشورى أو المشاورة هي الاجتماع على الأمر ليستشير كل واحد صاحبه ويستخرج ما عنده[1]، فهي استخراج الرأي من أهله ومراجعة البعض للبعض، مما يعني أن في الشورى طرفاً يسمع وآخر يشير، وأطرافاً تتحاور وتقلب الرأي على وجوهه المتعددة، وتتبادل وجهات النظر في موضوعها بغية الوصول إلى الصواب والسداد، والشورى، بما هي قيد على سلطة الحاكم ووسيلة رقابة على عمله، تجد أساسها في الأصول العامة للتشريع.

والجدير بالذكر أن المسلمين يعتمدون الشورى أسلوبا في التوصل إلى الرأي الصالح والمنهج الصائب في إدارة أمورهم، أما النظم الدستورية ذات المرجعية الغربية فتلتزم مبدأ الديمقراطية أساساً في الحكم وشؤونه، وما بين الشورى الإسلامية والديمقراطية الوضعية أوجه من الاتفاق والاختلاف (الفقرة الأولى) تجعل المفهوم الإسلامي للشورى يتجاوز نظيره الديمقراطي إلى الدرجة التي تجعل الجهات الثقافية الغربية النافذة التي تشرف على رسم السياسات في دولها تؤلب الرأي العام على كل ما يمت الصلة بالفكر السياسي الإسلامي (الفقرة الثانية).

الفقرة الأولى : الشورى والديمقراطية : اتفاق واختلاف

تتفق الشورى مع الديمقراطية في عدة أوجه، من ذلك أن انتخاب رئيس الدولة طبقا لنظرية الشورى الإسلامية يتم من قبل الشعب عن طريق ممثليه في مجالس الحل والعقد، وهو نفس المبدأ المعمول به في الديمقراطية بصورها الثلاث المباشرة وشبه المباشرة والنيابية، وتبيح الشورى الإسلامية تعددية الرأي وتنوع المشارب في إطار مبادئ الإسلام العامة، وتسمح الديمقراطية بالاختلاف الحزبي والتعدد السياسي ضمن أحكام الدساتير والمواثيق الوضعية[2].

---

(1) أحكام القرآن، ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا،ج 1/389،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت(بدون).

(2) النظام السياسي في الإسلام ـ النظرية السياسية: نظام الحكم، عبد العزيز عزت الخياط، ص92، ط1، 1420هـ 1999م، دار السلام، القاهرة، مصر.

ومنه أن الشورى الإسلامية تقر الحريات طبقا لمبادئ الإسلام وقواعده الكلية مثلما تعطي الديمقراطية هذه الحقوق ضمن إعلانات حقوق الإنسان وأحكام الدساتير، وكلاهما يرفض الحكم المطلق الاستبدادي الذي يصادر حق الأمة في الرقابة على المسؤولين ومشارفة أعمالهم.

لكن رغم هذا الاتفاق بين الشورى والديمقراطية، فإنه تبقى مع ذلك أوجه للاختلاف والافتراق، فالشورى الإسلامية تتميز عن الديمقراطية المعاصرة من عدة وجوه؛ فمن حيث الأساس، تعتبر الشورى أعمق من الديمقراطية لما تفرضه من حرية الرأي ووجوب النقاش قبل اتخاذ الأغلبية قرارها، بل إن الشورى تبقى واردة حتى بعد إصدار مثل هذا القرار[1]، على أن أغلبية الشورى هي أغلبية تشاور وحجة ودليل شرعي، ولا تغني عنها أغلبية فرضت نفسها بالحزبية أو الطبقية كما هو شأن كثير من الديمقراطيات المعاصرة[2]، فالعبرة في القيام على الشؤون العامة ليست بالكم البشري في النظرية السياسية الإسلامية وإنما هي بالكيف، فلا مجال لتسلط السواد الأعظم من الناس على شؤون الدولة ما دام تدبير المصالح العامة يقتضي مرتبة من العلم والحكمة لا يتوفرّان عادة لهذا السواد الأعظم.

إن موقف الإسلام هذا من المعيار العددي حل للمشكلة السياسية إذ يعتبر في حقيقته بديلا لمبدأ سيادة الأمة الغربي المعتبر أساساً للنظام النيابي ذي المجالس المنتخبة التي راحت تنفرد بسلطة الدولة كونها المعبر عن الإرادة العامة، فهو يتلاقى مع بعض النابهين من المحللين والدارسين الغربيين الذين ما فتئوا ينتقدون تسلط الأكثرية الغوغاء على الشأن العام من غير قيد ولا مسؤولية فإذا بالانتهازيين من غير المؤهلين يتعاقبون على السلطة والحكم[3].

والشورى في الإسلام تلتزم بمبادئ الإسلام العامة وأسسه المثلى، لذلك لا تستطيع مجالسها في الدولة الإسلامية الخروج عن أحكام الشريعة، عكس فكرة الديمقراطية التي تنبني أساسا على جعل السيادة للشعب أو الأمة مما يترتب عنه أن

---

(1) فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوي، ط2، 1413هـ 1992م، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ص300.

(2) نفسه، ص301 .

(3) بحث في النظام السياسي الإسلامي: ردا على المستشرق الإنجليزي "أرنولد"، د. محمد طه بدوي، منشور ضمن كتاب "مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، ط ، 1405هـ1985م، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج، ج2، ص 123-124 .

المجالس النيابية تملك سلطات واسعة في سن القوانين دون انضباط لأية شريعة أو قواعد عليا[1]، ففكرة الشورى تقضي ربط الالتزام بالقانون بمدى موافقته أحكام الشريعة وأي خروج من جانب القائمين على سلطة التشريع عن القيم الأساسية والأهداف العليا للدولة الإسلامية مجسدة في الأحكام القبلية للكتاب والسنة يجعل تصرفاتهم خارجة عن أحكام النظام القانوني الإسلامي وبالتالي غير مشروعة.

والشورى بما هي سلوك اجتماعي إسلامي، وخلق فردي، ومنهاج تربوي، وطريق في إدارة الشأن العام، تعتبر أعمق بكثير وأشمل من مبدأ الديمقراطية الذي يتعلق أساسا بالنظام السياسي للدولة[2] حيث تستمد شرعيتها من الشرع الإسلامي الحنيف، بينما الديمقراطية تستمد أصولها من النظم الدستورية الوضعية[3]. إن ما تجب الإشارة إليه هنا هو أن نظام الشورى إذ يلتقي مع فكرة الديمقراطية في عدة نقط مشتركة فإنه يشكل بديلا عنها يزعج الجهات العرقية الغربية التي تعتمد سياسة التخويف من كل فقه سياسي يتجاوز نظرياتها.

وإذا ثبت هذا التنبيه الميتودولوجي أمكننا فهم الموقف الذي عبر عنه المستشرق الإنجليزي طوماس أرنولد في كتابه عن الخلافة منذ سنة 1924م والذي يعتبر مصدر معارف الغربيين عن النظم السياسية الإسلامية، حيث زعم أن "الخلافة الإسلامية كانت تمثل حكما مستبدا يضع في يد الحاكم سلطة مطلقة بلا قيد فارضة على الرعايا الطاعة الخالصة من غير تردد" وأن نظريتها السياسية "قد صيغت لتكون سندا لخلافة مستبدة استدعيت الآيات والأحاديث لتأييدها"[4]، وإذا تركنا الرد على مثل هذه المزاعم إلى مكان قريب من هذا البحث تتضح فيه حداثة النظريات السياسية الإسلامية بتمكينها الأمة من مكنة عصيان أوامر الحكومة الجائرة ولو اقتضى الحال إسقاطها مما لا تجرؤ أحدث النظريات الديمقراطية على تقريره اقتصرنا هنا على التنبيه على أن أرنولد نفسه سوف يقر في محل آخر من كتابه المنوه به على أن الخليفة بوصفه مسلما ملتزما

---

(1) النظام السياسي في الإسلام، عبد العزيز عزت الخياط، ص93، فقه الشورى والاستشارة، توفيق الشاوي، ص300.

(2) فقه الشورى والاستشارة، توفيق الشاوي، ص 300 .

(3) النظام السياسي في الإسلام ـ النظرية السياسية، نظام الحكم ـ، د. عبد العزيز عزت الخياط، ط1، 1420هـ 1999م، دار السلام، القاهرة، مصر، ص93.

(4) Sir Tomas W. Arnold, The Caliphat, London, Routledge, Kenga N Paul, L,T,D, 1967, P, 47 et suite.

بالخضوع للشريعة الإسلامية على قدم المساواة مع غيره من المسلمين بما لا يدع مجالا لذلكم التمييز بين القانون الكنسي وقانون الدولة في المسيحية[1].

الفقرة الثانية : الشورى تجاوز للديمقراطية

يهدف مبدأ الشورى الإسلامية إلى الرقي بمستوى تربية الأفراد والرفع من أقدارهم وتحسين سلوكهم وأخلاقهم، وهو بهذا المفهوم يتجاوز الديمقراطية التي تنبني في كثير من تطبيقاتها على مخادعة الأفراد والشعوب ومدالستهم، لذلك ففلسفة الشورى تنبني أساسا على التكامل والتوازن بين حرية الفرد والمجموع، ومكافحة احتكار السلطة والاستبداد، إنها حرية اختلاف وتعدد (أولا)، تفضل الديمقراطية وتهيمن عليها (ثانيا).

أولاً : الشورى تعدد

إن تعدد المدارس الفكرية السياسية الإسلامية في إطار عام من الإيمان بالله والانضباط للقيم والقواعد الإسلامية، الثابتة في أصولها، المتحركة في فروعها؛ أمر بديهي تؤمنه قاعدة الشورى وتحض عليه، وهذا التعدد في الرؤى والأفكار أمر لا بأس به إذا قدر مصلحة الأمة وهدف إلى خدمتها في ظل جو من الأخلاق السامية والأسس الأصيلة. والتعددية التي تستوعبها الشورى الإسلامية هي أنواع :

تعددية اجتماعية : وتعني وجود جماعات متمايزة ثقافيا ولكنها تعمل في حقول مختلفة، وميادين متباينة كالزراعة، والصناعة، والتجارة وغيرها، كما قد تعني الاختلاف في الدين والثقافة.

تعددية فقهية : وتعني تباين وجهات النظر في الاجتهاد والتشريع وتفسير القوانين والنظم التي تحكم العلاقات بين الأفراد في المجتمع الإسلامي، وبينهم وبين غيرهم في المجتمعات الأخرى.

تعددية سياسية : قائمة على أساس قواعد الإسلام في تحقيق مصلحة الأمة، مع مراعاة الضوابط ليس أقلها أن يكون تعدد الأحزاب والبرامج السياسية في البلاد الإسلامية قائما على الحق لا على أساس المصالح، وأن يكون محور التعدد تحقيق إدارة سليمة للشأن العام من خلال المشاركة السياسية العادلة لكل قوى المجتمع الإسلامي في تدبير شؤون الحكم، وألا يكون هذا التعدد السياسي في الدولة مبنيا على أسس عرقية

---

(1) Arnold, The Caliphat, P,53.

أو إيديولوجية تناقض توجهات الإسلام وفلسفته على أن يكون مجرد أسلوب في تطبيق الشورى ووسيلة للحسبة وأداة للتصدي للممارسات الفاسدة للجهات الحاكمة وليس جوهرا بحد ذاته ولا وسيلة لترويج فلسفات معادية أو هادمة لقيم الإسلام ومبادئه[1].

إن الشورى في الإسلام سلوك اجتماعي، ومنهج علمي، ونظام حكومة متعددة المشارب والتوجهات الفكرية في إطار العقائد الإسلامية العامة، وعليه فالإسلام لا يمنع التعددية السياسية مادامت تحقق المصلحة للأمة وتجمعها على العمل لأجلها ولو اختلفت الآراء : ﴿ **ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات** ﴾[2] صدق الله العظيم.

ثانياً : الشورى تفضل الديمقراطية وتهيمن عليها

إن أساس الشورى ونطاقها أوسع من أساس الديمقراطية ومجالها، فالشورى تفرض حق الرأي وحرية النقاش والحوار قبل اتخاذ الأغلبية قرارها وبعد صدوره، في حين تخضع الأقلية في الحكم الديمقراطي للأغلبية بمجرد اتخاذها الرأي والقرار.

والديمقراطية قاصرة على نوع من النشاط الإنساني وهو الحكم تحديدا، أما الشورى فنطاقها أوسع وأشمل لكل مناحي الحياة، فهي نظام لجميع أوجه النشاط في حياة المسلمين فهي أعمق أصولا وأكثر شمولا[3]، ولقد بات واضحا أن الانتصار للإيديولوجيات في بعض الأحيان جعل الكثير يعلن بغير هوادة أن الإسلام دين الديمقراطية، بل افتتن البعض بهذا النظام السياسي في مراحل معينة إلى درجة الانخداع والادعاء أنه الصورة الحقيقية المثالية للحكم الإسلامي.

وعندي أن دراسة عناصر الديمقراطية تبين أن اختيار الأغلبية لا يعبر عن حقيقة الواقع واتجاهات الرأي العام دائما كما تعبر عنه الشورى الإسلامية، فالقول إن نظام الحكومة النيابية ـ وهو أوضح صور الديمقراطية المطبقة على الإطلاق ـ يمثل الأمة أو أغلبيتها غير صادق دائما؛ إذ المجالس النيابية في واقعها لا تمثل سوى أقلية الناخبين إذا أخذنا بعين الاعتبار رقم الأصوات الفاشلة مضافا إليها عدد الأصوات الممنوحة

---

(1) النظام السياسي في الإسلام، عبد العزيز عزت الخياط، ص 98، وما بعدها.

(2) سورة البقرة ، 2/ الآية 148.

(3) فقه الشورى والاستشارة، الشاوي، ص 300.

للمرشحين الذين لم ينجحوا في الاقتراع فضلا عن عدد الغائبين والمقاطعين[1]، فإذا كان البرلمان بأكمل أعضائه لا يمثل في الواقع سوى أقلية الأمة، فكم تمثل الأغلبية البرلمانية المنبثقة عن أغلبية الحاضرين في الجلسات العامة والتي تقرر سياسة البلاد؟.

فإذا تركنا الجواب عن هذا السؤال جانبا لبداهته، أمكننا التقرير وبلا أدنى حرج أن غاية الشورى هي الوصول إلى رأي متفق عليه مقبول من طرف المتشاورين أو من أكثرهم، على أنه بإمكان صاحب كل رأي عرض حججه وتقديم براهينه أمام المخالفين، وهذا ما يسمح بالخلوص إلى رأي مجمع عليه أو قرار متوافق بشأنه بين جمهور المتشاورين، لكن أغلبية الشورى هنا ليست أغلبية عددية تستند إلى العصبية أو المصالح الذاتية كما هو شأن معظم التطبيقات الديمقراطية المعاصرة، وإنما هي أغلبية حجة وبرهان ودليل، فالأصل في الشورى الإسلامية أن تكون في حدود القيم العليا والمبادئ السامية للدين الإسلامي الحنيف، وهي أعم من الديمقراطية من حيث إنها تؤطر المجتمع من الجوانب الخلقية والاجتماعية والاقتصادية فضلا عن الجانب السياسي، وتستند إلى عقيدة إلهية تمنع الناس عن أي غش أو انحراف.

إن الشورى في الإسلام قانون حكومة، ونظام تربية وسلوك يمتد إلى جميع مؤسسات المجتمع السياسية منها والقانونية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية وغيرها، وهي تقدم العلاج الشافي لتنظيم الدولة بما يكفي حاجتها عن استيراد النظريات السياسية العصرية، وبما يجعلها تتجاوز مختلف هذه النظريات في الفاعلية والتطبيق.

الفرع الثاني : **البديل السياسي الإسلامي على صعيد العلاقة بين السلطات العامة في الدولة**

يعتبر مبدأ الفصل بين السلطات، حجر الزاوية في النظم السياسية المعاصرة، وكانت مختلف هذه النظم تتطرف في بادئ الأمر في إقرار هذا المبدأ، وتبالغ في إعماله، قبل أن تعتدل في تطبيقه، وترضخ لضرورة التعاون بين الهيئات المشرفة على التنفيذ والتشريع والقضاء.

---

(1) منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، د. يحيى إسماعيل، ص 314-314، ط1، 1406هـ1986م، دارالوفاء، مصر.

ويعتقد أغلب الباحثين المعاصرين أن مفهوم التفريق بين السلطات يرتبط أساسا بإنجازات الفكر السياسي الغربي[1] وتطور مدارسه ونظرياته الدستورية، وخاصة بما

(1) يربط الباحثون الدستوريون مبدأ الفصل بين السلطات العامة في الدولة باسم المفكر الفرنسي مونتيسكيو الذي أوجب توزيع مظاهر السلطة في الدولة بين أكثر من هيئة عامة حتى تقوم الدولة القانونية، لكن رغم جهود هذا المفكر في تثبيت هذا المبدأ في الفلسفة الديموقراطية الحديثة فقد كان للفكر السياسي الإغريقي وخاصة مع أفلاطون وأرسطو دور كبير في إرساء أسسه الأولى وبلورة مفاهيمه الأساسية. فقد دعا أفلاطون إلى توزيع وظائف الدولة على هيئات مختلفة مع إقامة التوازن بينها حتى لا تنفرد إحداها بالحكم فتتسلط وتجور فيقع الاضطراب وتسود الثورات. وحدد تلميذه أرسطو وظائف الدولة في ثلاث : وظيفة المداولة، ووظيفة الأمر ووظيفة العدالة، فطالب بأن تتولى كل وظيفة هيئة عامة مستقلة تتعاون مع غيرها لتحقيق المصلحة العامة. وقد دافع الكاتب الإنجليزي جون لوك في كتابه"بحث في الحكومة المدنية" عن نظرية فصل السلطات واستقلالية الأجهزة الحكومية، لما كان في الدولة وظائف جوهرية متباينة من حيث طبيعتها ولا يمكن أن تمارس إلا منفصلة عن بعضها البعض. ثم تحدث بعد ذلك عن تقسيم طبيعي لسلطات الدولة سواء من حيث الجهاز أو من جهة الوظيفة، واعتبر ذلك أوفق سبيل لتجنب التسلط الذي ينتج عن اجتماع السلط في يد هيئة واحدة. غير أن مبدأ الفصل هذا لم يجد صداه لدى الكاتب جان جاك روسو الذي رفضه بناء على أصله في أن السيادة لا تتجزأ، واعتبر تقسيم رجال السياسة سلطات الدولة إلى سلطة تشريعية، وأخرى تنفيذية، وإلى حقوق لفرض الضرائب وإقامة العدل تمزيقا للهيكل الاجتماعي وشبهه ساخرا بفعل مشعوذي الأسواق الذين يقطعون الأجزاء إربا ويجمعونها في سيرتها الأولى بطرق لا يعلمها أحد. ولهذا، فإن هذا المبدأ لم يأخذ مكانته وأهميته في البناء الديموقراطي الحديث إلا بعد أن طور مضمونه مونتيسكيو في مؤلفه" روح القوانين" الصادر سنة 1748م، حيث قسم وظائف الدولة إلى تشريعية وتنفيذية وقضائية تسند إلى ثلاث هيئات متميزة، حتى تتمكن كل واحدة منها من إيقاف الأخرى عند حدود مهمتها وتمنعها من إساءة استعمال السلطة. وتتولى السلطة التشريعية صياغة القوانين وتعديلها وإلغائها، وتقوم السلطة التنفيذية بتطبيق القانون وإعلان الحرب والسلم والنشاطات الدبلوماسية، فيما تضطلع السلطة القضائية بمهام معاقبة المجرمين وفصل المنازعات. وينطلق مونتيسكيو من تقسيمه الثلاثي هذا للسلطات العامة للقول بأنه إذا اجتمعت السلطة التشريعية مع التنفيذية في يد واحدة انتهت الحرية إذ السلطة تقيد السلطة وتكفل الحماية لحقوق الأفراد وحرياتهم. وهذا التقسيم الثلاثي الذي رسمه مونتيسكيو لسلطات الدولة يختلف عن التقسيم الذي حدده جون لوك حينما أدمج القضاء في السلطات العامة للدولة والتي جعلها إما سلطة تشريعية تتولى وضع القوانين باستمرار ومراجعتها؛ أو سلطة تنفيذية تقوم بتنفيذ القوانين الداخلية في المجتمع على جميع أعضائه داخله؛ أو سلطة اتحادية تتولى إعلان الحرب والسلم وعقد المعاهدات والتحالفات وجميع التصرفات التي تتم مع الأشخاص والجماعات من خارج الدولة، وهذه السلطة سماها سلطة طبيعية وجعلها تقابل السلطة التي كان يملكها كل شخص بالطبيعة. وقد نظر مونتيسكيو بعد أن نص على وجوب فصل السلطات العامة، لضرورة قيام كل سلطة بمراقبة السلطة الأخرى حتى تحترم اختصاصها وتقف عند حدوده، فكان تأثير أفكاره جليا على الثورتين الأمريكية والفرنسية اللتين اقتبستا نظرية الفصل من تنظيراته وطبقتاها. يراجع :

* المؤسسات السياسية والقانون الدستوري: الأنظمة السياسية الكبرى، موريس ديفرجيه، ترجمة: د. جورج سعد، ط1، 1412هـ1992م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 110.
* رقابة الأمة على الحكام، دراسة مقارنة بين الشريعة ونظم الحكم الوضعية، د. علي محمد حسنين، ط1، 1408هـ 1988م، المكتب الإسلامي بيروت، لبنان/مكتبة الخاني الرياض، ص 246.
* نظرية الدولة والمبادئ العامة للأنظمة السياسية ونظم الحكم، د. طعيمة الجرف، مكتبة القاهرة الحديثة، مصر (بدون)، ص 509 .
* العقد الاجتماعي، جان جاك روسو وغيره، ترجمة : عبد الكريم أحمد، مراجعة: توفيق إسكندر، دار سعد، مصر (بدون)، ص 105.
* النظم السياسية والقانون الدستوري، عبد الغني بسيوني عبد الله، ط/ 1992م، الدار الجامعية، بيروت، لبنان، ص 146.
* الوسيط في القانون الدستوري العام، د. أدمون رباط، ج1/165، وما بعدها وأيضا ج 2/511 وما بعدها.
* الحكم المدني، جون لوك، ضمن كتاب العقد الاجتماعي تأليف جماعة، ص 242-213.

عرفه في أواخر القرن الثامن عشر، حين راحت الأنظمة السياسية في البلدان الغربية، تنوع سلطات الدولة إلى تشريعية، وتنفيذية ثم قضائية، في محاولة منها لتجنب بطش السلطة التنفيذية وتعسف القائمين عليها، أو تغول سلطة على أخرى.

والنظام السياسي الإسلامي كان أسبق في اعتناق هذا المبدأ وترسيخه لقرون طويلة، قبل أن يجد طريقه إلى المجتمعات الغربية، بل إن الفقه الإسلامي من هذه الناحية كان أكثر تفريقا وفصلا إلى درجة لم يصلها حتى النظام الرئاسي المعروف بتطبيقه الواسع والفاحش لقاعدة الفصل، مع ملاحظة أن النظام الرئاسي بدأ في السنين الأخيرة يكرس مبدأ التعاون بدل الفصل المطلق بين السلطات، حيث اعترف لرئيس الدولة ـ وهو رأس السلطة التنفيذية ـ ببعض المهام التشريعية كحق الاعتراض التوفيقي على مشروعات القوانين التي يقرها البرلمان، وبالمقابل منح البرلمان حق الموافقة على تعيين كبار الموظفين وغير هذا من الاختصاصات التنفيذية[1].

فما طبيعة الفصل والتفريق بين السلطات العامة في الدولة الذي يقره الفقه السياسي الإسلامي كبديل يتجاوز به أفكار الغربيين إلى الدرجة التي تجعلهم يرهبون من كل نظام سياسي يعتمد الفلسفة الإسلامية في الحكم مرجعية له؟

الفقرة الأولى : علاقة السلطات العامة في الدولة من منظور الفكر السياسي السني

يظهر أن الفقهاء المعاصرين من أهل السنة، يعتبرون أن مبدأ فصل السلطات راسخ في نظام الحكم الإسلامي، وأنه يقوم على أساس فصل الوظيفة، لا على أساس الفصل العضوي ـ أي استقلال الشخص ـ فالقاضي حينما يجتهد إنما يفعل ذلك بسبب كونه مجتهدا متوفرة فيه شروطه لا بوصفه قاضيا، وحين يحكم، يفعل ذلك بصفته قاضيا منصبا لذلك وهكذا بالنسبة للمجتهد والحاكم[2]، وهذا مقصود الأصوليين بقولهم "الواحد بالشخص له جهات"[3].

---

(1) النظم السياسية، د.محمد كامل ليلة، ط، 1960م ـ 1961م، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ص507-905. النظم السياسية والقانون الدستوري، د. عبد الغني بسيوني عبد الله، ص 362.

(2) السلطات الثلاث في الدساتير العربية وفي الفكر الإسلامي، سليمان محمد الطماوي، ص 406، ط3، 1974م، دارالفكر العربي. الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ط3، 1409هـ 1989م، دار الفكر، ج 6/655.

(3) تقرير الشربيني على حاشية بناني على شرح المَحلَي على متن جمع الجوامع، لابن السبكي، ج، 102/1 ، دار إحياء الكتب العربية، مصر (بدون).

أولاً : استقلال السلطة القضائية

لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً بن جبل قاضيا إلى اليمن سأله : "كيف تقضي إن عرض لك قضاء؟ قال أقضي بكتاب الله، قال فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أجتهد رأيي ولا آلو، قال فضرب صدري فقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسوله"[1]، من هذا الحديث الشريف نتبين حقيقتين أساسيتين :

الأولى : تقيد الحاكم في أحكامه بأصول التشريع الإسلامي.

الثانية : استقلاله في عمله تجاه السلطة التنفيذية ممثلة في الخليفة وحكومته.

ورغم أن الخليفة هو من يعين القضاة ويعزلهم، فإن هذا إجراء شكلي محض، بدليل أن القاضي يصير مستقلا في أداء مهامه بعد التنصيب مباشرة، لا يتقيد بأوامر الأمراء، ولا الوزراء ولا غيرهم من القائمين على السلطة[2]؛ بل إن الفقهاء قرروا أن القاضي يستمد ولايته من الأمة، وأن الخليفة عندما يعيّنه، إنما يكون وكيلا عن الأمة وممثلا لها في مباشرة عقد التعيين، وقد رتبوا على هذا أن وفاة الإمام لا تنهي ولاية القضاة، قال ابن شاس : "وإذا مات الإمام الأعظم، فلا بأس أن ينظر قضاته وحكامه حتى يعلموا رأي من بعده"[3]، وقال ابن الحاجب المالكي : "وإذا مات المستخلف لم ينعزل مستخلفوه ولو كان الخليفة"[4]، وقال الإمام القرافي من المالكية : "إذا مات الإمام الأعظم نظر قضاته وحكامه حتى يعلموا رأي من بعده؛ لأن الولاية فيهم حق

---

(1) المسند، أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ودار صادر، بيروت، لبنان (بدون)، ج 5/242.

(2) نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، أبو الأعلى المودودي، ط، 1405هـ 1985م، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ص 225 ـ السلطات الثلاث، الطماوي، ص 604. فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية، عبد الرزاق أحمد السنهوري، ترجمة : دة. نادية عبدالرزاق السنهوري والدكتور توفيق الشاوي، ط، 1989م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 168، وما بعدها.

(3) عقد الجواهر الثمينة في فقه عالم المدينة، نجم الدين بن شاس، تحقيق : محمد أبو الأجفان وعبد الحفيظ منصور، مراجعة : محمد الحبيب بن الخوجة والدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، ط1، 1415هـ 1995م، دار الغرب الإسلامي، ج 3/106.

(4) جامع الأمهات، ابن الحاجب، ص 463، تحقيق أبي عبد الرحمن الأخضر الأخضري، ط2 ، 1421هـ2000م، داراليمامة، دمشق، بيروت.

للمسلمين لا تبطل بموته"[1]، ووافقهم الخطيب الشربيني من الشافعية حين قال : "لا ينعزل القاضي بموت الإمام لشدة الضرر في تعطيل الحوادث، ولأن الإمام إنما يستنيب القضاة في حقوق المسلمين"[2]، وهو رأي الإمام ابن عابدين الحنفي أيضا من "أن السلطان عامل للمسلمين، فلا ينعزل بموته القاضي الذي ولاه هو، أو ولاه القاضي بإذنه"[3].

فالسلطة القضائية في النظام السياسي الإسلامي، تنعم باستقلال تام تجاه الجهتين التنفيذية والتشريعية، أما ما يتعلق بأمور التعيين والعزل، فلا تعدو أن تكون إجراءات شكلية، من باب تحصيل الحاصل، تقتضيها الضرورات التنظيمية للدولة الإسلامية. ورب قائل إن اختصاصات القضاة في الحكومة الإسلامية غير محدودة بحد بيِّن يمنع أصحاب السلطة التنفيذية من الاعتداء عليها والتدخل في أمورها، كما هو حال النظر في المظالم والجرائم وتنفيذ الحدود، لكن أجيب بأن ولاية المظالم المسندة إلى نظر الولاة والتي تضطلع بهذه المهام إنما هي ولاية مستحدثة لإضعاف القضاة والخطة القضائية عموما حتى يبقى أمر تنفيذ الأحكام إلى الولاة إن رضوا نفذوا وإن لم يرضوا تركوا، وإلا فإن ولاية المظالم "في أصل وضعها داخلة في القضاء ولكن الولاة أضعفوا الخطة القضوية ليتمكنوا من ضعف الرعية، ليحتاج الناس إليهم فيقعدوا عنهم فتبقى المظالم بحالها" [4].

ثانياً : استقلال السلطة التشريعية

تعتبر سلطة التشريع في الإسلام خالصة لله وحده، وما يقوم به المجتهدون من الأمة، لا يتعدى إبانة الأحكام للناس، وتكييفها حسب النوازل والحاجات، ووضع الآليات القانونية لتطبيق شرائع الإسلام ومبادئه، وقد أصبح إجماع العلماء، بعد انصرام عهد النبوة، مصدرا متجددا لوضع القوانين، ومنبعا خصبا لصياغة الأحكام

---

(1) الذخيرة، شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت 684هـ 1285م)، تحقيق : ذ. سعيد أعراب، ط1، 1994م، دارالغرب الإسلامي، ج، 10/129.

(2) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الخطيب الشربيني، دار الفكر (بدون)، ج4/383.

(3) رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار (حاشية ابن عابدين)، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1/1415هـ 1994م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج8/77.

(4) أحكام القرآن، ابن العربي، ج 4/61.

التشريعية، وهذا أصل عظيم من أصول التشريع الذي تميزت به شريعة الإسلام، على أن الإسلام أوكل سلطة الاجتهاد في النوازل واستنباط القوانين من نصوص الشريعة إلى المجتهدين من الأمة الجامعين لشروط أهل الحل والعقد، أما الإمام وإن كان يرأس السلطة التنفيذية في الدولة الإسلامية، فهو لا يملك حق التشريع والإفتاء إلا ما كان له كغيره من المجتهدين من حق في ذلك بصفته مجتهدا ناهضا بالشروط[1].

وعليه فالسلطة التشريعية في الدولة الإسلامية مستقلة عن السلطة التنفيذية كما هو شأن القضاء، ورئيس الدولة ملزم بتنفيذ ما يجمع عليه المجتهدون أولو الأمر الذين لا يأتمرون أثناء القيام بواجبهم التشريعي بأمر أي من السلط، حافزهم الوحيد، وازعهم الديني وضميرهم الأخلاقي، ولا خطر إذا أدمجت سلطة الاجتهاد/ التشريع بسلطة التنفيذ في شخص الخليفة/ رئيس الدولة، لأنه مجرد إدماج عضوي لا وظيفي، ذلك أن الإمام لا يجتهد بصفته خليفة للمسلمين، وإنما يجري ذلك بصفته مجتهدا أهلا وحسب، كما لا يحكم إلا بصفته إماما فقط.

والملاحظ أن الإسلام وإن أقر الفصل الوظيفي بين السلط دون الفصل العضوي كما هو حال النظم السياسية المعاصرة، فإن تاريخ دولته العظيم (الخلافة) يشهد على تعاون أجهزة الحكم وتضامنها لأجل إقرار العدل وتطبيق الشرع، فالسلطة التنفيذية تنفذ قرارات مجلس الحل والعقد كجهاز تشريعي شوري، وتسهر على تطبيق أحكام القضاء، والسلطة القضائية بدورها في خدمة السلطة التنفيذية، وأولو الحل والعقد هم أهل شورى الإمام وبطانته، وبهذا يتبين تضامن السلطات واستقلالها الوظيفي في نظام الحكم الإسلامي من منظور أهل السنة، وتكاملها لما فيه خدمة العدالة وتطبيق الشرعية الإسلامية، أما عند الشيعة الإمامية ومن وافقهم فتفصيل، وهو مدار المطلب الثاني.

الفقرة الثانية : علاقة السلطات في الدولة من منظور الفكر السياسي الإمامي الاثني عشري

يميز الشيعة، عند النظر في مسألة تمركز السلطات واستقلاليتها، بين زمن ظهور الإمام المعصوم (أولاً) وبين زمن غيبته (ثانياً).

أولاً : زمن الإمامة المعصومة

يعتبر الإمامية إمامهم المعصوم امتدادا واستمرارا للنبوة في مجال التشريع إلا ما كان من أمر الوحي، فإن الإمام المعصوم لا يوحى إليه، وبناء عليه، يكون الإمام في

(1) السلطات الثلاث، الطماوي، مرجع سابق، ص 603-604.

عصر الظهور عندهم هو مركز السلطات العامة الثلاث في الدولة؛ إذ هو من له جميع علم الشريعة، وهو الامتداد والاستمرار للنبوة. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع هذه السلطات جميعا[1].

فلا مناص من تولي الإمام المعصوم في عصر الظهور كل السلطات العامة في الدولة، وتصديه لمهام التشريع، والتنفيذ، والقضاء، وفق مباني الشيعة الإمامية في نظرية الإمامة المعصومة. ولا مطمع في تقاسم السلط بين هيئات المجتمع في عصر الحضور والظهور مادام مركز السلطات موجودا، أما بالنسبة لزمن الغيبة فشيء آخر.

ثانياً : زمن الغيبة

اختلف الإمامية الإثناعشرية في أساس مشروعية تكوين الدولة الإسلامية ونصب حكومتها أثناء غيبة الإمام المعصوم إلى فريقين : فمنهم من يجعل هذا الأساس هو ولاية الفقيه العامة، ومنهم من يجعله ولاية الأمة على نفسها.

أ) نظرية ولاية الفقيه العامة :

إذا كان أساس تكوين الدولة الإسلامية هو ولاية الفقيه العامة، فإما أن يكون الدليل عليها لفظيا ـ نقليا ـ وإما أن يكون عقليا وهو وجوب حفظ النظام العام.

1. الدليل النقلي :

يستدل الذاهبون من الإمامية الإثناعشرية إلى أن دليل ولاية الفقيه لفظي، بما يروونه في كتبهم الحديثية عن أئمتهم، ومن ذلك ما جاء في أصول الكافي بسنده عن عمر بن حنظلة أنه قال : "سألت أبا عبد الله عن رجلين من أصحابنا، بينهم منازعة في دين، أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاء، أيحل ذلك؟ قال : من تحاكم إليهم في حق أو باطل، فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتا، وإن كان حقا ثابتا لأنه أخذه بحكم الطاغوت، ﴿ **وقد أمروا أن يكفروا به** ﴾[2] قلت فكيف يصنعان؟ قال: ينظران إلى من كان ممن روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكما، فإني قد جعلته عليكم حاكما"[3].

---

(1) نظام الحكم والإدارة في الإسلام، محمد مهدي شمس الدين، ط4، 1415هـ 1995م، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، لبنان، ص 476.

(2) سورة النساء، مدنية 4/من الآية 60.

(3) الأصول من الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت 329هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط 1405هـ 1985م، دار الأضواء، بيروت، لبنان، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث، رقم الحديث 10، ج1 67 -68.

فهذه الرواية النقلية عند الشيعة الإمامية، بغض النظر عن صحتها ومدى حجيتها، جاءت مطلقة وعامة في لفظها، وهو إطلاق يقتضي تنزيل الفقيه الجامع للشرائط عندهم منزلة الإمام المعصوم، الشيء الذي يجعله مرجعا للسلطات الثلاث ومركزا لها، وقد ناقش بعض الإماميين المعاصرين مدى دلالة هذه المقبولة[1] ـ الرواية ـ وغيرها على تركيز السلطات في يد الفقيه، فوجدوا أن أغلب ما تدل عليه بعد ثبوتها، هو ولاية محدودة في مجال السلطة التنفيذية، مع أنها في مجملها ظنية السند إلى حد الضعف[2].

أما بالنسبة للسلطة التشريعية، فالمسلَّمُ به عند الإماميين أنها انتهت بغيبة الإمام المعصوم، وصار تبيان الأحكام والإفتاء في النوازل وصيانة قوانين الدولة الإسلامية موكولا للمجتهدين الناهضين لذلك. وأما بالنسبة للسلطة القضائية فهي عندهم مستقلة بنفسها، منفصلة عن السلطتين الأخريين، لأن القاضي عندهم، منصوب من قبل الإمام بموجب النصب العام للقضاء في عصر الغيبة، وإلا فالنصب الخاص من قبل الفقيه (الولي)، لا يتعدى أن يكون إجراء شكليا من باب تشخيص الأمر الحاصل، اقتضته الضرورة التنظيمية للدولة[3].

والحاصل من كل ما تقدم أن للولي الفقيه أمر السلطة التنفيذية، وللقضاء السلطة القضائية، ولأهل الاجتهاد التقنين والتشريع للنوازل.

2. **الدليل العقلي :**

يذهب بعض الشيعة الإمامية، إلى أن الدليل على ولاية الفقيه مأخوذ من العقل الذي يوجب نصب الفقيه حتى يحفظ النظام العام، وعليه لا بد أن تقتصر هذه الولاية على النظر في المجال التنفيذي فقط، وأما أمر التشريع فأهله مستقلون تماما عن سلطة الولي، بل ربما كانت له شبهة تبعية لسلطتهم لما كانت ولايته على التنفيذ مقتضية ذلك، وأما السلطة القضائية، فاستقلاليتها أوضح هنا وأظهر مما هي عليه في حالة الاستدلال على شرعية الدولة بالنقل[4].

---

(1) يعبر الإمامية عن رواية عمر بن حنظلة "بمقبولة عمر" لأن شيوخهم تلقوها بالقبول واستندوا إليها في مسائل القضاء والإفتاء، رغم ما أثير من الجدل حول توثيق "عمر بن حنظلة" الذي لم يوثق في كتب التراجم على الخصوص. وعليه فهم يعتبرون اعتماد شيوخ الطائفة هذه الرواية واطمئنانهم إليها توثيقا يزيل الشك في وثاقة عمر بن حنظلة. نظرية ولاية الفقيه والإدارة الاجتماعية، د. زهير الأعرجي : بحث منشور في مجلة الحياة الطيبة، مجلة فصلية متخصصة في قضايا الفكر والاجتهاد الإسلامي، العدد 4، السنة 2، شتاء 1420هـ 2000م، إصدار معهد الرسول الأكرم للدراسات الإسلامية، إشراف المؤسسة العالمية للحوزات والمدارس، قم، إيران، ص240.

(2) نظام الحكم والإدارة في الإسلام، محمد مهدي شمس الدين، ص476 . وما بعدها.

(3) نظام الحكم والإدارة في الإسلام، مهدي شمس الدين، ص477.

(4) نظام الحكم والإدارة في الإسلام، مهدي شمس الدين، ص 482.

هذا ما يخص علاقة السلط العامة في نظرية ولاية الفقيه العامة على تقدير ثبوتها نقلا وعقلا، فما الحال بالنسبة لمن جعل أساس مشروعية نصب الحكومة أثناء غيبة الإمام هو ولاية الأمة على نفسها؟

ب) نظرية ولاية الأمة على نفسها :

إذا كان أساس مشروعية تكوين الدولة ونصب الحكومة في عصر الغيبة، هو ولاية الأمة على نفسها، حسب ما يذهب إليه بعض الإمامية المعاصرين، فإن العمل بمبدأ فصل السلطات هنا أكثر وضوحا، إذ لا وجه لتركيزها في يد واحدة أو هيئة واحدة، ما دام الداعي إلى وجود الدولة حق متعلق بالأمة كلها وهو ولايتها على نفسها [1].

وبهذا فالفكر السياسي الإسلامي عرف مبدأ استقلالية السلطات، وتضامنها، وتعاونها وتكاملها منذ وقت بعيد، حيث أصبح القضاء في الدولة الإسلامية سلطة مستقلة، يسير القاضي بموجبها على هدي النصوص، وإلا احتكم عند عدمها إلى اجتهاده وفهمه في إدراك مواضع العدالة، غير عابئ بأي أمر يأتيه من أية جهة أو سلطة كانت، وهكذا أهل الاجتهاد أو ما يعرف بالسلطة التشريعية في النظم المعاصرة، وعليه فتوزيع السلط واقتسامها بين هيئات مستقلة في الدولة ليس عملا غريبا على النظام الإسلامي، ولا ينافي فلسفته في الحكم والإدارة وإن كانت مجمل هذه "السلطات المذكورة تعمل في تعاون وتساند في إطار وحدة الهدف والقيم، ويشرف عليها رئيس الدولة أو الخليفة المختار من الأمة، وهو إن كان يجمع رئاسات السلطات، فإن مفهوم السلطة كما أسلفناه إنما يلقي عليه بتبعات تتقاسمها معه الأمة جمعاء، ولم تنشأ مؤسسات الإسلام إلا لتتعاون كل في دائرة اختصاصها ويترتب على توزيعها في دائرة التضامن تلاقيها في خدمة الهدف المشترك، لا تضاربها أو تطاحنها لانتزاع السلطة والاستئثار بها"[2].

وعليه إذا تراءى لنا مدى حداثة فكرة الفصل الوظيفي بين السلطات العامة التي يقدمها الفقه السياسي الإسلامي كتجاوز لنظيرتها المكرسة في الفكر الدستوري الغربي والقائمة أساسا في معناها ومبناها على مبدأ الفصل العضوي بين هذه السلطات كما سبق بسط ذلك، أمكننا فهم الضراوة التي تواجه بها القيم السياسية الإسلامية من طرف الباحثين والدارسين السياسيين الغربيين وإن اختلفوا بينهم فالاختلاف يبقى قاصرا في درجة العداء ليس إلا.

---

(1) نظام الحكم والإدارة في الإسلام، مهدي شمس الدين، ص482-483.

(2) المرجع في القانون الدستوري، الدكتور عبد الهادي بوطالب، ط1، 1980م، دار الكتاب، الدار البيضاء، ج، 2/252.

المحور الثاني: تجاوز قيم النظام السياسي الإسلامي للقيم السياسية الغربية

ابتدع العقل السياسي الإسلامي قيما ونظما دستورية تكفل تدبير الشأن العام السياسي من قبل الأجهزة الحكومية دون عنف أو استبداد وفي إطار من الضمانات الموثوقة المهيئة لممارسة السلطة دون تعسف، وتنبني خصوصية الحلول التي تنطوي عليها النظريات الإسلامية على هذا الصعيد أساسا على تخويل الأمة مكنة الرقابة على سير عمل السلطة قبل وبعد تولي الأجهزة الحكومية مهامها.

وقد كان لخصوصية الرقابة الشعبية التي تخولها قيم الفقه السياسي الإسلامي لفائدة الأمة أثره البليغ في استعارة العداء المغرض لكثير من الجهات الثقافية المرتبطة بدوائر القرار السياسي في الغرب (الفرع الأول) زاد من حدته تجاوز المنهج الدستوري الإسلامي في ضبط العلاقة ما بين الديني والزمني للحلول الغربية القائمة على مبدأ العلمنة في اتجاه إقرار تصالح تاريخي ما بين مكوني الإنسان الروحي والمادي وذلك باعتماد قاعدة شمول وظيفة رئيس الدولة للديني والسياسي(الفرع الثاني)، وهذا ما لا يرضي الجهات الثقافية الغربية التي تضطلع بدور محوري في بلورة المتخيل الغربي عن النظم السياسية الإسلامية وحجب المعرفة الحقيقية بقيمها النبيلة، حيث تروج لموقف سلبي عنها لا يفتر عن تنميطها والتخويف منها وتشويه حقائقها كسياسة عرقية تؤمن بمركزية الحضارة الغربية وعالمية نموذجها وفردانيته؛ لذلك حسبنا هنا توضيح حقيقة الحلول التي أجاد الفكر السياسي الإسلامي في بلورتها على هذا الصعيد كشفا لزيف الكليشيهات التي تروج في أوساط المغرضين.

الفرع الأول : خصوصية الرقابة على شرعية عمل الحكام في الفقه السياسي الإسلامي

بإمعان النظر في النظم السياسية الغربية يتبين أنها تقوم في كليتها على دعامتين أساسيتين هما مبدأي **الشرعية وسيادة الشعب أو الأمة**. المعتبرين في الفكر السياسي الغربي المصل المضاد للاستبداد والتدلي للقهر.

وإذا تركنا مبدأ سيادة الشعب أو الأمة جانبا لعدم تعلق موضوعنا به بصفة مباشرة وجب التنبيه إلى أن الشرعية كدعامة أساسية للدولة الحديثة سبق ونبه إليها الفيلسوف الفرنسي "مونتيسكيو" في مؤلفه "روح الشرائع" يكون الاعتبار فيها لتقيد السلطة بقانون قائم مسبقا دون النظر لعدد القائمين عليها، وهي تقع أساسا في مجال

الفلسفة السياسية (الإيديولوجيا)، خلافا لمبدأ المشروعية الذي يعني في الحقل الدستوري الغربي الحديث قيام السلطة من ناحية وقيام نظام قانوني من ناحية أخرى، ثم التزام الأولى بهذا النظام القانوني في كل ممارساتها السلطوية، وهي بهذا توجد ضمن مجال اشتغال النظرية القانونية للدولة، وبمعنى أدق تدور الشرعية حول مدى صلاحية السند الذي يرتكز عليه النظام القانوني للدولة عموما، وليس من المتصور أن تكون قضاياها من شأن ذلك النظام بل يحتكم في شأنها إلى الفلسفة السابقة عن النظام القانوني للدولة الذي هيأت هذه الفلسفة لبلورته وشكلت منطلقه الإيديولوجي[1].

وقد أخذت النظم السياسية المعاصرة تتفنن في ابتكار الوسائل القانونية، والطرق المسطرية لمراقبة سير العمل الحكومي وتصرفات الرؤساء، وتاهت هذه الإجراءات بين اعتماد الرقابة القضائية، أو السياسية، أو الشعبية حسب طبيعة هذه النظم وتوجهها الفكري، وأيا ما كان أمر هذه الرقابات وشكلها فهي كلها تقع داخل النظام القانوني للدولة وتتحرك في نطاقه ويبقى من المتعذر جدا عليها أن تراقب شرعيته.

وهكذا يبقى مبدأ الشرعية بمدلوله الغربي المار بنا عاجزا عن تقديم حل فعال للإشكالية السياسية المعاصرة بالنظر لعجزه عن تقديم ضمانات معقولة لمشكلة تدلي الدولة بنظامها القانوني في كليته للظلم والجور ما دامت تستطيع تعديل وتغيير هذا النظام القانوني متى شاءت وكيفما شاءت، وهنا بالضبط ينبعث المنظور الإسلامي الذي يقترح ولأول مرة في تاريخ النظم السياسية مبدأ الشرعية بأبعاد وحدود جديدة تخول "المواطن" المسلم حقا شرعيا في مقاومة حكام الجور وعدم طاعتهم دون قصر هذا الحق على أجهزة السلطة فتكون خصما وحكما كما في النظم الغربية.

ومما يسجل بحق هنا، سبق الشريعة الإسلامية عامة وفقهها الدستوري خاصة، إلى تقرير مبدأ تقييد سلطة الحاكم من خلال جعل علاقته بالأمة علاقة توكيل، توليه إن تأهل، وتعزله إن تغير حاله.

الفقرة الأولى : حق الأمة في تولية الحاكم

من المعلوم أن الأمة في الدولة الإسلامية هي صاحبة السيادة العملية ومصدرها الأصيل، وإليها أمر إقامة الدين وتنصيب الحكومة مباشرة أو عن طريق نوابها من أهل الاختيار، ومعلوم أن اختيار الأمة للحاكمين يولد لها حقا أساسيا في تقييد سلطتهم بما تراه ضروريا لضمان مصالحها وحفظ حقوقها في المراقبة

(1) د.محمد طه بدوي، مرجع سابق، ص110.

والمحاسبة[1]، وهكذا فسلطة الحكام في النظام الإسلامي غير مطلقة، فهي مقيدة بالشريعة من جهة، وملزمة برعاية مصالح الأمة صاحبة الحق في التولية من جهة أخرى، على أن جعل نصب الحكام في يد الجماعة الإسلامية، صيانة كبرى للمناصب الدينية من العبث، وحفظ أسمى لمصالح المسلمين من الضياع، وضمانة مهمة لانتساب هذه المسؤوليات إلى الأكفاء من أهلها والأمناء من مستحقيها.

وهذا الإشراف من الأمة على تنصيب الحكام يجعل تصرفاتهم أمامها مسؤولة، ويفرض عليهم تنفيذ أوامرها، إذ هم وكلاؤها الذين استخلفتهم على رعاية مصالحها، وما على المستخلف الوكيل إلا الائتمار بأوامر من وكله وائتمنه والله يقول : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾[2]؛ ولهذا، فإنه تشترط في الخليفة عدة شروط أساسية توسَّع الفقهاء في بحثها حتى تفضي مراعاتها إلى تنصيب الشخص المناسب، الكامل، العادل، النزيه الذي من شأنه أن تحمد سيرته، وتقبل سياسته، على أنه تجب ملاحظة أساسية هنا وهي أن اشتراط توفر الإمام على صفات مثالية في دينه وذاته وأخلاقه لا يعفي من تقرير مسؤوليته، وتنظيم سبل الرقابة على عمله، ومحاسبته على تصرفاته؛ إذ كماله في الشرائط لا يكفي لرفعه إلى درجة العصمة، وتحصينه من المساءلة.

وإذا كان في العصر الحاضر، يستحيل توفر شروط الولاية كما حددها الفقهاء، فإنه حري ألا يوضع المسؤولون فوق المحاسبة، أو يعفوا من المسؤولية، وقد أعطى الخلفاء الراشدون المثل الأعلى في تقرير المسؤولية، رغم كمالهم في الشروط، وتمامهم في العفة والدين. فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطب غداة توليه: "أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"[3]، فأي تقرير لمبدأ مسؤولية الحاكم أمام الأمة أكثر من هذا، والرسول الكريم يقول في الحديث الصحيح: "الإمام راع ومسؤول عن رعيته"[4].

---

(1) فقه الشورى والاستشارة، توفيق الشاوي، ص 468. النظام السياسي في الإسلام، عزت الخياط، ص79-80.

(2) سورة النساء مدنية 4، جزء من الآية : 58.

(3) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (بدون تاريخ)، ص 52-53.

(4) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، 11، باب الجمعة في القرى والمدن، 11، جزء من الحديث رقم 893، ج 267/1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، 33، باب فضيلة الإمام العادل، 5، جزء من الحديث 1829، ج 1495/3، عن عبد الله بن عمر.

الفقرة الثانية : حق الأمة في عصيان قرارات الحكام

يستمد الحاكم في نظام الحكم الإسلامي، سلطانه من حقه على الأمة في الطاعة والنصرة، إذ "لا خلاف في وجوب طاعة أمراء المسلمين على الجملة"[1]، إلا أن واجب الطاعة هذا، مشروط بعدم الأمر بالمعصية، فإذا أمر الحاكم أو أقدم على تشريعات وقوانين تخالف مبادئ الشريعة الإسلامية، ولم تفد معه وسائل جهاد الكلمة من نصح ووعظ ونقد وتوجيه، سقط على الأمة حقه عليها في الطاعة، وصار بإمكانها عدم إعانته على تنفيذ أحكامه؛ إذ من الواجب على المسلمين عدم الإطاعة في المعاصي بنص قول النبي صلى الله عليه وسلم : "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"[2] وقوله في الحديث الآخر : "لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف"[3] ومقتضى الحديثين الشريفين، وجوب الامتناع على كل المسلمين ـ أفرادا وجماعات وهيئات على اختلاف الصنوف ـ عن طاعة أوامر الرؤساء وحكوماتهم فيما يصدرونه من أحكام وقرارات مخالفة لنصوص الشريعة وأحكامها، كما يفرضان على كافة الأجهزة الحكومية التي تعينهم عدم تنفيذ كل ما خالف الحق من ذلك.

ويترتب على عصيان الأمة أوامر الحكومة المخالفة لمبادئ الشريعة وامتناعها من تنفيذها، سقوط تلكم القوانين، وربما أدى ذلك إلى إقالة الحكومة ورئيسها وفقدانهم سلطاتهم الشرعية المتمثلة في حقي الطاعة والنصرة[4]، ويمكن اعتبار خطوة العصيان التي قررتها الشريعة الإسلامية مقدمة أولى ضرورية لإسقاط الحكومات التي تنتهك الشرعية الإسلامية ومبادئها، وهي بمثابة رفض سلمي لتوجهات السلطة والقائمين عليها تسبق عادة العمل المسلح ضد حكام الجور. وإذا ثبت هذا الذي نحن بصدده أمكننا فهم الهذيان الذي حكاه الإنجليزي أرنولد في خرافته عن أن النظرية السياسية للخلافة تبدو بصيغتها المعلنة في أن أي سلطة على الأرض هي إلهية وما على الرعية سوى الطاعة بغض النظر أكان الحاكم عادلا أم جائرا[5].

---

(1) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد القرطبي (ت 656هـ)، تحقيق : محيي الدين ديب متو وغيره، ط1417/1هـ 1996م، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، بيروت، دمشق، ج 36/4.

(2) صحيح مسلم، كتاب الإمارة 33، باب وجوب طاعة الأمراء،8، رقم الحديث 1839، ج1469/3، عن عبد الله بن عمر.

(3) صحيح مسلم، كتاب الإمارة 33، باب وجوب طاعة الأمراء، 8، رقم الحديث 1840، ج 1469/3، عن علي رضى.

(4) رقابة الأمة على الحكام، علي محمد حسنين، ص 553.

(5) Arnold, The Caliphat, P,49.

إن الهدف النهائي للدولة الإسلامية بكل مؤسساتها يتجلى حصرا في إقامة مجتمع إسلامي تحددت معالمه ومرتكزاته مسبقا في النظام القانوني لهذه الدولة أي في الكتاب والسنة، بمعنى أن شرعية السلطة في الدولة الإسلامية تبقى رهينة في قيامها واستمرارها بمدى التزامها بالعمل وفق قيم النظام القانوني الإسلامي دون أي تمييز بين أحكامه المنظمة لسلوك الفرد كحاكم ومواطن وبين تلك القيم والأهداف العليا المسطرة في الكتاب والسنة، وبهذا يتبين المفهوم الواسع الذي يعطيه الفقه الدستوري الإسلامي للشرعية بحيث تصير جامعة لضرورة مراعاة السلطة في الدولة لأحكام النظام القانوني الإسلامي وللقيم والمثل العليا للمجتمع الإسلامي بما يجعل الشرعية في الحقل الإسلامي شاملة للشرعية والمشروعية بمدلولاتها لدى الغربيين[1].

والعصيان كشكل من أشكال الرقابة الشعبية على عمل الحكام الذي سبق الفقه الدستوري الإسلامي إلى إقرار شرعيته ولم تتجرأ النظم المعاصرة على اقتفائه مؤداه ربط الالتزام بطاعة القائمين على السلطة بالتزامهم التبادلي باحترام أحكام الشرع، وهذا ما يؤدي في آخر المطاف إلى تمييز السلطة عن أشخاص القائمين عليها لإخضاع ممارستها لدستور مسبق هو الكتاب والسنة وهذا عين مفهوم الدولة الشرعية دولة القانون بمفهومها عند الغربيين، وهو أحد مظاهر الحداثة الدستورية في النظرية السياسية الإسلامية التي أعلن الغرب النفير للتصدي لها لما علم تجاوز قيمها لمبادئه المبتسرة.

الفقرة الثالثة : حق الأمة في سحب الثقة وإنهاء الخلافة

إن الحاكم الذي لا يقوم بمهمته في الحدود المقررة له، ليس له أن ينتظر من الأمة سمعا ولا طاعة، فإذا لم تجد معه وسائل التوجيه السابقة من نصح ووعظ وتوجيه، وأصر على المخالفة المستمرة لقوانين الشريعة، فإن عليه أن يتنحى عن مركزه لمن هو أصلح منه، وإلا صار للأمة حق سحب ثقتها به وإنهاء ولايته.

وقد سبقت النظرية السياسية الإسلامية كل النظريات الوضعية في تقييد سلطة الحكام وجعلها بيد الأمة في وقت كانت فيه سلطة الحاكمين على المحكومين مطلقة بين قيصرية رومية، أو كسروية فارسية، وأول قانون وضعي اعترف بسلطان الأمة على الحكام ـ بعد الشريعة الإسلامية ـ هو القانون الإنجليزي وكان ذلك في القرن السابع

(1) د. محمد طه بدوي، مرجع سابق، ص 125-126.

عشر أي بعد أن قررت الشريعة الإسلامية نظريتها بأحد عشر قرنا، ثم تلتها بعد ذلك الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر[1].

ويثبت للأمة حق إنهاء الولاية وتنحية الحاكم عن قيادة الدولة في حالتين:

الأولى عند فسق الإمام الحاكم دون كفره، فإذا تغيرت سيرة الحاكم الإسلامي وسقطت عدالته بتعاطي المعاصي والخروج عن أحكام الشريعة، فإن جمهور فقهاء السياسة الشرعية الإسلاميين يرون أن ولايته تنفسخ، ويخلع من مركزه بهذا الفسق الظاهر المعلوم، إذ هو إنما نصب لإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وحفظ النظام، وتطبيق الشرعية الإسلامية بما تتضمنه من الحفاظ على سيادة الشريعة وتطبيقها والفسق يقعده عن كل ذلك[2]، فيما ذهب بعض أهل العلم إلى أن الفاسق لا ينخلع إلا بالكفر أو مخالفة ضروري من الدين لغلبة الفسوق على الولاة، وإلا تعطلت الأحكام وضاع أمر تنصيب الحكومات[3].

والحالة الأخرى عند كفر الإمام، حيث تقرر في النظرية السياسية الإسلامية أنه إذا تغير حال الإمام بأن كفر، أو ترك إقامة الصلاة والدعاء إليها، أو غير أصلا من أصول الشرع كالصيام وغيره فلا خلاف أنه يجب على المسلمين عزله[4]؛ إذ لا يعقل أن يقود دولة إسلامية من لا يؤمن بمبادئها أو لا يعمل على تطبيق هذه المبادئ، كما لا يعقل أن يقود نظاما اشتراكيا رجل رأسمالي وبالمقابل لا يتصور وجود شيوعي في رأس هرم السلطة في بلاد رأسمالية.

لكن إذا لم يمتثل الحاكم الطاغية للعزل، وأصر واستكبر وتمسك بالسلطة، فهل يحق العصيان لأوامره والخروج عليه ومقاتلته حتى ينزاح عن الحكم؟ وجد بصدد الجواب عن هذا السؤال ثلاثة مذاهب كما يلي :

---

(1) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، ط1418/14هـ 1997م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ج 45/1-46.

(2) صحيح مسلم بشرح إكمال المعلم، أبو عبد الله محمد بن خلفة الوشتاني الأبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (بدون)، مج 180/5-181. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، ط1417/5هـ 1996م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج271/1. شرح العقائد النسفية، مطبوع بهامش كتاب العقائد النسفية لأبي حفص عمر بن محمد النسفي، شرح العلامة مسعود ابن عمر بن سعد التفتزاني (ت 793هـ)، أعادت طبعه بالأوفست، مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب (بدون تاريخ)، ص 185-186. نفسها.

(3) نفسها.

(4) صحيح مسلم بشرح الأبي، ج180/5.

❖ **مذهب الصبر** : حيث يرى أكثر أهل الحديث والمتأخرون من فقهاء أهل السنة والجماعة، أن الصبر على طاعة الإمام الطاغية أولى من الخروج عليه، لما في الثورة المسلحة والاقتتال من إراقة الدماء وإشاعة الفساد[1]، يقول الإمام الشوكاني بهذا الصدد : "ولا يجوز لهم أيضاً الخروج عليه ومحاكمته إلى السيف، فإن الأحاديث المتواترة قد دلت على ذلك دلالة أوضح من شمس النهار"[2]، وفي رواية عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال : "عليكم بالنكرة بقلوبكم ولا تخلعوا يدا من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين"[3].

فهؤلاء الأئمة وغيرهم كانوا ممن لا يرضون مذهب سل السيف ومقاتلة الطغاة تقديرا لمصلحة الأمة في الوحدة وتجنب إراقة الدماء وعملا بقاعدة (درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة)، فهم وإن فوتوا مصلحة الخروج لإقرار الوضع الشرعي فإنما راموا ذلك لدرء مفاسد جمة تترتب عن هذه المصلحة أعظمها إراقة الدم.

❖ **مذهب جواز الخروج** : حيث قال بعض العلماء إن الثورة على حكام الجور والطغيان، والخروج عليهم أمر جائز دونما وجوب متى ضلوا وكفروا[4]، وبهذا الرأي يصحح أصحاب هذا المذهب القعود والصبر، كما يصححون مذهب الخروج اقتداء بالصحابة الذين منهم من امتنع وقعد، ومنهم من شهر السيف وقام.

❖ **مذهب الخروج والثورة** : حيث ارتأى بعض أهل العلم أن الخروج على سلاطين الجور واجب لعموم قوله تعالى : ﴿ **لا ينال عهدي الظالمين** ﴾[5]، ولأن الخروج عليه من باب دفع المنكر والإنكار باليد من مراتبه، ولأن إضاعة الصلاة ورؤية الكفر توجب الجهاد، وجهاد الخارجين عن الدين لا يلاحظ فيه زيادة مفسدة قتالهم على مفسدة كفرهم؛ إذ لا يلاحظ ذلك في حرب الكفار اتفاقا[6].

---

(1) صحيح مسلم بشرح الأبي، ج 180/5.

(2) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، محمد بن علي الشوكاني (ت 1173هـ 1250م)، تحقيق : محمود إبراهيم زايد، ط1، 1405هـ 1985م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 509/4.

(3) الأحكام السلطانية، القاضي أبو يعلى الفراء (ت 458هـ)، تحقيق محمد حامد الفقي، ط 1403هـ 1983م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص21.

(4) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، أبو المعالي الجويني (419هـ 478هـ)، تحقيق د. محمد يوسف موسى والأستاذ علي عبد المنعم عبد الحميد، ط1369هـ 1950م، مطبعة السعادة، نشر مكتبة الخانجي، مصر، ص425-426.

(5) سورة البقرة 2 / من الآية 124.

(6) الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير، شرف الدين الحسين بن أحمد السياغي الحيمي الصنعاني، ومعه التتمة للتقي العباس الصنعاني، دار الجيل، بيروت، لبنان (بدون تاريخ)، ج8/4. مسلم بشرح الأبي، مج 180/5.

يستفاد من عرض هذه المذاهب الثلاثة أن مسألة سحب الأمة ثقتها من الحاكمين وإنهاء ولايتهم هي بيد الأمة، تقدر عواقبها، وتخضعها للدراسة والتمعن، فتقدم على إحدى الخطوات السابقة، فإما تصبر على ظلم الطغاة إذا اشتدت وطأتهم أو تقوم بخلعهم إذا رجح ذلك، والحاصل من هذا كله، أن الشريعة الإسلامية هيأت كل الظروف لقيام مجتمع الفضيلة والرحمة والشورى، وأعطت كل الضمانات الضرورية لتحقيق الحكم العادل، وافترضت من وسائل الرقابة والقيود على سلطة الحكام، ما لم تهتد إليه الأنظمة الوضعية إلا مؤخرا، على أن النظرية الإسلامية في السياسة والحكم توجد المحيط الصالح وتهيئ الظروف المناسبة للأمة حتى تتمكن من أداء واجب الاستخلاف الذي أوكلها الله إياه.

إن النظام القانوني الإسلامي ينطوي في ذاته على أكبر ضمانة للشرعية متمثلة في واجب الثورة على الحكام المخالفين للمشروعية الإسلامية في الوقت الذي ترفض فيه النظم النيابية المعاصرة الاعتراف بهذا الحق لمواطنيها وترى الثورة على جور سلطة الدولة عملا هادما، لذلك لا عجب إذا راح رائد الفكر الديمقراطي في عصر الأنوار الأوروبي جون جاك روسو ـ بعد أن استفاد آراءه السياسية من النظم الإسلامية واستوحى فكرة التعاقد الاجتماعي من عقد البيعة الإسلامي وإن لم يشر إلى ذلك صراحة ـ يعترف بحداثة الفلسفة السياسية الإسلامية وعظمة البناء السياسي الإسلامي حين قال: "والشريعة الإسلامية التي حكمت نصف العالم مدى عشرة قرون ما برحت حتى اليوم تعلن عن عظمة أولئك الذين وضعوها، وقد لا يرى فيهم أولئك الذين أعمتهم الكبرياء الناجمة عن الفلسفة أو روح التحيز العمياء، سوى دجالين حسني الحظ، ولكن السياسة الحسنة تعجب في أنظمتهم بتلك العبقرية العظيمة القادرة التي تتصدر المنشآت الخالدة"[1].

الفرع الثاني : **شمول وظيفة رئيس الدولة للديني والسياسي**

جسدت النظريات السياسية الإسلامية الحل المعتبر للعلاقة بين الديني والزمني حين فرضت على رئيس الدولة الاضطلاع بالمهام الدينية إلى جانب التصدي للوظائف الدنيوية، وهذا بعينه هو تحقيق ركن الخلافة الصحيحة وهو تحد آخر يواجه مبادئ العلمانية الراسخة في الغرب والمعدودة من مقدسات العقل السياسي الغربي.

(1) العقد الاجتماعي، جان جاك روسو وغيره، ترجمة: عبد الكريم أحمد، مراجعة توفيق إسكندر، دار سعد، مصر (بدون)، ص 125.

وإذا كنا نقدر للمستشرق الإنجليزي رأيه في أن النظرية السياسية للخلافة تنبني على أساس كون سلطتها إلهية المصدر[1] بناء على بعض ما يذهب إليه عدد من رجال الفقه الدستوري الإسلامي في هذا الصدد ونظرا لكون نظم الحكم التي تعاقبت على حكم البلاد الإسلامية عبر التاريخ المديد لم تتجرأ على إقصاء أحكام الشريعة الإسلامية، بل كان الأمراء والسلاطين يلتزمون أمام الأمة بتطبيق الشريعة الإسلامية وتحقيق العدل والمساواة عند بيعتهم أو توليهم الحكم أسوة باضطلاعهم بأمور الحكم الدنيوية، وهو ما يتجلى بوضوح في نصوص خطبهم[2] على المنابر بعد توليهم السلطة حيث يبرز بوضوح التزامهم بهذا المبدأ، وهو أعظم فائدة كانت تحققها الحكومات وإن كانت غير كاملة للشريعة الإسلامية.

(1) Arnold, The Caliphat, P,49.

(2) درج الخلفاء والحكام والسلاطين على الالتزام بتطبيق العدل وأحكام الشريعة الإسلامية وذلك في الخطب التي كانوا يلقونها عقب توليهم الحكم سواء بالبيعة أو العهد أو غيره، وهذا اقتداء أصيل بصنيع الخلفاء الراشدين على هذا الصعيد، فقد خطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه على المنبر بعد أن بايعه الناس بيعة عامة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى، لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله". (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط6، 1415هـ 1995م، دار صادر، بيروت، لبنان، ج 332/2)، ففي هذه الخطبة المنبرية في المسجد الجامع، يعلن الخليفة الراشد أبو بكر الصديق التزامه تطبيق الشريعة الإسلامية وإعمالها قانونا للدولة الإسلامية، يتجلى ذلك واضحا في قوله "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"، ومثل هذه الالتزامات المنبرية أشبه ما يكون بإعلان للنوايا والمبادئ، بل وتقوم في ذلك العصر مقام اليمين الدستورية التي تعارفتها النظم المعاصرة. وأيضا لما بويع الإمام علي بن أبي طالب بالخلافة على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد، والعزيز والذليل، خطب الناس قائلا : "إن الله أنزل كتابا هاديا يبين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض الفرائض، أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حرمات غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم وإن ما من خلفكم الساعة تحدوكم، تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم، اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده. إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله فلا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ سورة الأنفال 26/8. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ج 193/3 وما بعدها) فهنا يخبر الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خطبته هاته وهي أول خطبة بعد توليه إمارة المؤمنين أن كتاب الله هو دستور الأمة المسلمة الواجب الاتباع في أوامره ونواهيه وحدوده، وهذا التزام صريح بأنه المنهاج الواجب اتباعه في سياسة الأمة. بل إن السلاطين والخلفاء حتى في عهد الخلافة الناقصة، كانوا يلتزمون بتطبيق الشريعة الإسلامية ويحققون ميزة إقامة شرع الله، يتجلى ذلك بوضوح في خطبهم بعد تقلد الولاية، فهذا أبو العباس وعمه داود بن علي من مؤسسي الدولة العباسية يؤكدون على ذلك ويلتزمون بالحكم وفق كتاب الله وسيرة نبيه فلما بويع أبو العباس مؤسس الدولة العباسية واستقام له الأمر، خطب الناس وصلى بهم الجمعة ثم صعد المنبر وخطب الناس طويلا، وكان موعوكا، فقام عمه داود بن علي الذي كان دونه في المنبر وقال من جملة كلام طويل : "أيها الناس إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا، ولا نحفر نهرا، ولا نبني قصرا، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرهنا من أموركم، فلقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية، واستنزالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذمة العباس رحمه الله، علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم". (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ج414/5).

الخاتمة :

لأجل كل ما مر معنا من قيم متجددة تسم النظريات السياسية الإسلامية يبدو أن الموقف العرقي الغربي بالتخويف منها مفهوم في سياقه ما دامت هذه النظريات السياسية تتجاوز قيمه، ولا إشكال بعد ذلك إذا وجدنا هذا الغرب نفسه يعادي حركات العمل السياسي الإسلامي ولو التزمت القواعد الموصوفة بالديمقراطية في المنافسة السياسية مع خصومها وهذا حديث آخر بطبيعة الحال.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

قائمة المصادر والمراجع

حسب ترتيب ورودها في المداخلة

- **القرآن الكريم** برواية ورش عن نافع.

- **أحكام القرآن**، ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت (بدون).

- **النظام السياسي في الإسلام ـ النظرية السياسية :** نظام الحكم، عبد العزيز عزت الخياط، ط1، 1420 هـ 1999م، دار السلام، القاهرة، مصر.

- **فقه الشورى والاستشارة :** د. توفيق الشاوي، ط2، 1413هـ/ 1992م، دار الوفاء، المنصورة، مصر.

- **بحث في النظام السياسي الإسلامي :** محمد طه بدوي، ردا على المستشرق الإنجليزي "أرنولد"، منشور ضمن كتاب "مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية"، ط 1405هـ1985م، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج، ج2، ص 123-124.

Sir Tomas W. Arnold, The Caliphat, London, Routledge, Kenga N Paul, L,T,D, 1967

- **منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم :** د. يحيى إسماعيل، ط1، 1406هـ .1986م، دارالوفاء، مصر.

- **المؤسسات السياسية والقانون الدستوري : الأنظمة السياسية الكبرى**، موريس ديفرجيه، ترجمة : د. جورج سعد، ط1، 1412هـ1992م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

- **رقابة الأمة على الحكام، دراسة مقارنة بين الشريعة ونظم الحكم الوضعية :** د. علي محمد حسنين، ط1، 1408هـ 1988م، المكتب الإسلامي بيروت، لبنان/مكتبة الخاني الرياض.

- **نظرية الدولة والمبادئ العامة للأنظمة السياسية ونظم الحكم : دراسة مقادنه**، د. طعيمة الجرف، مكتبة القاهرة الحديثة، مصر (بدون).

- **العقد الاجتماعي :** جان جاك روسو وغيره، ترجمة : عبد الكريم أحمد، (مراجعة: توفيق إسكندر، دار سعد، مصر بدون).

- **النظم السياسية والقانون الدستوري :** عبد الغني بسيوني عبد الله، ط، 1992م، الدارالجامعية، بيروت، لبنان.

- **الوسيط في القانون الدستوري العام :** د. أدمون رباط، ط1، 1964م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

- **النظم السياسية :** د. محمد كامل ليلة، ط، 1960م - 1961م، مطبعة نهضة مصر، القاهرة.

- **السلطات الثلاث في الدساتير العربية وفي الفكر الإسلامي :** سليمان محمد الطماوي، ط3، 1974م، دار الفكر العربي.

- **الفقه الإسلامي وأدلته :** وهبة الزحيلي، ط3، 1409هـ 1989م، دار الفكر.

- **تقرير الشربيني على حاشية بناني على شرح المحلى على متن جمع الجوامع:** لابن السبكي، دار إحياء الكتب العربية، مصر (بدون).

- **المسند :** أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ودار صادر، بيروت، لبنان (بدون).

- **نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور :** أبو الأعلى المودودي، ط، 1405هـ 1985م، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

- **فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية :** عبد الرزاق أحمد السنهوري، ترجمة: دة. نادية عبد الرزاق السنهوري والدكتور توفيق الشاوي، ط، 1989م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- **عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة :** نجم الدين بن شاس، تحقيق : محمد أبوالأجفان وعبد الحفيظ منصور، مراجعة: محمد الحبيب بن الخوجة والدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، ط1، 1415هـ 1995م، دار الغرب الإسلامي.

- **جامع الأمهات :** ابن الحاجب، تحقيق أبي عبد الرحمن الأخضر الأخضري، ط2،1421 هـ 2000م، دار اليمامة، دمشق - بيروت.

- **الذخيرة :** شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت 684هـ 1285م)، تحقيق : ذ. سعيد أعراب، ط1، 1994م، دار الغرب الإسلامي.

- **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج :** الخطيب الشربيني، دار الفكر (بدون).

- **رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار (حاشية ابن عابدين) :** تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1 ، 1415هـ 1994م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- **نظام الحكم والإدارة في الإسلام :** محمد مهدي شمس الدين، ط4، 1415هـ 1995م، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، لبنان.

- **الأصول من الكافي :** أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت 329هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط، 1405هـ 1985م، دار الأضواء، بيروت، لبنان.

- **المرجع في القانون الدستوري :** الدكتور عبد الهادي بوطالب، ط1، 1980م، دارالكتاب، الدار البيضاء.

- **نظرية ولاية الفقيه والإدارة الاجتماعية :** د. زهير الأعرجي: بحث منشور في مجلة الحياة الطيبة، مجلة فصلية متخصصة في قضايا الفكر والاجتهاد الإسلامي، العدد 4، السنة 2، شتاء 1420هـ 2000م، إصدار معهد الرسول الأكرم للدراسات الإسلامية، إشراف المؤسسة العالمية للحوزات والمدارس، قم، إيران، ص240.

- **تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي :** (ت 911هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (بدون تاريخ).

- **صحيح البخاري وهو الجامع الصحيح :** أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق : مصطفى ديب البغا، ط5، 1414هـ 1993م، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع.

- **صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري أبو الحسين :** تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ط2، 1398هـ 1978م، دار الفكر، بيروت، لبنان.

- **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم:** أبو العباس أحمد القرطبي (ت 656هـ)، تحقيق: محيي الدين ديب متو وغيره، ط1، 1417هـ 1996م، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، بيروت، دمشق.

- **التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي :** عبد القادر عودة، ط 14، 1418هـ 1997م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

- **صحيح مسلم بشرح إكمال المعلم :** أبو عبد الله محمد بن خلفة الوشتاني الأبي، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان (بدون).

- **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) :** أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، ط5، 1417هـ 1996م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- **حاشية مصلح الدين الكستلي على شرح العقائد النسفية للتفتزاني :** مطبوع بهامش كتاب العقائد النسفية لأبي حفص عمر بن محمد النسفي، شرح العلامة مسعود بن عمر بن سعد التفتزاني (ت 793هـ)، أعادت طبعه بالأوفست، مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب (بدون تاريخ).

- **السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار :** محمد بن علي الشوكاني (ت 1173هـ 1250م)، تحقيق : محمود إبراهيم زايد، ط1، 1405هـ 1985م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- **الأحكام السلطانية:** القاضي أبو يعلى الفراء (ت 458 هـ)، تحقيق محمد حامد الفقي، ط، 1403هـ 1983م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد:** أبو المعالي الجويني (419هـ 478هـ)، تحقيق د. محمد يوسف موسى والأستاذ علي عبد المنعم عبد الحميد، ط،1369هـ 1950م، مطبعة السعادة، نشر مكتبة الخانجي، مصر.

- **الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير :** شرف الدين الحسين بن أحمد السياغي الحيمي الصنعاني، ومعه التتمة للتقي العباس الصنعاني، دار الجيل، بيروت، لبنان (بدون تاريخ).

- **العقد الاجتماعي، جان جاك روسو وغيره :** ترجمة: عبد الكريم أحمد، مراجعة توفيق إسكندر، دار سعد، مصر (بدون).

- **الكامل في التاريخ :** عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، ط6، 1415هـ 1995م، دار صادر، بيروت، لبنان.

عداء الغرب للإسلام : الأسباب وسبل العلاج

الدكتور مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي(*)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد :

فإن العلاقة بين العالمين الإسلامي والغربي علاقة شائكة ومليئة بإرث كبير من الكراهية والشك والريبة والخلاف الديني الذي استوجب فيما مضى الصدام والصراع الطويل.

وقد أضيفت إلى ذلك ـ اليوم ـ مستجدات حديثة تتعلق بالمصالح والنفوذ والهيمنة والنفط والإرهاب وغيرها، مما حدا بكثير من الباحثين إلى القول بأنه ليس هناك سطح للفهم المشترك بين هذين العالمين.

ولكننا مع تسليمنا بأن أية علاقة بين طرفين معرضة للعقبات والعثرات، نعتقد جازمين بأن هذه العلاقة كأي فعل إنساني حياتي لابد لها من النمو والاتساع، حتى وإن كانت مساحات الاختلاف واسعة. كما نعتقد بأننا بحاجة ماسة إلى منظور جديد نؤسس عليه نسقاً معرفياً لعلاقات مستقبلية إيجابية بين العالم الإسلامي والغرب، اعتماداً على قاعدة الشراكة الحضارية بما يخدم الإنسان والحضارة في هذا العالم.

ولكن تحديد هذا المنظور وبيان معالمه يحتاج إلى سلسلة من الدراسات العلمية المعمقة من قِبل الأساتذة والباحثين المختصين، سيما وأن العلاقة بين الإسلام والغرب تُعد قضية حساسة ومعقدة تعقيداً شديداً، حيث يتداخل فيها ما هو ديني وتاريخي وسياسي واقتصادي واجتماعي، وبصورة شائكة ومتراكمة، بعد أن ظلت لقرون طويلة من الزمان مسكونة ـ كما تقدم ـ بالتوجس والصِدام، وذلك منذ أول احتكاك حصل في

(*) أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض.

تاريخ هذه العلاقة التي يُؤرخ لها بالرسائل التي بعثها نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة وإلى هرقل الروم ومقوقس مصر وغيرهم يدعوهم فيها إلى الإسلام رسالة سماوية ناسخة لما قبلها وخاتمة للديانات الإلهية.

وهذا البحث إنما هو إسهام متواضع مني لتشخيص علاقة الغرب المعاصر بالإسلام وأهله، من حيث بيان أبرز أسباب عداء الغرب للإسلام، ثم الاجتهاد في تحديد أهم سبل علاج هذا العداء.

خطة البحث:

يتكون البحث من : مقدمة، وفصلين، وخاتمة.

تشتمل المقدمة على : بيان أهمية موضوع البحث، وخطته.

ويبحث الفصل الأول : في أسباب عداء الغرب للإسلام

ويبحث الفصل الثاني : في سبل علاج عداء الغرب للإسلام.

وأما الخاتمة : فتشتمل على أبرز نتائج البحث العلمية والمقترحات والتوصيات.

أسأل الله عز وجل الرشد والتوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الفصل الأول
أسباب عداء الغرب للإسلام

هناك عوامل فكرية ثقافية عديدة تمثل أسباباً قوية لعداء الغرب للإسلام والمسلمين.

وهذه العوامل أدت مع غيرها من العوامل إلى القطيعة بين الجانبين الغربي والإسلامي، بل وإلى الصراع والعنف بينهما أحياناً والصدام والمواجهة المسلحة.

ولعل أبرز هذه العوامل تتمثل في ما يلي :

أولاً : الصورة المشوهة المغلوطة عن الإسلام والمسلمين لدى الغرب

للإسلام والمسلمين صورة سيئة جداً، بل في غاية السوء والقتامة لدى الغرب عموماً، أسهم في تكوينها المستشرقون[1]، والمتعصبون من رجال الكنيسة والساسة وغيرهم، وكذا وسائل الإعلام الغربية المقروءة منها والمسموعة والمرئية ، والتي قامت ولا تزال تقوم بمهمة خطيرة في تشويه صورة الإسلام وتزييف حقائقه لدى المجتمع الغربي والعالمي، سيما وأن معظم القائمين عليها من اليهود الحركيين.

فالإسلام في نظر الغرب الشر المطلق، فهو دين العنف والتطرف والإرهاب ومعاداة الديمقراطية، ودين العجز والجمود، وهو أيضاً دين شيطاني رجيم، سماته النفاق والتجديف والغموض[2].

وهذا ما نجده لدى كبار المثقفين الغربيين، ففولتير ـ مثلاً ـ يطلق أحكاماً عدائية قاسية على الإسلام، كالتطرف والحدة والتعصب[3]، وفولني يختصر الإسلام بأنه دين

---

(1) كان الاستشراق ولا يزال المورد الفكري الرئيس لإنتاج وتداول الصورة المشوهة عن الإسلام، وتستخدم هياكل القوة في البلدان الغربية هذه الصورة لتبرير الهيمنة على العالم الإسلامي.

(2) انظر : الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل ـ لتركي الربيعو، وزكي ميلاد ص44، ط الثانية 1421هـ ـ2001 م، دارالفكر ـ دمشق.

(3) راجع كتابه (محمد والتعصب).

العنف وأن بنيته تقوم على الطغيان، وشاتوبريان ولامارتين يتفقان على رسم صورة عن الإسلام تارة قاسية وغير رحيمة، وتارة مشوشة وخطيرة، فالوحشية والطغيان والعبودية والتعصب والعنف تشكل الأساس الصلب للإسلام عندهما[1].

وما نجده أيضاً لدى كبار رجال الدين الكنسي الغربيين المعاصرين، ففرانكلين جراهام ـ مثلاً ـ رئيس أكبر الكنائس النصرانية الإنجيلية ومستشار الرئيس بوش الشخصي يصف الإسلام بأنه " دين شيطاني شرير ومنحط، ويدعو للعنف"[2].

وهو ما نجده كذلك عند كثير من المؤرخين الغربيين المعاصرين، أمثال: بول جونسون المؤرخ البريطاني الشهير، حيث يؤكد " أن الإسلام عقيدة عنف ، وأن أهله لا يتقبلون أي نوع من الحوار الإيجابي البناء، وأن القرآن هو الذي يُمد المسلمين بالرغبة في قتل الأبرياء"[3].

والإسلام في نظر المستشرق الفرنسي أرنست رينان عالم فاسد بحد ذاته، وقيد ثقيل لم تعرفه الإنسانية من قبل، ولا يستحق أن توجه إليه العناية نفسها الموجهة إلى البقايا النبيلة لعبقرية اليونان والهند القديمة وفلسطين اليهودية[4].

ويزعم كثير من المستشرقين ولا سيما رينان في كتابه (الإسلام والعلم) ـ أن الإسلام يشن حرباً ضروساً على حرية الفكر، ويكبت جميع الحركات العلمية، ويحظر على معتنقيه التأمل والنظر والتفكير[5].

يقول رينان : " كل شخص عنده شيء من التعلم في عصرنا يلاحظ بوضوح أن دونية المسلمين الراهنة وانحطاط الدولة والانعدام الثقافي لدى الأعراق، ناجم عن تلقي ثقافتها وتربيتها من الدين الإسلامي فقط"[6].

---

(1) راجع : أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحداثة ـ للدكتور هشام جعيط ، ص28 ـ 40 ، ط، عام 1995م، دار الطليعة ـ بيروت.

(2) صحيفة (الواشنطن بوست)، في عددها الصادر في 18 يناير 2001م.

(3) حوار الحضارات في ظل الهيمنة الأمريكية هل هو ممكن ؟ـ للدكتور السيد أحمد فرج، ص29، ط الأولى عام 2004م، دار الوفاء ـ مصر.

(4) راجع : L'Islamisme et la Scienc, P13-17, Calmann Levy, Paris,1883.

(5) راجع : المرجع السابق، ص 3–17.

(6) المرجع السابق، ص 2.

وهذا ما أكده قبل ذلك الأب جيوم رينال، حيث يقول: " من بين كافة الأنسقة السياسية والدينية التي بُليت بها البشرية لا يوجد ما هو أكثر تكبيلاً للحرية من الإسلام"[1].

والإسلام ـ في نظر الغرب ـ دين قتال وعدوان، وإلا كيف يمكن تفسير انتشاره في فترة وجيزة على هذه المساحة الشاسعة من الصين والهند شرقاً حتى وسط فرنسا غرباً؟، ولا يستطيع الغرب أن يعترف بأن الإسلام انتشر ـ بسرعة استثنائية ـ بالتحرير والتبشير، فقد حرر الشعوب التي قهرها الحكم القيصري والبابوي والكسروي، وغيرها من أشكال القهر كافة التي كانت تمارس ضدها من حاكميها، وحتى حينما استوجبت الحالة أن يكون الفتح الإسلامي عسكرياً فإنه كان بطلب من أهالي الأقاليم وبمساعدتهم، وهذا ما حدث في خراسان والسند وأرمينيا وإفريقيا والأندلس، بالإضافة إلى أن كثيراً من المسيحيين اعتنقوا الإسلام بعد اقتناعهم بأنه دين سماوي صحيح جاء لتحقيق الخير والسعادة للناس في الدنيا والآخرة.

ولكن مع كل ذلك لازال عدد غير قليل من الكتاب والمفكرين الغربيين يصرون على ترديد الأسطورة التي تزعم أن الإسلام انتشر بحد السيف[2]. كما يصرون على الادعاء بأن النبي محمداً ﷺ رجل محتال غارق في الملذات المنحرفة، وأنه اختلق الأكاذيب وقلَّد بعض تعاليم المسيحية، وأن دينه الجديد جذب العامة من الناس ببدائيته الجنسية، بحيث أصبحت إدانة الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام جزءاً لا يتجزأ من العقلية الغربية.

ينقل إليكسي جورافسكي عن بعض مفكري عصر الأنوار في أوروبا : ديانة الإسلام "عقيدة ابتدعها محمد، وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، وأنها دين الجبر والانحلال الخلقي والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية، إنها ديانة العنف والقسوة"[3].

ويقول هولباخ : " لقد ظهر محتال في بلاد العرب، وارتجل الأكاذيب باسم السماء، واستطاع أن يفرضها على جزء من مواطنيه، وسرعان ما أصبحت هذه الأكاذيب مقدسة، وانتشرت بالسلاح في آسيا وإفريقيا وأوربا، ويسمحون لمتعصبين

(1) التاريخ الفلسفي والسياسي للهند، نقلاً عن موقف الغرب من الإسلام ـ للدكتورة زينب عبد العزيز ، ص41، ط الأولى عام 2004م، دار الكتاب العربي ـ دمشق والقاهرة.

(2) انظر: الغرب والإسلام والصراع الحضاري ـ للدكتور حميد السعدون، ص100، ط عام 2002م، دار وائل للطباعة والنشر، الأردن ـ عمان.

(3) الإسلام والمسيحية ـ لإليكسي جورافسكي، ترجمة : د. خلف محمد الجراد، ص73، ط عام 2000م، دار الفكر ـ دمشق.

طموحين أن يغزوا كل الأرض ويروونها بالدماء، إن شريعة محمد أقيمت بالسلاح، وهي تطيح بالعروش لتقيم الطغيان الإسلامي على أنقاضها"[1].

ويقول الأديب لويس موريري في تعريفه للنبي ﷺ في قاموسه المسمى (القاموس التاريخي الكبير) : " محمد: نبي مزيف، عربي الموطن، ولد عام 571م وفقاً للتقدير العام، فقد والديه وهو طفل، وقام عمه أبو طالب بتربيته. ودفعه الفقر ليخدم عند أحد التجار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بإمتاع أرملته المسماة (كاديج) لدرجة أنه تزوجها، وأصبح وريثها الوحيد، فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته، وبعد ذلك شارك كلاً من باتيراس وهو هرطقي يعقوبي، والأب سرجيوس وهو راهب نسطوري، وبعض اليهود الذين عاونوه على تجميع قرآنه، وبذلك أصبح دينه مكوناً من جزء من اليهودية، وجزء آخر من أحلام هرطقية، واستسهالات جنسية لطبيعة منحرفة، وقامت جماعة من اللصوص الذين لا يعرفون الله، ولا الدين باعتناق هذه الديانة"[2].

ويقول عالم الإنسانيات الفرنسي دومنيك بودييه: " إن محمداً الغارق في الملذات المنحرفة، نظراً لميوله الطبيعية، لم يخجل من أن يقول في قرآنه إن الله قد حباه قوة أربعين شخصاً من أضخم ماجني الدنيا"[3].

ويصف جورج بوش (الجد) رسولَ الله ﷺ بأسوأ الأوصاف وأقبحها، وذلك في كتاب ألَّفه في سيرته ﷺ، حيث يصفه بالمدّعي والمرائي والدموي والمخادع الذي يسعى في دعوته إلى تحقيق مآرب دنيوية ومتع شخصية ومباهج شهوانية متستراً بعباءة الدين[4]، كما يصف بعثته النبوية بأنها بعثة مزيفة[5].

ويدَّعي بوش أنه ﷺ لما بدأ دعوته بمكة ما لبث أن وجد نفسه قد حقق نجاحاً فاق ما كان يتوقعه، وزادت شعبيته وقوَّته، فطغى حبه لنفسه على أمانته، وفاق طموحه الشخصي إخلاصه وتقواه، وراحت أطماعه الدنيوية تتسع وتزداد كلما حقق

---

(1) الأخلاق العالمية، نقلاً عن موقف الغرب من الإسلام ـ للدكتورة زينب عبد العزيز، ص 41 .

(2) موقف الغرب من الإسلام، ص 42 -43 .

(3) التاريخ العام للأتراك، نقلاً عن المرجع السابق، ص 43.

(4) راجع كتابه (محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين)، في الصفحات، 93- 159- 317- 353-357- 358 ، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط عام 1425هـ ـ 2004م، دار المريخ للنشر الرياض.

(5) راجع : المرجع السابق، ص 237.

نجاحاً، فلقد بدأ مشروعه بدافع التقوى، فأصبح في خاتمة المطاف مدَّعياً عنيداً، وحاكماً إمبراطوراً بلا مبادئ منغمساً في الملذات[1].

ويؤكد أخيراً بوش أن " تاريخ محمد كله يُظهر أن التعصب والطموح والشهوة كانت هي الدوافع التي تحركه، كما كانت هي العواطف والانفعالات المتأججة في صدره، ومع أنه كان متحمساً بطبعه، إلا أنه أصبح بحكم الظروف السياسية مرائياً، وكلما زادت ميوله ونزعاته انحرافاً لم يتورع عن إشباعها على حساب الحق والعدل والصداقة والروح الإنسانية"[2].

يقول البارون كارادي فو ـ وهو من كبار المستشرقين الفرنسيين المنصفين الذين سطعت أسماؤهم في أوائل القرن العشرين : " إن محمداً ظل وقتاً طويلاً معروفاً في الغرب معرفة سيئة، فلم توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه"[3].

وأما نظرة الغرب إلى المسلمين فيوضحها لنا أستاذان أكاديميان عاشا في الغرب وعملا في مؤسساته التعليمية ردحاً من الزمن.

أحدهما : الدكتور إدوارد سعيد، حيث يذكر أن العربي المسلم عند الغرب الأوروأمريكي : سادي، خؤون، منحط، تاجر رقيق، راكب جمال، إرهابي، عنيف، مخادع...، وأن الخديعة والعنف وسفك الدماء موجودة في الموروثات التاريخية الإسلامية، وأن منطقة العالم الإسلامي ليست مركزاً للإنجازات الثقافية والحضارية العظيمة، ولا يمكن أن تكون كذلك في المستقبل القريب[4].

ويؤكد أن الإسلام هو كبش الفداء لكل ما لا يروق للغربيين من أنماط سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة في العالم، فبالنسبة لليمين يمثل الإسلام الهمجية، وبالنسبة لليسار الثيوقراطية في العصر الوسيط، أما بالنسبة للوسط فإنه يمثل نوعاً من الغرائبية الممجوجة[5].

---

(1) انظر: المرجع السابق، ص 160.

(2) المرجع السابق، ص356–357 .

(3) المحمدية، ص20، ط عام 1897م، باريس.

(4) انظر: الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، ص68 وما بعدها، ط عام 1981م، مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت.

(5) انظر: تغطية الإسلام ، ترجمة: سميرة نعيم خوري، ص 17، ط عام1983م، مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت.

والآخر : الدكتور محمد أركون الذي عانى ـ رغم سيره في ركاب الغرب وتشبثه بأسس ثقافته ـ من عدوانية المجتمع الفرنسي واضطهاد المؤسسة الأكاديمية والإعلامية في فرنسا له لمجرد أنه ينتمي إلى الإسلام، حيث يقول : " المسلم في نظر الغرب ـ أي مسلم ـ شخص مرفوض ومرمي في دائرة عقائده الغريبة ودينه الخاص، وجهاده المقدس، وقمعه للمرأة، وجهله بحقوق الإنسان وقيم الديمقراطية، ومعارضته الأزلية والجوهرية للعلمنة، هذا هو المسلم ولا يمكنه أن يكون إلا هكذا. والمثقف الموصوف بالمسلم يشار إليه دائماً بضمير الغائب، إنه الأجنبي المزعج الذي لا يمكن تمثله أو هضمه في المجتمعات الأوروبية، لأنه يستعصي على كل تحديث أو حداثة"[1].

إذاً فالغرب لا يرى في الإسلام والمثقف المسلم مقابلاً في الطرف الآخر يقف معه على قدم المساواة، أو طرفاً جديراً بالحوار أو شريكاً مستقبلياً، وإنما هو دائماً ذلك الشخص الغائب المشار إليه بضمير الغائب ـ كما يقول أركون ـ إنه موضوع الكلام وليس ذاتاً متكلمة[2].

وإذا ما تساءلنا عن سر هذه الصورة القاتمة المريرة التي نطالعها عن الإسلام والمسلمين لدى الغرب منذ آماد طويلة نرى الإجابة في مقدمة كتاب شانتال دراجون الصادر عام 1990م بعنوان (عرب، هل قلت عرب؟)، حيث يقول : "إن صورة الإسلام هذه قد تطورت أساساً بدافع من الكنيسة صبيحة الحروب الصليبية، ولم يتعرض لها أحد فيما بعد أو يناقضها، بل ظلت الإطار المرجعي الوحيد الذي استمرت الفلسفة والآداب تنهل منه حتى مطلع القرن التاسع عشر"[3].

ولذا نجد المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) تؤكد على أن: " صورة الإسلام الحالية للغرب إنما تكون نتيجة الموروث التاريخي الذي هيمن فترة طويلة وترسخت تراكماته في الذهنية الغربية، وجعلتها أسيرة مواقف واقتناعات وتصورات غير منصفة وغير موضوعية، وتكون في أحيان كثيرة مغرضة، لذلك كانت محاولات التعرف على الإسلام مقرونة بنظرة الاستعلاء والتفوق والرغبة في الوصاية عليه. إن الأفكار المغلوطة والصورة المشوهة عن الإسلام أفرزتها أحداث وأوضاع متشابكة لا تمت للإسلام بصلة، كما أن الأفكار المسبقة عن الإسلام زرعت وترعرعت

---

(1) الإسلام، أوروبا، الغرب ـ ترجمة وتعريب : هاشم صالح، ص 45، ط عام 1995م، دار الساقي ـ بيروت.

(2) انظر : الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل ـ لزكي الميلاد وتركي الربيعو، ص 23.22.

(3) عرب ، هل قلت عرب ؟ ـ لشانتال دارجون، نقلاً عن موقف الغرب من الإسلام ، ص44.

في أذهان وعقلية كثير من الأوروبيين دون أن تكون هناك أي محاولة لتصحيحها. إن الحكم المسبق على الإسلام والاعتماد على الروايات الشاذة لدعم الأفكار الخاطئة التي تجعل الإسلام في موضع الإدانة، كل ذلك عمل على تكريس تلك الصورة القاتمة التي نراها اليوم. أما وسائل الإعلام الغربية فقد عملت على تغذية هذا الجو المشحون بمحاولات الربط بين الإسلام وممارسة العنف والإرهاب"[1].

ثانياً : الخـوف الشـديد من الإسـلام

الخوف من الإسلام ـ بوصفه خاتم الأديان السماوية الذي جاء بتصور شامل للإنسان والكون والحياة، وبتشريع رباني لكل الميادين السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية ... ـ يُعد ظاهرة ملازمة له عند غير المسلمين عموماً وعند الغربيين منهم بصفة خاصة في كل موضع يتعاظم فيه تَمثُّل الإسلام والالتزام به وتطبيقه، وفي كل الحقب الزمنية التي كان فيها احتكاك بين المسلمين والغربيين.

وقد بدأ هذا التخوف منذ أن بزغ فجر الرسالة المحمدية، حيث يذكر ابن كثير رحمه الله أنه لما وصل النبي صلى الله عليه سلم إلى قباء عند قدومه إلى المدينة المنورة، خرج الزعيم اليهودي حيي بن أخطب وأخوه أبو ياسر بن أخطب ـ لاستطلاع الخبر ـ مغلسين[2]، ثم عادا مع مغيب الشمس تعبين كالين مهمومين، فقال أبو ياسر لأخيه : " أهو هو؟[3]، قال: نعم والله، قال : تعرفه بنعته وصفته؟، قال: نعم والله، قال: فماذا في نفسك منه؟، قال: عداوته والله ما بقيت"[4].

ومن مظاهر هذا الخوف من الإسلام لدى الغرب : ما صرح به وأعلنه كثير من ساستهم ومفكريهم، ومن ذلك على سبيل المثال :

1. تصريح ريتشارد نيكسون (الرئيس الأمريكي الأسبق) بأن : "الإسلام والغرب متضادان، وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيبوليتيكية[5] متطرفة، وأنه مع

---

(1) استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب، ص 59 بتصرف يسير.

(2) مغلسين: أي سائرين في الليل.

(3) يعني: أهو محمد المذكور خبره.

(4) البداية والنهاية، ج 3، ص 210، ط الأولى 1408 هـ ـ 1988م، دار البيان للتراث ـ القاهرة.

(5) الجيبوليتيك (Jyou boulitik) : الجغرافيا السياسية، وهو " مصطلح سياسي جغرافي يشير إلى محاولة تفسير تطورات السياسة العالمية من منظور المساحة الجغرافية ". الموسوعة العربية العالمية، ج8، ص685، الثانية 1419هـ ـ 1999م، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ـ الرياض.

التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة، وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب، وسوف يضطر الغرب إلى أن يتوحد مع موسكو، ليواجه الخطر العدائي للعالم الإسلامي"[1].

2. وإعلان صاموئيل هنتنجتون (أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد الأمريكية) أن الإسلام عقيدة استبدادية ودين عنيف دموي، وأن المسلمين لديهم ميل شديد إلى العنف بأعلى مستوياته، وإلى الصراع عبر التاريخ، ولديهم مشكلات دائمة في العيش بسلام مع جيرانهم في الدول الأخرى، وأنهم طرف دائم في معظم الصراعات الدموية التي قامت بين شعوب الحضارات المختلفة" [2].

وتأكيده على أن " النزعة القتالية، وعدم قابلية غير المسلمين هي ملامح مستمرة للإسلام "[3]. وكذا تنبيهه على أن " الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك "[4]، وأن هناك حالة شبه حرب مستمرة بين الإسلام والغرب[5]، وأن " المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام، فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته، وهاجسه ضآلة قوته"[6].

3. وتصريحات جورج بوش الابن لوسائل الإعلام باستئناف الحروب الصليبية المقدسة، ومحاربة الفاشية الإسلامية عند حديثه عن المعركة المقبلة ضد الإرهاب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م. وقوله لضباط كلية الحرب الأمريكية في خطابه السنوي عام 2006م : " إن مهمتكم الكبرى ستكون محاربة هذا الإسلام الراديكالي حرباً ستكون طويلة، حرباً يسوّغها كونها حرباً ضد إيديولوجية قهرية معادية للحرية، وكونها ذات مطامع توسعية وأهداف شمولية، وكونها تسعى في سبيل ذلك إلى الحصول على أسلحة دمار شامل، لو

---

(1) الفرصة السانحة، ص، 138 – 139 ترجمة: أحمد صداقي مراد، ط عام 1412هـ ـ 1992م، دار الهلال ـ القاهرة.

(2) راجع: كتابه (صدام الحضارات : إعادة صنع النظام العالمي)، في الصفحات 414 ـ428 ـ ترجمة : طلعت الشايب، ط الثانية عام 1999م، نشر: شركة سطور ـ القاهرة.

(3) المرجع السابق، ص429.

(4) المرجع السابق، ص339.

(5) راجع: المرجع السابق، ص349 وما بعدها.

(6) المرجع السابق، ص352.

وقعت في يدها لألحقت بأمريكا ضرراً لم تلحقه بها الشيوعية"[1].

4. وتحذير دانييل بايبس (الأكاديمي البارز في جامعتي هارفارد وشيكاغو الأمريكيتين) في كتابه المسمى (الإسلام المتطرف يصل أمريكا) من مخاطر سيطرة الإسلام على أمريكا، وتشبيهه خطر الإسلام على المصالح الغربية عموماً والأمريكية خصوصاً بكل من الخطر الفاشي والنازي والشيوعي.

وتسميته الصحوة الإسلامية والتوجه الإسلامي المعاصر بـ(الإسلاموية) ذات الإيديولوجية التي تريد التحكم بهندسة المجتمعات البشرية، ووصفه إياها بالعديد من الأوصاف التي تثير الرعب في الأوساط الغربية، فهي ـ في نظره ثورية متطرفة عدوانية إرهابية محاربة للحرية ومعادية للغرب، وغير مستعدة للتعايش مع الآخرين أو الوصول إلى حلول وسط، إنها تعتبر نفسها في معركة موت أو حياة مع الحضارة الغربية.

وحثه الحكومة الأمريكية على شن حرب إيديولوجية لا هوادة فيها على الإيديولوجية الإسلامية بصفتها تشكل خطراً على الأمن القومي الأمريكي وعلى الديمقراطية الأمريكية.

يقول محمد أسد : " إن الغربيين لا يرون في تعاليم الإسلام إنكاراً للكثير من معتقداتهم الدينية فحسب، ولكنهم ينظرون إليه على أنه خطر سياسي أيضاً، وتحت تأثير الذكريات التاريخية المتعلقة بالحروب التي التحم فيها العالم الإسلامي مع أوروبا خلال القرون ينسب الغربيون للإسلام تهمة عدائه لكل ما هو غير مسلم، ولهذا يخشون أن يؤدي بعث الروح الإسلامية من جديد إلى إيقاظ العافية في العالم الإسلامي، بحيث تدفعه إلى القيام بمغامرات عدوانية على الغرب. ولكي يدرأ الغربيون هذا الخطر المحتمل فإنهم يبذلون كل ما في وسعهم للحيلولة دون بعث القوة السياسية للمسلمين ومنع الإسلام من احتلال المكانة التي كان يحتلها في السابق في حياة المسلمين الاجتماعية والثقافية"[2].

ويجري في العصر الحاضر تصوير الغرب للإسلام على أنه الخطر الأخضر الذي

---

(1) لماذا يخاف الغرب من الإسلام ـ للدكتور صالح العايد، وهو بحث منشور ضمن أبحاث (المؤتمر العالمي الخامس عن العالم الإسلامي والغرب) المنعقد بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ج4، ص 1713 – 1714.

(2) منهاج الإسلام في الحكم، ص170، ترجمة: منصور محمد ماضي، ط السادسة عام 1983م، دار العلم للملايين ـ بيروت.

حل محل الخطر الأحمر بعد غياب الاتحاد السوفياتي ومجموع ما كان يسمى بالدول الاشتراكية، وهذا الخطر وكما تصوره أجهزة الإعلام الغربية يمتد على طول رقعة جغرافية وحضارية واسعة، من الفلبين وأندونيسيا شرقاً إلى قفقاسيا في آسيا شمالاً، وجنوب الصحراء الكبرى في إفريقيا، وإلى قلب نواته العربية.

يقول كاتب أمريكي نشر مقالاً في صحيفة (الواشنطن بوست) بتاريخ 8 مارس 1992م ما نصه : " يبدو أن الإسلام مناسب لملء دور الشرير بعد زوال الحرب الباردة، فهو ضخم ومخيف وضد الغرب، ويتغذى على الفقر والسخط، كما أنه ينتشر في بقاع عديدة من العالم، لذلك يمكن إظهار خرائط العالم الإسلامي على شاشة التلفزيون باللون الأخضر، كما كان العالم الشيوعي يظهر باللون الأحمر".

وإذا تأملنا في هذا الهلع من الإسلام عند الغرب نجد له أسباباً عديدة، منها:

أ) ما تقدم في العامل الأول من نشر صورة مشوهة مزيفة عن الإسلام والمسلمين، مما رسخ الجهل الشديد لدى الغرب بحقائق الإسلام ومبادئه وأخلاقه ونظمه، ومعلوم أن من جهل شيئاً عاداه، والناس ـ كما يقال دائماً ـ أعداء لما جهلوا، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حينما قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

ومن المظاهر العديدة لهذا الجهل بالإسلام: الخلط الشديد عند الغرب بين الإسلام والواقع الذي يعيشه كثير من المسلمين، فهناك دول إسلامية عديدة قد اجتاحها شبح المجاعات والأوبئة، وافترس وحش الجوع والأمراض المعدية مئات الآلاف من أبنائها، بل إن هناك عشرات الملايين من المسلمين يعيشون تحت خط الفقر، وذلك بسبب انتشار الفساد وسوء الإدارة واختلال العدالة في توزيع الموارد والثروات، وعلى الرغم من أن تلك الأخلاقيات مرتبطة بالممارسات التي ينتهجها من يُحسبون على الإسلام؛ وهو من سلوكياتهم براء، إلا أنها أصبحت تهمة في حق الإسلام نفسه لدى عامة الغرب.

ومن مظاهر الجهل بالإسلام أيضاً : الخلط بينه ـ بوصفه دين سماوي جاء لنشر الخير والمحبة والسماحة والسلام للناس كافة ـ وبين الممارسات المنحرفة والفكر الضال لدى بعض المنتسبين إليه، والمتمثلة في مظاهر التكفير والعنف وقتل الأنفس المعصومة البريئة وتدمير الممتلكات والمنشآت وترويع الآمنين ونحو ذلك من الإفساد

---

(1) سورة يونس، الآية 39.

في أنحاء متفرقة من العالم، حيث يُحمِّل كثير من المفكرين والساسة وصُناع القرار في الغرب الإسلام جريرة تلك التصرفات التي يدينها الإسلام ويرفضها وتتبرأ منها. يقول أحد الكتاب النرويجيين المنصفين المعاصرين ويدعى داق هيريبور نسريد: " رغم مرور ثلاثة أعوام على هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، فإن نوبة الخوف من الإسلام تنتشر في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية انتشار النار في الهشيم، وأصبح ذكر الإسلام والمسلمين مقترناً إلى حد بعيد بمصطلحات من قبيل الإرهاب والعنف وما شاكلهما"[1].

وتقول الإيسيسكو: " غالباً ما يعيش الغرب اليوم تحت تأثير كابوس الخوف الذي يثيره اهتمام الإعلام الغربي بظاهرة التشدد والتطرف والمبالغة في وصفها بأنها أخطر ما يتهدد قيم الغرب المعاصر"[2].

ب) ظهور الصحوة الإسلامية وتناميها في الآونة الأخيرة في أرجاء العالم، ذلك أن زيادة الوعي لدى المسلمين بأهمية الإسلام والوظيفة العظمى المنوطة به بوصفه اختياراً ثقافياً فكرياً ومنهجاً للعمل في مواجهة التحديات الفكرية المعاصرة، قد أخافت الكثير من الجهات في الغرب، ولا سيما بعد تراجع المذاهب الإيديولوجية الكبرى على الصعيد العالمي وظهور بدائل جديدة تعتمد منهج الإيمان[3].

ولذا تعالت صيحات التحذير في الغرب من هذه الصحوة مطالبة بوأدها وإخمادها.

فقد حذَّر فرانسيس فوكوياما (الباحث والخبير في مركز البحوث بوزارة الخارجية الأمريكية)، من الصحوة الإسلامية، وادَّعى أنها تمتلك أكثر من وجه شبه مع الفاشية الأوروبية، وتوقَّع أن تضرب هذه الصحوة بقوة كل البلدان الأكثر حداثة وتطوراً[4].

ونشر كاتب أمريكي مقالاً في صحيفة (الواشنطن بوست) في عددها الصادر في

---

(1) مقال (فوبيا الخوف من الإسلام - وقفة متأنية) - لداق هيريبورنسريد، منشور على موقع مجلة (المعرفة) الإلكتروني في عددها الصادر يوم الأربعاء 1427/4/19هـ الموافق 2006/5/17م، ص1.

(2) إستراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب، ص 60. وينبغي التنبيه هنا إلى أن اللجوء إلى التطرف والعنف إنما هو ظاهرة نفسية اجتماعية يمكن أن توجد في كل المجتمعات شرقية كانت أم غربية، وقد تكون مرتبطة بالدين أو مستقلة عنه. ولذا فليس من الإنصاف والموضوعية ربط الإسلام بالتطرف كما تتوهمه العقلية الغربية.

(3) انظر : المرجع السابق.

(4) انظر : كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)، ص226 ترجمة : د. فؤاد شاهين وآخرين، ط عام 1993م، مركز الإنماء القومي - بيروت.

19 يناير عام 1992م يحمل وعيداً وتهديداً ووصفاً مثيراً للحركات الإسلامية، حيث يرى أنها حركات أصولية ثورية عدائية يماثل عنفها وتشددها الحركات البلشفية والفاشية والنازية في الماضي، وأنها حركات استبدادية مضادة للديمقراطية والعلمانية، ولذا لا يمكن ـ في نظره ـ استيعابها في العالم المسيحي العلماني، وبما أن هدفها إنشاء دولة إسلامية مستبدة فلابد من أن تقوم الولايات المتحدة بوأدها عند الولادة.

ويقول ألبير شامبو في كتابه (حمراء غرناطة): " هذا العربي الشجاع استطاع أن يغزو نصف العالم، وترك لنا في حمراء غرناطة آثار فخاره، إن هذا العربي الذي نام نوماً عميقاً قد استيقظ وأخذ ينادي العالم ها أنا لم أمت، من يدري قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الإفرنج مهددة بالعرب المسلمين مرة ثانية في الوقت المناسب، فيحطمون الغرب عدوهم الأبدي، لست أدعي النبوة، ولكن الأبحاث تدل على ذلك، والأمارات التي تدل على هذه الاحتمالات كثيرة جداً "، ثم ينادي قائلاً: " أبيدوا هذه الأشباح التي تنتظر البعث، أسكتوها إلى الأبد "[1].

وتحذر روبرن رايت وهي خبيرة سياسية أمريكية ـ قائلة : " إن على الغرب على اختلاف حكوماته وقواه أن يدرك أنه أعجز من أن يواجه هذه الصحوة مواجهة عسكرية، وإن من الأفضل أن يسالم الغرب الإسلام "[2].

كما تحذر الإحصائيات الرسمية التي قدمها مركز إعلام الاتحاد المسيحي في بريطانيا من أن معدل انتشار المساجد في أمريكا هو مسجد واحد في كل أسبوع.

وأصدر وزير الداخلية الفرنسي السابق أوامره إلى كبار موظفي الوزارة بإعداد تقرير عن فرنسا ذات الألف مئذنة على أن يبينوا كافة التفاصيل عن تأثير الأصوليين الإسلاميين.

وألف كاتب فرنسي ـ مختص بدراسة الحركات الإسلامية المعاصرة ـ يدعى جيل كيبيل كتاباً عن الإسلام في فرنسا واختار له عنواناً ينبئ عن التخوف الكبير من هذا الدين. حيث سماه (فرنسا ضاحية الإسلام)، يقول فيه : " أصبحت فرنسا كأنها إحدى عواصم الإسلام ليس في العصر الحديث، وإنما في العصر الإسلامي الزاهر، ... وإن هذه

---

(1) الخوف من الإسلام القادم ـ للدكتور علي بن عمر بادحدح، بحث منشور على موقع (مفكرة الإسلام) الإلكتروني يوم الأحد 3 ذو الحجة 1424هـ 25 يناير 2004م ، ص3.

(2) المرجع السابق.

الانفجارة الكبرى في تأكيد الهوية الإسلامية خلال ما يقل عن العقدين الأخيرين تمثل مشكلة تواجه المجتمع الفرنسي لم يسبق له مواجهة مثيل لها من قبل"[1].

ولم يكتف الغرب بإطلاق صيحات التحذير من هذه الصحوة الإسلامية، وإنما قام بإجراء الدراسات المعمقة لهذه الظاهرة وعقد الكثير من الندوات والمؤتمرات العلمية للتباحث في كيفية مواجهتها[2].

ج) اليهود، فنظراً لعدائهم التاريخي للإسلام والمسلمين، ونظراً لوجود قضية كبرى قائمة إلى الآن بينهم وبين المسلمين وهي قضية فلسطين المحتلة، ووجلهم الشديد من تمكن المسلمين ـ بوحدتهم وتعاضدهم ـ من استرجاع حقهم المسلوب منهم منذ عقود من الزمن، فقد دأبوا بكل ما لديهم من إمكانات وقدرات على المبالغة في تخويف الرأي العام الغربي من الإسلام، وإيهامه بأن المسلمين يمثلون خطراً كبيراً على مصالح الغرب وتهديداً مباشراً لمستقبل الحضارة الغربية.

يقول السفير الإسرائيلي لدى الأمم المتحدة: "إننا نشهد اليوم ظاهرة غريبة ومثيرة للاهتمام وتحمل في ثناياها الشر للمجتمع الغربي بأسره، وهذه الظاهرة هي عودة الحركات الإسلامية التي تعتبر نفسها عدوة طبيعية لكل ما هو غربي، وتعتبر التعصب ضد اليهود بشكل خاص، وضد الأجناس الأخرى بشكل عام فريضة مقدسة "[3].

وكثيراً ما تردد إذاعة إسرائيل" أن عودة الروح الإسلامية للظهور من جديد في المنطقة تشكل تهديداً مباشراً لمستقبل إسرائيل ومستقبل الحضارة الغربية بأسرها"[4].

د) تشبث الغرب ـ إجمالاً ـ بسلوكياته العديدة التي اعتاد عليها، ورفضه التخلي عن شيء منها، تلك السلوكيات التي يعلم أنها والإسلام طرفا نقيض، مثل: اعتماد النفعية مقياساً للقيم الخلقية، فما يجلب لصاحبه نفعاً مادياً أو معنوياً أو يحقق لذة فهو أخلاقي، وما سوى ذلك فهو غير أخلاقي، ومثل : حرية المقامرة، وتعاطي الكحول، والتعامل بالربا، وممارسة البغاء، والعلاقات الجنسية المثلية، والسماح بالعلاقات

---

(1) المرجع السابق ص 4-5.

(2) ومن ذلك على سبيل المثال: تخصيص جمعية دراسات الشرق الأوسط الأمريكية مؤتمرها السنوي العشرين والحادي والعشرين في مدينة بوسطن وبلتمور في نوفمبر من عام 1986م وعام 1987م لدراسة هذه الظاهرة الإسلامية. وقيام وزارة الخارجية الأمريكية عام 1987م بعقد حلقة بحث علمية حول الأصولية الإسلامية. وغير ذلك كثير من المؤتمرات والندوات العلمية في كل من أوروبا وأمريكا.

(3) الخوف من الإسلام القادم د. علي بن عمر بادحدح، ص4.

(4) المرجع السابق، ص3.

الجنسية خارج إطار الزوجية، ونحو ذلك من السلوكيات التي يعدها الغرب من أهم مقومات حضارته المعاصرة، ومن أساسيات الحرية التي يعتقد أنه أرسى قواعدها.

ويضيف الدكتور محمد عابد الجابري أسباباً أخرى، فيقول : "إن الإسلام كآخر لدى الغرب يتمثل في العرب بوصفهم مصدر تهديد محتمل بقطع النفط عن الغرب، والعرب المهاجرين بوصفهم مصدر تهديد محتمل على مستوى التركيب السكاني لأوروبا، إن الإسلام في نظر الغرب شيء مخيف وقادم من المجهول، وهو في الأدبيات الغربية بمثابة إحالة إلى شرق أوسط نفطي يسكنه العرب والإيرانيون، والذين يشكلون تهديداً لهذه الثروة التي يحتاجها الغرب"[1].

ويرى بعض المنصفين الغربيين أن من أبرز أسباب خوف الغرب من الإسلام، هو إدراكه أن الحضارة الغربية بحاجة إلى دين يصنع لها حدوداً حتى لا تنقلب إلى فوضى، ولا يوجد من يتصدى لهذه المهمة غير الإسلام، فهو دين الحضارة الذي يُحدث توازناً في جميع أنشطة الحياة، هذا عدا كونه علاجاً حاسماً لحالة التغريب والانخلاع التي يعيشها المجتمع الغربي[2].

ولذا فلا غرابة حينما يقول بعض هؤلاء المنصفين : إن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب بحضارته موضع شك[3].

ثالثاً : الخلفية الإيديولوجية الغربية للحروب الصليبية

فمع أن " الحداثة " في فهم الغرب تعني القطيعة مع الماضي، وأن التراث لا يمثل مرجعية معرفية في حاضره في قراءة الأفكار والمناهج والنظم والأحداث والمواقف، إلا أنه في علاقته بالإسلام لازال مسكوناً بالماضي إلى حد كبير، فالحروب الصليبية التي قامت بين المسلمين والنصارى الغربيين، وتمثلت في ثمان حملات عسكرية[4] شنها الغرب على العالم الإسلامي بحجة تحرير (القدس) من أيدي المسلمين، واستمرت قرنين

(1) انظر: مسألة الهوية ـ العروبة والإسلام والغرب، ص170، ط عام 1995م، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت. وراجع : تغطية الإسلام ـ للدكتور إدوراد سعيد، ص11.

(2) راجع : الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود لمراد هوفمان، تعريب: عادل المعلم ويس إبراهيم ، ص160، ط عام 2001م، مكتبة الشروق ـ القاهرة.

(3) انظر : الغرب والإسلام والصراع الحضاري ـ د. حميد السعدون، ص98 ـ99.

(4) هذه الحملات أعلن قيامها البابا (أوربان الثاني)، ووصفها بالحروب المقدسة، كما وصف المقاتلين الصليبيين بفرسان المسيح أو جيش المسيح، وقد انطلقت من أوروبا : فرنسا، والنمسا، وانكلترا، وإسبانيا، وألمانيا، وإيطاليا، وهنغاريا، قاصدة غزو الشرق الأوسط الإسلامي، وبخاصة بلاد الشام عموماً والقسم الغربي من العراق، والقسم الشمالي من مصر، وقسم من الساحل التركي في الشمال.

من الزمان، حيث بدأت في سنة 488هـ ـ 1095م، وانتهت في سنة 690هـ ـ 1291م[1]، لازال الغرب إلى هذا اليوم يستعيد في ذاكرته أحداث هذه الحروب وما آلت إليه من فشل الغزاة في تحقيق مطامعهم، وما أسفرت عنه من ذهاب الكثير من الأرواح والموارد هدراً بعد أن غلبت روح التعصب الديني على روح التسامح والعقلانية.

ولازالت حاضرة في مناهجه التي يغذي بها أجياله الجديدة، حيث توجد جمعية في جنوب فرنسا تعقد اجتماعاً سنوياً في مكان انطلاق الحملة الصليبية الأولى، ويتم في هذا الاجتماع السنوي إلقاء الخطب المحاكية لخطب (أوريان الثاني)، كما يتم بعد هذه الخطب إعادة تمثيل انطلاقة الحملة الصليبية الأولى[2][3].

يقول بروس لورانس ـ أحد الكتاب الغربيين المعاصرين ـ : " في التسعينيات من القرن الماضي كان معظم الصحافيين الأوروبيين والأمريكيين يواصلون ترديد المشاعر التي دفعت الملوك الأوروبيين وأتباعهم لشن الحروب الصليبية قبل نحو ألف عام، وهي الحروب التي كان الأعداء فيها العرب المسلمون، وبعد مرحلة الحرب الباردة صار العدو مرة أخرى هو الإسلام المتشدد وغير المرن والوجه العنيف للإسلام العربي"[4].

ولعل ما صدر من بعض القادة العسكريين والمسؤولين السياسيين من تصرفات وتصريحات في العصر الحديث يؤكد ما تقدم، ومن ذلك على سبيل المثال :

---

(1) راجع : الحركة الصليبية ـ لسعيد عبد الفتاح عاشور، جـ1، ص26 ط الثالثة 1978م، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة.

(2) راجع : رسالة إلى قداسة البابا : الذكرى التسع مائة لإعلان حروب الفرنجة د. جورج جبور، ط عام 1995م، دارالكنوز الأدبية ـ بيروت.

(3) وهذه أسوأ ذاكرة تشوه صورة الإسلام عند الشعوب الغربية، وخاصة أجيالها الجديدة التي كان ينتظر منها أن تتخلص من ثقل هذه الذاكرة السيئة التي تدفع بها إلى استعداء الإسلام، وأن تبحث عن نظرة جديدة تتخذ من المستقبل منظاراً لها، وحاضراً نحو علاقات أفضل. وحق لنا هنا أن نتساءل : لما الغرب يُعيد نتاج ذاكرة الحروب الصليبية لأجياله، ولا يستعيد ذاكرة المكتسبات الحضارية الكبيرة التي أخذها عن الحضارة الإسلامية ؟!! ، تلك المكتسبات التي تحدث عنها كثير من الباحثين الغربيين، أمثال: المستشرق الانجليزي مونتجمري وات في كتابة (فضل الإسلام على الحضارة الغربية)، والباحث الأمريكي في شؤون الأديان ستانوود كب في كتابه (المسلمون في تاريخ الحضارة)، وبريفولت في كتابة (بناء الإنسانية)، ومارشال هودجسون في موسوعته (مغامرة الإسلام: الوعي والتاريخ في حضارة عالمية)، وسيغريد هونكه في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب).

(4) تحطيم الأسطورة الإسلام والعنف، تعريب: غسان علم الدين، ص22، ط الأولى 1425هـ ـ 2004م، مكتبة العبيكان ـ الرياض.

أ) قول القائد الإنجليزي (اللنبي) حينما دخل إلى القدس سنة 1335هـ - 1917م : "الآن انتهت الحروب الصليبية"[1].

ب) توجه القائد الفرنسي (غورو) - بعد انتصاره على جيش " ميسلون" ودخوله دمشق عام 1337هـ - 1919م - إلى قبر القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - وقيامه بركل القبر برجله قائلاً : " ها قد عدنا يا صلاح الدين"[2].

ج) وقيام قادة الصرب في محاربتهم مسلمي البوسنة والهرسك برفع شعار الحروب الصليبية لاستئصال الوجود الإسلامي من أوروبا.

د) وقيام الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الإبن وهو يعلن بدء عملية (عاصفة الصحراء) ضد العراق عام 1411هـ - 1991م بإمساك الإنجيل بين يديه وإعلان عزمه على حماية الحضارة المسيحية الغربية من القوى الشيطانية التي تهددها مخاطر جسيمة[3].

هـ) ومساواة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م - الحرب على ما يسمى بالإرهاب بالحملات الصليبية على المسلمين.

ويمكن أن يُلحق بالحروب الصليبية الحروب الأخرى العديدة التي قامت بين الجانبين الإسلامي والغربي، أمثال: معركة بلاط الشهداء (بواتييه) التي وقعت في فرنسا في عام 113هـ - 732م، والحروب التي أسفرت عن فتح بلاد الأندلس عام 96هـ - 715م، وجزيرة صقلية عام 212هـ -828/827م، والقسطنطينية عام 857هـ - 1453م، وغيرها.

فلا شك أن رواسب هذه الحروب الموجودة في أذهان كثير من الساسة والمفكرين وصناع القرار في الغرب اليوم تمثل سبباً مهماً من أسباب عداء الغرب للإسلام.

---

(1) تاريخ الدولة العلية العثمانية - لمحمد فريد بك المحامي، ص726، تحقيق: د. إحسان حقي، ط الثانية 1403هـ - 1983م، دار النفائس - بيروت.

(2) المرجع السابق.

(3) انظر: صراع الحضارات أم حوار الثقافات - لمجموعة مؤلفين، تحرير: د. فخري لبيب، ص 218، ط عام 1997م، مطبوعات التضامن - القاهرة.

رابعاً : التباين في النظر إلى طبيعة عيسى عليه السلام وقضية صلبه

وهو سبب عقدي يتمثل في التباين والاختلاف الجذري بين المسيحيين والمسلمين في النظر إلى طبيعة نبي الله عيسى عليه السلام وواقعة صلبه.

ففي حين يرى المسيحيون أنه عليه السلام هو الله والابن ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وروح القدس، ويعتقدون بصلبه حقيقة قبل رفعه إلى السماء. يرى المسلمون. تبعاً لما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية ـ أنه عليه السلام بشر كسائر البشر إلا أن الله سبحانه شرَّفه وأكرمه بهذه النبوة والرسالة، ويعتقدون بأنه لم يصلب بل شُبِّه لمن أرادوا صلبه، وأنه رُفع بجسده إلى السماء وأنه حي فيها إلى الآن، وأنه سينزل منها آخر الزمان، وأن هذا النزول هو أحد علامات الساعة الكبرى[1].

خامساً : اعتداءات الحادي عشر من شهر سبتمبر عام 2001 م

مما لاشك فيه أن مما زكى عداء الغرب المعاصر للإسلام وأهله ورسّخه ـ بالإضافة للأسباب السابقة، أحداث الحادي عشر من شهر سبتمبر عام 2001م في الولايات المتحدة الأمريكية، المتمثلة في التفجيرات الضخمة الدامية في كل من واشنطن ونيويورك. فقد كانت هذه الأحداث بمثابة الهزة العنيفة جداً التي كشفت عن عمق الهوة التي تفصل بين العالمين الغربي والإسلامي، استغلها كثير من رجال السياسة والفكر والإعلام الغربيين للهجوم على الإسلام ومحاربة المسلمين في العديد من البلاد الإسلامية، بحجة الحرب على الإرهاب والإرهابيين، والسعي إلى تدنيس المقدسات الإسلامية، وانتهاك حرمات المسلمين، وبث وإنتاج الأفلام المسيئة للإسلام والمسلمين، وإمعان وسائل الإعلام عموماً في إلصاق النقائص والرذائل بالإسلام والمنتسبين إليه، والتطاول على شخص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بنشر الصور والرسوم الكاريكاتورية[2]، إلى غير ذلك من الأحداث والتداعيات العديدة التي أظهر فيها كثير من الغربيين عداءهم السافر للإسلام والمسلمين.

---

(1) راجع : جامع البيان ـ للطبري، جـ3، ص287 وما بعدها، وجـ4، ص351، ط الثالثة 1420هـ ـ 1999م، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(2) فقد نشرت بعض الصحف الدنماركية في سبتمبر من عام 2005 م، اثني عشر رسماً مسيئاً للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعادت نشرها صحيفة نرويجية في العاشر من يناير عام 2006م، وفعلت الشيء نفسه صحيفة (فرانس سوار) الفرنسية وبعض الصحف الأوروبية الأخرى.

الفصل الثاني

سبل علاج عداء الغرب للإسلام

على الرغم من كل ما تقدم من عوامل فكرية وثقافية عديدة مثَّلت وتُمثِّل إلى الآن عند الكثيرين أسباباً مهمة لعداء الغرب للإسلام والمسلمين ، فإنه ينبغي على العقلاء وأصحاب الضمائر الحية في العالمين الإسلامي والغربي من القادة والساسة والمفكرين والعلماء والمنظرين أن لا يركنوا إلى هذه الأسباب ويتقوقعوا عليها ويتشبثوا بها، بل يجب عليهم الخروج من دائرتها، واللجوء في معالجة المشكلات والخلافات بينهم إلى القنوات السلمية والوسائل الحضارية، لتقريب الشقة ورأب الصدع وردم الفجوة، والبحث عن كافة السبل الممكنة المشروعة لتكوين علاقة جيدة بينهم تسودها الأخوة والمحبة والتعاون والأمن والسلام، ويتفيأ ظلالها كل الأفراد والشعوب في هذين العالمين.

وعليه فإنه ينبغي على الغرب ـ بصفة خاصة ـ الالتزام بالعديد من الأمور الضرورية التي تمثل سبلاً مهمة لعلاج عدائه للإسلام والمسلمين وجسوراً قوية لتحقيق الأمن والسلام، والتواصل الإيجابي والتعاون المثمر البنَّاء بينه وبين العالم الإسلامي. ولعل من أبرز هذه الأمور ما يلي :

أولاً : معرفة الإسلام وحضارته

فأول ما يجب على الغرب القيام به معرفة الإسلام معرفة صحيحة، وتفهّم رسالته السماوية العالمية، والوعي بحضارته. ويستلزم هذا تغيير مصادر معرفة الغرب بالإسلام المتمثلة بكتابات المستشرقين[1]، والمتعصبين من رجال الكنيسة والساسة

---

(1) اعتاد كثير من المستشرقين في حديثهم عن الإسلام على ما يلي :

أ) إثارة الكثير من الشبهات حول سيرة النبي محمد (ﷺ) ورسالته، وحول التاريخ الإسلامي والفتوحات الإسلامية.

ب) التشكيك في العقيدة الإسلامية، وصحة القرآن الكريم، وأصالة الشريعة الإسلامية.

ج) التركيز على جماعات الغلو والتطرف، والطوائف المنحرفة والفرق الضالة التي نشأت في البلاد الإسلامية، وتمجيدها وتقديمها للقراء بوصفها الممثل الحقيقي للإسلام. وتجاهل فرقة أهل السنة والجماعة الممثلة الحقيقية للإسلام التي وُجِدت ـ بمنهجها الوسطي المعتدل ـ منذ مبعث النبي(ﷺ) ، وبقيت حاضرة في تاريخ الإسلام طوال حقبه التاريخية وحتى يومنا الحاضر.

د) تسليط الأضواء على الفترات القليلة الحرجة القلقة التي مرَّ بها المسلمون عبر تاريخ الإسلام. وغض الطرف عن فترات الإشعاع الحضاري والفكري التي تمثل معظم تاريخ الإسلام، والتي أفاد منها العالم الإنساني عموماً والعالم الغربي بوجه خاص.

وغيرهم، وكذا وسائل الإعلام المتنوعة التي غالباً ما يقوم عليها يهود حركيون.

فلابد لمعرفة الإسلام من الاعتماد على المصادر الموضوعية السليمة التي تُقدم الإسلام بكل أمانة وحيادية. ولابد من التمييز بين الإسلام ـ بوصفه رسالة سماوية ـ وما هو تراث للمسلمين، وكذا ما هو ممارسات للإسلام من مختلف الطوائف الإسلامية، ولاسيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م، وما تبعها من أزمات.

ولابد أيضاً من تصحيح سوء الفهم المتوارث من قِبل الثقافة الغربية عن الإسلام، فالغرب لا يزال ـ في الأغلب الأعم ـ ينظر إلى هذا الدين بمنظار القرون الوسطى، ولا تزال الأحكام المسبقة الموروثة والمفاهيم المغلوطة في هذا الصدد مترسخة في العقلية الغربية، ولا يزال الأطفال والناشئة في المدارس الغربية يُلَقَّنُون الكثير من تلك المفاهيم المغلوطة حول الإسلام، فَيشُبّون متشبعين بها.

ويعترف ـ على المستوى السياسي ـ كثير من رؤساء دول الغرب بسوء فهمهم للإسلام الذي عرفوه من خلال كتابات المستشرقين التي علا أكثرها التعصب والكراهية، والرغبة في تَصيد الأخطاء. ومن هؤلاء الرؤساء على سبيل المثال: الرئيس الألماني (رومان هرتسوغ) الذي قال ـ في خطاب له بعنوان (علاقتنا بالإسلام) بمناسبة تكريم المستشرقة الألمانية (آنا ماري شميل) وتسليمها جائزة السلام لرابطة الكتاب الألماني عام 1995م ـ : " تُعبّر علاقتنا الحالية بالإسلام عن واقعنا بوضوح، فوسائل الإعلام الألمانية محقة عندما تؤكد أن كلمة (الإسلام) تعني في أذهان كثيرين الربط بينها وبين العقوبات الشديدة، مثل : الإعدام، وقمع المرأة، والتعصب الديني، والأصولية المتشددة، إلا أن هذا الربط يُعبّر عن قصر نظر يجب علينا إصلاحه، ولنتذكر مرة واحدة أن تاريخ العالم شهد تنويراً إسلامياً منذ ستمائة أو سبعمائة عام، وهي النهضة التي حافظت للغرب على قسم كبير من أصول المعرفة اليونانية الأصيلة، والتي واجهته باعتباره تفكيراً غربياً، ووجدت فيه أصولية وتعصباً أيضاً، ويجب علينا أن نفهم أن العالم الإسلامي لا يمثل وحدة واحدة مثل عالمنا الغربي، وهو ليس أصولياً على

---

(1) الإسلام والغرب وإمكانية الحوار ـ لكاي حافظ، ص218، ترجمة: صلاح محجوب، ط عام 2005م، مكتبة الأسرة.

الإطلاق"[1].

فيجب على الغرب أن يُقدم إسهاماً بَنَّاءً لتصحيح سوء فهمه للإسلام والعالم الإسلامي، وتغيير تصوره للإسلام، ومحو وصفه له بالأوصاف التي هو منها براء كالتعصب والتطرف والإرهاب.

ثانياً : الاعتراف بالآخر واحترامه

إن المنطلق الصحيح لتكوين علاقة سلمية مع الغير هو الاعتراف بهذا الغير واحترامه وقبوله كما هو؛ ومن ثم قبول الاختلاف معه.

ولذا يجب على الغرب أن يعترف بالإسلام بوصفه ديناً سماوياً كسائر الأديان السماوية التي جاءت من عند الله خالق الكون والإنسان والمتصرف فيهما بعلمه وحكمته سبحانه، وأن يعترف بالمسلمين باعتبارهم جزءاً من المنظومة البشرية، وشريكاً في الحياة على ظهر هذا الكوكب لا يمكن تجاهله، ولاسيما في ظل ثورة عالم الاتصالات والمواصلات وتداخل المصالح المختلفة.

كما يجب على الغرب أن يعترف بالخصوصية الثقافية للمسلمين وأن يحترم ثوابتهم الدينية، وأن يُغيّر ما تقوم عليه سياساته من إيمان بتعددية ذاتية لا مجال فيها للآخر، وأن يتخلى عما يسعى إليه من فرض مركزية حضارته وهيمنته السياسية وبسط نفوذه الثقافي على العالم.

يقول الدكتور محمود زقزوق : " لابد من إزالة أسباب سوء الفهم على الجانب الغربي، وتفهّم وجهة النظر الإسلامية، والبعد عن النظرة الاستعلائية الأحادية التي تنظر إلى الحضارة الغربية وقِيَمها على أنها هي وحدها التي يجب أن تسود بصورة مطلقة، الأمر الذي يعني إلغاء الآخر بما له من حضارة وقِيم يعتز بها"[1].

ثالثاً : كف وسائل الإعلام عن الإساءة للإسلام والمسلمين

فلابد أن تكف وسائل الإعلام الغربية المقروءة والمرئية والمسموعة عن تشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى الرأي العام، الأمر الذي كان ولا يزال له الأثر البالغ في

---

(1) الإسلام في مرآة الفكر الغربي، ص189، ط الرابعة عام 1994م، دار الفكر العربي.

إيجاد حواجز قوية بين العالمين الإسلامي والغربي في عصرنا الحاضر، وتخويف الغرب من الإسلام وكراهيته له.

فقد دأبت كثير من وسائل الإعلام الغربية على تقديم صورة سلبية، بل وسيئة في الغالب عن الإسلام والمسلمين[1]، حيث تسم الإسلام بالتطرف والإرهاب والعنف، وتصف المسلمين بأنهم شعوب تحب أعمال التخريب والاختطاف والاغتيال، وتستأنس بالخيانة والغدر، وتهوى أعمال الإرهاب واغتصاب النساء، وكافة الأعمال الإجرامية والوحشية. وكثيراً ما تربط الوسائل الإعلامية الغربية بين الإسلام ـ بوصفه ديناً سماوياً ـ وتصرفات وتوجهات بعض الحركات والطوائف المنتمية إليه، ولا تفرق هذه الوسائل في الكثير من الأحيان بين المسلمين المعتدلين في ممارستهم الدينية وبين غيرهم من الجماعات الإسلامية التي تتأرجح في فكرها وممارستها ما بين الإفراط والتفريط.

وكثيراً ما تقدم وسائل الإعلام الغربية المرئية المخربين بأعمالهم الإجرامية على أنهم الممثلون الحقيقيون للإسلام ومبادئه، والمعبرون عن الروح العدوانية الحقيقية الكامنة كما تزعم في عقيدة الإسلام وشريعته، لتعلن للعالم أجمع بالصوت والصورة أن الإسلام دين عنيف دموي، يشجع على الإرهاب ويرفض التعايش والاندماج مع الشعوب الأخرى.

رابعاً: احترام إرادة الشعوب في اختيارها لدساتيرها وقوانينها ومنهج حكمها ورؤسائها وحاكميها

فكما لا تقبل الدول الغربية أن يتدخل أحد من الخارج في انتخاب رؤسائها وتعيين حاكميها، عليها ألا تتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد الإسلامية بطريق مباشر أو غير مباشر. وكما لا تقبل الدول الغربية مثلاً أن تحكم بشريعة الإسلام، عليها في

---

(1) من الصحف التي اشتهرت بهذا المنحى: صحيفة (نيويورك تايمز)، وصحيفة (واشنطن بوست)، وصحيفة (دالاس نيوز)، وصحيفة (نفوبوست)، وصحيفة (شيكاغو تريديون)، وصحيفة (يولاند بوستن) الدنمركية التي نشرت في أواخر سبتمبر عام 2005م الرسوم الكاريكاتورية الساخرة بالنبي محمد (ﷺ)، ومن الأفلام السينمائية الكثيرة التي أظهرت العرب المسلمين بأبشع الصور وأقبح الأوصاف: فيلم (أرابيسك) عام 1966م، وفيلم (الحصان الأسود) عام 1979م، وفيلم (الفردوس) عام 1982م، وفيلم (ذعر الإرهاب) عام 1987م، وفيلم (أكاذيب حقيقية) عام 1994م، وفيلم (قرار مصيري) عام 1995م، وفيلم (فرق الإرهاب) عام 1998م. وللاستزادة راجع: صورة العرب والمسلمين النمطية في الإعلان الغربي ـ للدكتور محمد سعيد السرحاني، ضمن بحوث (المؤتمر العالمي الخامس عن العالم الإسلامي والغرب)، ج3، ص1367.

المقابل أن لا تحاول فرض نموذجها العلماني الليبرالي على الشعوب الإسلامية، وقد آن الأوان لاعتراف الرجل الأبيض أنه ليس وحده القاطن في هذا الكوكب، وليس وحده المؤهل للتفكير والتنظير والتنفيذ أصالة عن نفسه ونيابة عن غيره، فتلك مرحلة في طريقها إلى الانتهاء بعد عودة المسلمين إلى أصالتهم وحضارتهم، وبزوغ نجم الدول الكبرى في الشرق بازدياد قوتها البشرية والاقتصادية ليستمر التدافع والتوازن الذي إذا اختفى اختفت الحياة، يقول تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

خامساً: العمل على إرساء مبدأ التعاون والتشارك مع العالم الإسلامي، بدلاً من احتلال بلاده، واستغلال مقدرات هذه البلاد، والاستيلاء على خيراتها وقهر شعوبها.

وينبغي على الغرب في هذا السياق أن يقنع بأن ثروات ما يسمى بدول العالم الثالث ليست ملكاً للغرب يستولي عليها مباشرة أو عن طريق أعوان يصنعهم على عينه ويتعاهدهم بحمايته ورعايته، بل هي ملك للشعوب التي جعلها الله في أرضها وخصّها بها. وليس خافياً أن استيلاء الدول الغربية على ثروات الشعوب في الماضي والحاضر سبَّب الكثير من المجاعات والكوارث الاقتصادية والإنسانية لهذه الشعوب[3].

سادساً: احترام المبادئ الإنسانية المشتركة، كالحرية، والمساواة، والعدل، والتسامح، وحقوق الإنسان، وتفعيلها في كل أوجه التعامل مع العالم الإسلامي. ويؤخذ على بعض الدول الغربية ترسيخها لهذه المبادئ والقيم في بلادها وبين مواطنيها، وتشجيعها في كثير من الأحيان للعنصريات والظلم والاستبداد في الدول الأخرى، ولاسيما الإسلامية

---

(1) سورة البقرة، الآية: 251.

(2) انظر: التعايش مع الآخر حقيقة تاريخية وضرورة واقعية ـ للشيخ محمد الحسن الشنقيطي، ص3 ـ 4 وهو ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر السنوي الثاني (نحن والآخر) الذي نظمته وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بدولة الكويت خلال الفترة 3/2006.

(3) انظر: المرجع السابق، ص3.

منـهـا، وهـو أمـر أثـبـتت الأحداث الأخيرة ضـرره الـبـيِّن على الجانبين الإسلامي والغربي.

ويجب على الغرب في هذا الجانب الالتزام بالحياد التام في قضية النزاع العربي الإسرائيلي، وإيقاف الدعم المادي والمعنوي المباشر وغير المباشر للاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية عموماً، ولفلسطين المحتلة خصوصاً.

كما يجب على الغرب اجتناب التضييق على المسلمين الذين يعيشون في البلاد الغربية، وإعطاؤهم قدراً مما ينادي به من إطلاق الحريات الدينية، ولا سيما في ما يتعلق بقضية حجاب النساء المسلمات.

سابعاً: تخلي أهل الحضارة الغربية عما دأبوا عليه من خوف دائم من أن تضعف أو تزول سيطرتهم، ومن حرص دائم لذلك بأن لا يتطور غيرهم. إن هنتنجتون يرى أن الصدام القادم سيكون بين الحضارة الغربية من جهة والحضارتين الإسلامية والكنفشيوسية من جهة أخرى، أي أن الحضارتين الإسلامية والكنفشيوسية ستتعاونان على مواجهة الحضارة الغربية. والسؤال المهم هنا : لماذا تتعاون هاتان الحضارتان؟، ألأن الصلة بينهما أقوى من صلة كل منهما بالحضارة الغربية؟، إن هنتنجتون يخبرنا بأن أهم مكون للحضارة هو الدين، فهل يعتقد أن الكنفشيوسية أقرب إلى الإسلام من النصرانية ؟. لا نظن أحداً يعرف الديانتين ويعرف مكانة النصرانية واليهودية في الإسلام بالنسبة إلى غيرهما من الأديان يمكن أن يقول هذا. وإذن فالسبب الحقيقي لهذا التعاون ـ إن حدث ـ لن يكون نابعاً من طبيعة هاتين الحضارتين، بل من معاملة الحضارة الغربية لهما، أي أن الحضارة الغربية هي التي تدفع الآخرين لمعاداتها حين تعمل على الوقوف في طريق التطور الطبيعي لغيرها، وحين تعد كل ما عداها خطراً عليها، فتتحدث عن الغرب والآخر تماماً كما كان بعضهم ولعله لا يزال يصف

(1) انظر: موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى ـ للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس، وهو بحث منشور على موقع الشيخ جعفر على الإنترنت بتاريخ رمضان 1416 هـ، الموافق فبراير 1996 م، ص16–17 .

كل من ليس على دينه بالأميين، ولا يرى أنه مُلزم في التعامل معهم بخلق ولا دين[1].

ثامناً : الحوار والتفاعل الحضاري

ينبغي على الغرب إجراء حوار حضاري فعَّال مع العالم الإسلامي يقوم على المبادئ والأسس التالية :[1].

أ) نشدان الحق والبحث عنه، والسعي إلى الحقيقة والتماسها، والقصد إلى ما فيه الصالح العام من شتى الطرق التي ليس فيها انحراف عن محجة العقل وبمختلف الوسائل التي تحقق مصالح العباد والبلاد.

ب) وحدة الأصل للبشرية جمعاء، فالله سبحانه خلق الناس جميعاً من نفس واحدة هي آدم عليه السلام، يقول عز وجل : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[2]، ويقول أيضاً ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَلِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّكِرِينَ ﴾[3]، ويقول : ﷺ « إنما أنتم ولد آدم»[4].

ج) الاعتراف بالآخر، وعدم إجباره على تغيير دينه. فقد تضافرت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة مقررة ومؤصلة هذا المبدأ الحضاري الناصع، لعل من أبرزها قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا ٱلْكَفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنْتُمْ عَبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ وَلاَ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنْتُمْ عَبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[5]، وينهى الإسلام نهياً صريحاً عن جميع الممارساتً والتصرفات التي تؤدي إلى نفي الآخر أو إقصائه، أو إكراهه على

---

(1) راجع في هذا كلاً من: المرجع السابق ص 14 وما بعدها. وأسس الحوار بين الأديان ـ لإدريس العبد لاوي، بحث منشور ضمن كتاب (العولمة والهوية) لأكاديمية المملكة المغربية عام 1417هـ ـ 1997م، ص 138 وما بعدها. وحوار لا صدام منهج التواصل بين حضارات العالم ـ للدكتور علي الزميع، بحث منشور في مجلة (آفاق الإسلام) في العدد (24) الصادر في ديسمبر 1998م، ص87 وما بعدها.

(2) سورة النساء، الآية : 1.

(3) سورة الأعراف، الآية : 189.

(4) رواه الإمام أحمد في المسند من حديث عقبة بن عامر رضي اللَّه عنه، الحديث رقم (17313)، ج 28، ص 548، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت، وقال محققو المسند : " إسناده حسن ".

(5) سورة الكافرون، الآية : 6.

(6) سورة البقرة، الآية : 256.

تغيير دينه ومعتقده، حيث يقول عز وجل : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى لاَ ٱنْفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[6].

هـ) الاحترام المتبادل بين الأطراف المتحاورة، وهو من المنطلقات الأساسية التي يجب أن يرتكز عليها الحوار، وهذا يستلزم وجود قواسم مشتركة تكون إطاراً عاماً وأرضية صلبة للحوار. ولنا في القيم الدينية أولاً، ثم في المبادئ الإنسانية والقواعد القانونية ثانياً، غناءٌ لجميع الفرقاء المشاركين في الحوار، على أي مستوى كان، وهي جميعاً قيمٌ ومبادئ تحكم علاقات البشر بعضهم مع بعض، وتضبط مسار حركاتهم وسكناتهم وتضع القواعد الثابتة للتعامل فيما بينهم، وبذلك نضمن ألا يكون الحوار ساحة للجاج العقيم، والتطاول على أقدار الناس، والمس بمكانتهم، وتبادل الإساءة فيما بينهم، ولئلا يفقد الحوار صبغته الحضارية.

و) الإنصاف والعدل، فهو شعور يخاطب كل إنسان، ولا حياة إنسانية مستقرة بدون عدل، ولذا أمر الله سبحانه بـه، حيث يقول سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1]، ويقول سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلأَمَنَتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نَعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ، إِنَّ الله كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾[2]، ويقول كذلك : ﴿ يَأَيُّهَا الذين أَمنُوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّتَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[3].

والعدل هو أساس الحوار الهادف الذي ينفع الناس ويمكث أثره في الأرض، ويتطلب الإقرار بالحقيقة والاعتراف بالفضل لأهله، كما أنه روح الشريعة الإسلامية، والأساس الراسخ في الشرعية الحضارية التي ينبغي أن تكون منطلقاً للحوار أيّاً كان مستواه، ومهما تكن أهدافه.

وهكذا يفتح الحوار المجال واسعاً أمام تفاهم المجتمعات، ويؤدي إلى تقارب الثقافات، ويسهم في تلاقح الحضارات، وهو ما يصطلح عليه الباحثون بـ" التفاعل الحضاري"، الذي يستند في مفهوم الإسلام إلى مبدأ التدافع الحضاري، لا الصراع الحضاري، وهو المبدأ القرآني المحض الذي نجد له أصلاً في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ

(1) سورة النحل، الآية : 90.

(2) سورة النساء، الآية : 58.

(3) سورة المائدة، الآية : 8.

(4) سورة البقرة، الآية : 251.

ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ، وَلَكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العلَمِينَ ﴾[4] ونقف على معنى آخر له في قوله تعالى : ﴿ وَلَاتَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ، اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوةٌ كَأَنَّه وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[1]، فالتفاعل إذاً في منظور الإسلام عملية تدافع لا تنازع، وتحاور لا تناحر، والتفاعل حياة والتصارع فناء.

والتفاعل الحضاري عندنا حوار دائم مطرد، ينشد الخير والحق والعدل والتسامح للإنسانية قاطبة، ولا يسعى في الأرض بفساد، ولايقبل أن يكون غزواً للثقافة الإسلامية، ولا محواً للحضارة الإسلامية، ولا تنصلاً من مبادئ الإسلام وذوباناً في ثقافات الأمم والشعوب[2].

تاسعاً : التعايش السلمي بين الثقافات والحضارات[3]

بالرجوع إلى الدلالة اللغوية لكلمة (التعايش) في المعاجم اللغوية نجد ما يلي:

عايشه : أي عاش معه، كقولهم عاشره، قال قعنب بن أم صاحب:

لا نبرحُ الدهر إلا بيننا إحَنُ وقد عَلِمتُ على أني أعايشهم

والمعيشة : ما يُعاش به[4].

وتعايشوا : أي عاشوا على الألفة والمودة، ومنه التعايش السلمي، والعيش: الحياة، وما تكون به الحياة من مطعم ومشرب[5].

والمراد بالتعايش السلمي هنا : أن تلتقي إرادة الشعوب بثقافاتها وحضاراتها المختلفة في العمل المشترك من أجل أن يسود الأمن والسلام في العالم، ولكي تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعم بني البشر جميعاً.

ولكي يتحقق ذلك لابد من الاستناد على الأسس التالية :

---

(1) سورة فصلت، الآية : 34.

(2) انظر : الحوارمن أجل التعايش ـ للدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، ص23.

((3) اعتمدتُ في بيان العديد من مسائل هذا المبدأ على المرجع السابق، في الصفحات : 75–95. ومن أراد الاستزادة فليرجع إليه بصفحاته المذكورة.

(4) انظر: لسان العرب ـ لابن منظور، مادة (عيش).

(5) انظر كلاً من : القاموس المحيط ـ للفيروز آبادي، باب الشين فصل العين، والمعجم الوسيط ـ لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج 2، ص 639-640 ، دار الفكر.

الأساس الأول : الإرادة الحرة المشتركة، بحيث تكون الرغبة في التعايش نابعة من الذات، وليست مفروضة تحت ضغوط، أياً كان مصدرها، أو مرهونة بشروط مهما تكن مسبباتها.

الأساس الثاني : التفاهم حول الأهداف والغايات، حتى لا يكون التعايش فارغاً من أي مدلول عملي، أو لا يحقق الفائدة للطرفين. فيجب أن يكون القصد الرئيس من التعايش هو : خدمة الأهداف الإنسانية السامية، وتحقيق المصالح البشرية العليا، وفي مقدمتها ما يلي :

1. استتباب الأمن والسلم في الأرض، والحيلولة دون قيام أسباب النزاعات والحروب.
2. ردع العدوان والاضطهاد والظلم الذي يلحق بالأفراد والجماعات.
3. منع كل السياسات والممارسات التي تُهضم فيها حقوق الشعوب، أو تُفرض فيها وصاية أمة على أمة أخرى على أي مستوى من المستويات.
4. محاربة العنصرية والعرقية واستعلاء جنس على جنس آخر.
5. إرساء مبدإ التعاون بين الشعوب، واحترام الخصوصيات والمعتقدات.
6. نشر المعارف وحفز المواهب وإثراء الثقافات، وتمكين الشعوب من اكتساب المعرفة والمشاركة في التقدم العلمي والانتفاع بثماره.

الأساس الثالث : التعاون على العمل المشترك من أجل تحقيق الأهداف المتفق عليها، ووفقاً لخطط التنفيذ التي يضعها الطرفان الراغبان في التعايش المصممان عليه.

الأساس الرابع : صيانة هذا التعايش بسياج من الاحترام المتبادل، ومن الثقة المتبادلة أيضاً، حتى لا ينحرف التعايش عن الخط المرسوم، وحتى لا تغلب مصلحة طرف على مصلحة الطرف الثاني، مهما تكن الدواعي والضغوط، وذلك بأن يتم الاحتكام دائماً إلى القواسم المشتركة، وإلى القدر المشترك من القيم والمثل والمبادئ التي لا خلاف عليها ولا نزاع حولها، يعزز ذلك كله : الالتزامُ من الجانبين بما اجتمعت عليه إرادة المجتمع الدولي من مبادئ قانونية استوحاها تطور الفكر السياسي الإنساني من قيم الأديان السماوية عبر تراكم المعرفة طول حقب التاريخ.

والتعايش السلمي بهذا المفهوم وبتلك الأسس لا شك هو أحد الجسور المهمة

للعلاقة التي ينبغي أن تكون في وقتنا الحاضر بين العالم الإسلامي والغرب، وهو من الثمار الطيبة المرجوة من معرفة الغرب وإجراء حوار حضاري معه، وهو أيضاً أحد مبادئ الإسلام الأساسية، بوصفه رسالة عالمية، فقد بعث الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام رسولاً للعالمين، ولم يبعثه لقومه العرب من دون غيرهم، يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً، وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ ﴾[1]، ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيءِ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[2]، وأكدت الرسالة الإسلامية علٰى الوحدة الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم، يقول تعالى : ﴿ يَأَيها الناس إنا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجعَلناكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَيكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3]، وقد بلَّغ النبي ﷺ هذه الرسالة في حجة الوداع، فتلا هذه الآية وقال : «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[4]، وهذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف، وإلى ترك التعادي بالتخالف[5].

---

(1) سورة سبأ، الآية : 28.

(2) سورة الأعراف، الآية : 158.

(3) سورة الحجرات، الآية : 13.

(4) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث العداء بن خالد، الحديث رقم (20336). وقال عنه الهيثمي في (مجمع الزوائد) : " رجاله رجال الصحيح "، ج3، ص 266، ط الثالثة 1402هـ ـ 1982م، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(5) انظر : الوحي المحمدي ـ للشيخ محمد رشيد رضا، ص 169، ط السادسة 1960م، مكتبة القاهرة ـ القاهرة.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وفي ختام هذا البحث المتواضع أود أن أؤكد على أمور هامة لابد منها لتحقيق العلاقة الفكرية الثقافية الجيدة بين العالمين الإسلامي والغربي، وهي:

1. قيام الحكومات في البلاد الإسلامية بدعم الهيئات الإسلامية الكبرى في العالم الإسلامي، ووزارات الشؤون الإسلامية، والمراكز الدعوية، والجامعات الإسلامية ونحوها، لتقوم بوظائفها الأساسية المنوطة بها، والمتمثلة في خدمة الإسلام والمسلمين، ومناصرة قضاياهم في العالم، ودعوة الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

2. قيام هذه الهيئات والوزارات والمراكز الدعوية والجامعات الإسلامية ـ بوصفها ممثلة للإسلام ـ بالمشاركة الإيجابية في كل الفعاليات العلمية والتظاهرات الثقافية العالمية، لتقديم الإسلام بصورته الصحيحة النقية، ليكون لهذا الدين حضور فاعل في حياة كافة المجتمعات، على اعتبار أنه أحد الأطراف الأساسية المهمة المعنية بتقديم الحلول الحاسمة لقضايا العصر المختلفة.

3. العمل على إعداد دعاة متميزين يتقنون اللغات الأجنبية إعداداً خاصاً، وتزويدهم بكل أوعية المعلومات العلمية التي تعينهم على التعامل مع واقع عصرهم، ومجابهة حملات التشويه الإعلامي، ومخاطبة العقل الغربي بروح علمية دعوية منفتحة.

4. الاستفادة من الجاليات المسلمة التي تعيش في الغرب في تحقيق التواصل المنشود، فهذه الجاليات بحكم معرفتها الجيدة بالغرب ومعايشتها اليومية له تستطيع ـ إذا وعت ونشطت وقدمت نموذجاً مشرفاً للإسلام بحسن أخلاقها وسلوكها الحضاري ـ أن تصحح الصورة المشوهة للإسلام لدى الإنسان الغربي، وأن تؤدي دور الجسر المهم وقناة التواصل الإيجابي بيننا وبين

الغرب.

5. استثمار وسائل الإعلام وتقنية الاتصالات الحديثة ونقل المعلومات في تقديم الفكر الوسطي، ونشر منهج الاعتدال في التعامل مع أحداث العصر وقضاياه، وفي تصحيح تصور الغرب عن الإسلام والمسلمين، وفي محاربة كل ألوان الفساد والإفساد في الغرب والشرق على حد سواء، وفي إقناع الناس بأن الاختلاف في الأديان والحضارات والثقافات واللغات والقوميات إنما هو سنة كونية إلهية وظاهرة بشرية طبيعية، وفي التأكيد على أن من الحقوق المشروعة لكل أمة الحفاظ على هويتها الحضارية، وخصوصيتها الفكرية الثقافية، وأن ذلك لا يتعارض ألبتة مع التعاون الحضاري المشترك بين الأمم بعضها مع بعض.

6. سد كل المنافذ والطرق التي تؤدي إلى إذكاء جذوة الخلاف والنزاع بين الإسلام والغرب. ومن ذلك على سبيل المثال : مطالبة الحكومات الغربية باستحداث قوانين للرقابة على الكتابات التي تسيء إلى الرسل عليهم السلام وتنال منهم بالجرح والطعن والامتهان، فإن حرية الفكر المطلقة التي تتيح الفرصة وتفسح المجال لهذه الإساءة بأسلوب يفتقر إلى اللياقة والأدب؛ لا شك أمر من شأنه إثارة المشاعر الإيمانية والعواطف الدينية، وهذا بدوره يؤدي إلى توتر العلاقات وإيقاد نيران العداوة والخلافات.

7. توسيع دائرة التعاون بين العالمين الإسلامي والغربي لتحقيق كل ما يعود عليهما بالنفع والفائدة، ولتحقيق الأمن والسلام في ظل سيادة القانون الدولي واحترام حقوق الإنسان، وإقرار الحريات المنصوص عليها في المواثيق والاتفاقيات الدولية. فلابد ـ مثلاً ـ من التعاون على القضاء على كل أسباب التوتر واضطراب الأمن والسلم في أنحاء عديدة من العالم، أمثال : فلسطين، والعراق، ولبنان، وأفغانستان، والشيشان، والصومال، وكشمير، والفلبين.

ولابد أن يشمل التعاون: إنصاف جميع المظلومين والمضطهدين بدون استثناء، وإلزام كل من يمارس الظلم والقهر والإفساد على مستوى الدولة أو على مستوى الأفراد والجماعات بالانصياع إلى تعاليم الأديان السماوية واحترام القانون الدولي.

كذلك ينبغي أن يشمل التعاون : العمل المشترك لمحاربة الإلحاد، والتفرقة العنصرية، والانحلال الخلقي، والتفكك الأسري، وانحراف الناشئة، وللمحافظة على

سلامة البيئة، ومقاومة كل الآفات والأمراض والأوبئة التي تهدد سلامة المجتمعات وتضر بالحياة الإنسانية.

8. وأخيراً سعي الدول الإسلامية إلى إنارة نفسها بالإسلام لتنير به غيرها، وإلى أن تعمل جاهدة على إعادة قيم الإسلام ومبادئه إلى واقع الحياة الإنسانية، لتكون سلوكاً واقعياً عملياً، ومن ثم تقديمها إلى غير المسلمين. ولا يخفى أن الدول الإسلامية يسودها اليوم الكثير من المظاهر المنحرفة التي لا يقرها الإسلام ولا تتقبلها الأمم الراقية المتحضرة، سواء كانت هذه المظاهر سياسية أو اقتصادية أو خلقية، أو اجتماعية. وكما يقال دائماً فاقد الشيء لا يعطيه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الصورة النمطية للثقافة الإسلامية في الأبحاث الغربية

الدكتور عبد الناصر السباعي(*)

مدخل :

إن الأبحاث والدراسات في الأوساط الجامعية الغربية تعمل على ترسيخ تصور سلبي وخاطئ للثقافة الإسلامية. وللكشف عن هذا التصور قمنا بفحص عينة تشتمل على 22 من الدراسات النفسية التي تصنف في إطار الأبحاث عبر الثقافية، وقد أنجزت في المنطقة العربية الإسلامية فيما بين الخمسينيات والثمانينيات من القرن الماضي. والملاحظ أن أغلب تلك الأبحاث (11 بحثا منها) تم إجراؤها في لبنان. ويرجع تركيز الأبحاث في لبنان إلى واقع خاص بهذا البلد، وهو كونه يحتضن جامعة بيروت الأمريكية، التي تعتبر أهم مؤسسة جامعية أمريكية خارج تراب الولايات المتحدة. وتضم الجامعة قسما لعلم النفس يعمل بالطريقة الأمريكية. ومعروف أن البحث الجامعي الأمريكي يركز على الدراسات الميدانية الجزئية، الأمر الذي يفسر النشاط المكثف للباحثين من الجامعة المذكورة في الوسط اللبناني. ورغم وجود جامعة أمريكية أخرى في مصر (القاهرة) فليس لها نشاط ملحوظ في الخارج، وتبقى أعمال الباحثين من جامعة بيروت الأكثر ذيوعا ليس في العالم العربي الإسلامي فحسب، وإنما أيضا في العالم الغربي.

أهداف البحث :

لقد كان هدفنا الرئيس هو تعرية المنطلقات أو الخلفيات النظرية التي يحملها الباحثون عن الثقافة العربية الإسلامية؛ إذ هي التي توجه الباحث نحو اختيار ظواهر بعينها دون أخرى ليدرسها، وتدفعه إلى تفسير نتائجه بما يؤكد تلك الخلفيات. غير أن الطابع الضمني لهذه الأخيرة يجعل مهمة الكشف عنها غير ميسورة لأن الباحثين قلما

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ ظهر المهراز ـ فاس.

يفصحون عنها، وحتى حين يعبرون عنها فإنهم يكتبون بإيجاز وكأنهم يعتبرون القارئ ملما بالموضوع بشكل يعفيهم من التفصيل فيه، وأحيانا يحيلونه على كتابات أكثر تخصصا للتوسع فيه. ونحن لن نبحث في تلك المراجع عن مادة موضوعنا، بل سنعمل على جمع الأفكار التي لها علاقة بتصور الباحثين للثقافة العربية الإسلامية من الأبحاث التي أنجزوها فقط ونقوم بترتيبها وعرضها بحيث تعطينا فكرة متكاملة ما أمكن عن هذا الموضوع.

السلطوية أبرز سمات الثقافة العربية الإسلامية:

لقد لاحظنا من خلال فحصنا للدراسات المعنية أن الطريقة التي يكتب بها الباحثون عن الثقافة العربية تعتمد على وصف بعض سمات الشخصية القاعدية للإنسان العربي. وتبرز أغلب الأبحاث[1] التي فحصناها سمة السلطوية (Autoritarianism) كأهم صفة للشخصية العربية، والتي تعبر عنها إيديولوجية الأسرة العربية التقليدية خير تعبير، حسب رأي دياب[2].

السلطوية داخل الأسرة :

إن الأسرة العربية تعكس السلطوية في بنيتها الأبريسية حيث لا تزال النساء خاضعات للرجال[3]؛ إذ الدور المنوط بالمرأة ينحصر في أن تتزوج وتكون ربة بيت مقتدرة وتنجب أطفالا كثيرين. ولهذا يدفع الآباء بناتهم إلى مغادرة المدرسة في سن مبكرة ليتهيأن للحياة الزوجية، خاصة وأن الرجال يفضلون الزواج من بنات ذوات مستوى تعليمي منخفض لكنهن ماهرات في القيام بمهام البيت[4]. إن السلطوية تبدأ إذن من داخل الأسرة، ثم تمتد إلى الحياة الاجتماعية والسياسية للأمة، حسب رأي

---

(1) راجع بهذا الصدد.

MELIKIAN L. H. & DIAB L. N. : Group affiliations of university students in the Arab Middle East. p 146.

- MELIKIAN L. H. : The use of selected TAT cards among Arab university students : a cross-cultural study. p 5.
- SALLERY R. D. H. & LINDGREN H. C. : Arab attitudes toward authority. p 27.
- TOMEH A. K. : Alienation : a cross-cultural analysis. p 187.

(2) DIAB L.N. : Authoritarianism and prejudice in Near Eastern students attending american universities. p 181.

(3) BOTHA E. : The achievement motive in three cultures. p 164.

(4) نفس المرجع السابق.

بروثرو وميليكيان[1]. ولهذا نجد عددا من الباحثين لا يتحرجون في نعت المجتمعات العربية بالسلطوية واعتبار هذه الصفة أمرا عاديا لا يحتاج إلى إثبات. ويمكن التأكد من هذا بقراءة عناوين بعض المقالات المنشورة[2].

وهكذا يرى ميليكيان[3] أن السلطوية تترجم في حياة الأفراد بعدد من المحرمات والأدوار المحددة سلفا. ويؤكد هذا الكاتب أيضا أن الثقافة العربية الإسلامية لا تعرف النسبية في التقييم، فالقيم والتصرفات إما صائبة أو خاطئة وإما جائزة أو محرمة.

ففيما يتعلق بالعلاقة بين الجنسين مثلا تضع لها التقاليد حدودا ضيقة وصارمة. فلا تثار الموضوعات ذات الصلة بالمسألة الجنسية إلا بين الأقران، كما يمنع الاختلاط بين الجنسين بشكل عام ويحدد لكل جنس نموذج سلوكي متميز عن سلوك الجنس الآخر[4]. وحسب رأي كلابيي فالادون[5] فإن دور الرجال يتمثل في وجوب إثبات قدرتهم على ممارسة السلطة. ولهذا يدفع الشبان إلى تولي مهمة الدفاع عن شرف الأسرة ومصالحها، ويعهد إليهم بالسهر على صيانة عرض العائلة الكبيرة بغيرة وشهامة سواء أتعلق الأمر بأخواتهم أم ببنات أخواتهم وإخوانهم أو غيرهن من نساء الأقارب. وحينما يصبحون أزواجا يطلب إليهم ألا يتساهلوا إطلاقا في مسألة بكارة زوجاتهم وفي صحة أبوتهم لأبنائهم.

كما أن من الامتيازات التي يتمتع بها الرجال كونهم لا يحاسبون على مغامراتهم الجنسية قبل الزواج، بينما تعتبر كل ممارسة جنسية للفتيات خارج إطار

---

(1) نقلا عن :

- DIAB L.N. : Authoritarianism and prejudice in Near Eastern students attending american universities. p 182.

(2) راجع بهذا الصدد

- PROTHRO E. T. & MELIKIAN L. H. : The california public opinion scale in an authoritarian culture.
- MELIKIAN L. H. : Some correlates of authoritarianism in two cultural groups.
- MELIKIAN L. H. : Authoritarianism and its correlates in the Egyptian culture.
- DIAB L.N. : Authoritarianism and prejudice in Near Eastern students attending american universities.

(3) MELIKIAN L. H. : The use of selected TAT cards among Arab university students : a cross-cultural study. p 5.

(4) MELIKIAN L. H. : Social change and sexual behavior of Arab university students. p 170.

(5) CLAPIER-VALLADON : Expérimentation d'un questionnaire de personnalité dans deux sociétés différentes : Madagascar et Algérie. p 286.

الزواج جريمة لا تغتفر وقد تكلفهن حياتهن[1]. حتى أثناء الخطوبة، هناك حدود ضيقة للقاء بين الخطيبين حيث لا يسمح بها إلا بحضور أفراد من عائلة المخطوبة أو بعض صديقاتها أو زوجين آخرين[2]. ويعقد الزواج عادة بين شابين تجمع بين عائلتيهما صلات قرابة أو انتماءات دينية متشابهة أو مكانة اقتصادية متقاربة.

ويحدد انتماء الفرد الاجتماعي دوره وموقعه داخل المجتمع العربي. ويعد ميليكيان ودياب[3] الانتماء إلى إحدى خمس فئات اجتماعية حاسما بهذا الصدد، وهي: الأسرة، الدين، العرق، الوطن والحزب السياسي. ونلخص فيما يلي مميزات كل فئة وأهميتها بالنسبة إلى الفرد، حسب نص الكاتبين طبعا.

فأما الأسرة فتعتبر الفئة المرجعية الأكثر أهمية بالنسبة للإنسان العربي. وهي تقتضي من أعضائها دعما وولاء غير مشروطين. لكنها في مقابل ذلك، توفر لهم الحماية والسند اللذين يحتاجون إليهما لممارسة أنشطتهم السياسية والاقتصادية. وفي داخل الأسرة نفسها، يتحدد دور الأعضاء تبعا لسنهم وجنسهم. فالرجل الأكبر سنا يتمتع بأكبر قدر من الامتيازات كما يتحمل أكبر قدر من المسؤوليات، ويدين له سائر أعضاء الأسرة بالاحترام والطاعة. وفي حالة غيابه أو موته يحل محله الرجل الأكبر سنا بين بقية أفراد الأسرة [4].

ويلعب الدين دورا مهما أيضا داخل المنظومة الثقافية لبلدان الشرق الأوسط، على وجه الخصوص، ليس كقوة روحية ولكن كبنية أساسية للمجتمع. فنظرا لتعدد الأديان (الإسلام، النصرانية واليهودية) وكثرة الطوائف داخل الدين الواحد في المنطقة، والوزن السياسي المختلف لكل منها، فإن الانتماء إلى ديانة معينة أو طائفة دينية لا يحدد فقط نطاق علاقات الفرد بغيره من أفراد المجتمع ولكن يحدد أيضا فرص اختيار مهنته ونشاطه السياسي[5]. وكمثال على أثر الدين في الحياة الاجتماعية للمنطقة يورد دياب[6] مسألة الترشيح لانتخابات مجلس النواب في الجمهورية اللبنانية، حيث يتم

---

(1) MELIKIAN L. H. : Social change and sexual behavior of Arab university students. p 170.

(2) CONSALVI C. : Some cross- and intracultural comparisons of expressed values of Arab and American college students. p 96.

(3) MELIKIAN L. H. & DIAB L. N. : Group affiliations of university students in the Arab Middle East.

(4) نفس المرجع السابق، ص 146.

(5) نفس المرجع السابق.

(6) DIABL. N: Authoritarianism and preyudice innear Eastern students attending american universities p182.

توزيع المناصب السياسية في الحكومة والبرلمان على أساس الانتماء الديني والطائفي بالدرجة الأولى.

وفيما عدا هذا الدور، لا نجد شيئا يستحق الذكر عن موقع الدين في الثقافة العربية الإسلامية. فمثلا تلخص طومي[1] دور الدين بقولها إنه "من الناحية التقليدية، يتميز الشرق الأوسط بنظامه الأخلاقي الديني." ويكتب دياب[2] "أن الدين عامل مهم في العلاقات الشخصية الحميمية." ويضيف مفسرا هذه الجملة بأن "الدين يلعب دورا حاسما بالنسبة للرجل في اختيار زوجته، مثلا".

وتمثل الفئات العرقية مجموعات مرجعية ذات أهمية بالنسبة للفرد أيضا. فإلى جانب العرب تتواجد مجموعات عرقية متعددة : بربر، أكراد، أرمن، شركس ... تشكل أجزاء من المجتمع العربي وتعتبر في نفس الوقت مصدر العديد من المشكلات لدول المنطقة. فرغم أن أفراد هذه الأقليات العرقية يسهمون بقسط مهم، كبقية المواطنين، في تنمية بلادهم، إلا أنهم بسبب انتمائهم العرقي لم يندمجوا كلية في الثقافة العامة[3].

ومنذ أن سقطت الخلافة العثمانية وقسمت المنطقة العربية الإسلامية إلى عدد من الدول الصغيرة المستقلة، برزت فئة مرجعية جديدة في الثقافة المحلية إلى جانب الفئات السابقة، هي : الوطن[4]. وتمثل الجنسية الآن انتماء الفرد إلى شعب متواجد في حدود جغرافية وسياسية مصطنعة، لا تزال الشعوب الموزعة داخلها تحاول المرة بعد الأخرى إلغاءها باتحادات لم تنجح أي منها حتى اليوم (مثل الاتحاد بين مصر وسوريا، وبين العراق والأردن، وبين المغرب وليبيا...).

وفي بعض الدول العربية التي تتبنى التعددية الحزبية، ظهر الحزب السياسي كفئة مرجعية للانتماء الاجتماعي. وإذا كانت الفئات السابقة تشكل جزءا من هوية الفرد لا يمكنه الانفصال عنها، فإن الانتماء إلى الأحزاب السياسية أمر اختياري، للفرد الحرية في قبوله أو رفضه.

---

(1) TOMEH A. K. : Alienation : a cross-cultural analysis. p 187.

(2) DIAB L.N. : Authoritarianism and prejudice in Near Eastern students attending american universities. p 182.

(3) MELIKIAN L. H. & DIAB L. N. : Group affiliations of university students in the Arab Middle East. p 147.

(4) نفس المرجع السابق.

وتتبنى أغلب الأحزاب السياسية في المنطقة، باستثناء الأحزاب الشيوعية والطائفية، شعار الوحدة العربية كهدف ترمي إلى تحقيقه[1]. والظاهر حسب رأي دياب[2]، أن الفكرة القومية الجديدة قد أعطت للوحدة العربية قيمة مرجعية أكثر تأثيرا من غيرها.

من الناحية المعرفية، تبدو الفرص المتاحة للأطفال في المنطقة العربية الإسلامية محدودة جدا، لسببين على الأقل :

- ❖ الأول هو فقر الوسط القروي بالخصوص من ناحية اللعب والأشياء التي يمكن للطفل أن يلهو بها. يضاف إلى هذا، في المدن، ضيق المساحة التي يمكن للطفل استغلالها من أجل اللعب سواء أكان ذلك داخل الشقق السكنية أم خارجها[3].
- ❖ السبب الثاني هو الأسلوب التربوي المتبع من طرف الآباء في تنشئة أبنائهم، والذي يعتمد على المراقبة الصارمة للأطفال والحد من مجال نشاطهم ومبادرتهم، ومن ذلك عدم السماح لهم بإحداث الضجيج أو المصارعة فيما بينهم أو اللعب داخل المنزل. وبصفة عامة يفضل الآباء الأبناء المطيعين، وهم غالبا ما لا يحتملون النقاش معهم أو الإجابة عن أسئلتهم. ويرى الكاتب[4] في هذا تعبيرا عن الموقف السلطوي الذي يتبناه الراشدون عادة تجاه الأطفال. كما ينتظر الآباء من أبنائهم أن يكونوا مقلدين لهم، وألا يطالبوا بأية مكافآت مقابل الإنجازات التي يحققونها، وأن يتقبلوا العقاب البدني جزاء خرقهم أو مخالفتهم للقواعد السلوكية المتعارف عليها.

ويتعايش حتى الآن في البلدان العربية الإسلامية جيلان غير متجانسين من حيث التكوين المعرفي. فجيل الآباء ـ وأغلبه من الأميين ـ تلقى تعليما بسيطا في الكتاتيب، حيث حفظ عن ظهر قلب عددا من النصوص ذات محتوى ديني. أما جيل الأبناء فتلقى تعليمه في المدارس الحديثة وتكون بطريقة مقتبسة من النموذج المتبع في المدارس الغربية. وقد نتج عن هذا وجود عقليتين متباينتين فاعلتين في المجتمع[5].

---

(1) نفس المرجع السابق، ص147-148.

(2) DIAB L.N. : Authoritarianism and prejudice in Near Eastern students attending american universities. p 183.

(3) Z'AROUR G. : The conservation of number and liquid by lebanese school children in Beirut. p 170-171.

(4) نفس المرجع السابق.

(5) WAGNER D. A. ; SPRATT J. E. ; GAL I. & PARIS S. G. : Reading and believing : beliefs, attributions, and reading achievement in Moroccan school children. p 284-285.

هذه الصورة التي جمعناها عن الثقافة العربية الإسلامية يعترف جميع الباحثين بأنها صائرة إلى التغير. ويعتبر التمدرس المعمم على كل فئات الشعب أهم عامل في إحداث هذا التحول. ويلاحظ بعض الباحثين[1] أن التغير حاصل بسرعة كبيرة، ليس في المدن والحواضر فحسب، وإنما أيضا بين البدو وسكان الأرياف[2]. وحسب ملاحظات هذا الباحث الأخير[3]، فإن الطلبة العرب كلما ارتفع مستواهم التعليمي الجامعي ضعفت لديهم السمات السلطوية المميزة لثقافتهم.

وقد درس ميليكيان[4] التغير المشار إليه ميدانيا فيما يتعلق بالسلوك الجنسي لدى الطلاب المسجلين بجامعة بيروت الأمريكية ما بين سنتي 1952 و1963. وخلال هذه المدة لاحظ الباحث أن عدد الطلاب قد ارتفع بما يزيد على الضعف. كما أن عدد الطلاب الأمريكيين ذوي المواقف المتحررة تجاه العلاقات الجنسية قد زاد أيضا في نفس الفترة. وبموازاة هذا لاحظ تغيرا في ظروف العيش لدى الطلاب: فقد أصبحت أقل صرامة وأقل تقشفا من ذي قبل. من ذلك أن الطلاب أصبحوا يعيشون داخل شقق خاصة تتيح لهم حرية استقبال من يريدون دون حرج، الشيء الذي لم يكن ميسورا في الأحياء الجامعية. كما أن التغير طال الوسط المحيط بالجامعة، إذ لاحظ الباحث ظهور عدد من دور السينما والحانات والمطاعم والفنادق والشقق المفروشة والحانات الليلية. وقد أثر هذا التحول في ظروف البيئة الجامعية في مواقف الطلاب تجاه العلاقات الجنسية حيث أصبحت أكثر تحررا، كما أثر في بعض أشكال السلوك الجنسي لدى الطلاب[5].

وفي نفس السياق أوردت بوطا[6]، نقلا عن بيرجي Berger (1962)، أن القيم الدينية والتقليدية التي كانت تدعم تبعية المرأة العربية تجاه الرجل آخذة في الاضمحلال، وبوجه خاص في الأوساط الجامعية حيث أثبتت النساء أنهن متساويات مع الرجال في قدراتهن العقلية. وقد حاولت طومي[7] تلخيص الوضع في عبارات موجزة ومركزة حيث قالت إن الشرق الأوسط يتميز تقليديا بنظامه الأخلاقي الديني،

---

(1) MELIKIAN L. H. & DIAB L. N. : Group affiliations of university students in the Arab Middle East. p 145.

(2) MELIKIAN L. H. : The use of selected TAT cards among Arab university students : a cross-cultural study. p 5.

(3) نفس المرجع السابق.

(4) MELIKIAN L. H. : Social change and sexual behavior of Arab university students.

(5) نفس المرجع السابق، ص173 –174 .

(6) BOTHA E. : The achievement motive in three cultures. p 164.

(7) TOMEH A. K. : Alienation : a cross-cultural analysis. p 187-188.

وبالروابط والصلات العائلية القوية، وبشيوع السلطوية والأبوية في ثقافته، وبالمراقبة الشديدة للجنس، وبالإحساس العميق بالولاء تجاه الجماعة. هذا الأسلوب في الحياة أصبح تدريجيا وببطء موضع تساؤل بسبب نمو المكتشفات العلمية الحديثة، وارتفاع مستوى التعليم، ووسائل الإعلام الواسعة الانتشار، وتراجع العزلة الاجتماعية والجغرافية. ونتيجة لذلك، فإن النظام السابق لن يجد له سندا لمدة طويلة، ويبدو أن هناك وعيا متناميا بسرعة يرى ضرورة مشاركة النساء والرجال معا في بناء المجتمع الجديد. ورغم الطابع التدريجي للتحول الجاري في القيم والمواقف، فإن النموذج الثقافي العام المميز لمجتمعات الشرق الأوسط يظهر أنه لا تزال له آثار نفسية في أفراد المجتمع.

إضافة إلى ما سبق، فإن الأحداث التي شهدتها المنطقة في العقود الأربعة الأخيرة (حروب 1948-1956-1967-1973)، العربية ـ الإسرائيلية والانقلابات العسكرية التي هزت المنطقة سياسيا واقتصاديا قد ساهمت بدورها في التحولات المذكورة.

هذه هي صورة الثقافة العربية الإسلامية التي ترسمها الكتابات عبر الثقافية كما استقصيناها من عينة الأبحاث التي درسنا. وإذا حاولنا تلخيص ملامحها فإنه يمكننا القول إن الخيط الناظم الذي يؤلف بين أجزاء الصورة هو السلطوية، غير أن هذه الأخيرة تؤول تدريجيا إلى الاضمحلال تحت تأثير التعليم المعمم. وباستثناء بحثين في عينتنا[1][2] فإن بقية الأبحاث قد انطلقت كلها من هذه الفكرة عن الثقافة العربية الإسلامية في صياغة فرضياتها وتفسير نتائجها.

إن صورة الثقافة العربية الإسلامية التي استخلصناها من الأبحاث عبر الثقافية تعكس رؤية تجزيئية وضيقة لهذه الثقافة بحيث تركز على بعض الأجزاء منها وتغفل أجزاء أخرى أكثر منها أهمية. من ذلك ـ مثلا ـ أن بعض الكتاب يعتبرون الدين الإسلامي عنصرا أساسيا في الثقافة العربية الإسلامية، لكننا لا نجد في الدراسات التي بين أيدينا ما يبين الدور الهام المفترض لهذا المتغير في سلوك المفحوصين العرب؛ هذا مع العلم بأن أهم خاصية للثقافة العربية الإسلامية هي ارتباطها بالدين الإسلامي، ما دامت تنعت على الأقل بكونها عربية وإسلامية. غير أننا نلاحظ أن الباحثين، بدلا من اتخاذ الدين الإسلامي منطلقا لدراسة الثقافة المحلية، يتخذون السلطوية كأرضية لهذا الغرض متجاهلين العنصر الأول بشكل منظم.

---

(1) THEODORY G. C. & HADBAI M. : Retesting Fiedler's contingency theory in islamic schools.

(2) HAMDI N. ; KNIRK F. & MICHAEL W. B. : Differences between american and arabic children in performance on measures of pictorial depth perception : implications for valid interpretation of test scores based on items reflecting dissimilar cultural content.

المراجع :

- AL-FAKHRI S. : The development of the concept of speed among Iraqi children. In Dasen P. : Piagetian psychology. Cross-cultural contributions. New York, Gardner Press, 1977, pp 203-215.

- BABAYAN S. Y. ; BUDAYR B. & LINDGREN H. C. : Age, sex, and culture as variables in food aversion. The journal of social psychology, 1966, 68, 15-17.

- BON M. : Prépondérance de l'influence socio-géographique sur l'influence ethnique dans la psychologie du peuple marocain. Revue de psychologie des peuples, 1970, 2, 1, 46-66.

- BOTHA E. : The achievement motive in three cultures. The journal of social psychology, 1971, 85, 163-170.

- CHOUNGOURIAN A. : Lebanese and american aspects of personality : a cross- cultural comparison. The journal of social psychology, 1970, 81, 1, 117-118.

- CLAPIER-VALLADON : Expérimentation d'un questionnaire de personnalité dans deux sociétés différentes : Madagascar et Algérie. Ethnopsychologie, 1972, 27, 2/3, 263-291.

- CONSALVI C. : Some cross- and intracultural comparisons of expressed values of Arab and American college students. Journal of cross-cultural psychology, 1971, 2, 1, 95-107.

- DIAB L.N. : Authoritarianism and prejudice in Near Eastern students attending american universities. The journal of social psychology, 1959, 50, 175-188.

- HAMDI N. ; KNIRK F. & MICHAEL W. B. : Differences between american and arabic children in performance on measures of pictorial depth perception : implications for valid interpretation of test scores based on items reflecting dissimilar cultural content. Educational and psychological measurement, 1982, 42, 1, 285-296.

- MELIKIAN L. H. : Some correlates of authoritarianism in two cultural groups. Journal of psychology, 1956, 42, 237-248.

- MELIKIAN L. H. : Authoritarianism and its correlates in the Egyptian culture. Journal of social issues, 1959, 15, 3, 58-69.

- MELIKIAN L. H. : The use of selected TAT cards among Arab university students : a cross-cultural study. The journal of social psychology, 1964, 62, 3-19.

- MELIKIAN L. H. : Social change and sexual behavior of Arab university students. The journal of social psychology, 1967, 73, 169-175.
- MELIKIAN L. H. : Acculturation, time perspective, and feeling tone : a cross-cultural study in the perception of the days. The journal of social psychology, 1969, 79, 2, 273-275.
- MELIKIAN L. H. : The transfer of psychological knowledge to the Third World countries and its impact on development : the case of five Arab Gulf oil-producing states. International journal of psychology, 1984, 19, 1/2, 65-77.
- MELIKIAN L. H. & DIAB L. N. : Group affiliations of university students in the Arab Middle East. The journal of social psychology, 1959, 49, 145-160.
- MELIKIAN L. H. & DIAB L. N.: Stability and change in group affiliations of university students in the Arab Middle East. The journal of social psychology, 1974, 93, 13-21.
- MELIKIAN L. H. & PROTHRO E. T. : Sexual behavior of university students in the Arab Near East. Journal of abnormal and social psychology, 1954, 49, 59-64.
- PROTHRO E. T. & MELIKIAN L. H. : The california public opinion scale in an authoritarian culture. Public opinion quart. , 1953, 17, 353-362.
- SALLERY R. D. H. : Artistic expression and self-description with Arab and Canadian students. The journal of social psychology, 1968, 76, 273-274.
- SALLERY R. D. H. & LINDGREN H. C. : Arab attitudes toward authority. The journal of social psychology, 1966, 69, 27-31.
- THEODORY G. C. : The effect of the least preferred co-worker measure on school outcomes in Lebanon's educational system. The journal of psychology, 1981, 108, 3-6.
- THEODORY G. C. & HADBAI M. : Retesting Fiedler's contingency theory in islamic schools. The journal of psychology, 1982, 111, 15-18.
- TOMEH A. K. : Alienation : a cross-cultural analysis. The journal of social psychology, 1974, 94, 187-200.
- TORKI M. : Validation of the MMPI MF scale in Kuwait. Psychological reports, 1980, 47, 1152-1154.
- WAGNER D. A. ; SPRATT J. E. ; GAL I. & PARIS S. G. : Reading and believing : beliefs, attributions, and reading achievement in Moroccan schoolchildren. Journal of educational psychology, 1989, 81, 3, 283-293.
- Z'AROUR G. : The conservation of number and liquid by lebanese school children in Beirut. Journal of cross-cultural psychology, 1971, 2, 2, 165-172.
- Z'AROUR G. & KHURI G. A. : The development of the concept of speed by jordanian school children in Amman. In Dasen P. : Piagetian psychology. Cross- cultural contributions. New York, Gardner Press, 1977. pp. 216-226.

الغرب وسياسة التخويف من الإسلام : قضايا المرأة نموذجا

الدكتور عبد القادر بوعصيبة (*)

مقدمة :

تصاعدت في الغرب خلال السنوات الأخيرة حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام والمسلمين، وقد ركزت هذه الحملات على بعض القضايا والقيم السائدة لدى المجتمع الإسلامي من أجل ترسيخ صورة مشوهة في ذهن الإنسان الغربي وتخويفه من الإسلام باعتباره عدو الإنسانية.

والسبب في هذا الهجوم الشرس أن عدد الذين يعتنقون الإسلام في الدول الغربية في تزايد مستمر، وهو ما يخيف حكومات هذه الدول ويشعرها بالخطر، وجعل بعض وسائل الإعلام المكتوبة والمقروءة في هذه الدول تعمل على تطويق هذا الانتشار، سيما وأن الأوربيين " لا يزالون يرتعبون من الانتشار السريع للإسلام الذي جرى خلال الفتوحات الإسلامية في القرنين السابع والثامن الميلادي، وهم ليسوا على استعداد لنسيان الأصوات المجلجلة التي كانت تطلقها جيوش المسلمين الزاحفة على أوروبا"[1].

وقد تسببت هذه الحملات في تنامي العداء من بعض الشعوب الغربية نحو الإسلام والمسلمين، ومما زاد هذا العداء خليط مركب من الجهل وقصر النظر التاريخي وعدم إدراك الحقائق الإيمانية للإسلام، فضلا عن تقصير المسلمين[2].

(*) كلية الشريعة جامعة القرويين ـ فاس.

(1) الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والغرب، د. محمد محمد أبو ليلة، سلسلة قضايا إسلامية، العدد 96، القاهرة 1421هـ/2001م، ص43.

(2) جاء في تقرير صادر عن المركز الأوروبي لمراقبة العنصرية وكراهية الأجانب (EUMC) لعام 2006 (وهو جهة حكومية تابعة للاتحاد الأوروبي) مكون من 117 صفحة حول ما يسمى ظاهرة الإسلاموفوبيا أو الخوف من الإسلام أن حوالي 50 % من الغربيين يعتقدون أن المسلمين الذين يعيشون في الغرب هم فئة تثير الريبة والخوف. انظر: جريدة الشرق الأوسط العدد 10248، 19 دجنبر 2006.

والمتتبع لهذه الحملات يلحظ أن وضعية المرأة قد نالت حظاً وافراً من سياسة التشويه هذه، حيث تنتشر صورة سلبية عن المرأة المسلمة بين الغربيين، وخاصة في وسائل الإعلام الغربية، فغالبا ما يجري تصوير المرأة المسلمة بأنها تعاني من خرق حقوقها. ومضطهدة من قبل الرجل المسلم، سواء كان هذا الأخير زوجا أو أبا أو أخا أو ابنا.

وهذه الصورة النمطية للمرأة المسلمة في الإعلام الغربي تكاد تكون سياسة متبعة وممنهجة، الهدف منها النيل من الإسلام وتشويه صورته، وإلهاب المشاعر المعادية للمسلمين في مختلف البلدان الغربية، خاصة إذا علمنا أن أغلب الآراء التي يتبناها الغربيون في هذا الخصوص تعتمد بشكل مسلم على فرضيات وأفكار مسبقة، وهي تنطلق من الواقع الغربي دون فهم لواقع المسلمين وأحكام دينهم.

وفي هذا الصدد تحاول هذه المداخلة رصد أهم الشبهات التي يحاول الغربيون إلصاقها بالإسلام من خلال تناولهم لقضايا المرأة المسلمة، وأثناء ذلك تتبع مختلف المواقف التي يسلكها مفكرو الإسلام لمواجهة هذه الحملات الممنهجة، وإبراز مختلف السبل والآليات الكفيلة بتصحيح هذه الصورة النمطية لدى الغربيين.

المحور الأول : قضايا المرأة المسلمة عند الغرب

تحظى قضايا المرأة المسلمة في الإعلام الغربي باهتمام كبير لا يقل أهمية عن الاهتمام بالقضايا السياسية والثقافية داخل المجتمعات الإسلامية، بل وتتفوق على مختلف القضايا. غير أن اهتمام الغربيين بقضايا المرأة المسلمة ليس بهدف حماية حقوق هذه الأخيرة والذوذ عنها، بقدر ما يرمي هذا التناول لهذه القضايا المس بالإسلام وتشويه صورة المسلمين لدى الإنسان الغربي.

وتركيز الغربيين على موضوع المرأة لتشويه صورة الإسلام ينصب على مجموعة من القضايا نذكر من أبرزها :

* قضية الحجاب :

لما كان الحجاب في مضمونه يمثل قيمة حضارية مباينة تماما لمنظومة القيم الغربية السائدة، والتي يراد لها أن تكون قيما عالمية، فقد تعرض للكثير من حملات التشويه في السنوات الأخيرة.

ويعتبر الغربيون الحجاب من أكبر الأدلة على اللامساواة التي أقامها الإسلام بين الرجل والمرأة، كما يرون فيه دليلا على ازدراء المرأة والتقييد البالغ لحريتها والتحجير عليها[1].

وفضلا عن ذلك، فقد وصفوا الحجاب بأنه يغطي على عقل المرأة، وأنه جزء من اضطهاد الإسلام لها، ونعتوا المحجبات بنعوت لا تليق، ورموهن بالتخلف والرجعية والاستسلام لسطوة الرجل وغيرها من الاتهامات والأوصاف[2].

وعندما لاحظ الغربيون مظاهر الصحوة الإسلامية تدب في العديد من بلدان العالم، وأخذ الحجاب ينتشر في بلاد المسلمين وفي أوساط الجاليات المسلمة في الغرب، فقد عملوا كل ما في وسعهم لمحاربته والتضييق عليه باعتباره مظهرا من مظاهر الإسلام.

وفي هذا الصدد شنت العديد من الحكومات الغربية في الآونة الأخيرة حملات ضارية على ارتداء الحجاب في المدارس والمرافق الحكومية باعتباره يتنافى مع قيم هذه المجتمعات وهويتها العلمانية، وذلك عن طريق سن القوانين وتسخير الإعلام بمختلف تلويناته لمهاجمة المحجبات والتحريض ضدهن.

وهكذا صدر في فرنسا سنة 2004 قانون يمنع ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية، وقد دعم الرئيس الفرنسي آنذاك "جاك شيراك" هذا القانون وصرح علانية بأن "ارتداء تلميذات المدارس الحجاب الإسلامي أمر عدواني"[3].

وعلى إثر ذلك تعرضت العديد من التلميذات المسلمات المحجبات للتضييق والمنع من دخول المدارس[4]، كما دشنت وسائل الإعلام الفرنسية حملة شعواء على الحجاب ونددت بشدة بالقادة السياسيين الذين يسمحون بممارسته، ونقلت بعضها

---

(1) المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر دمشق، 1996م، ص 154.

(2) المرأة المسلمة في الكتابات الاستشراقية المعاصرة، د. مازن بن صلاح مطبقاني، كلية الدعوة بالمدينة المنورة، ص27.

(3) انظر: جريدة الشرق الأوسط العدد 9229 (5مارس 2004).

(4) حسب إحصاء أجرته مجلة "لونوفيل أوبسرفاتور" الفرنسية نشر بتاريخ 2152003 بلغ عدد المشاكل التي أثيرت بسبب الحجاب في فرنسا نحو 400 مشكلة.

وفي هذا الخصوص من منا لا يذكر قصة طرد الأختين (ليلى ولمعى ليفي) من مدرستهما بمنطقة إبرفيلي شمال باريس في 9 أكتوبر 2003م بسبب إصرارهما على ارتداء الحجاب، وغيرها من القصص التي تبرز الحملة المنظمة من طرف المدارس الفرنسية ضد الحجاب. جريدة الرياض، العدد 13989 أكتوبر 2006.

شهادة رسمية جاءت على لسان سكرتير الدولة في الإدماج (كوفي يامنان) يطالب فيها الأقلية المسلمة بالتخلي عن الحجاب أو الرحيل[1].

وخصصت بعض المجلات الفرنسية أعدادا خاصة لقضية الحجاب، فمجلة "لونوفيل أوبسرفاتور" مثلا خصصت ملفا يتضمن ما لا يقل عن سبع مقالات يغلب عليها طابع التضليل والمس بهذا الرمز الديني، وبالتالي تشويه صورة الإسلام في المتخيل الغربي عن طريق استخدام بعض المفردات التي تثير الفزع، ومن هذه العناوين نقرأ مثلا: "البرقية المشفرة للخمار"، و"نساء محجبات نساء مقهورات"...، وهي نفس العناوين التحريضية التي نعثر عليها في بعض الأعداد من مجلة "الاكسبريس" من قبيل: "المدرسة العلمانية في خطر: استراتيجية المتطرفين"، و"الحجاب الرجعي"، و"الحجاب المؤامرة، كيف يتسلل الإسلاميون؟".

ولم تقتصر فوبيا الحجاب والخوف من كل ما يرمز للإسلام على فرنسا فقط، بل انتقلت إلى أغلب الدول الغربية، ففي هولندا شنت الصحف التابعة لليمين المتطرف حملات متواصلة على الحجاب وأشادت بمدير إحدى المدارس الذي رفض السماح لطالبة محجبة بدخول المدرسة وبرر موقفه بأنه "يؤمن بالمساواة التامة بين الرجل والمرأة" وأن حجاب المرأة المسلمة يرمز "للظلم الواقع على عاتقها!!.

وفي ألمانيا أصدرت وزيرة التعليم والثقافة بولاية "بادن فرتنبورغ" قرارا يقضي بعدم السماح لمعلمة مسلمة من أصل أفغاني من التدريس بسبب الحجاب (فيرشتا لودين)، وصرحت بأن وضع غطاء الرأس يتعارض مع قيم الدولة ومعاييرها، ويشبه رفع شعار سياسي أو رسالة معينة تريد من ترتديه إيصالها إلى المجتمع[2].

وقد ساهمت فوبيا الحجاب والتخويف من كل ما يرمز للإسلام في وسائل الإعلام الغربية في السنوات الأخيرة خاصة بعد أحداث 11 شتنبر في تنامي موجة العداء والعنصرية ضد المسلمين المقيمين في البلدان الغربية، ولا ننسى في هذا الإطار حادث مقتل المواطنة المصرية مروة الشربيني داخل محكمة بمدينة دريسدن الألمانية على يد مواطن ألماني بسبب ارتدائها للحجاب، وقصة قيام قاضٍ إسباني مؤخرا بطرد

---

(1) صورة الإسلام في الإعلام الغربي، د. محمد بشاري، دار الفكر دمشق، ط2004/1، ص49-50.

(2) المرجع السابق، ص 34 وما بعدها.

المحامية الإسبانية المسلمة "زبيدة بريك إديدى" ذات الأصل المغربي من قاعة المحكمة أثناء النظر في إحدى القضايا بسبب ارتدائها الحجاب دون أن يقدم لها تفسيرًا مقنعًا لهذا التصرف غير اللائق[1]، وكذا الاعتداء الذي تعرضت له محجبة مسلمة من طرف سيدة أمريكية أثناء تسوقها من أحد المتاجر بمدينة شيكاغو حيث حاولت نزع حجابها وصرخت في وجهها بعبارات تنم عن ازدرائها للإسلام حسب ما تناقلته شبكة "إيه بي سي" التليفزيونية الإخبارية الأمريكية في شهر نونبر من السنة الفارطة.

❖ قضية التعدد :

تعتبر قضية تعدد الزوجات في الإسلام إحدى القضايا الأساسية التي يركز عليها الغرب عموما والمستشرقون خصوصا لغمز شريعة الإسلام ووصف أتباعه بالشهوانية معتبرين ذلك دليلا على إهدار كرامة المرأة ومكانتها في المجتمع الإسلامي.

ورغم أن الإحصائيات تشير إلى أن نسبة التعدد في البلدان الإسلامية ضعيفة جدا فإنه كان ولا يزال مثار العديد من الشبهات من طرف الغربيين، ومرد ذلك إلى سببين اثنين :

أولهماً : اختلاف نظرة الحياة الغربية إلى الزنا عن نظرة الإسلام وتقاطعها، حيث يرى الغربيون أن غريزة الجنس يمكن إشباعها إنسانيا بأي طريقة يتفق عليها الشريكان فيما يراه العرف، في حين ترى شريعة الإسلام الزواج المؤسسة الوحيدة لذلك.

وثانيهماً : تقلص الزواج بمعناه الشرعي والاجتماعي في المجتمعات الغربية، حيث حلت محله رابطة الصداقة بين الطرفين في غالب الأحيان، لاسيما بين أبناء الجيل الجديد[2].

ومن الطبيعي نتيجة سيادة هذه المبررات والمفاهيم في المجتمعات الغربية أن تتم مهاجمة نظام التعدد لدى المسلمين واتخاذه سبيلا لمهاجمة الإسلام وتشويه صورته، لأنه شتان بين فلسفة تقوم على التحفظ في العلاقات الجنسية وفلسفة تنادي بالحرية الجنسية إلى درجة الثورة على القيم السائدة في المجتمع، خاصة إذا علمنا أن من الآثار الإيجابية للتعدد تكاثر المسلمين، وهو ما يقلق صناع القرار في البلاد الغربية.

---

(1) انظر: جريدة القدس العربي الصادرة بلندن، عدد 12نونبر 2009.

(2) المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، م س، ص123. المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعي، دار السلام القاهرة، ط19981م، ص211.

وفي ضوء ما سبق ذكره نجد وسائل الإعلام الغربية تتجند لمهاجمة هذا النظام باسم الحرية والدفاع عن حقوق المرأة المسلمة، ذلك أن أول ما يتبادر إلى ذهن الإعلامي الفرنسي أثناء تناول موضوع المرأة هو مسألة تعدد الزوجات المشروعة في الإسلام والممنوعة في الدستور الفرنسي، ولهذا تكون اللغة الإعلامية أو الصحافية إجمالا مملوءة بالتهجم والعداء، فمثلا لم تتردد مجلة "الإكسبريس" في عددها الصادر بتاريخ 26 أكتوبر 1989 من وصف يوسف لوكليرك، وهو فرنسي اعتنق الإسلام بالمسلم الكامل الذي يسعى لاعتراف السلطات الفرنسية بتعدد الزوجات، وهو كلام يأتي في سياق ما بات يعرف في الإعلام الفرنسي بـ"إعادة أسلمة فرنسا".

وفي هذا الصدد نقرأ في إحدى المقالات الأخرى بهذه المجلة تنديدا شديدا موجها إلى القادة السياسيين، والسبب هو سماحهم بممارسات جاهلية قديمة مثل تعدد الزوجات، وفضلا عن ذلك فقد نقلت عن سكرتير الدولة في الإدماج مطالبته المسلمين بالتخلي عن هذه الممارسة، وكأن المسألة ظاهرة مستفحلة جدا في النسيج المجتمعي لدى الأقلية المسلمة، علما أن المتتبع لأوضاع هذه الأقليات يعلم علم اليقين أن المسألة ليست كذلك، وبالتالي فمثل هذا الخطاب ليس إلا تضليلا صارخا وتشويها لحقائق اجتماعية إسلامية[1].

وقد أدى هذا المنطق المنتشر على نطاق واسع بالعديد من المسؤولين الفرنسيين من اليمين، ومن بينهم الوزير المكلف بالعمل "جيرار لارشيه" إلى اعتبار تعدد الزوجات بين الجاليات المسلمة أحد العوامل التي ساهمت في اندلاع العنف في ضواحي باريس وغيرها من المدن الفرنسية في أواخر سنة 2005 حسب ما نقلته صحيفة "الفاينانشيال تايمز" البريطانية على موقعها على شبكة الانترنت آنذاك، وهو ما يظهر تأثير وسائل الإعلام في هذا البلد في توجيه الخطاب الرسمي.

وفي هولندا البلد الذي عهد أهله المفاخرة بأنه نموذج المجتمع المتعدد الثقافات يقدم نظام تعدد الزوجات عند المسلمين من طرف مروجي الإسلاموفوبيا بوصفه مظهرا أساسيا من مظاهر الحياة الإسلامية، وهذا ما رسخ في أذهان الكثير من الهولنديين صورة مشوهة عن هذا النظام حيث يعتقدون بأنه باستطاعة أي مسلم أن يتزوج ما شاء من النساء دون قيد أو شرط[2].

---

(1) صورة الإسلام في الإعلام الغربي، م س، ص48.

(2) جريدة الشرق الأوسط، العدد 8581, 27 مايو 2002.

وقد نقلت صحيفة "ليبراسيون" الفرنسية عن وزيرة العدل الهولندية عزمها حضر قبول المهاجرين المتعددي الزوجات، كما أمرت بإعداد دراسة لتحديد ما إذا كان تعدد الزوجات يمثل "زعزعة للنظام العام" أم لا[1].

وتصر بعض الكتابات الأمريكية على ترديد كون الإسلام يمنع المرأة من حقوقها، وأن في التعدد تكريسا لسيطرة الرجال على النساء، حيث لا ترى في هذا النظام إلا إشباعا لرغبات الرجل بالتزود بأدوات جنسية جديدة ولمنعه من إغراءات الزنى، وتخلص إلى أنه كلما قلد الشرق الغرب كان ذلك أفضل، أما القول بأن الحضارة الإسلامية أكثر روحانية إنما هو تفكير خيالي حالم وانتقام العاجز[2].

لعل من أخطر ما في الدراسات الغربية حول هذا النظام أن بعضها يزعم "أن القرآن لم يقدم شرائع خلقية أو قيماً روحية بكل معنى الكلمة، ذلك لأنه يعتبر أن التمتع بالملذات الجسدية، خاصة تلك العائدة للرجل أمرا مألوفا وموفرا. أما المرأة من جهة أخرى فهي أولاً وقبل كل شيء سلعة للتمتع الجنسي يجب تأمين الحراسة عليها خوفاً من طغيان الفحش والدعارة الكامنة فيها! كما يجب عزلها خلف الأحجبة والستائر. لقد أصبح ضرورياً استحداث تشريعات وأنظمة حديثة لتنظيم الحياة الجنسية ولإزالة القيود التي تحد من طاقة المرأة[3].

❖ قضية الميراث :

من القضايا التي يرتكز عليها بعض مفكري الغرب للنيل من الإسلام وتشويه صورته وإثارة العداوة ضده نجد قضية تنصيف ميراث المرأة، حيث يرون في الآية القرآنية الكريمة : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين** ﴾[4] دليلا واضحا على هضم حقوق المرأة في الإسلام وإهدار كرامتها، ونوعا من التمييز والتفرقة بينها وبين الرجل.

---

(1) صحيفة ليبراسيون الفرنسية الصادرة بتاريخ 20080926.

(2) المرأة المسلمة في الكتابات الاستشراقية المعاصرة، م س، ص10.

من نماذج هذه الكتابات نذكر: كتاب تاريخ الأسرة المسلمة لجوديث تكر (Judith Tucker)، وكتاب "المرأة في القرآن" للمستشرقة الأمريكية بربرا ستوواسر) (Barbara Stowasser).

(3) دراسة لاتجاهات في أبحاث العلوم الاجتماعية حول المرأة في المنطقة العربية، سهى عبد القادر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر واليونسكو، بيروت 1984م، ص256 وما بعدها.

وتشير الباحثة في هذا الخصوص إلى كل من كتابات بوسكوت (Bousguot)، وبولو(Bollough).

(4) سورة النساء، الآية 11.

كما رأوا في النصوص المنظمة لأحكام الإرث مناهضة صريحة لما بات يسري في المجتمعات الغربية من دعاوى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة والقضاء على مختلف أشكال التمييز، ومن الشبهات التي يثيرونها في هذا الصدد نذكر :

أ) الاختلاف في الميراث ظلم للمرأة، وهو ناتج عن نظرة اجتماعية إسلامية تستهين بالمرأة، وبعبارة أخرى إن هذا الاختلاف ناتج عن الاعتقاد بأن المرأة نصف الرجل.

ب) تقدم وازدهار الأسرة رهين بتحقيق المساواة بين الجنسين، وهو ما لا يحققه نظام الإرث الإسلامي.

ج) إن الإسلام منح المرأة حقوقها بالتدريج، ولم تسنح له الفرصة لاستكمال بعض الجوانب بسبب عدم توفر الأجواء الاجتماعية المناسبة، ولهذا لا بد من إعادة صياغة الأحكام وفق ما تقتضيه الظروف الحالية[1].

ولا تخفى خطورة هذا القول ومحاولته تقديم بعض التأويلات التي تشرعن لإلغاء الأحكام الثابتة بالنص القرآني، وإخضاع هذا الموضوع لأعراف المساواة والحرية والتطور المنتشرة في مجتمعاتهم.

ولا شك أن إثارة مفكري الغرب لهذه الشبهات للطعن في نظام الإرث في الإسلام لا يقوم على أساس صحيح؛ لأن توريث المرأة على النصف من الرجل ليس موقفا عاما ولا قاعدة مطردة في كل حالات الميراث، وإنما هو في حالات خاصة ومحدودة فقط.

وفضلا عن ذلك، فإن فلسفة الإسلام في التوريث تكشف أن التمايز في أنصبة الورثة لا يتقرر على أساس الذكورة والأنوثة، وإنما يقوم على حكم إلهية ومقاصد ربانية لايدركها دعاة تحرير المرأة من الغربيين وأتباعهم في البلاد الإسلامية.

فالتفاوت في الأنصبة بين الورثة الذكور والإناث في الشريعة الإسلامية تحكمه من جهة مدى حاجة الوارث ودرجة القرابة بينه وبين مورِّثه، ومن جهة أخرى العبء المالي الذي يلقيه الشرع على هذا الوارث إزاء الآخرين.

---

(1) نظام الأسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام، د. صابر أحمد طه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2004 ، ص 234.

- ميراث المرأة.. أحكام ثابتة وتأويلات متغيرة، د. رقية طه العلواني، مجلة البيان، العدد 491، شوال 1424هـ، نوفمبر- ديسمبر 3002، ص 5.

فإذا اقتضت العلاقة بينهما ومدى الحاجة التي تلاحق الوارث أن تكون حصة الذكر أكثر من الأنثى كان الحكم كذلك، وإذا اقتضى الحال أن تتساوى الحصتان أو أن تفضل الأنثى على الذكر كان الحكم كذلك[1].

وقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن استقراء حالات ومسائل الميراث ـ كما جاءت في علم المواريث ـ يكشف عن حقيقة قد تذهل الكثيرين عن أفكارهم المسبقة والمغلوطة في هذا الموضوع.. فهذا الاستقراء لحالات ومسائل الميراث، يقول لنا :

1. إن هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف الرجل.

2. وهناك حالات أضعاف هذه الحالات الأربع ترث فيها المرأة مثل الرجل تماماً.

3. وهناك حالات عشر أو تزيد ترث فيها المرأة أكثر من الرجل.

4. وهناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال.

أي إن هناك أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل، أو أكثر منه، أو ترث هي ولا يرث نظيرها من الرجال، في مقابلة أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل!![2].

هذه هي أبرز قضايا المرأة التي عمل دعاة الإسلاموفوبيا في الغرب على ترويجها بكل الوسائل وشتى الطرق قصد إثارة المشاعر المعادية للإنسان الغربي ضد كل ما يمثله الإسلام من ثقافة وقيم حضارية، وكذا تحريض الحكومات الغربية على سن القوانين التي تحد من ممارسة هذه القيم من طرف الأقليات المسلمة في بلادهم باعتبارها تمثل تهديدا لقيمهم وحضارتهم.

وهو تحريض نستطيع من خلاله استشفاف رائحة الخوف والتمترس حول قيم الحرية الزائفة والمرجعية العلمانية السائدة، فالخوف من تآكل الصورة النمطية للمرأة الغربية وما يستتبع ذلك من انهيار المشروع القيمي العلماني هو دافع أساسي للسلوك العدواني إزاء هذه القيم الإسلامية والتمسك بها، والسؤال الذي يثور في آخر هذا المحور هو: ما هو السبيل لتجاوز هذه الصورة النمطية للمرأة المسلمة عند الغربيين؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه في المحور التالي :

---

(1) التحرير الإسلامي للمرأة، د. محمد عمارة، دار الشروق، مصر ط2002/1، ص67. والمرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، م س، ص 106.

(2) لمزيد من التفصيل ينظر: ميراث المرأة وقضية المساواة، د. صلاح الدين سلطان، دار نهضة مصر، القاهرة 1999م، ص 10، وما بعدها.

المحور الثاني : سبل وآليات تصحيح الصورة النمطية للمرأة المسلمة لدى الغربيين

سبقت الإشارة إلى أن دعاة الإسلاموفوبيا في الغرب عملوا في السنوات الأخيرة وعبر مختلف الوسائل على تقديم صورة مشوهة للمرأة في الإسلام، سواء في الكتب أو الصحف والمجلات، أو عن طريق وسائل الإعلام الحديثة في البرامج التلفزيونية ومنتديات الأنترنيت، وكذا عبر إنتاج أفلام ومسلسلات سينمائية تكرس هذه الصورة.

وقد نجحت حملات التشويه التي يحيكها خصوم الإسلام في ترسيخ صورة سلبية عند الإنسان الغربي عن وضعية المرأة المسلمة باعتبارها تعاني الاضطهاد والخرق لحقوقها في النظام الإسلامي، فمصطلحات الحريم والحجاب والتعدد والفصل بين الجنسين، وانتقاص دور المرأة في مسائل الإرث والشهادة وغيرها هي المنقوشة في ذهن هذا الإنسان، "وكيف يكون الأمر مختلفا في ظل تأثير وسائل الإعلام المختلفة على عقولهم ووجدانهم وصياغتها وتأليبها على الإسلام؟[1].

وفي هذا الصدد فقد طلب جماعة من المسلمين المقيمين بانجلترا أن تسمح لهم السلطات بإنشاء مدارس إسلامية خاصة كباقي الأقليات هناك، إلا أن نفرا من الإنجليز عارضوا الطلب، وضاقوا بإنشاء هذه المدارس قائلين إنها ستقوم على تفرقة عنصرية بين البنين والبنات!!. واتهموا الإسلام بأنه متحيز ضد النساء، ومسقط لحقوق المرأة[2].

وإزاء هذه الصورة المشوهة المنتشرة في الغرب فقد حاول علماء ومفكرو الإسلام كل ما في وسعهم لتجاوز هذه الصورة النمطية، ونتيجة لذلك فقد برز اتجاهان اثنان في هذا الخصوص[3].

---

(1) الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود، د. مراد هوفمان، تعريب عادل المعلم ويس إبراهيم، مكتبة الشروق، ص87.

(2) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، محمد الغزالي، دار الشروق، ط8، نونبر 2005، ص5.

(3) هناك اتجاه آخر يرفض رفضا تاما أي حديث عن المرأة اكتفاء بالنتاج الفكري السابق والوضعية الاجتماعية السابقة لها؛ لأن من شأن ذلك أن يفسد البنية الاجتماعية والقيمية للمجتمع المسلم.

ويقابله اتجاه ليبرالي يتبنى جميع الآراء والأفكار الغربية في موضوع المرأة، وينادي بتطبيقها في المجتمع الإسلامي جملة وتفصيلا. ونظرا لسلبية الاتجاهين معا فإننا لم نعرض لهما بالتفصيل.

انظر كتاب: فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي، أحمد محمد جاد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، السنة 1995.

الاتجـاه الأول: ويمثلـه في الـغـالب مـفكرو الإسلام الـغربيين، حيث يحـاول أصحـابـه البحث عن فـهم جديد للـنصوص الدينـية وتكـييفـهـا لتنسجم مع الأحوال الاجتماعية في الغرب، وهم يبذلون جهودهم لإثبات أن مبادئ القرآن الكريم كوحي إلهي يمكن تطبيقها بحسب الزمان والمكان وبشكل مختلف عن الإسلام التاريخي والاجتماعي.

فقد خصص المفكر الألماني المسلم مراد هوفمان فصلا كاملا من كتابه "الإسلام في الألفية الثالثة" للحديث عن المرأة وموقعها في الإسلام، حيث يرى أن معظم النقد الموجه لهذا الوضع يأتي من مكونات أساسية في الشريعة الإسلامية، وهي: تعدد الزوجات، ووضع المرأة في الزواج، والنصوص المتعلقة بزي المرأة، وحجاب المرأة، والفصل بين الجنسين، وانتقاص دور المرأة في مسائل الإرث والشهادة[1].

ويناقش هوفمان هذه الاتهامات مشيرا إلى البيئة الاجتماعية والتاريخية التي رافقت النص القرآني، وإلى آراء وتفسيرات علماء الإسلام المختلفة، وكذا آراء المفكرين الغربيين، وذلك قصد إبراز الرأي الذي ينسجم مع روح الإسلام.

وفي هذا الإطار يتجاوز التفسيرات التي يعطيها بعض مفسري الإسلام للآية الكريمة : ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾[2].التي تصور علاقة الرجل بالمرأة كأنها علاقة التابع بسيده أو أن الرجل أعلى من المرأة، حيث يميل إلى التفسير اللغوي الذي يقول بأن الرجال يقومون على النساء، أي يقومون على رعايتهن، وهو ما يتوافق مع بقية ما ورد في القرآن من طبيعة العلاقة الزوجية التي تتسم بالمشاركة ويسودها الحب والعطف والمودة، وينفي تماما إمكانية تفسير هذه الآية على أنها تثبت أي تميز للرجال على النساء وأي أفضلية لهم عليهن[3].

وفيما يخص الحجاب يرى هوفمان أن لا أحد في الغرب يصدق أن المرأة تضع هذا الغطاء بمحض إرادتها دون أن يجبرها أحد من أهلها، ولا يود الغربيون أن يستوعبوا ذلك من ملاحظاتهم للأعداد المتزايدة من النساء الأوربيات اللاتي يعتنقن الإسلام.

---

(1) الإسلام في الألفية الثالثة، ص 134.

(2) سورة النساء، من الآية 34.

(3) الإسلام في الألفية الثالثة، ص137.

ويأتي في هذا الصدد بمواقف بعض المسلمات الغربيات مبرزا واقعية الإسلام حيث يذكر "أن الإسلام لا يهمه في مسألة الملبس ـ كغيرها من الأشياء ـ المظاهر الخارجية، ولكن ما يهمه هو جوهر الأمر، وهو هنا تنظيم الغريزة الجنسية وقصرها على العلاقة الزوجية، لذلك يتجه أمر التعفف والبعد عن الشهوات إلى الجنسين"[1].

أما الباحثة الهولندية ساجدة عبد الستار فهي في دراستها للأحكام القرآنية المتعلقة بالنساء المسلمات، تقبل على سبيل المثال الأحكام المتعلقة بالحجاب باعتبارها مقررات صحيحة، وأنها ذات وظيفة تهدف إلى حماية خصوصية المرأة، لكنها ترى أن ارتداء الحجاب يقتصر على سن معينة وعلى الظروف المختلفة للمجتمعات.

وترى أنه إذا اصطدمت العناصر الثقافية القديمة مع القيم الإسلامية الأساسية كالعدل والرحمة فيجب على المرء أن يعترض عليها، ومن ثم لا بد من رفض التقاليد المتعلقة بإكراه الفتيات على الزواج، وسوء معاملة النساء، وإنكار الحقوق المالية والشخصية للمرأة المسلمة التي يدعي الناس خطأ أنها إسلامية.

وتخلص إلى انتقاد المجتمعات الإسلامية من خلال المقارنة بين الممارسة القائمة وبين المبادئ الإسلامية الأصيلة، في الوقت التي يدعي فيه المسلمون أنهم يتبعون القرآن[2].

وإلى جانب هوفمان وساجدة عبد الستار هناك العديد من المفكرين في الغرب الذي حملوا لواء الدفاع عن الإسلام ويحاولون بذل جهودهم لتصحيح الصورة المشوهة التي تطال المرأة المسلمة مستخدمين معلوماتهم الوفيرة عن الإسلام من أمثال محمد أسد وأحمد فون دينفر وصاحب مستقيم بلير وغيرهم.

والملاحظ أنه رغم الأثر الكبير لهذا الاتجاه في الغرب إلاّ أن بعض أصحابه يقعون في بعض الأخطاء نتيجة هذه القراءة التاريخية للنصوص، والسبب في ذلك هو وقوع التنافي بينها وبين بعض الأوليات الكلامية والأصولية الفقهية القاضية بثبات النص.

---

(1) المرجع نفسه، ص140.

(2) المفكرون الغربيون المسلمون، د. صلاح عبد الرزاق، دار الهادي بيروت لبنان، ط1، 2005 -121 وما بعدها.

ويؤيد هوفمان ساجدة في هذا الرأي حيث يقول: "إن العالم الإسلامي يسهم بنصيب وافر في تشويه صورة الإسلام، لأن هذا العالم نفسه لا يسير على نهج الإسلام". المرجع السابق، ص88.

الاتجاه الثاني : وهو اتجاه برزت فيه شخصيات كبيرة من علماء الإسلام في القرن العشرين، وقد ركز أصحابه نشاطهم على صعيدين :

أحدهما : يتجلى في تقديم صياغة علمية داخلية لقضايا المرأة في الإسلام غلبت عليها سمة إعادة إنتاج المفاهيم المتعلقة بهذه القضايا دون تغيير في النتائج غالبا.

وثانيهما : تقديم تفسيرات عصرية تحاول عقلنة معطيات النصوص، أي تقديم تفسيرات لقضايا الحجاب وعلاقته بالحرية، وتعدد الزوجات وعلاقته بالحقوق، والميراث والشهادة وعلاقتهما بالأهلية[1]، وقد ساعدت هذه التفسيرات الاجتهادية الجديدة في مقاربة موضوع المرأة في توجيه الرأي العام في المجتمعات الإسلامية إلى حد بعيد.

كما حاول أنصار هذا الاتجاه تفنيد الشبهات والمغالطات التي تردد على يد الكتاب والإعلاميين الغربيين، وبعض الأصوات المؤيدة لها في البلاد الإسلامية التي تتخذ من موضوع المرأة سبيلا لتشويه صورة الإسلام، ومن العلماء المعاصرين الذين برزوا في هذا الاتجاه نجد الشيخ محمد الغزالي والشيخ مصطفى السباعي، والشيخ محمد سعيد رمضان البوطي والشيخ محمد عمارة والشيخ القرضاوي وغيرهم.

وإذا كانت كتابات هؤلاء الأعلام قد كبحت إلى حد بعيد الأصوات المناوئة في العالم الإسلامي من خلال إبراز الصورة الصحيحة للمرأة في الإسلام، والتمييز بين الإسلام وبين القراءات المقدمة له، والعمل على تفعيل روح الدين على حقيقته وتنقيته من الخلط، فإن تأثير هذه الكتابات في الغرب يبدو قليلا جدا رغم المجهود الكبير المبذول في هذا الخصوص. وذلك بالنظر إلى التشويه الكبير الذي طال وضع المرأة المسلمة في الذهنية الغربية، ولهذا لابد من تضافر الجهود لتجاوز هذه الصورة النمطية، "فما نحتاج إليه اليوم هو القيام بإنتاجين متوازيين لموضوع المرأة، إنتاج داخلي يعيد قراءة الموضوع بطريقة جديدة دون الأخذ بعين الاعتبار مصادرات مسبقة، وإنتاج عقلاني لا يحاول عقلنة مفردات الجدل حول المرأة هذه المرة وإن كان أمرا مطلوبا، بل يحاول عقلنة القراءة الوجودية الشاملة لهذا العنصر الاجتماعي، أي يحاول فلسفة الموضوع لا تبرير المفردة"، وذلك لأن البقاء في تسويغ المفردات من دون المكون

---

(1) المرأة في الفكر الإسلامي المعاصر، حيدر حب الله، دار الهادي، بيروت، ط 1/ 2008، ص14.

التحتي لفلسفة الموضوع سيفقدنا تكامل الصورة من جهة، ويغرقنا في دوامات تعاني من أزمة التخاطب مع الآخر من جهة أخرى[1].

ومن هذه المنطلقات لابد من تصحيح الوضعية المنحرفة للمرأة في بعض الأقطار الإسلامية، لأنها تساهم إلى حد بعيد في تأكيد الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين، فالآخر يحكم على الإسلام من خلال واقع وتصرفات المسلمين وإن كان الإسلام منها براء.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ محمد الغزالي: "إن الصورة التي حسبت إسلاما وما هي بإسلام أن المرأة كائن ناقص متهم، يحبس في البيت محروما من العلم والارتقاء، ومن كل نشاط اجتماعي أو سياسي... لا تسمع شهادتها في الدماء والأعراض! ولا تقبل لها ولاية في أمر من الأمور...!، فلماذا يحرص بعض الشيوخ على تصوير الإسلام سجانا للمرأة وحسب[2].

ولهذا لا سبيل إلى تصحيح هذه الصورة إلا بتجاوز بعض الأعراف والتقاليد الاجتماعية الخاطئة المنتشرة في بعض المجتمعات الإسلامية المتعلقة بحقوق المرأة وموقعها في هذه المجتمعات كتفضيل الذكر على الأنثى واحتقار المرأة والأنفة من ذكر اسمها، وتهميش آرائها، والتقليل من دورها في الحياة، وإلباس ذلك بلبوس الإسلام.

ولا يخفى أن الإسلام قد سوى بين الرجل والمرأة في جملة الحقوق والواجبات، وإذا كانت هناك فروق معدودة فاحتراما لأصل الفطرة الإنسانية وما ينبني عليها من تفاوت في الوظائف[3]، وقد أكد على هذه المساواة من خلال العديد من الآيات القرآنية، وعلى رأسها الآية الكريمة الواردة في سورة النساء حيث يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء**﴾[4].

---

(1) المرجع نفسه، ص 15.

(2) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة السنة 1991م، ص66.

(3) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، مرجع سابق، ص15.

(4) سورة النساء، الآية: 10.

وعلى هذا فالتساوي المبدئي في القرآن الكريم ناظر إلى وحدة الإنسانية فيما بينهم جميعا، والتفاوت التطبيقي ناظر إلى الحكمة الربانية التي اقتضت بعد ذلك أن يتفاوتوا في القدرات، ويتنوعوا في الخصائص والملكات[1].

ولهذا عندما نتناول موضوع المرأة في الإسلام علينا أن نبرز هذه الحقائق الثابتة التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية منذ أربعة عشر قرنا، والتي تتجاوز في معانيها ومدلولاتها ما ينادي به دعاة "تحرير المرأة" والدفاع عن حقوقها من الغربيين، ولا سبيل إلى إبراز هذه الحقائق إلا باعتماد وسائل الاتصال الحديثة من إعلام فضائي وشبكة المعلومات الدولية وتقنيات الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية، ولم لا إنشاء محطات إذاعية وتلفزية إسلامية موجهة إلى الغرب على غرار المحطات الغربية الموجهة إلى العالم الإسلامي تتكلم لغتهم وتخاطبهم بأسلوبهم.

وفضلا عن ذلك فلا بد من تعزيز الحضور الإسلامي على الصعيد الدولي، وذلك بالمشاركة الفعالة في مختلف المؤتمرات العالمية المتعلقة بقضايا المرأة، وعرض وجهة النظر الإسلامية في مختلف هذه القضايا والدفاع عنها انطلاقا من ثوابت الدين الحنيف وأصوله العامة بعيدا عن عرض التجارب الخاصة لبعض المجتمعات الإسلامية.

ومن أجل النجاح في هذه المهمة لابد من حسن استخدام هذه الوسائل، وذلك بالعرض الرصين للمفاهيم الإسلامية المتعلقة بموضوع المرأة، والتجديد في لغة الخطاب، واستخدام الطرق المناسبة للعقل الغربي، وإيجاد الإجابات الشافية والواقعية لما يعتمل في ذهن الآخر، مقابل الابتعاد عن الأساليب الانفعالية والخطب الجوفاء التي من شأنها تنفير المتلقي الغربي بدل استقطابه.

وعلى هذا الأساس ينبغي تجاوز الطرق التقليدية في عرض صورة المرأة في الإسلام، سواء في مجال الكتابة أو في وسائل الإعلام، حيث الاعتماد دائما على أسلوب المقارنة بين وضعها في الجاهلية والإسلام بدل مخاطبة الإنسان الغربي بما يفهمه، ومحاولة تصحيح تلك الصورة المشوهة العالقة في ذهنه نتيجة ما يقرأه ويسمعه ويشاهده.

(1) المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، مرجع سابق، ص95.

فالغربي متعطش دائما لمعرفة حقائق الإسلام، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ولكن للأسف لا يجد ما يشبع حاجته ورغبته، والسبب قلة وندرة المادة التي تعرض وتترجم نتاج الفكر الإسلامي المعاصر في مختلف القضايا الإسلامية[1] ، ومن البديهي نتيجة هذا الفراغ أن تنشط الاتجاهات المعادية للإسلام والمسلمين، وتفرض وجودها على الساحة العالمية، وتكون هي المصدر الذي تستقى منه المعلومات والمفاهيم في هذا المجال.

ولهذا يتعين بذل المزيد من الجهود من أجل سد هذا الفراغ عن طريق استخدام مختلف الوسائل والأنشطة كإقامة الندوات والمؤتمرات وتوزيع النشرات والكتب التي تعرف بحقائق الإسلام في مجال قضايا المرأة والأسرة في جل الأقطار الغربية، ومحاولة رصد ومواكبة كل ما تنشره الدوائر المعادية قصد كشف زيفه وتحامله على الإسلام.

ولا يخفى الدور الذي يمكن أن يلعبه التعاون العلمي والأكاديمي مع الجامعات والمراكز البحثية، وكذا هيئات المجتمع المدني المهتمة بقضايا العالم الإسلامي في تغيير هذه الصورة، وإحلال الصورة البديلة، فالهدف هو جعل الغربيين ينظرون بموضوعية ونزاهة ويحترمون الخصوصية الإسلامية بعيدا عن الأفكار المسبقة.

ولا بد في هذا الإطار من استثمار التواجد الإسلامي في هذه الأقطار، حيث يقع على عاتق هذه الجاليات مسؤولية إعطاء الصورة الفضلى على المستوى العملي، ويعتبر دورهم أبرز في تقديم النماذج المشرقة لتعامل المسلمين مع نسائهم وبناتهم، ناهيك عن الدور الذي يمكن أن يضطلعوا به في توجيه الرأي العام في بلدان إقامتهم من خلال اندماجهم الإيجابي في هذه المجتمعات ووصولهم إلى مراكز القرار (البرلمانات، الجامعات، المعاهد...)، وهو ما من شأنه أن يدفع في سبيل تغيير نظرة الغربيين إلى الإسلام والمسلمين.

ويتوفر المسلمون في الغرب على إمكانات واسعة للنجاح في هذه المهمة الجسيمة، لأنهم أكثر دراية ومعرفة بهذه المجتمعات وخصوصياتها الفكرية

---

(1) تحاول بعض الجهات الإسلامية في الغرب تدارك هذا النقص الحاد، وذلك بترجمة ونشر وتوزيع الأعمال الإسلامية المعاصرة إلى أهم اللغات العالمية، ومن هذه الجهات نجد مؤسسة الفلاح التي أصدرت حديثا سلسلة "مشروع الإسلام والقرن الواحد والعشرين"، كما قامت بنشر موسوعة المرأة في الشريعة الإسلامية للدكتورة ماجدة عامر باللغة الإنجليزية، وكتاب المرأة للشيخ يوسف القرضاوي باللغة الفرنسية، وكتاب "أختي المؤمنة" لعبد الحميد خفاجي باللغة الألمانية.

والاجتماعية، وهم على معرفة أفضل بطرق التواصل والحوار مع أفرادها، ولكنهم يحتاجون في غالب الأحيان إلى الدعم والمساندة، ولهذا يقع على عاتق المسلمين ـ حكومات وأفراداً ومؤسسات ـ مسؤولية مساعدتهم وشد أزرهم.

خلاصة :

في الختام أشير إلى أن تغيير الصورة المسيئة للإسلام والمسلمين من خلال قضايا المرأة رهين ببذل مجهود مضاعف وعمل طويل النفس يقوم على أمرين اثنين:

أولهما : ويعتبر بمثابة تحد داخلي، ويتجلى في تحصين مجتمعاتنا الإسلامية من الداخل، وذلك بتصحيح جميع الأوضاع المخالفة لديننا الحنيف في التعامل مع قضايا المرأة، وذلك لأن جانبا كبيرا من الصورة السيئة عن المسلمين في الغرب ترجع بالأساس إلى طبيعة هذا التعامل، وبطبيعة الحال فإننا لا نحتاج في هذا التصحيح إلى وصية من أحد أو الاقتداء بأحد، بل قدوتنا في ذلك تعامل رسول الله صلى الله عليه مع زوجاته أمهات المؤمنين، ووصيته للمؤمنين في خطبة حجة الوداع التي تعد الميثاق الإسلامي في التعامل مع المرأة.

وثانيهما : ويعتبر بمثابة تحد خارجي، وقوامه العمل على تغيير نظرة الغربيين إلى الإسلام والمسلمين من خلال موضوع المرأة، وذلك بالعمل بسرعة ووفق خطة مدروسة من أجل الوصول إلى وسائل التأثير في المجتمعات الغربية لنتحدث إليهم ونتحاور معهم ونصحح ما علق في أذهانهم من أفكار خاطئة ومعلومات مشوهة عن الإسلام.

وفي نفس الوقت يتعين التصدي ـ مؤسسات وأفراداً ـ لجميع الحملات المغرضة التي تستهدف الإسلام والمسلمين إعمالا لموضوع المرأة، وذلك من أجل كشف عدائها وتهاتر ادعاءاتها، والرد عليها.

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون**﴾[1].

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

(1) سورة التوبة، من الآية : 105.

مراجـع البحـث

- **الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود**، د. مراد هوفمان، تعريب عادل المعلم ويس إبراهيم، مكتبة الشروق.

- **التحرير الإسلامي للمرأة**، د. محمد عمارة، دار الشروق، مصر الطبعة الأولى السنة 2002م.

- **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة السنة 1991م.

- **الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والغرب**، د. محمد محمد

- **أبو ليلة، سلسلة قضايا إسلامية**، العدد 69، القاهرة 1421هـ/2001م.

- **دراسة لاتجاهات في أبحاث العلوم الاجتماعية حول المرأة في المنطقة العربية**، سهى عبد القادر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر واليونسكو، بيروت 1984م.

- **صورة الإسلام في الإعلام الغربي**، د. محمد بشاري، دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى، السنة 2004.

- **فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي**، أحمد محمد جاد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، السنة 1995.

- **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة**، محمد الغزالي، دار الشروق، الطبعة الثامنة، نونبر2005م.

- **المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني**، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر دمشق، 1996م.

- **المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعي**، دار السلام القاهرة، الطبعة الأولى، السنة 1998م.

- **المرأة في الفكر الإسلامي المعاصر**، حيدر حب الله، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى، السنة 2008م.

- **المرأة المسلمة في الكتابات الاستشراقية المعاصرة**، د. مازن بن صلاح مطبقاني، كلية الدعوة، المدينة المنورة.

- **المفكرون الغربيون المسلمون**، د. صلاح عبد الرزاق، دار الهادي بيروت لبنان، الطبعة الأولى، السنة 2005م.

- **ميراث المرأة.. أحكام ثابتة وتأويلات متغيرة**، د. رقية طه العلواني، مجلة البيان، العدد 491، شوال 1424هـ/ نوفمبر- ديسمبر 2003.

- **ميراث المرأة وقضية المساواة**، د. صلاح الدين سلطان، دار نهضة مصر، القاهرة 1999م.

- **نظام الأسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام**، د. صابر أحمد طه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، السنة 2004م.

وسائل الإعلام الغربية ومعاداة الإسلام

الأستاذ محمد مسعد ياقوت (*)

مقدمة :

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد :

فقد سعدتُ أنْ دعاني الأستاذ الدكتور ـ حسن عزوزي ـ حفظه الله ـ للمشاركة في ندوة مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام ـ حول موضوع : "ظاهرة الإسلاموفوبيا وسبل مواجهتها" ـ.

فقلتُ : نعمةُ عين، وحُباً وشكراً، وحبذا المزيد من هذه الفعاليات؛ تلك التي تخدم رسالة الإسلام عامةً، والمسلمين في الغرب خاصة.

واخترت هذا المحور : " **وسائل الإعلام الغربية ومعاداة الإسلام**" ـ على خطورته وسعته، لسببين :

أحدهما : ارتباطي بالعمل الإعلامي من خلال "مشروع نبي الرحمة للتعريف بالإسلام".

والآخر : رغبتي في إبراز المكاسب الإعلامية التي كانت في صالح الإسلام بعد الحملات الإعلامية الغربية التي استهدفت في الأصل التشويه وبث الخوف من الإسلام. فهم خدموا الإسلام من حيث أرادوا تدميره، وروجوا له من حيث قصدوا تشويهه.

(*) عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ـ المشرف العام على موقع نبي الرحمة ـ القاهرة ـ مصر.

يعني الحال كما قال الأعشى الكبير :

أَلَسْتَ مُنْتَهِياً عَنْ نَحْتِ أثلَتِنَا وَلَسْتَ ضَائِرَهَا مَا أَطّتِ الإبِلُ

كناطحٍ صخرةً يوماً ليَفْلِقَها فلم يَضِرْها وأَوْهَى قَرْنَه الوَعِلُ

لكن؛ علينا أن نعلم أن :

- الإعلام سلاح الأقوياء دائماً؛ دوماً يسير في فلك الأقوى.
- العداء للإسلام دائمًا يَقْوى كلما ضعف المسلمون.
- في يوم ما مضى ـ أيام الدولة الإسلامية ـ كان الغرب يدور في فلك الإعلام الإسلامي.
- بإمكان المسلمين أن يعملوا على التخفيف من ظاهرة "الإسلاموفوبيا" ؛ علمًا أن التخويف من الإسلام قضية قديمة جداً مرتبطة بنشأة الإسلام نفسه.

ثم علينا أن نفهم هذه المعادلة التاليةَ جيداً :

إذا كانت وسائل الإعلام الغربية اليوم في ذروة قوتها وسطوتها، وإذا كانت الأمة الإسلامية اليوم في أضعف أطوارها، وإذا كان المسلمون لا يحملون مشروعًا نهضويًا لمحاولة إحداث التوازن الحضاري لها بين الأمم، فإن النتيجة البديهية تقول : "الإساءات لن تتوقف".

والسبب : هو الضعف. أو بالمصطلح النبوي : " الغثائية"[1].

فدوماً الضعيف لا يملك "شرعية " بين الأقوياء؛ هذا على الأقل في زمن العولمة!

---

(1) نقصد الحديث الذي قال فيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا"، قالوا : أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : "أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ "، قالوا: وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : " حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ " [أخرجه أحمد: 22397 عن ثوبان، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة: 958] .

المبحث الأول : خلفية تاريخية

المطلب الأول : الإعلام الفرعوني

أسلوب محاربة الإسلام باستخدام وسائل الإعلام؛ أسلوب قديم جداً، أشار القرآن إلى نماذج منها؛ ولا سيما أنموذج فرعون في حربه الإعلامية ضد دعوة موسى ـ عليه السلام ـ، ذلك أن فرعون كان يرسل المؤذنين في المدائن يحذرون الناسَ من اتباع موسى ـ عليه السلام ـ، بل كان يستخدم أسلوب الكذب الإعلامي، بتدليس الحقائق واتهام موسى بما ليس فيه، ومن ذلك قول الله تعالى على لسان فرعون : ﴿... إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وأَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾[1].

بل بث الفراعنةُ في نفوس الشعب المصري شعورَ التشاؤم من موسى ومن معه، كلما حلت بالبلاد مصيبةٌ، فزعموا أن موسى والمؤمنين؛ هم سببُ الأزمات، ﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

وشرَع فرعونُ في بناء صرح إعلامي كبير؛ ليعلوه، وليثْبت للناس ـ بزعمه ـ كذب دعاوى موسى ـ عليه السلام : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[3] صرحاً عالياً يراه القاصي والداني؛ وليقول الجميع : إن الملك قد ارتقى هذا الصرح ولم ير الإله الذي يتحدث عنه موسى.

دوماً كان فرعون يجمع الناس في الميادين؛ يخطب فيهم، يدلس، يكذب، يزور، يتهكم، يَقلبُ الحقائق ... اقرأ هذه الآية بعناية : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾[4].

إنها آيةٌ من لفظتين، الحشر والنداء؛ أي أسلوب الحشر والحشد، وأسلوب النداء والترديد وكلتاهما من أهم الأساليب الإعلامية.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[5] وهي آيةٌ ـ أخرى ـ تشي بجو الصخب الإعلامي الذي يدور في فلك

---

(1) سورة غافر، الآية : 26.
(2) سورة الأعراف، الآية: 131.
(3) سورة القصص، الآية : 38.
(4) سورة النازعات، الآية: 23.
(5) سورة الزخرف، الآية : 51.

فرعون، جو الاستعلاء، والاستكبار، والعلو، والعتو، والشخصنة، والعجرفة... حينما تكون الترسانة الإعلامية في يد الباطل، بينما الحق لا حول له ولا قوة، ولا يملك وسيلةً قويةً تساعده في نشر رسالته، اللهم إلا الدعوة الفردية ـ سنةُ الأنبياء والدعاة في كل زمان.

ومارس أيضاً أسلوب المباريات الإعلامية، ولم ينس أيضًا أن يحشد الجماهير والغوغاء على موعد إعلامي ومكان إعلامي: ﴿ **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى** ﴾[1] . وقبلُ قد أرسل الفرعونُ ـ لعنه الله ـ مبعوثيه إلى المدن والقرى والنجوع في جميع أنحاء مصر، وذلك لجَمع السحرة على اختلاف تخصصاتهم ومستوياتهم، وكان موعدُ المباراة يومَ الزينة، وقد حُشر المصريون من كل حدب وصوب، وانشغل الإعلام الفرعوني بقضية الساعةِ، تلك المباراةُ المرتقبةُ بين موسى والسحرة، والجماهيرُ المتفرجةُ الساذجةُ ترى أنها مباراةٌ بين موسى الذي يمثل فريق المستضعفين من بني إسرائيل، وبين السحرةِ المصريين أصحابِ العرض والملك، وكان لسان حال الإعلام الفرعوني كما وصف القرآن : ﴿ **وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ** ﴾[2] .

وأساء فرعون ـ لعنه الله ـ إلى شخص النبي الكريم موسى ـ عليه السلام ـ، فاستهزأ من لسان موسى، وطريقته في الكلام، وزعم أنه عييٌ لا يكاد يتكلم كلمةً واضحة : ﴿ **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ** ﴾[3] .

بل سَخِرَ من زي موسى ومظهره، فسخر من كون موسى لا يتحلى بالأساور والحلي الذهبية كما كان الفراعنة ـ قبحهم الله ـ يفعلون : ﴿ **فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ** ﴾[4] ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** ﴾[5].

قال سيد قطب : "واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين"[6] !.

---

(1) سورة طه، الآية : 59.

(2) سورة الشعراء، الآيتان: 39-40.

(3) الزخرف، 52.

(4) سورة الزخرف، الآية: 53.

(5) سورة الزخرف، الآية: 54.

(6) سيد قطب : في ظلال القرآن، تفسير سورة الزخرف، الآية: 54.

ولما أفرط الفرعون في استخدام السلاح الإعلامي بهذه الصورة الخسيسة ضد موسى ـ عليه السلام ـ؛ كان العقاب من جنس العمل؛ إعلاميًا أيضاً، حيث أغرق اللهُ فرعونَ، وأخرج بدنه من البحر، جسداً محنطاً، وآيةً خالدة في المتحف المصري بميدان التحرير بالقاهرة :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾[1] العجيب أيضاً أن تمثال فرعون موجودٌ حالياً في أكبر ميادين مصر، وأجمل ما في الأمر أنك لو سألت طفلاً أو شيخًا يمر في الميدان، لمن هذا التمثال؛ لأجابك على التو : هذا الفرعون الملعون[2] ! ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾[3].

ولم يكن العقاب الإعلامي مقصورًا عليه في الدنيا فحسب، بل فى الآخرة أيضًا،إذ ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾[4].

ومن مات على شيء بُعث عليه. هذا مات يحاربُ الإسلام بالإعلام؛ فقتله اللهُ قتلةً إعلاميةً، وبعثه ـ يوم القيامة ـ بعثةً إعلامية.

المطلب الثاني : **الإعلام القُرشي**

أسلوب محاربة الإسلام باستخدام وسائل الإعلام استخدمته قريشٌ مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن طريق بذل العطايا لشعراء الجاهلية لتشويه صورة الإسلام، إضافة إلى تكثيف السخرية والتكذيب والتسفيه، وبث الشائعات التي تهدف إلى تشويه صورة النبي ﷺ.

كانوا يبثون الخطباء الفصحاء ـ أمثال سهيل بن عمرو ـ في جموع الحجيج يخطبون فيهم ويحرضونهم ضد الإسلام.

كانوا يتلقفون كبراء القبائل بسبل الطرق قبل قدومهم الحرمَ؛ فيبذلون لهم صور المعروف؛ يغسلون أدمغتهم، ويشحنونهم بأفكار عدائية ضد الدين الجديد.

أرسلوا النضر بن الحارث إلى فارس ليتعلم من أخبار الفرس وقصصهم وحِكَمهم، على طريقة إرسال البعثات العلمية، ليرجع النضرُ مُسلحاً بنفس السلاح الذي يحاربهم به

(1) سورة يونس، الآية: 92.

(2) ذُكر اسم " فرعون " في القرآن الكريم 67 مرة، وهي عدة السنين التي حكم فيها رمسيسُ الثاني مصر.

(3) سورة الزخرف، الآية: 56.

(4) سورة هود، الآية: 98.

محمدٌ بزعمهم، وهو سلاح الأساطير، فكان النضرُ يعقد مجلسه إلى جوار مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك للتشويش على دعوة الإسلام، وصد الناس عن سبيل الله تعالى.

وبعد أن يجلس النضرُ ويقص على الناس من قصص رُسْتم واسفنديار وغيرهم من ملوك فارس يقول : " بالله أيهما أحسن قصصا؟ أنا أو محمد؟[1].

ـ كان النضر يقول[2] كما جاء في قوله عز وجل : ﴿ **قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾[3] وكان يقول : أقص خيراً من قصص محمد، فنزلت : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾[4].

وكان النضر بن الحارث رجلاً إعلامياً لبقاً لسِناً، ناظرَ رسولَ الله ﷺ في غير ما موضع، ومثال ذلك عندما تناظرا في قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾[5]، والقصة مشهورة في كتب التفاسير.

واستخدم مشركو قريش أسلوب الترديد والتكرار لكذِبة واحدة، يتكلم بها الجميع، حتى يصدقها الناسُ، وفق نظرية : "اكذبْ، اكذب، اكذب، حتى يصدقك الناس"، فقد اجتمع نفرٌ من قريش حول الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وكان أكبرهم سناً، وَقَدْ حَضَرَ موسم الحج، فَقَالَ لَهُمْ : يا مَعْشَرَ قُرَيْش، إنّهُ قَدْ حَضَرَ هَذَا الْمَوْسِمُ [يعني موسم الحج] وَإِنّ وُفُودَ الْعَرَبِ سَتَقْدَمُ عَلَيْكُمْ فِيهِ، وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ صَاحِبِكُمْ هَذَا ، فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْياً وَاحِداً، ولا تَخْتَلِفُوا، فَيُكَذّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وَيَرُدّ قَوْلُكُمْ بَعْضُهُ بَعْضاً؛ قَالُوا : فَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْس، فَقُلْ وَأَقِمْ لَنَا رَأْياً نَقُولُ بِهِ. قَال : بَلْ أَنْتُمْ فَقُولُوا أَسْمَعْ".

قَالُوا : نَقُولُ كَاهِنٌ.

قَالَ : لا وَاَللّهِ مَا هُوَ بِكَاهِنِ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْكُهّانَ، فَمَا هُوَ بِزَمْزَمَةِ الْكَاهِنِ، ولاسَجْعِه.

قَالُوا : فَنَقُولُ مَجْنُونٌ.

قَالَ : مَا هُوَ بِمَجْنُون، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ، فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ، وَلا تَخَالُجِهِ وَلا وَسْوَسَتِهِ.

---

(1) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (46/4).

(2) انظر : السابق.

(3) سورة الأنفال، الآية : 31.

(4) سورة يوسف، الآية : 3.

(5) سورة الأنبياء، الآية: 98.

قَالُوا : فَنَقُولُ شَاعِرٌ.

قَالَ : مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، لَقَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ كُلَّهُ : رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ، وَقَرِيضَهُ، وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ، فَمَا هُوَ بِالشِّعْرِ.

قَالُوا : فَنَقُولُ سَاحِرٌ.

قَالَ : مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا السَّحَّارَ وَسِحْرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ، ولا عَقْدِهِمْ.

قَالُوا : فَمَا نَقُولُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ ؟

قَالَ : وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلاوَةً، وَإِنَّ أَصْلَهُ لَعَذِقٌ، وَإِنَّ فَرْعَهُ لَجُنَاةٌ، وَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئاً؛ إلا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنَّ أَقْرَبَ الْقَوْلِ فِيهِ لأَنْ تَقُولُوا سَاحِرٌ جَاءَ بِقَوْلٍ هُوَ سِحْرٌ؛ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَبِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ.

فَتُفَرِّقُوا عَنْهُ بِذَلِكَ، فَجَعَلُوا يَجْلِسُونَ بِسُبُلِ النَّاسِ حِينَ قَدِمُوا الْمَوْسِمَ؛ لا يَمُرّ بِهِمْ أَحَدٌ إلا حَذَّرُوهُ إِيَّاهُ، وَذَكَرُوا لَهُمْ أَمْرَه[1].

وَأَنْزَلَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ :

﴿ **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ** (18) **فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** (19) **ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** (20) **ثُمَّ نَظَرَ** (21) **ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ** (22) **ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ** (23) **فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ** (24) **إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ** (25) **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** (26) ..﴾[2] .

تفكير بعد تفكير، تقدير بعد تقدير، نظر بعد نظر .. هذه الآيات تبين لك ضخامة الجهد الإعلامي الذي بذلوه لنشر أراجيفهم حول الإسلام!.

وهكذا نرى اجتماعَ أبواقِ الباطل على فِرية معينة تلوكها الألسنة، وتجتمع حولها الآراءُ، وينطق بها الجميع من هنا وهناك.

تأمل ذلك في قول هذا الرجل الداهية : " فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْياً وَاحِداً، ولا تَخْتَلِفُوا، فَيُكَذِّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا".

وقارنْ وتدبرْ كيف اتحدت قوى الشر في المشرق والمغرب على مصطلح واحد ـ هو مصطلح الإرهاب ـ تصفُ به المسلمين على اختلاف مذاهبهم.

---

(1) انظر : ابن هشام 271/1.

(2) [سورة المدثر] 24.

فترى أمريكا تقول : نحن نحارب الإرهاب، وترى الكيان الصهيوني يقول : نحن نحارب الإرهاب، وترى بعض الأنظمة العربية تقول : نحن نحارب الإرهاب. وتردد البَبْغَاوَاتُ من خلفهم : نحن نحارب الإرهاب، نحارب الإرهاب، الإرهاب. إرهاب، إرهاب، إرهاب !!

حتى ترى كثيراً من الكتاب والمثقفين والفنانين العرب يرددون ذلك كصدى الصوتِ الذي يجيب صوت المُنادي، وأكثرهم لا يفقهون أن مصطلح الإرهاب يقصد به المسلمون عامة، والحركيون خاصة، والجهاديون على وجه أخص. ومسألة القضاء عليهم جميعاً مسألة أولويات؛ فالأولى القضاء على المقاتلين، ثم الحركيين، ثم عامة المسلمين.

وهكذا اتفقت قوى الشر على حملة التضليل؛ فقعدوا بسبل الناس، واعتلوا منابر الإعلام المختلفة، وشرعوا في بث دعاية الكذب والبهتان لصد الناس عن الداعية، لا يَمُرّ بِهِمْ أَحَدٌ إلا حَذّرُوهُ إيّاهُ، ولا تمر بهم فرصة إلا انتهزوها في نفث سمومهم.

عجباً لهؤلاء المبطلين يبذلون جهداً كبيراً في إنتاج الشائعات، وقد رأيتَ كيف دخلوا على أسن رجل في قريش وبحثوا أنسب الشائعات، ففَكَّرَ وَقَدَّرَ، ثم فكر وقَدَّرَ، ثم فكر قَدَّرَ، وكل ذلك للوصول إلى فرية محكمة، ثم نظر وتأمل؛ فالأمر جد صعب مع صاحب الخلق العظيم، ثم عبس؛ فهم يواجهون دعوة صادقة، ثم بسر؛ فقد أعيتهم الحيل، ثم رجعوا إلى أنسب الحلول المقترحة على فسادها، ومع علمهم بفسالتها وهشاشتها، فقالوا : إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَر. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ. المهم أن تتفق الكلمة على مصلطح محدد.

المبحث الثاني : إساءات الإعلام الغربي

رأينا في كل عصر كيف استخدم أعداءُ هذا الدين الوسائلَ الإعلامية المتاحة في تشويه صورة الإسلام، كانت حملات الإساءة في الغالب منظمة ومنسقة وتسير في إطار استراتيجي، كانت متنوعة وتتسم بالابتكارية من فيلم إلى مجلة إلى كتاب إلى مطوية ... هاكم بعض الأمثلة:

صدور كتاب "نبي الخراب" :

صدور كتاب باسم "نبي الخراب Prophet Of Doom ـ بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 ـ للمؤلف كريك ونن Craig Winn الذي وصف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقاطع طريق استعمل ـ حسب زعمه ـ العنف والغدر للوصول إلى الحكم والسلطة، وكان أيضا حسب زعم المؤلف شاذًا جنسياً !

والكتاب له موقع على الشبكة العنكبوتية، ومعروف، ويمكن مطالعة نسخة مجانية من الكتاب على صفحات هذا الموقع[1].

رسوم كاريكاتيرية :

أعلنت صحيفة (يولاندس بوستن)، في سبتمبر 2005عن مسابقة في الكاريكاتير، وتم اختيار اثني عشر كاريكاتيراً كلها تسيء إلى رسول الله ﷺ، وتَصدَّرَ إحداها رسم مزعومً لرسول الله ﷺ وهو يضع على رأسه عمامة على شكل قنبلة. والجريدة أصرت على النشر، ورفضت الاعتذار.

ثم أعادت نشر هذه الرسوم عدة صحف أوروبية بدعوى التضامن مع الصحيفة الدنماركية، ورفضت جميع هذه الصحف الاعتذار عن تلك الرسوم المسيئة، تحت زعم حرية التعبير، كما رفضت الحكومة الدنماركية الاعتذار أيضاً.

هذا، وقد نشرت صحيفة "نيريكيس أليهانداً" ـ وهي صحيفة سويدية محلية تصدر في أوريبرو ـ رسومات مسيئة تصور الرسول الكريم ﷺ في أشكال مهينة بعددها الصادر الأحد 26 أغسطس 2007؛ مما أثار موجة احتجاجات محلية من جانب الأقلية الإسلامية في السويد.

كتيبات مسيئة :

قامت شركة دار نشر القمر CRESCENT MOON PUBLISHING، الأمريكية، بنشر كتيب كاريكاتيري، اسمه : "محمد صدق و إلا" ، لحساب رسام استعمل اسماً مستعاراً وهو "عبدالله عزيز"، والكتيب عبارة عن 26 صفحة، يتناول السُّنة النبوية بشكل مهين جداً، بهدف إقناع السود الأمريكيين بعدم التحول إلى الإسلام.

تصريحات همجية :

أدلى مارتين هنريكسن النائب عن حزب الشعب الدانمركي، بتصريح نشرته صحيفة "بيرلنسكة يتذته" وبثه "هنريكسن" على موقعه الإلكتروني ، والذي قال فيه : "إن الإسلام منذ بداياته كان عبارة عن شبكة إرهابية"، ووصف المسلمين المنحدرين

(1) وقد أعاننا الله على هذا الكتاب، وكان ردنا بكتاب "نبي الرحمة"، نشر دار الخراز، بجدة.

من جذور دانمركية بأنهم أناس "ساقطون أخلاقياً، إلى مستوى يصعب وصفه، وانهم يخونون جذورهم وإرثهم الحضاري باعتناقهم الإسلام"، وأكد "هنريكسن" أنه لن يتراجع عن هذه التصريحات، ولم يكن هنريكسن الوحيد الذي وصف المسلمين بهذه الأوصاف البذيئة بل سبقته بها نائبةٌ من نفس الحزب تدعى "لويسة فيفرش" التي وصفت المسلمين بأنهم" غدة سرطانية".

تصريحات بابا الفاتيكان :

تطرق البابا بنديكتوس السادس عشر خلال محاضرته الشهيرة المثيرة للجدل في جامعة "ريغينسبورغ" جنوب ألمانيا ـ في سبتمبر 2006 ـ عن العلاقة بين العقل والعنف في الإسلام، واستشهد بهذه المناسبة بكتاب للإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني (1350-1425)م، ونقل عنه عبارة تقول :" أرني شيئاً جديداً أتى به محمدٌ، فلن تجد إلا ما هو شرير ولاإنساني، مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف"!!..

وقال البابا ـ في نفس المحاضرة ـ إنّ العقيدة المسيحية تقوم على المنطق[1] لكن العقيدة في الإسلام تقوم على أساس أن إرادة الله لا تخضع لمحاكمة العقل أو المنطق. كما انتقد فريضة الجهاد في الإسلام بلغة مبطنة.

دعوات بنسف مكة والمدينة ومصادرة المصاحف :

ومن ذلك أيضاً؛ تلك التصريحات المسيئة التي أطلقها نائبا الكونجرس الأمريكي والبرلمان الهولندي حول الإسلام (في أغسطس 2007)؛ حيث طالب "توم تانكريدو" ـ النائب الجمهوري بالكونجرس ـ بنسف مدينتَي مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ باعتبارهما مَعقِلَي الإرهاب، أما عضو البرلمان الهولندي" غيرت فيلدرز" فقد دعا إلى منع المصحف الشريف وقراءة القرآن حتى في منازل المسلمين، واصفاً القرآن الكريم بالكتاب اللعين. ودعا "فيلدرز" إلى منع إدخال القرآن إلى المساجد في هولندا ومنع بيعه في مكتبات هولندا.

(1) كيف تقوم المسيحية على المنطق، وقد جعلت الثلاثة هي الواحد، والواحد هو الثلاثة، وجعلت عيسى إلها مصلوبًا ومقبورًا ؟! .

فيلم "فتنة":

بعد سيل السباب الذي أجراه " فيلدرز"، وكثرة تصريحاته المسيئة للمسلمين عامة ولمسلمي هولندا خاصة، خرج على العالم في إساءة جديدة، ولكن نحت هذه المرة المنحى العملي، فقام في 27 آذار 2008 بإنتاج فيلم "فتنة"، وهو فيلم يهدف إلى تشويه صورة القرآن، وتخويف أوروبا من خطر انتشار المصاحف بين شعوب الاتحاد الأوربي .. وقصة الفيلم غنية عن التعريف.

مذيع مشهور يسب الأمة الإسلامية :

شبّه مذيعٌ أمريكي بارز المسلمين بالـ"الصراصير"، لأنهم يصومون في نهار رمضان، ويأكلون في الليل. ففي برنامجه الإذاعي الذي يُبثّ في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، انتقد "نيل بورتز" طلب عدد من المستشفيات الحكومية في اسكتلندا العاملين بها بتناول الطعام بعيداً عن المكاتب خلال شهر رمضان، حفاظاً على مشاعر زملائهم المسلمين الصائمين، معتبراً أن هذا دليل على ما أسماه أسلمة غرب أوروبا.

تقول جريدة الراية القطرية (في عدد 2007/8/17) : وليست هذه المرة الأولى التي يهاجم فيها "بورتز " المسلمين، حتى صار معروفاً بتصريحاته المعادية لهم. ففي أكتوبر 2006 وصف الإسلام بأنه ڤيروس مميت، ينتشر في جميع أنحاء أوروبا والعالم الغربي. مضيفاً: سوف ننتظر طويلاً جداً حتى نطوّر لقاحاً لنكافحه به. وبحسب نص التصريحات قال "بورتز": "أعتقد أن المسلمين لا يأكلون أثناء النهار في رمضان. إنهم يصومون خلال النهار ويأكلون بالليل. إنهم نوع من الصراصير".

هذا، وقلما تخلو حلقة من حلقاته، من تلميح أو تصريح يتعرض فيه المذيع لمشاعر المسلمين بالإيذاء.

المبحث الثالث : أرباب الإعلام الغربي

ينبغي قبل الحديث عن أسباب هذه الإساءات الإعلامية أن نعلمَ جيدًا أن القوى الماسونية والصهيونية لها حصة الأسد في إدارة رحى الحرب الإعلامية الغربية، ولا غرو؛ فاليهود أينما حلوا في بقعة من بقاع الأرض - دوماً تراهم في سعي حثيث للإمساك بزمام الاقتصاد والإعلام .. فهم ملوك المال والبنوك في أوروبا وأمريكا - والتفصيل في هذه المسألة ليس هنا -، وهم ملوك هوليود، والقنوات والمحطات الفضائية الكبرى. وصدق الله إذ يقول فيهم : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ

نَفِيراً ﴾[1] فجمع لهم القوة الاقتصادية ـ كما في قوله : ﴿ أَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَال ﴾، والقوة الإعلامية ـ كما في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾، أكثر أنصاراً، والنفير هنا بمعنى البوق الإعلامي الذي يلتف حوله الأشياع.

جاء في البروتوكول الثاني "بروتوكولات حكماء صهيون" [2]:

" من خلال الصحافة اكتسبنا نفوذناً، وبقينا نحن وراء الستار، وبفضل الصحافة كدَّسنا الذهب"... .

نجح اليهود في تطبيق هذه التعاليم، وهم بالفعل يملكون الآن أعنَّةَ الإعلام الغربي بشكل فعلي، ولقد أدلى الممثل الأمريكي " مارلون براندوا"بتصريح شهير في حوار له في برنامج (لاري كينج شو) الأمريكي، قال فيه :" اليهود يحكمون هوليود، بل إنهم يملكونها فعلاً"!.

ولو ترصدتَ بعضَ أسماء المشاهيرِ في هوليود، لوجدتَ أن اليهود هم أصحاب القدح المعلى، والسيف المحلى في صناعة الأفلام الغربية، ومن تلك الأسماء[3]:

مايكل دوجلاس ـ ديفيد دشوفني ـ آلان وودي ـ كريستال بيري ـ مارك فرانكل ـ جيف جولدبلوم ـ ريتشارد جير ـ روبين ويليامز ـ هاريسون فورد ـ مارك فرانكل ـ آري مايرز ـ بول نيومان ـ ليوناردو نيموي ـ ماندي بتينكين ـ إليزابيث تايلور (صاحبة فيلم كيلوبترا وهي صيهوينة متطرفة مع ذلك تعتبرها الكثيرات من فنانات العرب قدوة ومثل أعلى لهن) ـ مايكل ريتشاردز ـ ستيفين سبيلبيرج ـ جيري لويس ـ جون إستيوارد ـ باربرا سترايسند ـ بروس ويلز ـ سكوت وولف ـ هنري وينكلر ـ دوستين هوفمان ـ كيفين كوستنر ـ بولا برينتيز ـ روبرت ريدفورد ـ جون بانر ـ روبرت دينيرو ـ مارت فيلدمان ـ شون ولاس ـ ديفيد شتاينبرج ـ جوي أدامز ـ مايكل ليمبيرك ـ كين أولين ـ بول نيومان ـ بيتر فولك ـ ريتشارد بينجامين ... والقائمة طويلة.

---

(1) سورة الإسراء، الآية : 6.

(2) بروتوكولات حكماء صهيون وثيقة كُتبت عام 1897 في بازل بسويسرا، أي في العام الذي عُقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول، وتقع البروتوكولات البالغ عددها أربعا وعشرين بروتوكولاً في نحو مئة وعشر صفحات نشرت أول ما نشرت عام 1905، ويرى البعض أن تيودور هرتزل تلاها في هذا المؤتمر وأنها نوقشت فيه، علمًا أن جماعة من العلماء ـ منهم عبد الوهاب المسيري ـ يشككون في صحة هذه الوثيقة وعلاقة الصهاينة بها، قلتُ: إن أفعال الصهاينة اليوم ألعن من نص البروتوكولات، كما أن هناك نصوصًا في التلمود أشد دموية وتطرفًا من تلك النصوص الواردة في البروتوكولات، ومع ذا يكفينا قول الله تعالى على لسانهم : " لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ " وهي جملة شاملة بليغة تعبر عما لا يمكن تخيله بشأن مخططات اليهود ضد الإسلام.

(3) انظر : مجلة الأهرام العربي، 2000/3/4 م.

الجدول التالي يوضّح بعض الشركات والمحطّات اليهوديّة في هوليود[1] :

Cbs TV	ويرأسها اليهودي لاري تيش والذي قام بشراء أغلب أسهم هذه المحطة، وبعدها أصبح كل العاملين بهذه المحطة من اليهود.
ABC	ويملكها تيد هيربرت، ليوناردو جولدنسن، ستو بولمبرج وهم جميعا يهود.
NBC	ويملكها ليونارد جروسمان، إيرفين سيجليشتين، براندن تاتريكوف وهم جميعا من اليهود.
Disney Sony Corp	ويرأسها مايكل آيسنر، مايكل أوتفيز وكاراتي شامب وجميعهم من اليهود. شركة سوني للإنتاج الفني في أمريكا يرأسها جون بيترز، بيتر جربر وهم من اليهود.
Columbia Pictures	إشتراها جون بيترز، وبيتر جربر واللذان يسيطرون على شركة سوني، ويرأسها بيتر كاوفمان وهو يهودي.
Tri-Star	حدث لها ما حدث لشركة كولومبيا، حيث قام هذان اليهوديان بشرائها لتكوين إمبراطورية إعلامية كبيرة في هوليود.
MGM	ويملكها أسره ماير اليهودية، ويرأسها كيرك كوركوريان، فرانك مانشو، ألان لاد وهم من اليهود.
MCA	ويملكها ويرأسها لو ويسرمان وهو يهودي.
Universal Pictures	ويملكها ويتحكم فيها اليهود بنسبة 100 %، ويملكها أيضا لو ويسرمان، ويرأسها سيدني شاينبرج وتوماس بولاك وهم من اليهود.
Fox TV	يملكها اليهودي باري ديلر.
20th Century Fox	ويرأسها اليهودي بيتر شيرنين.
Paramount Comm	ويرأسها مارتن دافيز وهو يهودي.

(1) عن صفحة اليهود وهوليود بموقع الخيمة العربية، وانظر

JEWISH POWER inside the American Jewish Establishment by J.J.Goldeberg

المبحث الرابع : أسباب الإساءات الإعلامية

ها قد علمنا مرجعية القائمين على وسائل الإعلام، وبالأحرى صفة الذين تولوا كبرهم في حملات الإساءة للإسلام.

وههنا يأتي السؤال الذي يفرض نفسه، لماذا يُسيؤون ؟

فإليك عرضاً لأهم الأسباب الرئيسية ـ وذلك حسب زعمنا ـ :

السبب الأول : العداء التاريخي

حسبك أن الله ـ تعالى ـ قال في ذلك : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[1] .

والحق أن اليهود لايكرهون المسلمين فحسب، بل ويكرهون غيرهم من البشر، بل يعتبرون غيرهم من بني البشر ـ كما في المصطلح الصهيوني ـ : "جُويم "، ومعناه : كلاباً وخدماً، أو حيوانات حقيرة ليس لها حقوقٌ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2] .

فهم يرون أن سرقة بني الإنسان ـ من غير اليهود ـ جائزٌ، وقتل بني الإنسان من غير اليهود ـ حلالٌ، وهتك عرض بني الإنسان ـ من غير اليهود ـ مشروعٌ... .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[4] .

واليهود لا ينسون أعداءهم، ولا ينسون تاريخهم. أنت تراهم قد جعلوا من أساطير المحرقة النازية؛ لطيميات وبكائيات[5] .

---

(1) سورة المائدة، الآية: 82.

(2) سورة آل عمران، الآية: 75.

(3) سورة النساء، الآية : 161.

(4) سورة المائدة، الآية : 62.

(5) بينما ترى جل المسلمين نسوا مذبحة غزة التي مر عليها عدة أشهر.

ترى التربية اليهودية في مؤسسات التعليم الإسرائيلية لا تألو جهداً في ترسيخ العداء في نفوس الناشئة منهم، وتدريس جرائم المسلمين ـ بزعمهم ـ في حق اليهود من أول يومٍ دخل فيه الإسلامُ يثربَ، وهم يلقنون الأطفالَ منذ نعومة مخالبهم أن إسرائيل من النيل إلى الفرات، وأن يثرب أرض الأجداد، وأن حدود إسرائيل الجنوبية تنتهي بمدينة خيبر في أرض الحجاز.

هذه المؤسسات هي التي تفرخ النخب الإعلامية التي تتحكم في فلك الإعلام العالمي المعاصر، تلك النخب الإعلامية التي ارتضعت لُبان كراهيةِ الإسلام لا جرم أنها ستنقل تلك التعاليم من حَيِّز الدراسة إلى نطاق الواقع العملي.

لقد أبان التاريخ كيف كان موقف اليهود يومَ دخل النبيُ ﷺ المدينةَ. فعن أم المؤمنين صَفِيّةَ بِنْتِ حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ زعيم اليهود ـ أَنّهَا قَالَت :

" كُنْت أَحَبّ وَلَدِ أَبِي إلَيْهِ، وَإِلَى عَمّي أَبِي يَاسِرٍ لَمْ أَلْقَهُمَا قَطّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا إلا أَخَذَانِي دُونَهُ. فَلَمّا قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَنَزَلَ قُبَاءَ، فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، غَدَا عَلَيْهِ أَبِي، حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ، وَعَمّي أَبُو يَاسِرِ بْنِ أَخْطَب، مُغَلّسَيْنِ[1]. فَلَمْ يَرْجِعَا حَتّى كَانَا مَعَ غُرُوبِ الشّمْس. فَأَتَيَا كَالّيْنِ كَسْلانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى. فَهَشِشْتُ إلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ فَوَاَللّهِ مَا الْتَفَتَ إلَيّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، مَعَ مَا بِهِمَا مِنْ الْغَمّ. وَسَمِعْت عَمّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لأَبِي حُيَيّ بْنِ أَخْطَب :

- أَهُوَ هُوَ ؟
- قَالَ : نَعَمْ وَاَللّهِ !
- قَالَ : أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ ؟
- قَالَ : نَعَمْ !

قَالَ : فَمَا فِي نَفْسِك مِنْهُ ؟

قَالَ : عَدَاوَتُهُ وَاَللّهِ مَا بَقِيت (!!!)[2].

---

(1) أي : مساءً.

(2) ابن هشام1/519،520.

هذا حوارٌ ترويه أم المؤمنين صفية ـ رضي الله عنها ـ عن حال أبيها وعمها ـ زعيما يهود بني النضير ـ يوم دخل رسول الله ﷺ مهاجراً ـ وقد استقبله الأنصارُ استقبال الفاتحين.

كان اليهود ـ من قبلُ ـ يتدارسون صفة النبي المنتظر ـ محمد ـ ﷺ **في** كتبهم يستفتحون باسم خاتم الأنبياء على المشركين في الحروب والنزاعات قائلين :

" تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم"[1].

" قال بعض الأنصار معلقاً :

" فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿ **وَلَمّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾[2].

وما منعهم أن يؤمنوا إلا حسداً من عند أنفسهم، وحقداً، أن جعل اللهُ النبوة في غيرهم : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[3] ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[4].

وكيف كان حال حيي بن أخطب وأخيه ياسر ـ لما كان اليوم الذي شرَّف رسول الله أرضَ المدينة بطلعته الكريمة ـ لقد كانت صفتهم كما وصفت صفية :

" كَالّيْنِ، كَسْلانَيْنِ، سَاقِطَيْنِ، يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى ...مَعَ مَا بِهِمَا مِنْ الْغَمِّ"

وي ! لقد أصابهم التعب النفسي والكسل والنصب والهم والغم ! لمجرد أن تبينت لهما الحقيقة :

أن خاتم الأنبياء ليس منهم...

---

(1) ابن هشام، 211/1.

(2) ابن هشام 211/1.

(3) سورة البقرة، الآية : 109.

(4) سورة المائدة، الآية : 59.

هذه وحدها كفيلة أن تلهب نفوسهم بالغل، فضلاً عن الدغل والنَّغَل والحسد الذي يزداد في قلوبهم المريضة يوماً بعد يوم؛ على المسلمين عامة وعلى رسول الله خاصة.

ولِمَ لا يتآمرون على محمد العربي ﷺ وقد تآمروا على أنبياء بني إسرائيل، وآذوا شيخ أنبياء بني إسرائيل موسى ـ عليه السلام ـ وكادوا يقتلون هارون ؟

قال الله ـ سبحانه ـ على لسان هارون ـ عليه السلام : ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

بل قتلوا طائفة من الأنبياء الإسرائيليين أمثال " يحيى " عليه السلام وقدموا رأسه هدية إلى إحدى البغايا !.

وشقوا "زكريا" بالمنشار نصفين ... .

فكيف سيكون حال تلك النفوس الشريرة مع "محمد" ﷺ ذلك النبي العربي الأُمي الذي لا ينتسب إلى اليهود ؟ !

لا جرم أن الحقد سيكون أغور، والعداء أشد، والحسد أكبر، على هذه النعمة العظيمة التي اختص بها رب العالمين العربَ، أن جعل منهم خاتم الأنبياء، وقد كانت النبوة فيما مضى في بني إسرائيل ردحاً من الزمن حتى خانوا وبغوا : ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[2] .

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[3] .

وقد صدق فيهم قول رسول الله ﷺ :«إن اليهود قوم حُسَّد»[4].

ولقد بلغ من حسدهم أنهم يحسدون المسلمين على بعض الشعائر ـ كما قال المصطفى ﷺ : «إن اليهود ليحسدونكم على السلام والتأمين»[5].

---

(1) سورة الأعراف، الآية : 150.

(2) سورة البقرة، الآية : 105.

(3) سورة البقرة، الآية : 90).

(4) ابن خزيمة : 574، عن عائشة، وهو في السلسلة الصحيحة، برقم 691.

(5) أخرجه الخطيب (43/11)، الضياء في المختارة، عن أنس، وهو في السلسلة الصحيحة، برقم 692.

وقال فيهم الحبر العلامةُ عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ وقد كان أحد علماء اليهود فأسلم : " يا رسول الله ! إن اليهود قوم بهت"[1].

لذا قرر اللهُ ـ تعالى ـ أن اليهود لن يرضوا أبداً عن المسلمين، ما بلّ بَحْرٌ صوفةً، وسَرَى نجمٌ وهبّت ريح، قال تعالى : ﴿ **وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ** ﴾[2] .

قال الطبرى : " وليست اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبدا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم. ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم، لأن اليهودية ضد النصرانية، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية"[3].

نماذج من حروب اليهود على المسلمين في المدينة :

1. الإيقاع بين الأوس والخزرج :

مَرّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ اليهودي ـ وكان شيخاً من شيوخ اليهود وكبرائهم، عظيم الكفر، شديد الضَّغَنِ عَلَى المسلمين، شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ ـ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ. فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدّثُونَ فِيهِ، فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أُلْفَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ وَصَلاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ الّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيّةِ . فَقَالَ : " قَدْ اجْتَمَعَ مَلأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلادِ ! لا وَاللّهِ، مَا لَنَا مَعَهُمْ إذَا اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ"[4].

فَأَمَرَ فَتًى شَابّا مِنْ يَهُودَ كَانَ مَعَهُمْ فَقَال : " اعْمِدْ إلَيْهِمْ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، ثُمّ اُذْكُرْ يَوْمَ بُعَاثَ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنْ الأَشْعَارِ". فَفَعَلَ. فَتَكَلّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا، وَتَفَاخَرُوا، وتنابذوا، حَتّى تَوَاثَبَ رَجُلانِ مِنْ الْحَيّيْنِ عَلَى

(1) البخاري : 4120.

(2) سورة البقرة، الآية : 120.

(3) الطبري (التفسير) 562/2.

(4) ابن هشام 1 /455 – 555.

الرّكْبِ، فَتَقَاوَلا، ثُمّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إنْ شِئْتُمْ رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذَعَة[1]! فَغَضِبَ الْفَرِيقَان جَمِيعاً، وَقَالُوا : قَدْ فَعَلْنَا ![2].

وتواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك بموضع (الحَرَّة)[3] واندفعوا في دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون: السلاح السلاح!!.

وَجِمتْ دار الهجرة وهي تسمع صيحة الحرب.

وكادت أن تقوم الحرب الأهلية.

فجاء النبيُ ﷺ في جماعة من الْمُهَاجِرِينَ، فأدرك الأوس والخزرج في الحَرَّة وقد هموا بقتال.

فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ !! اللّهَ اللّهَ !! أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللّهُ لِلْإِسْلَامِ، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ، وَأَلّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟" !! »[4] .

فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنّهَا نَزْغَةٌ مِنْ الشّيْطَانِ، وَكَيْدٌ مِنْ أعدائهم الخونة، وتذكروا ميثاق الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية الذي أخذه رسول الله عليهم، فَبَكَوْا، وَعَانَقَ الرّجَالُ مِنْ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، ثُمّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ قَدْ أَطْفَأَ اللّهُ عَنْهُمْ كَيْدَ اليهود.

وصدق الله القائل في اليهود : ﴿ **كُلَّما أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[5] .

2. تضامنهم الإعلامي مع الوثنيين :

ذلك كان واضحاً بعد سرية عبد الله بن جحش [رجب 2هـ - يناير 624]، إذ حدث في هذه السرية أن رجلاً من المسلمين - هو واقد بن عبد الله - قتل رجلاً من المشركين -

---

(1) يعني إن شئم رددنا هذه الحرب من جديد.

(2) ابن هشام 1/ 455 – 555.

(3) وهي أرض صخرية سوداء على أطراف المدينة.

(4) ابن هشام 1/ 554 – 555 .

(5) سورة المائدة، الآية : 64.

هو عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيّ - وكان ذلك في شهر حرام، ومعروفٌ أن العرب تعظم الأشهر الحرم، وتمنع فيها القتال، علماً أن هدف السرية في الأصل هدفٌ استخباراتي، وكان مقتل هذا المشركٌ مخالفًا لأمر رسول الله ﷺ كما بينت السيرة.

وقد استغلت قريشٌ ما حدث في هذه السرية من قتل في الشهر الحرام استغلالاً بارعًا، فعمدت قريش إلى تشويه صورة الإسلام ونبي الإسلام والمسلمين أمام الرأي العام في الجزيرة العربية.

فقَالَتْ قُرَيْشٌ : "قَدْ اسْتَحَلّ مُحَمّدٌ وَأَصْحَابُهُ الشّهْرَ الْحَرَامَ ! وَسَفَكُوا فِيهِ الدّمَ! وَأَخَذُوا فِيهِ الأَمْوَالَ ! وَأَسَرُوا فِيهِ الرّجَالَ ! فرد المسلمون المستضعفون في مكة دفاعًا عن المسلمين وقالوا : إنّمَا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا فِي شَعْبَان"[1] .

وهنا تحالف يهودُ المدينة إعلامياً مع هذه الحملة المغرضة ضد المسلمين، وقالوا بكلام قريش، وَقَالَتْ يَهُودُ - تَفَاءَلَ بِذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيّ؛ قَتَلَهُ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللّه، عَمْرٌو، عَمُرَتْ الْحَرْبُ وَالْحَضْرَمِي، حَضَرَتْ الْحَرْبُ وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللّه، وَقَدَتْ الْحَرْبُ. فَجَعَلَ اللّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لا لَهُم[2].

ونزلت الآيات الكريمات ترد الحملة، وتزبر الظَلَمة :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ﴾[3] .

قد بدا واضحاً؛ استغلالَ اليهودِ لكل حدث ألمَّ بالمسلمين، وترويجه إعلاميًا بشكل يسيء للإسلام.

كلما حدثت أزمة بين المسلمين وغيرهم؛ ترى اليهود ينفثون سمومهم، ويروجون للأباطيل بشكل يؤجج الفتن، ويشعل الحرب، ويفرق الصف.

---

(1) ابن هشام 604/1.

(2) انظر : ابن هشام 406/1.

(3) سورة البقرة، الآية: 217.

3. إثارة زوبعة إعلامية فور تحويل القبلة :

في ثنايا الضجة الإعلامية التي خلفتها سرية عبد الله بن جحش؛ نزل الأمر من الله تعالى في شعبان سنة 2 هـ/فبراير 624م ـ بتحويل قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى المسجد الحرام.

ونزلت الآيات التي قال الله فيها :

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

استغل اليهودُ هذا الحدث للتشكيك في الإسلام، والسخرية من النبي ﷺ وإشاعة القلاقل والبلابل في أرجاء الوطن الجديد، وقالوا :".. ﴿ سيقُول السُّفهَاء مِن النَّاس مَا وَلاّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾[2] لقد اشتاق الرجل إلى مولده ! ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ، ما صرف محمدًا عن قبلته التي كان عليها ؟ إن كانت القِبلةُ الأولى حقًا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل... .

يا عجباً لهؤلاء اليهود؛ لا ينعم لهم جارٌ قط؛ إن تبعهم النبي ﷺ في قبلته؛ قالوا: مُقلد تابع، وإن خالفهم في قبلتهم، قالوا : كاذب ! !

... المتأمل لآيات تحويل القبلة؛ وهي ترد شبهات اليهود؛ يتبين له مدى ضراوة الحرب الإعلامية والفكرية التي شنها اليهود على الدعوة الإسلامية !

... حتى إنهم شككوا في صلاة المسلمين القديمة نحو بيت المقدس، ومن ثم أعلنوا أن المسلمين الذين ماتوا قبل تحويل القبلة دخلوا النار؛ لأنهم صلوا إلى القبلة الفاسدة ـ بزعمهم ـ فيرد الله قائلاً : ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنّ اللّهَ بِالنّاسِ لَرَءُوفٌ رّحِيمٌ ﴾[3].

---

(1) سورة البقرة، الآية : 144.

(2) سورة البقرة، الآية : 142.

(3) سورة البقرة، الآية : 143.

السبب الثاني : الخوف من أسلمة أوروبا

الخوفُ قديمٌ :

نحن نعتقد أن الخوف من أسلمة أوروبا بدأ بعد صلح الحديبية [ذو القعدة 6هـ ـ مارس 628 م]، حيث انتقلت الدعوة من المرحلة الإقليمية إلى المرحلة العالمية، حيث بدأ النبيُ ﷺ يرسلُ رسلَه إلى ملوك وزعماء العالم.

لا ريب أن النجاحات التي أحرزتها الدولةُ الإسلامية أقلقت أوروبا، ثم تحول هذا القلقُ إلى غضب؛ ترجمته الأحداث في غزوتي : مؤتة [جمادي الأول 8 هـ ـ أغسطس 629]، وتبوك [رجب 9هـ ـ أكتوبر630 م].

كانتا معركتين كبيرتين بين المسلمين والرومان، وقد كان الدافع الأول للرومان في خوض هذا الصدام مع المسلمين هو الخوف من أسلمة أوروبا.

لقد كان الخوف من أسلمة أوروبا رعباً يزداد يوماً بعد يوم في قلوب الرومان حتى قال هرقل ـ أكبر ملوك أوروبا ـ لأبي سفيان ـ في معرض الحوار التاريخي الذي دار بينهما حول نبوة محمد ﷺ :"فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ " [1].

وقد كان. فانتشر الإسلام في أوروبا، وبلغ ذروته يومَ فُتحتْ أكبرُ عاصمةٍ أوربية ـ آنذاك ـ، أعني : القسطنطينية.

ثم بدأ العدُ التنازلي للإسلام في أوروبا يوم سقطت القسطنطينية !.

ثم ها هو الإسلام في طور نهوضٍ جديد، أو بمعنى آخر؛ في طريقه لتحقيق البشارة النبوية الثانية؛ فتح روما !

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَكْتُبُ؛ إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلاً قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلاً " يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّة [2] . ..

---

(1) رواه البخاري في صحيحه.

(2) مسند أحمد : رقم الحديث 6645 وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم : 4.

وقد فُتحت قُسْطَنْطِينِيَّة، وبقيت روما، فظاهر السياق يدلك على أن رسول الله ﷺ أخبر أصحابه بفتح المدينتين؛ وسؤال الصحابة إنما هو سؤال المستفسر عن أيهما ستخضع للإسلام أولاً.

التحركات الحالية :

ونحن نرى أن الإساءات الغربية تشتد كلما زادت نوبةُ التشنجات البابـاوية؛ كرد فعل طبيعي على انتشار الإسلام في أوروبا.

أنت تسمع بين الفينة والأخرى صراخاً وعويلاً يحذر من أسلمة أوروبا، لو تتبعت الأمر لتبين لك أن الصرخة جاءت كرد فعل مباشر أو غير مباشر على فتحٍ إسلامي جديد؛ كدخول فنان أو كاتب في الإسلام.

في هولندا، كان أول عمل شعبي أوروبي لمناهضة المد الإسلامي، كان ذلك تحت مسمى "حركة أوقفوا الأسلمة[1]. stop islamization وهي حركة تضم حفنة من المتطرفين المعادين للإسلام، بدأوا نشاطهم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، ومن أبرز أنشطة هذه الحركة؛ أنها دعت إلى تجمع (جماهيري) وسط العاصمة الهولندية " لاهاي"، يوم الجمعة 2007/9/11 لمساندة المتطرف " فليدرز" صاحب فيلم "فتنة" المسيء للقرآن.

كانت معظم الشعارات التي رفعها أفراد هذه الحركة ـ شعارات معادية للمسلمين؛ محذرة من انتشار الإسلام في أوروبا، وكان من ضمن الشعارات المرفوعة : "وقف بناء المساجد"، "وقف أسلمة أوروبا، "رفض الشريعة الإسلامية بأوروبا".

ثم كان تصريح "جيورج جاينزفاين" في يوليو 2007 ـ وهو السكرتير الخاص للبابا "بنديكتوس السادس عشر" ـ الذي حذر فيه من أسلمة أوروبا.

كان هذا التصريح دليلاً عملياً وعلنياً على موقف الكنيسة الأوربية من المد الإسلامي، ودليلاً على الخوف الذي استكنه القومُ في أنفسهم فترة من الزمن قبل هذه التصريحات.

---

(3) هذه الحركة ترفع في كل مواقعها الإلكترونية شعار: "ساند إسرائيل" [حتى لا تشكك في الأصابع اليهودية الماسكة بأحجار الشطرنج].

قال " جيورج جاينزفاين " بكل وقاحة : "يتعين على أوروبا ألا تتجاهل المساعي الرامية إلى إدخال القيم الإسلامية في الغرب.. وهو ما يمكن أن يهدد حتى هوية القارة".

قال : "إن الخطر[1] الذي يهدد هوية أوروبا يجب ألا يتم تجاهله بمبررات مثل الاحترام القائم على مفاهيم خاطئة"[2].

وشاركتْ جهاتٌ أوروبية مختلفة في حملات محاربة "أسلمة أوروبا"، ورأينا شخصياتٍ بارزةً ومؤسساتٍ كبيرةً بل أحزاباً سياسيةً تولت كبرها في مناهضة المد الإسلامي في أوروبا. ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[3].

طالبتِ الأحزاب السياسية المنتمية لليمين المتطرف في أوروبا، بوقف بناء مساجد جديدة وبمنع الحجاب، وتجريم من يذبح المواشي على الطريقة الإسلامية.

طرح " فيليب ديونتر " ـ زعيم حزب فلامز بلانج ـ اليميني المتشدد في بلجيكا كتاباً في مدينة " أنتويرب "البلجيكية بعنوان "إن شاء الله" ينتقد فيه المد الإسلامي في أوروبا وظاهرة دخول الأوربيين في الإسلام.

يقول : إنه "لا يوجد سوى إسلام واحد يدعو إلى العنصرية والتمييز والقتل، خاصة قتل المرتدين عن الإسلام".

يقول : "المرأة مضطهدة في الإسلام".

يقول : "الإسلام عقيدة خطيرة" و"القرآن يعطي تصريحاً أو رخصة بالقتل"[4].

ثم حذر الخبيث مما وصفه محاولة "أسلمة أوروبا"، خاصة "أن هناك تزايداً في أعداد المسلمين بالدول الأوروبية سواء من خلال الهجرة التي يجب التصدي لها وبحزم، أو من خلال الزيادات الكبيرة في عدد المواليد بين المسلمين المقيمين في الدول الأوروبية"[5].

---

(1) يشير إلى الإسلام.

(2) مقابلة "جيورج جاينزفاين" مع مجلة "زودويتشه تسايتونج" الألمانية نشرت في موقع المجلة على الأنترنت، ونشرته البي بي سي بتاريخ 27 يوليو 2007، وذكرت نفس المجلة أن أسقف مدينة كولونيا الألمانية "يواكيم ميسنر " قال في مقابلة إذاعية : "إن هجرة المسلمين إلى أوروبا خلقت شرخاً في الثقافة الألمانية والأوروبية".

(3) سورة الصف، الآية : 8.

(4) انظر : جريدة الشرق الأوسط، 6 ربيع الأول 1430هـ، 3 مارس 2009 العدد 11053.

(5) انظر : السابق.

وكل ما قاله " فيليب ديونتر " في كتابه، أهون من ضرطة عير !

ومن قبلُ (في أوائل عام 2008) تم تأسيس تحالف أوروبي يضم عدداً من المنظمات والأحزاب اليمينية المتشددة، التي تحارب "أسلمة أوروبا".

شهد المؤتمر حضوراً إعلامياً بارزاً وخاصة من ألمانيا والنمسا، ويرجع السبب في ذلك ـ والله أعلم ـ إلى مشاركة زعيم اليمين المتشدد في النمسا "هاينز ستراشي" في أعمال المؤتمر، والذي اتفق المشاركون فيه على المطالبة بمنع بناء المساجد في المدن الأوربية التي قالوا إنها سبب انتشار الأفكار الأصولية بين بعض مسلمي أوروبا![1].

في هذا المؤتمر قال " فيليب ديونتر " قولته الفَسلة : «لدينا أكثر من 6000 مسجد في أوروبا، وهي ليست دوراً للعبادة فحسب بل رمزاً للتطرف»[2].

﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

السبب الثالث : العمل على تجفيف المنابع

سياسة تجفيف المنابع الإسلامية؛ هي من أصول المذاهب المعاصرة المعادية للإسلام، تلك المذاهب ترى أن السبب في المد الإسلامي هم الأصوليون، والقضاء على هؤلاء الأصوليين يستلزم القضاء على المرجعية التي يتأصلون إليها، أو تجفيف المنابع التي يرِدون عليها، فينبغي إذنْ العمل على زلزلة ثوابت راسية في وجدان المسلمين؛ كالطعن في القرآن، وإنكار حجية السنة، وفصل الدين عن الدولة، وتزوير التاريخ، والترويج لنموذج (الإسلام الحداثي/ الأمريكاني)، ومحاربة حجاب المرأة، ومحاربة الاقتصاد الإسلامي، وهلمَّ جرًّا .

ظهر مصطلح " تجفيف المنابع " على الساحة السياسية في عشرينيات القرن العشرين، وكانت خطة تجفيف المنابع تسير على قدم وساق في دول الاتحاد السوفياتي، نظراً للوجود الإسلامي التاريخي في آسيا الوسطى وبلاد القوقاز، كان هذا

(1) انظر : السابق.

(2) انظر : السابق.

(3) سورة الأعراف، الآية: 176.

يجري ـ دون أدنى شك ـ للخوف من عودة المجد الإسلامي في تلك المنطقة خاصةً في ظل وجود مدن إسلامية عريقة كسمرقند[1]، وبخارى[2]، وطشقند[3]، وغيرها.

كان أشهر المنظرين لفكرة تجفيف المنابع؛ (المفكر) الشيوعي "سلطان غالييف" ـ وهو من أصل إسلامي ـ، وكان من أعلام مفكري الحزب الشيوعي، كان يومئذ رئيس تحرير مجلة " القوميات الموسكوفية". يعتبره البعضُ اليدَ اليمنى للزعيم الشيوعي " ستالين".

رسم " سلطان غالييف " سياسة النفس الطويل للقضاء على الإسلام، وأشار إلى الخطوط العريضة في سياسته تلك في مقال نشره في مجلة (جيزن) عام 1920م، ومن ملامح هذه السياسة وجوب " إبعاد المسلمين عن دينهم بمراحل تدريجية لا تثير صداماً أو مقاومة قد تتخذ شكل حرب وطنية وفوق ذلك كان على الدولة الشيوعية أن تبعد عن نفسها ظن المسلمين، وهي تشن حرباً على الإسلام أنها إنما تفعل ذلك استمراراً للحملة التي شنها عليهم المبشرون المسيحيون في القرن التاسع عشر"... [4].

يقول أحمد بن محمد العيسى : " ويمكن للقارئ هنا أن يتوقف برهة، ويستحضر السياسات الغربية الحالية في البلاد العربية، التي تسعى بشتى الوسائل كي تبعد ظن المسلمين في أن سياساتها الحالية ما هي إلا امتداد للحروب الصليبية في القرون الوسطى والاستعمار الغربي في القرون الحديثة. وهذا يشمل بطبيعة الحال دور المبشرين بالنصرانية الذين وجدوا في المهن التي يحتاجها المسلمون مثل الطب والهندسة وغيرها، فرصة لمتابعة عملهم التبشيري دون اهتمام كبير من المسلمين"[5].

---

(1) فتحها قتيبة بن مسلم في سنة (87هـ ـ 705م)، ثم خربها المغول سنة 616 هـ (1219م) ثم جدد بناءها تيمورلنك واتخذها عاصمة له وشيد فيها المساجد. كانت أكبر مركز لصناعة الورق (الكاغد)، هي الآن ثاني أكبر مدن (أوزبكستان). ينسب إليها كثير من العلماء منهم ابن بهرام الدارمي السمرقندي من أئمة حفاظ الحديث. وفى سنة (1918م) بعد قيام الثورة الشيوعية؛ استولى الشيوعيون على سمرقند؛ فأفسدوا فيها وأعملوا فيها القتل والنهب.

(2) مجمع الفقهاء، ومعدن العلماء، ومنشأ الحكماء، وهي تابعة لأوزبكستان أيضاً، فتحها قتيبة بعد فتح سمرقند بثلاث سنوات، ينسب إليها الأئمة الأعلام البخاري والزمخشري وابن سينا، وينسب إليها أبو خالد يزيد بن هارون.

(3) هي المدينة الجليلية (الشاش)، عاصمة أزبكستان، ينسب إليها جماعة من العلماء منهم: أبو بكر علي القفال الشاشي المتوفي سنة 336 هـ وأبو الحسن علي بن الحاجب الشاشي المحدث المتوفي سنة 314 هـ وأبو سعيد بن كليب الشاشي صاحب المسند الكبير... .

(4) انظر : أحمد بن محمد العيسى : الجذور التاريخية لسياسة تجفيف المنابع، مجلة البيان شوال 1414هـ، مارس 1994م، السنة: 8.

(5) انظر : السابق.

لذا ارتأت العقلية الشيوعية الهجوم على الإسلام بشكل غير مباشر ـ في بداية الأمر ـ واتخاذ سياسة التجفيف على مهل، ومن ثم شرعت الحكومة الشيوعية الهجوم على هذه الثلاثية [1] :

أولاً : الأوقاف التي كانت تضمن القوة الاقتصادية لعلماء الدين.

ثانياً : المحاكم الشرعية التي تمنح الإسلام السيطرة على حياة المسلمين الخاصة.

ثالثاً : التعليم الديني الإسلامي، وقد شنت هذه الحملات الثلاث في وقت واحد تقريباً.

وتستمر محاربة هذه الثلاثية بهدوء، ويشتد الأمرُ رويداً رويداً، حتى يتم الإلغاء. قال صاحبا كتاب : "المسلمون في الاتحاد السوفياتي" : «وفي سنة 1925م عمدت الحكومة إلى تصفية الوقف نهائياً فأصدرت جمهورية (أوزبكستان) في 19 كانون الأول 1925م مرسوماً يقضي بأن تتملك مفوضية الشعب للزراعة كل الأوقاف الكائنة خارج المدن باستثناء البساتين والكروم، وبعد ذلك بقليل صادرت أوقاف المدن وأوقاف المساجد، وفي سنة 1930م قضت حكومة موسكو عملياً ونهائياً على المؤسسات الوقفية الكائنة في طول الاتحاد السوفياتي وعرضه، وذلك بوعدها أن توزع الأرضين على الفلاحين، وهكذا قضي على هذه المؤسسة الإسلامية في بضع سنوات، من غير أن تثير أي مقاومة، ومنذ ذلك الحين حُرم علماء الدين من أسباب رزقهم، كما حُرمت المساجد والمدارس من الوسائل المادية لدوام بقائها"[2].

ثم انتقلت دفة الحرب بعد ذلك إلى ميدان التشريع الإسلامي والعادات الإسلامية تحت غطاء العلمانية. جاء في نفس الكتاب : "وبدأت الحملة على العادات الإسلامية وعلى التشريع الإسلامي في الوقت الذي بدأ فيه الكفاح ضد قوة الإسلام الاقتصادية، وقد سهل هذه الحملة كونها جاءت في نطاق العلمانية"[3].

---

(1) انظر : بينغسن ولمرسييه : المسلمون في الاتحاد السوفياتي، الطبعة الإنجليزية، 1967، وهو من أهم الكتب التي فضحت مخططات تجفيف المنابع الإسلامية؛ [نقلاً : أحمد بن محمد العيسى : الجذور التاريخية لسياسة تجفيف المنابع، مجلة البيان شوال ـ 1414هـ، مارس 1994م، السنة 8].

(2) انظر : أحمد بن محمد العيسى : الجذور التاريخية لسياسة تجفيف المنابع، مجلة البيان شوال - 1414هـ، مارس - 1994م، السنة : 8

(3) انظر : السابق.

وبدأ الحزب الشيوعي يشن حملات إعلامية بهدف الحط من قدر علماء وفقهاء المسلمين، وكانت الحملات في هذا الصعيد متدرجة على حد قول الكِتاب حيث كانت الدعاية الرسمية تسعى، في بداية الأمر، إلى الحط من أقدار علماء الدين فقط في نطاق عملهم، وتتهمهم بالجهل، وعدم فهم القرآن وعدم معرفة أحكام الشرع، وبالتالي تتهمهم بأنهم أئمة غير صالحين، ثم تطورت حملة التحقير رويداً رويداً، وصار علماء الدين يُتهمون بعد سنة 1926 م بالرشوة والسرقة والإجرام، وأخيراً بسوء السيرة والخلق، وبعد سنة 1928م، قررت السلطات السوڤياتية أن تبدل حملاتها غير المباشرة بحملات مواجهة"...[1]. ... والمراقب لتوجهات الإعلام الغربي، وتحركات المؤسسات الإعلامية المعادية للإسلام؛ ليتجلى له أن القوى" الصهيونية ـ المسيحية" المعادية للإسلام؛ قد استفادت كل الاستفادة من التجربة الشيوعية في مخطط تجفيف المنابع؛ ولسنا في احتياج للتدليل على ذلك؛ فالناظر إلى ضوء النهار لا حاجة له أن يتجشم عناءً للنظر إلى أعلى؛ حيث قرص الشمس!.

وَمَا انْتِفَاعُ أخي الدّنْيَا بِنَاظِرِهِ إذا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأنْوارُ وَالظُّلَمُ

أُعِيذُها نَظَراتٍ مِنْكَ صادِقَةً أن تحسَبَ الشّحمَ فيمن شحمهُ وَرَمُ[2]

أنت ترى الآن الحملات الغربية على مؤسسات العمل الخيري في العالم الإسلامي، وما حدث لمؤسسة الحرمين الخيرية في المملكة خير دليل.

ترى الحروبَ الإعلامية بين الفينة والأخرى على "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

ترى الحرب الضروس على المحاكم الشرعية، فمنها ما أُغلق ومنها ما هو في سبيل الإغلاق؛ ثم شرع القوم في إنشاء ما يسمى محاكم الأسرة، وهي مرحلة ثانوية للوصول إلى النمط الغربي العلماني.

ترى كذلك ما فُعل ويُفعل بالأوقاف الإسلامية التي كانت تمنح المشاريع الخيرية والدعوية والعلمية؛ الاستقلالية الاقتصادية.

---

(1) انظر : أحمد بن محمد العيسى : الجذور التاريخية لسياسة تجفيف المنابع، مجلة البيان شوال ـ 1414هـ، مارس 1994م، السنة : 8.

(2) البيتان لأبي الطيب من ميميته المشهورة التي أنشدها في مجلس سيف الدولة.

كذا حملات التشويه وإثارة الشبهات حول الجماعات والجمعيات الإسلامية، ومحاولة الحط من قدر العلماء والدعاة المؤثرين في كل قُطر.

فعلماء الدين الإسلامي هم المراجع الشرعية التي تمشي بين الناس، فإن سقط هؤلاء العلماء في نظر الناس؛ سقط الدين ـ كنتيجة طبيعية ـ بين الناس.

ومن هنا انطلقت حملات الإساءة والتخويف من الإسلام ونبي الإسلام في أوروبا؛ وكان من المتوقع دومًا أن الإساءة لعلماء الدين سوف تَخْلُفُها الإساءةُ لسيد المرسلين.

هنا نقول بكل صراحة : إن حملات الإساءة والتخويف من الإسلام ونبي الإسلام كانت لخدمة مخططات "تجفيف المنابع الإسلامية " الماضية على قدم وساق.

السبب الرابع : مساندة الأنشطة التنصيرية :

هذا السبب يكاد يكون بديهياً، لا يحتاج إلى طويل تفصيل، فالحملات الإعلامية الغربية المعادية للإسلام؛ تصب بشكل أو بآخر في خندق التنصير، وتقوي بالضرورة أنشطةَ التنصير، فالتنصيرَ لا ينشط في مكان إلا إذا صنع المنصرون أرضيةً إعلامية لما يَدْعون له؛ وهذه الأرضيةُ الإعلامية لا تخلو ـ بالطبع ـ من الإساءة للإسلام والعمل على نشر صورة سلبية عنه، بل إن التنصير لا يستهدف سوى المسلمين؛ ونحن لم نسمع قط أن ثمةَ أنشطة تنصيرية في أوساط عباد البقر أو عباد الحجر، نحن لا نرى التنصير إلا بين ظهراني المسلمين.

نحن نرى أن "الإساءة للإسلام " هي مرحلة من مراحل التنصير . يهدفون بهذه الإساءات تهيئة الذهنية المسلمة لتقبل النصرانية، يقومون بهذه الحملات التي ترنو ـ بزعمهم ـ إلى غسل أدمغة الناس؛ كتفريغ الكوب لملئه بمائع جديد.

أعجبُ ما في الأمر أن الصهيونية تخدم أنشطة التنصير وتؤازرها بشدة؛ وهذا دون شك لأن الكفرَ ملةٌ واحدة.

نحن نرى الصهاينةَ يساندون النصرانيةَ ـ إعلامياً ـ في الحروب الطائفية في لبنان.

ونرى الصهاينة يساندون المتمردين النصارى وحركات التنصير في جنوب السودان، ضد المسلمين، بشكل صريح . بل إن ملف " دار فور " هو ملف صهيوني بالدرجة الأولى.

ولقد ظهر في صفوف المنصرين يهودٌ منصرون، وعمل بعضُهم في المنطقة العربية، وفي هذا الصدد يُذكر "صاموئيل زويمر" - "وهو منصر من عائلة يهودية"[1].

يقول عبد الله التل : " وأعجب العجب أن يعلم القارئ بأن صموئيل زويمر هذا، الذي كان يرأس مؤتمرات التبشير من أدنبرة في أقصى الغرب إلى لكنو في أقصى الشرق، والذي قاد معارك التبشير طوال ستين عاما انتهت بهلاكه سنة 1952، قد كشف عن يهوديته الدفنية الراسخة في أعماق نفسه، وذلك بأن طلب حاخامًا يلقنه في ساعاته الأخيرة أثناء احتضاره. وقد أخبرني راهب من أصدقائي أيام معركة القدس، أن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المذهل، ولا تبوح به، حتى لا تنكشف حيل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق النصرانية، وحتى لا يظهر إخفاق جمعيات التبشير التي تبذل الملايين عبثا، وتنخدع بمكر اليهود وخططهم الخبيثة لبث الفتن والبغضاء بين الإسلام والمسيحية"[2].

هنا ترى أن من يحرك التنصير هو من يحرك الإساءة للإسلام. وأن وسائل التنصير هي نفسها وسائل الإساءة للإسلام.

أقول : حملات التنصير وحملات الإساءة للإسلام؛ وجهان لعملة واحدة.

المبحث الخامس : مكاسب الإساءات !

أنموذج من التاريخ :

دوماً حملات الإيذاء ضد الدين الإسلامي تأتي بنتائج عكسية؛ وخير دليل على ذلك قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي في المرحلة المكية. وقد نظَّمتْ قريشٌ ما يشبه "لجنة إعلامية"، تترصد القادمين إلى مكة، فترسل إليهم من يُحذرهم من الدعوة الإسلامية، وقد قعدوا بكل صراطٍ يُوعِدُونَ، ويصدون عن سبيل الله، فلا يكاد الغريب

(1) التنصير، مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، علي بن ابراهيم الحمد النملة، نسخة إلكترونية على الموسوعة الشاملة.

(2) انظر: عبد الله التل، جذور البلاء، ص 228.

تطأ قدماه أرض مكة فلا يصل إلى الكعبة إلا وقد مر بعملية غسيل دماغي من قِبل هؤلاء الإعلاميين، وقد قاموا بصب الشبهات والترهات والخرافات في عقله صباً.

إذْ قدم الطفيلُ إلى مكة، فمشى إليه رجال من قريش، يتلقفونه بنفث سمومهم الفكرية في عقله، و"تحصينه" من الدعوة الإسلامية.

قالوا له : " يَا طُفَيْلُ، إنّك قَدِمْتَ بِلادَنَا ، وَهَذَا الرّجُلُ الّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أَعْضَلَ بِنَا، وَقَدْ فَرّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتّتْ أَمْرَنَا، وَإِنّمَا قَوْلُهُ كَالسّحْرِ يُفَرّقُ بَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ، وَبَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَبَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، وَإِنّا نَخْشَى عَلَيْك وَعَلَى قَوْمِك مَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا، فَلا تُكَلّمَنّهُ، وَلا تَسْمَعَنّ مِنْهُ شَيْئاً"[1].

قال الطفيل محدثًا عن حاله معهم : "فَوَاَللّهِ مَا زَالُوا بِي، حَتّى أَجْمَعْتُ أَنْ لا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا، وَلا أُكَلّمَهُ، حَتّى حَشَوْتُ فِي أُذُنَيّ ـ حِينَ غَدَوْتُ إلَى الْمَسْجِدِ ـ كُرْسُفاً، فَرَقًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنَا لا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ "[2].

وهكذا تأثير الإعلام، الذي يفعل بالعقول الأفاعيلَ، فبمثل هذا الطرح يتحول الحق إلى باطل في نظر الناس، ومن خلال وسائل الإعلام يرى الناس الفيل بحجم النملة، والنملة بحجم الفيل. وإذا أُحسن استخدام وسائل الإعلام؛ فهي كالشمعة في يد العاقل يضيء بها، وإذا أُسيء استخدام وسائل الإعلام فهي كالشعلة في يد المجنون يحرق بها.

قَالَ الطفيل بن عمرو : " فَغَدَوْت إلَى الْمَسْجِدِ ، فَإِذَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ . فَقُمْت مِنْهُ قَرِيبًا فَأَبَى اللّهُ إلا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ . قَالَ فَسَمِعْتُ كَلامًا حَسَنًا قَالَ فَقُلْت فِي نَفْسِي : ثكلتني أُمّي ! وَاَللّهِ إنّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ، مَا يَخْفَى عَلَيّ الْحَسَنُ مِنْ الْقَبِيحِ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرّجُلِ مَا يَقُولُ فَإِنْ كَانَ الّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قَبِلْتُهُ وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتُه"[3].

هنا نرى قدرة الله ـ سبحانه في علاه ! ـ وكيف يفتح مغاليق القلوب بحكمته، وهي القلوب التي خلقها ويقلبها كيف يشاء، وقد شَعُرَ الرجل بهذه القدرة الربانية تتسلل إلى قلبه شيئاً فشيئاً؛ تسلل النور في حالك الظلمات، فقال : " فَأَبَى اللّهُ إلا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِه".

---

(1) ابن هشام :382/1.

(2) ابن هشام: 382/1

(3) ابن هشام : 382/1-383 .

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويرسل أشعة الإسلام إلى قلوب غبَّرتها وسائل التضليل، وإلى نفوس تربت ردحاً من الزمان على مناهج فاسدة، وإلى أجساد كَبُرتْ وشابت بين ظهراني المضللين والأفاكين.

وكم نرى من شباب قد انغمسوا في حمئة الضلال حتى ظن العدو أنه أعدهم معاول هدم في بناء الإسلام، وإذا بيد الله الرحيمة تأخذ بهم وتحملهم حملاً إلى ركب الدعوة ليكونوا عوامل بناء فيها.

وكم نرى وسائل الإعلام الغربية تستهدف بعض بلدان العالم الإسلامية لمحاولة إفساد المرأة المسلمة وتجريدها من أخلاقها وحجابها، ولكن يأبى الله إلا أن يقيض لهذه البقعة رجالاً ـ اصطنعهم الله لنفسه ـ فَيَجُبّوا ما صنعه الإعلام الغربي، وينفوا عن البلد الإسلامي ما نفثه الإعلام الصهيوني، وتبقى الصحوة الإسلامية زاحفة كالفيلق الدارع، تنشر نور الله في الوبر والمدر، في البدو والحضر، في البيوت والكهوف، في المسارب والغابات.

قال الطفيل : " فَمكَثْت حَتّى انْصَرَفَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى بَيْتِهِ؛ فَاتّبَعْتُهُ حَتّى إذَا دَخَلَ بَيْتَهُ؛ دَخَلْتُ عَلَيْهِ؛ فَقُلْت : يَا مُحَمّدُ إنّ قَوْمَك قَدْ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا، لِلّذِي قَالُوا، فَوَاَللّهِ مَا بَرِحُوا يُخَوّفُونَنِي أَمْرَك حَتّى سَدَدْت أُذُنَيّ بِكُرْسُفٍ [أي بقطن] لِئَلا أَسْمَعَ قَوْلَك، ثُمّ أَبَى اللّهُ إلا أَنْ يُسْمِعَنِي قَوْلَك، فَسَمِعْتُهُ قَوْلاً حَسَناً، فَاعْرِضْ عَلَيّ أَمْرَك"[1].

وهكذا، كما ترى، يدفع الله بهؤلاء إلى باب الداعية، ويقوم الطفيل بنفسه بالذهاب إلى بيت رسول الله ﷺ، ليناقش أمر الدعوة ـ بطريقة عقلانية موضوعية، على الطريقة المعهودة عند الأدباء العقلاء والشعراء الحصفاء.

أما ترى أن مجهودات المشركين الإعلامية قد ذهبت أدراج الرياح ؟ وقد تلقف الداعية هذه الثمرة الحلوة سهلة، إنها يد الله أهدتها إلى الداعية المخلص!.

إن قارورة الصَّبغ لا تصبغ البحر، ونفخات البشر لا تحرك القمر، ومهما نفخوا في أبواق (إعلامهم) فإن الدائرة عليهم!

وإن نَبْأَةَ الحق لابد أن تُسمع!

وإن منهج الله لابد أن يعود، ويسود، ويقود.

---

(1) ابن هشام: 1/382-383 .

قال الطفيل : " فَعَرَضَ عَلَيّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الإسْلام وَتَلا عَلَيّ الْقُرْآنَ، فَلا، وَاللّهِ! مَا سَمِعْتُ قَوْلاً قَطّ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَلا أَمْراً أَعْدَلَ مِنْهُ".

إنه حسُ الأديب الهِبرزي المصقع، يميز جيداً بين حلو الكلام ومره، وبين زين الأدب وشينه، وبين سلامة البيان وركاكته.

لقد استمع إلى القرآن، ثم أنصت إليه، ثم عايشه بقلبه، وفي مجلس واحد، وفي ساعة واحدة، حكم حكمه البلاغي وكأنما أخذته نشوة الناقد الأدبي، فقال : " مَا سَمِعْتُ قَوْلاً قَطّ أَحْسَنَ مِنْه"

إن جزالة النظم وحلاوة العرض وسمو البيان قد ملكت عليه لُبه، فهام الأديب في حُب القرآن، وتالله ! ما رأيتُ أديباً لبيباً إلا وله مع القرآن ألفة، وحب لا يضاهيه حب، وإن الأدباء الأتقياء ليتلذذون بالقرآن وكأنما هم العباد المتحنثين في صوامعهم.

وبعد أن تأمل الطفيلُ نظمَ القرآن وبيانه وبلاغته، نراه أيضاً يتأمل المعاني، فالشعراء على ثلاثة: شعراء ألفاظ، وشعراء معاني، وشعراء ألفاظ ومعاني، ويبدو أن الطفيل أراد أن يجمع بين النظرتين بناظريه، فنظر نظرة في الألفاظ، وقد كانت، ونظر نظرة في المعاني فهذه التي قال فيها : "وَلا أَمْراً أَعْدَلَ مِنْهُ".

فقد شدته تلك التعاليم الإسلامية الرفيعة، ومكارم الأخلاق التي يدعو إليه الإسلام، الأمر الذي غاير الصورة التي وصلته عن الإسلام عندما تلقفه مشركو مكة.

قال الطفيل : " فَأَسْلَمْتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقّ .. وَقُلْتُ : يَا نَبِيّ اللّهِ، إنّي امْرُؤٌ مُطَاعٌ فِي قَوْمِي، وَأَنَا رَاجِعٌ إلَيْهِمْ وَدَاعِيهِمْ إلَى الإسْلام، فَادْعُ اللّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي آيَةً تَكُونُ لِي عَوْنًا عَلَيْهِمْ فِيمَا أَدْعُوهُمْ إلَيْهِ. فَقَالَ : اللّهُمّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً. قَالَ فَخَرَجْت إلَى قَوْمِي، حَتّى إذَا كُنْت بِثَنِيّةٍ تُطْلِعُنِي عَلَى الْحَاضِرِ، وَقَعَ نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيّ مِثْلُ الْمِصْبَاحِ، فَقُلْت : اللّهُمّ فِي غَيْرِ وَجْهِي، إنّي أَخْشَى، أَنْ يَظُنّوا أَنّهَا مُثْلَةٌ وَقَعَتْ فِي وَجْهِي لِفِرَاقِي دِينَهُمْ .. فَتَحَوّلَ فَوَقَعَ فِي رَأْسِ سَوْطِي .. فَجَعَلَ الْحَاضِرُ يَتَرَاءَوْنَ ذَلِكَ النّورَ فِي سَوْطِي كَالْقِنْدِيلِ الْمُعَلّقِ، وَأَنَا أَهْبِطُ إلَيْهِمْ مِنْ الثّنِيّةِ، حَتّى جِئْتُهُمْ فَأَصْبَحْتُ فِيهِمْ [1].

(1) ابن هشام : 1/382-383.

هـذا أنموذج مـن الـتـاريـخ أثـبت أن حـمـلات الإسـاءة غـالـبًا مـا تـأتـي بمكـاسب للإسلام! أما عن إساءات العصر؛ فإليك هذه المكاسب التي خلفتها حملات التضليل.

المكسب الأول : تزايد عدد الداخلين في الإسلام

إن الذي حدث مع الطفيل بن عمرو هو الذي حدث مع كثير من المواطنين الغربيين!

إذا رأيت الناسَ اختلفوا في رجلٍ ما بين مادح وذام، وشاكر وناكر، وناصر ومؤيد؛ فاعلم أن هذا الرجلَ عظيمٌ مؤثرٌ جذاب!

إن التشنج الإعلامي الذي بدا متحاملاً على الإسلام جعل من شخصية النبي الكريم أمام الغربيين شخصيةً مثيرة للجدل؛ اختلف حولها الناس، بين مسيء ومؤيد، بين أناس يرسمونه بشكل مهين وأناس يتظاهرون من أجله، مما دفع المُواطن الغربي إلى الإقبال على شراء الكتب وتصفح مواقع الإنترنت التي تتحدث عن النبي محمد ﷺ، حتى سمعنا أن من أكثر الكلمات التي كتبت في محرك البحث العالمي ″ جوجل ″ كلمة: Mohamed فتزايد عدد الداخلين في الإسلام، وقد حققت كتب مثل كتاب ″ حياة محمد″، أعلى مبيعات لها بعد حملتي الإساءة الأولى والثانية.

وعموماً فإن عدد الداخلين في الإسلام في ازدياد من بعدِ أحداثِ الحادي عشر من سبتمبر. وذلك لنفس الأسباب.

لقد كان من نتائج هذه الحملات التشويهيةِ أن دخل ألفُ ألمانيٍ في الإسلام في سنة واحدة فقط، وذلك عام 2005م، مما أقلق القوى السياسية المتشددة، وقد اعتبر وزيرُ الداخليةِ الألماني ـ نفسُه ـ أن زيادةَ الداخلين في الإسلام من الألمان، أمرٌ يدعو للقلق.

ارتفعت حالات اعتناق الدين الإسلامي في ألمانيا بشكل كبير في السنوات الأخيرة الماضية، والرقم الذي ذكرناه آنفاً شكل سابقة في تاريخ طوائف المواطنين في ألمانيا، وهو ما أشارت إليه ″المؤسسة المركزية لمحفوظات الإسلام″ في ألمانيا.

الآن، الإسلام ينتشر بين المواطنين الغربيين انتشار النار في الهشيم، وهناك تعمد واضح لإخفاء هذه النتائج . وليس المواطنين الغربيين فحسب، بل غير المسلمين في العالم العربي، وأضف إليهم السائحين الذين يدخلون البلدان الإسلامية بهدف السياحة، ويخرجون منها مسلمين.

فلقد كشفت أرقام رسمية صادرة عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالجزائر أن نسبة الأوربيين المعتنقين للدين الإسلامي في الجزائر، في ازدياد ملحوظ، ولاسيما في الفترة التي أعقبت نشر الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول الكريم ـ محمد ـ ﷺ[1].

وبينت الإحصائية أن عدد المعتنقين للدين الإسلامي بلغ في السنوات الثلاث الأخيرة، 478 حالة. وجاءت سنة 2008 في المقدمة مسجلة رقما قياسًا بواقع 172 حالة، منهم 123 من الذكور و49 حالة من الإناث، تليها سنة 2007 بواقع 133 حالة اعتناق للإسلام، 95 منهم ذكورا و38 حالة من الإناث [2].

واحتلت سنة 2006 المرتبة الثالثة بواقع 120 معتنق، منهم 78 حالة من الذكور و42 حالة من الإناث، في حين لم يتجاوز عدد المعتنقين للدين الإسلامي في الفترة الممتدة ما بين 2000 و2005، حوالي 200 حالة، أي بمعدل 40 حالة في كل سنة[3].

وسجلت الأشهر الأربعة الأولى من العام الجاري أرقاما مشجعة، 35 حالة دخول في الإسلام، بينهم 35 من الذكور و36 من الجنس اللطيف. وتأتي الجنسيات الأوروبية وفي مقدمتها الفرنسية على رأس قائمة المعتنقين للدين الإسلامي في الجزائر، وذلك بحكم الاعتبارات التاريخية وعامل اللغة وكذا الاحتكاك الاجتماعي عن طريق الجالية الجزائرية والمغاربية المتجذرة في المجتمع الفرنسي والأوروبي عموماً، إضافة إلى بعض الحالات من جنسيات إيطالية وإسبانية وألمانية وبلجيكية وحتى صينية، علما أن ما يزيد عن 20 ألف رعية صينية توجد في الجزائر في إطار عقود تشغيل لإنجاز مشاريع في عديد من القطاعات الاقتصادية[4].

وبالرغم من عمليات التبشير المكثفة التي تقودها أطراف كنسية كاثوليكية وبروتستانتية أوروبية وأمريكية في منطقة القبائل، ولاسيما بولايتي تيزي وزو وبجاية، إلا أن الكثير من المسيحيين فضلوا النزول بهاتين الولايتين لإشهار إسلامهم، فيما يبدو أنه انسياب في الاتجاه المعاكس، وفي هذا الصدد تكشف الإحصائية التي أعدتها وزارة الشؤون الدينية الجزائرية، أن ولاية بجاية شهدت 11 حالة اعتناق

---

(1) انظر : صحيفة الشروق أون لاين، 2008/8/16 .

(2) انظر السابق.

(3) انظر : السابق.

(4) انظر : السابق.

للإسلام في عام 2008، في حين عرفت الأشهر الأربعة الأولى من العام الحالي، أربع حالات دخول في الإسلام[1].

المكسب الثاني : استفاقة الشعوب الإسلامية

ومن مكاسب هذه الحملات أيضًا؛ كون هذه الإساءات قد نجحت في شحذ همم الجماهير نحو دينهم، وتحريك مشاعر الشعوب نحو نبيهم، فدمعت العيون، ورقت القلوب، وساد الغضب، وتحرك الناس، وزاد التدين، وكثر القنوت في الصلوات الخمس كما كان يفعل النبي ﷺ في النوازل.

تسببت هذه الإساءات في إحداث فيض متدفق من الرقة والحب نحو النبي ـ ﷺ.
تسببت هذه الإساءات في إحداث يقْظة في قلب المسلم، ما موقفك من نصرة نبيك ؟

نعم، لقد حركت هذه الإساءات جموعَ الجماهير الإسلامية نحو التظاهر في الميادين، وانبرى ـ على أثر هذه الحملات ـ كلُ مسلم يقدم ما يمكن أن يقدمه لنصرة نبيه ﷺ، فرجل الأعمال تبرع من أجل دعم حركة التعريف بالإسلام، والكاتب كتب كتاباً في صد الهجمة الشرسة، والشاعر جادت قريحته بقصيدة وديوان، والصحفي كتب تحقيقاً وعشرة، والباحث أعد بحثاً وورقة، ورأينا المؤسسات الإسلامية غيرت من استراتيجياتها حيث وضعت محورَ التعريف بالإسلام محورَ الساعة، وطُبعت مئاتُ الآلاف من المطبوعات التعريفية بالإسلام والتي كان من بينها نشر السيرة النبوية بعشر لغات، وكتاب "نبي الرحمة" لمحمد مسعد ياقوت الصادر عن مشروع نبي الرحمة، وكتاب "هدي النبي محمد "الصادر عن البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة، وكتاب "هذا رسول الله" الصادر عن منظمة النصرة العالمية، وغيرها من الكتابات التي نشرت على نطاق واسع.

وانتشرت قوائم مقاطعة المنتجات الدنماركية والنرويجية، فضلاً عن الصهيونية والأمريكية... .

محاضرات، وندوات، ومؤتمرات، هنا وهناك.

ومشاريع عديدة كثيرة خرجت لمعالجة هذه الأزمة، وكان من أبرز هذه الفعاليات المؤتمر العالمي السنوي لمنظمة النصرة العالمية، والذي تمخض عن عدة

(1) صحيفة الشروق أون لاين، 2008/8/16.

مشاريع عملاقة للتعريف بالإسلام بين الشعوب الأوربية ـ وكان من بين تلك المشاريع مشروع : سلسلة أفلام الضباب ينقشع، ومشروع اكتشف محمداً، ومشروع محمد الإنسان والرسول على سكند لايف.

بل أقل الأمثلة الحية الدالة على ذلك كثرة انتشار المواقع والمنتديات والمدونات والمجموعات البريدية وصفحات الفيس بوك[1] ـ التي تخصصت في التعريف بالإسلام، فمن موقع للنصرة، إلى منتدى في حب النبي، إلى مدونة لمقاومة التنصير، إلى مجموعة بريدية للحوار الإسلامي.

كل هذا؛ وغيره؛ يدلُ على هذا المكسب الهام؛ ذلكم الذي حرك قلوبَ الجماهير وحميَّتها نحو الإسلام، وكفى بذلك مكسبًا في ظل هذه الغثائية.

المكسب الثالث : اقتراب الفتح

وهو مكسب سُنني، يرتبط مباشرة بخالق الكون ـ سبحانه وتعالى ـ الذي قال :

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[2] .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[3] .

وَعْدٌ قرآنيٌ صريحٌ؛ لا ينتطح فيه عنزان، أنَّ يد الله تصرِّفُ الأمورَ؛ لتكون الدائرةُ على الذين أساءوا وبغوا ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾[4] ، ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾[5] .

يؤكد اللهُ ـ تعالى ـ أنه ناصرٌ دينه، ورسوله، والمسلمين الصادقين، في الدنيا والآخرة : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[6] .

---

(1) من هذه المواقع التي ظهرت فور حملات الإساءة الأخيرة : موقع نبي الرحمة، موقع رسول الله، موقع إلا رسول الله، موقع البرنامج العالمي، موقع منظمة النصرة، صفحة الحبيب على موقع إسلام أون لاين، صفحة النصرة على موقع طريق الإسلام.

(2) سورة البقرة، الآية: 137.

(3) سورة الحجر، الآية: 95 .

(4) سورة الأنفال، الآية: 18.

(5) سورة غافر، الآية: 4.

(6) سورة غافر، الآية:51.

﴿ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

هذا وعدٌ حقٌ صدقٌ مكتوب :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[2] .

هذه الأموال الصهيونية التي أُنفقت على حملات الإساءة ستصير هباءً منثوراً، ولن تضر الإسلام شيئاً ـ بإذن الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[3] .

لذا نحن نقول ـ وكلنا ثقة ـ أن الله ناصرُ دينه وكتابه ونبيه، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[4] .

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

".. إنَّ الله منتقمٌ لرسوله ممن طعن عليه وسَبَّه، ومُظْهِرٌ لِدِينِهِ ولِكَذِبِ الكاذب إذا لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد، ونظير هذا ما حَدَّثَنَاه أعدادٌ من المسلمين العُدُول، أهل الفقه والخبرة، عمَّا جربوه مراتٍ متعددةٍ في حَصْرِ الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية، لما حصر المسلمون فيها بني الأصفر في زماننا... ".[5].

"قالوا : كنا نحن نَحْصُرُ الحِصْنَ أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنعٌ علينا حتى نكاد نيأس منه، حتى إذا تعرض أهلُهُ لِسَبِّ رسولِ الله والوقيعةِ في عرضِه تَعَجَّلنا فتحه وتيَسَّر، ولم يكد يتأخر إلا يوماً أو يومين أو نحو ذلك، ثم يفتح المكان عنوة، ويكون فيهم ملحمة عظيمة، قالوا : حتى إن كنا لَنَتَبَاشَرُ بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه، مع امتلاء القلوب غيظاً عليهم بما قالوا فيه"[6].

---

(1) سورة الأنفال، الآية : 19.

(2) سورة المجادلة، الآية : 21.

(3) سورة الأنفال، الآية : 36.

(4) سورة التوبة، الآية : 33.

(5) ابن تيمية : الصارم المسلول، 122.

(6) الصارم المسلول لابن تيمية .221

"وهكذا حدثني بعض أصحابنا الثقات أن المسلمين من أهل الغرب حالهم مع النصارى كذلك، ومن سنة الله أن يعذب أعداءه تارة بعذاب من عنده وتارة بأيدي عباده المؤمنين"[1].

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[2].

خاتمة

كانت هذه جولة حول وسائل الإعلام الغربية وأثرها في بث العداء للإسلام، وقد تناولنا في ذلك طبيعة الجهات المحركة لوسائل الإعلام الغربية وخلفياتها العقدية، وبينَّا دور الصهيونية العالمية في حملات الإساءة للإسلام ونشر العداء للمسلمين خاصة في أوروبا، ثم عرضنا أهم المكاسب التي كانت في صالح المسلمين جراء هذه الحملات العدائية.

أما عن نتائج هذه الورقة، وتوصياتها، وأفكارها، فهاكم على النحو التالي :

أولاً : النتائج

1. استُخدمت وسائل الإعلام على مر العصور في محاربة رسالات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، وما يحدث ضد الإسلام ليس بدعاً من سنة الله في تمحيص الدعوات.

2. استخدمت قريش في حربها مع النبي ﷺ نظرية " اكذب، اكذب حتى يصدقك الناسُ" وهو أسلوب الترديد والتكرار لكذبة واحدة يتكلم بها الجميع، وفي ذلك قال الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ لصناديد قريش : "فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْياً وَاحِداً، ولا تَخْتَلِفُوا، فَيُكَذِّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا". وهذه الطريقة المغرضة يستخدمها الإعلام الغربي في حملاته ضد الإسلام.

---

(1) الصارم المسلول لابن تيمية 122.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 18.

3. استخدم الإعلام الغربي كل السبل المتاحة، وشتى الطرق المتوفرة في صناعة ما يسمى "الإسلاموفوبيا"، فاستخدموا الرسوم، والكتيبات، والأفلام، والمواقع الإلكترونية، والبرامج الفضائية، وتركيز الضوء على التصريحات البابابوية المعادية للإسلام، وتلميع الشخصيات السياسية المناهضة للمسلمين ... إلخ.

4. الصهيونية العالمية هي الرأس المدبر لمعظم هذه الحملات التشويهية.

5. وراء هذه الحملات التشويهية؛ أربعةُ أسباب رئيسية :

أ) العداء التاريخي بين المسلمين واليهود.

ب) الخوف من أسلمة أوروبا.

ج) العمل على تجفيف المنابع الإسلامية.

د) مساندة الأنشطة التنصيرية.

6. هذه الحملات الإعلامية خلفت وراءها عدة مكاسب للإسلام ـ وأتت الرياح على الغرب بما لا تشتهي سفنُهم ـ ومن أهم هذه المكاسب : زيادة عدد الداخلين في الإسلام، واستفاقة الشعوب الإسلامية...

هذا ونسأل الله أن يمن على الأمة الإسلامية بالفتح المبين ودخولِ الغرب في دين رب العالمين.

ثانياً : توصيات عملية

1. تكثيف الأنشطة الدعوية في المدن الأوربية، والعمل على إنشاء المزيد من المراكز والمؤسسات الإسلامية التي تهدف إلى تعريف الغرب بالإسلام.

2. يبنغي مواجهة الإعلام بالإعلام، فلا يفل الحديد إلا الحديد، فالأمة بحاجة إلى قناة فضائية إسلامية غربية تنافس كبرى القنوات الغربية، وبحاجة أيضًا إلى صحف ومجلات كبرى بلغة القوم.

3. تكثيف النشاط الإلكتروني عبر شبكة المعلومات الدولية؛ بدعم المواقع الإسلامية المتخصصة في تعريف الغرب بالإسلام، إضافة إلى إنشاء المزيد من المواقع المتخصصة في هذا الباب. فالإنترنت تكاد تكون حلقة الوصل الوحيدة للتواصل المباشر بين الداعية المسلم والرجل الغربي البسيط.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**، كتاب الله تعالى، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (سورة فصلت، الآية: 42) .

- ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس) : **الصارم المسلول على شاتم الرسول**، تحقيق : محمد عبد الله عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودري، بيروت: دار ابن حزم.

- ابن خزيمة (محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري) : **صحيح ابن خزيمة**، د. محمد مصطفى الأعظمي، بيروت : المكتب الإسلامي، 1390 – 1970م.

- ابن كثير (إسماعيل بن عمر)، (المتوفى: 774هـ): تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الطبعة : الثانية 1420هـ - 1999.

- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام البصري) (المتوفى : 213 هـ): **السيرة النبوية**، تحقيق : سيد بن رجب، القاهرة : دار ابن رجب، الطبعة الأولى، 1423 هـ - 2003م.

- أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني : **المسند**، القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت.

- أحمد بن محمد العيسى : **الجذور التاريخية لسياسة تجفيف المنابع**، مجلة البيان شوال 1414هـ، مارس1994م، السنة : 8.

- الألباني (محمد ناصر الدين): **السلسلة الصحيحة**، الرياض: مكتبة المعارف، د.ت.

- البخاري (محمد بن إسماعيل): **صحيح البخاري**، بيروت : دار ابن كثير، الطبعة الثالثة ، 1407هـ 1987م.

- الحاكم (محمد بن عبدالله أبو عبدالله النيسابوري) : **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت : دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1990م.

- الطبري (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر) (المتوفى: 310هـ): **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى، 1420 هـ - 2000 م.

- سيد قطب : **في ظلال القرآن**، القاهرة : درا الشروق، ط 16. 2000م.

- عبد الله التل : **جذور البلاء**، بيروت : المكتب الإسلامي، 1988م.

تصويب بعض المفاهيم الخاطئة عن الإسلام في الغرب

الدكتور عبد الله محمد أحمد حريري(*)

الإسلاموفوبيا مصطلح يقصد به حالة من الهلع الشديد وغير المنطقي عن الإسلام والمسلمين. وقدمت (منظمة رانيمد ترست Runnymed trust) تعريفاً للإسلاموفوبيا على أنه النظرة إلى الإسلام بصفته كتلة أحادية لا تقبل التغيير، مقطوعة عن الثقافات الأخرى، تقوم على أفكار بدائية همجية تفضي إلى العنف والعدوان. وهي تصور إقصائي تمييزي يتعرض للمسلمين والإسلام بالذم والتشويه.

والإسلاموفوبيا هي تعبير عن مشاعر العداء تجاه الإسلام وما يصاحبه من تعديات على المسلمين وحرياتهم ومقدساتهم، وهو تعبير مرادف لمصطلح التحامل على الإسلام والذي يقصد به وجود نية مبيتة لوصف الإسلام بما ليس فيه كمرادفته بالارهاب وعدم الموضوعية. والإسلاموفوبيا بهذا المفهوم قديمة قدم الإسلام ذاته ويندرج تحتها موقف قريش من الدعوة الإسلامية.

ظهر هذا المصطلح لأول مرة في سنة 1921م في كتابات إتيان ديني التي كانت تصف بعض الممارسات العنصرية ضد المسلمين. وتبلورت أبعاده السياسية في بداية الثمانينات إثر بروز مايسمى بالصحوة الإسلامية وصعود تيار الإسلام السياسي.

ارتبط مفهوم الإسلاموفوبيا في كتابات الغربيين بآراء سلبية عن الإسلام والمسلمين. ورؤى تنطوي على أفكار اختزالية للإسلام كدين وثقافة حيث ينظر إلى الإسلام على أنه مجموعة من الأفكار والعقائد التي تحض على العنف ورفض الآخر والافتقار إلى المنطق والعقلانية. وأن المسلمين عبارة عن كتلة واحدة تؤمن بهذه

(*) قسم التربية الإسلامية، كلية التربية، جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة.

(1) مسند أحمد 228/3.

المعتقدات السلبية وتعمل في إطار حركات سياسية عالمية لفرض هذه الرؤية بالقوة على الآخرين وهم بذلك يشكلون تهديداً للحضارة الغربية.

وانطلاقاً من هذه الرؤى والمفاهيم يعتقد المروجون لمفهوم الإسلاموفوبيا أن العداء للإسلام والتحيز ضد المسلمين أمرٌ طبيعي ورد فعل تلقائي إزاء طبيعة المسلمين العنيفة، ولذلك فهم لا يرون غضاضة في مساندة التمييز ضد المسلمين وحشد قوى الغرب ضد الإسلام.

وكان لهذا النهج تداعيات واضحة في الأوساط الفكرية والدينية في العالمين الإسلامي والغربي وكان من أهم هذا الحراك :

أولاً : مؤتمر اتحاد المنظمات الأهلية في العالم الإسلامي الذي عقد في اسطانبول. حيث بحث علماء من (13) دولة إضافة إلى مفكرين من جامعات إيطالية وسويدية بهدف التوصل إلى صيغة للحوار المشترك بين الشرق والغرب.

ثانياً : مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية الذي عقد بالإسكندرية برئاسة الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي وكان هدفه بلورة منهج لقيام علاقات سوية بين الإسلام والغرب، ومواجهة خطر التمييز، ومواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا، التي زادت حدتها في الآونة الأخيرة والتعرف على الظاهرة وأسبابها ثم اقتراح سبل معالجتها.

وتتلخص أسباب وتداعيات ظاهرة الإسلاموفوبيا فيما يلي :

1. نظرة الغرب الثقافية والفكرية الخاطئة للإسلام ورمي أتباعه بالتطرف والجمود والعنف.
2. ارتهان ظاهرة الإسلاموفوبيا لإرث الكراهية ضد الإسلام منذ العصور الوسطى، وهناك ثمة جهات عليا في الغرب تعمل على الترويج لهذه الكراهية والعداء للإسلام.
3. تنامي موجة العداء للإسلام في شكل نمطي محمل بالعديد من القناعات المغلوطة ومنطلق من مفاهيم ومسلمات موروثة.

4. استغلال العقائديين الجدد لظاهرة الاسلاموفوبيا الذين يرون بضرورة تخلي المسلم عن دينه كشرط للاطمئنان له ككائن إنساني قال تعالى : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾[1].

5. الربط غير المنطقي بين العنف والإسلام. حيث تسعى كثير من المؤسسات والمنظمات للتوظيف السياسي لظاهرة الإسلاموفوبيا كسلعة رائجة تسخر لمعاداة الإسلام في المحافل الدولية.

6. تنامي الحركات الإسلامية والالتزام بها وزيادة عدد الذين يعتنقون الإسلام وزيادة عدد المهاجرين المسلمين إلى أوروبا حيث بلغ عدد المسلمين في أوروبا الآن أكثر من (26) مليون مسلم. وفي هذا السياق تظهر حملات العداء للإسلام المتمثلة في الحملة على ارتداء الحجاب في المدارس والأماكن العامة.

7. بعض الأحداث الإرهابية التي دعمت هاجس الخوف على الهوية الغربية حيث أصبح المسلم عدواً إرهابياً. وتعرضت العلاقات الإسلامية الغربية لهزة قوية.

8. ظاهرة الابتزاز "بالإسلاموفوبيا" والذي يصور الإسلام على أنه دين إرهاب ومعتقدات جامدة لا تقبل النقاش وحرية الرأي ولا تنتشر إلا بحد السيف.

9. دور "اللوبي الصهيوني واليمين المتطرف" الذي يسعى دوما لتشويه صورة الإسلام والاستهزاء به.

10. الإشكالات الثقافية الدولية التي أثرت على العلاقات بين العالم الإسلامي والدول الغربية مثل مشكلة الحجاب في فرنسا، والرسومات المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في الدانماركـ وما فيها من انتهاك لمشاعر المسلمين.

إن مما لاشك أن ظاهرة الإسلاموفوبيا قد أثرت تأثيراً عميقاً على العلاقات بين المسلمين والغرب، وهذا الأمر يتطلب تحديد قواعد للتفكير والتفاهم لمعالجة المشكلة بين الإسلام والغرب وتصويب بعض المفاهيم الخاطئة التي أدت لهذه الظاهرة. وهذه المعالجات تتمثل فيما يلي :

1. بث مفاهيم وقيم التفاهم والتسامح التي ينبني عليها الإسلام. قال تعالى : ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين** ﴾[2].

---

(1) سورة البقرة، آية : 120.

(2) سورة الممتحنة، آية : 8.

2. تحجيم وفتح نشاط الغلاة في كل جانب، ممن يجتهدون في إفساد العلاقة بين الناس.

3. التحرر من الوهم والخيال الزائد عن عداء الغرب وعدم الجنوح لنظرية المؤامرة وعدم وضع تبعات ومسؤولية إخفاقاتنا الفكرية والسياسية على الآخرين.

4. تبني البرامج العلمية المنظمة لتوعية المواطن الغربي عن طريق عقد المزيد من المؤتمرات والورش والمناظرات مهتدين في ذلك بهدي النبيﷺ.

5. التعاون مع الأقليات المسلمة في الدول الغربية لتأهيل وتدريب أكبر قدر من السفراء المدنيين القادرين على تقديم صورة الإسلام الصحيحة للمواطن الغربي.

6. محاولة فهم المجتمعات الغربية بعمق وفهم سبل توعيتها واستغلال وسائل الاتصال الحديثة لنشر صورة الإسلام الصحيح المبرإ من كل نقص وعيب ..

حدُّ وتعريف مصطلح ظاهرة الإسلاموفوبيا :

إن مصطلح الإسلاموفوبيا يتكون من كلمتين الأولى (الإسلام) ويُعرَّف بالانقياد التام لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض. "فهو الدين الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ، والشريعة التي ختم الله تعالى بها الرسالات السماوية. والكلمة الثانية (فوبيا) أصلها إغريقي وكانت تستخدم عادة في ميداني التحليل النفسي وطب الأمراض العقلية لتوصيف حالة من الهلع المبالغ فيه وغير المبرر في الغالب، تجاه ظاهرة ما[1].

ولنأخذ تعريف الإسلاموفوبيا الذي قدمته منظمة (رانيمد ترست Runnymede tsurt)، حيث تقول (النظرة إلى الإسلام بصفته كتلة أحادية لا تقبل التغيير، مقطوعة عن الثقافات الأخرى، تقوم على أفكار همجية لا عقلانية، بدائية وذكورية، تفضي إلى العنف والعدوان والإرهاب. فإذا كانت النزعة العدائية للسامية مرفوضة، يعاقب عليها كجريمة في الغرب، فذلك أنها لا تستهدف اليهودية كنسق عقدي وقيمي في ذاته، بل معتنقي هذه الديانة كأمة وثقافة. والأمر ذاته يصدق على الإسلاموفوبيا في تصورها الإقصائي التمييزي الذي يتعرض للمسلمين بالذم والتشويه فقط لكونهم ينتسبون لهذا

(1) عبد الوهاب حلمي: الإسلاموفوبيا وسياقاتها المعرفية، ص 22.

الدين)[1]. وتمتلئ الصحافة العربية هذه الأيام بالعشرات من هذه المصطلحات المترجمة، مثل: "فوبيا العرب"، "فوبيا الإسلام"، "فوبيا المواطنة"، "فوبيا الحجاب"، "فوبيا الإرهاب"، "فوبيا البطالة"، "فوبيا الجمرة الخبيثة"، "فوبيا التقانة" وحتى "فوبيا المرأة".

تحليل تعريف مصطلح الإسلاموفوبيا :

تعريفٌ مفهومه ملتبس سواء على مستوى المعنى أو مسيرة تطوره، فمن ناحية يصف بعضهم الإسلاموفوبيا بأنها عبارة عن تفاقم مشاعر العداء تجاه الإسلام وما يصاحبه من مظاهر تعد واضحة على المسلمين وحرياتهم ومقدساتهم، بيد أن هذا التوصيف يقع في تماس بالغ مع مفهوم (التحامل على الإسلام Islam Prejudice) والذي يُقصد به وجود نية مبيتة لدى الآخر لوصف الإسلام بما ليس فيه، كمرادفته بالإرهاب، وعدم إعمال الموضوعية أو الحياد في مناقشة مسائله والتعرض لقضاياه.

الإسلاموفوبيا بهذا المعنى ليست ظاهرة حديثة أو معاصرة وإنما هي قديمة قدم الإسلام ذاته ويندرج فيها موقف قريش من الدعوة الإسلامية برمته ﴿ **وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين، وهم ينهون عنه وينئون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾[2] " قال الطبري (ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ والقبول منه وينأون عنه يتباعدون عنه)[3] ويكفي للتدليل على هذا سرد جملة الاتهامات التي وجهت لشخص الرسول ﷺ من قِبَلهم أو للدعوة باعتبارها خروجا عن شرعية القبيلة وإرث الآباء. ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ولايهتدون** ﴾[4].

قال الطبري (حسبنا ما وجدنا عليه من قبلنا آباءنا يعملون به، ويقولون نحن لهم تبع وهم لنا أئمة وقادة وقد اكتفينا بما أخذنا عنهم ورضينا بما كانوا عليه من تحريم وتحليل)[5].

---

(1) جريدة الشرق الأوسط ليوم 1428/2/27 هـ.

(2) (سورة الأنعام) الآية : 25.

(3) الطبري 171/7".

(4) (سورة المائدة) الآية : 104.

(5) الطبري" 97/7.

■ النشأة التاريخية لمفهوم الإسلاموفوبيا

استعمال مصطلح "الإسلاموفوبيا" يعود تحديدا إلى سنة 1921م، حين ظهرت كتابات إتيان ديني، والتي كانت تصف بعض الممارسات العنصرية آنذاك ضد المسلمين، وبنظرة لواجهات كاتدرائيات العصور الوسطى، تلك التي كانت تصور رسوماتها المسلمين كشياطين؛ كما أن المصطلح ورد ذكره أيضا في كتاب للرسام الاستشراقي الفرنسي إتيان ديني بعنوان : (الشرق كما ينظر إليه من الغرب) غير أن الأبعاد السياسية لمفهوم (الإسلاموفوبيا) بدأت تتبلور بداية الثمانينيات من القرن الماضي إثر بروز ظاهرة ما يسمى (الصحوة الإسلامية)، أو (صعود الإسلام السياسي) في العالم العربي والإسلامي، وتزايد الاهتمام الغربي بدراسة ظاهرة تنامي الصعود السياسي للتيارات الإسلامية وتأثيرات ذلك على الغرب. وارتبط مفهوم (الإسلاموفوبيا) في الكتابات الغربية بمجموعة من الآراء المسبقة والسلبية عن الإسلام والمسلمين. وتنطوي على رؤى اختزالية للإسلام كدين وثقافة في النظرة إلى الإسلام في التفكير الغربي، حيث يتم النظر إلى الإسلام باعتباره مجموعة محدودة وجامدة من الأفكار والعقائد التي تحض على العنف والسلبية ورفض الآخر والافتقار إلى العقلانية والمنطق، وعدم احترام حقوق الإنسان. وهي مفاهيم مستمدة من ميراث العداء الإستشراقي للإسلام، التي تعتبر الإسلام دينا يحض على العنف ، وأن المسلمين مجموعة واحدة تؤمن بهذه المعتقدات السلبية وتعمل في إطار حركات سياسية عالمية لفرض هذه الرؤى بالقوة على الآخرين، وهم بذلك يشكلون تهديدا للحضارة الغربية. وانطلاقا من الرؤى والمفاهيم السابقة، يعتقد المروجون للاسلاموفوبيا أن العداء للإسلام والمسلمين والتحيز ضدهم يغدو أمرا طبيعيا، ورد فعل تلقائي إزاء طبيعة المسلمين العنيفة، ولذلك فهم لا يرون أي غضاضة في مساندة التمييز ضد المسلمين، وحشد قوى الغرب ضد الإسلام والمعتقدين به .

■ عناية الأوساط الفكرية والدينية العالمية بتداعيات ظاهرة الإسلاموفوبيا :

أولاً : مؤتمر اتحاد المنظمات الأهلية في العالم الإسلامي :

أثيرت في الآونة الأخيرة ظاهرة الإسلاموفوبيا، واحتدم حولها جدل واسع النطاق في مختلف الأوساط الفكرية والدينية في البلاد الإسلامية والغربية على حد

سواء،حيث تعددت الآراء وتباينت وجهات النظر حول الظاهرة وأسبابها وتداعياتها وكيفية علاجها. وأقيم في سبيل ذلك العديد من الندوات والمؤتمرات والتي كان آخرها مؤتمر دولي عقد مؤخرا بمدينة إستانبول بتنظيم من اتحاد المنظمات الأهلية في العالم الإسلامي. حيث بحث علماء مسلمون من (13دولة)، إضافة لمفكرين وباحثين من جامعات إيطالية وسويدية ظاهرة (الإسلاموفوبيا)، بهدف التوصل إلى صيغة للحوار المشترك بين الإسلام والغرب [1].

ثانياً : مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية :

شارك فيه نخبة من الباحثين والعلماء والمفكرين من العالم الإسلامي، وممثلين من جامعات إيطالية وسويدية. المؤتمر نظمته رابطة الجامعات الإسلامية، وعقد بالإسكندرية بمصر، برئاسة أمين عام رابطة العالم الإسلامي، والهدف من عقد هذا المؤتمر هو بلورة منهج لقيام علاقات سوية بين الإسلام والغرب ومواجهة خطر التعصب والتمييز ضد المسلمين، وكذلك مواجهة ما يعرف بظاهرة (الإسلاموفوبيا) أو الخوف من الإسلام التي زادت حدتها في الآونة الأخيرة داخل المجتمعات الغربية والتعرف على الظاهرة وأسبابها ثم اقتراح حلول لها، تضمنت الجلسة الافتتاحية كلمة للدكتور يان هنجسون مدير المعهد السويدي، الذي أوضح أن الحوار بين الإسلام والغرب أفضل وسيلة لتحقيق التفاهم والتعايش، وقال : إن هدفنا في المعهد السويدي هو العمل على دعم هذا الحوار والتواصل، خاصة بعد انتشار موجات الكراهية والتعصب الذي يسود العلاقة بين الطرفين، مشيراً إلى أن لهذه الحالة (الكراهية والتعصب) جذورًا قديمة تقوم على أفكار مسبقة حول المسلمين، وتتنامى هذه الظاهرة بسبب التباسات تخلط بين الإرهاب والإسلام[2].

■ أسباب وتداعيات ظاهرة الإسلاموفوبيا :

خلال استعراض أهم الأسباب التي أدت إلى نشأة هذه الظاهرة وتناميها، يمكن حصرها في الآتي :

1. نظرة الغرب الثقافية والفكرية الخاطئة للإسلام عامة المتعززة في أوروبا، فالإسلام السياسي بالمفهوم الغربي يمكن تعريفه كمجموعة من الأفكار

(1) "جريدة الشرق الأوسط"، 1428/2/27هـ.

(2) "جريدة الشرق الأوسط"، 1422 هـ.

والأهداف السياسية النابعة من الشريعة الإسلامية والتي يستخدمها مجموعة يطلق عليهم الإعلام الغربي (المسلمون المتطرفون) الذين يؤمنون أن الإسلام ليس عبارة عن ديانة فقط وإنما عبارة عن نظام سياسي واجتماعي و قانوني واقتصادي يصلح لبناء مؤسسات دولة. يتهم خصوم الحركات الإسلامية هذه الحركات بأنها تحاول بطريقة أو بأخرى إعادة هيكلة الدول وتطبيق الشريعة الإسلامية. وتلقى فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية بحذافيرها في السياسة عدم قبول من التيارات التي تسمي نفسها الليبرالية أو ما يطلق عليهم في بعض الأحيان الحركات العلمانية. ورغم الانتقادات والحملات الأمنية والإعلامية ضدها تمكنت حركات الإسلام السياسي من التحول إلى قوة مؤثرة في الشارع الإسلامي.

2. ارتهان ظاهرة الإسلاموفوبيا لإرث الكراهية ضد الإسلام منذ العصور الوسطى، وثمة جهات عليا تعمل على إطلاق العنان للخوف من الإسلام. ويمكن القول بإيجاز إن كثيرين كانوا ضحية لما يطلق عليه ظاهرة "الإسلاموفوبيا" أو ظاهرة التخويف من الإسلام والمسلمين والترويج للعداء والكراهية ضدهما في المجتمعات الأوروبية والغربية. وشكل مقتل الصيدلانية المصرية مروة الشربيني في ألمانيا في مطلع يونيو 2009م صدمة هائلة للضمير الإنساني في العالم العربي والإسلامي وفي أوروبا والغرب، بعد أن طعنها ألماني من أصل روسي، ينتمي إلى اليمين المتطرف الذي يعادي وجود المهاجرين المسلمين في أوروبا. وربما نصل اليوم الذي يتحاشى فيه المسلم قراءة ﴿ **قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾[1] وسط الغربيين مخافة أن يتهم بالفتنة الطائفية. لأن بينهم من يعتقد التثليث ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثةٍ ومامن إله إلا إله واحد**﴾[2] ومنهم لا يعتقد ولا برب واحد ﴿ **إذا تتلى عليه ءاياتنا قال أساطير الأولين** ﴾[3] أساطير الأولين وهو جمع أسطورة أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس وهذا هو الكذب البحت كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض**

(1) (سورة الإخلاص) الآية : 4.

(2) (سورة المائدة) الآية :73.

(3) (سورة القلم) الآية : 15.

إنه كان غفورا رحيما﴾. فحادث الدكتورة الشربيني ليس الأول من نوعه بل آلاف العرب والمسلمين تعرضوا إلى حوادث مشابهة. كما أن مدن دريسدن وروستوك اشتهرت بأنها تضم النازيين الجدد وشهدت معظم الجرائم التي حدثت للأتراك في ألمانيا. وبالتالي، يعد هذا الحادث عاكسا وليس كاشفا لمأزق الوجود العربي والإسلامي في المحيط الغربي، حيث تأتي هذه الواقعة ضمن سلسلة من أعمال العنف التي يتعرض لها المسلمون في أوروبا فيما عرف، بالإسلاموفوبيا سواء في بريطانيا، اسكتلندا أو الدنمارك أو بلجيكا وغيرها. وخلال السنوات الماضية أوضحت الإحصاءات الرسمية في فرنسا وقوع 480 جريمة عنصرية وكراهية موجهة للجاليات العربية والإسلامية، التي تنتمي إلى دول شمال إفريقيا، وهي تمثل ″68%″ من نسبة الجرائم ضد الأجانب بين عامي2006م و2008م كما شهدت بريطانيا 329 واقعة تمييز ضد المسلمين خلال تلك الفترة. وفي السويد سجلت خلال عامي 2006م و2007م بلاغات عن 458 جريمة كراهية ضد المسلمين، وفي هولندا شهد عاما 2006م و2007 م ما يقرب من″ 144 حادث عنف ضد المسلمين. وتشير بيانات وزارة الداخلية الألمانية لعام 2008م إلي استمرار ارتفاع عدد الجرائم التي ارتكبها اليمين المتطرف في ألمانيا والتي بلغت 20422 مسجلة بذلك زيادة بنسبة″ 16%″ عن عام2007م وأن هيئات مكافحة الجريمة رصدت خلال العام 2006م نحو″ 12238 جريمة ذات دوافع دينية متطرفة من بينها″ 26 جريمة عنف، وكان عام2005م قد شهد ارتكاب 10271 جريمة ذات خلفية دينية متطرفة من بينها 588 جريمة عنف. وخلال تنظيم فعاليات كأس العالم لكرة القدم 2006م طالب سياسيون ألمان بإطلاق صفة مناطق خطيرة على الأجانب، على أنحاء معينة في ألمانيا بسبب احتمال تعرض الأجانب الزائرين لها لجرائم بسبب ارتفاع مستوى معاداة الأجانب. والحق يقال و لو كان مراً ، فإن ثمة ازدواجا في المعايير العربية والإسلامية تجاه العنف أو الإرهاب الذي يحدث للعرب والمسلمين في الخارج، وللأجانب في الدول العربية والإسلامية. وبرغم أنه لا يوجد استطلاع موثق يوضح موقف المجتمعات العربية من الممارسات الإرهابية لكن من المؤكد أن هناك أمثلة عديدة على ذلك مثل قتل الرهائن الغربيين في العراق بواسطة جماعات الخطف التي مارست أبشع صور الإرهاب في العراق والذبح بالسيف وبث صور الإطاحة بالرقاب لتراها دول العالم قاطبة، أو كما يقال مزحا (الذبح على الطريقة الإسلامية) علاوة على

استهداف الأجانب في عمليات إرهابية سواء التي شهدتها مصر أو السعودية أو اليمن أو الأردن .

3. تنامي موجة العداء للإسلام، في شكل نمطي مُحمَّل بالعديد من القناعات المغلوطة ومُنطلِق من مفاهيم ومسلمات موروثة، ﴿ **ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا: بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** ﴾[1] قال السيوطي (أخذنا ميثاقهم كما أخذنا على بني إسرائيل اليهود فنسوا حظا مما ذكروا به في الإنجيل من الإيمان وغيره ونقضوا الميثاق فأغرينا أوقعنا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة بتفرقهم واختلاف أهوائهم فكل فرقة تكفر الأخرى)[2] فكل جميل في الإسلام ينظر إليه الغربيون باشمئزاز ووحشية وسخط وحقد دفين، وما أصدق قول الإمام الشافعي رضي الله عنه.

عين الرضا عن كل عيب كليلة * * * ولكن عين السخط تبدي المساويا

ولست بهياب لمن لا يهابني * * * ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا

فإن تدن مني تدن منك مودتي * * * وإن تنأ عني تلقني عنك نائياً

فالتخوف من الإسلام في الغرب يبدأ بتوجيه الإهانات الشفهية ويصل حد الاعتداء الجسدي والاعتداء على أماكن العبادة والممتلكات والقبور، لذا هناك حاجة ماسة للمساواة بين جميع الأوروبيين بغض النظر عن خلفياتهم الثقافية والدينية، فالغرب الرسمي لازال يعتبر العدو التقليدي هو الإسلام ويعده عائقاً رئيساً أمام مشروع النهضة في العالم الإسلامي، وبطبيعة الحال فهو يضيق ذرعا من انتشار الإسلام في بلدانه التي بدأ الغرب الشعبي فيها يعرف ويلمس حقيقة عظمة دين الإسلام، ونبله وإنسانيته وجماله. فالمستقبل للإسلام الدين الحق. والغرب اليوم يعيش إشكالية عقدة العظمة، التي تعمي الأبصار والعقول عن إدراك الآخر، وتجعل أصحابها أسرى لأحادية التفكير والحكم والمنطق وتلك هي أزمة الغرب الملازمة للعقلية التي تقود سياساته في العالم، ولأن الإسلام دين المستضعفين في الأرض في مواجهة الطواغيت، ودين الحجة في مواجهة القوة ليس بمستغرب أن يتهم بما ليس فيه من قبل

---

(1) (سورة المائدة) الآية : 14.

(2) "السيوطي : الدر المنشور 129/1".

أعدائه، خاصة إذا ما عرفنا حجم وعدد الداخلين في الإسلام من خارجه ومن نفس الدول الغربية سنويا مع فارق الإمكانيات المادية والتقنية المستخدمة في الدعاية والتبشير الموجودة عند الغرب مقارنة بما عند المسلمين.

4. استغلال الاستئصاليين والعقائديين الجدد لظاهرة الإسلاموفوبيا، فبحسب هؤلاء يتوجب على المسلم بداية التخلي عن دينه واعتبار ذلك شرطا للاطمئنان له ككائن إنساني. يقول القرطبي (المعنى ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا بل لو أتيتهم بكل ما يسألون لم يرضوا عنك وإنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام وأتباعهم)[1] ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، فل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولانصير**﴾[2] .

5. الترابط الجدلي بين العنف والإسلام، وثمة عداء مطلق بين الإسلام وبين الحداثة والعلمانية بشكل عام. ومعظم منظمات حقوق الإنسان ومناهضة العنصرية تلاحظ أن التوظيف السياسي للإسلاموفوبيا سلعة رائجة ومربحة في سوق السياسة.

6. صعود وقيام العديد من حركات الإسلام السياسي والتي على الرغم من تباينها الإيديولوجي واختلاف دوافع قيامها، فضلا عن غاياتها، فإنها شملت جميعا، بنظر الغرب، في إطار واحد وهو الخوف من الإسلام.

7. زيادة أعداد المهاجرين لأوروبا، ويكفي للتدليل على ذلك الرجوع إلى الإحصائيات المتعلقة بأعداد المهاجرين لأوروبا من بلاد إسلامية، حيث بلغ عدد المهاجرين من شمال إفريقيا إلى فرنسا ″ 2,4 مليون″ في العام 1975م، مقارنة بأقل من″ 100 ألف″ شخص في العام 1946م، كما قفز عدد المهاجرين الأتراك لأوروبا من″ 715 ألفا″ العام 1974م إلى″ 3,5 ملايين″ في 2005م، كما بلغ عدد المسلمين في ألمانيا″ 4 ملايين″ من أصل″ 82,21 مليون″ ألماني وفي بريطانيا تجاوز عدد المسلمين فيها ″مليونا و700 ألف مسلم″ وفي إيطاليا تجاوز عدد المسلمين ″المليون″ وفي هولندا تجاوز عددهم″ 900 ألف مسلم″ وفي اليونان ″700 ألف مسلم″ وفي بلجيكا″ 600 ألف مسلم″ وفي السويد

(1) تفسير القرطبي 93/2.
(2) سورة البقرة. الآية: 120.

"نصف مليون" وفي النمسا قرابة "نصف مليون" وفي سويسرا" 400 ألف مسلم" وفي إسبانيا" 400 ألف مسلم" وفي الدنمارك قرابة" 200 ألف مسلم" وفي فنلندا" 60 ألفا" بالإضافة لوجود مئات الآلاف من المسلمين في دول أوروبية أخرى ويصل العدد الإجمالي للمسلمين في أوروبا إلى" 26 مليون مسلم".

وفي سياق ذلك تأتي الحملات التي تستهدف ارتداء "الحجاب" حيث تم اعتباره في فرنسا وهولندا يشكل تهديدا للطابع العلماني للمجتمع. واتخذت السلطات إجراءات لمنع ارتداء الحجاب في المدارس وأماكن العمل، على الرغم من مخالفة ذلك لمفاهيم الحرية الفردية التي تقدسها المجتمعات العلمانية الغربية. وبعد أن منعت فرنسا ارتداء الحجاب في المدارس باعتباره رمزا دينيا، أقر البرلمان الهولندي قانونا يحظر على النساء ارتداء النقاب داخل المدارس والإدارات الحكومية مع فرض غرامة مقدارها "3350 يورو" أو السجن " 12 يوما" على مرتديات النقاب في تلك الأماكن، وقد صادق عليه مجلس الوزراء الهولندي في اجتماعه في 2008/2/1م تمهيدا للبدء في تطبيقه. وقد انتقدت الكثير من منظمات حقوق الإنسان ممارسات التمييز ضد المسلمين المقيمين في المجتمعات الأوروبية بسبب ظاهرة "الإسلاموفوبيا".

8. بعض الأحداث الإرهابية التي قام بها بعض المحسوبين على الإسلام، منحت هاجس الخوف على الهوية الأوروبية بُعدا واسعاً، فأصبح المسلم عدوا إرهابيا بعدما كان مجرد متلصص يدخل الحُرمة الأوروبية دون طريقة شرعية ويُخشى من تأثير نمط حياته على موروثات الحداثة وتركة العلمانية. ومنذ عام 2001م اكتسبت ظاهرة "الإسلاموفوبيا" في الغرب أبعادا وتفاعلات بالغة الخطورة، وباتت تشكل تهديدا أساسيا لمستقبل العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب الأوروبي والأمريكي، وبات من الضروري البحث عن أسباب هذه الظاهرة، ومحاولة التصدي لتداعياتها ومعالجة المشكلات الناجمة عنها بحثا عن مستقبل أكثر أمنا وعلاقات أكثر سلاما في العالم كله و(في ظل ذلك رأت بعض قوى اليمين الغربية المتطرفة فرصة لترويج نظرية طرحتها منذ سقوط الاتحاد السوفياتي، تقول إن الغرب في حاجة إلى عدو جديد يتوحد ضده، وأن الإسلام مرشح للعب هذا الدور، خاصة أن الإسلام دين أجنبي وأن للمسلمين وجودا متناميا في المجتمعات الغربية مما يجعلهم هدفا سهلا للعنصرية الجديدة).

9. ومن الأسباب ما يمكن تسميته "الابتزاز بالإسلاموفوبيا"، والذي يصور الإسلام باعتباره قالبا جامدا غير قابل للدراسة أو النقاش، ودينا مغايرا له

وضع خاص فوق حرية الرأي والتعبير. ومع أخذ هذه الظاهرة في التنامي انتشرت الكتابات بشأنها، وبخاصة بعدما وضع الفيلسوف الفرنسي دوفيليه كتابه المعنون بـ"مساجد رواس". لقد ظل مصطلح الإسلاموفوبيا غامضاً على عمومه على الرغم من شيوعه وتداوله، إلى أن قامت مؤسسة "The Runnymed Trust" بأول محاولة جادة لتقعيده سنة 1997م حيث ربطت المفهوم وضبطته وفق ثمانية معايير محددة. أول هذه المعايير القول بأن الإسلام ليس إلا جسدا أحاديا جامدا قلما يتأثر بالتغيير. وثانيها اعتباره آخر لا تربطه بالثقافات الأخرى قواسم مشتركة أو قيم متبادلة يتأثر بها أو يؤثر فيها. وثالثها النظر للإسلام بدونية واعتباره دينا بربريا بدائيا جنسي النزعة ولا يمُت للعقلانية بصلة. أما رابعها فيتمثل في الربط العضوي بين العنف والإسلام واعتباره مفطورا على الإرهاب ومنتشرا بحد السيف. خامس هذه المعايير، النظر للإسلام باعتباره إيديولوجية سياسية تروم تحقيق مكاسب سياسية وعسكرية على حساب الآخرين. ويتمثل سادسها في الرفض القاطع لأي انتقادات بشأن الغرب تصدر من إسلاميين. أما سابعها فيتمثل في توظيف هذا العداء لتبرير منظومة الممارسات العنصرية تجاه المسلمين وإقصائهم بعيدا عن حدود المجتمعات الغربية. ثامن هذه المعايير يتمثل في التسليم بالعداء للإسلام وللمسلمين واعتباره أمرا عاديا ولا غضاضة فيه. وفي الواقع كانت هذه المحاولة بمثابة نقطة البدء للعديد من التقارير والمتابعات الحقوقية، والتي أخذت تندد بالإسلاموفوبيا معتبرة إياها ضربا من التمييز العنصري وهدرا لحقوق وكيانات المسلمين في أوروبا. وتظهر هذه المعايير الثمانية مدى المشاعر السلبية والتأثيرات الخطيرة التي يعكسها مفهوم أو مصطلح "الإسلاموفوبيا". وفي هذا السياق اعترف المجلس الأوروبي في دراسة له عام 2005م بعنوان: "الإسلاموفوبيا وتأثيرها على الشباب" بأن "الإسلاموفوبيا" تشكل انتهاكا لحقوق الإنسان وخطرا على التماسك الاجتماعي في المجتمعات الأوربية. حيث تشير الدراسة إلى أن (الإسلاموفوبيا تعني التخوف والأحكام المسبقة تجاه الإسلام والمسلمين وما يتعلق بهم، سواء تم التعبير عنه بالأشكال اليومية للعنصرية أو التمييز أو في أشكاله الأكثر عنفا، فالإسلاموفوبيا هي انتهاك لحقوق الإنسان وتشكل خطرا على التماسك الاجتماعي)، وفي كل الأحوال، يجب عدم التقليل من تنامي الظاهرة، كما يجب أيضا عدم التهويل بشأنها وإنما يتوجب علينا وضعها في سياقاتها المعرفية والتاريخية.

10. اللوبي الصهيوني الذي نبه الخطاب القرآني لخطره. فبالإضافة إلى حالة الهيجان التي تثيرها قوى اليمين السياسي المتطرف واللوبي الصهيوني ضد الإسلام والمهاجرين المسلمين، فإن مواقف الفاتيكان لم تسهم في نزع فتيل التوتر بسبب ظاهرة "الإسلاموفوبيا." بل أثارت تصريحات بابا الفاتيكان الحالي بنديكت السادس عشر خلال زيارته لمسقط رأسه بألمانيا في سبتمبر عام 2006م، التي اتهم فيها الإسلام بأنه دين يدعو إلى الكراهية ويعتمد على العنف، كما أصر على أن ينص الدستور الأوروبي على أن أوروبا تستند إلى جذور الثقافة المسيحية ـ اليهودية ورفض اي اعتراف بدور المسلمين في تطور المجتمعات الأوروبية المعاصرة ومن ثم أهمية مراعاة القيم والتقاليد الإسلامية في مشروع الوحدة الأوروبية، مما يعني إقفال المجال أمام دخول تركيا إلى الاتحاد الأوروبي ليظل الاتحاد الأوروبي ناديا مسيحيا مغلقا على الرغم من أن الدول الأوروبية المعاصرة تعتمد فلسفات علمانية في أنظمة الحكم. وقد حاول بابا الفاتيكان بعد ذلك التخفيف من هذا التصريح، بالقول إنه لا يعترض على إشراك تركيا في الاتحاد الأوروبي. لكن في واقع الأمر فإن دوائر الفاتيكان لا تتردد في إبداء مخاوفها من وجود الجاليات المسلمة في المجتمعات الأوروبية خوفا مما يسمى (أسلمة أوروبا أو الغرب).

11. المشكلات الثقافية الدولية التي أثرت سلباً على العلاقات الإسلامية الغربية، مثل أزمة الحجاب في فرنسا، وتصريحات بعض القيادات الغربية الدينية والسياسية المسيئة إلى المسلمين، بعد الإساءة للمصحف الشريف في جوانتانامو واستغلاله كأداة لتعذيب المعتقلين والضغط على مشاعرهم، وكذلك في فلسطين المحتلة والعراق، وانتهاك حرمة المساجد في كل شبر تطؤه أقدام الاحتلال الغربي، ناهيك عن الانتهاكات التي يتعرض لها أفراد الجاليات المسلمة في أوروبا.

وظاهرة "الإسلاموفوبيا" اليوم تجسّدت في أبشع صورها؛ إذ تخطت حدود الإساءة لمن يحمل لواء الإسلام، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يتعرض الرسول الكريم منذ 30 سبتمبر من العام 2006م إلى هجوم حاد وحملة حاقدة في أبشع صورة تعرضها الصحافة الدانمركية، والتي بدأت عندما أراد مؤلف كتب أطفال دانماركي أن يضع على غلاف كتابه صورة للرسول صلى الله عليه وسلم. ورفض رسام الكاريكاتير المكلف بإعداد الغلاف رسم هذه الصورة، فقرر المؤلف إقامة مسابقة لرسم الرسول،

حيث تقدم لها (12) رسام كاريكاتير أرسلوا (12) صورة مسيئة لرسولنا الكريم. ولم تفوّت "صحيفة بيو لاندز بوستن" اليمينية المتطرفة والتابعة للحزب الحاكم هذه الفرصة، في التقاط هذه الصور ونشرها استهانة بمشاعر أكثر من "مليار و300 مليون مسلم"، بالرغم من أن مسلمي الدانمارك والبالغ عددهم" 200 ألف"، حاولوا الاحتجاج على القرار، وذلك عن طريق رفع مذكرة إلى الحكومة الدانماركية، إلا أن الجواب كان هو الرفض، وإصرار الحكومة على دعم حملة الهجوم تحت مسمى "حرية التعبير"بل كان الموقف الحكومي الدانماركي أكثر شراسة برفض المدعي العام تلبية طلب الجالية الإسلامية برفع دعوى قضائية ضد الصحيفة بتهمة انتهاك مشاعر أكثر من مليار مسلم في العالم. وقال المدعي العام الدنماركي: لمواجهة هذه الحملة المعادية للإسلام اتفقت جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي على ضرورة القيام بخطة تحرك عاجل لوقف هذه الحملة البغيضة التي تشهدها الدانمارك تجاه الإسلام . كما طالبت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو" باعتذار الصحيفة "للمسلمين في أنحاء العالم كافة"، مشيرة إلى أن "ذلك يُعدّ زوراً وبهتاناً على شخص الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم". وللتعبير عن إدانتها وأسفها لهذه الواقعة المشينة أصدرت (إيسيسكو) بياناً قالت فيه : "إن التطاول على شخصية الرسول.. هو خرق للقانون الدولي الذي يمنع المساس بالمعتقدات الدينية للشعوب، فضلاً عن أن ذلك تطاول على مقدسات المسلمين واستهتار بها، لما في ذلك من نشر للكراهية والبغضاء، وتهديد للاستقرار والأمن والسلام". ولم يكن الاستنكار نابعاً فقط من داخل الدوائر السياسية، وإنما السخط الشعبي هو الذي دفع الشخصيات السياسية إلى التحرك؛ إذ أصدر عدد من المنظمات والجمعيات الإسلامية والعربية بيانات تنديد تعبّر فيها عن غضبها الشديد مما نشرته الصحيفة المتطرفة، وامتد السخط إلى شبكة الإنترنت الدولية حيث انتشر عدد من الدعوات في المنتديات العربية إلى تنظيم هجوم إلكتروني على موقع الصحيفة. ولعل الخطورة في هذه القضية تكمن في استمرارها، حتى بعد انتهاء الأزمة، فالانتهاكات قد تتجدد مع بقاء تلك الفكرة حول معنى الإسلام لدى الغرب، مما يحتم على العالم الإسلامي القيام بدور أكثر فعالية في إيضاح صورة الإسلام لدى المواطن الغربي، وفصل الصورة الحقيقية عن تلك المزيفة التي رسمتها الآلة الإعلامية التي تحركها الأهواء السياسية، والنزعات الدينية المتطرفة القائمة على الحقد والجهل والكراهية.

12. طبيعة ظاهرة الإسلاموفوبيا القدرية التي تكاد تفرض أن الخلاف الثقافي بين المسلمين وأبناء المجتمع الغربي خلاف حتمي، وتكاد تعفي المسلمين

من مسؤولية فهم المجتمعات الغربية وتفاصيل ما يدور فيها. كما تعفيهم من سبل توعيتها بصورة الإسلام الصحيحة خاصة في ظل تنامي أعداد المسلمين في الدول الغربية، وانفتاح أعداد متزايدة من أبناء تلك المجتمعات على فهم الإسلام والمسلمين.

13. التغيرات المجتمعية الكبرى التي لحقت بالمجتمعات الغربية والإسلامية خلال العقود الأخيرة، وعلى رأس هذه التحولات تراجع قوى اليسار الغربي التقليدية التي سادت خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وصعود قوى اليمين الثقافي والديني في الغرب والعالم الإسلامي خلال الفترة ذاتها.

وإليك في النقاط التالية العلاج الناجع وأمثل الطرق للتقليل من حجم مشكلة الإسلاموفوبيا ولا نقول بالقضاء عليها تماما فالمشكلة عويصة وشائكة.

أمثل الطرق وأنجعها للتقليل من حدة ظاهرة الإسلاموفوبيا :

1. بث مفاهيم وقيم التفاهم والتسامح كما فى قوله : ﴿**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم**﴾[1] وعن أسماء قالت: ((قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها فاستفتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها قال نعم صلي أمك))[2]. وذلك لنكون أوفياء لقيم القرآن أولا دون أن يكون أكثر همنا استحقاق رضا الآخرين. لقد برزت في الأندلس مفاهيم وقيم التفاهم والتسامح، التي أسست لحياة إنسانية مشتركة ومنفتحة. والعالم اليوم في حاجة ماسة لإحياء تلك القيم والمفاهيم التي ترسي مبادئ الحوار والانفتاح بين الشعوب الأندلسية وما صاحبها من إنجازات حمل مشاعلها نخبة من رجال الفكر والمعرفة من أمثال ابن حزم، والقرطبي، وابن خلدون، وأبو القاسم الزهاوي، وابن رشد، وابن النفيس وغيرهم.. إن جهود هذه النخبة لم تذهب سدى، ذلك أن شعلة الحضارة الإنسانية التي حملوها انتقلت إلى أوروبا فترسخت وأكدت المفاهيم التي كانوا يدعون إليها.

---

(1) (سورة الممتحنة)، الآية : 7.

(2) "صحيح البخاري 3/3611".

2. علينا أن نتحمل المسؤولية فيما يتعلق بتصحيح الصورة المغلوطة لدى الغرب عن الإسلام، ودون جلد للذات، ويتم ذلك بعقد المؤتمرات والندوات والحوار وما أجمل عبارة " الأمير سعود الفيصل" وهو يرقب تحركات المؤتمرات والندوات الفكرية حيث يقول (لقد غمرتنا السعادة النفسية والفكرية بهذه الاتجاهات العاقلة الراشدة. لماذا؟ أولاً : لأن هذه الاتجاهات: استجابة لمشيئة الله وإرادته في العلاقة بين البشر ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[1] . ثانياً : إن الغلاة في كل جانب يجتهدون في إفساد العلاقة بين الناس، ومن النصرة لهم : جعل التناكر والتناطح هو قاعدة العلاقة بين الناس على هذا الكوكب. ثالثاً: أن البشرية تعبت إلى درجة الإرهاق والتعاسة ـ من الصراعات والمناطحات وتبادل سوء الفهم والظن. رابعاً : لأن هذه الاتجاهات الرامية إلى تعزيز التفاهم بين الحضارات، أمنية غالية لدينا، طالما عبرنا عنها، ورجونا أن تتحقق). فـ (مجال الحوار لكي يكون فعالا لابد من تكافؤ القوى، لأن القوي لا يؤمن بالضعيف مهما حاول معه وتلك سنة الله في الأرض، القوي لا يخاف إلا من الأقوى منه، أما حوار الضعيف في رأيي لا يفيد ولا يسمن ولا يغني من جوع. لذلك إن أراد العرب الحوار الفعال عليهم أن يتحدوا سويا حتى يكونوا قوة فعالة فهم يملكون الثروات والخيرات الطبيعية التي يحتاج إليها الغرب في إدارة حياته اليومية وبدون هذا الاتحاد لن يوجد حوار فعال يصل إلى نتائج مرضية).

3. علينا أن نتحرر نسبيا من الوهم والخيال الزائد بعداء الغرب، فنحد ونقلل من فكرة المؤامرة واتخاذ وضعية الضحية، ووضع مسؤولية إخفاقات سياساتنا الدينية والفكرية على الآخرين، الأمر الذي لا يليق بالإسلام ولا بحضارته.

4 . يمكن أن يلعب العالم الإسلامي دورا في مكافحة الإسلاموفوبيا بتبني بعض البرامج العلمية المنظمة لتوعية المواطن الغربي، بالمزيد من المؤتمرات وورش العمل الفكرية المرشدة والمناظرات والمجادلات وهو هدي النبي عليه السلام فقد حاور ﷺ العرب واليهود والنصارى (وكانوا نصارى وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة في ستين راكبا فيهم من أشرافهم ..فدخلوا على رسول الله ﷺ إثر

(1) (سورة الحجرات)، الآية : 13.

صلاة العصر فقال أصحاب النبي ﷺ : ما رأينا وفدا مثلهم جمالا وجلالة حانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد النبي ﷺ : إلى المشرق فقال النبي ﷺ : دعوهم ثم أقاموا بها أياما يناظرون رسول الله ﷺ في عيسى ويزعمون أنه ابن الله وغير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة ورسول الله ﷺ يرد عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يبصرون) "[1] .

5. التعاون مع الأقليات المسلمة في الدول الغربية لتأهيل وتدريب أكبر عدد من السفراء المدنيين القادرين على تقديم صورة الإسلام الصحيحة للمواطن الغربي بشكل يومي ومحلي ومؤسسي منظم. فبدون عدد كاف من هؤلاء السفراء وبدون اضطلاعهم بدورهم المنتظر في التواصل مع نظرائهم الغربيين على أرض المجتمعات الغربية ذاتها، تكاد تكون مواجهة الإسلاموفوبيا أمرا بعيد المنال إن لم يكن مستحيلا.

6. قطع الأمل في رضا أهل الكتاب عن المسلم، والعدول عن ذلك للحوار، الحق أن السبب في هذه الظاهرة هو الذل والهوان داخل مكونات المجتمع الإسلامي نفسه، الشيء الذي جعل الغرب يلصق جميع المصطلحات المشينة بالإسلام. ومن يبحث عن رضا الغرب فإما جاهل بتاريخهم أو جاهل بحضارتهم والصحيح ما قاله الله ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى**﴾[2] .

7. يمكن أن يلعب العالم الإسلامي دورا في مكافحة الإسلاموفوبيا على مستويين أساسيين : فهم المجتمعات الغربية وتفاصيل ما يدور فيها. وفهم سبل توعيتها بصورة الإسلام الصحيحة خاصة في ظل تنامي أعداد المسلمين في الدول الغربية، وانفتاح أعداد متزايدة من أبناء تلك المجتمعات على فهم الإسلام والمسلمين، وتنامي قوى العولمة والاتصالات بما يسهل عملية التواصل مع الآخر و تبني بعض البرامج العلمية المنظمة لتوعية المواطن الغربي على نطاق واسع ومدى طويل نسبيا، بصورة الإسلام والمسلمين الصحيحة. والواضح هنا أن العالم الإسلامي مازال يفتقر لتلك البرامج بعد مرور أعوام عدة على بعض الأحداث الإرهابية التي تورط فيها بعض المحسوبين على الإسلام، نعذر الغرب

(1) القرطبي 4/4.
(2) (سورة البقرة)، الآية : 120.

أحيانا لنظرتهم هذه وذلك بسبب أن بعض الإسلاميين في العالم الإسلامي يعيش وفكره أن هناك مؤامرة وأن هناك صراعا ولايعملون شيئا يذكر للنهضة والبناء، صحيح في الماضي قدمنا لهم العلم والحضارة لكن الآن ماذا نقدم للعالم، مع أن هناك مؤامرة وراء هذه الظاهرة والحل هنا أن نقدم للعالم النموذج الصحيح للمسلم المنتج خليفة الله في الأرض (جميل أن ننفتح على العالم وأن ننادي بصوت مسموع لحوار بين مختلف حضاراته، وخصوصا بين الإسلامية منها وبعض حضارات الغرب فالغرب، ليس له حضارة واحدة كما يبدو).

8. لا بد من مواجهة راديكالية ظاهرة الإسلاموفوبيا، ولابد أن يكون للمنظمات الحقوقية الأوروبية دور يرتكز على قيام ترسانة قانونية تحمي المسلمين من أشكال التمييز والاعتداءات اليومية بحقهم. ترسانة لا يستثنى منها لا شبه مثقف ولا رجل سياسة، لأن ظاهرة الإسلاموفوبيا تتصاعد بشكل غير محمود النتائج والعواقب.

9. مواجهة الإسلاموفوبيا تأتي من الداخل سواء كان هذا الداخل في المجتمعات الغربية أو المجتمعات الإسلامية، حيث يصير من واجب كل مجتمع أن يقوم بعملية المجاهدة الذاتية لتيارات التعصب والكراهية داخله، لأن ذلك ينزع عن الطرف الآخر أقوى مسببات وجوده. ومن يعلم فربما يأتي اليوم الذي يتحد فيه بنو الإنسان لمواجهة هذا التيار على الجانبين سواء من خلال منظمات دولية مثل الأمم المتحدة أو حتى منظمات جديدة توقف هذا المد الجنوني الذي بات يستعيد ذكريات أليمة للبشرية عاشتها وقادتها إلى حرب عالمية كبرى. وفي حديث ابن عمر (إن الفتنة راتعة في بلاد الله تطأ في حطامها لا يحل لأحد أن يوقظها ويل لمن أخذ بخطامها)[1] . (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها)[2] . والفتنة عجوز حاقدة نفثاتها لعاب الأفاعي أو سموم العقارب، لا يفرح بالتناطح بين البشر إلا امرؤ بائس التفكير، مريض الضمير، متلذذ بتعاسة الآخرين. ولا يغتم بالصراعات بين الناس إلا كل ذي تفكير نضر سوي، وضمير طاهر نظيف، ومعرفة صحيحة موصولة بالله الذي نوّع الجنس البشري بين الألسن والقوميات ليتعارفوا.

---

(1) كشف الخفا للعجلوني 83/2.

(2) نفسه .

10. التبدل الجوهري في طريقة التفكير، إلى تفكير ينزع بالبشرية منزعا يمكّنها من تفادي كوارث الماضي الماحقة، ويؤصل استراتيجيات ويؤسس سياسات ومناهج تكون قوام العلاقات الدولية، سواء منها السياسية أوالدبلوماسية أوالاقتصادية أوالثقافية أوالإعلامية أوالحضارية. ومما نقترحه من هذه القواعد لبلوغ هذا المستوى الرشيد الراقي من العلاقات، قاعدة اعتبار أو اعتماد الرصيد السابق من العلاقة النافعة الإيجابية. فمن الخطإ تصوير العلاقات التاريخية وكأنها سلوك محصور في الصراع والقتال، بينما حقيقة الأمر في كل الظروف أنه كانت هناك علاقات تجارية قوية وزاهرة ونشطة (ومن نماذج ذلك العلاقات التجارية الواسعة بين جنوة وبيزا وموانئ شمال إفريقيا العربية الإسلامية. بل كانت هناك علاقات دبلوماسية ودية في القرن الثالث عشر الميلادي بين الإمبراطور فريدريك الثاني، في إيطاليا وصقلية وبين سلطان مصر الأيوبي الكامل وابنه الصالح نجم الدين أيوب).

والله من وراء القصد.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر المراجع

أولاً : المصادر :

1. القرآن الكريم.
2. **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الفكر، بيروت 1401هـ .
3. **الجامع الصحيح المختصر**، البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، 1407هـ - 1987م، ط 3، تحقيق : مصطفى ديب البغا4.
4. **تفسير الجلالين**، السيوطي، محمد بن أحمد، دار الحديث.
5. **مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل**، الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.
6. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد أبو جعفر، دار الفكر، بيروت، 1405هـ.
7. **كشف الخفاء**، العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ ، ط 4، تحقيق : أحمد القلاش.
8. **إحياء علوم الدين**، الغزالي، أبو حامد، دار إقرأ للنشر والتوزيع 1983هـ:.
9. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله دار، الشعب، القاهرة، 1372هـ ط2، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني.
10. **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.
11. **مجمع الزوائد**، 848، الهيثمي، علي بن أبي بكر، دار الريان للتراث، القاهرة، 1407هـ، ط، بدون.

ثانيا : المراجع :

12. **جميل أن ننفتح على العالم**، إبراهيم إسماعيل، الشرق الأوسط 1428/2/27هـ الموافق 2008/2/24م.

13. **إسلام أون لاين.**

14. **الإسلام اليوم.**

15. **وميض ضوء في العتمة.. أسس التفاهم بين الحضارتين**، الركابي زين العابدين، الشرق الأوسط 1428/2/27هـ الموافق 2008/2/24م.

16. **الشرق الأوسط** 1428/2/27هـ الموافق 2008/2/24م، الفيصل سعود، صاحب السمو الملكي الأمير سعود الفيصل، وزير خارجية المملكة العربية السعودية.

17. **جريدة الجزيرة**، العدد 65034 ، 2008/1/16م.

18. **جريدة الشرق الأوسط**، العدد، 8473، 1422/11/26هـ الموافق 2002/2/8م.

19. **جريدة الحوار المتمدن**، حسب الله، وحيد، العدد 1999، 2007/8/6م.

20. **مواجهة التعصب والعنصرية والكراهية**، سعيد عبد المنعم، جريدة الأهرام العدد 44786، يوليو 2009م.

21. **الحوار**، صالح محمد شاكر محمد، الشرق الأوسط، 1428/2/27هـ الموافق 2008/2/24م.

22. **صحيفة "دي تسايت"**، الألمانية الأسبوعية.

23. **صحيفة " سودوتش تسايتونج"** ، ألمانيا.

24. **الإسلاموفوبيا وسياقاتها المعرفية**، عبد الوهاب محمد حلمي، مجلة رواق عربي، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، العدد 1245، يوليو 2005م.

a. كريش ، **صحيفة "لوموند ديبلوماتيك"**

.(Le Monde Diplomatique)، آلان (Alain Gresh)، نوفمبر 2001م.

عقدة الخوف من الإسلام :
دواعيها وسبل التخلص منها

الدكتور الحسن بوقسيمي(*)

مقدمة :

إن مسألة التوجس من الآخر وأخذ الحيطة والحذر منه شيء مغروز في النفس البشرية، وهذا موجود بين أفراد الديانة الواحدة، بله الحديث عنه لدى المنتسبين إلى مختلف العقائد والملل أهل الديانات المختلفة، فإن الأمر يزداد تأكدا وتجذرا حينئذ.

وبطبيعة الحال ترجع دواعي هذا إما إلى سوء نية من أحد الطرفين أم منهما معا، وإما إلى الجهل بالآخر، بفكره وطريقة ممارسته لشؤون حياته اليومية.

فسوءنيات أهل الديانات الواحدة ناتج عن الحسد والحقد، وهي حالات ضعف تؤدي حتما إلى العداوة والبغضاء وتمني زوال النعمة عن الآخر. وجهل أهل الديانات الواحدة بعضهم بعضا متمثل في سوء فهم أفكار الآخر وسلوكاته حتى يُظنَّ أن صاحب فكرة أو سلوك ما مخالفٍ هو مُعادٍ لمخالِفه.

وسوء نيات أهل الديانات المختلفة ناتج عن نزعة الاستبداد وحب السيطرة والتحكم في الآخر؛ لنهب خيراته وإلغاء وجوده. أما جهلهم بالآخر فيتجلى في عدم معرفتهم بطرق تفكيرهم وتقاليدهم وأعرافهم، وما تحمله ثقافتهم من قيم إنسانية وهكذا؛ لذا ينشأ الخوف من الإسلام والعداء له.

هذا ولن أخوض في مداخلتي هاته غمار الحديث عن الصور النمطية للإسلام التي تحدثها شعوب الغرب بكل تلويناتهم وأطيافهم، ولا التي يحدثها المغرضون من سياسييه أو مفكريه أو إعلامييه أو رجال ونساء مخابراته. فحسبي هنا أن أجلي بعضا من الأسباب الداخلية لنشوء عقدة الخوف من الإسلام عند الآخر، خصوصا الأسباب

(*) شعبة الدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز ـ فاس.

الناتجة عن ممارسات من يروم حمل مشعل الالتزام بالإسلام والدعوة إليه وتغيير الوضع بتعاليمه وآدابه.

ومما يجدر التركيز عليه ـ في موضوعنا هذا ـ مختلف الهيئات والمؤسسات غير الرسمية العاملة في حقل العمل الإسلامي؛ لأن ممارسة الإسلام من طرف أتباع مختلف الهيئات والمؤسسات الإسلامية، واتخاذ مواقف معيّنة تجاه مختلف القضايا على الصعيد الوطني والدولي، هي أمور ألصق بالواقع المعيش وسهلة الملاحظة والرصد من طرف الآخر، مطلق الآخر.

إن معالجة شأننا الداخلي مُقدَّم على معالجة شؤون الغير، كما أن دفع المضرة والمفسدة مقدم على جلب المنفعة والمصلحة؛ والقرآن الكريم ينبهنا ـ في كثير من سياقاته ـ إلى أن ما يصيبنا من مضارّ هو من عند أنفسنا بما كسبت قلوبنا وأيدينا من جراء إهمالنا وأخطائنا : ﴿ **أَوَلَمّا أصابَتْكُم مصيبَةٌ قَد أَصَبْتُم مِثْلَيْها، قُلْتُم: أنّى هذا؟ قُلْ: هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُم. إنّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ** ﴾[1]. ﴿ **لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ في أَيْمانِكُم، وَلكِن يُؤاخِذُكُم بِما كَسَبَتْ قُلوبُكُمْ، وَاللهُ غَفورٌ حَليمٌ** ﴾[2] ، ﴿ **وَما أَصابَكُم مِن مُصيبَةٍ بِما كَسَبَت أَيْديكُمْ، وَيَعْفو عَن كَثيرٍ** ﴾[3] .

ومرجعيتي في رصد هذه الأسباب اشتغالي بالشأن الديني من حيث أستاذيتي بالدراسات الإسلامية الجامعية، ومعايشتي لواقعي المغربي وتحولاته منذ كنت تلميذا بسلك الباكالوريا.

وتنصبّ ملاحظاتي واستنتاجاتي على فئتين هامتين ـ تشكلان العمود الفقري لفعاليات الصف الإسلامي المهتم بالدعوة إلى الإسلام ـ هما القاعدة الشعبية والمفكرون الأكاديميون.

إن من يطلع على أخطاء وهفوات هؤلاء "القدوة"، ينقذف في قلبه خوف من الإسلام يُنتِج عداوة وبغضاء، خصوصا لدى الأجانب.

---

(1) آل عمران، 165.

(2) البقرة، 225.

(3) الشورى، 30.

أولاً : من دواعي النفور والعداء:

- **الازدواجية في التعامل مع الآخر :**

❖ فالأخ في الله المنتمي إلى الجمعية ـ أو الجماعة أو الحزب ـ له موقع وتعامل خاصان، أما غيره فيُعدّ من الدرجة الثانية. وهذا من طبيعته أن يولد ـ على الأقل ـ النفور لدى المسلم غير المنتمي، وإلا تنشأ البغضاء والكراهية والعداوة. أما بالنسبة للأجنبي فإنه يفهم على التو من هذا التعامل ـ الذي ينظر إلى غير المنتمي، وهو مسلم كذلك، بنظرة دونية موازَنَةً مع النظرة إلى المنتمي ـ أنه من باب أولى أن يُنظَرَ إلى الأجنبي ـ أو الكافر الذي لا تجمعه مع المنتمي لا عقيدة ولا وطن ـ بنظرة الريبة والتعالي؛ فيولد عقدة الخوف من الإسلام، بل كراهيته وبغضه.

إن لهذه الازدواجية في التعامل تمظهرات منها :

❖ **بالنسبة للقاعدة الشعبية** : يُعرض بعضهم عن إلقاء تحية الإسلام على من لا لحية له أو من يقصها، أو من لا يرتدي ثيابا فضفاضة "سنّيّة" كما يرتديها المنتمي.

كما يزيد بعضهم في ثمن البضاعة التي يبيعها على غير المنتمي بدعوى أنه من أهل الجاهلية؛ فلا يُعامَل معاملة الإخوان الملتزمين.

❖ **بالنسبة للمفكرين الأكاديميين** : فلا يتعامل معك بعضهم ـ خصوصا إن كان مسؤولا ـ على أساس المهنة والمسؤولية التربوية، فعوض أن يتخذ قرارا ما من خلال اللجنة المكلفة بذلك، تراه يستفرد بذلك القرار لوحده، أو يستشير فقط مع "الأخ" المنتمي إلى صفه.

كما تجد بعض الدكاترة المشرفين على بحوث جامعية يتعاملون في إشرافهم مع الباحثين المنتمين بطريقة مرنة، بل هناك من يمكّن الباحث من مكتبته الخاصة ليسهل عليه إتمام بحثه. أما غير المنتمين فنصيبهم من الملاحظات الدقيقة ـ وأحيانا التعجيزية ـ يكون أوفر. وهؤلاء الدكاترة "الدعاة" ينسون أو يتناسون أن المُشرف على بحوثهم ينتسبون إلى الوزارة التي توظفهم، لا إلى انتمائهم أو جماعتهم.

- **التناقض في القناعات والمواقف :**

فترى الملتزم المنتمي يعيب أمرا ما أو يدعو إلى آخر، يناقضه في ممارسته الخاصة، أو يتستر عليه في جماعته أو انتمائه، وهو يرفضه ويعيبه عند الآخرين غير المنتمين، ومن تمظهرات هذا :

- ✤ **بالنسبة للقاعدة الشعبية** : يمنع بعض المنتمين أولادهم أو إخوانهم من بعض المباحات، أو يقيمون الدنيا على بعض الأخطاء الصغائر، بل يقاطعون مرتكبي هاته الصغائر بسببها، في حين تجدهم غارقين في تلك المباحات، متلبسين بكثير من الصغائر، إن لم تكن كبائر.

- ✤ تجد من المسؤولين الدعويين مَن يستنفرك "لتغيِّر منكرا" أو تقف في وجه "علماني" أو "ظالم"، حتى إذا ما خلا هو به تملق إليه وأحسن معاملته وعشرته.

- **الوصولية والاستئساد على البسطاء، ومن تمظهراتها :**

- ✤ **بالنسبة للقاعدة الشعبية** : يطبق المنتمي كل ما يحمله ذهنه من آراء وآداب إسلامية ـ ولو بالقوة ـ في أسرته وأقربائه مثلا، حتى إذا ما التقى بغيرهم من باقي أفراد المجتمع فرط أحيانا في بعض الفرائض حفاظا على مصلحة أو نيلا لحظوة.

- ✤ **بالنسبة للمفكرين الأكاديميين** : يمارس بعضهم أعلى مستوى الجدية والرزانة والنقد لأتباعه "البسطاء"، بل أحيانا يقاطعه ويشيح بوجهه معرضا عنه حتى "يربّيه" و"يعظه"، وفي نفس الآن تجده يتملق لأحد المسؤولين ـ قد يكون من جيل طلبته ـ بمختلف المكالمات الهاتفية والهدايا المتنوعة، بل يَعرِض نفسه لخدمته إن أراد.

أما أولئك الأتباع البسطاء فهم من ينبغي عليهم مفاتحته بالهاتف؛ إذ "لا يُعقَل" أن يكون الشيخ هو من يفاتح المريدين بمكالمة ما. وعليهم أيضا أن يقدموا الهدايا للشيخ، لا العكس. أما إن أرادوا خدمة ما منه، فعليهم أن يزوروه ليطلبوها منه.

- **السطحية والجهل بدقائق الأمور:**

❖ **فبالنسبة للقاعدة الشعبية** : يخلط بعضهم بين ما هو فرض وما هو مستحب أو نافلة، فتراه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من لا تجب نفقته عليه من أقاربه؛ فيصيِّر العلاقات الأسرية الهادئة جحيما لا يطاق. وتجد من يقاطع أباه بسبب التدخين مثلا، فيفوِّت خير التأثير بالمصاحبة والمعاشرة والاقتداء، خصوصا مع الأقرباء.

بل منهم من يدعو إلى شكل من أشكال اللباس متوهما أنها السنة، وهو في حقيقة الأمر يدعو إلى تقاليد باكستانية أو سعودية أو غيرها، فيفرق بين المسلمين بسبب الشكليات وصغائر الأمور.

❖ أما المفكرون الأكاديميون فيثيرون حفيظة غير المنتمين بتجاهل وجودهم؛ فيؤلبونهم عليهم، وعوض أن يستفيدوا من جهودهم يُقصونهم فيتسببون في نشوء العداء والنفور بينهم. لذا فتقويم العلاقات بميزان الانتماء سطحية وقصور فهم وضياع جهد ووقت.

- **الاهتمام بالجزئيات على حساب الكليات:**

❖ **فمن القاعدة الشعبية** : من يضيع أكثر الوقت في كيفية وضع السبابة في التشهد للصلاة، أو في هل نقبض اليدين بعد الرفع من الركوع، أو في جلسة الاستراحة هل نلتزم بها أم لا، في حين يهضم حقوق مستخدميه - إن كان رب معمل - في تمتيعهم بعطلهم القانونية، أو تعويضات عن ساعات عمل أضافوها وما إلى ذلك. إذ لا يستقيم ضبط أشكال الصلاة مع تكريس الظلم، ذلك أن المهتم بروح الصلاة ومقاصدها تنهاه عن الفحشاء والمنكر لا محالة، وهذه هي "إقامة الصلاة" : ﴿ **اتْلُ ما أوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتابِ وأقِمِ الصَّلاةَ، إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنكَرِ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ، وَاللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعون** ﴾[1] ؛ فأن نستصحب تذكر مراقبة الخالق لنا في حياتنا وجميع علاقاتنا هو تلاوة كتاب الله الحقة، وهو المقصد الأسمى من جميع وسائل تحقق العبادات، وعلى رأسها إقامة الصلاة، بل هو السبيل الوحيد لإقامة الوزن بالقسط وعدم إخسار الميزان.

(1) العنكبوت، 45.

- ومن المفكرين الأكاديميين من يعدّ أن ضابط خدمتك للإسلام هو تبعيتك المطلقة له، وعدم مخالفتك لأفكاره ونظرياته ولو كانت من قبيل الفروع المُختَلَف فيها. فإن تجرأت وأبديت فكرة - وهي حق - تخالف طرحه، لا يلتفت إليك لا بتعليق ولا تعقيب، بل يعمل جاهدا من أجل إقصائك وتنحيتك ولو أنك تجمعك معه مهنة أو مسؤولية ما. ونفس الأمر يكون ولو أنك تجمعك مهنة أو مسؤولية مع أتباعه والمنتمين إليه؛ فإنهم يتلقون إشارات تهميشك وإقصائك.

- **إخضاع المجتمع لأحكام القيمة المتلقاة في اللقاءات الخاصة :**

وإن تأملت كثيرا من الأمثلة والنماذج السابقة تجدها تدخل ضمن هذا الدافع المؤدي إلى نفور الغير من الإسلام، أو ممن يحمل مشعل الدعوة إليه.

- **فمن القاعدة الشعبية** : من يسقط حكما أو توجيها إسلاميا واحدا على جميع العلاقات الزوجية مثلا، في حين تختلف حيثيات البيوت وملابساتها من فقر إلى غنى، ومن أهل بدو إلى أهل حضر، وهل الزوجة عاملة أم ربة بيت فقط، وهلمَّ تلوُّنا وتنوعا في طبيعة أحوال الزوجين وكذا علاقاتهما التي تختلف الأحكام الفقهية والخلقية تجاهها بحسب اختلافها وتنوعها.

- **ومن المفكرين الأكاديميين** من يولي - بعضَ المهام التربوية أو الدعوية مثلا - الأقل علما وحنكة؛ لا لشيء إلا لأنه "مخلص حرفيا" لقيم وضوابط الانتماء الذي ينتسب إليه، فكم ضاعت من أمانة، وكم اكتُشِفَ من اختلاس للمال العام، وكم شُوِّهت سمعة الإسلام بهذا الصنيع.

ثانيا : من سبل العلاج :

من القيم والمبادئ التي تعلمتها من ديننا الإسلامي الحنيف أنني إذا انتقدت أحدا - أو نبهته على أمر ما، أو أسديت إليه نصيحة معينة - لا يكون قصدي التنقيص منه أو التشهير به أو إشمات الغير به، معاذ الله، بل تنبيهه على أن التكامل هو الكمال، وأن الجميع يؤخذ من كلامهم ويُرَدّ إلا رسول الله ﷺ، وأن الله تعالى ينصر دينه بالرجل الفاسق، وأن التجربة علّمتنا أن كثيرا من غير المنتمين خدموا - ويخدمون -

دينهم أفضل من كثير من المنتمين، وأن جريمة إذاية المؤمن بتنفيره من الخير والصلاح أعظم عند الله من كثير من الجرائم الأخرى.

ولا يقولن أحد إن النصيحة هنا في الملإ فضيحة؛ ذلك أن أخطاء البعض وممارساتهم الإقصائية لأهل الخير من غيرهم، كلها علنية، والعلني يقابَل بمثله العلني. ثم إن موضوع الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس من احتكار أناس دون غيرهم من المسلمين؛ فليس عندنا " رجال دين "، بل كلنا رجال ونساء لهذا الدين العظيم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موضوع المؤمنين كافة: ﴿ وَالْمومِنونَ وَالْمومِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْض، يامُرونَ بالمَعْروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ، وَيُقيمونَ الصَّلاةَ وَيوتونَ الزَّكاةَ، وَيُطيعونَ اللهَ وَرَسولَهُ، أولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ، إِنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيمٌ﴾[1] وعليه فلا سبيل للتخلص من عقدة الخوف من الإسلام بسبب أخطاء معتنقيه، بل الدعاة إليه، إلا بأمرين اثنين :

- **أولهما نظري** يتمثل في الاستعداد النفسي لإسداء النصح إلى من أسهموا ويسهمون - في إقصائك. فمن السهل البيِّن أن ترشد وتنصح من تجمعك به علاقة المودة والتقارب بأي ضرب من ضروبهما، لكن أن تسعى لخير من يكيد لك، فهذا لعمري أفضل مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلى درجات الحكمة وخدمة دين الله جل علاه.

- **ثانيهما عملي** يتجلى في السعي لإنشاء **برنامج مصالحة وطنية**، يشرف عليه القيّمون على أمننا الروحي في هذا البلد العزيز : تكون **الفئة المستهدفة** فيه كل المهتمين بالدين الإسلامي، رسميين وغيرهم، مؤسسات وجمعيات المجتمع المدني، داخليا وخارجيا. وينصبّ **مضمونه** على مجال الظاهر والباطن، والفروع والأصول، والشكل والجوهر، والدين والدنيا.

كل هذا **بمنهجية** الأهم فالأهم، وإذا تعارضت مصلحتان يطلب أعلاهما وأحسنهما، وإن تعارضت مفسدتان يُرتكَب أخفهما، ويُعدَل عن تغيير المنكر إن كان سيؤدي إلى منكر أكبر منه، وتُحتَرَم في كل هذا تخصصات ومسؤوليات جميع مؤسساتنا؛ وذلك حتى لا تختلط الأمور فتفوت المصالح وتضيع حقوق الناس.

---

(1) التوبة : 71.

كما يلزم استحضار أن الصحابة الكرام لم تكن طباعهم على شاكلة واحدة ونسق متطابق أو متشابه، بل كان فيهم الحماسي الشديد، والهادئ المستكين، وفيهم القوي المقدام، والضعيف العادي، وفيهم الغني المعطاء، والفقير ذو الحاجة، وفيهم صاحب العلم الغزير، وصاحب العلم اليسير، وفيهم الملازم للرسول الكريم، والقليل الصحبة له عليه السلام، وهكذا. ومع كل هذا فقد أحبهم جميعهم رسول الله ﷺ، واستفاد منهم كلهم في دعوته ونشر نور ربه، كل من زاوية تخصصه ومما أفاء الله به عليه مما في مكنته أن يبدع فيه.

هذا دون إهمال الوقوف في وجه كل معاند يروم تفريق جماعة المسلمين وشمل الموحدين، هذا الوقوف يُرَكِّز في على محاولة أهل العلم والتخصص إقناع المعاند بالحجة والبرهان وبالتي هي أحسن للرجوع إلى الحق وإلى جماعة المسلمين؛ إذ خير علاج للأفكار الهدامة الأفكار البناءة، وإلا فآخر الدواء الكي.

خاتمة :

من حكمة الله تعالى أن جعل سنة التدافع البشري عاملا من عوامل الابتلاء ودافعا لإقامة الوزن بالقسط، لكن تعتور مسيرة التدافع هاته أخطاء عفوية وأخرى مفتعلة. فما كان من قبيل الخطإ العفوي والجهل البسيط عالجناه بمحاسبة النفس أو النقد الذاتي، وبالنصح والتقويم والاستدراك وما إلى ذلك. وما كان من قبيل الخطإ المُفتعَل المتَعَمَّد ولم يرجع عنه صاحبه كان عنادا وجهلا مركَّبا، ولينتظر صاحبه عاقبة السوء في الدنيا قبل الآخرة.

هذا وعلى رغم بذل مختلِف الجهود، فستبقى ممارسات شاذة وأخطاء مفتعلة وأخرى عفوية ليَميزَ الله الخبيثَ من الطيب، وينظرَ سبحانه وتعالى ما نحن فاعلون. لكن تجدد الأخطاء والهفوات لا يعفينا من إسداء النصح والتوجيه والتسديد، بل لولا الأخطاء لما كان هناك تصويب، ولولا الاعوجاج لما كان هناك تقويم وهكذا، بضدها تتميز الأشياء.

تصحيح صورة الإسلام :
وسائل الاتصال الحديثة والاستثمار الأفضل

الدكتور محمد زهير(*)

مقدمة :

مما لا شك فيه عند الكثير من الباحثين أن صورة الإسلام والمسلمين في الغرب صورة سيئة ومشوهة، صورة لا تعرفها أي أمة ولا أي دين كما هو الأمر بالنسبة للإسلام والمسلمين، وقد ساهمت مصادر متعددة في تشكيل هذه الصورة وتجليها، وقامت وسائل الإعلام الغربي على اختلافها وتنوعها برسم ملامحها وصياغة تفاصيلها، فهي على حد تعبير أحد الباحثين " صورة متحركة، مصنوعة، تتغير فيها الألوان وتتبادل عناصرها المواقع حسب الظروف والأحوال، فالإسلام فيها لا يدل على أنه دين أو حضارة بقدر ما يشير إلى نوع خاص من المسلمين، هم تارة " العرب" وتارة "المهاجرون" وتارة أخرى " المتطرفون الأصوليون"، وحينا آخر ما يتخيله صانعو تلك الصورة أن الإسلام يمكن أن يكون شيئا مخيفا"(1).

ولا أدل على سلبية هذه الصورة من مقولة الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون في كتابه " الفرصة السانحة" : " ليس لأمة قي العالم ولا حتى للصين صورة سلبية في الضمير الغربي مثل صورة العالم الإسلامي"(2).

ويعرض هذه الصورة السلبية كذلك بول فندلي عضو الكونغرس الأمريكي في كتابه " لا سكوت بعد اليوم" بقوله : " فبعض الأفكار النمطية السائدة عن المسلمين تثير الرعب"(3). وبعد استعراضه لازدواجية المعايير التي يتبناها الغرب في تعامله مع

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس ـ فاس.

(1) الجابري "مسألة الهوية : العروبة والإسلام والغرب" بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1998، سلسلة الثقافة القومية، ص 168-169.

(2) نفسه، ص 179.

(3) بول فندلي : لا سكوت بعد اليوم : مواجهة الصور المزيفة عن الإسلام في أمريكا ـ شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت لبنان الطبعة الثالثة 2002 ، ص 81.

المسلمين خلص إلى " أن هذه الازدواجية في التعامل هي التي تعزز أخبث تنميط للإسلام، وأوسعه انتشاراً، ألا وهو ربط الإسلام بالإرهاب. وهذه الفكرة التنميطية متجذرة عميقا في وعي كل جمهور من المستمعين، تقريبا، تسنى لي مخاطبته. فحينما كنت أسأل عن الكلمة التي تتبادر إلى الذهن، لدى ذكر الإسلام أو المسلمين، سرعان ما يتطوع عدد من الحضور بإطلاق كلمة الإرهاب، دون أن أسمع اعتراضا من الحاضرين الآخرين"[1].

بناء على ما تقدم نشير إلى أن المسؤولية كبيرة وثقلها جسيم على كاهل المسلمين، خاصة الجامعيين والمثقفين والساسة والمنظمات الثقافية والتربوية الحكومية منها وغير الحكومية ، لتصحيح المعلومات الخاطئة عن الإسلام وأهله، وإبراز القيم الحضارية للثقافة الإسلامية، ولن يتأتى ذلك في نظرنا إلا بالوقوف أولا مع الذات وقفة علمية صريحة جريئة قصد تحديد مكامن الداء فيها، فكثير من الأمور التي يلصقها بعض المسلمين بالإسلام وهي في الحقيقة لا أصل لها فيه ولا صلة لها بالقيم الحضارية لثقافته. وثانيا تبني طرق علمية موضوعية معاصرة وتوظيف كل الإمكانات والوسائل المتاحة لتصحيح كل المعلومات الخاطئة عن الإسلام وأهله وإبراز القيم الحضارية النبيلة للثقافة الإسلامية.

ومما لا شك فيه أن هذه الصورة النمطية التي تروج لها العديد من الأجهزة الإعلامية الغربية في حق الإسلام والمسلمين، ليست ظاهرة حديثة بل ذات جذور تاريخية وفكرية تمتد لقرون عديدة، إلا أنها تفاقمت وتحولت من عداء للإسلام والمسلمين إلى إشاعة الخوف منه.

وقد تفاعلت عوامل كثيرة وعلى مدار حقبة زمنية طويلة لتضيف بشكل تراكمي العناصر السلبية التي تشكل أبعاد هذه الصورة السلبية. فإلى جانب العوامل التاريخية وخلفيات الحروب الصليبية التي أرست صورة تخلف المجتمعات العربية والإسلامية، وصورت الإسلام آنذاك على أنه دين يدعو إلى عبادة الشهوة وإلى القوة الوحشية، جاءت الحقبة الاستعمارية بكل سلبياتها، يضاف إلى ذلك كتابات الفئة العريضة من المستشرقين التي مثلت عاملا آخر أضاف سلبيات أخرى للصورة المشوهة.

---

(1) نفسه، ص 89 .

أما أشد العوامل تأثيرا فهي وسائل الإعلام، خاصة في إطار التعدد الذي تميزت به في عصرنا، فقد ابتدعت من الصفات السلبية ما يكفي لتشويه صورة الإسلام والمسلمين[1].

فكيف يمكننا تحقيق الاستثمار الأمثل لوسائل الاتصال الحديثة؟

لاشك أن حديثنا عن وسائل الاتصال الحديثة معناه الحديث عن وسائل الاتصال المختلفة من كتب، وصحافة، وأنترنيت، وفضائيات، وسينما، وغيرها مع استحضار درجة أهميتها.

وقبل الحديث عن طرق استثمار هذه الوسائل ينبغي الاعتراف أولاً بقصور الخطاب الإعلامي العربي الإسلامي الموجه للغرب، حيث تنقص برامجه جاذبية العرض والتميز، مما يتطلب ضرورة الانفتاح على العالم الغربي وعلى حقائق العصر مع الحفاظ على ثوابت الأمة ومقدساتها.

فمما نحن في حاجة إلى مراعاته لكي تحقق وسائل الإعلام العربية والإسلامية أهدافها، وعلى رأسها تصحيح صورة الإسلام والعرب والمسلمين ما يلي :

1. إنشاء قنوات إسلامية فضائية تخاطب الغرب بلغته وتعطي صورة واضحة وشاملة عن الإسلام وقيمه الحضارية والثقافية، كي تسهم في تصحيح الصورة السلبية عن العرب والإسلام والمسلمين، مع ضرورة الاستفادة من عقد شراكات مع القنوات العالمية الكبرى وهو أمر ملح لا يحتاج إلى تأجيل، فلدينا الكثير من القنوات الفضائية العربية والإسلامية ولكنها لا تخاطب الرأي العام العالمي بلغة يفهمها، ومن ثم فلابد من إنتاج برامج باللغات الأجنبية.
2. التعرف على صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية والأجنبية.
3. طرح رؤية مستقبلية في مواجهة تشويه صورة الإسلام والمسلمين.

---

(1) محمد رضا أحمد وحمد: أساليب تحسين صورة العرب والمسلمين كما تدركه الصفوة المصرية ـ أي عينة الدراسة المكونة من : صحفيين و أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية ، وأعضاء هيئة التدريس في كليات إعداد الدعاة ـ بحث مقدم للمؤتمر العلمي الثامن بكلية الإعلام بالقاهرة يومي 11 و12 ماي 2002 عن الإعلام وصورة العرب والمسلمين، ج2 ص 158.

4. التعرف على تأثيرات العولمة في تشكيل الصورة الذهنية عن الإسلام والمسلمين.

5. العمل على توعية المسلمين و العرب المقيمين بالغرب لتشكيل قوة ضاغطة ترفع صوتها مدافعة عن دينها وصورتها وهويتها.

6. الاهتمام بالكتاب العربي والإسلامي وتوظيفه توظيفا جيداً للتعريف بالإسلام وقيمه السمحة.

7. عقد مؤتمرات وندوات بالغرب تتمحور حول الإسلام وحضارته.

8 . الاهتمام بالسينما لنشر الصور الحقيقية عن الإسلام وأهله قصد محو الصورة السيئة التي ألصقتها السينما الغربية عموما وسينما هوليود خصوصا بالعرب والمسلمين، ولا يخفى ما تمثله من حيث كونها وسيلة اتصال هامة للتأثير في صياغة الفكر وتوجهه، فصناعة السينما في أمريكا تعمل جنباً إلى جنب مع الجيش.

9. تشجيع المبادرات الذاتية للأفراد المؤهلين من المهنيين وأساتذة الإعلام الذين يتعاملون مع تكنولوجيا العصر وفي مقدمتها شبكة المعلومات الدولية (الأنترنت) من أجل توظيف مهاراتهم لإبراز الصورة الصحيحة للعرب والمسلمين.

10. فتح مواقع إلكترونية بلغات عدة للتعريف بالإسلام وحضارته.

11. فتح قنوات الحوار والتواصل وتمتينها مع الساسة والمفكرين الغربيين الذين يتميزون بالموضوعية في آرائهم ومواقفهم تجاه العرب والمسلمين وقضاياهم المصيرية.

12. الانفتاح على مراكز البحث الغربية خاصة تلك التي توجه الرأي العام بالغرب وتخطط له.

13. تفعيل وظيفة المؤسسات والمراكز الثقافية والمنظمات الإسلامية في البلدان الغربية.

14. الاستفادة من جهود الكفاءات الإسلامية المهاجرة التي أخذت مكانها في منظومة العمل الثقافي والإعلامي، ودعوة وتشجيع قادة العمل الثقافي الإسلامي في الغرب إلى الإسهام بالكتابة في المنشورات الصحفية بما

يخدم مجال التعريف بالإسلام، والتفكير في توسيع فكرة استئجار صفحات أو أعمدة في الصحافة المكتوبة الغربية.

15. توظيف التقنيات الحديثة لنشر قيم الإسلام السمحة.

16. إنشاء مرصد لجمع وتحليل المعلومات والأفكار التي تتناول الإسلام وحضارته بالتشويه.

أما القيم التي ينبغي نشرها فمنها :

- حرية العقيدة، وهي من سمات الإسلام التي لا مشاحة فيها، يقول الله تعالى: ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾[1] ويقول عز من قائل : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر** ﴾[2] ويقول كذلك : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مومنين وما كان لنفس أن تومن إلا بإذن الله** ﴾[3].

فقد تبين بوضوح أنه ليس من مهمة المسلمين إكراه الناس على الدخول في الإسلام واعتناقه لأنه كما يرى ذلك ابن كثير (ت 774هـ)" بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله إلى الإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا"[4].

ولو أراد الرسول ﷺ إكراه الناس على الدخول في الإسلام لما كانت هناك حاجة لأن يبرم عهودا مع اليهود في المدينة، ولا حاجة تمنعه على أن يكرههم على الدخول في الإسلام أو اعتناقه بالإكراه وإنما منعه عن الإكراه الأمر الإلهي ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾. ومما جاء في عهده لليهود حين قدم المدينة : " إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وأن يهود بن عوف أمة من المؤمنين، لليهود دينهم

---

(1) سورة البقرة، الآية : 256 .

(2) الغاشية 21-22 .

(3) سورة يونس 99-100.

(4) ابن كثير : اسماعيل أبو الفداء : تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت 1988،ج 1، ص 294.

وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوثغ ـ لا يهلك ـ إلا نفسه وأهل بيته"[1].

ومما يبين حرية العقيدة في الإسلام العهد الذي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران في اليمن حيث قال : " إن لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبي، ﷺ على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم(...) وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم"[2].

ومما يؤكد ما ذكرناه منهجه ﷺ في تعامله مع الأسرى.

- **الناس خلقوا جميعا من نفس واحدة وأن مصيرهم إلى الله**، وهذا يعني أنهم كافة سواء في الحقوق والواجبات، وأنه لا تفاضل بين شعب وآخر ولا بين قبيلة وأخرى إلا بالتقوى والعمل الصالح، فلا عنصرية ولا فضل لجنس على آخر باللون أو المال أو الجاه أو نحو ذلك، مادام الناس أمة واحدة. القاعدة الأولى في الإسلام هي "اعتبار الناس جميعا إخوة في الإنسانية، وأن السلم هو الأساس والقاعدة، والقتال ليس إلا علاجا لحالات شاذة، فإذا حافظ غير المسلمين على السلم فهم والمسلمون إخوان على الإنسانية، يتعاونون على خيرها العام ولكل دينه يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة[3].

- **حماية الإنسان في كل مكان على ظهر هذه الأرض مسؤولية الناس جميعا**، ويعد الاعتداء على فرد واحد اعتداء على البشر كلهم، كما أن إحياء نفس واحدة إحياء للناس جميعا، يقول تعالى : ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أوفساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا** ﴾[4].

---

(1) ابن هشام (ت 213) السيرة النبوية ـ ضبط وتعليق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الحاج عبد السلام بن محمد بن شقرون القاهرة، ج2، ص 107-108.

(2) حسن السعيد: [الإسلام والرأي الآخر تجربة الإمام علي نموذجا ـ دار الهادي بيروت، ط1، 1424-2003، ص 92.

(3) عبد الحليم ابراهيم العزمي : نظرة الإسلام إلى العنف والإرهاب، بحث مقدم لندوة "الإسلام والغرب في مواجهة الحملة الإعلامية الغربية ضد الإسلام والمسلمين" التي عقدت في شهر مارس 1998 منشورات القيادة الشعبية الإسلامية طرابلس، ط2، 1420 -2000، ص225 .

(4) سورة المائدة، الآية: 32.

- **السلام هو القاعدة الدائمة والحرب هي الاستثناء** التي تقتضيها الضرورة من بغي وفساد وظلم واختلال في موازين طبيعة الحياة كما أقرها التشريع الإلهي.

ومما ينبغي نشره من قيم الإسلام السمحة التعايش والتعارف والتسامح وقبول الآخر، والتعريف برأي الإسلام في العديد من القضايا الخاصة بالمرأة وما منحها من حرية وتكريم، وغيرها من القيم الحضارية السمحة، وكل ذلك لن يتحقق ولن تتبدد الصورة المشوهة التي ألصقت بالإسلام والعرب والمسلمين إلا بالإرادة القوية وبتظافر جهود كل المهتمين بتغيير هذه الصورة السيئة، أفرادا أو منظمات وهيئات.

كلمة
المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه.

أصحاب الفضيلة والسعادة
حضرات السادة والسيدات

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

يسعدني ونحن نفتتح الندوة الدولية حول ظاهرة الإسلاموفوبيا وسبل التعامل معها أن أنقل إليكم تحيات معالي الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ وتمنياته لكم بالتوفيق والنجاح في أعمال هذه الندوة التي تتناول موضوعاً مهماً يهدف إلى دراسة سبل التعامل مع ظاهرة الإسلاموفوبيا وتصحيح صورة الإسلام والمسلمين في الوعي الجمعي للمجتمعات الغربية.

ويسعدني أيضا أن أعبر باسم معاليه عن الشكر والتقدير لمركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الاسلام ممثلا في رئيسه وأعضائه على ما بذلوه من جهود كان لها أعظم الأثر في إقامة هذه الندوة التي تعقد بدعم من الإيسيسكو إدراكاً منها لأهمية موضوعها الذي يدخل ضمن اهتماماتها في مجال مواجهة ظاهرة التخويف من الإسلام وتصحيح المعلومات الخاطئة عن قيمه وثقافته وحضارته وتاريخه.

أصحاب الفضيلة والسعادة
حضرات السادة والسيدات،

تنعقد هذه الندوة في وقت تواجه فيه الأمة الإسلامية تحديات عدة على مستوى قضاياها الداخلية أو صورتها الخارجية، وبخاصة مع تنامي الحملات الإعلامية

المغرضة التي تُشن على الإسلام مستهدفة تشويه صورته ومستغلة الفرص التي تتيحها وسائل الإعلام والاتصال والتدفق الحر للمعلومات في عصر الفضاءات المفتوحة، وذلك في موجة عدائية تعمل على الترويج لصور نمطية مسيئة للإسلام والمسلمين، بغرض تشكيل وعي جماهري منسجم مع المشاريع السياسية والاقتصادية التوسعية التي تسوق لها معظم وسائل الإعلام الغربية في تناولها لموضوع العلاقات الإسلامية الغربية.

وإذا كانت هذه التغطية الإعلامية المتنكرة لأخلاقيات المهنة وقواعد العمل الإعلامي الموضوعي قد برزت بجلاء في عالم ما بعد الحرب الباردة وبخاصة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، فإن النظرة الفاحصة في العوامل المؤسسة لها تكشف النقاب عن كون الإسلاموفوبيا ليست ظاهرة عرضية ارتبطت كما يتوهم البعض بالأحداث السياسية الدولية العاصفة والمنعطفات التاريخية المفصلية التي شهدها النصف الثاني من القرن الماضي، وإنما هي إفراز لموروث ثقافي متجذر مشحون بتصورات ذهنية سلبية جاهزة وناجزة تجاه الإسلام والمسلمين، شكلتها عوامل متعددة تمتد من الديني إلى السياسي مروراً بالتاريخي والثقافي والجيوستراتيجي، ويوظفها اليوم دعاة صدام الحضارات وقادة حروب الأفكار والإيديولوجيات في الترويج لصورة نمطية مسيئة للإسلام والمسلمين، في تجاوز سافر لمبادئ الاحترام المتبادل وقيم التعدد الثقافي، ينطلق من نزعة تمركز مرضية حول الذات الحضارية تتجاهل الغنى والتنوع الذي يعد إرثا مشتركاً للإنسانية، وتتنكر للتعدد الثقافي الذي ساهم التلاقح الحضاري الإسلامي عبر التاريخ في إرساء دعائمه في تفاعل ثقافي أغنى الحضارات الإنسانية.

وإذا كان هذا التفاعل قد تميز في محطات تاريخية عديدة بطبيعته الصراعية التي حادت به عن منهج التدافع، فإن الزعم بحتمية الصدام بين الحضارات بذريعة الإرث التاريخي المثقل بالصراع والمثخن بالجراح هو تعبير عن الفشل في إدارة التنوع والتعدد، وفي تدبير الخلاف والاختلاف وفق منهاج التدافع السلمي، بوصفه سنة من السنن الكونية التي بثها الله تعالى في الخلق والكون، والتي تقضي بالتنوع الثقافي والتعددية الحضارية والعيش المشترك. تلك السنة الكونية المفضية إلى تحقيق الاستخلاف في الأرض وإعمارها وتعزيز المشترك الإنساني بوحدة الأصل والمصالح وفق رؤية إنسانية تكفل الحق في الاختلاف، وتضمن التنوع والتعدد وتفتح آفاق كونية رحبة من التعاون والتعايش، والفهم والتفاهم، والتعارف والتآلف، والتدافع السلمي والتضامن الإنساني، وهي الرؤية التي جندت الإيسيسكو طاقاتها من أجل بلورتها وتعزيزها في النظم الفكرية والتربوية والثقافية في الدول الأعضاء، بما يضمن للثقافة

الإسلامية استرجاع دورها الريادي في الإسهام في مسيرات الحضارات الإنسانية، واستمرار إشعاعها الكوني، ولصورة الإسلام لدى الآخر استرجاع نصاعتها وبريقها، فعملت على تضمين خطط عملها المتعاقبة برامج وأنشطة تستهدف تحقيق هذه الأهداف، فكان أن وجهت الإيسيسكو اهتمامها نحو تصحيح المعلومات الخاطئة عن الإسلام، وتفعيل دور الأقليات والجاليات المسلمة والجمعيات والمراكز الثقافية الإسلامية خارج العالم الاسلامي، في مواجهة الاسلاموفوبيا وتغيير الصور النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين، مع التركيز على إشراك الكفاءات المسلمة في الغرب في هذه الجهود في إطار تنفيذ "استراتيجية الاستفادة من الكفاءات المسلمة خارج العالم الاسلامي" التي أعدتها المنظمة الاسلامية، واعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي العاشر المنعقد في بوترجيا في ماليزيا عام 2003 وتم تكليف الإيسيسكو بمهام تنفيذها.

وفي هذا الإطار عملت المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة على تنفيذ مقررات هذه الاستراتيجية وتفعيل مضامينها، في سياق تفعيل "استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي خارج العالم الإسلامي" التي وضعتها الإيسيسكو وأقرها مؤتمر القمة الإسلامي التاسع المنعقد في الدوحة في نوفبر 2000.

ويأتي دعم الإيسيسكو لهذه الندوة ومشاركتها في تصحيح الصور النمطية المسيئة للإسلام والمسلمين إدراكا منها لقدرة العمل الثقافي على مواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا استنادا إلى الإطار العام لبرنامج العمل الخاص بالرد على حملات التشويه الإعلامي للإسلام والحضارة الاسلامية الذي صادق عليه المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة المنعقد في الجزائرفي ديسمبر 2004، وعهد إلى الإيسيسكو بالإشراف على تنفيذه، وبوضع آليات تفعيله، وهو الإطار الذي اعتُمد كوثيقة مرجعية لخطة العمل حول تصحيح صورة العرب والمسلمين التي تقف على إعدادها المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ومنظمة التعاون الإسلامي، وجامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والبنك الاسلامي للتنمية.

أصحاب الفضيلة والسعادة، حضرات السادة والسيدات.

إن الجهود المبذولة في مواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا في ظل اختلال موازين القوة الإعلامية بين الدول المتقدمة والبلدان النامية مازالت قاصرة عن جعل الشعوب الغربية تتمثل حقيقة الإسلام والثقافة الاسلامية، مثلما أن الشعوب والنخب الإسلامية في الغالب العام لا تتمثل حقيقة الغرب والحضارات الغربية إلا عبر ما يرد إليها عنه

من مادة إعلامية على اختلاف أهداف منتجيها وقنوات تصريفها، وهو ما يجعل العلاقة بين الغربي والإسلامي متأثرة بالصور النمطية والتمثلات المتخيلة.

وفي ظل هذه التمثلات أضحت العلاقة محكومة بثنائية النفي والإثبات، وهي ثنائية قاتلة من منطلق أن الذات لا تتحدد إلا بنفي الآخر والعكس صحيح، وهو ما يسمح لهذا الصراع بين التمثلات بتمهيد الطريق أمام ما يروجه منظرو صدام الحضارات. وما الإسلاموفوبيا التي نناقش موضوعها اليوم إلا نموذج تفسيري يعكس ما يختزنه اللاوعي الجمعي الغربي من تمثلات عن الإسلام والمسلمين، ويكشف عن نفسه كلما سعى منظرو الحروب المقدسة الجديدة إلى التلويح بها أو الترويج لها أو إشعال فتيلها، فالجهل بالإسلام وقيمه وحضارته ليس مردُّه إلى نقص المعرفة وحسب، وإنما ثمة جهات مغرضة تبذل قصارى جهودها لإعادة إنتاج الصور النمطية التي اختزنتها الذاكرة الغربية القروسطية وتعمل على رسوخها، في محاولات لجعل صراعات التاريخ على قلتها عائقا أمام بناء المستقبل، اعتقاداً من هذه الجهات أن تشويه صورة الإسلام والتخويف منه ستخدم مصالحها الحيوية وأهدافها التوسعية.

وهي تدرك أن الحاجة إلى الاحترام المتبادل بين الأمم والتعايش بين الشعوب، والحوار بين الثقافات، وتعزيز المشترك الإنساني في عالم العولمة لا تنحصر فقط في الدوافع الجيوسياسية أو الاقتصادية او الأخلاقية، وإنما ترتبط أساساً بسؤال الوجود نكون أو لا نكون. وحتى نكون كما أراد الله تعالى لنا أن نكون مستخلفين في الأرض لإعمارها لا لتدميرها فإن على أمم الأرض أن يحترم بعضها بعضاً، بتفكيك الصور النمطية، وإعادة هندسة المخايل الجمعية، وهو ما لا يتأتى إلا عبر الاستثمار في الثقافة والتربية، وذلك بتوجيه المنظومة التربوية والسياسات الثقافية إلى إقرار التنوع والتعدد والاختلاف، وبناء فضاءات من الثقة المتبادلة لتحرير العقول من آثار الصور النمطية والتصورات الذهنية، وانتشالها من ظلمات اللاوعي إلى أنوار الوعي، وهو ما تسعى الإيسيسكو إلى الإسهام به عبر تنفيذ برامج مشتركة مع الجهات التي تخول لها اختصاصاتها الاضطلاع بهذه المهمة من قبيل منظمة اليونيسكو.

ومع إدراكنا بأن الطريق شاق وطويل فإن هذا لا يثنينا عن المضي قدما في مسالكه، ولعل أولى الخطوات التي قطعتها الإيسيسكو في هذا السَّبيل إقدامها على استكتاب خبراء من أوروبا ودول العالم العربي لإعداد الدليل الاسترشادي حول تحسين صورة ثقافة الآخر في كتب التاريخ المدرسية في أوروبا والعالم العربي والاسلامي،

بتعاون مع اليونيسكو وجامعة الدول العربية والألكسو ومؤسسة انا ميد الأورومتوسطية للحوار بين الثقافات، والمركز الثقافي السويدي.

أصحاب الفضيلة والسعادة حضرات السيدات والسادة.

لا بد لي قبل اختتام هذه الكلمة من أن أشكر السادة الأساتذة المشاركين في هذه الندوة على ما بذلوه من جهد في إعداد أوراق العمل التي ستكون مادتها العلمية محور أعمالها ومناقشتها، وستغني نتائجها وتحقق الأهداف المتوخاة من عقدها. وفي الختام نسأل الله تعالى أن يلهمنا التوفيق والسداد والحكمة والرشاد لتحقيق الأهداف المرجوة من هذه الندوة خدمة للسلام ولصورة الإسلام وللأمة الإسلامية وللإنسانية جمعاء. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة
مركز الدراسات والأبحاث
في مجال تصحيح صورة الإسلام / فاس

الدكتور حسن عزوزي (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد نائب رئيس جامعة سيدي محمد بن عبد الله

السيد ممثل المنظمة الاسلامية للتربية و الثقافة والعلوم

السيد النائب الأول لرئيس مجلس مدينة فاس

السيد ممثل مؤسسة روح فاس

السيدة ممثلة المندوب الجهوي لوزارة الثقافة

أيها السادة والسيدات :

إن تنظيم هذه الندوة الدولية في موضوع (ظاهرة الاسلاموفوبيا وسبل التعامل معها) نابع من رؤية واضحة في الموضوع، ذلك أن الاقتناع بوجود الظاهرة التي مفادها أن هناك خوفا مرضيا من الإسلام لا يحتاج إلى الرجوع إلى دراسات علمية وأكاديمية في الموضوع، ولكن يكفي أن يلاحظ المرء المتابع لطبيعة علاقة الإسلام بالغرب في السنوات الأخيرة مدى التوجس الذي يعبر عنه الغربيون تجاه الإسلام في مختلف المحافل والمنابر، سواء كانت سياسية مثل تصريحات بعض الساسة الغربيين التي مهما اعتبرت فلتات لسان إلا أنها في واقع الأمر تفصح عما يجيش في النفوس، أو كانت دينية مثل تصريحات البابا والقس فرانكلين جراهام وغيرهما. أو كانت إعلامية كما تعبر عنها يوميا مختلف وسائل الإعلام الغربية بالصوت والصورة والكلمة وحتى الكاريكاتير.

(*) رئيس مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام، بفاس.

إنها فعلا ظاهرة واقعية وليست متخيلة، والذين يعجزون عن متابعة ورصد حيثياتها وملابساتها، وبالأحرى التعامل معها ومواجهتها، هم الذين يستمرئون التهوين من شأن الظاهرة والتقليل من حجمها والتوهم بأنها ظاهرة متولدة من الداخل الإسلامي نتيجة الإحساس بتقدم الآخر وهيمنة حضارته. ولا شك أن الذين يعتقدون هذا الاعتقاد ينطلقون من تعميم نظرية المؤامرة التي أفرزها بعض المفكرين الإسلاميين أواخر القرن الماضي والتي تفيد ميل الكثير منا إلى تعليق أخطائنا وعيوبنا وعجزنا على مشجب المؤامرة الغربية، أي أن الغرب هو الذي يسعى دائما إلى إبقائنا متخلفين عاجزين ومتواكلين. لقد اعترف كثير من الغربيين العقلاء والمنصفين بوجود الظاهرة سواء من خلال مؤلفات أصدروها أو من خلال تصريحات عبروا عنها أو غير ذلك. بل إن هنالك تقريرا بريطانيا صادرا عن لجنة تضم عددا من المفكرين البريطانيين يحمل إسم (المسلمون البريطانيون والإسلاموفوبيا) يثبت أن الإسلاموفوبيا ظاهرة خطيرة في بريطانيا.

وتعد هذه الظاهرة من الظواهر الجديدة التي اقترنت بتصاعد موجة العنصرية والكراهية للإسلام من خلال تسريب وتكريس نوع من الخوف المرضي والقلق النفسي واللاشعوري من هذا الدين الذي أضحى يخيف الغربيين ويرتابون منه. ولا يخفى الدور الخطير الذي قامت وتقوم به دوائر كثيرة معادية للإسلام والمسلمين لعل أخطرها دائرة الإعلام الغربي من جهة ودائرة الخبراء الاستراتيجيين من جهة أخرى.

فوسائل الإعلام الغربية بمختلف مكوناتها تعتمد على هؤلاء الخبراء الذين هم في غالب الأحيان إما أساتذة العلوم السياسية والاجتماعية أو خبراء في معاهد الدراسات الإستراتيجية التي يشرف عليها صناع القرار الغربيون. إن معرفة هؤلاء بالإسلام سطحية للغاية، لكن لهم دراية وخبرة في اقتناص وتصيد كليشيهات معينة عن الإسلام صاغها المستشرقون التقليديون في كتبهم أو تناقلتها وسائل الإعلام الغربية، وبذلك يكون الإسلام هدفا مستساغا من أجل تكوين وعي محدد عنه يتلاءم ومصالح الغرب ومطامحه. وبهذا يسهل تحقيق عملية "كيفية الصنع والتصوير". وتحديد طبيعة المعرفة الواجب تشكيلها عن العالم الإسلامي، وهي معرفة بالغة السلبية وموغلة في نهج أسلوب التخويف والترويع. وإذا انتقلنا إلى وسائل الإعلام الغربية المعاصرة وجدناها أخطر المؤسسات التي تسهم في تشكيل صور نمطية عن الإسلام وتكوينها، وإذا كانت هي بدور ها ترتكز على ما يفرزه الخبراء الإستراتيجيون وجهات ومصادر أخرى فإنها تعيد صياغة تلك الصور الذهنية وحبكها بما يجعلها

أكثر إثارة وجاذبية، فهي بما تمتلكه من إمكانات جبارة وقدرة هائلة على الانتشار وقوة الجذب والتأثير تعمل على جعل المادة الإعلامية التي تصنع بها الصور النمطية المسيئة مادة جماهيرية يتلقفها المشاهدون أو القراء فيتأثرون بها وترسخ في أذهانهم بشكل طبيعي وتلقائي.

ولا شك أن استمرار وجود صور سلبية عن الإسلام والمسلمين في الغرب واتساع دائرة انتشار الاسلاموفوبيا، كل ذلك له عواقب وخيمة وتترتب عنها سلبيات كثيرة، ليس أقلها كونها قد تصرف كثيرا من الأجيال اللاحقة عن تقدير مكانة الحضارة الإسلامية والاستفادة من معطياتها، ولذلك فإنه ينبغي السعي قدما نحو تحسين الصورة وتصحيحها والعمل على مواجهة ظاهرة الاسلاموفوبيا، فذلك يعتبر واجبا دينيا وضرورة ثقافية فضلا عن كونه مطلبا واقعيا يستدعي منا جميعا تحمل مسؤولية تبليغ صورة الإسلام الأصيلة والحقيقية لأننا أصحاب رسالة وشريعة وينبغي أن لانيأس من تبليغها للآخرين استجابة لقوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾.

بصفة عامة يمكن القول بأن الحديث عن صناعة العداء للإسلام ليس فيه شيء من التهويل أو التضخيم، بل يرتبط بواقع لا يرتفع، فالأمر لا يتعلق بالاستيعاب الصحيح او الخاطئ إن ازدياد عن الإسلام، ولكن هناك حقائق تغذي مشاعر العداء في الغرب.

فازدياد أعمال العنف والتطرف التي تقوم بها بعض الجماعات المنتسبة إلى الإسلام يدفع الغربيين إلى الشعور بالخوف من أن تنتشر في بلدانهم الأحداث الإرهابية، ولذلك اتسع النقاش في مختلف الدوائر السياسية والإعلامية والثقافية حول الإسلام كعدو حل محل العدو الشيوعي الذي انهار أوائل التسعينات، بيد أن الذي لا يكاد يفهمه ويستوعبه الغربيون أن الذين يقومون بهذه الأعمال الإرهابية لا يمثلون الإسلام كما أن وجماعة الباسك الاسبانية والإيرا الايرلندية لا تمثلان المسيحية.

إن الحملات الإعلامية الخطيرة التي عرفناها في السنوات الأخيرة والتي كان آخرها تداعيات الاستفتاء السويسري الذي قضى بمنع بناء صوامع المساجد أجَّجت بقوة ظاهرة الاسلاموفوبيا حتى أضحى الإسلام أكثر الأديان تعرضا للتشويه والتزييف كما أن العرب والمسلمين أصبحوا من أكثر شعوب الأرض حظا من الازدراء والتمييع.

إننا لا ننكر أننا في عالمنا الإسلامي نتوفر على طاقات علمية وفعاليات فكرية كبيرة لكن الذي ينقصنا هو التنسيق بين هذه الطاقات والعمل على مواجهة الظاهرة

وفق تخطيط استراتيجي وعمل جماعي. وأعتقد أن الإطار الذي يمكن أن يحتضن هذه الجهود هي المنظمات الإسلامية الدولية والهيئات الفاعلة في هذا المجال. وبذلك فالباحثون في مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام واعون بأنه مهما تم تنظيم ندوة أو ندوتين لا يمكن تحقيق المراد، لكن الذي نطمح إليه هو استقطاب خبراء في الموضوع ومهتمين بقضايا تصحيح صورة الإسلام يمكن أن تستعين بهم المنظمات الإسلامية الدولية، ولنا تجربة رائدة في هذا المجال. فالمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الايسيسكو) تستعين ببعض خبراء المركز في مجال تصحيح صورة الإسلام. ومعنا اليوم من المشاركين في هذه الندوة ضيوف من دول أوروبية من الكفاءات المسلمة المقيمة في الغرب معظمهم من رؤساء المراكز الثقافية الإسلامية يعول عليهم كثيرا في القيام بهذه الجهود لأنهم يعتبرون الأقرب إلى الغربيين والأوفر حظا في التخاطب والحوار معهم، ولذلك فالأمل معقود على هذه العقول والكفاءات المستقرة في الديار الغربية. كما أن الأمل معقود أيضا على علماء ومفكري المسلمين الذين يسهمون في إبراز الإسلام الصحيح وتجلية المبادئ والقيم النبيلة لديننا الحنيف التي يحتاج الغربيون إلى معرفتها واستيعابها.

إننا متشوفون إلى الاستفادة من عروض السادة المشاركين في الندوة سواء من علمائنا ومفكرينا داخل العالم الإسلامي أو من إخواننا القادمين من خارج المغرب من فرنسا وإسبانيا وانجلترا والدانمارك والسعودية والإمارات العربية وغيرها. ولا شك أنه يكفي إلقاء نظرة على برنامج الندوة الموجود بين أيديكم لكي تتضح لكم أهمية هذا اللقاء ولكي يتبين لكم مدى الطموح الذي يحملنا جميعا في أن تخرج هذه الندوة بتوصيات ونتائج مفيدة عسى أن تفتح أبوابا وآفاق جديدة للقاءات أخرى ضمن محطات للتعاون والتشاور والتواصل مع جهات أخرى يحدوها نفس الاهتمام والطموح.

لا أريد أن أطيل عليكم لكن أود أن أنهي كلمتي بتوجيه الشكر الجزيل إلى جميع المشاركين الذين قدموا إلينا من أماكن بعيدة سواء من داخل المغرب أو خارجه، وقد عبر لي بعض الإخوة المشاركين من المشرق أن الفضاء العلمي بالمغرب معروف بدراسة وبحث مثل هذه الموضوعات المرتبطة بعلاقة الإسلام بالغرب وبالتالي فهم متشوفون إلى الاستفادة، وأقول لهؤلاء إن جلالة الملك محمد السادس نصره الله قد دعا في كثير من خطبه بصريح العبارة إلى ضرورة مواجهة العلماء والمفكرين لظاهرة "الاسلاموفوبيا "والعمل على تصحيح صورة الإسلام، بل إننا قد عمدنا في المركز إلى

جمع وطبع المقتطفات التي تنص على ذلك فبلغت خمسة عشر خطابا ملكيا ورد فيه ما يدعو إلى الاهتمام بالموضوع.

إن الجهود المبذولة في بلادنا جهود فردية ومعزولة لذلك نأمل أن يكون هناك تنسيق متكامل بين مختلف المراكز البحثية والمنظمات الإسلامية الدولية المهتمة بالموضوع وذلك من أجل تحقيق وإنجاز خطط عمل ومشاريع بحثية تنضج ما يفيد مجال تصحيح صورة الإسلام ومواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا. ولا يفوتني في الختام أن أشكر جميع الجهات المتعاونة والداعمة وأخص بالذكر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة وجامعة سيدي محمد بن عبد الله ومؤسسة روح فاس ومجلس مدينة فاس والمندوبية الجهوية لوزارة الثقافة وغيرها.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة مجلس مدينة فاس

الدكتور علال العمراوي (*)

السيد رئيس مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام بفاس
السيد نائب رئيس جامعة سيدي محمد بن عبد الله
السيد نائب رئيس المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة
السيد ممثل مؤسسة روح فاس
السيدة ممثلة وزارة الثقافة

في البداية اسمحوا لي باسم السيد عمدة مدينة فاس الأستاذ حميد شباط، أن أشكر المركز على تنظيم هذا الملتقى وأن أرحب بضيوفنا الأجلاء، أصحاب المعالي والفضيلة.

أيها السيدات والسادة،

إنه لمن دواعي سروري وغبطتي أن أحضر مع هذه الثلة من العلماء والمثقفين المخلصين لمناقشة موضوع بالغ الأهمية في عصرنا الحاضر، ألا وهو عقدة الخوف من الإسلام.

وما يثلج الصدر أيها السادة، إحساسي بالغيرة التي تملأ صدر كل واحد منكم على صورة الإسلام واستعدادكم لبذل الجهد من أجل أن تبقى هذه الصورة نقية، ناصعة البياض.

(*) النائب الأول لرئيس مجلس مدينة فاس.

أيها السيدات والسادة،

إن أعظم نعمة أنعمها الله على البشرية جمعاء هي نعمة الإسلام، وأفضل تكريم مَن به الله على بني آدم هو عقيدة التوحيد، وأكمل نور تجلى به الخالق على المخلوقين هو نور القرآن، قمة الرشد والرقي الروحي، وأكرم هدية تفضل بها المولى على الإنسانية، هي رحمته المهداة للعالمين محمد ﷺ.

كان من الممكن أن تتضاعف ثمرات هذه النعم، وتترادف آلاؤها، لو بقيت العقيدة في صفائها وقدسيتها. لكن العقيدة الطاهرة خالطها من الأفكار البشرية ما شابها، وعبثت بها من الآراء والأحوال ما خرج عن بساطتها وإشراقها، (وذهب بجمالها وجلالها).

وتتابعت موجات التطرف وحركات التمرد والهجمات الشرسة على أسلوب الوسطية ونهج الاعتدال، وعم الظلام المادي كل ناحية من نواحي الحياة، وطغى الضلال طغيانا لا قبل لأحد بمقاومته.

وأصيبت صورة الإسلام الناصعة البياض بهزة عنيفة، وتشكلت بدلها صورة بشعة، أسقطت الأمة في أزمة حادة.

وليس مفاجأة أن تصبح الفرصة بعد ذلك سانحة لأعداء الإسلام التقليديين الذين لم يخل منهم أي عصر من العصور، لكي ينفثوا سمومهم، ويبرروا كراهيتهم، ويروجوا أكاذيبهم، منزعجين من الحضور الإسلامي الكبير في الغرب حتى أصبح ديانته الثانية.

أيها السادة،

لقد أصبحت صورة الإسلام حتى عند الرجل الغربي المعتدل والمتفتح الرشيد، أقرب إلى السلبية منها إلى الايجابية، وأخذت شكل التحفظات والمخاوف.

ووجدت هذه الصورة من يؤصل لها ويدعو لها ويوفر لها أوراق التوت لتستر من خلفها عورة الكراهية والعداء.

فورقة التوت تارة هي الإرهاب الذي يرفضون حتى الآن إعطاء تعريف واضح لمفهومه. لتتم الاستفادة من غموض المصطلح، ويتم استخدامه استخداما استراتيجيا.

ورغم الانتقادات الموجهة لصدقية المصطلح ولاستعمالاته إلا أن ذلك لا يعني ضرورة الكف عن استخدامه.

وورقة التوت الأخرى تتعلق في نظرهم بتصور الإسلام لحقوق النساء، وطرائق الزواج، والعلاقة بين الجنسين، والعلاقات الأسرية الأخرى، ومسألة الديمقراطية وتداول السلطة.

أما ورقة التوت الثالثة فهي تشبثهم بحرية التعبير وحرية النقد، فصوغ المواقف النقدية سواء بصورة استفزازية أو حادة في نظرهم يجب أن يكون ممكنا، ومتاحا في مجتمع حر، ولا يجوز عزل المفاهيم الدينية أو استثناؤها.

أيها السيدات والسادة،

بالرغم من ارتفاع أصوات منددة، إلا أنها أصوات لم تبلغ مداها. ولم تحقق أهدافها، لأنها في غالبيتها لا تملك الإقناع، ولم تسلك سبل التفكير الهادئ للخروج من هذه الوضعية بإحداث آليات تقود بفعل اشتغالها إلى تصحيح الصورة الذي سيأتي عن طريق التدرج الواثق الخطوات، وعن طريق إنشاء الجسور الجديدة أو ترميم ما تهدم منها لفتح آفاق جديدة للحوار وتأسيس علاقات متينة مبنية على الثقة المتبادلة فليس في وسع الأمة الانعزال ولا في استطاعتها الاستغناء عن الآخر.

التحديات اليوم أصبحت أكثر ضراوة وخطرا لما تلبسه من لبوس علمي ومنطقي خادع في كل ما تطرحه من مقولات وأسئلة.

أيها السيدات والسادة،

إن الإسلام دين حضاري ومن مستلزمات ذلك أن تنفتح موضوعاته كلها على كافة الأسئلة المطروحة. ولايجوز أن يتسم علماء الإسلام بالغياب أو الحضور المتناقض أو يسيطر عليهم التقليد والجمود. ولابد من التنبيه إلى ضرورة تكوين جبهة علمية واعية مخلصة، للتصدي والدفاع عن حياض الأمة الثقافية، لا من موقع ردة الفعل، بل من موقف الحق الذي يتفحص الأمور بعين مجردة، تماما كما يفعل الطبيب الحاذق الذي لا يألو جهدا في بذل حكمته للحيلولة بين المرض والإنسان.

ليس صحيحا ولا مجديا أن نتصرف و كأن الأمة بعافية حضارية كاملة وأن كل ما نحتاج إليه هو تحسين صورتها في الخارج، بل إن تصحيح النظرة إلى الذات مقدم على تصحيح نظرة الآخر إلينا. فنحن لا نستطيع تكوين صورة صحيحة لدى الآخر إلا إذا كنا نملك صورة صحيحة عن ذواتنا.

إن المسلمين الأوائل، عندما تشبعوا بقيم دينهم الحنيف، لم يكونوا يتحرجون مما يعد في دينهم كفرا بواحا وضلالا مبينا، بل انطلقوا إلى الانفتاح على ثقافات عصرهم

التي كانت في عمومها ثقافة مناقضة لما يعتقدون، غير آبهين بما يقوله الآخرون ما داموا قد آووا إلى ركن شديد من العقيدة الصافية، والتفكير السليم، فنظروا إلى آيات الله في الاختلاف، نظرة المؤمن الواثق المتفكر الذي لا يخاف من أية فكرة، مادام عقله قد تشبع بقيم الشجاعة العلمية ونفسه قد هدأت من حيرتها، يرفض ما يتعارض مع الإسلام بالحجج العقلية والبراهين المنطقية يقبل ما يقبله العقل ويتماشى مع العصر.

أيها السادة،

إن من فضل الله على هذا البلد الأمين، أن العقيدة لا تزال فيه كما هي في صفائها ونقائها وبساطتها وقدسيتها. ورسالة الإسلام لازالت تعمل على تبديد الظلام، وإشاعة النور، وتثقيف العقول وتطهير القلوب وتقويم السلوك، والتوجيه إلى المثل العليا، والقيم الصالحة، تحت القيادة الرشيدة لمولانا أمير المؤمنين، سبط النبي الأمين، الذي لا يدخر جهدا من أجل رسم صورة مشرقة للمسلم المعاصر وذلك بتخطيطه لمسيرة النماء، وفتحه لأوراش الازدهار، وإطلاقه للمبادرة الوطنية للتنمية البشرية، إلى جانب اهتمامه بتعليم القرآن، وتشجيعه لعلوم الإسلام، واعماره للمساجد وحضوره للجمع.

باسم عمدة مدينة فاس ومنتخبيها، أشكركم على تطرقكم لهذا الموضوع المهم ،خاصة ونحن جميعا نواجه تحديات هذا العصر.

ومدينة فاس العالمة، مدينة القرويين، ستبقى دائما وفية لما عاهد الله عليه مؤسسها المولى إدريس رضي الله عنه، تحت قيادة إمارة المؤمنين.

﴿ **إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يوتكم خيرا** ﴾ صدق الله العظيم، والله ولي التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة رئيس
جامعة سيدي محمد بن عبد اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

أصحاب المعالي أصحاب الفضيلة

حضرات السادة والسيدات الحضور الكريم.

يسعدني ويشرفني أن أشارككم اليوم افتتاح هذه الندوة العلمية الهامة المنظمة من قبل مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام بفاس في موضوع **" ظاهرة الاسلاموفوبيا وسبل التعامل معها"**. إن الموضوع الذي اختاره المركز لهذه الندوة له أهمية أساسية ولا سيما في زماننا هذا الذي يتعرض فيه الإسلام والمسلمون لشتى أنواع الهجمات والتهديدات. لقد أثيرت في الآونة الأخيرة ظاهرة الإسلاموفوبيا التي تدل على الخوف الذي لا مبرر له من الإسلام والتي تستخدم أيضا لتعميم التعصب والتحيز ضد المسلمين واحتدم حولها جدل واسع في مختلف الأوساط الفكرية والدينية والإسلامية والغربية منها على حد سواء حيث تعددت الآراء وتباينت وجهات النظر حول الظاهرة وأسبابها وتداعياتها وكيفية علاجها.

لقد نال المصطلح درجة من القبول اللغوي والسياسي إلى حد قام معه الأمين العام للأمم المتحدة برئاسة مؤتمر بعنوان **" مواجهة الفوبيا من الإسلام "** في دجنبر 2004 فضلا عن إدانة قمة المجلس الأوروبي للفوبيا من الإسلام في مايو من نفس السنة، وفي دراسة له عام 2005 بعنوان " الاسلاموفوبيا وتأثيره على الشباب" اعترف المجلس الأوروبي بأن الاسلاموفوبيا تشكل انتهاكا لحقوق الإنسان وخطرا على التماسك الاجتماعي في المجتمعات الأوربية بحيث تشير الدراسة إلى أن الاسلاموفوبيا تعني التخوف والأحكام المسبقة تجاه الإسلام والمسلمين سواء تم التعبير عن ذلك بأشكال

اليوم للعنصرية أو التمييز أو في أشكالها الأكثر عنفا. فالاسلاموفوبيا هي انتهاك لحقوق الإنسان وتشكل خطرا على التماسك الاجتماعي. والواقع أن صعود الاسلاموفوبيا هو انعكاس لمشاعر سلبية عميقة مدفونة في وعي المواطن الغربي ضد الإسلام كدين وضد المسلمين وحضارتهم. كما أن التغيرات المجتمعية الكبرى التي لحقت بالمجتمعات الغربية خلال العقود الأخيرة وعلى رأس هذه التغيرات تراجع قوى اليسار الغربي التقليدية التي سادت خلال النصف الثاني من القرن العشرين وصعود قوى اليمين المتطرف في الغرب قد ساهمت في تفاقم هذه الظاهرة.

ومع كل هذا فإن الفوبيا من الإسلام والمسلمين ليست وليدة اليوم وإنما هي موجودة في الغرب منذ عدة قرون حيث سعت نسبة هامة من ساسة القرن إلى رسم صورة سيئة عن الإسلام وذلك منذ الفتح الإسلامي الغربي للأندلس ووصول المسلمين إلى مشارف أوروبا ولجؤوا حديثا إلى حيلة تخويف شعوب الغرب من الإسلام وربطه بالإرهاب وذلك لوقف المد الإسلامي الذي انتشر في أوروبا بشكل مقلق لهم وتزايد عدد المسلمين بها. وتخدم هذه الوضعية أول ما تخدم الأوساط الصهيونية ولا سيما بعد أحداث 11 شتنبر2011م من خلال نشر الرعب من الإسلام ونشر فكرة أنه خطر على العالم بهدف السعي إلى التفات القوى الغربية حولها. ودعمها ماديا وعسكريا وسياسيا ولفت النظر عن المجازر التي ترتكب في فلسطين. والواقع أن هناك جهلا صارخا بحقيقة الإسلام لدى المواطن الأوروبي العادي الذي يتلقى معلوماته على الإسلام من مصادر قد تفتقد في كثير من الحالات إلى الموضوعية والنزاهة والتجرد. كما أن هناك إصراراً من الجانب الغربي لفرض ثقافته في ظل العولمة الثقافية على العالم الإسلامي وتنميط القيم ومحاولة جعلها واحدة لدى البشر في المأكل والمشرب والملبس والعلاقات الأسرية وبين الجنسين وفي كل ما يتصل بحياة الإنسان الفردية والجماعية وخصوصا قيم الاستهلاك التي تعتبر إحدى وأهم ركائز الاقتصاد كما أن ظاهرة الاسلاموفوبيا في كليتها إنما تستهدف تعميق العداء التاريخي بين الإسلام والغرب بما يحقق تواصلا زمنيا بين تفاصيل الماضي ومعطيات الحاضر وتعد في الآن ذاتها أحد أهم المرتكزات لنظرية صدام الحضارات الساعية لتقديم رؤية تعمل على ضرورة إحلال الصدام المستقبلي بين الإسلام والحضارة الغربية. فالمسألة ليست خوفا بالمفهوم التقليدي للخوف، إنه خوف استراتيجي حيث ألف السياسيون في الغرب دق ناقوس الخطر كلما ازدادت مخاوفهم بمجرد بزوغ قوى جديدة تنافسهم، معتمدين في ذلك على صناعة الوهم وصياغة الخوف بحيث ترتكز دبلوماسيتهم على فكرة تحرير

العالم الغربي مما يسمونه الخطر الأخضر بعد انتهاء الخطر الأحمر بانهيار المعسكر الشرقي وسقوط جدار برلين كموقف يخدم إستراتيجية معينة ومرجعية سياسية معينة. كما أن الاسلاموفوبيا هي جزء من سياسة تصنيع الخوف التي برع فيها تاريخيا المجمع العسكري الصناعي السياسي الغربي بهدف تبرير سياسة الإنفاق الهائلة على كل جديد في عالم السلاح والعتاد الحربي والإنفاق العسكري عامة، ولعل وسائل الإعلام الغربية السمعية والبصرية والمكتوبة هي بدون جدال أخطر الأجهزة والوسائل التي تعمل على تشكيل وتكوين صور نمطية عن الإسلام والمسلمين بما لها من وسائل وعتاد، وما لها من إشعاع وقدرة على التأثير. ويجب الاعتراف أن من بين الأسباب التي زادت من هول هذه الهجمة على الإسلام قدرة هذا الدين على الانتشار والامتداد كدين كاسح له قابلية التنامي والانتشار بسرعة مذهلة وإقبال الغربيين على اعتناقه بكثافة وبكل تلقائية وطواعية واقتناع، وكذلك تزايد أعداد العرب والمسلمين وأبنائهم وأحفادهم في البلدان الغربية ودخول نخبة منهم إلى البرلمانات الأوروبية والمجالس المحلية وغيرها. ولا ينكر أحد ما تقوم به بعض الجهات الرسمية والمؤسسات الإعلامية والمنظمات الإسلامية وعلى رأسها الايسيسكو من واجب لمكافحة هذه الظاهرة والعمل على تصحيح المعلومات عن صورة الإسلام لكن الواجب يفرض أيضا القيام برسم خطة محكمة لرصد كل الحملات والانتهاكات الإعلامية التي تمارس ضد الإسلام والمسلمين بهدف البحث عن أسبابها وخلفياتها ثم مواجهتها والتصدي لها. وهنا لا بد أن يسعى إعلام البلدان الإسلامية إلى نشر رسالة الإسلام الصحيحة وتبليغها إلى كل من يحمل أفكاراً مشوهة عنها، كما أن عليه أن يتصدى للحملات التي تربط بين الإسلام والإرهاب. ولقد بات من الضروري أيضا التحرك العربي والإسلامي لدى الدول الغربية واتخاذ الخطوات المحددة وخصوصا على إثر ما ورد في خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما في جامعة القاهرة حول تصحيح المفاهيم الأمريكية الخاطئة عن الإسلام وكذلك السعي المشترك من الجامعة العربية ومنظمة التعاون الإسلامي لاستصدار قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة يقضي بضرورة احترام الرموز الدينية والمقدسات ورفع الالتباس لدى الرأي العام الأمريكي والغربي الذي يخلط الدين الإسلامي عن قصد بالإرهاب والاستفادة من المرصد الذي أنشأه المؤتمر الإسلامي لظاهرة الإسلاموفوبيا وربطه بموقع إلكتروني تساهم فيه فعاليات المنظمات المتخصصة في كل من جامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الإسلامي، كما أن هناك ضرورة لمشاركة مراكز الفكر والأبحاث والجامعات والمجتمع المدني والمؤسسات المؤثرة في مجهودات تصحيح صورة الإسلام والمسلمين.

وللجامعة المغربية دور مهم تجاه الإسلام انسجاما مع مقتضيات المادة الأولى من القانون 0001 المنظم للتعليم العالي والتي تنص على أن التعليم العالي في بلادنا ينمو ويتطور في إطار التمسك بمبادئ العقيدة الإسلامية وقيمها. كما أن المادة الثالثة من هذا القانون تنص على أنه تناط بالجامعات المساهمة في تعميق الهوية الإسلامية والوطنية كما تنص النقطة الأولى من القسم الأول من الميثاق الوطني للتربية والتكوين على أن نظام التربية والتكوين للمملكة المغربية يهتدي بمبادئ العقيدة الإسلامية وقيمها الرامية لتكوين المواطن المتصف بالاستقامة والصلاح المتسم بالاعتدال والتسامح.

وهذا علاوة على ما ينص عليه الدستور من أن المغرب دولة إسلامية ومن ثمَّ فإن كل مكونات الجامعة عليها واجب السعي إلى تحقيق أهدافها في إطار هذا التوجه العام المسطر وعلى صيانة الإسلام والذوذ عنه وحمايته من كل ما من شأنه أن يشوه صورته أو ينقص من قيمته.

وخلاصة القول فهذا الموضوع جد مهم وبالتالي فإننا نشكر مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام على هذه المبادرة وعلى المجهودات التي يبذلها لفائدة الإسلام وتصحيح صورته.

نتمنى لهذه الندوة المباركة التوفيق والنجاح وننتظر بشغف ما ستسفر عنه أشغالها.

وفقنا الله جميعا لما فيه الخير تحت القيادة الرشيدة لجلالة الملك نصره الله وأيده.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة مؤسسة روح فاس

نيابة عن الأستاذ محمد القباج رئيس مؤسسة روح فاس يشرفني أن ألقي هذه الكلمة وأشكركم في البداية على دعوة المؤسسة وإشراكها في هذا العمل النبيل. فكما تعلمون فمؤسسة روح فاس من خلال الأنشطة التي تقوم بها تعمل جاهدة على تكريس المبادئ السامية للحضارة المغربية والمبادئ التي كرست في مدينة فاس بالخصوص التي احتضنت أول جامعة في العالم وهي جامعة القرويين التي استقبلت مفكرين وعلماء من مختلف المشارب ومن مختلف الديانات والاتجاهات الفكرية. وكانت دائما فضاء للحوار والتسامح واستقبال الآخر. إن المتتبع لعلاقة الإسلام بالغرب يلاحظ بدون شك أن صناعة العداء للإسلام في الغرب هي في تزايد متفاقم حيث هناك في الدوائر الغربية من يعمل على تكريس الاتهام بأن الإسلام دين عنف وإرهاب. ونحن لا ننكر أن هناك من يعملون على إنصاف الإسلام، لكن يبقى أن أصحاب الصوت العالي هم صناع العداء للديانة الإسلامية ممن يرون أن الإرهاب ظاهرة ناشئة عن الإسلام ذاته ويربطون بين الإسلام والإرهاب في مزاوجة غريبة وغير مفهومة بل إنهم يسندون إلى الإسلام أفعال المنتسبين إليه من زمرة الخارجين عن مبادئه وأخلاقياته والذين يقدمون عبر وسائل الإعلام الغربية على أنهم يمثلون الإسلام وستمدون منه مرجعياتهم في ممارسة العنف والإرهاب. لقد سبق لهذه الاتهامات أن ترددت عبر التاريخ من خلال كتابات المستشرقين الحاقدين الذين لم يفهموا الإسلام على حقيقته لأنهم لم يتعايشوا معه. وكان هذا حاصلا فيما مضى، أما اليوم وفي ظل الانفتاح الكامل بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، وفي ظل إدراك بعض العقلاء الغربيين ومنصفيهم للفارق بين مبادئ الإسلام من جهة وبين مختلف التفسيرات والتأويلات التي ينتجها البشر من جهة أخرى، لم يعد مقبولا السعي إلى تشويه صورة الإسلام وتحريف الحقائق ليكون ذلك مبررا لإثارة الكراهية لهذا الدين والتخويف منه في إطار ما يعرف بالإسلاموفوبيا التي أحسن منظمو هذه الندوة الدولية عندما اعتبروها ظاهرة مستمرة نتيجة توالي التهجم على الإسلام والمسلمين انطلاقا من الاتهام النمطي لديننا بأنه دين العنف والإرهاب.

حضرات السيدات والسادة :

إن التشخيص والرصد المتواصل لمختلف مظاهر تشويه صورة الإسلام والمسلمين في مختلف وسائل الإعلام الغربية وغيرها هو أمر مهم لكن الأهم منه هو الاهتداء إلى أنسب الطرق وأكثرها تأثيرا لتصحيح تلك الصورة بواسطة تقنيات الاتصال الحديثة ووسائل الإعلام الجماهيرية الواسعة، إننا نتوفر كمسلمين على طاقات وكفاءات علمية من العلماء والمفكرين الذين يمكن التنسيق بين جهودهم في إطار مؤسساتي من أجل تحقيق مهمة التعريف بالإسلام باللغات الأجنبية لأن اللغة العربية لا تصل إلى الغرب. وكذا من أجل تصحيح الصورة النمطية السلبية عن الإسلام.

إن هذه الندوة الدولية التي ينظمها مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام بفاس حول ظاهرة الإسلاموفوبيا قد جاءت في الوقت المناسب بعد أن تكالبت مختلف الجهات والوسائل الإعلامية الغربية في السنوات الأخيرة على التهجم على الإسلام وتشويه صورته وتكريس سياسة الخوف والتخويف من الإسلام ونأمل أن تسهم العروض المقدمة في هذه الندوة في إجلاء واقع هذه الظاهرة في مختلف الدول الغربية والسعي نحو البحث عن أنجع السبل لمواجهتها والتعامل معها بالأساليب الناجعة.

كلل الله أعمال هذه الندوة بالنجاح وبارك جهود المنظمين والقائمين على المركز. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة المديرية الجهوية للثقافة بجهة فاس بولمان

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم المديرية الجهوية للثقافة بجهة فاس بولمان نشكر مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام بفاس على اختيار موضوع: "**الإسلاموفوبيا وسبل التعامل معها**"، وذلك في ظل ما يعرفه الإسلام من ظلم إعلامي ومن تحريف لمميزاته ومقوماته، هذه الظاهرة التي تعتبر من الظواهر الجديدة التي اقترنت بتصاعد موجة العنصرية والكراهية ضد الديانة الإسلامية، ويمكن أن يتأكد لنا ذلك من خلال استعمالنا كل يوم للشبكة العنكبوتية بحيث نكتشف كل يوم مواقع جديدة صممت خصيصا لمعاداة الإسلام والمسلمين وتحريف معالمه، فهي صناعة إعلامية وبضاعة سياسية عملت على تضخيمها دوائر كثيرة معادية للإسلام والمسلمين ولا شك أن بحوث ومداخلات الندوة ستهتم ببحث موضوعات تتصل بواقع هذه الظاهرة في كثير من البلدان الغربية ومعالجتها من خلال مراجعة الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين في الغرب.

أما على المستوى الثقافي فمما لا شك فيه أن الإسلاموفوبيا تعمل على تشويه الثقافة الإسلامية وتمييعها، وقد تَصْرِف كثيرا من الأجيال اللاحقة عن تقدير مكانتها والاستفادة من معطياتها، وهو ما يستدعي السعي الحثيث نحو تحسين صورة الثقافة الإسلامية وتصحيحها مما يعتبر ضرورة ثقافية فضلا عن كونه واجباً دينياً. وهو ما تمليه أيضا مسؤولية تبليغ قضايا الثقافة الإسلامية في أسسها العامة إلى من يجهلها أو يعاند في معرفة حقيقتها والاقتناع بها. وانطلاقا من غيرتنا على ديننا السمح وثقافتنا المتنوعة وعن دفاعنا عن الفكر الإنساني فنحن ندعم مثل هذه التظاهرات التي تعمل على تصحيح صورة الإسلام لدى من يجهلونها.

وشكراً.

كلمة اللجنة المنظمة

الدكتورة ناجية أقجوج (*)

الحمد لله الذي باسمه تفتتح اللقاءات المباركات، وبنعمته تنال الخيرات، وبفضله تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه وسلم.

السيد: رئيس مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام بفاس

السيد: نائب رئيس جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس

السيد: ممثل مؤسسة روح فاس

السيد: ممثل مجلس المدينة بفاس

السيد : ممثل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . ايسيسكو .

السيدة ممثلة المديرية الجهوية لوزارة الثقافة بجهة فاس بولمان

أصحاب الفضيلة والسعادة، حضرات السيدات والسادة

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته :

إن انعقاد ندوتنا هذه في موضوع :" ظاهرة الإسلاموفوبيا وسبل التعامل معها" يأتي في وقت تنامت فيه حملات التشويه والإساءة للرموز والمقدسات الإسلامية في الغرب، وتنوعت أساليب التشويه والتنميط والتخويف، وتفاقمت فيه عقدة الخوف من الإسلام، وتطورت صناعة الفوبيا تطورا فظيعا حيث اتخذت أشكالا متنوعة وفنونا مختلفة؛ كان آخرها الاستفتاء السويسري المنظم حول حظر بناء الصوامع في سويسرا.

(*) أستاذة بكلية الآداب - ظهر المهراز - بفاس وعضو المركز.

لذلك فإن العمل على معالجة الظاهرة، ودحض الخرافات والأراجيف التي تلصق بالإسلام وإن كان واجبا دينيا وضرورة ثقافية، فقد بات مطلبا واقعيا تفرضه مسؤولية تبليغ حقائق الإسلام وإبراز صورته الصحيحة المشرقة للعالم أجمع.

وتأسيسا على هذا فإن مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام بفاس، قد عمل - ومنذ تأسيسه في عام 2007م - على رصد مختلف الشبهات والافتراءات، والرد على الإساءات التي تمس الإسلام ومقدساته وشخص الرسول عليه الصلاة والسلام في الغرب، من خلال تصريحات وبيانات وكتابات ومشاركات فعالة في المؤتمرات الوطنية والدولية.

واليوم ووعيا منا بأهمية الموضوع وخطورة الظاهرة فقد سعينا إلى أخذ المبادرة من أجل تنظيم هذه الندوة العلمية المباركة التي تدخل في صميم أهداف المركز، وذلك لأن عملية تصحيح صورة الإسلام في الغرب لا تتم إلا برصد كل الظواهر المرضية، والعمل الجاد من أجل تبديد كل الشبهات والمغالطات، والصور النمطية التي علقت بأذهان الغربيين، والتي باتت تشكل مادة أساسية لتشويه صورة الإسلام، والتخويف منه.

أصحاب الفضيلة والسعادة، الحضور الكرام،

ونحن نعقد هذه الندوة العلمية الدولية في هذا الموضوع، وفي هذه الظروف، فإننا نسعى إلى رصد ظاهرة الإسلاموفوبيا والبحث عن سبل التعامل معها بالعلم والحكمة، من خلال عروض قيمة - موجودة بين أيدي اللجنة المنظمة - والتي ستعرض تباعا كما هو وارد في البرنامج الموجود بين أيديكم، حيث يشارك من خلالها ثلة من العلماء والمفكرين والباحثين والمهتمين، من داخل المغرب وخارجه، سيحاولون كشف الغطاء عن الظاهرة وجذورها التاريخية وأسسها المعرفية، ورصد واقعها في دول مختلفة، وتسليط الضوء على صورة الإسلام في المتخيل الغربي عموما، وفي وسائل الإعلام خصوصا، كما سيبحث المتدخلون سبل التعامل مع الظاهرة والدور المطلوب في التخفيف منها، وضرورة تفعيل دور مشترك للعلماء والإعلاميين والمفكرين والباحثين والدعاة والجاليات المسلمة من أجل فهم صحيح للظاهرة وتصحيح شمولي لصورة الإسلام في الغرب.

ولابد من الإشارة بهذا الخصوص أننا ومنذ الإعلان عن هذه الندوة تلقينا عددا مهما من طلبات المشاركة لم نتمكن من الاستجابة لجميعها، لذلك نقدم اعتذارنا وأسفنا للذين لم نستطع تلبية طلباتهم.

السادة الأفاضل، الضيوف الكرام.

باسمي وباسم زملائي في مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام بفاس أتوجه بخالص الشكر والامتنان وعظيم التقدير والعرفان إلى جميع المشاركين والداعمين والإعلاميين والحاضرين، ونرحب بالجميع معنا من أجل إنجاح هذه التظاهرة العلمية المباركة بإذن الله، والتي نتوخى من خلالها التأسيس لمناقشات علمية بناءة ورصينة في إطار الحوار الهادئ البناء والكلمة السواء، والعمل على تفعيل النتائج والتوصيات المتمخضة عنها.

والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحب ويرضى.

﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر وآولئك هم المفلحون** ﴾ صدق الله العظيم.

والسلام عليكم.

الفهرس

تقديم : 5

الجلسة العلمية الأولى

ظاهرة الإسلاموفوبيا : صناعة مشتركة بين الغرب والمسلمين

الدكتور سعيد شبار 7

لماذا يخاف الغرب من الإسلام؟

الدكتور عبد الحق حمِّيش 13

الأسس المعرفية لظاهرة الإسلاموفوبيا

الدكتور عبد الواحد جهداني 43

الاسلاموفوبيا العالمة : قراءة في المفهوم والمسار

الدكتور إدريس مقبول 65

الجلسة العلمية الثانية

إساءة فهم الإسلام في اليابان

الأستاذ أمين توكوماسو 85

الإسلاموفوبيا وآثارها السلبية على وضعية المهاجرين المسلمين في فرنسا

الدكتور سعيد المغناوي 93

دور الجاليات المسلمة بالغرب في التخفيف من ظاهرة الإسلاموفوبيا

الأستاذ محمد المهدي 105

الجلسة العلمية الثالثة

صورة الإسلام في المتخيل الغربي ـ قراءة تحليلية نقدية ـ

الدكتور الحسن حمدوشي 129

الإسلام المتخيل في خطابات الإسلاموفوبيا في بعض المكونات والآثار

الدكتور عبد العزيز انميرات 143

سيطرة المعرفة الوسطوية على الفكر الكنسي المعاصر وأثرها في تكريس الصورة السلبية عن الإسلام

الدكتور يوسف الكلام 159

الأساطير المؤسسة لإيديولوجية الإسلاموفوبيا وأثرها في تشويه صورة الإسلام بالغرب

الأستاذ عزيز البطيوي 177

الأساطير المؤسسة لعقدة الخوف المرضي الغربي من الإسلام والمسلمين

الدكتور محمد عبد الواحد العسري 195

التوجهات الغربية حول تنميط الإسلام كدين إرهاب : قراءة تحليلية نقدية

الدكتور عبد القادر لشقر 225

الجلسة العلمية الرابعة

صورة الإسلام في الإعلام الغربي

الدكتور محمد بن علي الهرفي 245

الإسلام والإعلام الغربي وتحديات ما بعد أحداث 11 شتنبر 2001

الدكتور محمد بشاري 259

صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي
الأستاذ مصطفى الطالب 269

سياسة التخويف من الإسلام في الإعلام الغربي
الدكتورة ناجية أقجوج 287

بواعث الغرب في التخويف من النظريات السياسية الإسلامية
الدكتور عبد المجيد بوكير 295

عداء الغرب للإسلام : الأسباب وسبل العلاج
الدكتور مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي 327

الصورة النمطية للثقافة الإسلامية في الأبحاث الغربية
الدكتور عبد الناصر السباعي 361

الغرب وسياسة التخويف من الإسلام : قضايا المرأة نموذجا
الدكتور عبد القادر بوعصيبة 371

وسائل الإعلام الغربية ومعاداة الإسلام
الأستاذ محمد مسعد ياقوت 391

الجلسة العلمية الخامسة

تصويب بعض المفاهيم الخاطئة عن الإسلام في الغرب
الدكتور عبد الله محمد أحمد حريري 433

عقدة الخوف من الإسلام : دواعيها وسبل التخلص منها
الدكتور الحسن بوقسيمي 455

تصحيح صورة الإسلام : وسائل الاتصال الحديثة والاستثمار الأفضل
الدكتور محمد زهير 463

كلمات الجلسة الافتتاحية

كلمة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 471

كلمة مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام / فاس

الدكتور حسن عزوزي 477

كلمة مجلس مدينة فاس

الدكتور علال العمراوي 483

كلمة رئيس جامعة سيدي محمد بن عبد الله 487

كلمة مؤسسة روح فاس 491

كلمة المديرية الجهوية للثقافة بجهة فاس بولمان 493

كلمة اللجنة المنظمة 495

الفهرس 499